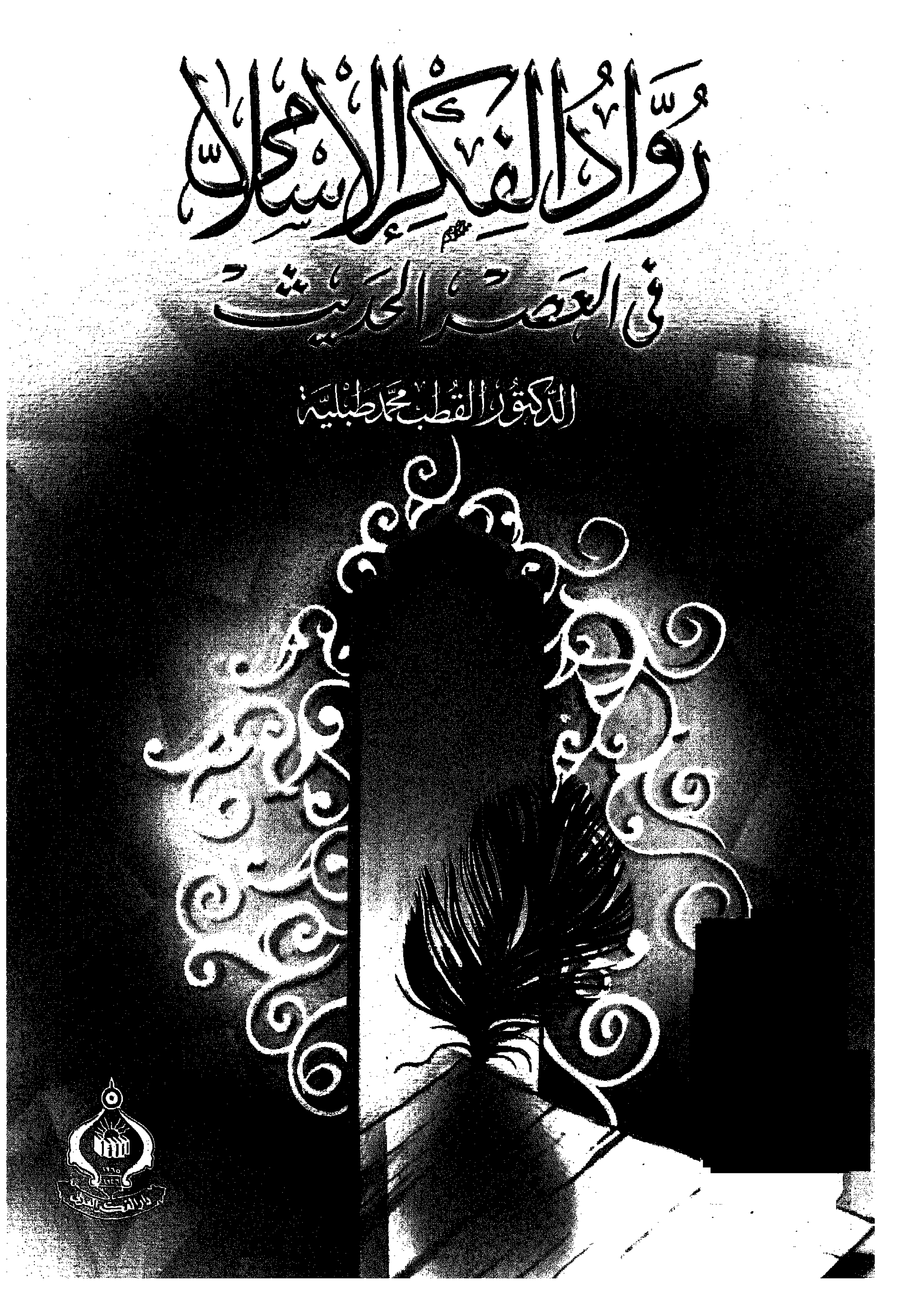

روّاد الفكر الإسلامي
في العصر الحديث
الدكتور القطب محمد طبلية



دكتور

القطب محمد القطب طبلية

أستاذ ورئيس قسمي القانون العام والسياسة الشرعية

بجامعة أم درمان الإسلامية (سابقا)

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الأولي

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

ت ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس. ٢٧٥٢٧٣٥

٩٢١,١ القطب محمد القطب طبلية.

ق ط ر و رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث/ القطب محمد القطب طبلية ــ القاهرة: دارالفكر العربى، ٢٠٠٠م.

٥٣٦ص؛ ٢٤سم.

يشتمل على إرجاعات بيليوجرافية

تدمك: ٦ ـ ١٢٢٦ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ - الفلاسفة المسلمون. أ- العنوان.

تصميم وإخراج فنى

أحمد محمد هاشم نجم



أميرة للطباعة

٥ شارع محمود الخضرى عابدين

ت : ٣٩١٥٨١٧ محمول : ٠١٠١٤٥٦٠٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاح

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ... ﴿٥٩﴾ ﴾

[النمل]

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل].

هذا، وقد بشر نبينا محمد ﷺ بأن الله تعالى يبعث فى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجَدد لها أمر دينها، ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للأمم كلها.

(وانظر البند : ٥)

الإهداء

إلى أحب الأحباب أحفادى الأعزاء : وإلى أولادهم[1] وأحفادهم....

أهدى هذا الكتاب

داعيا الله أن يكون لهم فى هؤلاء الرواد قدوة وأسوة، ودروس مفيدة وحوافز إلى طلب المعالى والفضائل ومكارم الأخلاق.

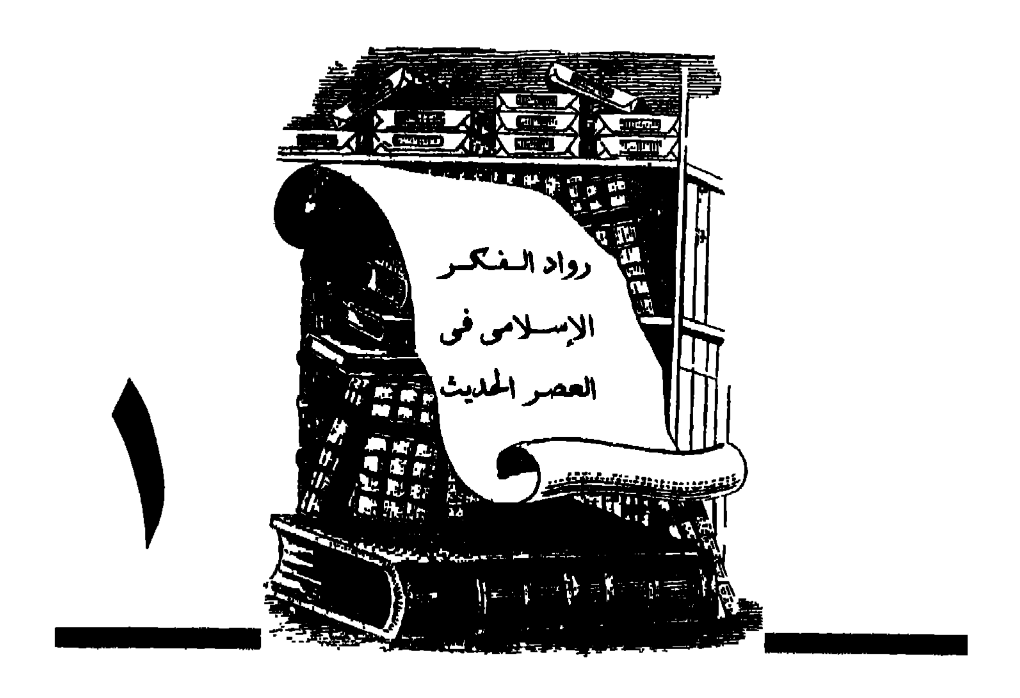
المعادى : غرة محرم سنة ١٤٢٠ هـ - ١٧/٤/١٩٩٩م

الجد

القطب محمد القطب طبلية

---

(١) رجاء من كاتب هذه السطور، وأمل فى أحفاده وأولادهم أن يهتموا بتراثه. وصادق دعواتى إلى الله بالخير - كل الخير - لهم إلى ماشاء الله.



جمال الدين الأفغانى[1]

موقظ الشرق وحكيم الإسلام

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)

(١) عن الأعلام للزركلى - مجلد ٦ ص ١٦٨ وما بعدها.

بنـــد ١ :

محمد بن صفدر[1] الحسينى، جمال الدين، فيلسوف الإسلام فى عصره وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة. ولد فى أسعد آباد (بأفغانستان) ونشأ بكابل، وتلقى العلوم العقلية والنقلية، وبرع فى الرياضيات. سافر إلى الهند وحج عام (١٢٧٣ هـ) وعاد إلى وطنه، فأقام بكابل، وانتظم فى سلك رجال الحكومة فى عهد «دوست محمد خان» ثم رحل مارًّا بالهند ومصر إلى الآستانة (١٢٨٥هـ) فجُعِلَ فيها من أعضاء مجلس المعارف، ونفى منها (١٢٨٨ هـ) فقصد مصر فنفخ فيها روح النهضة الإصلاحية فى الدين والسياسة، وتتلمذ له نابغة مصر الشيخ محمد عبده وكثيرون. وأصدر أديب إسحاق، وهو من مريديه «جريدة مصر» فكان جمال الدين يكتب فيها بتوقيع «مُظهر بن وضاح»، أما منشوراته بعد ذلك فكان توقيعه على بعضها «السيد الحسينى» أو «السيد»، ونفته الحكومة المصرية سنة (١٢٩٦هـ) فرحل إلى حيدر آباد، ثم إلى باريس، وأنشأ فيها مع الشيخ محمد عبده جريدة «العروة الوثقى» ورحل رحلات طويلة، فأقام في العاصمة الروسية «بطرسبرج» كما كانت تسمى، أربع سنوات، ومكث قليلا فى ميونيخ (بألمانيا) حيث التقى بشاه إيران «ناصر الدين» ودعاه هذا إلى بلاده فسافر إلى إيران، ثم ضيِّق عليه، فاعتكف فى أحد المساجد سبعة أشهر كان فى خلالها يكتب إلى الصحف مبينا مساوئ الشاه، محرضا على خلعه، وخرج إلى أوربا ونزل بلندن، فدعاه «السلطان عبد الحميد» إلى الآستانة فذهب وقابله، وطلب منه السلطان أن يكف عن التعرض للشاه، فأطاع. وعلم السلطان بعد ذلك أنه قابل «عباس حلمى» الخديوى، فعاتبه قائلا: «أتريد أن تجعلها عباسية». ومرض بعد هذا بالسرطان فى فكه. ويقال: دُس له السم، وتوفى بالآستانة، ونقل رفاته إلى بلاد الأفغان سنة ١٣٦٣ هـ.

---

(١) فارسية من «صفا» و«در» ومعناها مخترق الصفوف. وقد تُكتب «صفد».

وكان عـارفا باللغات العربيـة والأفغانيـة والفارسية والسنسـكريتية والتركـية وتعلم الفرنسية والإنجليزية والروسية. وإذا تكلم بالـعربية فلغته الفصحى. واسع الاطلاع على العلوم القديمة والحديثة، كريم الأخلاق، كبير العقل. لم يكثر من التصنيف اعتماداً على ماكان يبثه فى نفوس المريدين، وانصرافًا إلى الدعوة بالسر والعلن. له «تاريخ الأفغان - ط» و «رسالة الرد على الدهريين. ط» ترجمها إلى العربية تلمـيذه الشيخ محمد عبده، وجمع محمد باشا المخزومى كثيراً من تراثه فى كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغانى - ط»[1].

الأفغانى - جمال الدين
(١٨٣٨ - ١٨٣٩ هـ = ١٨٩٧م)
(عن الموسوعة العربية الميسرة - ص ١٨٠)

كاتب وخطيب ومصلح دينى واجتماعى وسياسى له خطرات فلسفية - ودعوة إلى تحرر الدول الإسـلامية من الاستـعمار والتدخل الأجنبى وذلك باتحـادها وإقامة حيـاتها السياسية والاجتماعية على نظم دستـورية. أقام الأفغانى دعوته على دعائم مستمدة من فكرته عن الجامعة الإسـلامية التى أخذ يدعو إليها فى مختلـف البلاد الإسلامية، ويبين حقيقـتها لدى كثير من الأمم الغربيـة. اتخذ من بيته بالقاهرة ملتقى لتـلاميذه ومريديه، فاسـتطاع بدروسه فى الدين والفلسـفة والأخلاق والاجـتماع والسـياسـة، وبمقالاته فى الصـحف والمجلات، أن يـثيـر الشـعور الوطنى، ويحـيى الشـعـور الدينى فى قلوب المسلمين. ومن آثاره المكتـوبة رسـالته فى «الرد عـلى الدهريين» وفيـهـا نَقْضَ الفلسفـة المادية. وصحيـفة «العروة الوثقى» التى كان يصدرها مع تلـميذه وصديقه الإمام مـحمد عبـده. ومقالاته فى مـجلة «ضياء الخـافقين» التى اشـترك فى تحريرها، وكـانت تصدر بالعربية والإنجليزية وكتابه «تتمة البيان» وهو مختصر فى تاريخ الأفغان.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ١: ٢٧ - ١٠٢ وتاريخ الصحافة العربية ٢ - ٢٩٣ - ٢٩٩ وجولد تسيهر فى دائرة المعارف الإسلامية ٧ - ٩٥ - ١ ١ والأميـر شكيب أرسلان فى حاضر العالم الإسلامى طبعة الحلبى. ٢ - ٢٨٩ - ٣ ٣ و «زعماء الإصلاح ٥٩ - ١٢٠» . أضيف. لم يذكر الزركلى سوى ماتقدم . هذا، وللمرحـوم الأستاذ أحمد أمين كتاب قيم بهـذا العنوان، وكتب فيه - ضمن ماكتب - عن جمال الدين الأفغانى»



جمال الدين الأفغاني[1]

١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ

١٨٣٨ - ١٨٩٧ م

جمال الدين بن صفدر[2] بن علي بن محمد بن محمد الحسيني، حكيم، واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية. وكان يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية، ويلم باللغتين الإنكليزية والروسية. ولد في أسد آباد من أعمال همذان[3] (إيران) في شعبان. وسافر إلى الهند. وتلقى العلوم العقلية والنقلية ورحل إلى الحجاز ثم عاد فأقام بكابل، وانتظم في سلك رجال الحكومة. ثم رحل إلى القسطنطينية، فنُصِّب عضوا في مجلس المعارف، ثم قصد مصر فنفخ فيها روح نهضة إصلاحية في الدين والسياسة. ونفته الحكومة المصرية فقصد باريس، وأنشأ فيها مع رفيقه محمد عبده المصري جريدة العروة الوثقى، ورحل رحلات طويلة، ثم دُعِيَ إلى القسطنطينية وتوفي بها في ٩ آذار، نقل رفاته سنة ١٣٦٤ فدفن في بلده (أفغانستان).

من آثاره : تاريخ الأفغان

أقول: مما تتميز به ترجمة عمر رضا كحالة للأفغاني أنه أورد أسماء كثيرة من الكُتَّاب الذين كتبوا عنه كتبًا أو مقالات في الصحف والمجلات (ومنهم جولد تسيهر في دائرة المعارف الإسلامية) - إنها مراجع كثيرة جدا تعني - فيما تعني - اهتماما فوق العادة بالأفغاني.

الأفغاني العبقري.. العملاق

بنـــد ٢

فيما نقلته عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة أشرت إلى ماذكره من مراجع كثيرة جدًّا لمن كتبوا عن الأفغاني، وعناوين ماكتبوا عنه. وعلى فرض أنه حاول حصر من كتبوا وعناوين ماكتبوا، فلابد أنه - كبشر - قد فاتته أشياء، كما أن كثيرين قد كتبوا بعد صدور الطبعة التي نقلت عنها من معجمه. وكثيرون من هؤلاء وهؤلاء من عمالقة الفكر، وكبار حملة الأقلام. فماذا عسى أضيف، وأنا محكوم بأشياء، منها أن الكتاب الذي سأصدره بإذن الله يجب أن يكون غير مطوَّل.

(١) عن معجم المؤلفين - لعمر رضا كحالة جـ ٣ - ص ١٥٤ ومابعدها - دار إحياء التراث العربي.

(٢) وفي رواية - صفتر.

(٣) أعلام الشيعة. وفي الإسلام والتجديد: ولد في أسعد آباد بالقرب من كابل بأفغانستان (أقول: وهذا - كما سنرى - هو الصحيح)



الحق أن شخصية الأفغانى شخصية متميزة، وأن جوانب تميزه متعددة. كما أن سيرته، أى قصة حياته وإنجازاته مُبهرة. لقد جاهد وناضل وحارب فى أكثر من جبهة، وهذا ما فرضته عليه ظروف العصر الذى عاشه، نظر فرأى ديار الإسلام، والشرق عامة مغلوبة على أمرها. إنها تركة مثقلة بالجهل والتخلف، يتربص بها أعداؤها. هذه هى الدول الاستعمارية وقد أغراها ضعفها بالطمع فيها، باحتلالها وإذلالها، واستنزاف مواردها. أما العدو الآخر فهو حكامها، الذين أبوا أن يحكموا شعوبها إلا بالاستبداد والقهر. لقد عاشت هذه الشعوب تحت القهر قرونا وقرونا حتى نسوا أن لهم قِبَلَ الحكام حقوقا، وإنما التزامات والتزامات، نحو الحكام، من الرأس إلى الملتزم، حتى خفير القرية !! لقد صاروا (أقنانا أو شبه أقنان)!![1]

أعود وأقول : ماذا عسى أضيف؟!

(قال عنترة العبسى وهو من شعراء العرب قبل الإسلام) :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وفي المعجم الوسيط (مادة - ردم) : المتردم (معناه هنا) : مستصلح. وقال ابن سيده: أى من كلام يلصق بعضه ببعض ويُلَبَّق. وفى ذات المرجع : (مادة : لَبِق - أى ظرف فهو لبق. ولبْق = أحكم كل عمل. ولَبّق الثريد وغيره = خَلَطَهُ ولينه. وفى الحديث الشريف «فصنع ثريدًا ثم لبّقها» .

أقول: والمعنى العام والشائع لكلمة «المتردَّم» (فى البيت السابق الذكر): أن الشعراء لم يتركوا شيئًا ليجيء من بعدهم فلان أو فلان ليأتى فيه بجديد، أو يقيم منه ما اعوج أو يصلح منه مافسد؟!

والبيت مردود عليه، فما زال الشعراء يقولون ويبدعون، ومايقال فى الشعراء يقال فى غيرهم من أهل الفن والعلم.

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

أما عن قولى ماذا أضيف ؟ فأساسه، والمتبادر لى: أن الأفغانى عبقرى عملاق لن أبلغ مداه: إنما هى انطباعات ونعقيبات وتعليقات متواضعة.

(١) وانظر كتابى : «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة - فصل بعنوان «عن المسلمين حين ينسون مبادئ الإسلام» (ص ١٦١ ومابعدها - بند ١٦٦ ومابعده - طبعة ثانية) .



بنـــــد ٣

قرأت كتاب «الجامعة الإسلامية - والفكرة القومية - نموذج مصطفى كامل - للدكتور محمد عمارة - دار الشروق - الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م).

إنى - ومنذ فترة، ليست قصيرة، كتبت وأكتب فى «النظم الإسلامية، عامة، وحقوق الإنسان فى الإسلام، خاصة، مع المقارنة بالنظم المعاصرة». كما أنى، وبفضل الله، أعدُّ سلسلة فى «رُواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث» وقد أخرجت من ذلك حلْقة وهى عن المرحوم «محمد فريد وجدى»[1] - والبقية - بعون الله، ومشيئته - تأتى. وموضوع «الجامعة الإسلامية» بل، و«الدولة الإسلامية» بل و«الولايات المتحدة الإسلامية» - هى الهدف والأمل. وكثيرون من المفكرين ومنهم الذين دخلوا فى الإسلام من كبار المفكرين الغربيين - يعملون ويجاهدون من أجل نفس الهدف. وسيفلس الفكر الغربى، والنظام الغربى، كما أفلس الفكْر الشيوعى، وانهارت النظم والدول القائمة عليه فى أوربا، إنها - كلها - تخلى المكان للنظام الإسلامى، الربانى، الذى سيسود. وليست هذه أول مرة أقول فيها: إن هذه «السيادة» هى «المهدى» الذى ينتظره الجميع. وإذا كان «الإسلام» عند من يعرفه هو «مَكارم الأخلاق» فـمن هذا الذى يرفض «نظاما حياتيا كاملا، يقوم على مكارم الأخلاق؟!

يقول الدكتور عمارة فى كتابه القيم سالف الذكر ص ١٢٨: «وإذا كان لأحد أن ينتقد غياب الموقف النقدى عن هذه الصفحات التى قدمناها عن مصطفى كامل والجامعة الإسلامية فإننا نود أن نقول: إنه ليس فى فكر مصطفى كامل إزاء هذه القضية شىء يعتذر عنه محبوه، أو ينتقده عليه دارسوه، فلقد كان أكثر الأصوات التى ارتفعت بشعار الجامعة الإسلامية تقدما. وإذا كان عبد الرحمن الكواكبى قد أرسى أسس القومية العربية والأمة العربية، ورأى فى الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبى والفكرى والسياسى التى تليها، فإن مصطفى كامل قد اتخذ من «الوطنية المصرية» قاعدة انطلاقه ثم رأى فى الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبى والفكرى والسياسى التى تلى دائرة الأمة المصرية.... وهو فكر لا نقول انه كان صالحًا لعصره فقط، بل وصالح كذلك للعصر الذى نعش فيه؛ لأنه يلمس - بعمق - تلك الحقيقة التاريخية التى تحتم الربط بين مصر

(١) وحلقة بعنوان «رفاعة رافع الطهطاوى» تطبعها وتنشرها بإذن الله دار الفكر العربى.

وبين المحيط الذى يكتنفـها. فهذا الربط حيـاة لمصر، كما هو ضـرورة حياة لبلدان ذلك المحيط... سيان فى ذلك «الدائرة العربية الإسلاميـة» والدائرة الإسلامية غير العربية فى هذا المحيط.

ويشير الدكتـور عمارة إلى أنه كتب ماكتب عن مصطـفى كامل - كذلك من موقع الحب والإعزاز والفخر به. إنه الزعيم الشاب الذى أحب مصر، فحبه والاعتزاز به جزء لايتجزأ من حبنـا لهذا الوطن الذى نعيش فيه، والذى أنقذه من عـثرته، وبث فيه روح النضال بعد سنوات من ظلام اليأس الذى أطبق عليه بعد الاحتلال. وأنقل عنه (ص ٧٤ ومابعدهـا) دعوة مصطفى كامل الشـعوب الإسلامية إلى الاعـتماد على نفســها فى نيل الاستـقلال، والمحـافظة عليه. ويوجـه الكلام - بطريق ضمنى إلى الدولة العـثمـانية، ويقول: إن المسلمين يخدعون أنفـسهم كثيراً إذا اعتقدوا أن سلامـتهم فى الاعتماد على دولة من الدول إنما سلامـتهم فى أن يعملوا بأنفـسهم لصيـانة بلادهم وحمايتـها بالعلم والعدل والنظام والدستور. إن البلاء أن يكون الإسلام سـلاحًا بيد الجاهل، الغبى يقتل باسمه البرىء من المسـلمين وغير المسلمين. إن الإسلام والجهل عدوان لايتـفقان فلترفع الأمم الإسلامية التى لاتزال قـادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالهـا رايته، ولتعمل عمل اليابان، فتعتمد على الجد وحده. وتطلب الحـياة والسؤدد من جهودها ومساعيها، لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبـية... لو نظم المسلمون بلادهم، وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مـدنية وعمـران وقوة ورفعـة لما اعتدى عليـه أحد، ولخطب ودهم كل إنسان (وفى الهـامش إحالة على كـتاب «مصطـفى كامل» للمرحـوم عبـد الرحمن بك الرافعى).

وتحت عنوان «الجامعة الإسلامية»[1] - صدّر الدكتور عمارة الموضوع بهذه العبارات لمصطفى كامل «لقـد راجت الأباطيل والأكاذيب والخزعبلات بين الـعامة باسم الدين.. ولاسبيل لإبادة جـيش الباطل الذى أُلف ونُظّم باسم الدين إلا بالدين نفسـه. إن حركة الجامعـة الإسلامية، بمعـنى الحرب الدينية لاوجود لهـا بالمرة.. ولايوجد مسلم مسـتنير يدعو إلى تأليف عـصبة إسلامـية ضد المسيحـية... لقد أدرك المسلمون من زمـن بعيد اسـتحـالة العيش فى مـعـزل عن العالم... وأن مـيل المسلم لأبناء دينه أمـر طبيـعى وشرعى، يزكيه أن لتأخـر الشعوب الإسلامية أسبابا واحـدة. وبالتعليم والتنوير وإحياء الأفكار ونشر المعارف وإرشاد الأمة إلى الحقيقة الدينية يتقدم المسلمون».

(١) د. عمارة، نفسه، ص ٤٧ ومابعدها.

كان مصطفى كامل من أنصار «الجامعة الإسلامية» والدعوة إليها. ولقد كان هذ الشعار أبرز الشعارات التى عرفها الشرق كله فى القرن التاسع عشر، وعلى الأخص فى النصف الثانى منه. وتحت هذا الشعار تعددت المنطلقات والتوجهات التى كان بينها من عوامل الاختلاف أكثر مما كان بينها من أوجه الاتفاق: كانت هناك الحركة الوهابية[1] التى كانت تهدف إلى تطهير الإسلام والمسلمين من طوفان البدع والخرافات التى كانت جزءا أساسيا من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها عن عقائد الإسلام. وكانت هناك أيضا - الحركة السنوسية[2] ذات النزعة الصوفية، وكان هدفها إعداد الرجال للدفاع عن ديار الإسلام ضد الأطماع الغربية. وتحت نفس الشعار (الجامعة الإسلامية) كان المسلمون الهنود، بمختلف شيعهم، ومنهم «الإسماعيلية» (الباطنية السرية) وأشهر زعمائها أغاخان (المدفون رفاته فى أسوان).

«ثم ، كان هناك التيار الذى كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والذى تزعمه فيلسوف الشرق وموقظه جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) والذى زامله فيه الأستاذ الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥). ولقد تميّز هذا التيار، بهذه الخصائص :

١ - الإصلاح الدينى من منطلق العقلانية الإسلامية، إيمانا بأن الشرق لن ينتصر فى صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل، وهو السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه فى هذا الصراع

٢ - تجديد الصلات الحضارية مع الغرب، واقتباس المناسب منها، كما صنع العرب فى العصر العباسى، حتى يتمكن الشرق من العودة إلى دائرة التأثير والعطاء الحضارى.

٣ - المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية، وتنمية جوانبها الإيجابية، والعمل على تجديد شبابها، لامن منطلق الإيمان بها كخلافة إسلامية، وإمارة للمؤمنين وإنما من منطلق الضرورات التى يحتمها التصدى للعدو الرئيسى، وهو الاستعمار الأوربى

---

(١) ومن هنا كانت الوهابية - سياسيا حركة مناهضة للعثمانية. ومن هنا - أيضا - كانت الحملة العسكرية التى أرسلها محمد على بأمر من العثمانية - للقضاء على الوهابية فى موطنها (شبه الجزيرة العربية)

(٢) ص ٥٢، وأقول: شاء الله أن أعمل عامين بالجامعة الإسلامية بالبيضاء حيث «الزاوية الأولى والأساسية للحركة السنوسية» التى كان طرد الاستعمار الإيطالى هو هدفها، وكان الجهاد هو أداتها. هناك كانت «البئر» وكان الزرع، وكانت الماشية، وكان إعداد الرجال (لقد هيأوا أنفسهم للاستغناء عن الغير) وكان البطل الأسطورى - عمر المختار - الذى دوخ الاستعمار هو أبرز رموزها!!

الزاحف على بلاد الإسلام. فهو يحافظ عليها سياسيا، ويحاول تنمية قواها السياسية، ويهاجم فكرتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها. ومن أجل ذلك لم يناصر هذا التيار - فى كثير من الأحيان - حركات الاستقلال القومى العربى عن الإمبراطورية العثمانية، لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوروبى، لكى يكون هو الفائز الأول، وربما الوحيد من وراء الصراع القومى ضد العثمانيين... ويعبر عن هذه الحقيقة الإمام محمد عبده فى أهلية عرب شبه الجزيرة العربية فى الاستقلال عن تركيا، إذ يقول: إن العرب أهل لذلك، ولكن الترك لايمكنونهم منه وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ماليس عندهم. فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما. وهذان الشعبان (العرب والأتراك) هما أقوى شعوب الإسلام، فتكون العاقبة هى إضعاف الإسلام، وقطع الطريق على حياته.

٤ - وانطلاقا من هذا التأييد السياسى للسلطنة العثمانية، اجتهد هذا التيار كى يجعل من «علاقة الدين والمعتقد» بديلا للعلاقات القومية - (الجنسية) - التى كانت تنمو يومئذ فى عدد غير قليل من الأقطار المحكومة بسلطة آل عثمان. ولقد عبرت مجلة العروة الوثقى عن هذه الخاصية التى كانت من أبرز خصائص هذا التيار، فكتبت أنه «لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم، وأن المسلمين لايعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم[1] واعتقادهم». وأن المسلمين - تاريخيا - «لايعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين. فلهذا ترى المغربى لاينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لرئاسة الأفغانى، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض. وأن المسلم - فى تبدل حكوماته - لايأنف ولايستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها».

ولقد واصل الإمام محمد عبده - بعد «العروة الوثقى» التبشير بنفس الأفكار، ففى إحدى فتاواه سنة ١٣٢٢ هـ (قبل وفاته بعام واحد) - يقول: «إن الجنسية ليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا فى خاصتهم، ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ماكان يسمى عند العرب: عصبية. جاء الإسلام وألغى تلك العصبية، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة. لاجنسية فى الإسلام».

---

(١) وانظر البنود الأخيرة من هذا الكتاب، التى نقلت فيها عن «العروة الوثقى» مقالين أولهما عن «جنسية المسلمين فى دينهم»، والثانى عن «الوحدة الإسلامية».

٥ - ولكن هذا المفهوم المناهض للتمايز القومى، وحركات التبلور المرتكزة على أسس قومية ينكر الاستقلال الذاتى على الشعوب الإسلامية المؤهلة لذلك عن سلطه العثمانيين. يشهد لذلك أن هذا التيار هو الذى رفع شعار «مصر للمصريين»[1] قبيل الثورة العرابية من خلال الحزب الوطنى السرى الذى قاده الأفغانى فى مصر - وأن هذا التيار قد شارك من موقع الاعتدال - فى الثورة العرابية ذات الطابع القومى المصرى. فهو لم يكن يدعو إلى «وحدة الدولة» بين كل المسلمين لاعتبارات عملية كثيرة، جعلته يطلب «وحدة السياسة» و«التضامن بين المسلمين» بدلا من «وحدة الدولة». والأفغانى يعبر عن ذلك فى العروة الوثقى فيقول: أنا لاأطلب أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدًا، فإن هذا ، ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه»[2] . كما يعبر عنها الإمام محمد عبده فيقول فى رده على جبرييل هانوتو «.. يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد، ويعلقون آمالهم بهمته، وكثير منهم يدعون إلى عقد الولاء له. وهذا أمر لاينبغى أن يدهش أحدًا، فإن هذه الدولة هى أكبر دول الإسلام. وسلطانها أفخم سلاطينهم، ومنه يُرتجَى إنقاذ مابين يديه من المسلمين مما حل بهم، وهو أقدر الناس على إصلاح شئونهم، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية.

٦ - كما يمتاز هذا التيار من تيارات الجامعة الإسلامية بدعوته الدائمة إلى توحيد العناصر الوطنية للأقطار الإسلامية بصرف النظر عن العقائد والأديان، فتيار الجامعة الإسلامية - فى هذا الحقل - هو عندهم تيار الجامعة الشرقية العامل فى سبيل يقظة الشرق ونهضته، وما الحديث عن المسلمين إلا بسبب أن الأغلبية مسلمة. والكثير من الأمراض إنما مصدرها ما أصاب عقائد المسلمين الدينية من تخلف وجمود مما أبعدها عن جوهرها النقى الأصيل، فالأفغانى لايميز بين الناس على أساس من الدين والمعتقد، بل يقطع بأنك لاترى فى الأديان الثلاثة مايخالف نفع المجموع البشرى بل بالعكس تحضه على عمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه، وتحظر عليه عمل الشر مع أىّ كان. أما

(١) فى عهد إسماعيل بالذات عظم التدخل الأجنبى فى شئون مصر - وصارت المناصب العليا منها وقفا على من عدا المصريين فشعار «مصر للمصريين» كان ردا على ماصارت الحال إليه فعلا، ولايمكن أن يكون المقصود غلق أبواب مصر فى وجه العرب والمسلمين، وتوجهات «العروة الوثقى» كانت ضد هذا تماما لكن لطفى السيد انحرف به (انظر كتابى محمد فريد وجدى - بند ٢٧)

(٢) انظر ما أشرت إليه فى الهامش السابق.

ختلاف أهل الأديان فإنه ليس من تعاليمـها، ولا أثر له فى كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء الأديان الذين يتجرون بالدين، ويشترون[1] بآياته ثمنا قليلا ساء مايفعلون.

والإمام محمد عبده الذى كوّن فى منفاه ببيروت جمعية لتوحيد الأديان؛ لأنه «إذا تنـاثرت الطوائف تشـاغلت كل منهـا بما يحط مـن شـأن الأخـرى. فكانت كل مسـاعيهم ضررا عـلى أوطـانهم»[2].

٧ - هذا عن الوحدة الوطنية فى الداخل... أما عن الخـارج فإن هذا التيار لم ير فى الجامعة الإسلامية حركة يواجه فيها إسلام الشرق مسيحية الغرب. فهى ليست عودة إلى الصراعات الـدينية والحروب المقدسة، وإنما هـى تيار سياسى وحضـارى يبغى يقظة الشرق كى يدفع عن نفسه التحديات الداخلية والخارجية على السواء. وعن هذه القسمة من قسـمات ذلك التيـار يقول الأستـاذ الإمام: إنه لم يخطر ببال أحـد ممن يدعون إلى الرجعة إلى الدين، سوّاء فى مصر أو غيـرها أن يثير فتنة على الأوروبيين أو غيرهـم من الأمم المجاورة للـمسلمين. وبعـضهم يظن أنه إذا انتـبه المسلمـون... لاستغنـوا عمن أدخلوه فى أعـمالهم من غـيـرهم. وهو سوء ظن فـإن أهل الوطن الواحـد لايستـغنى بعضـهم عن بعض.. نعم... يعـرض فى طريق الدعوة إلى الله من هـذا الوجه، أن يلتمس مسلم بمصر مـعونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانسـتان أو بغير هذه الأقطار؛ لأن مـرض الجمـيع واحد، وهو البـدعة فى الدين، فـإذا نجح الدواء فى موضع كان السليم أسوة لمريض فى موضع آخر»[3].

فهو إذاً تيـار سياسى وفكرى ناضل تحت شعـار الجامعة الإسلامـية من أجل يقظة الشرق كله عـلى أساس من وحدة العـقيدة الإسـلاميـة كبديل للتـقسيـمات والتـجزئة القومية.. وعلى أساس من التأييد والمساندة للسلطنة العثمانية التى رام تجديدها وتقويتها فى ذلك الوقت كراية يحتشد الشرق من خلفها ضد الزحف الاستعمارى الأوروبى... وعلى أساس من تجـديد الفكر الدينى وتطويره بالعقـل والعقلانيـة.. وعلى أساس من

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

(٢) نفسه ص ٥٧.

(٣) نفسه، ص ٥٨. هذا، ومما نقلته فى كتابى «مع الله.. فى كتابه وسنة رسولـه» - حديثا جرى بين الرجلين العظيمين الفاضـلين اللذين يعتز الإسلام بدخولهمـا فيه (وهما: محمـد أسد، ومراد هوفمان). وكان الأول قد تنبأ بدخـول أوربا فى الإسلام فى وقت قريب، وهو مالم يحدث حتى اليوم. وقد ردا السبب إلى أنه لم يظهر حتى الآن بين المسلمين الشعب النموذج الذى يجذب غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام انظر: «مع الله..» نفسه ص ١٦١.

الانفتـاح على الحضارة الأوروبية والاسـتفادة من عطائها الملائم والضـروري. . واستنادًا إلى وحدة وطنيـة تجمع أبناء الأديان الثلاثة، وخـاصة المسلمين والمسيـحيين. . تلك هي ملامح ذلك التيار الذي كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية في ذلك الحين.

ثم هناك التيار الذي مثله المفكر العربي الإسلامي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢) - وهو الذي رام تجـديد حيـاة العـالم الإسـلامي، ولكن تحت قيـادة العنصـر العربي. فكانت الجامعة الإسلامية عنده تيارا مناهضا للأتراك العثمانيين.

ثم هناك أخيـرا التيار العـثماني فـي الجامعة الإسـلامية، وهـو الذي قاده السلطان عبد الحمـيد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨م) نحـوًا من ثلاثين عامـا، وكانت فكرة الجامـعة الإسلامية لديه تعني وحدة دولة الإمبراطورية العثـمانية، وإحكام قبضتها على كل أجزاء العالم الإسلامي، واستبعاد كل العـوامل والتيارات التي تعرقل الوصول إلى هذا الهدف الأصيل.

أقول: إن الملاحظات كثيرة، وبعضها مما يثير الشجون. إن مصطفى كمال صنع شرًا كثـيرا: إنه لـم يلغ الخلافـة فقط، ولكنه عـادى وطارد كل ماهو إسـلامي في تركـيا، كالمساجد والشعائر، و«الرموز» الإسلامية عامة، سواء في الأشخاص أو الأشياء. وهناك شك في أنه مسلم. . ، وإنما هو من يهود الدونمـة الذين يتظاهرون بالإسلام ويكيدون له سرًا (وانظر كتابي : الإسلام والدولة)(١).

نعم، إن الفساد والضعف كـانا قد نخرا عظام السلطنة العثمانية ومـؤسساتها، ولو كان مصطفى كمال مسلما حقـا لأقام مكانها هيئة تمثل كل المسلمين والدول الإسلامية، وتستمر رمزًا لوحدتهم، واتحاد كلمتهـم، وصلابة موقفهم في وجوه أعدائهم. وما أشد ماكانت الحاجة إلي ذلك، وما أشد تلك الحـاجة إلى الآن. وماكانت تهدف إليه «العروة الوثقى» (بزعامـة الأفغانـي ومحمـد عبده) هو أقـرب تيارات «الجامـعة الإسلامـية» أو «الجامعة الشـرقية» بخصائصهـا السابق ذكرها - إلى ماقلته، والذي علينا أن نقـيمه من جديد.

---

(١) طبعـة ١٩٨٢ ص ٣٤ ومابعدها، هذا: وفي هذا الأسبـوع (أواخر ديسمبـر سنة ١٩٩٥ م ظهرت نتائج الانتخابات العامـة في تركيا. وحصل فيها حزب الرفاه الإسـلامي على أعلى نسبة بين سائر الأحـزاب. إن ماهدمـه أتاتوك منذ نحـو ثلاثة أرباع القرن يعـيـد بناءه الحزب الإسـلامي. نحن متفائلون.



الجامعة الإسلامية
نحن - الآن - أبعد عنها،
مما كنا فى عهد الأفغانى

بنـــــد ٤

فى عصر الأفغانى كانت هناك خلافة عثمانية مقرها الآستانة، عاصمة تركيا وقتئذ. كانت خلافة ضعيفة، أو «مريضة» (كما كان يسميها الغرب). كانت مهلهلة تتلاعب بها الأهواء، أهواء الأعـداء. إنهم الأوربيون، أى الدول الأقـوى فيهـم، وخاصة بريطـانيا وفرنسا وروسيا القيصرية. وكانت حكومتـها ظالمة، استبدادية. وكانت البلاد العربية فى المشرق والمغرب، ولايات تحت رايتها. وكـان حكام الولايات (من الأتراك طبعًا) يُغَيَّرون بين وقت وآخـر. فكان همّ الوالى جمع المال، وبالقـهر غـالبا. وكـان حكام الولايات راشين وكانـت الحكومة وكـانت البطانة (بطانة الخليفـة فى الآستـانة) من المرتشين. إن سـوس الفسـاد كان ينـخر فى جـسم الدولة، (دولة الخـلافة) وكـانت بعض الولايات (كالجزائر) قد سقطت فى قبضـة فرنسا منذ وقت مبكر (فى أوائل الربع الثانى من القرن الماضى).

ولما اشتـعلت نيران الحـرب العالمية الأولى انحـازت دولة الخلافـة العثمـــانية إلى ألمانيـــا. ولما انهـزمت هذه الأخيرة اقـتسم الإنجليز والفـرنسيون بعض الولايات كـبلاد الشـام. وسقطت الخـــلافة فى أوائل العـشـرينات من هذا القرن (الـعشـرين) على يد مصطفى كمال[1] (أتـــاتورك - أى أبــو الأتراك - فيـما بعد). ويقول الكثـيرون : إنه كان من يهود الدونمة[2]؛ وكان طبيـعيا أن يكون عدوا لكل ماهو إسـلامى، لقد كانت الخلافة - رغم كل شىء - رمزا لوحدة المسلمين. ولو كان مصطفى كمال (مسلما حقا) - لأقام مقام الخلافة العثمانيـة - منظمة إسلامية تمثل وحدة المسلمين وتكون رمزا وسندا لهم كما قلت من قبل. لكنه لم يفعل - فـحقق بذلك أمنية الأمانى لأعداء الإسلام من الصليبيين والصهـيونيين. فنحن الآن أبعد عن «الجامعة الإسـلامية» و «وحدة المسلمين» عـما كنا فى عـهد الأفـغانـى!! وحكام مابعـد الاستـقلال (اسـتـقلال البـلاد العربيـة والإسلامية) لم يصبـحوا أو معظمهم - مستقلين، وإنما تابعين. لقد صـار بعضهم لعبة فى يد الدول الأقوى. وهاهو ذا صدام حسين يحـارب إيران (المسلمة) - وبتحريض من

---

(١) فى أعقاب الحـرب العالمية الأولى احتلت اليـونان - بتأييد من الدول الكبرى بـعضًا من الأراضى التركية وجمـع مصطفى كمال فلول الجيش العثمانى وحـرر الأرض من اليونانيين. لقد حرر دولة ولكنه قتل أمة.

(٢) انظر كتابى «الإسلام والدولة» (ص ٣٤ ومابعدها).



الغرب وبمساندة مالية من بعض البلاد العربية[1] لمدة ثمانى سنوات، ثم يهاجم الكويت بالغدر. وهاهى الأساطيل الأمريكية والأوروبية تجوب مياهنا، وخاصة مياه الخليج بسبب سياساتنا المتناقضة، وبوجود حكام، كل همهم المحافظة على كراسى السلطة !! ورغم سوء الحال الآن، فإننا، وكثيرون غيرنا (ومنهم أوروبيون) (أى من قلاع الكفر) - متفائلون. إن الحكم سيكون للشعوب فى وقت قريب. ومع هذا الحكم للشعوب سيكون الفتح الأكبر.

وأضيف هنا - مع تفاؤل يغمرنى ويسعدنى - إن ماهدمه أتاتورك يقيمه - بإذن الله- حزب الرفاه الإسلامى الذى فاز فى الانتخابات التى ظهرت نتيجتها فى (ديسمبر ١٩٩٥م) بنسبة أعلى من أى نسبة حققتها الأحزاب الأخرى، ومنها الحزب الحاكم[2] .

التجديد والمجددون

بند ٥

كلما أثير موضوع التجديد، والمجددين فى الدين، ثارت فى ذهنى أفكار، أوجزها فيما يلى: من المقرر والمحقق الذى لايساور المسلم فيه أى شك أن القرآن الكريم، وهو كلام الله وأساس الإسلام ومصدره الأول - محفوظ :﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾﴾ [الحجر]؛ ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]؛ ﴿**... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]. هذا عن القرآن (المعجزة الخالدة) والمنزل من عند الله على خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام. وقد بذل الصحابة والخليفة الراشد عثمان بن عفان، فى جمع القرآن، الجهود المشكورة المأثورة، مما يعد إنجازًا يصل إلى حد الإعجاز؛ وماكان ذلك ليكون إلا بتوفيق من الله وتأييد[3] . وينفرد القرآن الكريم من بين سائر الكتب المنزلة على الرسل من الله - بهذا الحفظ المطلق. أما كتب التفسير فهى من صنع البشر، وكل ماكان من صنع البشر - ومع التسليم بحسن النية والاجتهاد - فإنه لايخلو من الأخطاء.

---

(١) كان ذلك - غالبا - بسبب الخوف منه - إنه كان، ومازال يصنع أسلحة الدمار الشامل، لا ليضرب بها العدو المتربص بنا، ولكن ليخيف، أو ليضرب بها جيرانه، ومعظمهم عرب..

(٢) وهذا مما يجب التنويه به، لأنه يعنى أن تركيا قد برئت من داء تزوير الانتخابات، وتزييف إرادة الشعب، الداء الشائع فى كثير من البلاد العربية والإسلامية.

(٣) وانظر فى ذلك كتابى «مع الله.. فى كتابه وسنة رسوله» (ص ١٧ ومابعدها) .

هذا، وللإسلام والقرآن أعداء كانوا ومازالوا حتى اليوم. وهم يكيدون لهما - أى للإسلام والقرآن - بكل الأساليب الخبيثة، والطرق الملتوية المتهمة، وتوجد جهات معروفة، تصدر طبعات لكتابنا المقدس، تحذف منه ماتشاء، وتضيف ماتشاء، مما يخدم أهواءها وأغراضها الشيطانية اللعينة. ومما يعنينا - ونحن بصدد موضوع التجديد - أن نذكر أن تفسير النصوص (القرآنية والنبوية وغيرها) - يتأثر بظروف الزمان والمكان، وظروف صاحب التفسير.

ولايفوتنا أن نشير إلى أن المفسرين اللاحقين كثيرا ماينقلون عن السابقين أقوالهم بما فيها من غث وثمين. وهذا مجال من مجالات التجديد لايتصدى لها، ولتخليصها مما فيها من شطحات وخرافات وخزعبلات إلا العلماء العظام الذين يجود بهم الزمان آنا بعد آن وآن. ومن أمثلتهم فى العصر الحديث شيخنا الأفغانى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

هذا عن القرآن، أما السنة المباركة، فإن المتواتر منها لها قداسة القرآن. والله - سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم] والمقصود هنا هو كل تبليغ أريد به التشريع. أما ماكان من شئون الدنيا، فقد وكله عليه الصلاة والسلام إلى المتخصصين من أفراد أمته، فهو القائل: «أنتم أعلم بشئون دنياكم». والسنة - بوجه عام - قد غربلها وحققها، وبذل الوسع، كل الوسع فى تنقيتها رجال عظام، كالإمامين البخارى ومسلم وغيرهما. لكن الباب فى خدمتها لم يغلق، ولاينبغى أن يُغلق.

أما الفقه فهو تراثنا الذى نعتز به، وهو مدرسة، بل مدارس للاستنارة؛ لكنه ينبغى ألا يقيدنا، ففقهاؤنا رجال ونحن رجال. ومرة أخرى أستدرك وأقول: يجب ألا يتصدى لذلك إلا من توفرت فيه واجتمعت شروط الاجتهاد. ويمكن جمع هذه الشروط فى كلمتين هما: الأمانة والكفاءة وأتبع ماتقدم بما كتبه الشيخ رشيد رضا والدكتور محمد أمان صافى تحت عنوان «نجوم ساطعة فى ظلمات التخلف».

نجوم ساطعة فى ظلمات التخلف
الذى فرضه حكامنا على شعوبنا

بند ٦

تحت عنوان تصدير الكتاب، كتب المرحوم محمد رشيد رضا، فى صدر كتابه عن «تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده» كلمة عن «بيان كنه التجديد والإصلاح الذى



نهض به حكيم الشرق والإسلام وشيخنا الأستاذ الإمام - ووجه الحاجة إليه ووجوب المحافظة عليه»[1]. وقبل المضى مع ماكتبه السيد رشيد - أنقل هذه الآيات من الكتاب الكريم ﴿ **ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴿٥﴾ ﴾ [القصص]، ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ ... **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران].

قال الشيخ رشيد - مما قال -: «ولما كان من طبائع البشر أن يضعف تأثير الوحى فى قلوبهم بطول الأمد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم، ويتأولوا كتبه بأهوائهم، أنعم الله عليهم بما يحيى هداية النبوة فيهم بأن يبعث فيهم بعد عصر النبوة، مجددين وأئمة مصلحين يرثون الأنبياء بالدعوة إلى الإصلاح (إصلاح ما أفسده الظالمون فى الأرض) ويكونون حجج الله على الخلق. وقد بشر نبينا محمد خاتم النبيين بأن الله تعالى يبعث فى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للأمم كلها ﴿ ... **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء] إذا طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وانحرفوا عما أنزل الله عليهم من كتب. والمجددون يبعثون حسب الحاجة إلى تجديد ما أبلى الناس من لباس الدين، وهدموا من بنيان العدل بين الناس: فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجددا فى القرن الثانى للهجرة لما أبلى قومه من بنى أمية وأخلقوا، ومامزقوا بالشقاق وفرقوا. وكان الإمام أحمد بن حنبل مجددا فى القرن الثالث لما أخلق بعض بنى العباس من لباس السنة، ورشاد سلف الأمة؛ باتباع ماتشابه من الكتاب، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وتحكيم الآراء النظرية فى صفات الله وما ورد فى عالم الغيب بالقياس على مايتعارض فى عالم الشهادة. وكان الشيخ أبو الحسن الأشعرى مجددا فى القرن الرابع بهذا المعنى؛ وكان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى مجددا فى أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزعات الفلاسفة، وزندقة الباطنية. والإمام أبو محمد على بن حزم الظاهرى فى القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين فى أواخر القرن السابع وأول الثامن لجميع مامزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والإلحادية من حلل الكتاب والسنة السنية، فى جميع العلوم والأعمال الدينية. وحسبنا هؤلاء الأمثال فى التجديد الدينى العام. وظهر مجددون آخرون فى كل قرن، كان تجديدهم خاصا انحصر فى قطر أو شعب أو موضع كبير أو صغير كأبى إسحاق الشاطبى صاحب الموافقات والاعتصام فى الأندلس. وولى الله الدهلوى والسيد محمد صديق خان فى الهند، والمولى محمد بن بير على البركوى

(١) جـ ١ ص ب ومابعدها

فى الترك، والشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد، والمقبلى والشوكانى وابن الوزير فى اليمن. وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربى كبعض خلفاء الأمويين والعباسيين، ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الأيوبى، الذى كسر الصليبيين، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية. وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك أوروبا عُرِفَ فيها مجد الإسلام.

ضعف الإسلام السياسى وملكه؛ والارتقاء الأفرنجى العصرى: (ص د وما بعدها) قال:

اتسع ملك الإسلام، وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين، فزوال كل منهما. وكثرت دُوَلُهُ فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة فى الأجناس والأوطان، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة فى الأصول والفروع فتعادوا فى الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين. وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ ... وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال] وسلط الله عليهم أعداءهم. .﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود]. وكان يظهر فى هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون فى العلم.. وفى الحرب.. كالأمير عبد القادر فى الجزائر، ويعقوب بك فى تركستان الصينية. وفى السياسة.. وخير الدين باشا فى تونس، وفى إرشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسنوسى فى ليبيا.

حال البشر الأخير وما يقتضيه من التجديد: (ص د وما بعدها) قال:

فى أثناء هذا الضعف الإسلامى، دخلت الشعوب الأفرنجية فى طور جديد من الفتح والغلب والسياسة والعمران، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام[1] وتجدد فيها من أدوات الحرب.. مايمكن العدد القليل من إبادة الجيش الكبير فى زمن قصير. واستحدث فيه من النظام ما يسهل على أفراد ممن حَذقُوه أن يسخروا لخدمتهم شعبا كبيراً غريبا عنهم، فى جنسه ولغته ودينه، كما يسخرون الأنعام والدواب، ويستنزفون ثروات البلاد المغلوبة إلى بلادهم. وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى.. وصارت المسافة بين القارة والقارة أقرب من المسافة بين بلد وآخر بنفس المملكة، وهو ماعبر عنه الحديث النبوى بتقارب الزمان. .واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة فى الأمم المتخلفة.. مما لايطمح إليه صوفى يستخدمونه من الأموات، ويتكل على الكرامات، ويغتر بالمنامات، أو غارق فى بحر النظريات العلمية. إن هذه البِدَعَ من الخطوب الكبرى غير عادى لاينبعث إلى تلافيه إلا بدع من الرجال غير عادى.

(١) وبصفة خاصة الحكم الذى صار للشعوب.



لقد صدق على الأمة الإسلامية الحديث الشريف : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال سائل : أمن قلة نحن يارسول الله؟ قال: «أنتم يومئذ كثير. ولكن كغثاء السيل، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن» قال قائل : يارسول الله وما الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت» . (رواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث ثوبان رضى الله عنه).

من ذا الذى يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى.. لابد من رجل ذى روح علوية.. إنه حكيم الشرق والإسلام: جمال الدين الأفغانى (مانقلته موجز، وبتصرف).

وبمعنى قريب مما تقدم، كتب الدكتور محمد أمان صافى (جامعة الملك عبد العزيز - جدة) تحت عنوان «السيد جمال الدين الأفغانى وحقيقة فكره[1] وموطنه»:

ليس بالغريب أن تكون أفكار الأفغانى بذرة لكل ثورة إصلاحية، أو تحرك وطنى فى البلاد الإسلامية، بل والشرقية قاطبة. زرع الأفغانى فى أرض الإسلام، والشرق بذرة اليقظة والحرية والاستقلال والاستنارة، والجهاد ضد كل ماهو ضد الإسلام وضد كل ماهو ظالم ومستبد. ولم تتوقف الدعوة الإصلاحية المطالبة بالعودة إلى السلفية وأصول الإسلام عند الأفغانى أو تلميذه محمد عبده. ولكنها شكلت نبعا صافيا دافقا ظل يتنامى منذ تلك الأيام حتى هذا اليوم الذى نعيشه. لقد ظل فكر الأفغانى الثورى يؤثر فى سلسلة طويلة تالية من المجددين السلفيين من أمثال : رشيد رضا، السنوسى، المهدى، حسن البنا، المودودى، سيد قطب وغيرهم كثيرين: ومن تلاميذ هذه الثورة فى العصر الحاضر من الأفغان: النيازى، السَّياف، وحكمت يار، والربانى[2] والخالص،

---

(١) ص ١٩٧ ومابعدها من كتابه «السيد جمال الدين الأفغانى - بين الحقيقة والافتراء» طبعة ١٩٩١م.

(٢) وانظر : ص ٤ من كتابى «الجهاد»، (طبعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) ، وفيه تحت عنوان «الإهداء» «إلى أبطال الانتفاضة الفلسطينية، إلى رماة الحجارة لاسترداد القدس والأراضى المغتصبة من العدو الصهيونى، وإلى المرابطين فى خط دفاعنا الأول لصد العدوان الشيوعى، ودحر الإلحاد والاستبداد، وتطهير الأرض الطيبة من كل دنس، إلى المجاهدين الأفغان البواسل، وإلى الذين آووا ونصروا، إلى الشعب الباكستانى العظيم وقياداته، إلى هؤلاء جميعا وإلى المجاهدين فى كل زمان أهدى هذا الكتاب.

ولقد عرفت ممن ذُكروا فى المتن معرفة شخصية الربانى والسياف: الأول فى أحد مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى عقد بالقاهرة منذ سنين قليلة (وقدم أحدنا إلى الآخر السيد / فضل الله القائم بعمل سفير أفغانستان بالقاهرة حاليًّا) (والسيد فضل الله جار لى). أما السياف فقد عرفته فى مؤتمر إسلامى دولى بالخرطوم عام ١٩٨٤ (على ما أذكر). كان يخطب من القلب، فيملك القلوب كلها، وشدت الانتباه لغته العربية الفصحى المؤثرة. وكانت علاقتى أوثق وأوثق بالسيد/ هارون المجددى، نجل السيد/ صادق المجددى سفير أفغانستان بالقاهرة منذ عدة عقود مضت. والسيد/ هارون هو شقيق السيد/ المجددى الذى كان رئيسا لحكومة أفغانستان فى المنفى =

وجميل الرحمن . . إن صدى فكر الأفغانى الإصلاحى الثورى لايزال يترك بصماته على الحركات الإصلاحية، وهو من أكبر الشخصيات الإسلامية تأثيراً وأصالة وعمقا. وثورة الأفغان الحالية نموذج حى لذلك.

مع كتاب جمال الدين الأفغانى

لعبد القادر المغربى[1] «حب الصالحين»[2]

بند ٧

ما أجمل أن يكون «حب الصالحين» قد جاء مبكرا، واستقر فى قلوب الناشئة !! وما أطيب أن يصير هذا الحب «هياما» بأحد «العظماء» أو ببعضهم !! وما أحلى أن

= (فى باكستان) (أثناء الحرب الأفغانية الروسية). وكان للسيد المجددى الكبير، ولذويه علاقات مصاهرة مع عائلات مصرية كريمة (ولقد توفى السيد/ هارون يرحمه الله فى حادث سيارة، إذ صدم شخص أرعن سيارته فى طريق مطار القاهرة الدولى. (وللأسرة فروع مازالت مستقرة بالقاهرة. إن الحديث ذو شجون . وإنى أكتب هذه الكلمة فى (رمضان المعظم ١٤١٦ هـ - يناير ١٩٩٦م). أعود وأقول: إن الذين انتصروا فى الجهاد الأصغر (الحرب ضد الاتحاد السوفيتى) قد انهزموا فى الجهاد الأكبر (جهاد النفس) - لقد تمزقوا إلى فصائل يقاتل بعضها بعضا، ومنذ سنين مضت، وأصابع الاتهام تشير إلى الجيران، وغير الجيران !! إنها الكارثة ﴿**ليس لها من دون الله كاشفة** ﴿٥٨﴾﴾ [**النجم**].

والحديث الحزين، والاستطراد الأليم، يمتد إلى الصومال العزيز. إن السلاح والمسلحين، والتقاتل بين الفصائل هناك هو السائد. لقد تركوا الزراعة، وتربية الماشية وغيرهما مما يبنى، وانصرفوا إلى مايهدم. إنهم - حتى الآن - ومنذ سنين- عاجزون عن إقامة «دولة» - وانعدام دولة وسلطة حاكمة، ليس بعدهما إلا الفوضى والتهلكة ! ولو استمعوا إلى نداء العقل، ونصروا الله لنصرهم. وأقول أخيراً: إن مايجرى فى الصومال العزيز هو نتيجة للحكم الاستبدادى الطويل لسياد برى، الذى يذكر له التاريخ مما يذكر أنه قدم العلماء (ورثة الأنبياء) إلى المشانق !! وأضيف: إن لكل كرب نهاية، والله يولى من يصلح !!

(١) العدد ٦٨ من سلسلة «اقرأ» - طبعة ثانية - وانظر ترجمة موجزة للمغربى (ملحقة بنهاية الكتاب).

(٢) وهذه أبيات فى «حب الصالحين»:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلى أن أنال بهم شفاعة

وأكره من بضاعته المعاصى ... وإن كنا سواءً فى البضاعة

وقيل:

لى سادة من عزهم ... أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى ... من حبهم عز وجاه

هذا، وفى الحديث الشريف : «يُحشر المرء مع من أحب» . وانظر ص ٦١ من كتابى عن (رفاعة رافع الطهطاوى) (من أهم كتابين له) و(الكتاب الثانى - مناهج الألباب المصرية - فى مباهج الآداب العصرية)، (والكتاب الأول: تخليص الإبريز فى تلخيص باريز).

تلتقى عند هذا الحب وحوله قلوب مازالت غضة : فى كتاب المغربى عن جمال الدين قصة من قصص هذا الحب الذى تمكن من قَلْبىْ ناشئين هما عبد القادر المغربى ومحمد رشيد رضا. أحبا الأفغانى، وكذلك تلميذه وصديقه محمد عبده. أما الذى شدهما إليهما فكانت تلك الدرة قليلة النظير، والعظيمة التأثير حتى اليوم وغدًا. إنها «العروة الوثقى»[1] التى لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددًا. لقد هزت هذه «الجريدة» بأعدادها القليلة - قلاع الاستعمار، وعروش الاستبداد والمستبدين الذين لم يكونوا سوى ذيول للمستعمرين من الأوروبيين عامة، والإنجليز خاصة. يقول المغربى (نفس المرجع - ص ١٣ ومابعدها) : كنت تلميذا بالمدرسة السلطانية ببيروت. وكان ناظرها الشيخ أحمد عباس الأزهرى «المشهور بعلمه وفضله والتهاب وطنيته». كان فى ساحة المدرسة وحوله طلاب سألوه عن جريدة كانت فى يده - فأجابهم : إنها «العروة الوثقى» التى يحررها السيد جمال الدين الأفغانى ويساعده فى تحريرها صديقى الشيخ محمد عبده[2] المصرى.. وأفاض الشيخ أحمد فى وصف الجريدة ومحرريها.

يقول المغربى : وذهبت من المدرسة إلى طرابلس الشام عام ١٣٠١ هـ حاملا إلى صديقى الشيخ رضا صاحب المنار خبر «العروة الوثقى» ومنشئيها وأخذت أبحث معه عن أعدادها (الثمانية عشر). وكانت مبعثرة لدى بعض فضلاء طرابلس. وتنافسنا فى نسخها وإعادتها إلى أصحابها. يقول المغربى: كان رضا ينسخ المهم من مقالاتها، أما هو فقد نسخها بقلمه من ألفها إلى يائها، ثم جمع كراريسها فى مجلد بلغت صفحاته خمسمائة صفحة[3] .

وعاد المغربى إلى نفس الموضوع فى الفصل السابع من الكتاب (ص ١١٢ ومابعدها) فقال : «كنت والأستاذ رشيد شريكين فى التعلق بالسيد الأفغانى وتتبع أخباره، وتدوين آثاره. ولما ودعتْ (الرشيد) مُيَممًا شطر الآستانة عام ١٣١٠ هـ (١٨٩٢م) كان أول ما أوصانى به أن أقصد إلى السيد الأفغانى وأبلغه إخلاصه فى حبه. وأن أكتب إليه بكل ما أرى وأسمع من أحواله وأطواره. وحدث أن تأخر لقائى بالسيد لأسباب بينتها فى مكتوب منى إلى الصديق رشيد الذى بعث إلى بكتاب، قال فيه: (بعد أن أسهب فى

---

(١) لى مع «العروة الوثقى» - قصة - إذ وقعت فى يدى ورقات من أحد أعدادها صدفة فى الثلاثينيات من هذا القرن، ولمحرريها (الأفغانى ومحمد عبده) عندى مكانة خاصة. وكتابة ترجمة لهما، تضمنها حلقتان من هذه السلسلة «رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث».

(٢) كان الشيخ وقتئذ وأسرته فى بيروت .

(٣) فى الهامش يقول أتمت «العروة» نسخا وبياضا سنة ١٣٠٧ هـ . وفى سنة ١٣٢٨ طبعت فى بيروت على نفقة الشيخ حسين الحال صاحب جريدة أبابيل.

وصف رحلة[1] قام بها لأول مـرة من بلده (القلمون) على مقـربة من طرابلس الشام - إلى بيروت) - «إذا أسعدكم الحظ أو أكسبكم السـعى التشرف بلقاء حكيم الوقت السيد جمـال الدين . . فاقرءوا علـيه كتـابى فى وصف الرحلة، يقول المغـربى: «والكتاب - بحق - طرفة أدبية تاريخية . . ولعلنا ننشره فى بعض المجلات»، وقال الشيخ رشيد فى آخر كتابه : أخبرونا عما تشاهدون منه، وماتقفون عليه من شأن لما تعلمون له عندنا من المكانة التى لم يحملها من الناس أحد سواه . . ولا نشك بأنكم إذا صار لكم مع سيادته لسان ينطق تخـبرونه عن أخيكم بأنه مـستغرق فى حـبه، راج للسعادة بقـربه. له لسان لاينفك يهتف بالثناء عليه. ويتمنى أن يتمـثل للخدمة بين يديه، حيث تعرفون ذلك منا حق المعرفة. ولاأراك تذهل عن إفادتى، هل يمكن لأمثالنا مـلازمته إن جئنا إلى الآستانة أم لا ؟» (اهـ).

يقول المغربى: وكنت قـبل وصول هذا الكتاب قد اجـتمعت بالسيد، وعـرفته من خبرى وخبـر الصديق، ومبلغ تعلقنا به والعمل على بث مبـادئه . . مما جعله يدعو لنا، ويأمل الخير فـينا. وكتبت إلى الأخ الرشيد بذلك، فكتب إلىّ : «لقـد ألقى إلىّ كتاب كريم[2] ، وأول ما أجيب عليه هو الشكر على ما أتحفتمونى به من الرغيبة العظمى، ألا وهى البشارة بنوالكم شـرف الاجتماع بحكيم العصر، ونادرة الدهر السـيد جمال الدين الأفغانى . . وإفصاحكم بأن هذا كان نتيجة درسنا سيرته الحسنة بالإمعان والإنعام . . مع قيـامكم بحقـوق الإخاء . . من ذكرى لديـه، وشرح بعض شأنى عليـه، وعرض أكـبر مقاصدى على مسامعه الشريفة، ألا وهى الحصـول على صحبته بصفة تلميذ ملازم، أو مريد خـادم. وبعبـارة أخرى أن أكون «أبا تـراب الثانى»[3] أدور معـه حيث يدور . . . « . . قبل الله سعيكم مشكورا»

وتلطـف ولـجر ذكـرى عندهـم   علَّهـم أن ينظـروا عطـفـا إلىّ

وفى نفسى أن أكاتب السيد، وأرجوه السمـاح لى بملازمته . . فإن أبى فإنى أجتهد فى المجىء للتشرف بزيارته، والتيمن بمشاهدة غرته المباركة. فإن لم يتيسر فإنك قادم إلى طرابلس قريبا . . وأقل مايناجينى به ضميرى من الفائدة بالكتابة إلى السيد قول الشاعر :

عسى يذكر المشتاق فى طى رقعة   فحسب الأمانى أن ترينى رقاعه

(١) وكان الوصف بلغة مثيرة للإعجاب .

(٢) اقتباس من قوله تعـالى على لسان ملكة سبأ : ﴿ . . . إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل].

(٣) واسمه عارف كان الخادم الخاص الملازم للسيد.



يقول المغربى: أطلعت السيد على كتاب الرشيد، أو ذكرت له خلاصته (لا أدرى أى ذلك كان). فعاد السيد إلى الثناء على الشيخ رشيد. وقال: إنه كتب إليه كتابًا خاصا. فرجوت السيد أن يكتب إليه جوابا بخطه... فاعتذر بعدم وجود ورق وأقلام لديه. أقول (والكلام للمغربى): إن هذا الاعتذار كان منه، إمَّا لأن السلطان عبد الحميد لايريد ذلك كما قيل، وإما لأن السيد كان لايعنى بالمكاتبة ولايألفها، وكل ما اعتاده أن ينثر كلامه على من حوله نثرًا فيلتقطوه مرجانا ودرًّا. ولما عاودت الرجاء، وضع السيد يده (وكان قد وقف منتصبا) على كتفى وهو يتبسم ويعتذر عن الكتابة، قائلا لِى : أنت القلم والكاتب البليغ، ولك أن تنوب عنى بإبلاغ السلام إليه. هكذا خلق الله السيد، متوددًا مؤانسا، ولم يجعله (مدلسا موالسا).

أقول : هذا هو الحب، حب المخلصين للصالحين، وللزعماء الكبار. وقد صار لهذين الرجلين: عبد القادر المغربى، ومحمد رشيد رضا، شأن أى شأن فيما يسرهما الله له، من خدمة العلم واللغة (لغة القرآن) ، والثقافة العامة، والثقافة الدينية خاصة.

لقد كان الحب لله، وماكان لله فهو دائم وباق. يخلِّد الذكر فى الدنيا، ويعظم الأجر فى الآخرة !! أما الآخرون من طلاب الدنيا، والدنيا وحدها، فقد ضلوا الطريق، وينتظرهم فى الآخرة سوء المصير.

وأقول أيضا : إن النابهين من الشباب، الذين نشأوا فى عبادة الله، ولم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا غاية علمهم. إن هؤلاء يحبون - فى قمة مايحبون : تراجم العظماء، والسلف الصالح لتكون لهم فى ذلك القدوة والأسوة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام].

وأقول ثالثا: إننا نقبل على التراجم والسير، تراجم العظماء وسيرهم فى شوق وهيام فما بالنا إذا كان العظماء والحكماء أحياء؟ إن السعى إليهم، والالتصاق بهم، والجلوس بين أيديهم أمنية كل محبى العلم والحكمة، لكنها لاتتيسر إلا لمن أرادها الله لهم[1]

(١) والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها سعى إليها وظفر بها (كما فى المثل) وفى الحديث الشريف : «الحكمة تزيد الشريف شرفا، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك» (لابن عربى فى الكامل عن أنس) (الفتح الكبير للنبهانى جـ ٢ ص ٨١. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (البقرة).

أقـول : يجب أن تكون (البـحـوث) موثقـة (بذكـر المراجع) ؛ والعـادة أن تكون (المراجع) (كُتُبًـا) - وينفرد (بين مباحث كتـابى هذا) كتاب المغربى عن الأفغـانى، فهو ليس مأخـوذًا من كتب، وإنما مما رأى وسمع المغربى من الأفـغانى وجها لوجـه. ولهذا يكون له منى اهتـمام خاص، وكـأنه (الأرضية) التـى تنطلق منها سائـر المباحث، وهذا لايعنى الانفراد، ولايعنى أنه فوق النقد كما سيرى القارئ.

مع المغربى - وكتابه عن الأفغانى[1]
قراءات - وتعليقات

بنــــد ٨

جاء بالكتـاب (ص ٩) أن الأفغانى ولد عـام ١٨٣٩م وبعضهم قـال: إنه ولد عام ١٨٣٨م (كتاب عبد الرحمن الرافعى عن جمـال الدين الأفغانى باعث النهضة الشرقية) ص ٥، وفى الموسـوعة العـربيـة الميسـرة عن تاريخ مـيلاده ووفـاته (١٨٣٨/ ١٨٣٩ - ١٨٩٧م).

فى ص ٩ ومابعدها ، يقول المغربى: مهمـا بحث الباحثون فى تاريخ نهضة الشرق الإسلامى. . وتعيين أسباب يقظته. . تجدهم يرجعون فى ذلك أخيرا إلى شخصية فذة، فى مواهبها، أوحـدية فى هممها وعزائمهـا، هى شخصية جمال الـدين الأفغانى. لقد عاش فى أواسط القـرن الماضى مصلحـون من أبناء الشرق الإسـلامى متـقاربو الزمن، حذروا وأنذروا ملوكهم وأمراءهم بـدنو الخطر، ووجوب التعجيل بمواجهتـه قبل وقوعه بالعمل الجاد والإصلاح: مثل مصطفى رشيد باشا ومدحت باشا فى تركيا، وميلكم خان فى إيران، وأحمد خان وأمير علـى فى الهند، وخير الدين باشا فى تونس، لكن موقف كل واحد من هؤلاء، فى التـنبيه والإيقـاظ كان محـدودا بحدود بلاده. . أما الأفـغانى فكان موقفـه، وكان صوته الجهير يدوى فى كل الـعالم الإسلامى. وله فى كل قطر من أقطار هذا العالم مـريدون ، يأخذون عنه وينشرون مـبادئه، ومنها مـحاربة الاستعـمار والاستبداد.

ويقول المغربى (ص ١٠): وصراحته فى دعـوته هذه هى التى كانت تحول - أحيانا بينه وبين نجاحه فـيما كان يسـعى إليه، ويسارع المغربى ويقـول: بل لقائل أن يقول: إن إخفاق جمال الدين فى بعض ماحاوله هو سلم النجاح فى كثير مما حاوله. ومن يدرى؟

(١) سلسلة «اقرأ» عدد ٦٨ طبعة ثانية .



لعل جمال الدين لو صانع الحكام، وسارع فى هواهم، وأولّ لهـم مخازيهم، كما كان يفعل غيره من الشيوخ لخفت صوته، وماتت دعـوته، ولما خلفه فيها تلاميذه، يصدعون بها، ويلاقون الألاقى فى سبيلها.

وأنقل هنا هذه الآيات من سورة الإسـراء - يقول تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)** ﴾ [١].

وأقول : إن هؤلاء الذين يصانعون الحكام. . إنما يريدون العاجلة: والله يعجل لهم فيها مايشاء لمن يريد. والمصير معروف، إنها جهنم يصلونها مذمومين مدحورين. ويومئذ يذهب عنهم سلطانهم ومناصـبهم وجاههم ومـالهم . أما من أراد الآخـرة، وتحمل فى سبيلها الكيد والنفى والطرد فلهم حسن الذكر فى الدنيا، ولهم النعيم فى الآخرة.

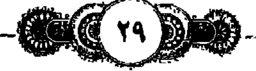
وفي ص ١١ يقول: توفى جـمال الدين فى الآسـتـانة عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧م) - ونحن اليـوم فى سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٨م) فـيكون قـد مـضى على وفـاته نصف قـرن ونيف. مرور نصف قرن على وفاته نبه العالم الإسلامى إلى الرجل وفضله على الشرق والشرقيين. وأقـيمت الاحتفـالات بهذه المناسبة. ومن أهم مافـعلوا نقل رفاته من بلاد غربته إلى منبت أسلته[٢] ، إلى كابول عاصمة أفغانستان فى كانون الأول سنة ١٩٤٤م.

هذا الخبر (نقل الجثمان هاج فى خـاطرى ذكرى أستاذى العظيم. . ورأيت من وفاء الذمم أن أحتفل بمرور كل هذا الزمن على مـعرفتى به، فوضعت هذا الكتـاب فى سيرة حياته واصفا من خبره ماشاهدته واطلعت عليه من مختلف شئونه ما أرجو أن تكون فيه متعة للقراء، وتبرئة لذمتى من قلة الوفاء. وسأقتصر فى معظم ما أدونه على ماعرفته من أمره بنفسى، أو سمعته من الرواة بأذنى. . وذلك فى رسالة تؤلف فى عبارات معدودة، وتقرأ فى دقائق محدودة.

---

(١) هذه الآيات الكريمة أضفتها فى مقام رأيته مناسبا لها

(٢) سلَتَهُ يسلتْه سلتَا سلَه . سحبه.



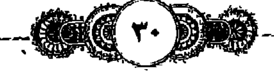
يقول المغـربى (نفس المرجع ص ٢٤ ومابعـدها): كنت أدرس مضـامين «العروة» دراسة عمـيقة، وأستـوحى من حلال سطورها أفكاراً وآراء: منها مـاكانت تقبله البـيئة وترضاه، ومنها مـاكانت تستنكره وتأباه. وأخطر ماكنت أفكر فيـه وألهج به وأدعو إليه من مبادئ «العروة» الإصلاح الدينى. وكان مـؤنسى فى هذا الطريق الوعر الشيخ رشيد رضا رحمه الله (توفى عام ١٩٣٥م) قال الشيخ رشيـد فى مقدمته لكتابى - الجزء الثانى من «البينات»: وأكـبر ما أثر فـى نفوسنا وعقـولنا، وظهر أثره فى إنشائنـا لفظا ومعنى «جريدة العروة الوثقى» لحكيمى الشرق[1] ومجددى نهضته العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية والدينية والإسلامية. وقد قـال لنا مرة أستاذنا الشيخ حسين الجسر: إن بينكما جوامع كـثيرة أخصهـا حب النسيد جـمال الدين الأفغانى واتبـاع أفكاره. فقلت له: بل أخصها تتلمذنا لفضيلتكم وتلقينا عنكم».

أقول : مع بداية انفتاحى على القراءة العامة الحرة (بالإضافة إلى المقررات المدرسية) كان البلاغ الأسبـوعى، والسياسة الأسبوعية - أشـهر مجلتين أسبوعيتين وقـتئذ. وكان أحد الزملاء (من قريتى ومدرستى) يشـترى الأولى، وكنت أشترى الأخرى. وشتان بين هاتين وبين العروة الوثقى. لكن هكذا كان قدرنا وجيلنا. كانت السياسة الأسبوعية أختًا للسياسة اليومية (لسان حال الأحرار الدستوريين) المكروهين (أى الأحرار. .) من الشعب عامـة (وما أنا إلا من هذا الشـعب) (وانظر إلى كتـابى «محمـد فريد وجـدى - فصل بعنوان : لطفى السيد). كانت «السياسة الأسبـوعية» متمردة إلى حد ما. والذى شدنى إليهـا كُتَّابها وكـان منهم «الدكتور مـحمد حـسين هيكل رئيس التحرير، والدكـتور طه حسين، والشيـخ مصطفى عبد الرازق، والشيـخ على عبد الرازق، والشيخ عـبد العزيز البشرى. . إلى آخره» . ولأنها كانت متمردة؛ ولأنها كانت ربيبة للسياسة اليومية؛ ولأن حزب الأحرار الدستوريين، كان - معظم الوقت - خـصما لسعد زغلول والوفد. فكان كل مايصدر منه وعنه (أى من حزب الأحرار) مكـروها لدى عامة الشعب. وفى القرية كنت أخفى السـياسة الأسبـوعيه بين ملابسى حـتى لايراها أعيان القرية وأدعـياء العلم فيها- وهى فى يدى.

وفى أحد المجالس وأثناء مناقشة، قـال أحد المشاركين فى المجلس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيـر أمتى فى المدن»، وقال «خير أمـتى على نهر» - فقلت:

---

(١) الأفغانى ومحمد عبده .



إنى أشك فى أن يصدر هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن فيه تفضيلا لبعض المسلمين على بعض دون سبب مقبول: فقام خطيب المسجد فى وجهى قائلا: وهل درست علم الحديث؟ قلت: لا. واعتراضى له مايبرره. وقامت الدنيا (دنيا القرية) ولم تقعد !! وتمضى الأيام، وتتوالى الأعوام. وفى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، كنت عضواً بالإدارة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بوزارة المعارف. كان بالإدارة يساريون. وكان الجميع، وفى مراحل التعليم المختلفة، قد تلقوا تعليما مدنيا؛ ليس فيه مكان ولافرصة ليعرف المسلم مايجب أن يعرفه من القيم الدينية الإسلامية. وكان عددنا فى الإدارة ليس قليلا، وبعض الأعضاء من الآنسات. وكالعادة - كانت تثار بيننا مناقشات أخلاقية ودينية واجتماعية وسياسية. ودائما كنت أجد نفسى وحدى فى صف وكلهم فى الصف الآخر. لقد نشأت ريفيا، وكان كتاب القرية أول معاهدى الدراسية. وكان القرآن الكريم أول ماحفظت. ومررت بعد ذلك بمراحل دراسية مختلفة عن الآخرين، كان بها القرآن الكريم، ومواد دينية. ومازال القرآن الكريم رفيقى، ونور قلبى وطريقى. وسيكون - بفضل الله ، فى القبر أنيسى، وفى الآخرة شفيعى. ولايفوتنى أن أقول: إن ماكان عليه زملائى فى إدارة التحقيقات ، كان عليه غيرهم من المثقفين فى كل مكان إلا مَنْ عصم الله. وقد كان هذا متعمداً ومقصوداً من الاستعمار، واستمر عليه معظم حكامنا فى معظم ديار الإسلام. إن «الإسلام» يُحارب من أعدائه، وهم كل دول الغرب[1] . وشأنهم معنا فى البوسنة والشيشان وغيرهما معروف. وهو - كذلك - مُحارب من بعض أبنائه، ممن يحملون أسماء إسلامية. إنهم أنصار التغريب، والتبعية للغرب، والأخذ بكل ماهو غربى، خيراً كان أم شرا. إنهم جيش كبير، وفى كتاب الله.

﴿ ... كم مِّن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]. وفى أكثر من مكان فى كتابى «رفاعة رافع الطهطاوى - تحت الطبع» ناقشت كل هذه الشئون.

---

(١) انظر - على سبيل المثال - ص ١١ من أهرام ١٧/ ١١/ ١٩٩٥ تحت عنوان «الله ليس كذلك» للمستشرقة الألمانية (د. زيجريد هونكه) تؤكد التصدى لما يلصقه الغرب ظلما وعدوانا بالإسلام والعرب والمسلمين. كما تؤكد فى دراستها أن الغرب يصر إصرارا على دفن العرب فى مقبرة الأحكام المتعسفة والافتراءات الجماعية. وتبحث وراء هذه الأحكام الظالمة وأثر التعصب الذى بدأ وتعمق منذ الحروب الصليبية ومايزال قويا حتى اليوم، والدراسة ترجمها إلى العربية د. غريب محمد غريب.

الأفغـــــانى

خلاصـــة من ســـيرته

يقول المغربى (نفسه ص ٢٧ ومابعدها): أكتب فيما يلى خلاصة من سيرة الأفغانى لتكون تمهيدًا بين يدى السبب الذى جعله يتخذ الآستانة مثوى أخيرا له[١] . نشأ جمال الدين فى مدينة كـابل عاصمـة أفغانسـتان، فهـو إذن أفغانى. الإيرانيـون يقولون: إنه إيرانى. وهذا الخلاف فى نسبة جمال الدين من أعجب الأمور وأدعاها للاستغراب. كما أن الرجل عاش فى عصرنا وبلادنا، وأعماله ومساعيه تقع تحت مواقع أبصارنا. والأدلة متوافرة لمعرفة حقيقة نسبه. وقد كنت كتبتُ مقالا نيرا فى (جمال الدين - أهو أفغانى أم إيرانى، نُشر فى المؤيد ١٣٢٧ هــ - ١٩٠٩م). لم يبلغ السيد الثـامنة عشرة من عـمره حتى أتم دراستـه للعلوم المختلفة. وعرض له أن يسافـر إلى الهند لدراسة بعض العلوم العصـرية. وقصد الحـجاز لأداء الفريضـة عام ١٢٧٣ هـ. ثم رجع إلى الأفـغان وتقلد بعض وظائفها. وحدث خلاف بين أمراء الأفغان (محمد أعظم خان وشير على) فانحاز السيـد إلى الأول، وكان له بمثابة وزير دولة. وساند الإنجـليز «شير على» فـتغلب على الآخـر. وكـانت هذه بداية العـداوة بين السيـد والإنكليـز. وفى هذا قـال سليم بك العنحورى فى شعر له :

فكأننى بيكونسفيلد[٢] زمانـــــه وكأنها من بغضها الأفغــــــانى

ولم يتعرض «شير على» للسيد بسوء، لكنه أضمره. وشعر السيد بذلك فرحل إلى الهند ١٢٨٥ هـ، ثم إلى مصر فـأقام بها أربعين يومًا. روى بعض الفـضلاء عن الشيخ محمد عبـده قوله: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريديهـا وغير مريديها. ومن خواصه أنه يجـذب مخاطبه إلى مايـريد وإن لم يكن من أهله. وكنت أغبطه على ذلك لأننى تؤثر فىّ حـالة المجلس للوقت، فلا تتوجـه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له مـحلاً قابلاً، واستعدادا ظاهرا». ومن مصر شخص السيد إلى الآستانة فى عهد الصدر عالى باشا، وكان بزيه الأفـغانى (جبة وكساء وعـمامة عجراء) فعظم شـأنه وارتفعت منزلته. وأطلق لسانه بسائـق فى طبعه فى وجوب الإصلاح والتـعجيل به قبل فوات وقـته. قال «مستـر بلنت الإنجليزى» : «إن سعى العثـمانيين فى تحويل حكومتـهم إلى دستورية فى بادئ الأمر قد ينسب إلى شىء من تأثير جمال الدين، فقد أقام فى عاصمتهم يحاورهم

(١) وكـان - قبل ذلك (ص ٢٦) قـد كـتب قائلا: بـرحت طرابلس (الشام) إلـى الآستـانة من أجل الدخول فى بعض معاهدها الدينية، فمكثت ثَمّ سنة واحدة اجتمعت خلالها بجمال الدين مرارا.
(٢) هو نفسه السياسى الإنكليزى الشهير دزرائيلى (٤ ١٨ - ١٨٨١).



ويخطب فيهم». وهكذا كان تأثير جمال الدين فى نهضة مصر أيضا. خطب سعد زغلول[1] (زعيم ثورة ١٩١٩) فى الناس فقال: «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك، ولا أدعيه، بل ولا أتصوره. إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى. وللسيد جمال الدين وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها. وهذا حق يجب ألا نكتمه؛ لأنه لايكتم الحق إلا الضعيف».

عُيِّن جمال الدين - وهو فى الآستانة - عضوا فى مجلس المعارف الأعلى، وألقى خطابا فى حفلة (دار الفنون) باللغة التركية التى أتقنها بعد ستة أشهر من نزوله الآستانة، فأنكر المشايخ من خطابه بعض الآراء. وكان شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى متغيرا عليه، فقام علماء الآستانة وخطباء مساجدها يردّون على جمال الدين ويسفهون قوله. يقول «المغربى»: «وكان يومئذ فى الآستانة والدى مصطفى بن أحمد المغربى، فوضع رسالة فى الرد عليه أيضا، مازالت مخطوطة فى مكتبى إلى اليوم، وسماها «عين الصواب فى الرد على من قال: إن الرسالة والنبوة صنعتان تُنالان بالاكتساب» قال فى آخرها: وكان الفراغ من تبييضها فى ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ. وأكد الشيخ محمد عبده أن السيد جمال الدين لم يقل هذا فى مسألة النبوة والرسالة. وإنما مشايخ الأتراك تحاملوا عليه فألصقوا التهمة به، وهو منها براء. وكان والدى (والكلام للمغربى) لايعرف التركية فلم يتبين حقيقة الأمر فكتب فى رسالته ماعرفه من مذهب أهل السنة والجماعة، وماقرروه فى هذه المسألة التى قال فيها صاحب «جوهرة التوحيد».

ولم تكن نبوة مكتسبة	ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن	يشاء جل الله واهب المنن

غير أن والدى فى مقدمة رسالته أطال فى التشنيع على السيد وتعييره بالتهمة التى نسبت إليه . وأرجو (والكلام للمغربى) ألا يكون مؤاخذا لما وقر فى نفسه من حسن القصد وسلامة النية. ويظهر أن حادثة (دار الفنون) أثرت فى نفس السيد تأثيرا جعله ضعيف الثقة بالعلماء والاعتماد عليهم. فقد رووا أن السلطان عبد الحميد لما أراد أن يوفد بعثة لنشر الإسلام فى بلاد اليابان بناء على طلب إمبراطورها، واستشار جمال الدين لم يوافقه، وكان هذا فى جيئته الثانية إلى الآستانة. . وقال للسلطان: إن العلماء نفَّروا المسلمين من الإسلام فأجدر أن ينفروا الكافرين. والرأى أن نرسل إلى الإمبراطور هدايا مع كتاب تَعِدُونَه فيه بتلبية طلبه، ثم نجتهد فى تخريج طائفة من العلماء يصلحون للدعوة، ويدخلون إليها من بابها المعقول. أدت حادثة خطاب السيد بدار الفنون إلى

(١) نفس المرجع ص ٣

خروجه من الآستانة مبعدًا مظلوما فنزل مصر ، لا على نية الإقامة فيها، غير أن رياض باشا حمله على البقاء، وعينت له حكومته ألف قرش فى الشهر ، فأقبل فضلاء مصر عليه ، كما كان يفعل علماء سوريا خلال إقامته القصيرة الأولى بها. وكان يدرس العلوم المختلفة من فلسفة وحكمة وغيرهما فى داره، فكان يُفكك عن العقول عُقل الأوهام، ويرشد من حوله إلى حقائق الإسلام. فإذا ذكرت كلمة التوحيد مثلا، قال : «إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله وما طلبوا المدد إلا من الله». وإذا ذكر التصوف قال: «أنا لا أفهم معنى لقولهم: الفناء فى الله، وإنما الفناء يكون فى خلق الله، ومعنى الفناء فيهم يكون بتعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم ومافيه خيرهم». وكان يقول: «ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد، مع أن أهاليها فى حاجة إلى جريدة أبسط من ذلك كله. إلى جريدة تقول لهم : اغسلوا أرجلكم، اغسلوا أيديكم، أغسلوا أثوابكم». وقد نشأ له من جراء صراحته هذه وتجديده فى العلم والدين وفهم الحياة مريدون كثيرون فحسده الشيوخ، ولاسيما من يَعُدُّ قراءة الفلسفة من الكفر ومال إليهم العامة. وخاض السيد غمار السياسة المصرية، ونبه المصريين إلى وجوب تنظيم حكومتهم، فساعد هذا كله على تنكر ولاة الأمور له. والخشية منه، ولاسيما بغضه للإنجليز. الذى كان يعلنه ولايخفيه. وانتظم فى سلك الماسونية لينفسح له المجال أمام الأعمال السياسية. وكتب مقالات فى السياسة تولى غلادستون نفسه الرد عليها. ووافق ذلك تولى (توفيق باشا للخديوية) فلم يطق الصبر على السيد فأُخرج من القطر المصرى[1] فذهب إلى الهند وذلك فى عام ١٢٩٦هـ وكان سفره من السويس فعرض عليه قنصل الإنكليز[2] مبلغا من المال نفقة سفر، فأبى وقال: كلمته المأثورة «الأسد أينما ذهب لايعدم فريسته». فتكون مدة إقامته الثانية فى مصر ثمانى سنوات. ثم غادر الهند إلى لندن وباريس . وهناك اتصل به الشيخ محمد عبده، وأصدرا جريدة «العروة الوثقى» . . وكان إصدارها بتكليف من «جمعية العروة الوثقى المصرية» ثم أقفلت بسبب إقفال أبواب مصر والسودان والهند فى وجهها. لكن السيد لم يترك الكلام فى السياسة فكتب فى الصحف البارىسية، وجرت له أبحاث مع رينان فى العلم والإسلام. وطلبه (تشرشل) وسالسبورى إلى لندن ليسألاه رأيه فى مهدى السودان، فذهب إليهما ثم رجع إلى باريس بطلبه شاه إيران ناصر الدين فحضر إلى طهران، فولاه الشاه وزارة الحربية، فأحبه الإيرانيون ومالوا إلى تعاليمه. فخافه الشاه وتغير معه. وأحس السيد فاستأذنه

(١) بطريقة مؤذية للمشاعر، إذ قبض عليه وهو فى طريقه إلى بيته ولم يسمح له بأخذ أشيائه، ونقل كما ينقل المجرمون مخفورًا مهانا.

(٢) فى هذا عدة روايات ، منها أن الذى فعل ذلك تجار إيرانيون.

للسفـر انتجاعًـا للصحة فذهب إلـى موسكو وبطرسبرج، وكـان له فى كل مكان ينزله مريدون مـشتاقـون إليه، سـماعون له، عـاملون على نشر آرائه. وزار مـعرض باريس ١٨٨٩م والتقى بالشـاه ناصر الدين فلاطفـه واطمأن جمـال إليه وعاد معـه إلى طهران وعادت إليه مكانته الأولى فيها. وجعل يبث الروح الدستورية بين أبنائها فعاد الشاه إلى تنكره له، فأحس السـيد بذلك، واستـأذنه فى زيارة (شاه عبد العظيم) (بلدة على بعد عشرين كيلو مترا من طهران)، وتبعه مـحبوه، واتخذ من قداسة المكان طريقا إلى الجهر برأيه فى إصلاح الحكومة فلم يطق الشـاه صبرًا عليه فأرسل قوة عسكرية إليـه فاحتملوه فى فراش مرضه إلى حدود تركيا فنزل البصرة[1] واتفق أن كان فى البصرة وقتئذ قاضيها عبد الحـميد أفندى الرافعى الطرابلسى فروى بعض الإخـوان على لسان القاضى طرائف من أقوال السيـد الأفغانى وهو فى البصرة أودعتـها مقالى المنشور فى «البـينات» (جمال الدين، أفغانى أم إيرانى) وسـتأتى مناسبة لذكـر نزول السيد البصرة واقـتباس شىء من أخباره فيـها. واستأذن السيـد الأفغانى حكومة الآستانة فى أن يذهب إلى السـياحة فى داخليـة جزيرة العـرب فلم يُؤذن له ثم أذنوا له فى الذهـاب إلى لندن، ثم لم يلبث أن جاءت بـرقيـة بمنعه. وكـان غادر البـصرة بعـد أن بذل وسعـه فى تأريث نار الفتن بين الإيرانيين والشاه: من ذلك أنه حصل على نسخـة من كتاب (على بابا) تأليف (جيمس موريو) فترجمها إلى الفارسية وجعل يبعث بنسخ منها إلى إيران ليقرأها الطلاب والنشء الجديد فيعرفوا كيف يستهزئ الأجانب بهم فيهبون إلى الإصلاح. وبعد أن غادر البصرة أقام فى لندن يتحدث إلى الإنكليز فى مجتمعاتهم وأنديتهم، وكان يكتب المقالات الرنانة فى جريدة (ضياء الخـافقين) بتوقيع السيد وكـان معظم اهتمامه فى كتـاباته وأحاديثه فى الطعن على الشاه وما آلت إليه حالة إيران فى عهده. فكان الشاه يكتب إلى السلطان[2].

شرف العلم فوق كل شرف

يقول المغربى (نفسه ص ٣٨ ومابعدها) : «سمعت أخيرا من السيد بديع بك المؤيد العظم، وهو من أعرف الناس بأخبار الآستانة ورجالاتهـا فى العهد الحميدى. قال : إن السلطان أنعم على السيـد الأفغانى برتبة (قاضى عـسكر) وأحضرت إليه شاراتهـا (جُبَة فضـفاضة ملـونة، وزينة للصدر والرأس مذهـبة) ولما أُخبـر السيد بالإرادة السـلطانية، وطلب منه أن يقـوم إلى حيـث يلبس هذه التشـريفـة، أبى وقال للرسـول: قل لمولاى السلطان: إن جمال الدين يرى أن رتبة الغلم أعلى الرتـب، وبعضهم يروى أن «جمال»

(١) البصرة عراقية، ولعل الكاتب أراد أن يشير إلى تبعيتها وقتئذ إلى الدولة العثمانية.
(٢) لكى يتوقف السيد عن حملاته على الشاه .

أجاب بقوله: «إنه لايريد أن يكون كالبغل المزركش» معـرضا بالسيد الصيادى الذى بلغ من رتب الدولة أعلاها، ونال من زينة المراتب أثمنها وأغلاها».

أقول : لا أزعم أنى على علم بمدى اهتـمام الديانات السماوية الأخـرى، وكذلك النظم الوضـعيـة بالعلم والعلمـاء. ولكنى أعلم مـدى اهتـمام الإسـلام (فى مصـدريه الأساسيين: الكتـاب والسنة) بالعلم والعلماء فأول مانزل به الوحـى على خاتم النبيين، وخاتمة الرسـالات السماوية، قـوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق] والآيات التى ورد فيها لفظ «العلم» ، و«يعلمون» و «العلماء» و«يتفكرون» و«يتدبرون» (ومـافى معناها) تربو على الحصر، «فطلب الـعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» كـما جاء فى حديث شريف و«التفكيـر» هو الآخر فريضة على كل مسلم ومسلمة. والآيات القرآنية التى جاءت فى تكريم العلـماء وسمو منزلتهم، كثيرات كثيرات. من ذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وقـــوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران]، ويقول تعالى :﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ].

ومن الأحاديث الشـريفة، قـوله عليه الصلاة والسـلام: «خيركم مـن تعلم القرآن وعلمه» (البخارى فى التاريخ عن على). وفى الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها»؛ وقوله صلى الله عليـه وسلم : «اطلبوا العلم ولو فى الصين» فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[1] . وهناك ارتبـاط بين «العلم» و«الحكمـة» - وبين «أولى الألباب» - كمـا فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[2] [البقرة].

---

(١) إلى آخر الحديث وقـد أجلس النبى صلى الله عليه وسلم بعض شبـاب المسلمين بين أيدى أسرى من قريش (وهم كفار) ليعلموهم القراءة والكتابة. وفى مقابل ذلك فك أسرهم.

(٢) وانظر لى : «مع الله . فى كتابه وسنة رسوله» - فصل بعنوان «فـضائل إسلامية.. العلم». بند ١٩ ص ٨٧ وما بعدها.



وماعدا «السفسطة» و«الجدل للجدل» و«السحر والخرافة وما إليها» فهو علم ومأمور به ومطلوب. ومــالايتم الواجب إلا به واجب هو الآخـر. وذلك كــعلوم الزراعـة، والصناعة والطب، وعلوم اللغة، والفنون الراقيـة الهادفة.. إلى آخره. وفى ذلك يقول تعالى: ﴿... فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة] - وفى الآية إشارة إلى فـروض الكفاية. وهى هامة جدا جدا، وليتنا نعطيها ماتسـتحق من الاهتمام، فلابد أن ينفر نفر منا لتعلم الزراعـة، وتعـمق علومـهـا، وهكذا فى الصناعـة وفنونهـا.. إلى آخـره.. وكـذلك الصناعات الحربية.. إلى آخره. فإذا لم نفعل أثمنا جميعا.

أعود وأقـول: لا نهـضة ولا تقـدم، ولا رقى لدولة أو أمة أو شـعب إلا بالعلم، وتطبيقات العلم (التكنولوجيا - أى التقنية). وقد كان العلم بفروعه المختلفة هو أساس نهضة الدولة الإسلامية فى قمة ازدهارها فى العـصر العباسى الأول. كانت وقتئذ الدولة العظمى الوحيـدة فى العالم كله. لقد انحدرنـا لأسباب كثيـرة أهمها الجهل. والـشاعر العربى يقول:

العلم يرفع بيتا لاعماد له   والجهل يخفض بيت المجد والشرف

وبعد هذا الاستطراد أقول: لقد كان الأفغانى عالما، وعالما من نوع رفيع. لقد كان الأفغانى كـذا وكذا، وكذا. وأساس هذا كله، وفى قمـة هذا كله، كان «علمه»! وهذا الجانب من حيـاته يستوجب التركـيز وكل الاهتمام والرجاء والدعـاء إلى الله أن يهدينا سواء الصراط، وأن نقتدى بأئمتنا فى العلم والحكمة!

الأفغانى[1]
من صفاته الخَلْقِية والخُلُقِية

يقول المغربى: (نفسه ص ٣٩): وبعد وصولى إلى الآستانة بأيام، وقبل أن أتصل بالسيـد الأفغانى كانت عـينى تقع أحيانا على رجل غـريب الزى جذاب الملامح، ممتلئ الجسم إلى قصـر، أسمر اللون، أسود الشعـر، خفيف العارضين، له لمة مـسترسلة إلى شحمـة الأذنين، يلبس لبوس علماء الأتراك، جبة سـوداء غير سابغة الطول، وعـمامة بيضاء مختلفة فى تكويرها عن عمائم علماء الآستانة، علمت أخيرا أنه السيد الأفغانى.
ويقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «جمال الدين الأفغانى - باعث نهضة

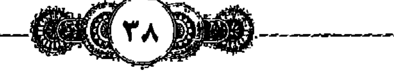
(١) العناوين من عندى (وانظر «مزيدا من الضوء - رقم: سادسا»).

الشـرق» (ص ١٤٤ - رقم ٦١ من سلـسلة أعـلام العـرب - الدار المصـرية للـتـأليف والترجمة) - ويصفه تلميذه الأكبر الأسـتاذ الشيخ محمد عبده بقوله : «إنه يمثل لناظره عربيـا محـضا من أهالى الحرمين، فكأنمـا قد حُفظت له صـورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز. ربعة فى طولـه، وسـط فى بنيته، قمحى فى لونه. عصـبى دموى فى مزاجه، عظيم الرأس فى اعتـدال، عريض الجبهة فى تناسب، واسع العـينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصـدر، جليل فى المنظر، هش بش عند اللقاء. قـد وفاه الله من كمال خَلْقه ماينطبق على كمال خُلُقه. أمـا أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته، وله حلم عظيم، يسع ماشـاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شـرفه أو دينه، فينـقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشـهب. فبـينما هو حليـم أواب، إذا هو أسد وثاب. وهو كريم يبـذل مابيده ، قوى الاعـتماد على الله، لايبالى مـا تأتى به صروف الدهر، عظيم الأمانة، سـهل لمن لاينه، صعب على من خـاشنه. طموح إلى مقـصده السياسى، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليها، وكثيرا ماكان التعجل علة الحرمـان. وهو قليل الحرص علـى الدنيا، بعـيد عن الغرور بـزخارفهـا، ولوع بعظائم الأمور. عزوف عن صغارها، شجاع مقدام. لايهاب الموت كأنه لايعرفه. إلا أنه حديد المزاج. وكثيـرًا ماهدمت الحدة مارفـعته الفطنة. إلا أنه صار اليـوم فى رسوخ الأطواد، وثبات الأفناد فخور بنسـبه إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم. لايعـد لنفسه مزية أرفع ولا عزًا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر. وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده».

تواضع المؤمنين الموحدين - وبساطة الفلاسفة المتمكنين غير المتكلفين

يقول المغربى (ص ٣٩ ومـا بعدها): لحظ منى بعض معارفى من التـجار السوريين اهتمامى بأمر مقابلة السيد الأفغانى، فقال (أى هذا البعض) «حضرت بعض المجالس فى الآستانة فسـمعتهم يتحدثون عن هذا الذى تذكـره وتُعْلى من شأنه. ومما ذكروه عنه أنه يكثر من التردد على متنزه (الكاغدخانه) وهناك طائفة من الغجر[1] يعيشون فى أكواخهم المعهـودة، وأن الشيخ جـمال الدين ينتـابهم، ويلم بهم كلما زار ذلك المتنزه، يكـلمهم ويصغى إلى حديثـهم. فقلت له : إن السيد على مايظهر يجـد فى حديث هؤلاء القوم مايسليـه، ويسرى عنه همـوم حياة النصب التى يحـياها. ولم يقـتنع محدثى التـاجر، وقال: إن هذا يحط من قدره. فقلت له: إن طبع السيد مشـتق من طباع الفلاسفة. فهو بذلك يرفه عن نفسه وفى نفس الوقت، ربما اتخذ ذلك طريقا إلى إكرامهم والرضخ لهم

(١) يسمون - أيضا - النَّور والمطاربه، ويسميهم الأتراك حنكانه.



بالبخشيش وجعلهم يشعرون براحة الحياة وأنهم غير منسيين من إخوانهم البشر ذوى الرغد فى العيش. والشيخ يعرف بشاعة نظام الطبقات فى الهند فهو بتأنيسه لهؤلاء المنكودى الحظ، كأنه يعلن شريعة الأخوة الإنسانية التى جهر بها نبينا عليه الصلاة والسلام فى قوله : «أيها الناس إن الربّ واحد والأب واحد» ويضيف المغربى: **أن** العقلية الفلسفية ليست كالعقلية التجارية، فالفيلسوف يلذه الغوص فى أعماق البشر (كل البشر، ومنهم هؤلاء من الغجر وأمثالهم). ومايفعله مع الغجر يشبه ماحكى لنا عنه وهو في القاهرة من تردده على مشرب لفتاة أوروبية فى حى الأزبكية.. وأكمل هذا نقلا عن الرافعى (نفس المرجع ص ١٤٥ ومابعدها).

«بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه[١] سُئلنا عن إغفاله، وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى إتيان بعض المباحات كالجلوس فى المتنزهات العامة، والأماكن المعدة لراحة المسافرين، وتفرج المحزونين لكن مع كمال الوقار وغاية الحشمة. وكان مجلسه فى تلك المواضع لايخلو من الفائدة العلمية، فكان بعيدا عن اللغو، منزها عن اللهو. وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم. وهذا الوصف ربما عدّه عليه بعض حاسديه. لكن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه. وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له. هذا مجمل من أحوال السيد أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون...» .

فى قداسة الأوراق المطبوعة

يقول شيخنا المغربى (نفسه ص ٤٥ ومابعدها): «تلقيت عن والدى الاستسلام إلى كل ماجاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا... بعد ذلك اقتبست من شيخنا الجسر تعاليم فيها شيء من حرية النقد. فلما اتصلت بشيخنا الأفغانى.. انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الطور الثالث، وهو أن نفهم النص الدينى فهما صحيحًا مُراعًى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها، ونستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة ثم نجرأ على التصريح بما فهمنا من النص سواء وافق ما رآه غيرنا أم لا». وقد مررنا – (زملائى وأنا – وفي كتّاب القرية – وكنا أطفالاً) بطور أدنى من الطور الأدنى الذى مر به الشيخ المغربى وأقرانه. كان القرآن الكريم أول كتاب عرفناه، وتداولته أيدينا. وللكتاب الكريم قداسته بين جميع المسلمين، وفى سحتلف الأعمار لكننا – نحن الأطفال – قد نقلنا هذه القداسة إلى كل ورقة مطبوعة ، سواء فى مرحلة معرفة القراءة ومعرفة مافى الورقة، وكذلك فى المرحلة

(١) والكلام لصديقه الأستاذ الإمام محمد عبده.



السابقة حيث كنا لم نعرف القراءة بعد: إنها، أى ورقة، قد نصادفها على الأرض. وللقداسة طقوس: نسارع إلى التقاطها ونتسابق، ثم نقبلها بالفم، وبخشية واضحة، ثم نأخذ فى نقلها بين الفم والجبهة سبع مرات. ونحن نردد «البسملة» وربما «فاتحة الكتاب» «السبع المثانى». وخير مانفعله. وضع الورقة فى جيب الجلباب، ثم نحرقها. ولا أذكر أن أحداً قد نهانا عن ذلك[1].

فى مجالس النكت

يقول المغربى (ص ٤٩ ومابعدها) : «ما كان أجود شيخنا الأفغانى بالأحاديث وقص الأخبار على جلسائه، فقد كان لايبخل عليهم بجواب، ولايُعْييه خطاب. هذا فيما يتعلق بالجد فى الأمور، أما لحين المطايبة وإرسال النكت فهو الروض لاتهدأ عن التغريد أطياره، ولاتألو فى نشر الشذى أزهاره. وكنت أتخيل قبل اجتماعى به، ولكثرة ماوصفوه لنا بالفلسفة والحكمة أننى سأراه عابس الوجه، مهيب السمت، شديد الإطراق، قليل الكلام. إذا سئل أجاب بالإيجاز، وأورد كلامه كما تورد الأحاجى والألغاز، شأن أولئك الذين يُسمون أنفسهم فلاسفة أو متفلسفين، ويغمضون فيما يقولون أو يكتبون، فلا يفهم مايعنون ويقصدون، أما فيلسوفنا الأفغانى فما كنا نراه إلا مشرق الوجه، منبسط الأسارير، جذاب لحظ المقلتين. تبرق عيناه وهو يحدث بما يسأل عنه، وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة حين سماعه النوادر من جلسائه. ولهذا أحبه مريدوه، وكثر زواره، وشاعت فى الناس أخباره. روى الأستاذ عباس العقاد فى بعض كلامه على سعد زغلول. وقد بشره يوما بعض أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد فى الانتخابات النيابية فقال سعد: وماذا عليه؟ إن أخفقنا معشر الوفديين لم نر له وجها، وإن نجحنا جاءنا يطلب البشارة. ثم تابع حديثه حاكيا عن جمال الدين مذ كان مسافرا فى سفينة، وقد خيف عليها الغرق فقال: أخبرنا الشيخ جمال الدين أنه لما رأى الصبية والنساء وضعاف القلوب فى السفينة، وقد غلب عليهم الاضطراب والهلع. راح يؤكد لهم أشد التوكيد أن سفينتهم لن تغرق فى تلك السفرة، ويقسم لهم أنها ناجية بلا مراء. قال الشيخ: كان القوم يظنون بى القداسة مذ رأونى بالعمامة الخضراء فيحسبوننى من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب، ويطلعون على أسرار المستقبل. والمسألة بعد حسابية إن غرقت السفينة لم أجد منهم من يكذبنى؛ وإن سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل. . وسمعته مرة يروى نكتة عن رجلين قال أحدهما لصاحبه يعظه وينصح له: يا أخى، لماذا لا نصلى، الصلاة فضلها كذا، ومكانها من العبادات كذا وكذا. صل

(١) وكنا نفعل ذلك مع لقمة الخبز . ومن آثار ذلك حتى اليوم عرفانى العميق بنعم الله فى الطعام.

أربعين يوما فقط، وانظر: إذا كان يمكنك بعدها أن تترك الصلاة؟ فأجاب صاحبه: وأنت يا أخى اترك الصلاة أربعين يوما ثم انظر إذا كان يمكنك بعدها أن تعود إليها؟ فضحك جلساء السيد لهذه النكتة الدالة على خبث هذا التارك للصلاة، ومحاجته فيها بباطل القول وزور الكلام.

فى قفص السلطان عبد الحميد

أشير هنا - كما أشرت سابقًا - إلى أن شيخنا المغربى لايعنون لما يكتب، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر فى نفس السطر - وسبب ذلك واضح فهو يروى ماشاهدت عيناه، وما سمعت أذناه. إنها - كما جاءت فى أول الكتاب - «ذكريات وأحاديث» استحضرها المغربى بعد وفاة السيد بنحو نصف قرن (عام ١٩٤٨). ولو كنت مكانه لكتبت ماشهدت وماسمعت فى نفس اليوم، ففى باريس[١] مثلا وقد كان علىّ أن أحقق أكبر نفع فى أقصر وقت وبأقل نفقة. وهى معادلة صعبة وتحت شعارها لم أكن أنام إلا قليلا. ومهما تقدم بى الليل لم أكن أنام إلا بعد قيد مايلزم ومالايلزم[٢]، وأولا بأول..!

وأعود وأقول: جزى الله شيخنا المغربى عن قرائه فى كتابه هذا عن جمال الدين كل خير.. رحمة الله ورضوانه عليهما.

وأستمر مع المغربى: قال لنا السيد (ص ٥١ ومابعدها): مرّ بالهند سفير أرسلته حكومته الأمريكية إلى بلاد الصين. ثم مالبث - وهو فى الهند - أن اجتمع بالمسلمين وأكثر من مخالطتهم والتمرس بهم، فمال قلبه إلى الإسلام فأسلم. وحاول أن ينقل الإسلام إلى بلاده وينشره بين الأمريكيين، وأخبروه بمكانة السيد من العرفان والمقدرة، وأنه يقيم فى الآستانة. فكتب السفير كتابا إلى البرنس (فاضل باشا المصرى) - يخبره فيه بعزمه على نشر الإسلام فى أمريكا. وفى طيه كتاب آخر منه إلى السيد جمال الدين يطلب منه التهيؤ للرحيل معه إلى أمريكا، وشرح له قصده من هذه الرحلة، وكتب كتابا ثالثا إلى الجمعية الإسلامية فى ليفربول يخبرهم بغرضه أيضا. فأرسل رئيس هذه الجمعية (عبد الله وليم) كتابا إلى (فاضل باشا) وفى طيه كتاب إلى السيد يحضه فيه على تلبية السفير، وأن يشخص السيد إليهم أولا فى (ليفربول) فيؤلفوا بعثة دينية إسلامية يتولى السيد رئاستها، ومنها رجال من عندهم يثقون فيهم وفى كفاءتهم، فلم

---

(١) وفى السودان، وفى كل مكان، وحتى اليوم
(٢) كالأشيا التى أشتريها، وهذه عادتى منذ وقت مبكر جدا.

يسع فاضل باشا إلا أن يعرض هذه الرسائل على السلطان عبد الحميد فلم يسمح السلطان بذلك ضنا بتلك الجوهرة أن تخرج من صدفتها الجديدة (أى من سجنها فى الآستانة) – التى دعاه السلطان إليها ليريح زميله شاه إيران من حملاته. وكيف يسمح السلطان للسيد بالسفر إلى أمريكا، فينشر فيها من أخبار الآستانة، وعجز المابين (البلاط السلطانى)، وكل مايمكن أن يزعج السلطان ويقلق راحته. ومن رأى العبرة من غيره فليعتبر[1]. ! قال المغربى: سئل السيد عن عبد الله وليم الذى أسلم وألف جمعيته المذكورة، وعما إذا كان اجتمع به. فأثنى السيد عليه، وقال : إنه على هدى من أمره. وأضاف: أنه لما كان فى لندن أرسل إليه عبد الله كتابا يدعوه إليه، فلم يتيسر له ذلك لدعوة السلطان إياه[2] . قال السيد: استأذنت يوما على السلطان فعينوا لى يوم الخميس للمقابلة، ثم أرجئوه[3] إلى الإثنين وتكرر ذلك منهم. فقلت للحاج على بك (رئيس القرناء) : إننى لا أجىء إليكم بعد اليوم. ثم اجتمع بالسلطان. . وطالت المذاكرة بشأن إيفادى إلى أمريكا حسب طلب السفير (الآنف الذكر). وكاد يتم الأمر، لكنهم عدلوا عنه، ورأوا أن الأصلح أن يذهب السيد إلى أوروبا ليقوم بنشاط سياسى لصالح الدولة، ثم ضربوا صفحا عن ذلك. وقال له السلطان: أريد أن أجعل وطنك الآستانة إذ لم يكن لك وطن. والحق أن السلطان كان يخشى شرَّة السيد، ويحاذر صولته فهو يفضل أن يبقى محبوسا فى القفص !

فى وحدة المسلمين ووحدة أراضيهم

يقول المغربى – تعقيبا على ما أبداه السلطان من أن يجعل الآستانة وطنا للسيد – بأنه لامحصل له فى نظر السيد، فمبادئ الإسلام تقرر أن بلاد الإسلام مهما اتسعت رقعتها، وترامت أطرافها تكون كل قرية أو بقعة منها وطنا للمسلم الذى ينزلها. فأهلها إخوته، وحكومتها حكومته، ويعنيه من أمرها مايعنى سكانها أنفسهم، فله أن يشتغل بسياستها، وينقد حكامها ويرفع صوته بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها. وهذا ماكان من جمال الدين على مدى حياته التى عاشها: فقد كان أفغانيا فى الأفغان،

---

(١) أثبت المغربى (ص ٥٢ و ٥٣) أن «عبد الله نديم المصرى» جعل من دعوة السلطان السيد جمال الدين إلى الآستانة منقبة من مناقب السلطان. فقال : وساح (أى السيد) فى الأقطار وخالط الأمم وداخل السياسيين، ودرس التاريخ الحاضر والماضى، وامتد باعه إلى العقليات، فأصبح أمة وحده بين ذوى الفضل. وهذا الذى دعا مولانا الخليفة الأعظم لإدخاله بين لفيف العلماء الخاص بمجلسه لقد أهلته المعارف والتجارب لمسامرة الملوك، والنظر فى السياسات. . إلى آخره.

(٢) لا أظن هذا إلا ضربا من ضروب الملاحقة الكريهة !

(٣) هكذا. وأظنها (إملائيا) أرجأوه.

إيرانيا فى إيران، هنديا فى الهند، حجازيا مصريا فى الحجاز ومصر تركيا فى بلاد الترك. وكان إذا سئل عن وطنه أجاب : ليس لى وطن، على أنه لاوطن اليوم للمسلمين. يشير بهذا إلى أنهم غرباء فى أوطانهم، مادام الأجانب مسيطرين عليهم. ويمضى المغربى ويقول : لاجرم أن شيخنا الأفغانى كان فى حياته وجولاته فى بلاد الإسلام رمزاً قائما بنفسه إلى وحدة الممالك الإسلامية، وأن سكانها شعب واحد يعيشون فى وطن واحد. ولذا كان أكبر غرض يسعى إليه هو إقامة حكومة إسلامية قوية ينضوى إلى رايتها جميع شعوب الإسلام. هذا كان همه الأكبر وهدفه الأعظم. لكنه - وا أسفاه لم يجد من ينقطع إليه فى خدمة غرضه من المريدين سوى الشيخ محمد عبده. على أن هذا شعر أخيرا بصعوبة الأمر وأوجس خيفة من الخيبة فيه قبل أن يأتى الوقت المقدر له. فكان يشير على جمال الدين وهما فى باريس - بترك الصحافة وهجر السياسة إلى الانقطاع للعلم والدرس، والتعليم فى مدارس يبنونها ومعاهد يؤسسونها. فكان جمال الدين يقول له : اسكت أنت مثبط. وكأن المتنبى نظر إلى السيد الأفغانى مذ قال:

أهمُّ بشىء والليالى كأنها	تطاردنى عن كونه وأطارد
بعيدا عن الأوطان فى كل بلدة	إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد

ويعلق المغربى قائلا: وياليت الأفغانى كان اليوم حيا فيرى ماوُفِّق إليه زعماء العرب أخيرا من تكوين هذه (الجامعة العربية) - فإن فيها بعض ماكان السيد يدعو إليه، ويحرص عليه من أمر الوحدة. ويضيف المغربى: لا جرم أن فى وحدة العرب وقوتهم قوة للإسلام فى جميع بلاد الإسلام . ولاسيما إذا عرف رجال الجامعة كيف يخلصون فى العمل، ويتفقون فى الاتجاه، ويطبقون أعمالهم وقراراتهم على نواميس مدنية هذا العصر، ويفرغون مساعيهم فى قوالب عقلية أهله، ودهاء ساسته. وهم فاعلون إن شاء الله !

أقول: احتفلت جامعة الدول العربية هذا العام (١٩٩٥) بمرور خمسين عاما على إنشائها. وأذكر أن أمينها العام الأول هو المرحوم عبد الرحمن باشا عزام، وهو مناضل كبير، ويرجع نضاله إلى أيام شبابه وحين ترك مقعده فى الجامعة لينخرط فى سلك المتطوعين للدفاع عن ليبيا عام ١٩١١ ضد الغزو الإيطالى لها. وأمينها الحالى الدكتور عصمت عبد المجيد سياسى كبير، ودبلوماسى متمرس. ولاريب أن الشعوب العربية تشارك المغربى نفس المشاعر والآمال. ولكن ماذا يفعل الأمين العام، إذا كان العرب

(كدول وكحكام) بأسهم بينهم. إن الصومال - وهو عضو فى الجامعة - يتمزق إلى فصائل تحمل السلاح، وتتقاتل فيما بينها، بدلا من أن تحمل «الفأس» لتبنى اقتصادها. والرءوس فيهم مختلفون، وعاجزون عن إقامة دولة، وإدارة موحدة! وفى العراق الحبيب يحكم صدام حسين الذى يبدد المال فى الحروب، وفى صنع أسلحة الدمار الشامل ليوجهها إلى صدور جيرانه من العرب وإيران. وهو - ولا ريب - عميل لأعداء العرب والإسلام[1]. لقد كنا عند قيام الجامعة خيرا منا الآن، كنا نعيش فترة الثورة ضد الاحتلال، وتدارك ماحرمنا منه الاحتلال، مثل قيام جامعة عربية، توحد صفوفنا ضده. فلما حمل الاحتلال عصاه ورحل، قام فى كثير من البلاد العربية حكام ظلمة، كانت السلطة، والتحكم عن طريقها غاية الغايات، وكان كتم الأنفاس من وسائلها لفرض «الاستقرار» (أى استمرار الظلم والظلام) وفى دول المغرب العربى يكفى أن نشير إلى الجزائر، وماجرى ويجرى فيها منذ سنوات وحتى اليوم، إن الضحايا، وأنهار الدم، تزداد، وترتفع يوما بعد يوم. فماذا يفعل أصدقاء «الجامعة العربية» و«الوحدة العربية» مع قيام النظم الظالمة والفاسدة ؟ إن وحدة العرب عزة وقوة لكل العرب، وهى خطوة واسعة، ولابد منها لقيام الجامعة الإسلامية التى كانت الأمل الكبير للأفغانى ومريديه. لكأنى بهم ينظرون إلينا من قبورهم، والأسى يملأ قلوبهم. وفى المثل: «اشتدى أزمة تنفرجى». فى وقت ليس ببعيد ستحكم الشعوب، وفى ظل حكم الشعوب ستتحقق آمال الأفغانى فى الجامعة الإسلامية التى يتساوى تحت رايتها كل المقيمين على أرضها مسلمين كانوا أم غير مسلمين. «أيها الناس ، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد»[2] و«**إن أكرمكم**[3]**عند الله أتقاكم**».

---

(١) لا أرى (هذا الصدام) إلا مجموعة من الشياطين، تتكاثر وتتكاثر داخل جسم واحد. إنه ممن تنطبق عليهم هذه الآيات من سورة إبراهيم. ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾**﴾ [إبراهيم].

(٢) من حديث شريف .

(٣) ١٣ - الحجرات. هذا، وفي أهرام اليوم (٥/١/١٩٩٦) (ص ٤ - بعنوان : أربكان «نجم الدين أربكان» - وقصة حياته، ونسبه، وثقافته ونضاله، وسائر صفاته، مشرفة. حصل الحزب الذى يرأسه (حزب الرفاه) على نحو ١٦٠ مقعدا. منذ نحو سبعين عاما كان أتاتورك، وكانت الكارثة، ثم جاء حزب الرفاه- ومعه الأمل نحن متفائلون . (وانظر لى : الإسلام والدولة - ١٩٨٢ - ص ٣٤ وما بعدها).

الحـديث ذو شـجون
والشـىء بالشـىء يُذكـر (ص ٥٦ ومابعدها)

(أ) فى أحد مجالس السيد جاء ذكر (ميرزا باقر)، فقال عنه : إنه تعلم فى مدارس الهند الإنكليزية وهو صغير فتنصر. وسمى ميرزا يوحنا. ثم صار ترجمانا لمشير الجيش الإنكليزى. وكان ميرزا شاعرًا فى اللغة الإنكليزية والفارسية، عارفا بالعربية.. وضرب الدهر ضرباته، ومضت الأعوام تلو الأعوام.. وكان السيد فى باريس، حين أخذ يسأل عن الميرزا، ولا أحد يخبره عنه. وفى أحد الأيام تلقىَ السيد كتابا فَضَّهُ، وإذا هو بتوقيع (ميرزا باقر) الذى افتتح كتابه بالصلاة والسلام على النبى حنيفًا مسلما. واجتمع مع السيد وتصافيا. وكان السيد يرسله مع الشيخ محمد عبده إلى باريس ليترجم بينه وبين رجال السياسة. فأرسله مرةً معه لمذاكرة السياسيين بشأن (مالية مصر)، فكان ميرزا أثناء الترجمة، يتعرض لمزايا الإسلام، وكان هذا دأبه فى كل اللقاءات وفى كل فرصة، وكان يطبع نشرات يدعو فيها إلى الإسلام، ويقف بها على أبواب الكنائس ويدسها إلى الداخلين والخارجين، والأغنياء والمعدمين. وقد نظم بعض الإيرانيين قصيدة بالفارسية، مدح بها فيكتوريا ملكة الإنكليز، وطلب من الميرزا ترجمتها إلى الإنكليزية، فترجمها شعرا. وعرضوا عليه خمسمائة جنيه مكافأة له، فأعرض مستنكفا، وقال: مكافأتى هى الجلاء عن مصر. وكان رحمه الله فقيرا جدا لايملك قوت يومه. أقول: هذا مثال نادر لرجل حسن إسلامه، واستقرت عقيدة التوحيد فى شغاف قلبه. ما أسعد قلب جمال الدين، وما أسعد قلب الشيخ محمد عبده حين يجدان لهما قرينا على مستوى ميرزا باقر !! وأضيف : أن مصر حين كانت تعانى من أثقال الاحتلال الإنجليزى والامتيازات الأجنبية (ماقبل منتصف الثلاثينيات) - كانت مدارس الإرساليات الأجنبية «والمنشآت العلاجية» تمارس تنصير أولاد المسلمين ممن يدرسون فيها أو يترددون عليها، وانتشرت عن ذلك مآس مؤسفة لايتسع المقام لذكرها.

(ب) وكان الشيخ محمد عبده يأسف ويُحَوْقِل حين يسمعهم يقولون له : إنه لايوجد فى المسلمين غيره. وكان ردّه: إن قولكم هذا يؤلمنى حقا. وكم أتمنى أن يكون بين المسلمين كثيرون ممن هم أفضل منى وأقدر على خدمتهم، والدفاع عن حقوقهم. وماقاله الشيخ محمد عبده (كما جاء فى كتاب المغربى) يذكر بما كان من الفخر الرازى، حين كان يقوم على مبر الرّى خطيبا، فيطرق طويلا، ثم يرفع رأسه، ويضرب بيده على لحيته وينشد :

خَلَتِ الديار فسُدْتُ غير مسوَّد ومن البلاء تفردى بالسؤدد

أقول : هذه هى آخلاق الصالحين، وفى قمتها التواضع، وهو خلق إسلامى أصيل ما بال قوم يملأون الدنيا ضجيجا وعجيجا، ويتطاولون فخرا وعجبا. ما أشبههم بالطبول: دقات تصمّ الآذان، وهياكل جوفاء. إنه إذا كان التواضع من أمهات الفضائل فإن العجب بالنفس، وهو يعنى الاستكبار فى الأرض، هو ذروة الرذائل. إنه إبليس آخر!! (وانظر فى التواضع للمؤلف: «مع الله . . . فى كتابه وسنة رسوله» - فصل بعنوان «فضائل إسلامية») ص٧٧ وما بعدها.

(ج) الإسلام والمسلمون : يقول المغربى : سمعت السيد الأفغانى يقول فى مجلس له : إن أهل أوربا مستعدون لقبول الإسلام إذا أُحْسِنَتْ الدعوة إليه. فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره، فوجدوا البون شاسعا من حيث يسر العقائد وقرب تناولها. وأقرب من أهل أوربا إلى قبول الإسلام أهل أمريكا، بسبب أنه لايوجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة ولا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوربيين.

أقول: نحن مأمورون بالدعوة إلى الإسلام. ومع تقدم وسائل الإعلام والاتصال صارت الأبواب المفتوحة للدعوة أكثر منها فى أى وقت مضى. ويجب التنسيق بين الدول الإسلامية لتكثيف الدعوة وتقويتها. وإعداد الدعاة المؤمنين المخلصين الأكفاء لأداء هذه الأمانة الكبرى، القادرين على اختيار المقال المناسب للمتلقين - واجب أساسى. ومن أقوال رسولنا عليه الصلاة والسلام : «يسروا ولاتعسروا، وبشروا ولاتنفروا». وقد بَسَّطَ الإسلام تشجيعا على الدخول فيه بقوله : «قل آمنت بالله ثم استقم» وقال لآخر : «هل تعاهدنى على ترك الكذب» - قال : نعم. وكان الرجل قد اعتاد ارتكاب المنكرات، فإذا هَمَّ باقتراف إحداها تذكر العهد فامتنع. فلتكن لنا فيه صلى الله عليه وسلم قدوة . ولاريب فى أن حال المسلمين من التخلف، ومايجره التخلف، أكبر معوق لدخول غير المسلمين فى الإسلام. ومسئولية الولاة والدعاة مسئولية جسيمة - علينا أن نبدأ بأنفسنا، سواء على مستوى الأفراد أو الأسر، أو المجتمعات. والله لايضيع أجر المحسنين.

(د) القرآن الكريم : أقول : يقول عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى»[١] - علينا أن نعمل بلا هوادة لمحو الأمية الأبجدية،

---

(١) إلى آخر الحديث: رواه الحاكم عن أبى هريرة.

وعلينا أن نعمل، وبقوة، لمحو الأمية الدينية، وخاصة سلامة العقيدة، عقيدة التوحيد: وفى حديث شريف «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» - إنهم هنا وهناك يعبدون المال، والمنصب، والسلطة. إنهم يعبدون الدنيا وزخرفها. والمسلم يعبد الله وحده. فى مرحلة ما فى تاريخنا القريب، قرروا ما أسموه «بالميثاق» فى كل مراحل التعليم، ومنه التعليم الجامعى. ليتنا نقرر «التربية الدينية» وفى قمتها «حفظ القرآن الكريم، فى كل مراحل التعليم» وفى فضل القرآن يقول عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (البخارى فى التاريخ عن على).

(هـ) القرآن الكريم. . أيضا. . ودائما :

قال السيد (نفسه ص ٦٠ ومابعدها) : إذا أردنا اليوم أن نحمل غيرنا على الدخول فى ديننا، وجب علينا - قبل كل شىء أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال القرآن. فلم نكن مسلمين . . كاملين. وأفاض السيد فى مزايا القرآن وتعاليمه السامية. من ذلك أنه (أى القرآن) أول من دلنا على الوصول إلى الحقائق بالطريقة الفلسفبة، وهى (لمه) و(لماذا)، إذ إن معظم آياته واردة فى معرض: لم كان الأمر كذا؟ ولماذا كان الأمر كذا؟ وتكليف المخاطبين أن يعطوا الجواب المعقول على هذا السؤال، وليست الفلسفة سوى ذلك.

قال: ومن مزايا القرآن أن العرب قبل إنزال القرآن عليهم كانوا فى حالة همجية لاتوصف، فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم. وفاقوا أمم الأرض، سياسةً وفلسفةً وعلمًا وصناعةً وتجارةً وكل هذا لعمرى لم ينتج إلا عن هدى القرآن وإرشاد القرآن، فالقرآن وحده الذى كان كافيا فى اجتذاب الأمم القديمة وهدايتها، جدير أن يكون كافيا اليوم أيضا فى اجتذاب الأمم الجديدة وهدايتها. ولما انتهى الحديث بالسيد إلى هنا تنفس وقال: لولانا، لولانا. القصور منا، والتبعة علينا. انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن، والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه، والوقوف عند بابه، دون التخطِّى إلى محرابه.

يقول المغربى: ولابد هنا من إلقاء نظرة عميقة فى قول شيخنا الأفغانى «القرآن وحده» فإن فى قوله هذا إشارة إلى أن المسلمين - فى الصدر الأول - كفاهم القرآن وحده فى هداية البشر، أما اليوم فلماذا لم يكفهم القرآن وحده فى هداية البشر وهداية أنفسهم؟ أليس هذا عجبا من مواضع العجب؟! السيد الأفغانى ينبهنا إلى أن القرآن لم يعد وحده فى قلوبنا ولاعلى أكفنا ليسهل علينا العمل بتعاليمه، وليتيسر لنا عرضه على

الأمم مبشـرين ومنذرين. وقد كانت الدعـوة إلى القرآن والتبشـير به أكبر مـايطمح إليه الأفـغـاني في حـيـاته. وكـان يتلو على من يرى فـيـه المقـدرة عـلى الدعـوة قـوله تعالى: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران]. وإنما نحن اليوم حـملنا مع القران أبحاثا لفظيـة ومناقشات حول أحكامه فـرضية، واستنتاجات ليـست فى مصلحة البشر، ولاهى من وسائل هدايتهم إلى الإيمان. وأضفنا إليه من الحشو والتفسير والشرح ما لامحصل له سوى الإغراب وإرضاء العامة. وأى حاجة لأن يزداد على قوله تعالى: ﴿وجيء يومئذ بجهنم ... ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر] هذه الجملة (تقاد - أى جـهنم - بسبعين ألف زمام، وكل زمام بيد سبعين ألف ملك) فى نظير ذلك من الزيادات المفسدات للدين المزعزعات لليقين.

وكما قلنا فيمـا سبق: إن تمييز النصوص صحيحهـا من فاسدها، والجرأة فى نصرة الصحيح والجهر بالدعوة إليه وحـده، هو أول قاعدة من قواعد الإصلاح الدينى. نقول بمناسبة قول شيـخنا الأفغانى «القرآن وحده»: إن القاعدة الثانيـة للإصلاح وتيسير الدين للدعـوة هى الاعتمـاد على القرآن وحـده فى هذا الإصلاح والدعـوة. ونحن نعلم من شيخنا الأفغانى أن ما آخى القرآن هو من الـقرآن، فالحديث المتواتر هو من درجة القرآن فى إثبـات الحكم، وكذلك إجـمـاع المسلمين فى الصـدر الأول على حكم من الأحكام العملية الماضية مع الزمن هو مما يتمشى مع القرآن. ولاسيما أعمال النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته هو تفسير للقرآن وعمل بالقـرآن فهو إذن من القرآن، فالتواتر والإجماع وأعمـال النبى المتوارثـة إلى اليوم هى السنة الصـحيـحة التى تدخل فى مـفهـوم القرآن وحده، والدعوة إلى القرآن وحده.

القرآن وحده سبب الهداية والعمدة فى الدعاية، أما ماتراكم عليه وتجمع حواليه من آراء الرجال واستنباطهم ونـظرياتهم، فينبغى ألا نعول عليها كـوحى، وإنما نستأنس بها كرأى ولانحملها علـى أكفنا مع القرآن فى الدعوة، وإرشاد الأمم إلى تعاليـمه لصعوبة ذلك، وتعسـره وإضاعة الوقت. ودعوة الأمم التى لاتكون العـربية هى لغتهـا، يستلزم ترجمة تعاليـم الإسلام. وكأن السيد يريد أن يقول فى تعـاليم الإسلام: إن الشجرة إذا ازداد نموها، واشتد التفافها، وكثرت أوراقها، وتشعبت أغصانها، قل ثمرها، وتضاءلت غلتها، فالبستانى الحاذق يعمد إليـها فيبتر، ويشذّب، ويقلم ويهذب، ويبقى على بعض أصولهـا، فيتسـرب الغذاء إلى هذه الأصول وحـدها. وبذلك يعود إلى الشجـرة طاقة إثمارها، وإيتاء أكُلها.

وهكذا القـرآن يجب أن تنصـرف همم المصلحين، وتتجـه عـزائمهم إلى القـرآن وحده، وتنمـية شـعور المسلمين على قـداسته وحده. إن تزاحم الأمم على الحـياة في عصـرنا استأثر بالوقت فلم يبق مـنه للثقافـات الدينية والدراسات الروحـية إلا القليل، فيجب اغتنام القليل وتسخيره في خدمة القرآن فيخف الحمل، وتسير السفينة باسم الله.

(و) في المفاكهة

ورأى بعض جلساء السـيد ماتركه الحـديث السابق في نفسه من أثر انفـعال وتأثر، فرفـه عنه بشيء من المفاكهـة والمطايبة، وهو سؤاله عن سـبب زهده في الزواج، وسأله آخر من طلاب العلوم عن الجـوهر الفرد ودليله. وقد أجاب على هذا السـؤال الأخير، وأشار إلى التراث الإغريقي في هـذا الشأن، واستطرد إلى «الإلياذة»[1] . وتمنى لو أن العرب في عصر الازدهار (العصر العبـاسي الأول) قد ترجموا الإلياذة، ولو ألجأهم هذا إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها .

أقول: إن شيخنا الأفغاني قد أحسن القول والبيان ، وإنه - هنا وكعادته دائما يعبر عمـا يريد، وعن المعاني الدقـيقة والجـديدة، والسديدة، بلغة واضـحة ونيِّـرة وبسيطة. وأساس هذا كله وسبـبه، هو إيمانه بما يقول، وبما يريد أن ينقله إلى سامـعه وقارئه. إنه يقـصد إلى تبـسيط الدعـوة إلى الله، إلى الإسلام ، إلى القـرآن وحده: إلـى الإسلام بتخليصه من الخرافات والخزعبلات والسفسطات ومـا إليها، وإلى تفسير القرآن بتخليصه من الإسرائيليـات والتأويلات التي تسربت إلى بعض كتـب التفسير. ومـرةً أخرى «إلى القرآن وحده» - و«القرآن وحده» - كما سبق القول - يعني كل ما آخى القرآن كالحديث المتواتر، وإجمـاع المسلمين في الصدر الأول وأعمال النبي المتـوارثة. إن هذا كله مما ينير الطريق أمام الدعاة، سواء كانت الدعوة والخطاب إلـى المسلمين ليعودوا مسلمين - حقا وصدقا ويقينا - كما كان السلف الصالح - أو كانت الدعوة والخطاب إلى غير المسلمين ليدخلوا في الإسـلام. إن ديننا ، وإن عقيـدتنا (عقيدة التـوحيد) «لاإله إلا الله» قـمينة وقادرة على الدخـول إلى شغاف القـلوب، قلوب الناس جميـعا. وحجـر الأساس أن يكون الدعـاة قدوة، وأن يكـون المسلمون قـدوةً ومنارة لجـميع النـاس. ولنتأمل قـوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]. وقدوتنا - دائما - هو رسولنا عليه الصلاة والسلام، الذي

(١) إحدى ملحـمتي هومـيروس الخالدتين. تُرجـمت إلى معظم لغـات الأمم ومنها العـربية. وانظر موجزا عنهـا في الموسوعة العربيـة الميسرة (ص ٢١٢) - والملحمة الأخـرى هي «أوديسة» (نفس المرجع ص ٢٥٧).

بَسَّط الإسلام لسائله، إذ قال له : «قل آمنت بالله ثم استقم» كما ذكرت من قبل. وانظر أيضا قوله تعالى : ﴿إِنَّ الذين قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]. وانظر الآيات التى بعدها، فهى﴿ ...نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ... ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

تمنى الأفغانى، وقوله : «لو أن العرب قد ترجموا الإلياذة، ولو ألجأهم هذا إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها» - قول يستحق التعليق، فالإلياذة والأوديسة ليستا إلا ملحمتين من التراث الأدبى الإغريقى القديم. وفيهما يجتمع القليل من الحقائق مع الكثير من الأساطير؛ شأن الكثير من تاريخهم. وتعدد الآلهة والوثنيات شائعة فى تراثهم. وهذا قد يثير حوله الكثير من القيل والقال من الشيوخ الجامدين. ولأحد هؤلاء أن يقول: ألم يجد الأفغانى سوى «الإلياذة» ليعلن عنها كل هذا الإعجاب؟! أما عندى فهو يثير التقدير. الأفغانى الذى اتسع وقته لقراءة هذا التراث، الذى ألهم، ومازال يلهم الكثيرين. إنه تراث عالمى، ونحن لانرفض أى تراث، ولا أى تجربة، ولا أى إنتاج لمجرد أنه أجنبى. إنها السماحة الإسلامية، إنها السماحة «الأفغانية»[1]. إنه مثل من أمثلة كثيرة يضربها الأفغانى، ويدعو فيها إلى عدم الانغلاق دون كل مفيد أيا كان مصدره!

أما عن الزواج فقد قال: إنه لو فعل وقد بلغ هذا العمر (ستا وخمسين سنة) لاستغرب الناس منه ذلك كما يُستغرب من الشيخ عليش لو سار بتلاميذه إلى أزبكية مصر وجلس معهم إلى بعض المشارب ثم أمر الجارسون[2] أن يحضر إلى الشيخ دهْ زجاجة بيرا وإلى الشيخ دُوكْهَا زجاجة شمبانيا. وكان السيد يرتضخ لهجة مصرية ولاغرو فقد أقام فى مصر نحو ثمانى سنوات.

والشيخ عليش هذا مغربى من علماء الأزهر اشتهر بالتقوى والصلاح والتشدد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وله حكايات جمة فى تشدده على السيد الأفغانى وتلاميذه وخاصة على الشيخ حسن الطويل (أحد علماء الأزهر المتخصصين فى الفلسفة وتعليمها) فكان الشيخ عليش يهرول إلى مكامنهم فى زوايا الأزهر ويشلهم بعكازته شلا. ولايدعهم يلوثون بقاع الأزهر الطاهرة بالكفر والزندقة!!

---

(١) نسبة إلى السيد جمال الدين الأفغانى

(٢) لاحظ استخدام كلمة الجارسون. وهى كلمة أجنبية، لكنها دارجة على ألسنة العرب.

وهكذا عاش شيخنا الأفغانى عزبا، ولقى ربه عزبا، وقد شغله عن اتخاذ الأهل والولد انصرافه بهموم نفسه وشراشر قلبه إلى إنشاء دولة إسلامية تتخذ من أسباب الترقى والمدنية والعزة ماتحمى به نفسها وتنقذ غيرها من الأمم الإسلامية المستضعفة وذكر السيد الأفغانى للشيخ عليش وتمثله به فى مسألة الزواج يدل على أن السيد رحمه الله كان يتسع صدره لغضب الشيخ عليش، ويتلقى ما كان منه من شدة الوطأة عليه وعلى تلاميذه بكثير من الصبر وكثير من العذر: فإن قلق الشيخ عليش وهياجه ضد المشتغلين بالفلسفة خشية أن يتسرب إلى الدين مايفسده ويضر بسلامته أمر طبيعى فيمن كان على مثل ورعه، بل ربما كان من المستغرب أن يتسامح مع هؤلاء المجددين من النوابت[1] .

أما ماكان يبغضه ولايتحمله فهو الخيانة الوطنية، والتفريط بالمصالح القومية كحسن فهمى أفندى شيخ الإسلام الأسبق فى الآستانة الذى كان يقول لعدو وطنه الجنرال (أغناتيف) سفير روسيا فيها: «إنك عينى اليمنى وإن حيدر ابنى عينى اليسرى» (ذكر ذلك حضرة مدحت أفندى فى كتابه «بأس الانقلاب».

٤[2]

(ص ٧٠ ومابعدها)

وللسيد الأفغانى رسالة بليغة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم، وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران. ألفها السيد بالفارسية، ونقلها إلى العربية الشيخ محمد عبده بمساعدة (عارف أفندى أبى تراب) الأفغانى تابع السيد الخاص. وطبعت الرسالة فى بيروت عام ١٣٠٣ هـ . وقد سألنا السيد فى بعض جلساتنا إليه عن السبب فى تأليفه هذه الرسالة فقال : إن كثيرين من مسلمى الهند تلوثوا بهذه البدعة التى بثها الإنكليز فى بلادهم، من حيث إنهم (أى الإنكليز) رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم وتأييد سلطانهم فى الهند. وجد الإنكليز أن الإسلام يطلب من أتباعه أن يكونوا أصحاب السلطة والسلطان فى أوطانهم، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التى لايمكن انسلاخه عنها، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه. ففكروا فى أمر يضعف هذه العقيدة فى نفوسهم فرأوا أن أقرب طريق إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين، وأن الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من الدعوة إلى التثليث. والتعطيل الذى

---

(١) فى المعجم الوسيط (النابتة: الغلام والجارية جاوزا حد الصغر، ولم يجربا الأمور بعد. والنابتة: الناشئة. يقال هذا قول النابتة. الأغمار من الأحداث (ج) نوابت.

(٢) أى الفصل الرابع من كتاب المغربى عن الأفغانى.

هو الإلحاد يسمى بالإنكليزية (نيشر) Nature. ففتحوا مدرسة عظمى لتعليم النيشرية، وبث مبادئها فى نفوس النشء المسلم. فَضَلَّ الكثير منهم، وأشربوا حب الإلحاد فى قلوبهم، ولاسيما أولاد الأمراء الذين كان معظم طلاب هذه المدرسة منهم. فلما نشر السيد رسالته فى الرد على النيشريين فى طول البلاد وعرضها، أخرج كثير من الأمراء أولادهم من هذه المدرسة ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من الإلحاد. لم يسع الإنكليز فى جعل المسلمين مسيحيين لأنهم (أى المسلمين) يؤمنون بعيسى ابن مريم وبجميع التعاليم المعقولة التى علَّم بها المسيح (ويبرئونه وأمه من كل شين) - كما يبرئه المسيحيون. ولزيادة الفائدة فى التثبت من هذا الموضوع، موضوع نشر الإلحاد، وتصدى شيخنا الأفغانى له بكل شدة ننقل صورة الكتاب الذى أرسله إليه (مولاى محمد واصل)- مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن ببلاد الهند. وهى هذه - ١٩ محرم ١٢٩٨ هـ «يقرع آذاننا فى هذه الأيام صوت: نيشر.. نيشر، وهو يأتينا من جميع الأقطار الهندية.. ولاتخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيشرى) وعددهم يتعاظم على مدى الزمان خاصة المسلمين.. وقد سألت عن هذه النيشرية.. فلم يفدنى أحد بجواب كاف.. والسلام» اهـ. فأجابه شيخنا بكتاب هذا نصه «محبى العزيز.. النيشر اسم للطبيعة. وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرنين الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح. ومقصد أرباب الطريقة محو الأديان، ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع[1] بين الناس.. وأما عدم شيوع هذه الطريقة، مع طول الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية.. ولتفصيل ماذكرنا نتقدم بإنشاء رسالة صغيرة أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزى لذلك الصديق الفاضل، وأن تلقى من ذوى العقول الصافية نظرة الاعتبار» اهـ.

يقول المغربى : شرح لنا السيد كل هذا فى مجلسه وانتهى به القول إلى وصف ماعليه قبائل الهند من الجهل والغباوة[2] ، حتى أنهم لايعرفون عن دينهم (الإسلام) إلا أنه (يبيح لهم أكل لحوم البقر والحمد لله) بعكس عامة الهنود الوثنيين الذين يعبدون (البقرة).. (أى أن هذه ميزة) الإسلام على عبادة الأصنام. ومما قاله (ص ٧٥) ليت

---

(١) البُضْع : الفرج . (ج) أبضاع وبضوع..

(٢) أصدرت منذ خمسين عاما (١٩٤٦) ونحن الآن فى عام (١٩٩٧) - أصدرت كتابا «فى إصلاح التعليم الأولى» من فصوله «دعوه إلى البعثة العامة» - كما نشرت فى تاريخ مقارب مقالين فى مجلة رابطة الإصلاح الاجتماعى، أحدهما بعنوان «من بلايا الجهل». كان رئيس الرابطة المرحوم العشماوى باشا.

مصر التى تنفق على (موالد الأولياء) مـلايين الليرات فى السنة - تنفق هذه المبالغ انشر الإسلام بين تلك القـبائل الجاهلة بالإسـلام، فهو أنفع لِلَمِّ شـعث الأمة. وهذا واجب مقدم من نشر الإسلام بين غيـر المسلمين. واستطرد إلى وصف نيشريى الهند ومآربهـم، ووسـائلهم فى الوصـول إلى هذه المآرب - من ذلك أنهم يدَّعـون أن إبراهيم ومـوسى وعيسى كانوا (وطائفة كبيرة من عظمـاء العالم) نيشريين. يضللون بذلك عقول السذج، ويهونون عليهم الدخول فى بدعتهم.

يقول المغـربى : وما قاله السـيد عن نيشـريى الشرق الأوسط ذكـرنى بما يقال عن ماسونيى الشرق الأدنى - قال السيد: إن الماسـونية نشأت فى أوربا (هكذا كان ينطقها)، وكان الغرض من نشوئها فى الأصل إضعاف السلطة البابوية. فقلت : إذن هى مسيحية محـضة فى نشأتهـا وأغراضهـا، فما لهـا ولغير المسـيحيين؟ قـال: إن أربابها لما دونوا تعاليمها، رأوا - تقوية لها أو لأنفسهم - أن يوسعـوا نطاق تعاليمها بحيث يسمح لغير المسيحيين أن يدخلوا فيها ويعدوا من أبنائها. وبذلك أصبحت الماسونية شيعة سياسية أو حزبا سياسيا، لاشائبة للدين فيه. غـير أن دعاتها يشترطون على من أراد الانتساب إليها أن يكون معتقدا بوجود الله وبقاء النفس، حـتى يسلم البشر من الإلحاد، وحتى تفيض المدنية على الناس. وكما كانت الماسونية سياسية محضة كانت روح البروتستانتية سياسية دينية. ومن هنا انسـاق الحديث إلى طائفة (الجزويت) فـقال السيد: إنهـا جمعيـة دينية محضة ثم شرح ما لهذه الطائفة من الـنية السوآى إزاء الإسلام وأهله. فذكرت له مثالا لذلك مـاكان يرتكبـه بعض اليـسوعـيين من تحريف الكتب الـتى يطبعـونها والتـلاعب بالنصوص التاريخية التى ينشرونها وفيها بعض الكيد للمسلمين. وبذلك شوهوا خدمتهم للعلم والتاريخ. وأضعفوا من ميل المسلمين إلى مطبـوعاتهم. فوافق السيد على ماقلته، وأيده بقـوله : إن اليسـوعيين لـم يُطْرَدُوا من فرنسـا إلا لكثـرة دسائسـهم وغلوهم فى مذهبهـم حتى أصبح اسم جزويت شـتما يشتم به الرجل الآخـر. على أن تلك الطائفة قليلة العدد بالـنسبة إلى غـيرها من الرهبنات فإن أتبـاعها لايتـجاوزون العشـرين ألفا. وسبب هذه القلة فـيهم أنهم لايقبلون دخول أحد فى زمـرتهم مالم يتوافر فـيه شرطان الأول : أن يكون غنيا ذا ثروة ونفـوذ مالى عظيم. والثانى أن يـكون عالما متبـحرا، أو خطيبا ماهرا ويختبرون مقدرته بإعطائه مـوضوعًا علميا يكتب فيه ويعلق عليه من رأيه، فإن أعجبهم قبلوه وإلا رفضوه[1] .

(١) أى أنهم يأخذون بأسـباب القوة لذواتهم ومذهبـهم، ويكيدون لغيرهم. وأقـول - أيضا - على المسلمين أن يأخذوا بأسـباب القوة (والعلم والمال قوة) وكـفاهم نبلا أنهم حملة مصـابيح الهداية لكل الناس.

وسألنا شيخنا عن مصير آثاره وماوضعه من الرسائل والتصانيف فقال : إنه لايوجد لديه منها فى الآستانة شيء. وقد تركهـا فى لندن حينما غادرها إلى الآستانة على جناح السرعة حتى أنه لم يصحب من امتعته سوى سَفَط[1] أودعه لبوس بدنه.

وسألتـه عما إذا كـان أنجز وعده الذى بلغنا عنه من آنه سـيؤلف كتـابا فى حقيـقة الديانة الإسلامية فـقال : إنه لم يؤلفه بعد، وإنما كتب باللغة الفارسـية عدة مقالات فى الدين الإسلامى وسمو تعاليمه لكنها ليـست محفوظة لديه، وإنما هى مبعثرة هنا وهناك عند أصدقائه ومريديه الكثيرين المنتشرين فى الهند والبصرة ومصر ولندن.

يقول المغـربى (ص ٧٨) (عن مؤلفات السـيد) : عجـبنا كيف لايُقبل السـيد على وضع التصانيف المطولة وإنما هى مقالات ورسائل مبعثرة هنا وهناك، كما أنه لم يكترث لذكر بعض مصنفاته التى طبعت. . ورسالة (البيان فى تاريخ الإنكليز والأفغان) و «العلة الحقيقية لسعادة الإنسان» على أن هذه الأخيرة ليست مستقلة، وإنما هى مقدمة صدر بها تاريخه (البيان) المذكور. وروى الشيخ عبد الرشـيد إبراهيم أن للسيد الأفغانى رسالة فى الرد على المسيـحيين. ولم يذكر الأفغـانى هذه الآثار، ولم يعدها من مصنفـاته. ومثل السيـد الأفغانى تلـميذه (أسـتاذنا الشيخ مـحمد عـبده) ولم يؤثر عنه منهـا إلا «رسالة التوحـيد» المشهـورة، وإلا رسالة فى «إصلاح المحاكم» ورسـالة فى «الرد على هانوتو» ورسالة فى «الإسلام والنصرانية» وله مـصنف فى العلوم الأزهرية تكلفه منذ كان يعمل مع علماء الأزهر فى علوم الأزهر. ومانسب إليه من التفسـير لم يضعه بقصد التصنيف فى تفسـير القرآن، وإنما هى دروس كان يلقـيها على الطلاب فى الرواق العبـاسى أحد أروقة الأزهر. فكان الحـريصون من المريدين، وأشـهرهم صديقنـا (الشيخ رشيـد رضا) يدونون مايسمـعون منه فى التفسـير، فالمصلحان العظيمـان لم يشاءا أن يؤلفا ، ولا أن يخوضا غمار المناقشات الدينية والعلمـية؛ علما منهما بأن كثرة الخوض فى أحكام الدين وعقـائده وموروث تعـاليمـه والتوسع فى شـرحهـا يزيد المسلمين بلبلة وخـلافا ويورط الخائض فى مناظرات مع الآخرين تؤدى حتما إلى مهاترات ومجادلات تنتهى أخيرا إلى منابذات وبذاءات. علـم هذا شيـخـانا العظـيمـان فـزهدا فى إطالـة النفس فى وضع المصنفات. وعَدّاً ذلك قاطعًا لعملهمـا فى الإصلاح الإسلامى والاشتغال عنه بما لايفيد من العلم، ولا ينسجم مع أخلاق العلماء. ولاجرم أن الجدل مع المخالفين، والرد، وردّ الردّ يشغل رجال الإصلاح عـما هم بسبيله من الإصلاح وتعبيد طرقـه، وتعميم الدعوة إليه. هنا دعوة إلى الإصـلاح الدينى، وقرت فى نفس المصلحين العظيمين، وقـد تعبدا

---

(١) السَّفَط فى اللغة: وعاء يوضع فبه الطيب وأدوات الزينة

إلى الله فى نشرها وإقناع إخـوانهم المسلمين بها. ويجب أن يسـبق الدعوة إلى الشىء، تعيين الشىء، وتشخيص هدفه، وتحديده من أطـرافه، وأن يكون ململمًا موجزا تحيط به نفس السامع، ويسـتوعبـه فهمـه وتتشربه مـداركه.. وبعد أن تُحـددَ مطالب الإصلاح وتُعيّن، يجب الإلحاح فى الدعـوة إليها، وحمل الآخرين على النظر فيـها. فإذا حاول الآخـرون الخروج عنهـا إلى الجدل فى غـيرها، ردهم المصـلح بلطف أو بعنف إليهـا. وليحذر المصلح اللّغط.. إنه من أكـبر الغلط. هذا الوثيروس[١] أشهر المصلحين الذين نجحوا فى إصلاحهم إلى أبعد حد، لم يكن يقدَّر له النجاح لو لم يدع إلى شىء معدود وجد محـدود. غامر فى الدعوة إليه، والصـبر عليه، وعرّض نفسـه للخطر فى سبيله، فنال المراد، وقضى نهمته مما أراد. ولا نظنه خـرج فى دعوته إلى الجدل فى غير مطالب الدعوة المعدودة المحدودة. ولذا عاشت دعوته، وملأت الخافقين رعيته. مالنا وله . هذا (محمـد) وبحسبنا (محمـد) مثلا - قام صلى الله عليه وسلم فى وجـه عبدة الأوثان، ودعا إلى شىء واحد: الأوثان باطلة. الله واحد، التوحيد. التوحيد. ضرب صلى الله عليه وسلم الأمثـال والشواهد، مع تنويع أساليب الحجاج فى تصوير قـبح ماهم عليه، وحسن مـايدعوهم إليـه.. وبهذه الصورة انـتـشر التـوحيد، وخـالطت بشاشـته قلوب العرب. حتى إذا ماتم له ذلك، أخذ فى وضع بناء الشرع على أسـاسه. وتوجيه أتباعه إلى الاهتداء بنبراسه.

وهذا ماكـان يطمح إليـه شيخنا الأفـغانى الذى انصـرف عن التأليف إلـى الهدف المنشود، وهو مايجب أن يكون هدف المصلحين العاملين.

وجرى فى بعض جلساتنـا إلى السيد (ص ٨١ ومابعدها) (والكلام للمـغربى) ذكر ماوقع له ولناصـر الدين شاه من الإحن والمحن، وقلنا له: إننا اطلعنا على كـتابه الذى أرسله من البصرة إلى أكبر مجتهدى الشـيعة (جناب الحاج الميرزا حمد حسن الشيرازى) المقيم فى «السامرا» (سُرّ من رأى المعتـصمية - على دجلة بين بغداد وتكريت) - وأشرنا إلى مافى الكتاب من بلاغة وحسن تصرف فى التهييج وإثارة الحفائظ على الشاه. فتهلل

(١) لى مع لوثيروس قصـة لا أنساها، وكيف أنساها، وقد كـانت القشة التى قصمت ظهر البـعير. كنت أعد للدخول فى امتحانات إحدى الشـهادات، وكنت أقرأ دعوة لوثيروس، وبصوت منفعل ومرتفع. كنت فى العـشرين من عمـرى، وكنت بعيدا عن أهلى. وذات ليلة وجـدتنى وأنا أقرأ القـصـة (على النحـو سـابق الذكـر)، ارتمى على سـريرى فى نوبة شـديـدة هى أولى نوبات النيوراستانيـا التى لم أتخلص منها إلا شيئا فشيئـا وعلى مدى ثلاث سنوات. عدلت بعدها عن الشهادة السالفة الذكر وبدأت طريقا جديـدا، ومن الصفر (وانظر لى «محمد فريد وجدى» ص ٦ وصفحات من اليوميات ص ٣٤ - وبند ٥٣).

وجه السيد وتدفق فى وصف ماوقع. وكان يلذ له تكرار الحديث فى ذلك، فقال: جئت بطرسبرج ومكثت فيها أكثر من أربع سنوات. وخلال هذه المدة زارها الشاه، وأحب الاجتماع بى. فلم أرغب في مقابلته. ثم سافرت إلى (ميونيخ) (بألمانيا)، فجاءها الشاه أيضا. وطلب مقابلتى فامتنعت. فتوسط بيننا بعض كبار الرجال الألمان وغيرهم، فاجتمعنا وطلب منى الذهاب إلى بلاده لأكون رئيس وزرائه. فأبيت وقلت: إنى متهيئ للسفر إلى باريس ومشاهدة معرضها (١٨٨٩). ولكن الشاه أخذ يلح علىّ إلحاحا شديدا. فلم أجد مناصا من إجابة طلبه والذهاب معه إلى بلاده. قال السيد: ومن جملة قول الشاه فىّ «هذا رجل العالم السياسى الحربى اللائق أن يكون رئيس وزارة يقوم فيها بتدبير الأمة» فقلت للسيد: كيف يدعوك لكى تكون رئيس وزرائه وأنت مشهور بفرط رغبتك فى تشييد عقائد أهل السنة؟ فقال: «جنون منه وهوس» (كذا سألته وكذا أجابنى) وكلا السؤال والجواب مستغرب فى نظرى اليوم. ولا أتذكر السبب الذى دعانى إلى أن أوجه إليه هذا السؤال. ويخطر لى أننى إنما أردت أن استخرج تصريحا منه فيما يتعلق بكونه أفغانيا سنيا أو إيرانيا شيعيا. فدل جوابه على أنه ليس من الإيرانية ولا الشيعية فى شيء.

قال السيد: وبعد أن أقمت فى بلاد إيران حينا من الزمن طلبت الذهاب إلى الأوروبا[1] فمنعنى الشاه من السفر، وبلغنى عن لسانه كلام خشن فىّ. وأنه ينوى لى نية سوء، وأن يحجر على فى البلاد الإيرانية فاحتلت على الذهاب إلى مقام شاه عبدالعظيم على بعد عشرين كيلو مترا من طهران. والشاه عبد العظيم من أحفاد بعض أئمة آل البيت. ومقامه حرم من دخله كان آمنا. فمكثت ثَمّ سبعة أشهر، وكتبت وأنا هناك عدة مقالات؛ وحررت فى الجرائد جملة رسائل أودعتها مثالب الشاه، وحض الشعب الإيرانى على الثورة عليه وخلعه. ثم خرجت من مقام الشاه عبد العظيم إلى البصرة وأقمت فيها حينا، وجرت لى فيها عدة أمور ذات بال: منها إرسال كتاب إلى بعض مجتهدى الشيعة، ثم قمت من البصرة إلى لندن، وعدت إلى الكتابة فى تقريع الشاه وذمه، والعمل على إسقاطه. ومن لندن طلبنى جلالة السلطان عبد الحميد، فاعتذرت بأنى منهمك فى أمر الشاه، ومشغول بمقاومته. ثم طلبنى ثانية (وكان الشيخ أبو الهدى تعهد للسلطان بأنه سيقنع السيد بلزوم الحضور) فأجبت. ويممت شطر دار السعادة ناويا الرجوع إلى لندن بعد مقابلة السلطان فأنال أَربى من تنكيس الشاه وإنزاله عن العرش (وما أشد سلامة صدر السيد الأفغانى مذ ظن أنه يمكن الخروج من الآستانة والتخلص من الفخ الذى نصبه له السلطان وأبو الهدى) قال: أخبرنى السلطان أن سفير

(١) هكذا كان ينطقها.

إيران بالآستانة طلب مقابلته مرتين، ولم يأذن له إلا فى الثالثة. قال السلطان لجمال الدين: طلب منى السفير أن آمرك بالكف عن الشاه. فقلت: امتثالا لأمر مولانا خليفة العصر: (عفوت الشاه.. عفوت الشاه) (وتعدية «عفوت» محل نظر كما يقول العلامة المغربى). وذكر السيد أنه حمل بعض مجتهدى إيران على تحريم شرب الدخان. وقد أراد ببعض المجتهدين (الميرزا محمد حسن الشيرازى)، فأصدر فتوى حرم فيها على الإيرانيين شرب الدخان، فنفذوا، حتى أن الشاه طلب نارجيله (شيشه) ليدخن بها فأجابوه (أى حجابه) بأنه لاتوجد النارجيلة فى القصر؛ لأن المجتهدين حظروا التدخين وثار العامة على الشاه، وأحاطوا بقصره ليقتلوه أو يلغى المقاولة المعقودة مع الإفرنج لأجل تأسيس شركة (ريجى) فى بلاده فاضطر الشاه إلى فسخ المقاولة، ودفع إلى أربابها تعويضًا (نصف مليون ليرة إنكليزية).

ملخص من خبر إقامة السيد بالبصرة وماجرى له فيها: (ص ٨٥ ومابعدها)

قال المغربى: قص على أحد وجهاء طرابلس الشام الخبر الآتى يرويه عن صديقه الشيخ عبد الحميد أفندى الرافعى وكان متوليا قضاء البصرة وقت نزول السيد بها مُبْعَدًا من قبل شاه إيران. إذ سمع منى وصف الضجة القائمة حول أفغانية الأفغانى وإيرانيته على إثر ما نشره (محمد حسن خان) الملقب باعتماد الدولة وهو من كبار موظفى حكومة إيران المقربين لدى ناصر الدين شاه فى كتابه (المآثر والآثار) وهو بمثابة (السالنامات) التى تصدرها الحكومة العثمانية. قال اعتماد الدولة: «إن جمال الدين من قرية أسد آباد من أعمال إيران، له مقام عال فى العلوم العتيقة والجديدة.. تعلم العلوم الشرعية فى مدينة قزوين ومدينة طهران. وسافر إلى بلاد أفغانستان وهندستان ومنها إلى الممالك العثمانية ومصر.. إلى أن قال: وأهل السنة والجماعة يزعمون أنه أفغانى، كما كتب كبير تلامذته (محمد عبده) فى مقدمة رسالة الرد على الدهريين» اهـ. وسألنى سائل فى بعض أندية طرابلس عن هذا القول، وعن التوفيق بينه وبين ماقاله كل من الشيخ عبده وأديب بك إسحاق وسليم بك العنحورى وثلاثتهم من أصدقاء الأفغانى وممن خالطوه طويلا، وقد حققوا أنه أفغانىّ. فقلت فى التأويل: إننى وأنا فى مصر (١٩٠٥ - ١٩٠٩) سمعت فاضلا إيرانيا أزهريا يروى عن شيوخ قومه أن والد السيد جمال الدين إيرانى من ولاية (مازندران) - إحدى مقاطعات إيران، وكان ضابطًا فى الجيش الإيرانى، فارتأت حكومته أن ترسله فى مهمة تتعلق بالحدود بين المملكتين أو لسبب آخر. فذهب الضابط إلى بلاد الأفغان، وطابت له السكنى فيها وتزوج إحدى كرائمها وولد له جمال الدين منها فى بلاد الأفغان، أو أن جمال الدين ولد لأبيه فى إيران، ثم حمله أبوه معه إلى الأفغان حين ذهابه إليها» اهـ.

ويقـول المغربي : إن هذا يشـبه تسـمية مؤرخي العـرب للإسكندر ابن فيلـبوس (الإسكندر اليوناني أو الرومي) مع أنه مكدوني: لم يولد في بلاد اليـونان، ولاعلاقة له بشعبها، لكنه افتتحها، وكان أستاذه (أرسطو) من فلاسفتها، ومعظم جنوده من أبنائها. ولم أستتم كـلامي هذا عن سبة جمـال الدين حتى انبرى الوجيـه الطرابلسي المذكور، وقال ممتعضا منكرا كل ماقالوه في نسـبة جمال الدين إلى إيران. وقال : إن جعل السيد من أبناء إيران، أو من مواليـد إيران فرية افتـرتها عليه حكومـة ناصر الدين شاه بقـصد الانتقام منه . وإن الخبر اليقين هو فيما حـدثني به صديقي (عبد الحميد الرافعي) قاضي البصرة أثناء نزول السيـد بها مبعدا من إيران. فهو إذن شاهد عـيان. قال القاضي: كان والي البصرة ليوم نزول الأفغاني بها (هدايت باشـا) وهو رجل جليل القدر كثير التقوى والصلاح، فاحتـفل الوالي بقدوم السيد وأكرموا نزله. . وإذا برقـية (شفرة) وردت إلى الوالي من المابين يسألونه فيها عن نشأة جمال الدين وأصله وفصله، وهل هو إيراني كما يزعم الشاه؟ قال القاضي: فاسـتحسن الوالي أن يوسطني لدى جمال الدين لأعلم أصله وفصله من غير أن يشعر بقصدي. . ولكن ذكاء الأفغاني الخارق جعله ينتبه إلى الغرض من سؤالي فـبادرني بقوله : إنه أفـغاني الأصل والفـرع وأنه لاعلاقة له جنسـية بإيران ولاتابعيـة وأن الشاه يشـيع ذلك عنه إرادة اجتـراره إلى إيران ثم الانتقـــام منه . وقال جمال الدين : في سنة ١٢٨٧ هـ في زمن وزارة صفوت باشـا للمعارف عينه عضوا في مجلس المعـارف الأعلى بناءً على كونه أفغـاني الجنس. فليسأل رجـال المابين إن شاءوا الوزارة المذكورة. قال القاضي : وبعد أن أبل السيد من مرضه الذي أصيب به وهو مبعد في (شـاه عبد العظيم) تهيأ للسيـاحة داخل الجزيرة العربية - وهو المشروع الذي قام به بعـــده المرحوم (الســيـد عبد الرحـمن الكواكبي) واستـأذن الوالي المابين فيمـا طلبه السيد من الســياحة في شـبه الجـزيرة العـربية -وجاء الرد بالمنع ثم استأذن بالسفر إلى لندن فاستشـار الوالي (هدايـــت باشا) المابين فأذنوا له بإطلاق سراحـه، وعجل السيد بالسفر إلى لندن، وقد أصاب فقد جاء بعد ذلك أمر بالمنع.

قال القاضي: ولما هم السيد بركوب البحـر إلى لندن لم يكن في جيبه سوى عشرة جنيهـات. وتَذَاكَرَ الوالي مع أعيان البـصرة، وتم جمع خمسـمائة جنيه للسـيد. وقبل السيـد المبلغ لما وقر في نفسه من حب هـذا الوالي الصالح واحترامـه الشديد له. ولولا ذلك ماقـبل منه. ففي موقف ممـاثل عرض عليه مـبلغ، فامتنع وقـال قولته المشـهورة:

«الأسد أينما ذهب لايعدم فريسته» وكان الذى قدم المبلغ (المرفوض - قنصل الإنكليز[1] فى السويس).

وفى لندن أخذ السيد يكتب ويخطب وينشر ، وخاصة فى «ضياء الخافقين» (بتوقيع السيد). وقد أثرت هجماته على الشاه ناصر الدين - على العلاقات الإنكليزية الإيرانية. كان السيد ثائرًا عميق التأثير، وشُعْلَة لاتنطفئ، تلقى بأنوارها إلى مختلف الأمكنة، وإلى مدى بعيد.. وكانت جريدة «ضياء الخافقين» تنشر باللسانين العربى والإنكليزى، وكانت تصدرها شركة إنكليزية جعلت هدفها (حصول التواصل والتعارف بين الغربيين والشرقيين) - يقول المغربى: قرأت فى «ضياء الخافقين» مقالا للسيد فى وصف ماكانت عليه إيران من الانحطاط وسوء الحال، ختمها بقوله: «وأسفا على هذه الأمة كيف أبادها الجور.. وبددها الظلم حتى سقطت من عداد الدول العظيمة، وكاد أن يندرس رسمها، وينطمس اسمها.. أين العلماء؟ وأين حملة القرآن، وأين حفاظ الشرع، والقائمون بأمر الأمة، وأين نصراء الحق والعدل.. إلخ..» - ضاق صدر الشاه، فالتجأ إلى السلطان الذى كتب إلى رستم باشا سفيره فى لندن فلم يفلح السفير. وأخيرًا، أفلح الشيخ أبوالهدى منذ كتب إلى الأفغانى ضروبا من الرقى، وأفانين من المنى. وكان السيد طيب القلب سهل الانخداع فوفد إلى الآستانة وإذا الشيخ الرافعى بها، قد انقضت مدته فى البصرة فجاء يطالب بغيرها. سأله السيد عن (هدايت باشا) ، فأخبره أنه توفى. فكلفه بالبحث عن عائلته وحاجاتها حتى يكون فى عونها. ووجدها القاضى الرافعى، ووجد أنها (الأرملة وبنتها وزوجها وابن بنتها) فى أشد الضيق. حقق السيد للأسرة ماكانت تريده من قيد الحفيد فى (الزادة كان) (أى مع أبناء الأشراف والبيوتات القديمة). وعيَّن له معاش دائم ثلاثون جنيها، كما وظف للأرملة وابنتها خمسين جنيها، ووجهت رتبة عالية على صهرها.

أقول : هذه هى المروءة ، هذه هى الغيرة، غيرة الذى يعمل لغيره، كما يعمل لنفسه، وهذا هو العرفان، عرفان الأفغانى (وهو من أهل الفضل) لفضل قدمه (هدايت باشا إليه - وسبق ذكره) - ولايعرف الفضل لذوى الفضل إلا أهل الفضل. وأضيف أن الأفغانى نفسه، ماكان ليطلب مالا ولا جاها، ولا متاعًا من متاع الدنيا الزائلة لنفسه. وفى المثل: ما آلمنى كثلاث: أحدها : عزيز ذلّ.

---

(١) فى ذلك روايات أخرى، منها أن الذين قدموا المبلغ (المرفوض) الجالية الإيرانية بالسويس، ومعهم القنصل الإيرانى بها.



٥[(١)] (ص ٩٢ ومابعدها)

أقول: فى هذا الفصل «القول الفصل»، وفيه الحسم والقطع «بأفغانية الأفغانى» مولداً ونشأة، وأما وأبا وأرضا. نعم: وأرضا: «وأول أرض مسَّ جسمى ترابها» - قالها الشاعر، ورددها الأفغانى. ما أعجب التاريخ ! وما أجدرنا بأن نتناوله بتحفظ كبير. ما أكثر هؤلاء الذين يفترون المفتريات، ويخترعون الإشاعات. وقد تبدأ الإشاعة «حبة» وبانتقالها من زيد إلى عمرو، إلى غيرهما تصير «قبة». ومن أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام «من تَقَوَّل علىَّ مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار»[(٢)] . ورغم هذا التحذير والوعيد تَقَوَّل عليه المتقولون، ممن يحملون أسماء إسلامية. . ما أكثر الإسرائيليات فى كتب التفسير، أو بعضها، وما أكثر الأحاديث المنحولة، والمسندة إلى نبينا عليه الصلاة والسلام . ويأتى أعداء الإسلام، وما أكثرهم فى كل زمان ومكان الذين يعتمدون «الباطل» ويفترونه على أوسع نطاق. ولقد لعبت «السياسة»[(٣)] و«حب الدنيا والسلطة» وعلى مدى العصور، أدوارا وأدوارا فى اختراع الأكاذيب. إن الذين يعملون على تشويه تاريخنا، ويعمدون إلى تجريح سير عظمائنا موجودون، وكثيرون، وفى غيهم ماضون. وحتى اليوم. ﴿ ... وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة].

يقول المغربى : «ونرجع إلى مجالسنا إلى السيد مذ كنا معًا فى الآستانة سنة (١٣١٠هـ) للسيد كتاب فى تاريخ الأفغان سماه «البيان فى تاريخ الأفغان». إذا تصفحته وجدت مقاطع كثيرة يستأنس بها على أن السيد كان أفغانيا سُنِّيًا، لا إيرانيا شيعيا. من ذلك قوله: «وجميع الأفغانيين سنيون، متمذهبون بمذهب أبى حنيفة لايتساهلون، رجالا ونساء، وبدويين وحضريين فى الصلاة والصوم سوى طائفة (نورى) فإنهم متوغلون فى التشيع، ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ولايبالون بالصلاة والصوم، وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضي الله عنه) فى العشر الأوائل من شهر المحرم ويضربون ظهورهم وأكتافهم مكشوفة بالسلاسل». ولو كان الأفغانى إيرانيا لكانت لهجته فى التحدث عن سنية الأفغانيين وتشيع بعض طوائفهم غير هذه اللهجة. . وألذ مايجده القارئ فى تاريخ الأفغانى وصف السيد الأفغانى فيه لقبائل الأفغان

(١) الفصل الخامس من كتاب المغربى عن الأفغانى. لهما، ولمن سلكوا طريقهما الرحمة والرضوان!

(٢) ابن ماجة عن أبى هريرة.

(٣) الله يعلم بقلبى ومايحمل من هموم المسلمين - إنى أنظر إلى حكام العرب والمسلمين، فأراهم - أو أكثرهم - قد جعلوا القيم الإسلامية والإنسانية وراء ظهورهم. ونسوا الله، وعبدوا السلطة. والشعوب تدفع الثمن!!.



وعاداتهم . . فى أفراحهم وأتراحهم، مما يدل على لطافة طبع السيد وحبه المزاح والدعابة مثلما رووا عن جده الإمام على رضى الله عنه. من ذلك قوله : وقلما يوجد البصل عند بعض القبائل كقبيلتى (يوسف زائى) و (أجيك زائى) - فتراهم إذا رأوا أجنبيا يتملقون إليه ويتذللون بين يديه قائلين: (عندنا مريض فنرجوك التفضل عليه ببصلة عسى أن يكون شفاؤه فيها). أما قبيلة (أجيك زائى) فكثيرا ما يتعرضون للقوافل إرادة السلب والنهب. يسدون طريقها ويقابلونها بالأسلحة النارية والآلات الحادة، فإذا لم يمكنهم التغلب عليها صالحوها على أقتين[1] أو أقة من البصل! واتفق أن ملك الأفغان (محمد أعظم خان) بعدما ترك البلاد الهندية وفد على قبيلة (يوسف زائى) ونزل فى خيمة خانها، فقام الخان مسرعًا وعلى وجهه ملامح الفرح، وإذا به يقدم للأمير بصلة[2] !

تكلم المغربى ص ٩٤ ومابعدها عن نفرة السيد من الإنكليز . . فقد كان يهيج الهنود عليهم . . ويوقد نار حميتهم بمثل قوله : «أمَا والله لو كنتم سَلاحِفَ وأنتم بهذه الكثرة وسبَحْتُمْ إلى الجزر البريطانية ورفستموها بأرجلكم لأغرقتموها إلى قاع البحر».

وعن قوة حجة السيد أنه جرى بينه وبين بعض كبار الأوروبيين جدال فى المفاضلة بين الشرق والغرب فاقتحم خصمه بنبرة حادة قائلا : «كفى الشرق شرفا أن قام منه رجل مازالت تعبده أمم أوربا إلى اليوم» (يعنى السيد المسيح).

أقول : كان حاضرو مجلس الأفغانى ومنهم الشيخ المغربى، يسألونه فى أشياء كثيرة، وفى كل شاردة وواردة، ومع كثرة ماسئل مما ذكره المغربى فى كتابه عنه وهو كثير كثير، يقول: لم أجده قال (لاأدرى)! وأحيانا يكون السؤال يتضمن معلومة معينة، فقد يقول نعم، ويضيف إليها، وقد يعدّل فيها. إنه - بحق - البحر المحيط الذى لم يخيِّب قط رجاء غواصيه!! وهذا جانب من جوانب الأفغانى العالم والفيلسوف. إنه فذ بين غير المدعين، وغير المتكلفين.

وأعود إلى المغربى الذى أشار بص ٩٦ ومابعدها إلى إجابات الأفغانى عن بلوجستان وإلى مقارنة الأفغانى بين بعض العواصم الأوربية، يقول المغربى: فانتهزت هذه الفرصة وجررته إلى الحديث عن العالم الإسلامى ومايُرْجَى له من ارتقاء ونهوض، وقلت له : إن الأستانة (عاصمة الخلافة) ليست الآن كما كانت منذ ثلاثين سنة، وهذا

(١) كانت مصر - على سبيل المثال - تستخدم - فى الوزن - الأقة والرطل حتى عهد ليس ببعيد جدا، حيث تم التوحيد، بالاقتصار - فى الوزن - على الكيلو وكسوره.

(٢) فى المثل العامى : «صام وأفطر على بصلة!» وهو يعنى : تحمل المشقة، وكانت النتيجة غير ايجابية.



يشيـر إلى يقظة المسلمين، واهتمامـهم بالأخذ بمدنية أوروبا، وأرى (والكلام للمـغربى) «أنه لايمضى عليهم زمن حتى يبلغوا فى تقدمهم مـابلغته أوروبا. فلم يعجب السيد هذا التفـاؤل المرح الذى آنسه فى كـلامى وقال: إننا مـعشر المسلمين إذا لم يؤسـس نهوضنا وتمدننا على قـواعد ديننا وقـرآننا فلا خـير فيـه، ولايمكن التخـلص من وصمة تـأخرنا وانحطاطنا إلا عن هذا الطريق. فقلـت له : ألا ترى فرقا بين حالتنا اليـوم وحالتنا منذ ثلاثين سنة من حيث الأخـذ بأسباب الرقى والعمـران؟ فقال: إن مانراه اليـوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط ولمه؟ لأننا فى تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية، وهو تقليد يجـرنا إلى الإعجاب بـالأجانب والاستكانة لهم، والرضـا بسلطانهم علينا. وبذلك تتحول صبغة الإسلام التى من شأنها رفع راية السلطة والتغلب إلى صبغة خمول وضعة واسـتئناس لحكم الأجنبى . فقلت: وماهى الطريقة القـويمة التى ترى أن نسلكها لنتوصل إلى التمدن الصحيح حسب اعتقادك؟ أجاب: لابد من حركة دينية .

زدنى إيضاحاً عن معنى الحركة الدينية.

قال : إنـها الحـركة الدينيـة التى قام بهـا لوثير، وألح، وقـاوم، وصبـر. فكانت البروتستانتية التى قامت مقابلة للكاثوليكية، وتنافست الشعوب البروتستانتية مع الشعوب الكاثوليكيـة، وكان فى هذا التـسابق الخـير للفـريقين، أى لأوروبا عـامة وكان ظـهور الإصلاح على يد عميده المبشر به عام ١٥١٩م، وبعده بنحو خمسين سنة حدثت ملحمة برثلماوس فـى باريس فكانت منشطة لما بدأ به لوثيروس، وأقنعـت الرأى العام الأوربى بلزوم الإصلاح واعتناقـه. لقد كانوا عبيـدا لمن استغلوا الدين للاستـبداد بالآخرين، ثم نفضـوا ثياب الاسـتبداد وارتدوا ثيـاب الحرية. وهناك عوامـل أخرى سبـقت الإصلاح ومهدت الطريق إليه وهى:

(١) الطبـاعة : كان ظـهورها عام ١٤٥٠م. (٢) فـتح القـسطنطينـية (١٤٥٣م). (٣) اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٨٦). (٤) اكتشاف أمريكا (١٤٩٢م) - غَيَّروا ما بأنفسـهم فغيـر الله حالهم إلى الأحسن. وكـان الأفغانى يدعـو المسلمين إلى تغييـر ما بأنفسـهم من رثاثة تقاليـد وغثاثة أخـلاق بالرجوع إلى القرآن وتعـاليمه. بعـد أن قارن المغربى بين حالة الأوروبيين قبل النهضة وحالة المسلمين ، وأشار إلى أن القرآن موجود، سأل السـيد، ماذا تقـصد بالحركة الدينيـة؟ (١٠٢ ومابعدها). فـأجاب ص ١٠٢ : إن المقصود بها هى كناية عن الاهتمام بقلع مـا رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينيـة والنصوص الشرعية على غير وجههـا : مثل حملهم نصوص القضاء والـقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتـحركوا إلى طلب مجـد أو التخلص من

ظُلْمٍ. ومثل فهـمهم لبعض الأحاديث الشريـفة الدالة على فساد الزمان أو قـرب انتهائه فهمًا يثـبط هممهم عن السعى إلى الإصلاح والنجاح فى نظيـر ذلك مما لاعهد للسلف الصالح به، فلابد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحـيحة بين الجمهور، وشرحها لهم على وجههـا الثابت.. قال : ولابد أيضا - من تهذيب علومنا، وتنقـيح مكتبتنا، ووضع مصنفات فيها قريبة المآخذ، سهلة الفهم[1]

٦ (ص ١٠٤ ومابعدها)

١ - ومن ملح أخبار السيد الأفغاني بعد مجيـئته الثانية إلى الآستانة أنه كان جالسا مع مريديه ذات يوم فى منتزه الكاغـدخانة (أشهر مفتـرجات الآستانة) فمر خـديو مصر وهو فى عربته بهم فحياهم بيده من بعيد، فقاموا له احتراما. لقد كان الخديو يشتاق إلى لقاء السيد لكن هذا لم يكن ممكنا فى عهد السلطان عبد الحميد. وقد كتب له جواسيسه تقريرا، قالوا فيه: إن الخديو قد التقى بالسيـد، وقد تكلما فى موضوع الخلافة حاضرها ومستقبلها، وما يُصلح نظامها.. فاستدعى السلطان السيد وعرض عليه التقرير المخالف للحقيـقة. فقال السيد للسلطان : إن الرسـول عليه الصلاة والسلام كان يتخـذ عيونا له على الناس يخـبـرونه بما يجرى ولكنـهم كانوا من أهل الإخـلاص والصـدق وسلامـة الوجدان. فمزق السلطان التقرير (ص ١٠٥) (الفقرة ملخصة بلغتى).

٢ - وكان للسيد جرأة ودالة على السلطان لم تعهد لغيره. وكان للسيد صديق من المصريين طلب له السيد رتبة وزيادة فى الراتب فوعده السلطان بذلك. ومضت أيام دون تنفيذ، فكتب السـيد للسلطان يستنجزه وعده، فلم يأت الكتـاب بنتيجة. فاحـتد جمال الدين، وكان حاد المزاج. و«طالما هدمت الحدة مابنته الفطنة» كما قال فيه صديقه الشيخ محمـد عبده. فذهب للسلطان مـغضبا، واستـأذن فأذن له. ووقف أمامه منتـصبا على رجليه، وقال بصوت منفعل: «أمير المؤمنين كسر قلبى» وكررها. فلاطفه السلطان. فلما أخبره بالأمـر، قال: هذا أمر طفيف ماكان ينـبغى أن تغتاظ بسببـه إلى هذا الحد. وأمر بالرتبـة وزيادة الراتب للمصرى. ولمـا خرج من المقابلة ناولـه الحاجب خمـسمـائة ليرة عثمانية ذهبا.

---

(١) هذه قضية مـثارة منذ وقت مبكر. فكتب السـلف فى القرون الأولى للهجرة سـائغة اللغة، سهلة التناول. والأمر - كذلك - يرجع للمـؤلف، فكتاب ابن رشد «بداية المجتهد ونهـاية المقتصد» - وهو كتاب قيم جدا- عالج المسائل الدقيـقة بلغة رائعة. الشكوى من كتب بعض المتأخرين حيث تجد (على المتن) ومعه عدة شروح ومعظمهـا غامض يحتاج إلى تبسيط. وهذا أمر يجب أن تقوم به الجهة المخـتصة بالجامعة العـربية. إنها جيوش من الطلـبة، تركت الدراسة فى الأزهر - على مدى عهود طويلة بسبب هذه الكتب.



وروى بعضهم أنه (أى السيد) - وقد سيطر عليه الانفعال - قال للسلطان: إنما أتيتك لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك. (وقد استبعد المحدث بالحديث هذه الرواية كل البعد، وقال: إنما الخبر الحق ماقاله القنواتى باشا الذى ربما كان سمعه من لفظ عزت باشا العابد فى الآستانة، وكان لايفارق مجلسه، كما كان عزت باشا لايفارق مجلس السلطان.

٣ - لما كان السيد فى روسيا أحب القيصر أن يراه فاستدعاه إليه، وسأله عما كان بينه وبين شاه إيران. «فشرح له السيد بسذاجة الطفل سوء حالة إيران، واستبداد ملكها، وأنه نصح له بإدخال النظام الدستورى والشورى إلى إيران فأبى الشاه عليه وضاق به، وعمل على إخراجه. ولما سمع القيصر ذلك تغير وجهه وقال: أى ملك يرضى بأن يشاركه الفلاحون فى تدبير شئون مملكته. وأمر بإخراج السيد من روسيا فوراً[١] .

يقول شيخنا المغربى (رضى الله عنه وأرضاه) - فيما تقدم : «. . فشرح له السيد بسذاجة الطفل . . إلى آخره» - والسياق يفسر السذاجة - هنا - «بالغفلة» - ومبغضو الأفغانى وكل ماهو مسلم وكل ماهو إسلامى - يثيرون الشكوك والغبار حول هذه الزيارة، زيارة الأفغانى لروسيا والقيصر.

أقول: حاشا للأفغانى أن يكون من أهل السذاجة والغفلة، وحاشا له ألف مرة، أن يشوب إخلاصه لمبادئه المعروفة (وعلى رأسها عداؤه الشديد للاستعمار والاستبداد) أى شائبة. لقد عاش لها، ولاقى الألاقى، فى سبيلها ، وبسببها.

إن أخلاقه، وإن آماله، وإن ثوريته المستنيرة بنور الله قد عايشته ولازمته من يوم أن بدأ الجهاد، إلى يوم أن ترك دار المعاش إلى دار المعاد.

وأقول : إن الأفغانى قد سافر إلى روسيا، وقابل قيصرها ليكتب صفحة مجيدة فى تاريخه الحى المجيد. لقد أمضى عدة سنوات هناك، لا للسياحة والنزهة، ولكن من أجل مسلمى هذه البلاد، وعددهم بالملايين. لقد كانت القيصرية استبدادية. وكفى بالاستبداد شرا، وشرا مستطيرا للأقلية الإسلامية. لقد كانوا مقهورين ، ومحرومين من كل مايعرف اليوم بحقوق الإنسان : ومنها حق الحياة، وحق الحرية، والكرامة الإنسانية.

لقد نساهم - وقتئذ - حكام الدول الإسلامية ولكن الأفغاني لم ينسهم. لقد اتصل بالحكام هناك حتى القيصر، وسعى لديهم جميعا للتخفيف مما يلاقيه إخوانه وأبناؤه

---

(١) هكذا كانت القيصرية فى روسيا وبعد وقت ليس بطويل أطاحت به وبأسرته البلشفية، وليتهم كانوا رحماء به وبأسرته، وإنما ذبحوا الجميع ، اللهم إلا من استطاع الفرار خفية

المسلمون فى تلك البلاد. وأظنه نجح - وهو عظيم الاحترام فى كل مكان - فى تمكينهم من حرية العبادة، وتدريس الكتاب والسنة، ولو فى بيوتهم وعلى نفقتهم، وفى تمكينهم من كل مايحفظ هويتهم .

ومما يحسب للأفغانى المعروف بشجاعته ، وزهده فى حطام الدنيا (ومتاعها[١] القليل) - أنه حين أثير موضوع ناصر الدين شاه إيران، وثورة الأفغانى عليه، رَدَّ رجلنا العظيم أن أساس الخلاف بينه وبين الشاه هو دعوته - ليس فى إيران فقط - بل وفى كل مكان - إلى الأخذ بالشورى الإسلامية، (أى الديمقراطية السياسية، أى أن يكون حكم الشعوب بالشعوب، ومن الشعوب، ومن أجل الشعوب). ولايقول هذا فى وجه مستبد، بل جزّار ، إلا رجل كالأفغانى.

وقُطعَتْ ألسنة هؤلاء الذين يرمون الأفغانى «بالخيانة» بسبب هذه الزيارة للقيصر، وكأن القيصر بلا سفارات تأتيه بالأخبار من كل مكان ﴿ ...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف: ٥].

وذهبت القيصرية من روسيا لتحل محلها الشيوعية الأكثر طغيانا وفسادًا . لقد كان المفروض - وهى لادينية - أن تسوى بين الجميع. لكنى رأيت بعينى، وسمعت بأذنى غير ذلك[٢] . لقد زرت بلغاريا فى ظل الشيوعية فى رحلة صيف. وبلغاريا تضم أقلية إسلامية. رأيت المسلمين هناك مكسورى الخاطر، مهيضى الجناح، ذابلى الوجوه والأجساد، ورأيت البلغاريين يُكرهونهم على تغيير أسمائهم بصبغها بصبغة بلغارية. لقد ارتفعت أصوات من هنا ومن هناك، واحتجت واستنكرت مايجرى، ومنها هيئات حماية حقوق الإنسان فى أوروبا وغيرها. لكن الدول الإسلامية - كشأنها عادة، لم تصنع شيئًا ذا بال إنما هو الكلام، وربما للاستهلاك المحلى. وفى المثل العربى «أسمع جعجعةً ولاأرى طحنا».

إن الكيد للإسلام مستمر فى البوسنة والهرسك وفى الشيشان[٣] وغيرهما. ولم يعد أحد يبالى بنا! ولماذا لايفعلون، وهم يرون كيدنا بيننا؟! . وأضيف : أن الشيوعية قد

---

(١) ﴿ ... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ...﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء].

(٢) إنى أعلم أنه استطراد، ويدفعنى إليه حرصى على تعرية الشيوعية والشيوعيين وهم مازالوا بيننا - مما شاهدته فى بلغاريا انتشار الفساد والسرقة والنشل حتى فى الفندق الذى ننزل به. رأيت ممثلى الحزب فى المدينة (فارنا) يتجرون باستبدال العملة فى السوق السوداء عيانا جهارًا. ويستنزفون بكل الطرق جيوب السائحين. !

(٣) سمعت فى إحدى الإذاعات قول مسئول شيشانى. إننا، وإخواننا فى القوقاز - الأصل وروسيا لم تظهر - كدولة - إلا بعدنا نحن بأكثر من ألف سنة. إن الشيشان يقومون بحملات انتحارية داخل روسيا ذاتها. والله معهم.

سـقطت بدورها بتـفكك الاتحاد الـسوفـيتـى. وظهرت على المسـتـوى الدولى والأممى الجمهوريات الإسـلامية التى تعتز بنا ونعتز بها. وقـوّى الله الروابط بيننا وبينها، وقواها بين المسلمين عامةً، وفى كل مكان.

٤ - قال المغـربى ص ١٠٧ : حدثنى صديق من أعـيان دمشق بلطيـفة من لطائف الأفغانى مع جواسيس السلطان : كان شـريف مكة قد غضب على أحد المكيين المقيمين بالآستانة. وخشى هذا المكى من تعقب الشريف له فلجأ إلى بيت السيد الأفغانى. وأخذ جواسيس السلطان يحـومون حول منزل السيد الذى قـال : إن من كان فى مثل ظروف هذا المكى يلجأون إلى دور السفارات فتحميهم، وأنا سفير الله لا أحمى من يلجأ إلىّ. وأضاف ألا ينبغى أن يطرد هؤلاء الجواسيس عنى، كما يُطردون عن سفراء البشر؟!

٥ - (ص ١٠٨) سأل بعض المتحذلقين فى العلوم الدينية السيد : هل يزيد الإيمان وينقص؟ فأجاب : أما فى القرى فلا. وأما فى العـاصمة فيزيد وينقص فى كل ساعة، كإيمان السلطان عـبد الحميد الذى يحـيط به هؤلاء الجواسيس» الذين يخبـرونه بما يقوى ثقته تارة، ويضعفها تارةً أخرى. فإذا صدقهم نقص إيمانه، وإذا لم يصدقهم زاد.

٦ - (ص ١٠٨) ومن لطائف السيد، أنه كان واقفا مع بعض مريديه فى جانب من جوانب باب الخلق ينتظرون مرور جنازة أحد الأمراء. وبالقرب منهم جماعة من النساء، لفت نظرهن واهتمامهنّ زى السيد، ومسارعة جـميع مرافقيه إلى خدمته، وهو يضاحك هذا أو يطارح ذاك. فقال لـه أحد من معه: اخفض صـوتك، فإنه يثير التـفات النسوة إليك. إنهن[1] ينغنغن ضاحكات أحيـانا ويتبادلن كلاما حسـبه رفاق السيد استـخفافا. أخشى أن يكن ينبطن علّيك[2] . قال السيد : دعهن: فإنى لا أبالى تنبيطهن. ويستطرد المغربى ويقـول (ص ١٠٩): وقد عـرف من رأى السيد الأفـغانى أنه يجـوز استعـمال الدخيل واللفظ الأعجمى فى الكلام العربى حتى روى عنه أنه قال : إذا أردتم استعمال كلمة غيـر عربية، فما عليكم إلا أن تلبـسوها كوفية وعـقالا فتصبح عـربية، وقد كنى بالكوفية والعقال عن التعريب. فكما أن الرجل الأعجمى إذا ألبسته لبوس العرب يصبح عربيـا فى ظاهره، فكذلك الكلمة الأعجـمية إذا عـربتها، أى ألبسـتها صـيغ الكلمات العربية تصبح عربية جائزة الاستعمال. وهذا من السيد توسع بعيد فى استعمال الكلمات الأعجميـة، يقبله بعضهم ويرده آخرون. وروى صديقنا الأميـر شكيب أرسلان (رحـمه

(١) النغنغة : صوت ضحك النساء، اذا أردن إخفاءه وهو بغالبهن

(٢) لعل التنبيط مأخوذ من اسم النبط وهو جيل معروف يشتغل معظمهم بالفلاحة. والتنبيط التندر بما لايليق.

الله) أن السيد جمال الدين قال فى قول الله عز وجل : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ...﴿٣﴾﴾ [الجن] أن (جد) معرب (كد) ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية.

ومن أشهر آراء السيد جمال الدين التى تتعلق بأبحاث اللغة ماروواه الأستاذ اللغوى المرحوم الشيخ عبد الله البستانى من أن السيد قال فى هجو بعض البلداء : هذا رجل من نسل البقروت، قال : فعابوا عليه استعمال كلمة (البقروت) - فأجابهم : ألا تقولون : جبروت وملكوت ورهبوت فلماذا تمنعون عنى قول (بقروت). فاعترضوا عليه بأن (بقروت) لم ترد فى كلام العرب. فقال : وهل تريدون منى أن أنكر نفسى» اهـ. وقد علق البستانى على ماقاله الأفغانى مستحسنا. وعلق الأب أنستاسى الكرملى على قوليهما مفندًا مستهجنا. وعلقت أنا (المغربى) على أقوال الثلاثة فى مقال نشر فى مجلة مجمعنا العلمى العربى (جـ ٨ ص ٦٢٦) موافقا فى شىء ومخالفا فى شىء. ومما لاحظته على شيخنا الأفغانى أنه جعل (بقروت) مصدرا، بدليل حمله لها على (جبروت) و(رهبوت) و (ملكوت)، وهى مصادر. ولايصح أن تكون (بقروت) مصدراً فى العبارة التى قالها. إذ لايقال فلان من نسل البقرية؛ وإنما يقال : فلان من نسل البقر والبقروت ليست بمعنى البقر. حتى قرأت أخيرا للمرحوم المخزومى باشا أن عبارة جمال الدين هى (سياسة بقروتية فى مملكة فرعونية) ولما اعترضوا عليه أجاب: كيف يصح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندى (بقروت) والسلام. إذن لاغبار على ماقاله السيد فى عبارته المذكورة، فإنه إنما يستعمل (البقروت) فيها مصدراً لاجمعا كأنه قال: سياسة بقرية. وكأن من روى الخبر للأستاذ البستانى إنما رواه من حفظه لا نقلا عن المخزومى باشا فى كتابه (خاطرات عن جمال الدين).

أقول : أذكر أنى فى (رسالتى) أو (أطروحتى) لنيل الدكتوراه فى الحقوق، وهى عن «العمل القضائى» كتبت عن العمل التأديبى (أو القرار التأديبى) وقلت : إنه إذا صدر هذا القرار من رئيس إدارى (وفى حدود اختصاصه) بخصم خمسة أيام من راتب مرءوس له، ثبت خطؤه أو انحرافه، فإن هذا القرار يكون قرارا إداريا بلا شبهة. فإذا صدر القرار الجزائى (التأديبى) من محكمة تأديبية فهو قرار قضائى بلا ريب. فإذا صدر من (لجنة) غلب عليها فى تشكيلها، وإجراءاتها - العنصر القضائى (أو القانونى) والتزمت بالضمانات القضائية فقرارها قضائى. فإذا غاب العنصر القضائى (أو القانونى) فى التشكيل (أو ضعف)، ولم تجتمع أمامها وفى إجراءاتها الضمانات القضائية فقرارها إدارى . وفى هذه الصورة تدرس كل حالة على حدة. هذا، وكلمة juridictionnelle الفرنسية تعرض وتستعمل فى التفصيل السابق. إنها تعنى صيغ القرار (وهو هنا قرار تأديبى) بالصبغة القضائية. وقد أردت أن أترجم الكلمة الفرنسية بكلمة أو لفظة واحدة

عربيـة. ونَحَتَّ لها كلمة (تقـضين) على مثال (تهـجين)، وقد استشـرت فى ذلك أحد الكتاب المعـروفين لذلك العهـد، فأقرها. لكن البـعض فرق بين (تقـضين) و (تهجين) والتفرقة من الناحية اللغوية واضحة ومقنعة.

أما عما ذكره شـيخنا المغربى وشرحه، عن آراء فيلسوفنا الأفـغانى، فهو أمر هام، وهام جدا، ولامندوحة من الالتجاء إليه والأخـذ به عند الضرورة، وإلا جمدت لغتنا. وإنى أعلم أن «مجـمعنا اللغـوى العربى» له نشاط كـبير فى هـذا. والأمر مطروح عند دراسة الطب ونحوه وتدريس هذا وذاك باللغـة العربية. وفى المثل : خطأ مشهـور خير (أو أولى) من صحـيح مهـجور. ويتندرون فى هذا الشـأن بلفظة (ساندوتـش) (كخطأ مشهور) وعبارة (شاطر ومشطور وبينهما طازج).

بين الأفغانى وابن خلدون

بدأ شـيخنا المغـربى الفصل الثـامن والأخيـر من كتـابه قليل النظير بقـوله : «هذا ولنختم الكلام عن شيخنا الأفغانى ببحث عن أوصافه.. ذلك أننى كنت أعملت المقارنة بين المؤرخ ابن خلدون وبين السـيد جمـال الدين بمناسبة مـاكتبـه الكثيـرون من الكتاب المعاصرين حول المقارنة أو المشابهة بين ابن خلدون وغـيره من فحول الكتاب والفلاسفة الأقدمين مـثل أرسطو وأبى العلاء المعـرى ومونتـسكيو وأوغست كـونت .. ولكن ألا يخطر بالبال أن يكون ابن خلدون مشابها لواحد من فلاسفتنا الشرقيين المعاصرين ؟

نعم : إن ابن خلدون يشبه بلا ريب فيلسوفا مسلما، سياسيا، ثائرا، عصريا، وهو أبو الثورات جمال الدين الأفغانى من عدة وجوه :

١ - درس كل منهـما العلوم الإسـلامية ثم تـفوق على شـيوخ زمانه بمهـارته فى الحكمة والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وترغيبِّ المسلمين فى دراستها، والاستفادة من حقائقها.

٢ - كان كل من الرجلين يشتغل بالسياسة ويحرص على الرئاسة . كان كل منهما سليم الصدر، سهل الاستـمالة، ظاهوه وباطنه سواء كما كان كل منهما مـتسرعا خديد المزاج. وصف لسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس صديقـه ابن خلدون بأنه بعيد عن التأنى. وكان هذا هو السـبب فى نكباته، وتحامل رجال الدولة. ومـثل هذا قاله الشيخ محـمد عـبده فى الأفغـانى: «طالما هدمت الحدة مـابنته الفطنـة» وقـد حدث أن احـتد

الأفغـاني أثناء المناقشة مع غـلادستون وغيـره فانهارت المحـادثات، وذهبت النتائج التى كانت منتظرة.

٣ - كان كل منهـما (ابن خلدون والأفغانى) يُعـمل عقله فى فهم تعـاليم الإسلام مستقلا مجتهدا .

٤ - وكانا يهتمان أكبر اهتمام بالمصالح العامة للمسلمين والجمع بين تعاليم الإسلام الصحيحة وبين قواعد علم الاجتماع التى ظـهرت فائدتها فى إصلاح شئون البشر. لقد عرفا طريقهما إلى الإصلاح الدينى بتخليص الإسلام من الخرافات. وقد خلق هذا لهما حسادًا منافـسين فى كل بلد نزلا فيه أو بلاط ملكى استدعاهـما صاحبه إليه. فـما أشبه حالة ابن خلدون فى بلاط غرناطة وفاس وتونس والقاهرة منذ خمسة قرون بحالة جمال الدين فى بلاط كابـل وطهران والقاهرة والآسـتانة فى عصـرنا الحاضر! لقـد ابتلى الله جمال الدين بالشيخ عليش وأمثـاله، وابتلى ابن خلدون فى تونس بشيخ جامد هو (ابن عرفة) قـال ابن خلدون فيه: إنه كان يـسعى به لدى الحكام فى تونس ويغريهم بتـغريبه والبطش به.

٥ - عرض بترو ملك الأسبانيـول على ابن خلدون أن يريح نفسه من العناء ويقيم عنده يغـدق عليه من زهرة الحـياة الدنيـا. . فأبى، وكـذلك السلطان عبـد الحمـيد مع الأفغانى، إذ عـرض عليه أن يخلد إلى الراحة من عناء السـياسة فى مقـابل أن يقدم له قصرا فخما ويُزَوِّجه فأبى عليه ذلك وقال: إنه لـو فعل لاستغرب منه كما يستغرب من الشيخ عليش المغربى[1]، والمعـروف بورعـه أن يذهب إلى حـانة فى الأزبكيـة ويقـدم المشروبات المحرمة لهذا وذاك من مرافقيه.

٦ - مات ابن خلدون غريبا فى مـصر. . وقبره غير معـروف شأن من يموت غريبا عن وطنه. وهكذا جمـال الدين، مات فى الآستـانة غريبا. . وكاد قـبره يندرس لو لم يتداركه (كراين) الذى بنى له ضريحا فخما، بلغت نفقاته عشرة آلاف دولار كما قيل.

٧ - كان ابن خلدون آخر نجم سطع فى سماء التفكير الإسلامى الحر (كما قال عنه مؤرخه، وكاتب ترجمته العلامة الألمانى (فون فيزدندنك).

٨ - عـاش ابن خلدون فى أشـد أزمـان العالـم الإسلامى إظـلاما من الوجـهـة الاستقلالية. فكان كنجم أنار تلك الظلمات ثم أفل. . رأى بِعَيْنَىْ رأسه (تيمور) المغولى فى الشرق يجتاح بلاد الشـام، كما رأى بعينى رأسه (بترو) الإسـبانى فى الغرب يجمع

(١) الشيخ عليش من أصل مغربى .

نفسه للوثوب على غرناطة آخر مملكة عربية فى الأندلس. ما أكثر ماذهبت نفسه حسرات وهو يرى الملك الضائع، والبناء المتقوض.

انطفأت شعلة ابن خلدون فى الظلام الدامس، وبعد خمسة قرون، قام من قبره فى شخص جمال الدين الافغانى. ماذا رأى جمال الدين حين ظهر؟ رأى ماكان رآه ابن خلدون من قبل - رأى الظلام سائدا، ورأى القوم نياما. رأى تيمورلنك المغولى ممثلا فى السلطان عبد الحميد التركى، وبترو الأسبانى متقمصا فيكتوريا ملكة الإنكليز. قام جمال الدين من قبر ابن خلدون، فكان همه همه، وغرضه من هذا النشور غرضه. رأى موتا فى بلاد الشرق، رأى ظلاما وظلما وجهلا. ورأى فى الغرب علما وعملاً ونشاطا. رأى الجامدين من أمثال الشيخ عليش، كما رأى ابن خلدون ابن عرفة فى تونس.

هلموا حقيبة السفر، وعصا السياحة. ساح جمال الدين فى العالم الشرقى والغربى إلى مكة ومصر وطهران والآستانة.. إلى بطرسبرج وفيينا ولندن وباريس: رأى موتًا فى جانب، وحياة فى آخر، رأى اتكالاً وقناعة فى قوم، وكدحًا وطمعا فى آخرين. رأى جهلاً وبطالة وكسلا هنا... وعلما وعملا ونشاطا هناك: هذا (الشيخ عليش) فى مصر، وحسن فهمي أفندى فى الآستانة يقاومان جمال الدين، كما قاوم ابن عرفة ابن خلدون فى تونس و(القاضى البساطى) فى القاهرة منذ خمسمائة عام. والتاريخ يعيد نفسه. أيها المنشور من تحت رجام القبور. عد إلى الخطابة والكتابة، وارفع صوتك بالحض والإنذار..

بكائى على السالفين، ونحيبى على السابقين!! أين أنتم ياعصبة الرحمة، وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة أين أنتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة. أين أنتم ياخير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. أين أنتم يا أيها الأمجاد الأنجاد، القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة. ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ماصنعه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم. ومن ينتحل نحلتكم. انحرفوا عن سننكم ، وحادوا عن طريقتكم، فضلوا عن سبيلكم، وتفرقوا فرقا وأشياعا، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا، وتحترق الأكباد حزنا . أضحوا فريسة للأمم الأجنبية، لايستطيعون ذودًا عن حياضهم، ولا دفاعًا عن حوزتهم. ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدى الضال إلى سواء السبيل؟!

ولكن هل يئس جمال الدين من يقظة الشرق، وسعى الشرقيين فى الإصلاح؟ كلا! لم ييأس : نعم رأى شجرة العالم الإسلامى أصبحت أعوادًا يابسة. غير أنه تراءى له



من خلال تلك الأعواد والأشواك وريقات خضر، فتـهلل وجهه بعد العبوس، وانتعشت نفسه بعد القنوط وساءل نفسه قائلاً: أهذه الأوراق الخضر المتفرقة هنا وهناك من الشجرة أهي أوراق قـديمة باقيـة من الحيـاة الأولى ياترى؟ أم هى أوراق جـديدة حيـيت بحيـاة جديدة؟ ومهـما يكن فإن فى الشجـرة اخضرارا، وفى المريض رمقـا، وفى الجسم دِمَاءً فلنجتهد إذن، ولنعمل على إحياء مجموع الشجرة. عمل جمال الدين واجتهد حتى كل وتعب. ولقى من حلو الحياة ومرها مالقيه ابن خلدون الأول. كلا الخلدونين لم يخلف ولدا. وفرق بينهمـا: ابن خلدون المغربى خلف مقدمتـه الاجتماعية المشـهورة. أما ابن خلدون الأفـغانى، فـإنه لم يخلف كـتـبا ولامـقـدمة. وإنما خلف الأمـة التى أيقظهـا فاستيقظت، ونصح لها فانتصحت وأخذت تخوض عباب الحياة بجد وثبات فهى لاتلبث أن تصل إلى ساحل النجاة إن شاء الله!!

روى الشـيخ عبـد الرشيـد إبراهيم (الرحالة الروسى المشـهور) قـال: دخلت على الشيخ جـمال الدين فى أخريات أيام مـرضه، فأشار إلىّ بيـده: أن أُدْنُ، فدنوت منه. وكان لايستطيع الكلام. فأخـذ قلما وورقة، وكتب فيها: «تـشهد يا الله أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته: أمتى أمتى. وأنا أقول: ملتى ملتى. قال: وبعد نحو ساعتين رجعت إليه، وإذا بهم يقولون: توفاه الله اهـ.

أقول: لا أقول: وا حسرتاه، ولا: وا أسفاه! فلست متشائما، رغم ما أرى حين أطوف بخاطرى فى ديار الإسـلام، ومايفـعله بها الحكام[1]. لقد صاروا أتبـاعًا للدول الأقوى، وهذه الدول هى أعدى أعدائنا.. إنهم يجـاهرون بعدائهم للإسلام ويأتون كل مايستطيعون من كيد لتمزيق صفوفنا، وإشعال نار الفتنة بيننا. إنهم «يحتفظون» (بصدام) الألعـوبة فى أيديهم، والذى حـارب جارته إيران (المسلمـة) لمدة ثمـانى سنوات، وبمال يؤديه إليه جـيرانه العرب خـوفا منه ثم ها هو ذا يجتـاح الكويت الحبيب غـدرًا وبطشًا وخيانة، وينتهك كل شىء، حتى الأعـراض. لقد كان الأعداء هم الذين حرضوه على مهاجمة إيران. وماكان أسعد هؤلاء به ليحركوا قواتهم وأساطيلهم إلى مياه الخليج!!

ولا أظن أن هناك بين حكام الـعرب والمسلمـين من بلغ به الحـمق الذى تمكن من صدام، وجرى فـيه مجرى الدم من الجـسم. لكنى أراهم (أى حكام العرب والمسلمين) (أو معظمهم) من عـبدة الدنيا والسلطة. ولا خلاص مما نحن فـيه إلى أن يصبح الحكم للشـعوب. وهذا اليـوم ليس ببعـيـد. وهناك باب آخر من أبواب الأمل، وهو دخـول الشعـوب الغربية فى الإسـلام، أفواجًا أفـواجا. وعلى الذين يعـملون لله، وللإسلام،

(١) أو بعضهم أو معظمهم.



أعباء وأعباء، على رأسها العمل الدائب لإصلاح أنفسنا، و«بالقرآن وحده» وعلى النحو الذى سبق ذكره، وهو يعنى السنة الصحيحة وإجماع الصحابة[1] . وفى دعوة غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام - يجب كما يقول الأفغانى - إقناعهم ، بأننا - فى معظمنا - مسلمون بالاسم فقط - إلى حد كبيرا!

وأضيف : إنه لإصلاح النفس، يجب القضاء على «الجهل وتوابعه» . القضاء على الأمية الأبجدية ، والأمية الدينية. وأعود وأكرر: إن «الجامعة الإسلامية» هى أبعد منا اليوم عما كانت فى زمن جمال الدين. إن الطريق معروف، وإذا صدق العزم وصح السبيل. وكل شىء ممكن تداركه. والله ينصر من ينصره.

موقظ الشرق وحكيم الإسلام
السيد جمال الدين الأفغانى
خاطـــرات

بنـــد : ٩

عُودىَ نبينا عليه الصلاة والسلام، وأوذى فى نفسه وأهله وصحبه : قالوا عنه : (مما قالوا، وهو كثير) - إنه مجنون، وإنه شاعر، وكاهن، ومفتر، وإن ماجاء به أضغاث أحلام. . إلى آخره. وفى القرآن الكريم الكثير مما رموه به. (انظر على سبيل المثال - الآية ٥ - الأنبياء) . ولقد واساه ربه - جل وعز - ومما جاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] . وقوله :﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ﴿١٠﴾﴾ [المزمل] إلى آخره. . وهذا مايلاقيه كل الدعاة المصلحين . ولنا فى رسولنا خير أسوة. وقد كان السيد الأفغانى مصلحًا، وكان داعيا إلى الله، وإلى الجامعة الإسلامية التى يتساوى تحت رايتها المسلمون وغير المسلمين. وكان ثائرًا مقداما لايهاب الموت، ولايخشى في الحق لومة لائم. ولقد أوذى السيد جمال الدين فى حياته، واجترأ الكثيرون عليه بالباطل، فى حياته وبعد مماته. ومن هؤلاء الدكتور لويس عوض الذى نشر عدة مقالات بالطعن فيه تحت عنوان «الإيرانى الغامض» فى مجلة «التضامن» التى

---

(١) غنى عن البيان أنه فى المسائل السياسية، وفى الانتخابات للمجالس التشريعية والشعبية ومن قرارات هذه وتلك يُكْتَفَى بالأغلبية على النحو المبين فى الدستور.



تصدر من لندن باللغة العربية. وقد قام الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم بالرد عليه، كما استكتبا بعض المتخصصين الذين شاركوا فى تفنيد مزاعمه. قارب ما كتبه هؤلاء وهؤلاء العشرين مقالا، نشرت فى الأهرام فى أشهر ٨ و٩ و١٠ من عام ١٩٨٣ (أى منذ أربعة عشر عاما). كان مقال الختام للأستاذ أحمد بهجت، وهو بعنوان «كلمة أخيرة عن جمال الدين الأفغانى» (ص ١١ أهرام ١٨/ ١٠/ ١٩٨٣م). مرَّ الكاتب الفاضل فى هذا المقال - مرورًا بسقطات، أو بعض سقطات لويس عوض. وأنى - بدورى - أمرّ مرورًا - هنا بهذه السقطات، والرد عليها بإيجاز شديد.

كان الأفغانى - (رضى الله عنه وأرضاه) يرى أن السجن لمن يطلب الحق من الظالمين - رياضة؛ - والنفى - فى سبيل الإسلام - سياحة، - أما القتل - في سبيل الله - فهو شهادة. كان - كما قلت، وكما جاء في كتاب الله - ممن ﴿ ... **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة].

أ - سأل محمد باشا المخزومى (أحد مريدى السيد) - سأله يومًا: إن المتداول بين الناس على لسانك، قولك «يحتاج الشرق إلى مستبد عادل»؟ قال الأفغانى: «هذا من قبيل جمع الأضداد- كيف يجتمع العدل والاستبداد؟». أقول: نعم! كيف يجتمع العدل والاستبداد؟! لايمكن أن يوصف المستبد بأنه عادل، لأنه - أولا - من البدهيات أن الرأيين - أو الأكثر - خير من الرأى الواحد. إن رأيهم (هذين الاثنين أو الأكثر) أقرب إلى الصواب من الرأى الواحد. ثانيا - ولأنه - أيضا - حين يستبد المستبد - يسلب حقا فطريا لكل الناس، وهو حقهم فى الحرية. ثالثا: إن الله الواحد قد خلق الناس متساوين فى الآدمية، ومتساوين فى الحرية، فبأى حق يأتى زيد من الناس، ويفرض نفسه «فرعونا» - إنه الذى زعم أنه الرب الأعلى، قائلا للناس: ﴿ ... **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص]. ثم كيف يسند للأفغانى، مقولة «المستبد العادل» والله - سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ... **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]، وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه (وهو الجد الأعلى للأفغانى الحسينى) - أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن «العزم» فى الآية المذكورة فقال: «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم» (عن تفسير ابن كثير للآية).

ب - حين دخل الأفغانى الهند وجد الاستعمار البريطانى يحتضن طائفة من المثقفين كعادته. وكانت دعوى هؤلاء طرح الفكر الإسلامى والدعوة للثقافة المدنية.

ووقف الأفغـانى ضدهم، كـتب رسالة الرد على الدهريين (عـن مقال الأسـتاذ أحـمد بهجت المؤرخ ١٨/ ١٠/ ١٩٨٣).

أقول : إن المسمّوْن بالعالمانيين (وهم موجودون حتى اليوم بين ظهرانينا - ومنهم - على سبيل المثال الدكتور صلاح عيد الذى نشر فى الأهرام منذ أسبوع (٢٥/ ٣/ ١٩٩٣) مقالا ذكر فيه أن الأفـغانى مثال للمفكر الضعيف (وخلاصة مـقاله والرد عليه مما سيأتى فى مكانه) - ومع ذلك أشيـر إلى أنى أرسلت الرد إلى الصفـحة التى نشرت مـقال د. صلاح فلم تنشره. وهـذا دأبهم. والعالمانيون هؤلاء زرع غربى تمتـد فروع له فى جوانب العالم العـربى والإسلامى. بعـضهم- أو مـعظمهم درس فى الغرب عـلى أساتذة من اليهود أو من الملاحدة الذين زينوا لهم أفكارهم. والكيد للإسلام أمرٌ يكاد يكون مجمعا عليـه بينهـم. إن هؤلاء من العرب والمسلمين الذين درسـوا فى الغرب، وعـادوا وكلهم إعجاب به، وبخيره وشره، وهم ينقلونه إلى طـلابهم وقرائهم فى مصر وغيرها. ولهم فى وسائل الإعلام صوت عال، وعجيج وضجيج يملآن الأسماع. وكثير من هؤلاء ذوو قلوب خاوية، لامكان فيها للمعارف الإسلامية. وحُكامنا بصفة خاصة، وشعوبنا بصفة عـامة، كلهم مـسئـولون عن عـدم تدريس التربيـة الدينيـة وموادها فى سـائر المراحل التـعليمـيـة. هؤلاء العالمانيـون مـسلمون بالاسم فـقط، وهم لايعلمـون عن الإسـلام وقواعده، ومبـادئه ونظمه السياسية والاجـتماعية شيئًـا. والنـــاس أعـداء ما جهلوا. وفاقد الشىء لايعطيه.

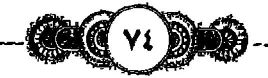
جـ - لتبرير طرد الأفغانى من مصـر - على سبيل المثال - شكلت الحكومة لجنة، رفعت تقريرا جاء فـيه «إنه (أى الأفغانى) رئيس جمعيـة سرية من الشباب ذوى الطيش مجـتمعـة على فسـاد الدين والدنيا. وبعـد مائة عام جـاء د. لويس عوض ليـقول فى الأفغانـى ماقاله مالك فى الخـمر. فهو فى مـقالاته فى التضامن، يصف الأفـغانى بأنه زنديق وجـاسوس وعـميل ذو وجـهين. . إلى آخره. . والمسـتهـدف فى هذا كله ليس الأفغانى فـحسب، بل كل رموز الإسلام وأعـلامه. إن المستهـدف فى نهاية المطاف هو الإسلام ذاته.

د - فى هذا الرجل (الأفغانى) يقول صديقه وزميله محمد عبده[١] : جاء إلى هذه

---

(١) انظر : أ- الثائر الإسلامى ، جمال الدين الأفغانى للشيخ محمد عبده. كتاب الهلال - العدد - ٢٧٤ - أكتوبر ١٩٧٣م - ص ٨ ومابعدها

ب - مذكرات الإمام محمد عبـده - كتاب الهلال - عدد مارس ١٩٩٣ م - العدد ٥٠٧ ص ٦٥ ومابعدها



الديار (مصر) فى سنة ١٢٨٨ هـ رجل بصير فى الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جم المعارف، جرىء القلب واللسان. تعرف عليه فى بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان.. استقل بتدريس بعض العلوم العقلية - وهو فى جميع أوقاته حين يلتقى بالناس لايسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، ويذهب بالنفس إلى معالى الأمور. وكان يلفت مستمعيه إلى النظر فى الشئون العامة مما يتصل بمصلحة البلاد والعباد. وكان الجمع الكبير من الطلبة والموظفين والأعيان والعلماء ينقلون ماعرفوا منه إلى مختلف القرى والمدن فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول وانتشر نور العلم والمعرفة فى سائر الديار المصرية، وخاصة القاهرة. أقول : كان الأفغانى قوى الشخصية مقنعًا، كبير التأثير بين قادة الفكر وزعماء المسلمين: فحين ذهب إلى إيران بعد نفيه من مصر - رأى المظالم التى يقترفها الشاه ناصر الدين ضد شعبه. فأوعز إلى الشيرازى (وكان مفتيا) - بإصدار فتوى بتحريم التدخين. وقد ضربت هذه الفتوى (شركة الدخان - صاحبة الامتياز وهى إنجليزية) - فى مقتل؛ فتوقف نشاطها، واضطر الشاه إلى تعويضها. وكان بين هذا الشاه والأفغانى خصومات حادة سيأتى ذكرها فى مكانها.

هـ - كانت الثورة العرابية شرارة من شرارات أفكاره، كذلك كانت ثورة ١٩١٩ ثمرة من ثمرات غرسه. كان كل رجالات مصر، وعلى رأسهم سعد زغلول بطل الثورة أحد تلاميذه. وكان كل رجالات مصر من المثقفين والصحفيين والدعاة فى عصره من أصدقائه وجلسائه وتلاميذه.

وكان أن قامت الحرب العثمانية[١] الروسية عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) - وتطلع الناس فى مصر إلى مايرد من أخبار هذه الحرب، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت حتى هذا الوقت مقصورة على ما لا يهم، فانطلقت إلى متابعة أخبار هذه الحرب ونشرها، وظهر فيها الميل إلى إطراء ما كانت تأتى به العساكر الروسية، وازدراء ماكان ينسب إلى العساكر العثمانية، ووجد فى الناس الناقم على تلك الجرائد والمناصر لها، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفًا من قبل. واستحدثت جرائد كثيرة لمباراة الجرائد السابقة لنشر الأخبار ومناوأتها فى المشرب، واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حد لايمكن منعه. وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة. (أى أن تغير الظروف بفعل الزمان والحال أنهى - كما يقول الإمام - على سلطان الحاكم الظالم (ص ١١٢).

---

(١) الثائر الإسلامى - نفسه - ص ٩ ومابعدها.



ونعود إلى النقل عن شيخنا الإمام محمد عبده : اجترأ الكثير من الجرائد على نشر ماعليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والاجتماعية. وزادوا على ذلك نشر ماكان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد. وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب القلم على إنشاء الفصول الأدبية والعلمية ونشرها في الصحف، ولايخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار، وتهذيب الأخلاق. وتسابق إلى ذلك الكتاب، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال، أو أرض غير هذه الأرض. ومما ساعد على ذلك كثرة الجرائد الأوربية التي كانت وقتئذ ترد إلى طلابها، وخاصة الأجانب. يقول الأستاذ الإمام: ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والأهرام وصداها يتأكد من حقيقة ماذكرنا. (مذكرات الإمام محمد عبده ص ٦٥ - ٦٨).

و - سبق أن أشرت إلى مانشره الأهرام من مقالات للأستاذين أحمد بهجت وسامح كريم ومن استكتباهما من المتخصصين للرد على مانشره د. لويس عوض طعنا في الأفغاني تحت عنوان «هذا الإيراني الغامض» - وأنقل هنا بعضا مما كتبه الأستاذ بهجت تحت عنوان «الأفغاني بين الحقيقة والافتراء» (ص ١١ - أهرام ٢٩/ ٨/ ١٩٨٣) قال «كلمة تهكمية عن بحث يصفه صاحبه لويس عوض بأنه جريء، فالأفغاني - عنده- إيراني غامض، أفاق، متلون؛ ولأن بحث د. لويس عوض جريء فهو لايلتزم أصول البحث، ولايرجع إلى المراجع ذات الوزن، وإنما إلى تقارير المخبرين السريين الذين يصفون الأفغاني بكل نقيصة ورذيلة وبلية. وشر البلية مايضحك. إنه في نظر عوض يتسلل في الظلام مدججا بالمؤامرات. ويمضي الأستاذ بهجت قائلا : إن تحطيم صور الثائرين المسلمين في تاريخنا يستهدف عزلنا عن الماضي، ومحاصرتنا في الحاضر، وتجريدنا من ثروتنا من الأبطال والزعماء حتى نصير إلى الفقر والوحدة ، فيسهل إقناعنا بأي هراء يصبه أصحاب المصالح في عقولنا. هذا هو الهدف، وهو مما لايصح السكوت عليه، ومن هنا جاء جهد الأهرام في الرد. وبنفس الصفحة، وبنفس التاريخ كتب الأستاذ سامح كريم تحت عنوان «الأفغاني ، وتقارير الجواسيس» قال : مغامر مجهول، كافر، مجنون، مخاطر مغمور، زنديق مجنون، ملحد مأجور أفاق دساس، دجال كذاب، متلون ، متفرنج، مرتد، سكير، مهيج سياسي، زعيم إرهابي، عميل مزدوج، رجل لكل القصور، داع للفوضوية واللاأخلاقية، منكر لوجود الله، ينتحل لنفسه لقبا في كل دولة، فهو بين الأفغانيين رومي، وبين الأتراك والمصريين أفغاني، وفي بعض الدول استامبولي، وفي بعضها الآخر بغدادي. أقام بيننا نحو تسعة أعوام (أي في مصر)، ومضى ليبقى إلى اليوم لغزًا غامضا.

على هذه النغمـة الفاسدة، يظل يـعزف الدكتور لـويس عوض، من أبريل الماضى حتى الآن بمجلة التضـامن فى بحث عن جمال الدين الأفغانى، يخـتار له عنوانا يحمل الكثـيـر من الدلالات فى هذه المرحلة بالذات. وهو «الإيرانـى الغامض فـى مصـر» - معتمـدا على تقارير العملاء والجواسـيس فى سجلات الخارجية البـريطانية، أو أرشيف الخارجيـة الفرنسية، أو محـفوظات المباحث والبوليس فى كل من الـبلدين ، أو كتابات أخرى غير منشورة لأجانب مجهولين.

أقف قليلا هنا وأقول: (والكلام لـى) ماهذه النيران الملتهبـة بالشر فى صدر لويس عوض، والتى ينطلق بها قـلمه فى غير حياء من الـله ولامن الناس، ماهذه الجرأة التى تبدأ بالباطل، وتمضى مع الباطل، وتنتهى بالباطل، مـن مواطن مصرى، لايبالى بمشاعر المسلمين المصريين وغير المصريين. ألا يؤمن بالله واليوم الآخر؟ ألا يعلم أن الدنيا متاع، ومتـاع قليل، وزائل لامحالة؟! فـى ١٤ من نوفمبـر عام ١٩٨٩ احتـفلت كلية الآداب بجامعة القاهرة بمـناسبة مرور مائة عام على ميلاد طه حسـين. وقد حضرت هذا الحفل الذى كانت ترأسه الدكـتورة سهير القلمـاوى. وكان الدكتور لويس فى قـائمة الجالسين على المنصة للحديـث فى ذكرى طه حسين. وجاء دوره، ووُضع أمامـه مكبر الصوت. وبدلا من أن يتكلم رأيتـه، ورآه الجميع طبـعًا - يتأوه ويتـوجع، وترك الكلمة لغـيره، ويبدو أنه شعر بتحسن، فـعاود المحاولة، عاودته الأزمة فلم يتكلم، ولم يعش بعد ذلك طويلا..!؟

لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم. إن مصر ذات الأغلبية الساحقة من المسلمين (٦٠ مليونا مقابل حوالى ثلاثة مـلايين من الإخوة الأقباط) هى التى أنفقت على تعليم لويس عوض (داخل مصر ، وخارجها فى البعثة) إن العلم نعمة. وشكر المنعم واجب. فلماذا الجحود بفضل الله. وفضل مصر على هذه النعمة والعلم أمانة، فلماذا نحيد عن الصدق، إلى هراء تدمغه كل الحقائق؟! ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس].

كان الأستاذ عبـد المنعم شميس أحد الذين ساهموا فى الرد على مفـتريات الدكتور عـوض (الأهرام ص ١١ بتاريخ ٤/ ١٠/ ١٩٨٣) - كـتب تحت عنوان «الأفغـانى - بين الحقيقة والافتراء - تجريح التاريخ ». ومما جاء فى كلمته: إن القضية ليست قضية ما إذا كان جـمال الدين أفـغانيا أم إيرانيـا، فقـد حُلت هذه المسألة على المسـتوى الدولى[1]،

(١) حدث عند نقل رفات الأفغانى إلى مسقط رأسـه، أن نازعت إيران أفغانستان فى ذلك، فشُكِّلت لجنة من أكثر من دولة، ومن أكثر من خبير، وبعد مراجعة ماقدمه الطرفان، قضت بأنه أفغانى.



واستقر الرأى علـى أنه أفغانى. إن المسألة فى جوهرها ليست هى محاولة الوصول إلى الحقائق التاريخية فى حيـاة رجل مثل الأفغانى، اعترف كل الدارسين له من أهل المشرق وأهل المغرب بأنه فيلسوف الـشرق فى العصر الحديث، وأنه مُفَجِّـرُ النهضات والثورات فى أرجائه. المسألة هى محـاولة تجريح التاريخ، وإسقاط قيمـة أعلام الرجال الذين كان لهم دور فى يقظة الشـرق. إن الآمر خطيـر؛ لأنه يتـعلق بالمحاولات الدائمـة لتجـريح التاريخ الإسلامى والمصرى طبقا لخطة موضوعة. وليس الدكتور لويس عوض وحده هو الذى يتولى هذه المهمة؛ ولوَ أنه له دور قيادى فيها.

ويقول الأسـتاذ شميس : «مـاقولكم فى كاتب شـهير جهـير ومثـقف عظيم مثل الدكتور لويس ، يزعم فيما كتب أن الجنرال يعقوب الذى انضم إلى حملة بونابرت على مصـر، وجند حوالى ألف شاب من الأقـباط، وألبـسهم ملابس عـساكر الفـرنساوية، وحارب بـهم أهله من المسلمين والأقبـاط، كان بطلا قـوميـا مصـريا فى رأى الدكـتور لويس..! وهذا الجنرال يعـقوب تبرأ منه أعـيان الأقبـاط، وأعلنوا أنه ومن معه ليـسوا منهم؟ وعندما هُزمت الحـملة الفرنسية وغـادرت مصر سافر مـعها يعقـوب إلى فرنسا. ولكن الجنرال عبد الله جـاك مينو لم يتركه يكمل رحلتـه، رحلة الخيانة من الإسكندرية إلى طولون حتى لايدنس أرض فرنسا، وألقاه فى البحر الأبيض المتوسط حيا[1] .. هذا الجنرال يعقوب بطل قومى مصرى، أما جمال الدين فجاسوس سكير خائن.

أقول ، ماقاله تعـالى فى كتابه الكريم ﴿ ... **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]. وأقول : إن هذا الذى يتولى دوراً قياديا فى مخطط خبيث لإسقاط زعـمائنا، وبالتالى إسقاطنا كمصـريين وعرب ومسلمين، لايختلف عن الجنرال يعقـوب بقصتـه الممقوتة الســالفة الذكر، والتـى استنكرها الأعيـان من إخواننا الأقباط.

أعود إلى «الأفغانى» وتقارير الجواسيس - لـعامح كريم : حاول عوض بجهد جهيد أن يحول صـورة الأفغانى الأسطورة، إلى الأفغـانى المحيِّر. إن مـا اكتشفـه عوض من مصادره الأجنبية اكتشفته مصادر عـربية منذ أكثر من ثمانين عاما «وأمامى أكثر من ستين كـتابا عـدا الدوريات، فـفى عام ١٩٠٩ نوقـشت فى جـريدة المؤيد[2] مسألة جنسـيته وعقيدته. وقد ادعى أحد الإيرانيين أنه ابن أخت الأفـغانى، وكتب مذكرات نشرها ابنه عام ١٩٢٦، فظهرت كـتب فى مصر والعراق وإيران وأفغـانستان (هذا الدّعى يزعم أن

---

(١) هكذا !!

(٢) عن أفغانية الأفغانى - انظر كتاب المغربى عن الأفغانى ص ٨٦

جمال الدين إيرانى شيعى). ويتشكك عوض فى المصـادر العربية، ويعتمد على المصادر الأجنبية المتهمة. إنها تقارير الجواسيس وموظفى السفارات - يفعل ذلك ويستبعد ماكتبه الأفغانى بنفسه، ومنها قوله: «أفغانستان أول أرض مس جسمى ترابها».

وأعود إلى الأستاذ سامح كريم الذى يقول فى ختام كلمته فى أهرام ٢٩/ ٨/ ١٩٨٣ «على أن المفاجأة الكبرى هى أن الدكتور لويس نفسه يسجل فساد الوثائق التى اعتمد عليها (وسبق ذكرها) حيث يقول فى نهاية الحلقة الرابعة: «إن عمالة الأفغانى للروس لادليل عليها إلا فى الوثائق البريطانية يؤيدها بعض تصرفاته المريبة. لكن معرفتنا بالاستعمار البريطانى تدلنا على أن الإنجليز كالأمريكيين اليوم كانوا يَصِمُون كل زعماء الحركات الوطنية بالشيوعية أو بالعمالة للروس، ولذا وجب أن ننتفع من الوثائق البريطانية باحتياط شديد. وهنا قدم لويس بيديه الدليل الكافى على فساد ما اعتمد عليه».

ويمضى الأستاذ كريم قائلا : أول مايطالعنا فى بحث (د. عوض) هو إصراره على «إيرانية» الأفغانى، وعلى «شيعيته» ونسأل: متى بدأ القول بإيرانية الأفغانى؟ أجاب على ذلك أحد تلاميذ الأفغانى (الشيخ عبد القادر المغربى)[1] بمقال فى صحيفة المؤيد (المصرية عام ١٩٠٩) - إيرانية الأفغانى كانت بدافع الانتقام - انتقام شاه إيران ناصر الدين ، فأوعز إلى أحد موظفيه أن يسجل في الكتاب السنوى للدولة أن الأفغانى مولود فى «أسد آباد» بدلا من «سعد آباد». ضاعف من هذا الادعاء الذى ادعاه أحد الإيرانيين بأنه ابن أخت الأفغانى، وكتب مذكرات نشرها ابنه عام ١٩٢٦ فى كتاب «جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى» الذى يعتمد عليه (د. عوض) رغم إشارته فى مقدمة البحث إلى كتاب آخر. والكتابان - فى الواقع كتاب واحد : مذكرات تركها الأب ونشرها الابن وترجمت إلى العربية.

وقدم الأستاذ سامح أدلة قاطعة حاسمة على مزاعم د. عوض : ١ - أدلة للأفغانى على أفغانيته ومنها قوله الذى سبق ذكره: «الأفغان هى أول أرض مس جسمى ترابها» (مما جاء فى العروة الوثقى إلى آخره). . ٢ - أدلة للمفكرين الإيرانيين. . ٣- أدلة للمحققين الأفغان. . ٤ - أدلة للمستشرقين ومنها ماذكره جولدتسيهر عن جمال الدين فى دائرة المعارف الإسلامية، وأكتفى بهذه الإشارات، ولمن شاء الرجوع إلى عدد الأهرام السابق ذكره.

(١) انظر - سابقا - «مع المغربى وكتابه عن الأفغانى» ص ٢٨ من كتاب المغربى.



تبقى عقيدة الأفغاني، وهل ينتمي إلى السنة أم إلى الشيعة[1]. يقول «سامح»: هذه لاتحتاج إلى أدلة بعد ثبات بطلان إيرانيته التى بنى عليها عوض عقيدته. وقبل ذلك وأهم رأى الإمام محمد عبده، حيث يقول (فى مقدمته لرسالة الرد على الدهريين): أما مذهب الرجل فحنيفى، وإن لم يكن فى عقيدته مقلدًا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة..

ويندد د. عوض باشتراك الأفغانى فى المحافل الماسونية. وقد قال الأفغانى: «إن السبب الأصلى فى قيام هذه المحافل هو مقاومة سلطة البابا فى أوروبا. ولكن أربابها لما دونوا تعاليمها رأوا أن يُسمح لغير المسيحيين أن يدخل فيها وبذلك أصبحت الماسونية حزبا سياسيا لاشائبة للدين فيه». ورأى الأفغانى يتفق مع رأى الشيخ محمد الغزالى حيث قال مؤخرا عن الأفغانى: كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفى هذا وإنما أسأله: فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية، وحذر المسلم منها قبل عصر الأفغانى؟!

ويذهب عوض إلى أن الأفغانى كان رجعيا فى السياسة! يقول رجعيا، وقبل ذلك بلحظات يقول: «الأفغانى كان يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية أساسا بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة «مصر للمصريين» ولايتحرك داخل معسكر الرجعيين دعاة الحكم المطلق!! ويندد د. عوض بتعاون الأفغانى مع رياض باشا، المعروف برجعيته (أحيل فى ذلك على ما أكتبه - بإذن الله - عن الشيخ محمد عبده)[2]. ويقول فى الحلقة الخامسة: «الأفغانى فى كل مرحلة من مراحل حياته، مع الثوار على السلطة، ففى إيران مع البابيين ضد الشاه، وفى الهند مع الثوار ضد الإنجليز، وفى أفغانستان مع الثائر «أعظم خان» فكيف يقال عنه بعد ذلك إنه رجعى. يقول هذا، وقبل لحظات كان يقول: إن الأفغانى اختار التحرك بوضوح بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين؟ ولاندرى من نصدق؟ الدكتور لويس فى تناقضه أم الإمام محمد عبده أحد المشتركين فى الثورة؟، أو مؤرخ مصر الحديثة عبدالرحمن الرافعى الذى يقول عنه، تحت عنوان «جمال الدين الأفغانى أبو الثورة العرابية» مؤكدا أن الأفغانى كان من الوجهة الفكرية أبو هذه الثورة الروحى.

(١) كتبت عن الشيعة الاثنى عشرية، وعن الدستور الذى صدر فى أعقاب نجاح الثورة الإسلامية الساحق فى كتابى «الإسلام والدولة» ص ٢٠٨ إلى ص ٢٢١ طبعة ١٩٨٢. والشيعة «الاثنى عشرية» وكذلك الزيدية (ومعظمهم باليمن) أقرب إلى أهل السنة من أى فرق شيعية أخرى.

(٢) انظر كتابى «الشيخ محمد عبده - الأستاذ الإمام». بند ٩ بعنوان «صفحات من تاريخ مصر الحديث ودور الأستاذ الإمام فيه».



وبعـد: فلا يبـقى إلا الإجـابة علي سـؤال: لماذا كتب د. عـوض هذا البـحث والإجابة تطـل من سطوره الأولى حيث تلوح بمنهج يعـمل على تحطيم جمـال الدين، حتى ولو كان أسطورة بتصيد العورات والأخطاء الصحيحة وغير الصحيحة، ثم التعامل معـها بمنهج يضع الرجل مـوضع الشك والريبة والبلبلة على طول الخـط، فهل نجح فى ذلك.

لقد تابع الأسـتاذ سامح أباطيل د. لويـس، وناقشها وفـندها بأدلة مقنعة مـوثقة، وبلهجة صادقة موضوعية تبتغى إظهار الحقائق وإعلائها، ولو كره الكارهون.

أما الأسـتاذ أحمـد بهجت فـقد رد على د. لويس[1] بمقالين: أحـدهما بعنوان: «الأفغـانى بين الحقيقـة والافتراء» (ص ١١ - أهرام ٢٩/٨/١٩٨٣)؛ والثانى بعنوان: «كلمـة أخيرة عن جمال الدين الأفغانى» (ص ١١ - أهرام ١٨/ ١٠/١٩٨٣م).

وعلى كره منى أكتفى بالإشارة إلى المقالين لمن شاء أن يرجع إليهما، وراجيـا فى نفـس الوقت أن يكون فـيمـا لخصـته عن مقـالات الأستـاذ سامح مـايغنى فى تفنيـد افتـراءات د. لويس.

هذا، وممن استكتبـتهم الأهرام للرد على مانشره د. لويس فى «التـضامن اللندنية» الدكتور يونان لبيب رزق[2] - أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس. ومما جاء فيما كتـبه: تقع دراسة د. عوض عـن الأفغانى «بل سائر دراسـاته الأخرى التى تناول فيـها قضايـا هامة فى التاريخ المصرى. . فى النهج الذاتى، ولـيس النهج العلمى الموضوعى. وختم الدكتور يونان مـقاله بقوله: «يتضح أن قضية دراسة «جـمال الدين الأفغانى» هى قبل كل شىء قضيـة خلاف فى المنهج بين التناول الفنى للتـاريخ الذى يعتمد فى الكثير من الخيـال، وفى القليـل على الحـقائق العلمـية والتناول العلمى الذى يلتـزم فى بنائه بالأساس بمجموع الحقـائق التاريخية المتاحة»[3].

أقول: «وشهد شاهد من أهله» وأقصد أن الاثنين كليـهما من إخواننا أقباط مصر. وانظر «فى الواحة - مع د. رمسـيس عوض - شقيقى لويس فضح نفـسه وفضحنا» - والتفـاصيل طويلة ومـؤسفـة جدا (ص ٩ من جـريدة الوفد - الخـميس أول مـايو عام ١٩٩٧م).

وننتقل إلى البند التـالى، وهو بعنوان: الأفغانى والاحـتلال الإنجليزى - للدكـتور أحمد حسين الصاوى.

---

(١) ص ١١ من أهرام ٢٩/٨/١٩٨٣ ومابعدها.

(٢) وهو نفسه الذى يكتب كل يوم خميس بالأهرام: «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة».

(٣) مقال د. يونان منشور بص ٥٧ - ٥٩ من كتاب د. أمان «الأفغانى بين الحقيقة والافتراء».

الأفغانى والاحتلال الإنجليزى[1]

د. أحمد حسين الصاوى

بنـــد : ١٠

القارئ المتأنى لما كتب د. لويس عوض، لايلبث أن يدرك بوضوح أن له موقفا محددا من كل مايتصل بالإسلام. وأنه لايمل من التعبير عن موقفه بالتصريح والتلميح، وبالعبارات والسطور، ومابين العبارات والسطور. وهو فى الكثير مما يكتبه يبدو فى ظاهره منطقيا منهجيا جدليا، بينما هو فى حقيقته، شديد التهافت، بعيد الشطط. ولقد فعل الدكتور هذا فى أبرز مادون من كتب ومقالات، وما ألقى من محاضرات. فعله فى كتابه «تاريخ الفكر المصرى الحديث»، وفى كثير من مقالاته بجريدة الأهرام، وفى محاضراته بالولايات المتحدة، وفى كتابه «مقدمة فى فقه اللغة العربية» الذى منع من التداول، ثم أخيرا فى سلسلة مقالاته عن جمال الدين الأفغانى. وهو جرىء شديد الإصرار على موقفه. ورغم مايلقاه من رفض من المثقفين فإنه ماض، لايعرف القنوط مهما انحدر إليه من مزالق وترهات. و«البحث الجرىء» الذى كتبه مؤخرا عن الأفغانى، فيه من الشطط والجنوح ماجاوز كل الحدود. إن محاولته إثبات أن الأفغانى إيرانى، وأنه شيعى لاسنى، وأنه ولد بمدينة كذا. . مما لاجدوى فيه. ولكن من التجنى أن ينال من قدر الداعية المصلح الثائر جمال الدين الأفغانى، أو أن يحاول المساس بعظمته، أو التشكيك فى نقاء فكره وسلامة عقيدته. كان الأفغانى من أعظم شخصيات العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر، نادى بتحرير الشعوب الإسلامية والشرقية بوجه عام من ربقة الاستعمار، وكان له أعمق الأثر فى إيقاظ هذه الشعوب وإثارتها ضد مستعمريها. وكان صاحب مدرسة كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته من الأباطيل، إنه الدين القائم على آساس الاقتناع العقلى، إنه دين العزة والقوة، والكمال الإنسانى والحضارى. وفى السنوات التى أقامها الأفغانى فى مصر كان من أبرز العوامل فى بلورة رأى عام مصرى. وكان من أهم وسائله لنشر دعوته تشجيع تلاميذه (وهم كثيرون كثيرون) على إنشاء الصحف الشعبية (غير الحكومية). وما كتبه هؤلاء التلاميذ، وماكتبه هو نفسه فيها بتوقيعه المستعاز «مظهر بن وضاح» يبين أى رجل كان هو، وأية دعوة كانت دعوته !

---

(١) ص ١١ - أهرام ١/ ١٠/ ١٩٨٣



أما «العروة الوثقى» وأهدافها، وسهامها المصوبة ضد الاستعمار، وضد الإنجليز بالذات. فهذا مايشهد به الجميع فى الشرق والغرب. ألم يقرأ لويس عوض هذا المرجع، هذا النور الذى انبثق ليكشف ظلمات الاستبداد، ويفضح أهداف الاستعمار. فكيف يسوغ القول مع ذلك بأنه كان عميلا للإنجليز!؟

«ألا فلنتق الله فى روادنا، وفى القمم التى أضاءت بنورها حياتنا، وقادت نضالنا، وعلمتنا كيف نكافح فى سبيل حريتنا، ووقفت فى وجه كل مستعمر وغاصب، وردت بقوة واقتدار على كل محاولة لتشويه ديننا وتراثنا» !!

أقول: ألا إن الحق أبلج، والباطل لجلج. إنها ﴿... **لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

مع الأفغانى والدكتور عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة[1]

بنــــد: ١١

أقول: عنوان كلمة الدكتور محمود هو «أباطيل الاستشراق». والكلمة أو المقالة، هى إحدى المقالات التى نشرها الأهرام مع مقالات أخرى ردًّا على مانشره د. لويس عوض فى جريدة «التضامن» التى تصدر باللغة العربية فى لندن، بعنوان «الأفغانى - هذا الإيرانى الغامض». ولقد أحسن الدكتور محمود حين اختار لما كتبه عنوان «أباطيل الاستشراق»!! فالدكتور عوض بوق من أبواق المستشرقين[2]، وكل أعداء الإسلام، وهم غير قليلين هناك وهنا، وبعضهم يحمل أسماء إسلامية وجميعهم ذوو مقاصد وأهداف خبيثة ولاريب. ومما يؤسف له، أن منهم من يجلس على كراسى أساتذة الجامعات، وينفثون سمومهم على شبابنا الغض البرىء. إنهم جذور الشجرة الشيوعية العالمانية. إنهم دعاة الشيوعية و«التغريب» إنهم شياطين الغزو الفكرى! وهل تدعو الشياطين إلا لكل خبيث. إنهم «الهدامون» إنهم العاملون على فقد «الهوية العربية والإسلامية». رد الله كيدهم إلى نحورهم!!! ﴿... **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** ... ﴿٢١﴾﴾ [يوسف]، ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

---

(١) وانظر ص ٤٢ ومابعدها - من كتاب «السيد جمال الدين الأفغانى - بين الحقيقة والافتراء - للدكتور محمد أمان صافى». هذا، والكلمة منشورة بص ١١ من أهرام ١٣/٩/١٩٨٣م.

(٢) غير المنصفين.



وهذه سطور أنقلها عن مقال الدكتور محمود: إن ماينشره الدكتور لويس حول الأفغانى إنما هو سعى وراء تشويه شخصيته الفكرية ضمن مخطط العدوان الكبير على أصالة التراث الإسلامى قديمه وحديثه. «وحسب الأفغانى مدرسته الكبرى مع محمد عبده والكواكبى وابن باديس، ومحمد رشيد رضا، والمودودى، والندوى، وما تطور عن هذه المدرسة من مدارس تجديدية من أمثال محمد إقبال، ومالك بن نبى، وماتأسس مع مدرسة مصطفى عبد الرازق فى الفكر الإسلامى المعاصر وعلى المستوى الأكاديمى فى الجامعات الإسلامية والعربية».

يشير د. محمود بعد ذلك إلى الأستاذ الكبير محمود شاكر الذى نشر على صفحات مجلة الرسالة فى أكثر من عشر مقالات، ومنذ عشرين عاما مواجها شطط لويس عوض (أديب مصر الرسمى كما كانوا يقولون) وعلى صفحات الأهرام بالذات حين كان يشكك فى أصالة فكر ابن خلدون والمعرى وابن رشد وغيرهم، ودعواه أن نبوغ هؤلاء وأمثالهم إنما كان فى حقل مدارس الرهبنة النصرانية أو اليهودية إلى آخر هذا الهراء الذى كان يدعمه بالمصادر الزائفة الصهيونية، وغير الصهيونية.

أما الأفغانى فحسبى (والكلام للدكتور محمود) أن أذكر باختصار شديد أنه فى كل أعماله قد وصل إلى النقط التالية[1] : وقد حوربت دعوات الأفغانى، وخاصة دعوته إلى الجامعة الإسلامية من جميع الجبهات الاستعمارية التى استغلتها بالذات للتفرقة بين المسيحيين والمسلمين. ولم تكن أمريكا وإنجلترا وحدهما، بل و«لينين» حين طالب في المسودة الأولى التى وضعها للمؤتمر الثانى؟ (الكومنترن) حول مسألة القومية بضرورة النضال المستمر ضد الجامعة الإسلامية وماشابهها من تيارات فى الاجتهاد. ومن أقوال الأفغانى فى «الاجتهاد» «إننى لا أرتاب فى أنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وعاشوا إلى اليوم لداموا مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم ازدادوا فهما وتدقيقا».

عاش الأفغانى مؤمنا[2] بسلطان العقل وقدرته على فتح وكشف المغاليق الكونية والنفسية، كما أكد الصلة الوثيقة بين الفكر والعمل. «كل شهود يحدث فكرًا، وكل

---

(١) أ- الإسلام دين التوحيد «لا إله إلا الله». ب - دين الكمال العقلى (التفاضل بين الناس بالعقل والفضيلة ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]. جـ - دين العقيدة القائمة على الإقناع (لا التقليد الأعمى). د - دين العزة والقوة - «يعلو ولايعلى عليه» - وهذا يستلزم الاتحاد والاعتصام بحبل الله (القرآن) - ومن هنا كانت الدعوة إلى «الجامعة الإسلامية». هـ - دعوة الأفغانى القوية إلى «الاجتهاد». و - دعوته إلى عدم السكوت على أى باطل.

(٢) يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء] وعلى رأس ماكرم الله به ابن آدم - العقل.

فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليه وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر دَوْرٌ يتسلسل ولاينقطع الانفعال أو الاتصال بين الأعمال والأفكار مادامت الأرواح فى الأجسام. وكل قبيل هو للآخر عماد. آخر الفكر أول العمل، وأول العمل آخر الفكر.

من هنا مجد الأفغانى قدرة الإنسان وحريته.. «العقل الإنسانى سيكتشف قريبا صفحات بيضاء بلا نهايات، وميادين علمية بلا حدود، «وعندى أن العقل إذا انتصر فى هذا العراك والجدال تغلب على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح لايلبث طويلا إلا ونراه قد طار بأسرع من العقبان، وغاص فى البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث من بُعْدِ أشهر مع غيره، كأنه قاب قوسين أو أدنى، وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر والأجرام الأخرى» !! «إن أسرار الطبيعة ما وجدت إلا للإنسان، وماوجد الإنسان إلا لها»..

دعــــاة التغـــريب

حول مقال «المفكر العربى.. بين الإثارة والتنوير»

بنـــد: ١٢

نشرت صحيفة «الأهرام» الغراء للدكتور صلاح عيد في صفحتها (دنيا الثقافة) بالعدد المؤرخ ٢٥/٧/١٩٩٣ - مقالا بعنوان «المفكر العربى.. بين الإثارة والتنوير» وفيه يقول: المفكر الضعيف هو الذى يعمد إلى إثارة الآخرين وإشعال نار الصراع بين الناس - والصوت العالى هو صوت المفكرين الضعفاء فى جوهرهم، ومن أمثلة ذلك فى تاريخ مصر الحديث رجل من أفغانستان هو جمال الدين الأفغانى الذى حاول العمل ضد الإنجليز فى أفغانستان، ثم إيران ثم الهند ثم تركيا فلم يجد آذانا مصغية، ووجد ضالته فى مصر فأشعل ثورة ١٩١٩[١] (هكذا) ؟! ومما جاء فيما كتبه د. عيد إنه رغم انتهاء الاحتلال العسكرى لم ينته وجود المفكرين الضعفاء ولم ينته دورهم فى معاداة الغرب!!.

وأقول: إننا فى معاركنا السياسية بالذات فى حاجة إلى من يعمدون إلى الأسلوب الخطابى وإثارة العواطف، وأشهر مثل على ذلك الزعيم الوطنى مصطفى كامل الذى كان ينطلق من عواطفه الوطنية الملتهبة لإثارة الجماهير ضد المحتل الغاصب! وإنه لشىء

(١) وأظنه يقصد الثورة العرابية !



مؤسف أن يضـرب الدكتـور عيد - كـمثل للمـفكر الضعيف - بموقظ الـشرق وحكيم الإسلام السيد جمال الدين الأفغانى !! وقد كتبت رداً[1] على هذه المزاعم وأرسلته إلى صفحة (دنيا الثقافة) فلم تنشرها!!

بنـــد ١٣،

اختار الأسـتاذ نجاة فتحى صـفوت، يوم وفاة السيد الأفـغانى (فى ٩ آذار «مارس» ١٨٩٧) ليكتب قـائلا - فى مثـل هذا اليوم قـبل ٩٢ عامـا توفى فى إسـتانبـول المفكر الإسلامى، والمصـلح السياسى والاجـتمـاعى وفيلسوف اليـقظة الشرقـية جـمال الدين الأفغـانى - وبعد هذه الكلمـات التى قصد بهـا التشـويش والبلبلة (كعـادة أضرابه من العامدين إلى نهجه) مضى إلى الأشياء والمعلومات المحسـومة ليثير حولها الغبار، والقيل والقال: قال: واخـتلفت الروايات حول مكان ولادته، فمنها من يقـول: إنها كانت فى أسعد آباد القريبة من كـابل عاصمة أفغانستان، ومنهـا من يقول: إنها أسد آباد من قرى همدان بإيران.. وحين بلغ الثـانية عشـرة من عمره صحـبه والده إلى النجف[2] حيث قضى بضع عشرة سنة للدراسة فى مدارسها الدينية ويقول الكاتب: وفى سنة ١٨٧٧[3] أصدر الخـديوى توفيـق أمرًا بطرده.. وهو لايزال من الرجـال الذين يكتنف الغـموض جوانب كثيرة من سيرتهم، ولاتزال تفاصيل نشأته وأسفاره وأعماله تحوى بعض النواحى الخفيـة، تنقل بين الهند وفارس ولندن وباريس وسانت بطرسـبرج، وأقام فى هذه المدن مُدَدًا طويلة، لأمـور معيشتـه خلالها، مما يحتـاج إلى بحث، وكذلك أصله، وهل هو فارسى أم أفغانى - مسألة لم تحسم بعد. وقد كان فى المدن التى تنقل بينها، وكما يؤخذ من أوراقـه ومؤلفـاته - كان يتـخذ ألقـابا مخـتلفـة مثل «الاسطنبـولى» و«الكابلى» و «الرومى» و«الطوسى»[4].

---

(١) الرد من ثلاث ورقات من القطع الكبير، واجتزأت منه ماهو مبين بالمتن.

(٢) النجف عراقية، وسكانها من الشيعة.

(٣) الخديو توفيق لم يجلس على الأريكة الخديوية إلا عام ١٨٧٩.

(٤) إن الأستـاذ نجاة، نسخة من د. لويس عـوض، وهما - والعصـبة التى ينتمـيان إليها تعـمد إلى التشويه، وتجريح الإسلام بـتجريح رموزه. ومن هذه العصبة من يحملون أسـماء إسلامية. هذا، وانظر للمؤلف: - على سـبيل المثال - كتابه عن «رفـاعة رافع الطهطاوى» (تحت الطبع) (البندان ٢٨، ٢٩) والويل للمفترين «وقاتلهم الله أنى يؤفكون» (٣٠ - التوبة).

لم يكن الأفغانى أنشط دعاة الجامعة الإسلامية ولا أعلمهم!

بنـــد: ١٤

إنها عصبة ذات مشرب (أو منبع) واحد، وهى - كذلك ترمى إلى هدف، أو غاية واحدة: (طمس الحقائق، والاجتراء على الإسلام بالاجتراء على رموزه).

الكاتب في هذه المرة هو الدكتور محمد حرب - قسم الاستشراق - المعهد العالى للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، وأما عنوان المقال - فهو المبين فيما تقدم. وإنه لشىء مثير للأسف أن يصدر ما أذكره (موجزا) بعد من كاتب يحمل اسم (محمد)، ويعمل فى قسم الاستشراق بالمعهد العالى للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، التى هاجر إليها رسول الله ﷺ، وتضم قبره الشريف.

ومرة أخرى أنه لشىء مثير للأسف أن يصدر من «محمد» مالايصدر إطلاقاً من المستشرقين المنصفين (وهؤلاء ليسوا قليلين). وأيضاً - ومازلنا فى العنوان - إنه استخدم (أفعل التفضيل) فى لفظى «أنشط» و«أعلم» - ولم يذكر هؤلاء الأنشط والأعلم من الأفغانى فى مجال الدعوة إلى الجامعة الإسلامية - لم يذكرهم حتى يستطيع القارئ (أى قارئ) أن يوافقه أو يدينه لغموضه، بل لافترائه!! وفى السطور الأولى يقول: إنه هَمٌّ بأشياء تتعلق بالأفغانى «فقام (والكلام له) بعض أساتذتنا وسادتنا ممن تعلمنا عنهم وأفدنا من إنتاجهم العلمى.. وقالوا - مما قالوا - «لصالح من نهدم الرواد؟».

وشأن د. حرب كشأن غيره ممن هم على شاكلته.. فقد ذكر فى سياق كلامه «والأفغانى شخصية قوية لايخشى في الحق لومة لائم. إنه شخصية قيادية يدعو إلى الوحدة الإسلامية، وإلى ترابط المسلمين كأنهم رجل واحد. ويعود د. حرب، ويكرر ماقاله د. لويس عوض، فالأفغانى - كما يقولان «لغز غامض».

وأذكر - فى الختام - قوله تعالى ﴿ ... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ... (١٧) ﴾ [الرعد].

إلى هذا الحد من اللاأخلاقية يمضى عباس حلمى!

بنـــد: ١٥

فى مقال بعنوان «لصالح من نهاجم رواد الفكر الإسلامى» للدكتور (زكريا سليمان بيومى - أستاذ التاريخ الحديث - كلية البنات - جدة)[١] - نقرأ: «.. يمكن القول بأن

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٦ ومابعدها.

المعادين لفكرة وجود اتحاد إسلامى هم المصدر الأساسى الذى وضع العقبات. أما دُعَاتُه الذين كان من أبرزهم جمال الدين الأفغانى سواء أكان ذلك من منطلق مذهبى يتمثل فى بعض الكتاب[1]، أم من منطلق يعادى الوحدة الإسلامية دينيا وسياسيا كالإنجليز، إلى جانب بعض القوى السياسية التى أدركت - لقصر نظرها - ضياع هيبتها ومكانتها فى الكل الإسلامى كحكام مصر من أبناء محمد على مثل الخديوى توفيق وابنه الخديوى عباس حلمى الثانى.. وتحت عنوان (فرعى) فى نفس المقال، وهو «مهمة الإثارة» نقرأ مايلى: أما الكتاب الذى صور فى عهد عباس حلمى الثانى وبواعز منه للهجوم على الرجل، وهو بعنوان «تحذير الأمم من كلب العجم» وحمل اسم مؤلِّفة أطلقت على نفسها (الحرّة اللى لسانها خارج لبرّه، خادمة الوطن والدين والغيورة على المسلمين الست المصونة والجوهرة المكنونة حمارة منيتى»[2]. وقد ارتكزت أفكار هذا الكتاب في مهاجمة الأفغانى على اشتغاله بالفلسفة، وإثارة الشعوب، وهو أمر يوضح دور الخديوى فى هذا الهجوم. كما يؤكد هذا الدور أيضا صدور كتاب آخر باسم المؤلف نفسه فى مهاجمة الشيخ محمد عبده، أقوى تلاميذ الأفغانى، وأقربهم إلى حمل أفكاره بعنوان «كشف الأستار فى ترجمة حياة الشيخ الفشار».

أقول: إن التاريخ علم. والعلم يجب أن يكون محايدا لايجامل ولايتحامل. وعن الصفحة السابعة من أهرام الخميس ٢٢/٢/١٩٩٦م (وهى صفحة أسبوعية تظهر كل يوم خميس بعنوان «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» ومن العناوين الكبيرة فى الصفحة «رغم أنف أمه الخديوى (عباس حلمى) يقترن بخليلته إقبال هانم. ومما جاء فيها: فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٦٤ ظهرت أعراض الحمل على فتاة من ربيبات القصر هى إقبال هانم، وكانت إحدى جاريات ثلاث يقمن على خدمة الخديوى. وكانت تمتاز برائع جمالها وساحر قوامها، فشغف بها الخديوى، فى تلك الأثناء كانت والدة عباس تسعى إلى تزويجه بإحدى بنات سلطان إستانبول، غير أن جهودها انتهت إلى الفشل، الأمر الذى أسعد الحاكم الشاب الذى كان يتوق إلى الاقتران بإقبال. وهو ماتم فى ٢٠ فبراير[3] بعد أسبوع بالضبط من وصول أول مولود للخديوى، وكان فتاة.. إلى آخره.

أقول: وعباس هذا ظل يحكم مصر حتى عام ١٩١٤ (تاريخ قيام الحرب العالمية الأولى) وقد خلعته دولة الاحتلال (إنجلترا) (وكان في إستانبول فمنعته من العودة إلى مصر. وعُين السلطان حسين).

---

(١) من العالمانيين ومن إليهم.

(٢) (هكذا !) - وانظر كتابى عن «الأستاذ الإمام - الشيخ محمد عبده - أمة في رجل» (بند: ٨).

(٣) من العام التالى طبعا.



ومضت الأيام والسنون. وقد كتبت في إحدى الكراسات (ضمن ما أكتبه لنفسي، ولا أنشره)، وكان ذلك في الثلاثينيات من هذا القرن. وكنت - دائما أكره العائلة المالكة - كتبت - على ما أذكر - «حَسَنة لله، عرش لله !! وكان عباس وقتئذ - يتردد على الدول الأقوى، يطلب عرشا، هنا، أو هناك!

وأنقل هنا عن كتابي «محمد فريد وجدي وحسن استعمال الحرية» - الطبعة الأولى ص ٧٦ ومابعدها مايلي: كانت صحيفة «المؤيد» لصاحبها ومديرها الشيخ علي يوسف، إحدى الصحف الكبرى لعهدها.. وكان وصاحبه - دائما - في خدمة الخديوي وحاشيته. وأذكر هنا هذه الواقعة: كان الخلاف والضيق قد اشتدا بين الخديوي وحاشيته وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية. وكان الشيخ في زيارة لعاصمة الخلافة (الآستانة) فاصطحبه وكيل المؤيد بها - تطوعًا - لرؤية معالم المدينة، ولكنه أقحم الشيخ (الغريب على المدينة) من مواطن الفرجة ما يتحاشاه أمثاله، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفاجئوا الشيخ والوكيل بين مواطن الريبة، ثم ينتهي الأمر إلى «وصمة شائنة» تصيب الشيخ في دار الخلافة الإسلامية، فلا يشق على الخديوي بعد ذلك أن يعزله من مناصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الأعظم، ويتراجع أمامها مجلس الوزراء في مصر، فلا يعتبر عزل المفتي في هذه الحالة إخلالاً بنظام العزل والتوظيف(المرحوم عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم ص ١٨).

هذا شيء مما ذكره العقاد عن الشيخ علي يوسف. وضد من ؟ ضد شيخ فقهاء العصر ومجتهديه، ضد المصلح العظيم الذي ستبقى سيرته منارًا تهتدي به الأجيال، ويبقى اجتهاده نبعا لاينضب على مدى القرون.

قارئي الكريم: إني أدعوك للتأمل والمقارنة: بين الخديوي وسيرته وشيعته، وما جرى له ولهم في دنياهم. فيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: ﴿ **فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزمر: ٢٦].

هذا، وقد اشتمل كتاب الدكتور محمد أمان صافي عن «السيد جمال الدين الأفغاني - بين الحقيقة والافتراء» على فصلين: أولهما عما نشر في الأهرام القاهرية في الفترة من ٢٩/ ٨/ ١٩٨٣ إلى ١٧/ ١٠ من نفس العام. والثاني عن الملف الذي فتحته صحيفة الشرق الأوسط السعودية (والتي تصدر في لندن) عن الأفغاني، ونشر في الفترة من ١٨/ ٣/ ١٩٨٩ - إلى ٣١/ ٥/ ١٩٨٩ وهو ماتلقته ممن استكتبتهم عنه[١].

ومن هذا الفصل الثاني أبدأ بالبند ١٦.

---

(١) الفصل الأول ينتهي بصفحة ٦٦، والثاني يبدأ من صفحة ٦٧ وينتهي بصفحة ٢٢٩ التي تليها الفهارس.



ظلمــوه حيـــا وميتـــا[1]

د. مصطفى عبد الواحد - مدير مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى

بنـــد: ١٦

قال بعض الباحثين غالى فى مدح الأفغانى. . والبعض هاجموه بقسوة بالغة. . إلى حـد أن أخرجـه بعضـهم من الملة، ونسـبه إلى الإلحـاد والزندقـة، ووصمـه بالعمـالة للأعداء. . منهم المرزا لطف الله خان، فى كتابه «جمال الدين الأسد آبادى» شكك فيه، فى أصله ونسبـه، وألقى عليه التهم جزافـا دون دليل. ومنهم على الوردى العراقى فى كتابه «لمحات اجتماعية فى تاريخ العراق الحـديث»، مال فيه على الأفغانى بنزعة عدائية ووصمه بأقبح الصفات، وأصبـح كتابه هذا مرجعا لكل من أراد التطاول على الرجل. . ومنهم د. محـمد حسين فى كتـابين له، وقد اعتـمد فى هذا الهجوم على كـتاب المرزا لطف الله خان وقـد رأى (أى د. محمد حـسين) أن غيرته على الإسلام لاتتـحقق إلا بإدانة الرجل، واعتمادا على هذه المحاكمـات الظالمة جاء باحث آخر هو مصطفى فوزى غزال فألف كتـابا بعنوان «دعوة جمال الدين الأفغانى فى مـيزان الإسلام» نال به درجة الماجستـير فى الدعوة الإسلامـية. وقد ملأه بالتـهم الفظيعة لجمال الديـن، وأكبرها أنه ملحـد وزنديق، خائن لأمـته، ممالئ للاسـتعـمار، صـديق لليهـود، جندى من جنود الماسون؟!

أقول: إن د. مصطفى عبد الواحد قد ردّ بموضوعية على الافتراءات السابقة، وهذه الافتراءات والرد علـيها، سيأتيـان خلال هذه الدراسة. غيـر أنه لايفوتنى أن ألخص هنا ماختم به الدكتـور مصطفى مقاله، قال: إن من العجب أن يهـاجم لويس عوض جمال الدين الأفغـانى فى الوقت الذى يهاجـمه فيـه بعض أهل الغيرة عـلى الإسلام! فكيف يكون الرجل مكروها من الطرفين المتناقضين، وكـيف يكون محاربًا للاستـعمار فى نظر البعض وعـميلا له فـى نظر آخرين. وكيف يوصف بالإمـامة فى الإسـلام من قبل من يشيدون به. . بينما يوصف بالإفساد والتحريض عليه من مبغضيه؟!

لقد ظُلم جمال الدين حيا. . ومازال يظلم بعد أن فارق الحياة؟!

وأقول فى ختام هذه الكلمة: إن من أعجب العجب، أن يأتى شخص يحمل اسم (مصطفى) ويقول ماقاله عن جمال الـدين ! ومما يثير أعمق الأسى، بل والاشمئزاز أن

---

(١) السيد جمال الدين الأفغانى - بين الحقيقة والافتراء - ص ١٣ ومابعدها.

تمنحه لجنة - على هذا الغـثيان - درجة الماجسـتير، وفى الدعوة الإسلامـية؟! لو كانت هذه اللجنة[1] مكونة من صهيـونيين وصليبيين، لمنعها أى اعتـبار أن تذهب إلى ماذهبت إليه لجنة إسـلاميـة من جامعـة إسلاميـة. كيف أجازت هذه الجـامعـة هذا الفحش فى القول؟! ألم تتدبر اللجنة، وكذلك الجامعـة النتائج التى تترتب على ذلك ؟ وخاصة إذا وقع هذا الغثاء بين أيدى أعداء للإسـلام والمسلمين. وهم كثيرون ومتربصون؟!

الدكتور أحمد شلبى[2]
وكلمة له عن الأفغانى - عرض ومناقشة

بنـــد : ١٧

١- يقول: تحت عنوان «هل كان الأفغانى أستاذًا للإمام محمد عبده؟» كان الأفغانى ثائرًا، لكنه فى تقديرى الشـخصى لم يكن أستـاذا للإمام محمـد عبده الذى كان يتـجه لتربيـة الإنسان أولا؛ لأن ذلك هو الذى يقـود إلى النجاح السـياسى. إن السيـاسة إذا اعـتدلت هى التى تصلح الأمـور، وبسـبب ذلك اصطدم الأفغـانى فى مصـر وغيـرها بشخـصيات كـثيرة. لم يتـبع المنهج القرآنى، وهو الدعوة عن طـريق الحكمة والموعظة الحسنة. ولو أقام علاقات طيبة مع هؤلاء لـكان أجدى. عندما وجد الأفغانى الترف[3]، ووضع فى «قفص من ذهب» فى استانبول هدأت ثورته. كان مـحبا للانتقاد. ٢ - نقد الشاه وحـكومته، وهـو مما يؤخذ عليـه. حيث اتخـذت الدول الأجنبيـة كلامـه ذريعة للتدخل فى شئون بعض الدول. قابل محاضرة الفيلسوف الفرنسى (رينان) بفتور شديد. ٣ - وللأفغانى جوانب مشرقة، وأبرز شىء فـيه كان القلق والثورة. قاوم الظلم أيا كان مصدره (من الداخل أو الخارج) وينفى عنه تهمةَ الإلحاد.

يقول د. شلبى: أما اتهـامه بالماسونية فلا يسـتطيع أحـد أن يلومه عليـــها؛ لأن أخطـارها لم تكن قـد ظهرت بعد. ويحـذر الكاتب من أخطار الماسـونية فى العـصر الحـــالى حيث تقـــف إسرائيل بكل قـوة وراء مؤسساتها الصهيـونية والتى تتمثل فى أندية «الليونز» و«الروتارى».

---

(١) لم يذكر الكاتب شيئًا عن اللجنة ولا عن الجامعة.

(٢) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة، وهو من الأساتذة المرموقين.

(٣) الثائر الإسلامى: تأليف الشيخ محمد عبده - نفسه ص ١١ ومابعدها.

وأرد على د. شلبى قائلا: نعم، كان الأفغانى أحد أساتذة الأستاذ الإمام، يقول رشيد رضا فى كتابه تاريخ الأستاذ الإمام.. جـ ١ ص ٢٥ ومابعدها: أخبرنى الشيخ (أى الأستاذ الإمام) أن الذى أخبره بقدوم جمال الدين أحد المجاورين - قال: إنه جاء مصر عالم أفغانى عظيم، وهو يقيم فى خان الخليلى فَسُرَّ بذلك، وأخبر الشيخ الطويل[1] وذهبا إليه معا. وطفق السيد يسألهما عن بعض آيات القرآن وماقيل فيها من رجال التفسير، ومن الصوفيين، ثم يفسرها لهم، فكان هذا مما ملأ قلب فقيهنا به عجبا، وشغفه حبا؛ لأن التصوف والتفسير هما قرة عينه، ومفتاح سعادته.. وأخبرنى أنه قرأ على السيد كتب كذا وكذا.. ثم إن السيد أرشده كغيره من تلاميذه إلى الإنشاء وكتابة المقالات فبرع فى ذلك، وفاق السيد الذى كانت عبارته على متانتها لم تَصْفُ من كدورة العجمة. ومما جاء فى مقال للدكتور إبراهيم حركات[2] (ص ١٤٢ - الأفغانى - بين الحقيقة والافتراء للدكتور صافى) فى فقرة من المقال بعنوان «الفكر السياسى والدينى عند الأفغانى ومحمد عبده». محمد عبده تلميذ الأفغانى وغرس يده، فقد أثر فيه ثقافيا وفكريا وسياسيا. ونقله من المؤثرات الصوفية إلى فلسفة التصوف ثم إلى الفكر السياسى والتجريدى. ومحمد عبده يعترف بأيادى جمال الدين عليه وعلى كل مصر والعالم الإسلامى. ومع ذلك فمحمد عبده له شخصيته المتميزة التى تزن الأمور باستقلال أكثر وحتى بوجهة نظر مغايرة فى بعض القضايا الرئيسية، فالأفغانى يستأثر به المجال السياسى أكثر من غيره، وليس دون غيره. ومحمد عبده يستأثر به الجانب الدينى أكثر من غيره وليس دون غيره. وعندما يعالج الإمام الجانب الدينى، فليس بطريقة الوعظ والإرشاد، بل بالرزانة والحكمة والعقل. وهذا من تأثير أستاذه، على أن حرارة العاطفة تستشف لدى التلميذ أكثر منها لدى شيخه. وكلاهما عميق الإيمان.

ومن أهم الفروق بين الرجلين أن الأفغانى ذو روح ثورية تناهض الظلم والاستبداد، وتلاحق أشخاصهما بالتشهير والتنديد وتحذير الجماهير، أما محمد عبده فتجاذبته الروح الثورية والعزوف عن النشاط السياسى لفائدة العلم والتربية حسب الظروف. وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الأفغانى ثوريا وانتهى ثوريا. وقد عاتب الشيخ تلميذه فى أخريات حياته عندما انتقل إلى إستانبول، بعد أن لاحظ فتور حماسه وحذره من الاصطدام بالإنجليز.

---

(١) الثائر الإسلامى: تأليف الشيخ محمد عبده - نفسه ص ١١ ومابعدها.

(٢) أستاذ بكلية الآداب بالرباط.

وانصب اهتمام الشيخ محمد عبده على أوضاع مصر وإذكاء الروح الوطنية بها، لأن ظروف البلاد كانت تقتضى من أبنائها أن يعالجوا قضاياها وهى قلب العالم العربى والإسلامى، كما أن موقعها البالغ الأهمية يسيل لعاب الأطراف الاستعمارية. وهذا مع كون الشيخ عبده وضع القضية الدينية فى عمق اهتمامه، أما الأفغانى فأنشأ فكرا إسلاميا سياسيا للمجموعة الإسلامية ككل؛ واتجه توًا نحو الدسائس المنافقة التى تتعامل معها بين المسلمين. كما عنى بلفت أنظار المسلمين إلى امتلاك حريتهم الداخلية والخارجية معًا، وبسلوك السبيل الأقوم لمسايرة الركب الحضارى وهو التصنيع والعلم الحديث، دون التضحية بالقيم والتقاليد الحسنة. ولم يلتفت الأفغانى إلى القوميات فى حد ذاتها، وحتى - عندما فعل نادرًا، فمن أجل تعزيز الوحدة، لا من أجل فصمها، كدعوته لوحدة الأفغان مع إيران بالنظر للرباط المشترك بينهما جغرافيا وثقافيا ودينيا.

وإذا كان الشيخ عبده يتجه إلى النخبة بالدرجة الأولى، فالأفغانى يخاطب المجموعة الإسلامية ككل ويضع فى اعتباره أهمية الفئات الشعبية فى مساندة أفكاره الوحدوية، والسير فى طريق تنفيذها. ومن ثم فهو يناصر بقوة التوجه الديمقراطى والشورى فى الحكم، وذلك لايتم إلا بإقرار دساتير فى الأقطار الإسلامية تضع الناس جميعا فى مستوى واحد أمام العدل والقانون. ويسلك الأفغانى كل الطرق الواضحة حتى الثورية منها للعمل على تمكين الأقطار الإسلامية من ارتجاع سيادتها وتخليصها من مخالب الاحتلال. ولذلك ساند بعزم حركة المهدى بالسودان، مع أن توجهاته وأبعاد مبادئه تختلف فى كثير من أسلوب هذه الحركة، والذى كان ربما ضرورة ظرفية لايمكن أن تطبق عليها الأساليب الثورية فى المجالات السياسية والاجتماعية، وإن كانت حركة المهدى نفسها ثورة نضالية.

وأعود إلى ماكتبه د. شلبى وأقول - ترتيبا على ماسبق - إنه كان أستاذًا له، وبكل ماتحمل الكلمة من معنى. كان الشيخ عبده قلقا، يريد شيئًا افتقده فيمن جلس بين أيديهم من شيوخ الأزهر، ووجده، وفوق ماكان يتوقع - فى شيخه الأفغانى. أما قول الدكتور شلبى: إن الأستاذ الإمام كان يتجه لتربية الإنسان أولا؛ لأن ذلك هو الذى يقود إلى النجاح السياسى، فمما لاريب فيه أن الإنسان الذى تم إعداده وتربيته مؤهل أكثر لكل نجاح، سياسى وغير سياسى. ولكن يجب ألا ننسى أنه ليس أصعب من بناء الرجال، وأن هذا البناء يحتاج إلى أجيال وأجيال، وأنه يكون أيسر، وأدنى إلى التحقق فى ظل المناخ السياسى الملائم الذى تحرر من السيطرة الخارجية، والاستبداد الداخلى. وما أكثر الحكام الذين يخشون تعليم الشعوب. ولقد مر قرابة قرن من الزمان على وفاة

الأفغانى، وتسعون عاما على وفاة الأستاذ الإمـام وتفشى الأمية فى مصر وغيرها مازال مؤسـفا، بل ومـخجلا ! «وانظر كـتابى: فى إصـلاح التعليم الأولى ص ٥» وفـيه أن «محمد على» لفت نظر ابنه إبراهيم إلى ماتعانيه أوروبا من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة، «فالواجب الاكتفاء بتعليم عـدد منهم القراءة والكتابة، وآف بأعمال الرياسة غير مولعين بتعميم ذلك التعليم» وحتى يصير الحكم للشعوب، فسنظل نحرث فى البحر!

وعن قول الدكتور شلبى: إنه لو اتبع الأفغانى الأسلوب القرآنى فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة لكان أجدى. صحيح أننا مدعوون لهذا، وفي القرآن الكريم يقول تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] (والمراد هنا فرعون). لكن موسي وهارون كانا بعين الله، ويقـول الله سبحانه وتعالى فى ذلك ﴿ ... إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه] - هذا فى الرسالات السـماوية، أما فى غيرها فالتاريخ كله يقرر بأن الشعوب لم تسترد حقوقها الطبيعية من جلاديها ومغتصبيها إلا على أنهـار من الدماء (ولنتـذكر على سـبيل المثـال: الثورة الفـرنسـية[١] الكبرى، ومصطفى كامل[٢]).

أما قول الدكـتور شلبى بأن الأفغانى فـترت ثورته حين وجد الترف فى اسـتانبول: لقـد كان هناك بحـق فى قفص، ولكنه لـيس من ذهب. إن الترف فى مـعناه القـرآنى واللغوى كفر النعمة وجحدها. وكيف يقـال هذا فى الأفغانى الذى عاش كثير الأسفار، ومع ذلك لم يحمل فى يده حقـيبة، لم يكن هناك من داع إليها، لقد عـاش دائما بجبة واحدة لايتركها إلا إذا بليت، وحينئذ، وحينئذ فـقط، يتركها ويشترى غيرها. لقد كان الأفغانى فى الآسـتانة محاطا وملاحقـاً بالجواسيس. ولما مات ظهرت العـداوة والشماتة فيه، فدفن فى أدنى مقبرة، وخشى الكثيرون الاشتراك فى تشييع جنازته. يقول الدكتور شلبى عن المترجم: إنه كان مـحبا للانتقاد. والرد أنه لم يكن انتـقاداً فقط، وإنما ثورات عارمـة، ثورات من لايخشى فى الحق لـومة لائم، إنها ثورات ضـد رموز الاسـتعـمار والاستبداد.

أما القول بأنه ردّ على رينان بفتور[٣]. فصحة العبارة أنه ردّ عليه بالقول اللين وهو ما أمرنا الله به. ولسـت بحاجة إلى القول بأن الأفغـانى كان دائما شامخـا وكان رجلاً

---

(١) انظر للمؤلف: «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» (طبعة ثانية ص ٢٣٢ ومابعدها).

(٢) انظر للمؤلف: «محمد فريد وجدى» (ص ٦٤ ومابعدها).

(٣) انظر ردًا قيما على ذلك بقلم د. عبد الرزاق قسوم - البند التالى (رقم ١٨).

عظيمـا ليس فى عيـون المسلمين والشرقيـين فقط، بل والغربيين أيضـا. ومنهم رينان. ومنهم هذا الأمريكى الذى أعجب به وبالمعرى، وترجم عن إعجـابه ببناء مقبرتين لهما، ولائقتين بهـما. هذا، وانظر للدكتور حـركات - أيضا - «الجامـعة الإسلاميـة والعروة الوثقى» - ص ١٤٤ ومابعدها من كتاب د. أمان.

جمال الدين الأفغاني وأرنست رينان

أدب الإسلام فى مواجهة التعصب الغربى

الدكتور عبد الرزاق قسوم

أستاذ الفلسفة - جامعة الجزائر - نفسه ص ١٧٩ ومابعدها

. **بنـــد: ١٨**

تتحدد قيمـة معتقد ما، أو مذهب أو فلسفة، لابقدر مـاتحمل من كنوز، وماتحتويه من قيم، وإنما بقـدر ماتبرز هذه المعتـقدات، أو تلك الفلسفات من رجـال يعملون على ترجمة المعانى وتجسيد المبادئ. نلمس هذا فـي المعتقدات السماوية، ولدى الفلسفات أو الأيديولوجيـات الوضعيـة. ولعل هذا يدخل فيـما يسمى إجـمالاً فى لغة اليـوم «بلقاء الحضارات وحوارها»، على أن التقاء الحضارات وتحـاورها قصة عريقة متجددة، تضرب بجذورها من حيث القدم فى أعماق التاريـخ. وهى فى تماسها عبر الشواطئ والسواحل تأخذ من البحر مده وجزره. فإذا قيض الله لحـضارة ما فكرا نيرًا وعقلا رشيدا، تمتعت الإنسانيـة بنسمات ندية، وأفكار خـصبة غنية، فـكان المد الحضارى والإسهـام الإنسانى البناء، أما إذا أصيبت فلسـفة ما أو حضارة من الحضارات بأناس ذوى حـوصلة ضيقة، وآفاق مُقْتِمة فذلك هو الضيق والحرج الذى يولد التعصب والحقد والكراهية.

وتاريخ البـشـرية حـافـل بالنمـوذجين من الأمـثلة، فى كل الـديانات ولدى كل الفلسفات، وعبر كل العـصور. ولعل أبرز مثال معاصر نجده فى العقل الغـربى مجسما فى موريس بوكاى وسيـجريد هونكه وغيرهما فى كتاباتهم عن الإسلام بـكل موضوعية وأمانة دون اعـتناق للإسلام، ونجد أيـضا عند رشاد خليـفة[1] وغيـره فيما يكتـبه عن

(١) فكاتب ياسين وهو جزائرى يكتب بالفـرنسية ممالئًا فرنسا ويحـصل على جوائزها يقول: أنا لست عربيا ولامسلما، وإنما أنا جـزائرى. واحتلال فرنسا للجزائر استعمـار، لكنه أهون من الاستعمار العربى الطويل المـدى المتخلف (انظر كتـابى: «مع الله.. فى كتـابه وسنة رسوله» (ص ٢٤٥). ومنذ أيام قضت محكمة الاسـتئناف المختصة فى مصر بأن (نـصر الدين أبو زيد) مرتد، وقضت بالتفريق بيه وبين زوجته.

الإسلام بكل ذاتية وعمالة برغم زعمه الانتماء للمسلمين. فإذا عدنا إلى التاريخ الحديث وجدنا معادلة أخرى معكوسة: «فيلسوف» «عقلانى» «متحضر» تجاوزت شهرته - كما قال الأفغانى - الغرب كله لتلامس الشرق. ذلك هو الفرنسى «السوربونى» «أرنست رينان» فقد استعان هذا الفيلسوف الفرنسى بكل مقولات العقل، وقواعد المنهج جميعها لينحت منها سلاحًا يوجهه إلى صدر العرب والمسلمين، فكتب فى ذلك محاضرة علمية ألقاها (فى السوربون - بباريس) على محفل علمى من الطلاب والباحثين، واختار لها عنوانًا جذابًا «الإسلام والعلم».

أما المفكر المقابل لذلك فهو المسلم المصلح جمال الدين الأفغانى الذى حاور فى أدب إسلامى ومنهجية إنسانية خصمه مستمداً قواعد الحوار ومقولات الجدل من الأدب الربانى ﴿ ... وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] فأنصف الديانات الأخرى ولم يظلمها، وأعلى من قيمة الفلسفة ولم يحكم بتفاهتها لمجرد أن ممثلها أساء تقديمها للعقل الإنسانى.

وتعالوا نحتكم إلى الفكر المدعم بالنصوص من أقوال المتحاورين منذ أكثر من مائة عام، وفي مثل هذه الأيام على التحديد (٢٩ مارس ١٨٨٣) والملفت للنظر أن رينان دخل بأفكار مسبقة، واستخدم مقدمات جاهزة ليصل إلى نتائج محددة سلفا، وهو ماينفى عنه أية منهجية علمية. حاول رينان (كما جاء فى جريدة ديبا الفرنسية التى نشرت المحاضرة فى ٣٠ مارس ١٨٨٣) - أن يحذر معاصريه من المثقفين من الوقوع فى أخطاء الخلط وسوء الفهم المرتبطين بالأفكار السائدة، والمتعلقة بالإسلام والعرب. وينفث رينان سمومه - باسم العلم والفلسفة فيقول: إن أى إنسان يعرف الحد الأدنى من شئون عصرنا ليرى بوضوح مدى التدنى الحالى للبلدان الإسلامية، فمن انحطاط الدول التى يحكمها الإسلام، إلى الانعدام الفكرى الذى يميز الأجناس التى تعتمد فى ثقافتها وتربيتها على هذه الديانة وحدها. إن الذين زاروا ديار الإسلام صدمتهم هذه الاتكالية التى تستبد بأى معتنق لهذه الديانة. إنها «الحلقة الحديدية» التى تغلق رأسه تمامًا أمام العلم، وتحول دون انفتاحه تماما أمام أية فكرة جديدة. ويمضى رينان فى أسلوبه الهستيرى الحاقد على الحقيقة ومنطق الأشياء فيضيف: إن الطفل المسلم مايكاد يُلقَّنُ بعض المبادئ الإسلامية ويبلغ سن العاشرة أو الثانية عشرة، حتى يصبح فجأة متعصبا، مملوء بنخوة عقيمة فى كونه أصبح مالكا لما يزعم أنه الحقيقة المطلقة، وكأنه سعيد بما يجعل منه فى نظرنا شخصا فى الدرجة السفلى. إن هذا الكبر الجنونى هو العقدة الجوهرية للمسلم، فالبساطة المظهرية لمعتقده توحى إليه بكراهية

لكل الديانات الأخرى. واقتناعا من المسلم بأن الله هو واهب المال والسلطة لمن يشاء. دون اعتبار للمعرفة أو للقدرات، فإن المسلم لديه بغض عميق لكل ماهو ثقافة، أى لكل مايشكل العقل الأوروبى».

أقول: يقول تعالى: ﴿ ... **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] أى فيلسوف هذا المسمى رينان؟ إن «العلم» يعنى الإنصاف. والإنصاف هو الإنصاف ويجب أن تكون له الكلمة العليا مهما اختلفت الأديان والأجناس والألوان. أما هذا «الرينان» فقد صدر عن قلب حاقد مظلم، وعقل محاط بحلقة حديدية فلم يعد يفقه ولايفهم. إن البحث يعنى التجرد، وهذا قد جلس على كرسيه فى السوربون بأفكار مسبقة، فتقايأ حقدًا ونفث سُمًّا. لقد عكس الحقائق، وبلغ فى هذا غاية المدى.

لقد حكم على الإسلام بالمسلمين، وهم ضحايا حكامهم. لقد عاشوا تحت الحكم الأجنبى فترات طويلة، أما حكامهم منهم، فقد كانوا ومازالوا - أو معظمهم - يخشون العلم ويخشون الحرية ! - فى الوقت الذى كان رينان يلقى محاضرته، كانت فرنسا، والمستعمرون عامة - يغتالون العقل والحرية فى الشمال الأفريقى، وفى ديار الإسلام عامة - لقد طارد الفرنسيون البشير الإبراهيمى، وكانت كل جريمته هى تعليم الجزائريين القرآن ولغة القرآن، وكان الفرنسيون وقتئذ يعملون على «فرنسة الجزائر». إن مايجرى فى الجزائر الآن (١٩٩٧) معروف، وهو مما يدمى القلوب. وأصابع الاتهام تشير إلى فرنسا، ومسئوليتها عما يجرى هناك ! وفي النهاية لايصح إلا الصحيح﴿ ... **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] وإن غدا لناظره قريب.

وأعود إلى مقال الكاتب الفاضل الدكتور «قسوم»...

وعندما يتطرق رينان إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية والتقدم العلمى، ولمدى قرون عديدة صارت خلالها رائدة للغرب المسيحى[١]. يتساءل «وهل وجد حقا علم إسلامى، أو على الأقل علم تبناه ويسمح به الإسلام»؟! ويجيب على ذلك فينفى عن العقل العربى وعن اللغة العربية كل استعداد علمى أو فلسفى، فالعبقرية الوحيدة التى تميز بها العقل العربى هى عبقرية الشعر! أما الفلسفة فإن الله لم يهب العقل العربى أى شىء منها، أو تلقيها!

---

(١) انظر فى الرد على مزاعم رينان - وعلى سبيل المثال - كتابى «رفاعة رافع الطهطاوى» بند ١٢ من الكتاب الأول - الطبعة الأولى.

ولم يعترف رينان بفلسفة وفيلسوف، إلا لابن رشد. ومن أقواله إلى جمهوره المثقف: «إن مايميز أساسا المسلم هو كراهيته للعلم، وقناعته بأن البحث العلمى غير مجد، لكونه مطية للزندقة، وخاصة علم الطبيعة لأنه ينافس الله فى علمه. .؟! ثم يقول: «بالنسبة للعقل البشرى فإن الإسلام كان معرقلا لهذا العقل».

يقول الكاتب الفاضل: أما استجابة الأفغانى لهذا التحدى فقد اتسمت بالهدوء والموضوعية والحوار الإسلامى المتزن. وإذا كانت الحدة - فى جمال الدين - قد هدمت فيه مابنته الفطنة، كما يقول صديقه الشيخ محمد عبده، فإن ما اتسم به رده على رينان كان كله فطنة ترجمها أدب الحوار ورزانة العقل وقوة الحجة.

على أن مايلمسه القارئ فى رد الأفغانى على رينان هو إغفاله لجوانب خطيرة فى المحاضرة، وهو مايؤكد لدينا الشعور بأنه كان ضحية ترجمة أو سوء تقديم لعناصر المحاضرة كلها وهو ما اعترف به مفكرنا فى بداية رده. ومع ذلك فإن الاستجابة الإسلامية استطاعت أن تحكم بتفاهة التحدى الغربى بالحجة والمنطق المستمدين من الأدب الإسلامى. حدد الأفغانى تجاوزات رينان فى أنه بذل جهده فى إثبات أن الإسلام معاد لكل تطور، على أن الشعب العربى بطبيعته لايحب العلوم الميتافيزيقية ولا الفلسفة. وقناعتنا أن المحاضر لم يتعمق الموضوع، ولو فعل ماوقع فى هذا الخلط. وأضاف: أن أية أمة ليست بقادرة بأن تسلم زمامها للعقل وحده. وأن التربية الدينية سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو غيرها هى التى مكنت الأمم من الخروج من طور الهمجية[1] لتسير نحو حضارة أكثر تقدما.

إن أتباع أى دين لديهم الاقتناع الكامل واليقين بأن دينهم يحتوى على كل معانى الأخلاق، وكل معانى العلوم. . وهل سيكون أسعد لو فقد إيمانه فى يوم من الأيام؟!

وعن النقطة الثانية قال الأفغانى: إنه لا أحد يجهل أن الشعب العربى - فى الوقت الذى كان فيه الغرب يعيش مرحلة التخلف والهمجية حقق بسرعة، كسرعة فتوحاته، في مدى قرن واحد أن يكتسب وأن يستوعب معظم العلوم اليونانية والفارسية، التى تطلب تطورها البطيء عدة قرون فى أرضها الأصلية. وهكذا لاحظنا أن هذا الشعب العربى قد فرض على رقعة كبيرة من العالم تمتد من شبه الجزيرة العربية لتصل إلى جبال «الهملايا» وقمم «البيرينى» (يعنى الأندلس). فى الوقت الذى كانت فيه روما وبيزنطة قد توقفت عن أبحاثها وتخلفت، وأعاد العرب إضاءة مصابيح العلوم فى المنطقة

(١) لعله أراد بذلك «رسالات الأنبياء» وهو الحق.

وطوروها ومنحوهـا إشعاعـا لم تعرفه من قـبل «ألا يمثل هذا علامـة على حب العرب للعلم»؟! وجاء يوم أشرقت فيـه شمس الحضارة العربية ونشرت أشـعتها من «الأندلس» ملقية بأضوائها وثرواتها على بلاد الغرب.

كان الغرب قد نسى أرسطو، ثم عرفوه من جديد عن طريق العرب. أليس فى هذا دليل على تفوق الـعربى، واعتنائه بالفلسـفة!! إن التقـدم العلمى والفلسفى فى العـصر الوسيط إنما يعود الفضل فيه للشعب العربى الذى كان نفوذه هو السائد آنذاك.

إن الحرانيين كـانوا عربا. وإن العرب عندمـا فتحوا الأندلس لم يـفقدوا جنسيـتهم العربية والقساوسة السوريون هم فى أغلبهم عرب غساسنة اعتنقوا المسيحية. وماقيل عن الحرانيين والغساسنة ينطبق أيضا على ابن باجه وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن اعتبارهم غير عرب كما ذهب إلى ذلك رينان لـكونهم لم يولدوا مثل الكندى فى البلاد العربية، ذلك أن الأمم تتميز باللغـة التى تستخدمها. كذلك فإن انتـشار الإسلام فى بلاد الفرس قد أعطى بعدا عـربيا آخر للعلماء الفـرس الذين اعتنقوه، والذين كانوا يحـسون بشرف كبير عندما كانوا يكتبـون مؤلفاتهم بلغة القرآن. ويكفى للتدليل على بطلان حكم رينان أن نقول له: إن الثقافة تصنع الشعوب، ولو قبلنا حكمه لكان بإمكان ألمانيا أو إنجلترا أن تطلبا استعادة علمائها الذين استوطنوا فرنسا واستخدموا ثقافتها وجنسيتها.

أقول: ومثل ذلك يـقال فى العلماء المهاجريـن من بلاد مختلفة (ومنهـا مصر) إلى الولايات المتحدة الأمـريكية. ومنهم الذين ذاعت شهرتهم فى تخصصـاتهم المختلفة فى أنحاء الدنيا. إنهـم هناك يستخدمون اللغـة الإنجليزية (وهى لغة الولايات المتحـدة) كما أنهم قد يحملون جنسيـتها. وهم - بداهةً - لايفقدون أصولهم (المصرية مـثلا) بالإقامة الطويلة أو القصيرة هناك، وبحمل الجنسية واسـتخدام اللغة الإنجليزية. ويختم الأفغانى حواره القيم لمحـاولة فك الإشكالية القائمة بين الدين والفلـسفة باعتبـارها إحدى النقاط المهمـة التى ارتكزت حـولها محـاضرة أرنست رينان. وفي شـأن هذه الإشكاليـة يؤكد المصلح المسلم بأنهـا ستظل قـائمة، وأنه كلمـا أتيح للدين (أى دين) أن ينتـصر فى أى مكان، فإن ذلك سيؤدى إلى انحصار نفوذ الفلسـفة، والعكس صحيح، فكلما انتصرت الفلسفة ومـا يصاحبها من عقل حر فـسيتقلص دور الدين معهـا. على أن جمال الدين يرجح انتصار كفة الدين فى النهاية؛ لأن الفلسفة لاتملك مقومات النصر، وأهمها إشباع عواطف الجماهير، كما أن التعـاليم الفلسفية لايمكن أن تكسب إلا عددًا قليلا من الناس وهم النخبة المتميزة من الشعب، كما أن الـعلم - رغم أهميته وقيمته، لايمكن - وحده - أن يرضى الإنسان. لأنها - أى الإنسـانية - ستظل متعطشة للمـثل والقيم، وهذا ما يقوم به الدين.

وأقول فى تعليق وجيز: إن فرنسا - مثلا - وهى مسيحية كاثوليكية، لكن بالاسم فقط أما فى الواقع، فهى فى غالبيتها لاتعمل بدينها، ولا بأى دين. ومن هنا كانت الفوضى القائمة فى العلاقات بين الرجال والنساء. والفوضى فى أشياء كثيرة أخرى. وهذا كله يشير إلى قرب نهاية «الحضارة» الغربية.

وإنى - دائما - أكرر: ويل للإنسان من عقل لايستضىء بنور الله !!

الاستماع للطاعنين فى الأفغانى هزيمة إسلامية شائنة

لفضيلة المرحوم الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالى

بند ١٩:

هذا عنوان كلمة منشورة بكتاب الدكتور أمان صافى «السيد جمال الدين الأفغانى بين الحقيقة والافتراء» (ص ٧٨ ومابعدها). وتحت عنوان (فرعى) «أبواق خادعة» (ص٨٠) - يقول فضيلة الداعية الكبير : لا أنفى قول البعض: إن الأفغانى كان منتسبًا لأحد المحافل الماسونية. وأسأل (والكلام لفضيلة الشيخ) : فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية، وحذَّر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى؟ ويضيف الشيخ أن الأفغانى خُدِع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة، كما خُدِعَتْ أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة[1] . والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم، وذلك حسبه من الشرف. ويقول الشيخ الجليل : إنه من الطبيعى أن تنطلق الأبواق لتطعن فى شرف الرجل وعلمه، وقد تكون هذه الأبواق خادعة أو مخدوعة، غير أن الاسنماع إليها هزيمة إسلامية شائنة، ونصر مؤزر للصليبية الغازية، وللسلطات العفنة التى عاشت وتعيش فى كنفها. فهذا هو الدكتور لويس عوض، هو رجل واسع الاطلاع على الثقافة الغربية شديد الولاء لأغراضها، يصب جام غضبه على الثائر الإسلامى الحر، ويصفه بكل موبقة. ويمضى شيخنا قائلا : أعتقد أن كرهه للأفغانى نابع من حبه لدينه، واحترامه

---

(١) فى مقالة رصينة ومفصلة، بعنوان «الأفغانى والماسونية للدكتور على شلش»، نفس المرجع ص ١٣٣ ومابعدها ختمها بقوله: «ومن هذا كله نستطيع أن نخلص إلى أن الأفغانى أقبل على الماسونية بدافع الإصلاح مثلما أقبل على غيرها من وسائله كالتعليم والخطابة والصحافة، ولم تكن الماسونية وقتها مكروهة ولامنبوذة فى مجتمع ينوء بالأثقال ويتطلع إلى الحرية والعدل.

لدور أوروبا فى احتلال الشرق الإسلامى ، وتغييرها الواجب لعقله وضميره. وقد نفسر عن كوامنه بالأسلوب الذى هاجم به الأفغانى.

وتحت عنوان (فرعى آخر ، ص ٨١) : مكانة الأفغانى عند الغزالى فى كتابه علل وأدوية : وكم أود أن يكون علماء الدين على صفته فى عزة النفس وشموخ الأنف، والتوكل على الله.. فى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران، وأنصت الأفغانى دون أن يرد، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منهيا الحديث: قد عفوت عنه.

وشده السلطان، وذعرت الحاشية : قد عفوت عنه ؟! العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجد أو يشكرون الندى، فما بال هذا الرجل يقاضى الملوك ويحاكم أخطاءهم؟

قال المؤرخون : «ماكان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة..! .. هل هذا السمو خُلُق عميل الماسونية كما يقال ؟ إنه خُلُق متوكل وثيق الصلة بربه، راسخ القدم فى دينه. ومما جاء فى مقال شيخنا الفاضل : «أذكر أن بابا روما» الأسبق مات عقب مرض ألم به فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية، وقد ألفت عشرات الكتب عن نابليون، تنوه بأمجاده، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته ! القوم إن رأوا خيرا من زعمائهم أذاعوه، وإن رأوا شرا دفنوه. أما نحن فمبدعون فى تضخيم الآفات إن وجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود!! والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ!! «وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغانى بالسوء، فرأيتهم يحيون فى إطار نُظُم تتبع الاستعمار الشرقى أو الغربى وأنهم فى مواجهته ، ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن «لا» و«نعم» . «إن الهيابين لايجوز أن يشتموا الشجعان» ! «علل وأدوية ص ١٠١ محمد الغزالى» .

وأعود إلى عنوان الكلمة «الاستماع للطاعنين فى الأفغانى هزيمة إسلامية شائنة».
وأقول: إن المستمع إلى العيَّاب شريك في الإثم. يقول تعالي :﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)** ﴾ [النساء] ويقول :﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)** ﴾ [الأنعام] هذا عن الشريك ، أما الفاعل الأصلى فهو مرتكب الذنب الأكبر، والوزر

الأعظم. والعقاب فى الدنيا يكون بقدر جسامة الجرم. ﴿ ... وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه]، وأعود وأضيف أن المستهدف ليس الرموز فحسب، بل الإسلام ذاته. والذين يصوبون سهامهم إلى ديننا، إنما يقصدون ذاتيتنا وهويتنا، وكياننا فى حاضرنا ومستقبلنا.

وليتهم يعلمون، أن العالم كله خسر ويخسر كثيراً بخسارة المسلمين، وزحزحة دينهم (وهو مرادف لمكارم الأخلاق) عن الساحة، ساحة التأثير، والسمو بالناس إلى القيم الربانية فى عالم غلبت عليه المادية والأطماع.

وأيًّا كان مكاننا اليوم كمسلمين ، فلن نيأس، ولن نترك الساحة للشيطان وحده. سنعمل، سنجاهد ، ونحن موقنون أن الله غالب على أمره» وهو «متم نوره ولو كره الكافرون» وانظر الآيتين (٢١ - يوسف ، ٨ - الصف).

الدكتور محمد أمان خان صافى الأفغانى ومقدمة كتابه «السيد جمال الدين الأفغانى» «بين الحقيقة والافتراء»

بند: ٢٠

للدكتور أمان عدة كتب، منها هذا الكتاب المبين بالعنوان - وهو الحلقة الرابعة من «سلسلة الدراسات الأدبية فى أفغانستان» (كما هو مبين على غلاف الكتاب).

وفى الإهداء (ص ٣ ومابعدها) أنه أهدى الكتاب إلى أفراد أسرته «وإلى صحيفة الأهرام القاهرية التى نشرت جهد قادة الفكر فى مصر دفاعًا عن الأفغانى (٢٩/٨/١٩٨٣ - إلى ١٧/١٠/١٩٨٣م) الذى هاجمه د. لويس عوض في مقالات نشرتها جريدة «التضامن» التى تصدر فى لندن باللغة العربية، كما قامت صحيفة الشرق الأوسط السعودية (والتى تصدر فى لندن هى الأخرى باللغة العربية) بنشر مقالات وبحوث أخرى عنه فى الفترة من ١٨/٣/١٩٨٩ إلى ٣١/٥ من نفس العام. يقول الدكتور أمان (نفسه ص ١٠): ولقد رأيت القيام بجمع وترتيب هذه الأبحاث وتلك ثم طبعها ونشرها ليسهل الرجوع إليها على من أراد معرفة حقيقة هذا المصلح الكبير - جمال الدين الأفغانى-.

الأفغانى
المسلم حقاً وصدقاً ويقيناً[1]

بند : ٢١

تتحدد شخصية الإنسان بأقواله وأفعاله، فإذا تطابقا فهذا هو الإنسان كما يجب أن يكون، وإذا تناقضا وجاءت الأفعال والمواقف بعكس الأقوال، فهذا هو الانفصام والنفاق. وفي القرآن الكريم : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة].

وفى الحديث الشريف : «أخوف ما أخاف على أمتى من منافق عليم اللسان، يقول ما تحبون، ويعمل ما تنكرون»، وفى حديث آخر : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا». ولنا خير قدوة فى صحابة الرسول عامة، والراشدين خاصة، كانوا يستغفرون ليلاً ويبكون خشية أن يكون ما فعلوا ونفذوا جاء بخلاف ما قالوا وأعلنوا وعاهدوا الله والناس عليه. وقد عرف تاريخنا الحديث زعماء وأبطالاً كانوا عظاماً. تصدوا للهجمة العالمانية الشرسة التى حاولت سرقة الأمة الإسلامية من نفسها. من هؤلاء : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد عرابى ومحمد فريد ومصطفى كامل وحسن البنا وسيد قطب إلى آخر قائمة من ساروا على طريق دين الله من أمثالهم.

ثم انتقلت إلى السيد المترجم فقالت : من بين هؤلاء أتناول زعيمنا الجليل السيد جمال الدين الأفغانى الذى كانوا يتندرون عليه لأنه لايحمل - على كثرة أسفاره - حقيبة، بل كان يقول : ألبس جبتى حتى تبلى فأشترى غيرها. والذى لم يتزوج حتى لايظلم امرأة ما لأنه نذر نفسه كلها لرسالة لاتترك لغيرها مكاناً معها.

ومما التزم به «أنه كان ينفر من الإدلاء ببيانات شخصية عن تاريخ ومحل ميلاده لأنه كان يراها هوامش لاتقدم ولا تؤخر فى حقيقته الأولى والأخيرة التى تعنيه وهى هويته الإسلامية. وكان يرفض بقوة التفكك الإسلامى لحساب العودة إلى (العصبية) القومية أو الجنسية أو العرقية، وقد كان يرى أن أى تمزق أو تعارض فى ضمير المسلم بين عقيدته الإسلامية وانتمائه القومى يجب أن يحسم فوراً للعقيدة الإسلامية». ومن هذا المنطلق كان يدعو الأفغانيين والإيرانيين، ليس فقط لنبذ كل خلاف أو نزاع، بل وإلى الاتحاد، فهؤلاء وهؤلاء جميعًا فروع لأصل واحد، وشجرة واحدة. وقد أكدت هذا الارتباط

---

(١) وانظر (ص١١ - أهرام ١١/ ١٠/ ١٩٨٣) (مقال للأستاذة صافيناز كاظم).



العقيدة الواحدة، عقيدة التوحيد الإسلامية واللسان الواحد «اللسان الفارسى» «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى» «د. محمد عمارة ص٣١٦ - ٣١٩»، وكان يرفض بكل شدة ما تراه بعض الجيوب العنصرية التى تعيش فى البلاد الإسلامية من أن هناك ما يُسمى بالعقيدة القومية. أقول عن المسلمين، والأخوة بينهم، مهما شاءت الديار وتعددت الأقطار.

أقول: إن هذه الأخوة فى الدين، فى الإسلام، فى العقيدة تتقدم، وتعلو على الأخوة فى النسب أو فى الدم والعرق، أو القرابة فى المصاهرة ونحوها وغيرها. ومن النصوص القرآنية قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾**﴾ [التوبة].

والآثار فى ذات المعنى كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن. أو المسلم للمسلم. كالبُنيان المرصوص يشد بعضه بعضا» (أو كما قال)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمى» (رواه مسلم وغيره عن النعمان بن بشير)، ومن أقوال جمال الدين فى الرابطة الدينية: «ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها التركى بالعربى والفارسى بالهندى والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر، وإن تناءت دياره وتقاصت أقطاره»، وعن الجيوب والأقليات غير الإسلامية فى الأقطار الإسلامية. «وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها، وحُسن المعاملة وإحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم من أبناء الأديان المختلفة، فإن مصالحكم لاتقوم إلا بمصالحهم، كما لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحكم. وعليكم ألا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان وذريعة لانتهاك الحقوق فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب. هذا؛ ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض؛ بل تضافروا بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان، ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة، والفضائل والكمالات الإنسانية، اجعلوا عصبيتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم، واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة

الكمال ﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة] (الأعمال الكاملة للدكتور محمد عمارة - ص٣١٠) (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٦٨م).

هذه هى كلمات جمال الدين، الداعية إلى الاتحاد والوحدة بين المسلمين، وإلى العدل، بل و«الإحسان» إلى غير المسلمين. ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾(١). وفى كتب التفسير عن قوله تعالى: «وتقسطوا إليهم»، أى أعطوهم من أموالكم برًا بهم.

التعريب كوسيلة(٢) بالغة الأهمية للوحدة الإسلامية

بند ٢٢:

شيخنا الأفغانى هو الداعية الأول للجامعة الإسلامية، وهو أيضًا -فى عصرنا الحديث- خير من فكر وقدر ودبر لقيام هذه الجامعة واستمرارها. ولم يغب عن باله قط ضرورة وحدة اللسان لقيام هذا الكيان. وإذا ذُكِرَت «وحدة اللسان» - فإنها لاتنصرف إلا إلى لغة القرآن. وقد شغل هذا الأمر -من الأفغانى- القلب والعقل والبال. ومن أقوال السيد فى ذلك: «لاجامع لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزّ لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها». إن جامع الجوامع كلها عند الأمة الإسلامية هو «وحدة دينها» ودينها هو دين التوحيد المطلق، ورسولها «العربى» هو خاتم النبيين والمرسلين. وكتابها «القرآن» محفوظ وقائم إلى يوم الدين. «ووحدة اللسان»، مجتمعة إلى «وحدة العقيدة»، هما الأساس المكين لعزِّ المسلمين، يقول الأفغانى: «لقد فاتحت السلطان عبد الحميد فى جلسات عديدة فى تعريب اللسان التركى فكان يصغى، ولكن أسارير وجهه كانت تنطق بعدم اقتناعه»، ويقول السيد: «لو استعرب الأتراك، وترأسوا ذلك الملك، وعدلوا فى أهله وجدوا على سنن الحكام العظام من المسلمين كالرشيد والمأمون -مثلاً- لما كان هناك ما هو أعز وأمنع من «الجامعة الإسلامية» التى دعا إليها الأفغانى «موقظ الشرق».

---

(١) - ٨ - الممتحنة، وانظر -على سبيل المثال - تفسير القرطبى للآية الكريمة.

(٢) وانظر: «التعريب وصلته بوحدة الأمة عند الأفغانى» - د. أحمد بن نعمان (نفس المرجع ص١٦٠ وما بعدها).

وبما يؤسف له أن الذى حدث هو العكس، وهو محاولة «الحكام الأتراك» تتريك اللسان العربى[1]!

أقول : مضيفًا إلى ما تقدم أن «وحدة اللسان» وأهميتها لها شواهد كثيرة فى التاريخ القريب، ففرنسا -مثلاً- بذلت كل قواها وجهودها - ومنها العمل العسكرى- لفرنسة الجزائر، واللسان الجزائرى. وقد طاردت البشير الإبراهيمى، الذى لاقى الألاقى من الاستعمار الفرنسى. وكل «جريمته» عند العدو أنه كان قد نذر نفسه للمحافظة على العقيدة الإسلامية واللسان العربى. (وانظر لى : مع الله . . فى كتابه وسنة رسوله) (فصل بعنوان : روح بدر).

هفوات

بند : ٢٣

تحت عنوان «كان الأفغانى منارة فى كل قطر نزل به» - كتب الدكتور «رأفت غنيم الشيخ» (عميد كلية الآداب بجامعة الزقازيق) كلمة قيمة لم تتجاوز صفحتين، لكنها غنية بمادتها وعناصرها. (ص١٢٤ وما بعدها - من كتاب الدكتور محمد أمان صافى (السيد جمال الدين الأفغانى - بين الحقيقة والافتراء) - وبما جاء فى الكلمة : وجاءت دعوة الأفغانى إلى «الجامعة الإسلامية» التى تقوم على الأسس الآتية : ١ - التحرر من التخلف ٢ - التحرر من استبداد الحكام، والأخذ بالشورى التى دعا إليها الإسلام ٣ - تحقيق الوحدة الإسلامية. ٤ - مقاومة الاستعمار . الذى هو فى المقام الأول خطر يقوم على أساس دينى، إنه نصرانية ضد الإسلام[2].

وتحت رقم - ٣ - «تحقيق الوحدة الإسلامية» كتب «ويتم ذلك إذا انضوت جميع شعوب الأمة الإسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتان الدينية والزمنية حكمًا حديثاً يأخذ بأسباب الحضارة الغربية التى لاتتعارض مع الدين الإسلامى. وقبل ذلك كتب ، تحت رقم - ٢ - (التحرر من استبداد الحكام) - «ويقوم على إنهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين، سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيرهم؛ لأن هذا الحكم لايتفق مع الشورى التى دعا إليها الإسلام، ومن ثم دعا السيد الأفغانى إلى النظام الدستورى وحكم الشورى.

(١) كون السلاطين العثمانيين مسلمين - سهل لهم ضم الديار العربية إلى دولة الخلافة العثمانية دون مقاومة تذكر بصفة عامة.

(٢) وتلتقى معه فى العداء للإسلام والمسلمين الصهيونية العالمية.



وألاحظ على ماجاء فى الكلمة القيمة للكاتب الفاضل، قوله : «تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتان الدينية والزمنيـة. .» هذا التعبيـر غريب علينا ، وعلى الإسـلام. إنه يذكِّـر بحـكم البـابوات فى أوروبا، وخـاصـة قـبل عـصـر النهـضـة (Renaissance) - وقد جاهد الأحرار، وجاهدت الشعوب فى أوروبا للتخلص من هذا العهد، بفصل الكنيسة عن الـدولة، بإبعاد الكنيسة والبابوية عن الدولة، أى عن السلطة الزمنية، أى عن الدولة المدنية. والأفـغانى رحمه الله كان يعلم مـايعنيه هذا المصطلح، ولايمكن - بالتالى - الدعوة إليه. صحـيح أن «سليم الأول» (الذى كان فاتكا جباراً[1]) قد حمل آخر خلفاء بنى العـباس الذى كان مقيما فى مصر. وكـان خليفة، بلا خلافة، وبلا مملكة - حمله عـلى التنازل له عن الخلافة، وتسليـمه شعـاراتها حين فتح مـصر، وخرَّب فيها كما شاء، وكمـا شاء جنوده. وكان أول سلاطين آل عثمان الذى جمع بين «السلطتين الدينيـة والزمنية» إذا صح هذا التعـبير. . ومن المحـقق أن هذا العهد (عـهد الجمع بين السلطتين) كان عهـدًا كريها ومشئوما، سواء فى عهـد البابوات، أو فى عهد سلاطين آل عثمان. لقد تغيـر الزمن، وآن الأوان للأخذ بالشورى الإسلامية، أى حكم الشعـوب. و«الجامعة الإسـلامية» شـعار ومنار يضيـئان لنا الطريق - طريق المستـقبل. والخطوة الأولى هى قـيـام منظمـة، (أى شكل دولى)، كـمـا هى الحـال فى «السـوق الأوروبية المشـتركة» - وتأتـى - بعد ذلك الخطوة الثانيـة، أى أن تتخذ المنـظمة الشكل الدستورى، وهذا لايعنى - قط - «الخليفة الواحد» كـما جاء فى الكلمة الجيدة للكاتب الفاضل، وإنما «منظمـة» لها أمانـة عـامة، وأمين عام ومجـلس تشريعى (أى برلمان - كالبرلمان الأوروبى - الذى لم يصبح ذا فاعليـة بعد) ومجلس تنفيذى. وخطوة خطوة، يمكن للدول الإسـلامية أن تتخذ الشـكل (الكونفيدرالى) ثم، تتطور إلى الفيدرالية (أى الاتحـادية) كمـا هى الحـال فى «الولايـات المتحـدة الأمريكيـة» ومـحكمة عـدل إسلامـية. . والقافلـة تسير، وحكم الشـعوب (وهـو الخطـوة الأولـى) آت عـما قريب[2].

---

(١) قتل أقرب ذويه إليه (أباه وإخوته ليجلس على عرش السـلطنة) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، مادة (سليم الأول).

(٢) حتى وقت قريب كانت إنجلترا تحكم إمبراطوريات لاتغيب عنها الشـمس (وكان ذلك بالقهر) - فوحدة إسلامـية ، تقوم على المبادئ الإسلامـية : (العقيدة الواحدة والشـريعة الواحدة - الطريق أمامها ممهد. وأقول- كما أقول دائما : «وإن غدًا لناظره قريب».

وأقول أيضـا : إن «منظمة المؤتمر الإسلامى» (ومقـرها بالمملكة العربية السـعودية) نأمل أن تتطور لتحقق الأمل المنشود.

بند : ٢٤

ذكر السيد رشيد رضا فى مقال له نشره بمجلة المنار جـ ٢ ص ٢٤٥ سنة ١٨٩٩م أن الشيوخ الجامدين أخذوا على الأفغانى ثلاثة أمور أساسية : علمه بالفلسفة، وخروجه من التقيد ببعض العادات الدينية التى أصبحت فى نظر العامة جزءا من الدين، وعدم تدين الكثيرين من تلاميذه. وكان رده على التهمة الأخيرة أن منشأ هذا لم يكن اتصالهم بجمال، وإنما كان نتيجة لنشأتهم الأولى.

أقول : يقول الشاعر العربى :

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ماكان عوَّده أبوه

فالأسرة هى المؤثر الأول على الناشئة فيها، فالأب والأم والإخوة (وكذلك الأخوات) - الأكبر لهم التأثير الأكبر والأول على أطفالها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. والمدرسة وأساتذتها لهم تأثير كبير لاريب فيه، وكذلك الزملاء فى الملعب والنادى والشارع، لهم تأثير قوى على بعضهم البعض. ثم إن مجلس الأفغانى كان يحضره الكثيرون : الأمراء والعظماء، وكبار الموظفين والمثقفين، وكان يحضره المسلمون وغير المسلمين. ويشير الشيخ محمد عبده إلى أن الأفغانى كان شديد الحرص على أداء الفرائض على مذهبه، وفى أوقاتها، وعلى خير وجه. كفاه هذا قدوة لمريديه وحاضرى مجلسه. واتهموه (أو ظنوا به) الزندقة لمجرد أنه كان يقرأ على طلابه (الفلسفة). وكل ماقامت عليه رسالة الأفغانى، وكل أعماله (ويكفى أن نذكر منها رسالته فى «الردّ على الدهريين»)، وأشهر تلاميذه وأهمهم وهو الشيخ محمد عبده (الأستاذ الإمام) لاحظ فى أستاذه النزعة الصوفية، وأنه يدرس الفلسفة. وكان هذا وذاك «مفتاح سعادته»[1] . أما عما أخذوه عليه من عدم التقيد ببعض العادات التى أصبحت فى نظر العامة جزءًا من الدين، فقد ردّ على ذلك الأستاذ الإمام . ومما قاله : «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وأى شىء فى أن يجلس الأفغانى فى متنزه عام، ومن حوله مريدوه ينشر عليهم الحكمة نثرا ودرا. وفى المثل العامى : «لم يجدوا فى الورد عيبا، فقالوا: يا أحمر الخدين!» إن المبغضين والناكرين عليه - وقلة منهم حسنة النية كالشيخ عليش الذى كان يطارد حاضرى الفلسفة فى الأزهر الشريف بعصاه. وكان معروفا عن

(١) أى مفتاح سعادة الأستاذ الإمام. لقد كان على شوق لدراسة الفلسفة، فوجد فى الأفغانى ضالته. أما الصوفية فقد تلقاها من شيخه الأول: الشيخ درويش. وانظر : «الثائر الإسلامى جمال الدين الأفغانى» لمؤلفه محمد عبده - ص ١٢



الأفغانى أنه يغفر له لسلامة نواياه. أما المُبغضون سيئو النية والقصد (كحسن أفندى شيخ الإسلام فى الآستانة) فكانوا يتقولون عليه مالم يقله، أو يُؤَوِّلون كلامه بما لم يقصده.

جاء فى كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» (ص ٣٠ ومابعدها) - كان السيد قد ذهب إلى الهند (بعد فرار محمد أعظم الذى انضم إليه السيد، وانتصار شقيقه (شير على) لمساندة الإنكليز له. وفى الهند رحب بـه الإنكليز ظاهرًا، وأحاطوه - فى نفس الوقت- بالجواسيس، ثم سيروه أخيرًا فى سفينة إلى السويس، ودخل مصر وأقام بها نحو أربعين يوما، ثم تعجل السفر إلى الآستانة، وبعد أيام قابل الصدر الأعظم عالى باشا الذى أقبل عليه بما لم يسبق لمثله.. وهو بزيه الأفغانى، وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء الذين تناقلوا الثناء على علمه ودينه وفضله. وبعد ستة أشهر عين عضوا فى مجلس المعارف، وكعادته : اقترح إصلاحات فى التعليم لم يوافقه عليها زملاؤه فى المجلس. وكان ما دعا إليه أحفظ عليه قلب شيخ الإسلام حسن أفندى الذى كانت الإصلاحات التى اقترحها السيد تمسه فى رزقه، ورغب إليه مدير الفنون تحسين أفندى أن يلقى خطابا، فكتبه وعرضه على كثيرين، منهم وزير المعارف، فأقروه. وكان قد أشار فى خطابه إلى أن تمام السعادة يكون فى تعاون الجميع ومشاركتهم كما تقوم كل أجهزة الجسم بوظائفها المختلفة، وقارن فى خطابه بين النبوة والحكمة، فالنبى معصوم والحكيم يخطئ. والأخذ برأى الحكماء مقيد بعدم مخالفته الشرع الإلهى. لكن حسن أفندى أقام من الحق باطلا لينال من السيد. وهكذا أهل التعنت والمتجرين بالدين. نصح له البعض بالصبر حتى تنتهى العاصفة، لكنه أصر على عدم السكوت عما رآه حقا. وامتد الخلاف، فصدر إليه أمر الصدارة بالجلاء عن الآستانة - لفترة - حتى تهدأ الخواطر ، ويعود إن شاء الله. ففارق الآستانة مظلوما فى حقه، مغلوبا لحدته. وحمله بعض من كان معه إلى التحول إلى مصر، فجاء إليها فى أول المحرم سنة ١٢٨٨هـ.

أقول تعقيبا على عبارة «مغلوبا لحدته» : ماذا يراد من رجل كالأفغانى؟ الثائر ضد كل باطل، والذى يتمسك بالحق، ولايخشى فى ذلك لومة لائم؟! أكان يراد منه مصانعة المرتزقة من أمثال حسن أفندى؟! أيدير ظهره للحق كما يفعل طلاب الدنيا ؟! لو فعل (لاقدر الله) لما كان هو الأفغانى. إنه صاحب رسالة : هل يتأتى من حكيم رشيد أن يطأطئ رأسه للجهل والجهلة؟! إنه هو ، وهو دائما، فى مجال السياسة الداخلية يقف بصلابة مع سيادة الشعوب، مع الدستور ، مع الديمقراطية، مع الشورى الإسلامية، ضد استبداد الملوك والأمراء وكذلك كان - ضد ناصر الدين شاه إيران، وضد قيصر روسيا، وضد استبداد السلطان عبد الحميد، وضد الخديوى توفيق. أما رسالته وسياسته الخارجية، فهو ضد الاستعمار والاحتلال واستنزاف خيرات الشعوب. ومن هنا كان عداؤه الصريح للإنكليز، وملاحقة الإنكليز له فى كل مكان !

إننا مازلـنا نعانى مما عانى مـنه الأفغانى الذى يعـيش فى قلوبنا وعقـولنا. إنه حي فينا. وإن الجامعة الإسلامية التى رفع شعارها، ستقوم، وعما قريب. ﴿ ... وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة].

وأعود وأقول : فى المثل الدارج «لكل مقام مقال» - وهذا من البلاغة، أو هو أحد تعريفاتهـا. يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل][1].

ويقول :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة]، (وبنفس اللفظ - الآية ٩ - التحريم).

وأعتقد أن الأفغانى الذى لايـجود بمثله الزمان إلا نادراً، والذى جعل للقرآن المكان الأول والأخير[2] فى دعوته للإصلاح الدينى، الذى هو أساس كل إصلاح، لم يغفل - قط - النصوص السابقة الذكر، ففى دروسه ومجالسـه، ينثر على مستمعيه الدر، وماهو أنفس من الدر: الدعوة إلى الله بالحكمـة والموعظة الحسنة. وأما أئمة الكفـر (كالإنكليز فى زمانه)، وأما رموز الظلم، وأما الطغاة من حكام المسلمين الذين كانوا ومازالوا - فلا سبيل إلا مجاهدتهم، وإثارة شـعوبهم ضدهم أى بالأسلوب الخطابى المثير[3] كما فعل فى إيران، وضـد ناصر الدين شاه. وكـان هدفـه دائما - مع تعدد وسـائله وأسلحته - هو صالح الشعوب، وسـيادة الشورى.

الأفغانى

بين رجال الحق ودعاة الباطل - نوع آخر من الأعداء

بنـــد : ٢٥

ولايدهشنا ، ولايزعـجنا نحن أن نجـد - بين الكاتبين عن الأفـغانى - الناكـرين، والحاقدين، والمتخبطين، والمتعالمين، والأدعـياء والعملاء، ولاغرابة فى أن نجد من بينهم من يحمل أسماء إسلامية، فـأعداء الإسلام بين هؤلاء ليسوا قليلين. لقد انهارت الدول

(١) وقد اختار هذا الأسلوب (وهو أدب القرآن والإسلام) اختاره فى حواره مع رينان، وانظر بند ١٩ للدكتور قسوم.

(٢) وماصح - طـعا - من السنة المطهـرة ، وكذلك الإجمـاع - مع تفصـيل سبق بيانـه فى الفصل الخاص (بالمغربى وكتابه عن الأفغانى).

(٣) ومن أمثلته البارزة فى تاريخنا الحديث مصطفى كامل.



الشيوعية، أو كادت، لكن الفكر الشيوعى الإلحادى الفوضوى الانحلالى مازال يجد له مكانا فى القلوب المريضة، والعقول السقيمة. ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...** ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿**... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴿٥﴾﴾ [الصف].

وليس الشيوعيون وحدهم هم الذين يعادون الإسلام، بل يشاركهم (الغرب) ويسابقهم فى هذا العداء. إن حملات شرسة ومسعورة مازالت تنطلق من أوروبا بالذات. وإنهم يقولون لقد تخلصنا من الشيوعية ، وعدونا القائم هو الإسلام[1] . إنها «الصليبية» وإنها «الصهيونية» مازالا ينبحان، وبالصوت العالى، وبلا حياء. إن الناس (ومنهم الشعوب الأوروبية) أعداء ماجهلوا. والمال والدعاية يعملان عملهما «فى غسل

(١) لقد مارس الصرب كل ضروب القهر والفحش ضد مسلمى البوسنة والهرسك ومارسوا ضدهم الإبادة الجماعية، وفى هذا كله لم يكونوا وحدهم. فقد عاونتهم على ذلك القوات الدولية. وفى الصفحة الأولى من الأهرام بتاريخ الأحد ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٥ «القوات الدولية عاونت الصرب على ذبح المسلمين»، فالكتيبة الهولندية المسئولة عن حماية سنترنيسيا المسلمة الآمنة ساقت مئات المسلمين للقتل على يد الميليشيات الصربية. . إلى آخره. والمسلمون (وعددهم بليون نسمة) لم يفعلوا حتى الآن مايجب؟!!

فى ختام مقال بعنوان «حدث فى فرانكفورت»؟ (فهمى هويدى ص ١١ أهرام ٢٤/١١/١٩٩٥). قال : سألت الأستاذة : شميل (المتعاطفة مع الإسلام والمسلمين) - عن صحة ماقيل : من أنها ستخصص قيمة الجائزة (٢٥ ألف مارك) مضافا إليها مبالغ أخرى كوفئت بها فى مرات سابقة لإنشاء مؤسسة تقدم منحا دراسية لطلاب العالم الإسلامى الذين يدرسون فى ألمانيا بالتعاون مع جامعة بون بلغة عربية سليمة؟ قالت: الخبر صحيح. سألتها: عما إذا كانت الحملة ضدها قد سببت لها قلقا أو إزعاجا؟ قالت : إنها فوجئت بها وصدمت فى بعض ممن قادوها غير أنها صبيحة يوم الاحتفال قرأت الفاتحة خمس مرات، وفي خروجها من بيتها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم. سألتها عما إذا كان سبب الحملة عليها هو ابتسار كلامها عن سلمان رشدى أم أنه كامن فى أصل تعاطفها مع الإسلام؟ قالت بذات الصوت الواهن: إن السبب الثانى هو الصحيح وأن الناقمين عليها تربصوا بها، وشوهوا كلامها عن عمد وسوء نية ثم أضافت: فى هذا الزمن كل من يدافع عن الإسلام لابد أن يدفع ثمنا لموقفه، وقد دفعت حصتى راضية. ومازلت. انظر هذه الكتب :

١ - الإسلام كبديل - د. مراد هوفمان (نافذة على الغرب) (١) مؤسسة بافاريا.

٢ - الإسلام بين الشرق والغرب - على عزت بيجوفتس - رئيس البوسنة والهرسك (نافذة على الغرب) (٢) مؤسسة بافاريا.

٣ - الله ليس كذلك - زيجريد هونكه (نافذة على الغرب) (٣) دار الشروق.

٤ - الإسلام عام ٢٠٠٠ - د. مراد هوفمان - دار الشروق.

المخ» (مخ هذه الشعوب). ومما لايخفى على أحد، أن دعاة «التغريب» ليسوا قليلين بيننا. ولهؤلاء امتداد واسع، ومساحات أكبر فى صحافتنا، ووسائل إعلامنا.

والمعروف عن شيخنا الأفغانى أن الدنيا لم تكن عنده أكبر الهم، ولامبلغ العلم، كان مؤمنا حقا وصدقا ويقينا، وكان شديد التأسى والاقتداء برسول الله وصحابة رسول الله، وكان أول مايعتز به ويفخر أنه سليل الحسين بن على، وكأنى به أحد تابعى التابعين الذين عاشوا فى ضمير الغيب ليظهر ويجاهد ماوسعه الجهاد، ثم يموت فى الوقت الذى قدره له الله.

إن الناهشين سيرة الأفغانى يُوْزرون، أما هو فيؤجر. لكن هذه ليست هى القضية المطروحة. إن القضية هى قضية تراثنا، ورموزنا، وقضية أمتنا فى تاريخها وحاضرها ومستقبلها. ومن هنا ينادينا واجبنا أن نضع الأمور، كل الأمور، فى نصابها «... **الحق أحق أن يتبع**» (وانظر الآية ٣٥ يونس).

الأفغانى

باعث الصحافة فى الشرق - وأحد وجهى عملة الإصلاح

د. مصطفى حمد شرم - جدة

نفسه ص ١٧٦ ومابعدها

بند: ٢٦

أدرك السيد الأفغانى ما للصحافة من دور مؤثر فى تحريك الشعوب نحو هدفين: بث الروح فى الشرق وتنقية عقيدته ودينه من الخرافات والنهوض بثقافته وعلمه؛ هذا هو الهدف الأول، أما الثانى فهو مناهضة الاحتلال الأجنبى ليستعيد الشرق عزته واستقلاله[1]. يقول الكاتب: وأبهى أيامه، وأهم غرسه كان فى مصر، حيث قضى ثمانى سنوات (٧١ - ١٨٧٩م) كانت الأحداث السياسية والاقتصادية والمالية قد أدت إلى حرث التربة، فكانت الفرصة لاستنبات أفكاره الجديدة (فى الحرية والمساواة) وكانت الكتابات قبله لاتخرج عن المدح أو القدح أو الاستعطاف، أما حرية الشعوب وحقوقها فكانت شبه غائبة عن الأذهان.

أقول: تضخمت ديون إسماعيل، وتضخمت معها هموم الناس من التدخل الأجنبى. ومن أهم مظاهره قيام وزارة نوبار المختلطة وفيها وزيران من الأجانب

(١) أقول: وكان له هدف ثالث وهو مقاومة استبداد الحكام، وجعل الأمر شورى للشعوب.



أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى. والتف حول السيد عدد من رجال مصر المؤهلين للعمل الصحفى من أمثال اللقانى والمويلحى وعلى يوسف ومحمد عبده. وبث فيهم من روحه المناضل، ووجههم إلى المعانى الجديرة بالاهتمام وكان يشارك فى الكتابة، ويوقع بأسماء مستعارة مثل «مظهر بن وضاح». ومن هذه الجرائد جريدة مصر، وصاحب امتيازها أديب إسحاق عام ١٨٧٧م، ونشر فيها السيد مقالات مثل «الحكومات الشرقية وأنواعها» و«روح البيان فى الإنجليز والأفغان» . وهى الجريدة الأولى التى وردت فيها كلمة «مصر الفتاة» و«أبو نضارة زرقاء» الجريدة الساخرة، شجع يعقوب صنوع على إصدارها عام ١٨٧٧م. و«التجارة» صدرت بنفوذ الأفغانى عام ١٨٧٩م وامتيازها لأديب إسحاق - و«مرآة الشرق» لسليم عنحورى عام ١٨٧٩م وأشرف على تحريرها، إبراهيم اللقانى أما «الوقائع المصرية» فقد شجع الشيخ محمد عبده وأديب إسحاق للكتابة فيها بجرأة لم تكن معروفة من قبل.

أما «العروة الوثقى» فقد أصدرها فى باريس بالتعاون مع الشيخ محمد عبده، وقد أقضت مضاجع الإنجليز وغيرهم، وهزت عروش الطغاة من الحكام. كان تأثيرها بعيد المدى حاربها، ومنعوا دخولها البلاد العربية والشرقية أصحاب النفوذ، ولم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا. وصوتها هادر، وتأثيرها نافذ حتى اليوم وغدا.

أما «ضياء الخافقين» التى أصدرها فى لندن بالعربية والإنجليزية، فقد وجهت سهام نقدها إلى شاه إيران. ويأخذ البعض، ومنهم صاحب هذا المقال الذى أنقل عنه - على جمال الدين إصدار هذه الجريدة التى تشهر بلا هوادة بحاكم شرقى هو شاه إيران[١] . وإنى أخالف الناعين ذلك عليه؛ لأن مجاهدة الطغاة[٢] أيا كانوا - كانت من أهداف الأفغانى، بل فى الصف الأول من هذه الأهداف.

إن البعض يقارن بين الأفغانى الثائر، والشيخ عبده الداعى إلى الإصلاح بالأسلوب الهادئ وصاحب المقال (وإنى معه) يدعو إلى حتمية السياستين: فإذا اجتمعا فالخير كل الخير، وإذا انفردتا فالواحدة مؤداها الأخرى، والمصلحان الجليلان هما وجهان لعملة الإصلاح. وقد افترض الشيخ عبده مهادنة الإنجليز والخديوى مبدئيا حتى لايصطدما

---

(١) كان هذا الشاه (ناصر الدين) قد استدعى الأفغانى، ولما اختلف معه طرده مهانا أشد إهانة وكان مريضا - والتفاصيل مذكورة فى مكان آخر.

(٢) والطغيان هو الطغيان، سواء فى ذلك الطغيان من الخارج، أو من الداخل. والمسلمون وديار الإسلام - فى معظمها ما كادت تتخلص من طغيان أعدائها حتى وقعت ضحية لطغيان بعض أبنائها.

ببرنامجه الإصلاحى فتحقق ظنه - والسؤال هو : ماذا كانت النتيجة لو أن الإنجليز كمستعمرين رفضوا سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى واصطدموا بمحمد عبده؟ أظن أن البديل الأوحد المطروح وقتها هو الإصلاح السياسى.

الأفغانى

الرجل الولوع بعظائم الأمور

العزوف عن صغائرها

بنـــد : ٢٧

أقول: سبق أن أشرت إلى ملفين عن الأفغانى، أحدهما هو مايمكن أن نسميه (ملف جريدة الأهرام القاهرية) - التى كتب ونشر فيها من محرريها الأستاذان أحمد بهجت وسامح كريم - كما استكتبا بعض المتخصصين - للرد على افتراءات د. لويس عوض على الأفغانى ونشرها فى «التضامن» التى تصدر فى لندن باللغة العربية. والثانى ملف جريدة «الشرق الأوسط» (السعودية) ، وهى الأخرى تصدر فى لندن باللغة العربية. وقد نشر الدكتور محمد أمان صافى ما ورد فى هذين الملفين فى كتابه : «السيد جمال الدين الأفغانى بين الحقيقة والافتراء».

وقد قدم الأستاذ محمد الهاشمى الحامدى لما نشر فى الملف الثانى بكلمة قال فيها : بعد محمد بن عبد الوهاب، وسيد قطب، تنتقل الشرق الأوسط لتنشر ملفها الجديد عن أبرز زعماء الإصلاح فى القرن الماضى. إنه رجل وصفه الإمام محمد عبده: بأنه رجل بصير فى الدين. وبالجملة (والكلام للأستاذ الإمام) - فإنى لو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل ونفوذ البصيرة، وهو أقصى ماقدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ومع ذلك فإن الأفغانى ليس محل إجماع لدى معاصريه ولدى لاحقيه. ولم يسلم من النقد والانتقاد يوجهه كثير من العالمانيين، ولايتورع عنه بعض الإسلاميين.

من أجل ذلك بسطنا تجربة الأفغانى للحوار. . نريد أن نواصل سنة التناظر التى بدأتها الشرق الأوسط أخيراً ونرسخها، ونطمع أن يسلط حوار النخبة أضواء جديدة على نجاحات الأفغانى وإخفاقاته، وعلى المنهج الذى ضمن تلك النجاحات، ولم يمنع حصول الإخفاقات.

نحن في حاجة أكيدة إلى المنهج، فبعد مائة عام من وفاة الأفغانى لاتزال الأمة تتخبط تائهة بين المسالك. وقبل ثلاثة أيام سخر الزميل عبد الرحمن حمد الراشد فى

زاويته الأسبوعية «أبيض وأسود» بالشرق الأوسط من تعليق جمودنا بل وتدهور أوضاعنا على الاستعمار، مللنا هذه الأسطوانة، ويجب أن نواجه أوضاعنا بشجاعة، ولنتصفح - على سبيل المثال - أرقام المديونيات إنها تتزايد وتتراكم، وتذكرنا بمبررات الاستعمار القديم الذى اتخذ من عدم القدرة على السداد ذريعة للتدخل فى شئوننا بحجة الرغبة فى موازنة شئون البلاد (للحفاظ على حقوق الدائنين). ومن نسى التاريخ فعليه أن يعيد قراءته، ليس - فقط - لإثارة الحمية وحفز الهمم، ولكن لالتماس مايساعدنا على مواجهة واقعنا الراهن، فربما نكتشف مزيداً من الحجج على أن إعراض الأمة عن عرض الأفغانى مايزال يعوقها عن التقدم (الإعراض عن نداءات الاتحاد وتحرير العقل المرتكز على القرآن، ومحاربة الجبرية والجمود والإلحاد، والبدء بإصلاح الإرادة السياسية وتوحيدها باعتبارها مصدراً لأوجه الإصلاح الأخرى).

غير أن هذا وحده لايكفى، إذ ثمة سؤال آخر بالغ الأهمية: لماذا لم ينجح مشروع جمال الدين رغم معقوليته القصوى، ولماذا لم تتصل روحه العقلانية المتفتحة فى كثير مما لحقه من مشاريع الحركات الإصلاحية الإسلامية؟ ينبغى أن نعرف السبب حتى لا نكرر الهتاف فى القفار ومناداة الأموات. وحتى نتسرع فى مواجهة تحديات القرن الحادى والعشرين. فمن المؤلم أن المرء مايكاد يجد مؤشرا واحداً على أننا نهتم بتقلبات الزمن وتنوع ابتلاءاته الحادثة الطارئة.

مايزال الأمل يسكن قلوبنا ولايأس مع الأمل. ﴿ ... **وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] . وفى سائر الأحوال يجب ألا نكف عن التفكير الجدى فى مشروع النهضة الذى بدأه ابن عبد الوهاب وكرس له الأفغانى حياته . . فضلا عن آخرين سيأتى دور فتح ملفاتهم.

إن قصة الأفغانى مفعمة بالأمل. إن آثار أقدامه وغبار ثوراته وصدى أفكاره فى بلاد الإسلام الواسعة لايزال يشهد لشرف الإنسان عندما يخلص الروح والقلب لفكرة التوحيد. كما أن أحزانه الممتدة فى ذلك الزمن من كابل إلى طهران إلى الهند والقاهرة وباريس واسطانبول تشهد دائما للوحدة ولمشروع الإسلامية العالمية[1] الثانية الذى يبشر به محمد أبو القاسم حاج حمد من شمال السودان[2].

أعود إلى ماجاء فيما تقدم عن تراكم الديون علينا (نحن شعوب العالم الثالث) - إن التاريخ يعيد نفسه. أعود وأقول: إن الدول الأغنى والأقوى، والممولة (للبنك الدولى

---

(١) إنى أتنبأ بذلك فى كل ما أكتب.

(٢) السيد جمال الدين الأفغانى بين الحقيقة والافتراء. د. محمد أمين صافى ص٧٤.

- وصندوق النقـد) - بدأ القصة (قـصة تراكم الديون علينا) بإغـرائنا بالاقتـراض لسد حاجاتنا. وسبق هذا سعيها الخبـيث لخلق هذه (الحاجات - أو الاحتياجات) - فقبل أن يحمل الاستعمار (القديم) عصاه ويرحل - اصطنع أشـياء كثيرة، منها حدود من شأنها أن تثير النزاع بين الدول الناشئة والحديثة الاستـقلال. صحيح أن ماكان يسمى بالحروب العالمية قد انتهى عهدها، أما النزاعات والحروب المحلية بين دول العالم الثالث فناشبة هنا وهناك ولاتكاد تنقطع - وسـواء لتمويل هذه الحروب، أو تمويـل المشروعات الإنتاجـية والخدمية فى بلاد العالم الثالث، الفقـير جدا جدا، فإن صندوق النقد والبنك الدولى قد سارعـا إلى حكامنا، وإغرائهم بالاقتـراض كما قلت وبشـروط ميسـرة فى بادئ الأمر. وشيئًا فـشيئًا تجمعت القـروض وتزايدت ، وعجزت الشعوب الفقيـرة (أو حكامها على الأصح) عن سـداد الأقساط والفـوائد. وهاهم (أى الدول الغنيـة والقوية) قد جـعلت حكام البلاد الفـقيرة تابعين لها (والديون هم بالليل، وذل بالنهـار) - ولاتختلف الدول فى هذا عن الأفراد. والشعوب - دائما - هى التى تدفع الثـمن!! والقضية ذات شعاب تتعدد وتطول، وتتوه فيها العقول!!

مزيد من الضوء على تاريخ الأفغانى

أولا : فى نقد الأفغانى للغرب - قراءة فى رسالة الرد على الدهريين

بقلم د. كمال عبد اللطيف - أستاذ بكلية الآداب - الرباط[1] - المغرب

بنـــد : ٢٨

مما جاء فيه، يحتل جمال الدين الأفـغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧م) - مكانة متميزة فى تاريخ الدعوات الإصلاحـية التى برزت فى القرن الماضى. وقد ساهم - بصحـبة الشيخ محمد عبـده - فى تأسيس تقليد فكرى إصلاحى تطلق عليه تسميـات متعددة، منها : النزعة الأصوليـة - الدعوة السلفية - تيـار الجامعة الإسلامـية والهوية الإسلامـية. وقد جمع الأفغـانى بين الالتزام العقائدى الإسلامى، والمـمارسة الفاعلة فى كثـير من البلاد الإسلاميـة، حيث عاش فى بلاد الأفغان والهند وتركيـا ومصر والحجاز وغيـرها، كما عاش فى بعض العواصم الأوروبيـة. وكان يعرف فى كل محطة من المحطات الجغـرافية المذكورة أتباعًـا ومريدين ومجادلين، مما يدل على قوة الشـخصية التى كان يتـمتع بها، وقوة الدعوة التى حاول صياغتها، كما حاول تجسيدها فى الواقع. ومما نقله الكاتب عن

---

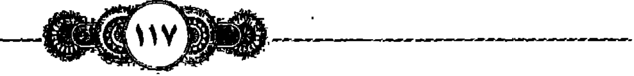
(١) ص ١٥٤ - ١٥٩ من نفس المرجع (الأفغانى بين الحقيقة والافتراء للدكتور صافى).

آخرين قولهم : «وكان الأفغاني - وهو العبقرية الحقيقية يختصر بنظرة واحدة ماسيكشفه لنا بعد ذلك تاريخ نصف قرن ، سرحلة فمرحلة».

وعرف العالم الإسلامى وعانى خلال القرن التاسع عشر من الهجوم الإمبريالى الذى مزقه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. إنه التفاعل التاريخى اللامتكافئ بين الشرق والغرب، بين التأخر والتقدم ، الإسلام والنصرانية.. إلخ، وقد حاول الأفغانى مع مجموعة من المعاصرين له الكشف عن جدلية هذه اللحظة فى تشابكها وتعقدها التاريخى (نذكر من معاصريه ممن حاولوا الإمساك بروح هذه اللحظة وتجسيدها أيضا الطهطاوى[1] ومحمد عبده وفرح أنطون وأديب إسحاق وغيرهم، ومن هنا الطابع المنفعل لكل ماكتب الأفغانى الذى حاول بلورة عناصر فى الرؤية الدفاعية التى تتطلبها وضعية مجتمع متأخر تاريخيا، ومتأخر بفعل جبروت أوروبا الغازية، فالطابع السجالى الذى يطبع أهم ماكتب الأفغانى يندرج فى سياق محاولته المواجهة ونقد الهيمنة الأوروبية بكل أبعادها ومؤامراتها فى الوجود التاريخى للعالم الإسلامى. لقد خاطب الأفغانى فى كتاباته (ومحاضراته وأحاديثه) مسلمى العالم قاطبة، وحاول أن يُحيى فى نفوسهم الطابع الكونى لرسالة الإسلام. فهاجم الاستعمار وهاجم الدهريين والماديين، وكل المتربصين قولا وفعلا بعالم الإسلام. ودعا إلى ضرورة إعطاء الاعتبار الأول من الحضارة الإنسانية للدين والقيم الأخلاقية. وبالإضافة إلى الخطابات والرسائل الصغيرة، فإن أهم ماكتبه (فى نظر الكاتب) - هو «رسالة الردّ على الدهريين»، ورسالته فى الردّ على رينان وهى بعنوان «الإسلام والعلم» لايعنى هذا أننا لانعترف بأهمية نصوصه الأخرى : «العروة الوثقى»، «القضاء والقدر» وشذراته التى جمعت تحت عنوان «خاطرات جمال الدين الأفغانى». فهذه النصوص تمتلك طعمًا مخالفا للنصوص الأولى، وهى تحدد مجال الكتابة الأفغانية فى مستوياتها المتعددة. إننا نتركها فى مكانها نتجه صوب المجال المؤسس لرؤيته وموقفه من الغرب. ولعل «رسالة الرد على الدهريين» هى النص الممثل لهذا الموقف: فلنقف عنده: «يؤسس خطاب الأفغانى هنا موقفه من الغرب، ومن أسس المعاصرة المتحققة فى حاضره، كما يؤسس فى الآن نفسه أسس دعوته المتجهة نحو إعادة فهم الإسلام كاختيار حضارى قادر على منح المسلمين القوة والمنعة اللازمتين للحضور التاريخى المبدع والفاعل فى العالم. وفى هذا وذاك كان يقدم اجتهادات تتعلق بتجربته الذاتية، وتجربة الظروف التاريخية التى تؤطرها وتصوغ لها الحدود والآفاق. وفى البداية نجد أهم محتويات الرسالة: فى مقدمة الرسالة التى كتبها

---

(١) أقول : لى كتاب عن الطهطاوى ، وآخر عن محمد عبده، تحت الطبع.



الأفغانى بالفارسية، ونقلها الشيخ محمد عبده إلى العربية (بمساعدة أبى تراب مرافق الأفغانى) - فى مقدمتها أنها كتبت لتجيب على سؤال يتعلق بمعنى الدهرية، وكيفية مقاومة انتشار الفكر الدهرى.

والقراءة المتأنية لهذا النص الجوابى السجالى تجعلنا نقف عند محورين أساسيين : محور يتعلق بنقد الدهرية - ومحور يهتم بالتفكير فى الدين باعتباره البعد الحضارى المركزى فى كل حضارة إنسانية مستقبلية. والدهرى فى نصوص الأفغانى هو من يقصد «محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال[1] والأبضاع بين الناس عامة» (الأعمال الكاملة ص ١٢٩). إنهما طرفان : الدهرية جرثومة الفساد. الدين قوام الأمم والذى به خلاصها وسعادتها.

تابع فيما كتب مراحل الفكر الدهرى من ديمقرايطس إلى داروين، ويضيف الأفغانى إلى ماتقدم فلسفة الأنوار والفلسفة السياسية التى شكلت الأرضية الموجهة للثورة الفرنسية، ويعتبر أن الدعاوى الاجتماعية والاشتراكية التى عرفتها أوروبا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تتجه فى مجملها نحو تحطيم أوروبا وتحطيم الإنسانية، بحكم المبادئ التى تعتمدها فى منطلقاتها النظرية ومبادئها الأخلاقية.

وبديل الدهرية فى النص هو الدين، وخاصة الدين الإسلامى. وفى هذا السياق يتحدث الأفغانى عن دور الدين فى إكساب عقول البشر العقائد والخصال التى تقوم عليها الهيئة الاجتماعية، أما العقائد فهى الحياء والأمانة والصدق، أما المجتمع الذى يستطيع استثمار العقائد والخصال المذكورة فهو المجتمع القادر على مقاومة الدهرية والدهريين وبلوغ السعادة الإنسانية المنشودة.

يقول الكاتب : إننا نعتبر هذا النص بمثابة بيان للحركة السلفية المعاصرة. إنه مفتاح تصورها للغرب. وقد كان له صدى واسع فى مجمل الكتابات الإسلامية اللاحقة إلى يومنا هذا: إننا نعتبر أن بعض نصوص سيد قطب من قبيل «المستقبل لهذا الدين» ونص المودودى «نحن والحضارة الغربية» ونص الندوى «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» . كل هذه النصوص تَغْرِفُ من هذه الرسالة.. وهو مايدل على استمرار حضور خطاب الأفغانى فى النصوص الإسلامية السلفية الجديدة والمستجدة فى الساحة الإسلامية :. إلى آخره.

---

(١) فى هذه الأيام (يناير ١٩٩٧م)تتحدث وسائل الإعلام فى الداخل والخارج عن جماعة عبدة الشيطان، الذين يمارسون إدمان المخدرات والشذوذ الجنسى.. إنهم أولاد المترفين الذين شغلتهم أعمالهم عن أولادهم).

وتتضمن الرسالة كل خصائص البيان : الإيضاح ، الدعوة، الاستدلال المتصاعد فى اتجاه إقرار قضية بعينها. إنها بيان يعكس موقف الحركة السلفية من الغرب فى زمن من الهيمنة الإمبريالية، ويقدم مجادلة للتيارات الفلسفية المادية، وهى فى الوقت نفسه تقدم قراءة أيديولوجية للتاريخ الإسلامى ولتاريخ الإنسان المعاصر. لقد كتبت الرسالة لتقدم موقف الأفغانى من الفكر الأوروبى المعاصر، إنها تنتقد الفلسفات المادية : فلسفة الأنوار والفلسفة الداروينية، وبعض التحركات الاشتراكية. وهى تجادل كل التيارات المذكورة فى صورتها الأوروبية وفى صورها العربية، المتمثلة فى التيارات الفكرية الليبرالية التى عرفها العالم الإسلامى منذ القرن التاسع عشر فى إطار المثاقفة التى حصلت فى مرحلة التغلغل الإمبريالى (نقصد هنا نقده لفكر شبلى الشميل). صحيح أن نقد الأفغانى للتيارات التى ذكرناها لايعبر عن فهم تاريخى موضوعى لهذه التيارات. إلا أنه يقدم موقفا أيديولوجيا منها، أى يقدم مايمكن اعتباره موقف الحركة السلفية من الغرب، ومن الأسس الفلسفية المعاصرة كما تبلورت فى تاريخه المعاصر. ولايكتفى الأفغانى فى رسالته بالنقد، بل إنه يحاول صياغة بديل يعتقد فى قدرته على مواجهة النزعات الإلحادية ، يتعلق الأمر بنزعة دينية.

أقول: ولى تعليق : (أ) يقول تعالى :﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية]. وفى المعجم الوسيط : رجل دهرى، أى ملحد لايؤمن بالآخرة ويقول ببقاء الدهر.

ولقد كتبت عن «الثورة الفرنسية[1] الكبرى»؛ وعن «التطورات الدستورية[2] فى إنجلترا». كتبت عنهما مع الإشادة بهما. كتبت عنهما كتحرك بشرى ضد ظلم بشرى، مارسه الملوك والبابوات ضد الشعوب. وكان من ثمرة «هذه الثورات وأمثالها» أن صار الحكم للشعوب، بعد أن كان لأفراد تحت أى تسميات أو شعارات! ولاريب أن نظم الحكم فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية[3] ، مازال بعيد المنال على معظم الشعوب النامية فى أفريقيا وغيرها، وهم يكونون أغلبية سكان الأرض. وبالمعيار الإسلامى، وتحت النظم الإسلامية المأمولة، وبالمقارنة ، تبدو العيوب الشائنة فى النظم الغربية. فتحت اسم «الحرية» على سبيل المثال، قالوا بحرية المرأة فى جسدها، والأمور هناك تتطور نحو شيوع العلاقة الجنسية غير الشرعية بين الرجال والنساء. ولاننسى

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة - طبعة ثانية ص ٢٣٢ - ٢٤٤.

(٢) نفس المرجع - ص ٢١٤ ومابعدها.

(٣) وكذلك النظام الديمقراطى بالهند



«سلطان المال» وهيمنته على عمليات غسل المخ وتضليل الناخب، وهذا أكثر وضوحا فى انتخابات الرئاسة والكونجرس في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث يملك اليهود هناك المال، ويسخرون وسائل الإعلام. وفى كل ما أكتب أتنبأ «بإفلاس الحضارة الغربية وانهيارها» وسيادة الإسلام خلال بضعة أجيال!!.

(ب) إن الدهرية ، إن الإلحادية، إن جسما بشريا بلا روح، بلا إيمان بالله واليوم الآخر يفقد توازنه واتزانه. وإن «العقل» يضل إذا لم يستضئ بنور الله. يقول تعالى فى سورة الروم: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... (٩) ﴾ [الروم].

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل

(ج) هذا، وقد سبق ذكر اسم «شبلى شميل» فيما نقلته عن د. كمال عبداللطيف. ومما جاء عن «شبلى شميل» (١٨٥٠ - ١٩١٧) فى الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٧٣ أنه «طبيب وعالم طبيعى.. تتلمذ على المدرسة المادية الألمانية.. واعتبر نيوتن وداروين إمامين عظيمين من أئمة المادية التى عرض لآرائها فى التطور فى كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء» (١٩١٠) ولم يكن شميل فيلسوفا ماديا فحسب، بل كان أديبا يكتب بالعربية والفرنسية .. إلى آخره.

ثانيا: الجامعة الإسلامية والعروة الوثقى
للدكتور إبراهيم حركات - أستاذ بكلية الآداب - الرباط(١)

بند: ٢٩

قال : نضجت فكرة الجامعة الإسلامية لدى الأفغانى وهو دون العشرين عندما تنقل لأول مرة بين عدة أقطار عربية وأدى فريضة الحج. وفى اجتماع حجاج بيت الله (وفى مؤتمرهم السنوى) عمل على إنشاء «جمعية أم القرى» والتى يمثل أعضاؤها جميع الأقطار الإسلامية. وكان - دائما - يرمى إلى وحدة الشعوب الإسلامية نفسها، عن طريق وحدة روحية ونضالية ضد التخلف والاستعمار جميعا. وكانت الشعوب الإسلامية

(١) التلخيص بتصرف، واللغة، وكذلك بعض الأفكار ، من عندى.



وقتئذ - إما محتلة أو مهـددة بالاحتلال. وكانت أوروبا - وحتى اليوم - ضد أى وحدة إسلامـية، أى ضد أى قوة تردها عن أطمـاعها. ومن هنا حاربت، ولاحـقت أى دعوة إلى «الجامعة الإسلامية» (أمل الأفغانى الأول والأكبر).

العروة الوثقى : سـميت «جريدة» وهى فى الواقع مجلة أسـبوعية لم يصـدر منها سوى ثمانيـة عشر عددا وكان لها من القـوة والنفوذ والتأثير مالم يكن لأى مـجلة قبلها ولابعدها حـتى اليوم. لقد كانت منارًا اجـتمعت حوله قلوب المسلمين وعـقولهم وكل جوارحـهم. والمحاور الرئيـسيـة لمجموع أعـدادها هى : (كمـا جاء فى مقـال الكاتب الفاضل) :

١ - الأوضاع الإسلامية وانحطاط المسلمين. ٢ - الوحدة الإسلامية .

٣ - أسلوب الحكم ونظرات حوله . ٤ - قضية السودان .

٥ - المسألة المصرية. ٦- الدولة العثمانية. ٧ - السياسة الإنجليزية.

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق: «وقـد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا، مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ، ولاتنبيه منبه. وهى ذات أثر فى كل ما جدًّ من الحركات الوطنية، وطلب الحرية فى بلاد الشرق.

ويمكن أن يضاف - على سبيل المثال - أن الحركة الـسلفية والحركة الوطنية بالمغرب كان أفرادها يتداولون العروة الوثقى فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن العشرين. كمستند يحظى بنوع من القداسة ، ويرجع إليه فى مـدارسة القضايا الوطنية الإسلامية. وحسب الدكتـور محمد عـمارة فى كتابه عن الشـيخ محمد عبـده، كانت كل الأفكار الأساسية فى العروة الوثقى للأفغانى، والصياغة والترتيب لمحمد عبده.

قلت : فى موضع آخـر وأقول هنا -: إنى أرفض هذا التصور والتـصوير للأمور، فلا يمكن أن يكون محمد عبده (مجـرد سكرتير) يكتب ما يُملى عليه. لقد كانت هموم الرجلين مشتركة، وأهدافـهما واحدة والأقرب إلى الصحة فيما أرى أنهـما كانا يشتركان فى الأفكار ومراجعة الصياغة . لقد كـانا كمجاهدين - روح واحدة فى جسدين. ومن المحقق أنهما كشخصيتين عظيمتين متميزتين لم يكن أحدهما نسخة من الآخر.

ومن الأمور التى أثارتها الجريدة بشأن السودان ماتردد بمنطقة طشقند من أصداء عن انتصـارات عرب السـودان فى بعض مواجـهاتهم ضـد الإنجليز، وظهـور داعيـة جديد لطشقند يدعو إلى ثورة على الحكام[1] هناك.

---

(١) أقول : حقا إن المسلمين كلٌ واحد، يتأثر بعضه ببعض فى السراء والضراء.



وكانت الجريدة تصر على كل مايؤدى إلى الوحدة ويقويها، وتتجافى - كلية - كل مايؤدى إلى الفرقة. ومما لاجدال حوله أن قبس الثورة الفكرية التى أعلنها الأفغانى أشع بنوره- فضلا عن الديار الإسلامية بالشمال الأفريقى - أشع على المجاهل الأفريقية عن طريق كتاباته التى تنبض حنينًا إلى الحرية والوحدة.

ثالثا: خطاب الأفغانى وتجربة النخبة فى تونس

دكتور أحمد النيفر - جامعة الزيتونة - تونس(١)

بند: ٣٠

فى السطور الأولى من هذه الكلمة: التقيت هنا بالعلماء والأمراء، فتعرفت عليهم وقلت لهم: «ليست العروة الوثقى اسم جريدة فقط، بل هى قبل ذلك اسم لجمعية أسسها السيد جمال الدين الأفغانى فى حيدر آباد بالهند، ولها فروع سرية فى بلاد كثيرة، فأعلمتهم بأننا نرغب فى تأسيس فرع لها فى تونس فقبلوا. وأنا أسعى لتكوين هذا الفرع من العلماء؛ وأعتقد أنه لامجال للخوف لما يتسم به أولئك العلماء من غيرة ودفاع، وسيحافظون على سرية هذا الفرع، ولو وقفتم بأنفسكم على مدى إكرامهم لى لسعدتم كل السعادة».

هذه فقرة من رسالة بعث بها الإمام محمد عبده من تونس بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٨٨٤م إلى السيد جمال الدين الأفغانى. فى باريس يعلمه فيها بتفاصيل مهمته التى قدم من أجلها إلى تونس. والواضح من هذه الفقرة أن الأستاذ الإمام فوجئ مفاجأة سارة من إقبال النخبة التونسية على مشروع الجمعية المناهضة للاستعمار الأوروبى. من الجلىّ إذًا أن زعيمى الإصلاح لم يكونا يتوقعان مثل هذا الاندفاع من قبل علماء عُرف نظراؤهم فى العالم الإسلامى بمهادنة الأوضاع السياسية القائمة واستسلامهم للبدع والخرافات التى كانت تطغى على الجهات الدينية الشعبية. هذا الاكتشاف الذى تحقق على إثر الزيارة الأولى لمبعوث السيد الأفغانى، لم يزدد على الأيام إلا وضوحا. إذ تحول عند الأستاذ الإمام إلى قناعة راسخة عبر عنها بقوة حين دعم صلاته مع القيادة الفكرية التونسية واهتم بمشاغلها على صفحات «المنار» ثم لما عاد ثانية إلى تونس خريف عام ١٩٠٣م. لقد اكتشف زعيما الإصلاح أن النخبة التونسية أشد قبولا للرقى من

---

(١) نفسه ص ١٤٧ ومابعدها، وانظر - أيضا - المراجع المشار إليها فى هذه الكلمة ومنها الدكتور على الشابى - صلة النخبة التونسية بجمال الدين الأفغانى - المجلة التاريخية المغربية - العددان ٨٥ و٨٨ - يناير ١٩٧٨م ص ٤٥.



المصريين، وأن مبدأ الإصلاح حاصل فى عموم صفوف النخبة لكنه يحتاج إلى مزيد من الرعاية قصد فتح المجالات العلمية لدعمه والمساهمة فى توسيع آفاقه.

والواقع أن من يقارن ماتعرض له الخطاب الإصلاحى من عنف ومقاومة فى مصر وتركيا - مثلا - وما لقيه من تقبل فى القطر التونسى، يمكّن من القول بأن الأفغانى وعبده اكتشفا فى تونس البيئة النموذجية وأنهما كانا سعيدين باكتشافهما سعادةً لاتعادلها إلا سعادة النخبة التونسية بعثورها على الجواب العملى المتصل بكيفية مواجهة الأوضاع المتردية فى تونس والعالم الإسلامى.

كانت العناصر[1] الفاعلة فى النخبة التونسية تتطلع بشغف زائد إلى ماتنشره العروة الوثقى، فتجد فيه مايؤكد وجهتها الإصلاحية العريقة، ومايبدد بعضا من مخاوفها، ويخصها بشىء من الطمأنينة على أن نبض الأمة لم يتوقف. كانت النخبة فى تونس تقرأ كلمات العروة الوثقى فيعود إليها الأمل مضاعفا: الأمل فى أن ما ابتدأ من يقظة منذ مطلع القرن التاسع عشر في الربوع التونسية لم تتمكن الأيام والأهوال من إتلافه، والأمل فى أنه لم يقتصر على قطر أو اثنين، بل إن صداه أصبح يتردد فى ربوع البلاد العربية الإسلامية[2]. كانت العروة الوثقى مجلة - ثم مشروعًا للإصلاح والتغيير- أحسن مكافأة كان يمكن أن تقدم لهذا الجيل من النخبة التونسية الذى درس فى الجامع الأعظم، جامع الزيتونة. ثم أدرك من خلال المهام السياسية والإدارية والدينية التى تولاها أن عليه مهام ومهمات جساما جاءت «العروة» لتخفف من ثقلها. فإذا كان المصلحان الكبيران - الأفغانى وعبده قد اكتشفا تونس، فإن النخبة التونسية قد اكتشفت - من خلال مشروعهما نفسَهَا، ومشروعية العمل الريادى الذى بدأه منذ ما يقارب القرن، رجال من أمثال قابادو وابن أبى الضياف وبيرم الخامس وغيرهم.

كان كل شىء فى العروة الوثقى وفى مشروعها يغرى النخبة التونسية بالانفتاح عليها والدفاع عنها، مع مرارة التخاذل الذى كرسته المصائب المتوالية على البلاد الإسلامية عموما وعلى عاصمة الخلافة خصوصا. كانت النخبة التونسية تقرأ ماكان يكتبه المصلحان فى العروة الوثقى فترتفع آخر الغشاوات عن الأعين، ويتأكد عندها أن الحلول لن تأتى إلا من النخبة المسلمة والعاملة؛ ذلك أن «الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقربت بين الأقطار المتباعدة المتصلة بجامعة الاعتقاد

---

(١) فى الهامش (ص ١٤٧) - محمد الطاهر بن عاشور «أليس الصبح بقريب؟» (الشركة التونسية للنشر - تونس - طبعة ١٩٧٦ م ص ١٨١).

(٢) (هكذا) - والأصح «والإسلامية» (فيما أرى).



بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت إلى ما هم فيه، فتقاربوا فى النظر، وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا إلى معالجة علل الضعف»، لقد أنهى الأفغانى وعبده حيرة النخبة التونسية الناجمة عن دخول الجيوش الفرنسية إلى تونس. كانت أنظار النخبة متجهة إلى عاصمة الخلافة العثمانية تتوقع منها نجدة سريعة، لكن الباب العالى كان يتخبط فى مشاكل قاتلة حالت دون تقديم أى عون للولايات الإسلامية التى كانت خاضعة له.

جاء خطاب السيد الأفغانى لينهى الانتظار العقيم، ويدفع بالعلماء والنخب فى تونس وغيرها لتنولى أمرها، وتجمع شعثها لمواجهة الرزايا المتلاحقة عليها. يقول «محمد السنوسى» معبرا عن هذا الاختيار الجديد الذى مثله المصلحان بالنسبة للنخبة التونسية والذى أنهى مرحلة توقع الحل من دار الخلافة: «الأمة العربية[1] محتاجة إلى لسان يعربُ عن الداء الذى تكنه فى الجنان، ينقذها من الانقياد إلى العميان، بل إنها أحوج إليه من حاجتها إلى الماء والهواء، إذ لم تجد بدونه متنفسا ولامساغًا للارتواء حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العرض الأنقى، هذا الهاتف الذى صاغ للأمة باسم العروة الوثقى. . ناهيك من عروة يتمسك بها أهل الهدى، ويتقون بها الردى، وينيطون بها أمل الحياة فلايذهب سعيهم سدى»[2].

هكذا نفهم حفاوة النخبة التونسية بمقدم الأستاذ الإمام إلى تونس، وبما عرضه عليهم من الانضمام إلى التنظيم الدولى البديل الوحيد عن القيادات السياسية العاجزة والمتهالكة[3] من العلماء والأمراء.

كانت النخبة التونسية إذن تقف مع مشروع المصلحين الكبيرين لتكون عراقة ماضيهما الإصلاحى والتجديدى، ولتكتشف أفق الحل العملى الذى يخرجها من النخوف والحيرة. وكان الأستاذ الإمام - فى ذات الوقت - يضع أصابعه على جذور هذه الخصوصية التونسية التى جعلته يكاشف بها تلميذه الأستاذ رشيد رضا بما وراء سبق «مسلمى تونس» لأهل الأزهر[4]، لافتا نظره لضرورة بحث وضعية علماء الزيتونة وسر ريادتهم[5].

---

(١) (هكذا) - والصحيح فيما أرى «الإسلامية» أو «العربية والإسلامية» - بل الشرقية عامة والإسلامية خاصة.

(٢) مجموعة العروة الوثقى - دار الكتاب العربى - بيروت - ١٩٧٠ ص ٤٦.

(٣) وانظر الدكتور على الشابى المذكور آنفا.

(٤) مالاقاه الأستاذ الإمام من أهل الجمود بالأزهر معروف.

(٥) مجلة المنار - (علماء تونس ومصر) - جـ ١ - مجلد ١٠ - مارس ١٩٠٧ ص ٧١.

وهذا مايفسر عناية رجال الإصلاح وإكبارهم لما يحصل فى تونس سواء صدر عن الخط المحافظ أو الخط التجديدى[1]. والواضح أن التقاليد العلمية والأوضاع الاجتماعية فى تونس الحديثة والمعاصرة مكنت لعددٍ من علماء الزيتونة مباشرة الحياة العامة، فتقلبوا فى المناصب السياسية العالية، وتولوا المهام الإدارية، واختلطوا بكبار رجال الدين، وكانت حصيلة كل هذا نضجا فكريا واستعداداً واعيا لدعم كل توجه إصلاحى وعقلانى.

غير أن هذا لايعنى أن عمومٍ النخبة التونسية كانت مساندة للمسار الإصلاحى. فقد كان هناك من يعتبر كل تجديد مسًا مباشرا للتقاليد، بل بالدين فيرفضون تطبيق أى قانون جديد باعتبار أن ذلك سوف ينتج تحولات تطيح - فى نهاية المطاف - بالإيمان. وكان أهم ركيزة لهذا التوجه الطرق الصوفية التى تمكنت من تأطير حقيقة للحياة الدينية والشعبية فى الأرياف والبوادى بعيدا عن كل منهج مُعقْلن. إزاء هذا كانت هناك فصائل من النخبة المتعقلة التى تقطن المدن والتجمعات الحضرية، والتى تعتبر - بحكم تكوينهم الإسلامى المعقلن أن هذه التحولات أو تلك قابلة للمناقشة على شرط ألا تخفى مزيدا من التوسع فى هيمنة السياسى على المدنى. والواضح أن هذه الفئة كانت تردد مقولة قديمة برزت فى العالم الإسلامى عند ضعف الدولة العباسية، بلورها عدد من العلماء من أشهرهم «ابن عقيل» و«ابن الجوزى». إنها مقولة تقوم على إدانة السياسة التى طغت على الشريعة. لكن المخاطر الأوروبية الزاحفة على تونس طيلة القرن التاسع عشر حولت كثيرا من مواقف النخبة الحضرية كما قلصت من نفوذ الخطاب الصوفى. لقد صاحبت التحولات السياسية الدولية تحولات هامة على مستوى الفكر الدينى والسياسى الذى تحمله النخبة الحضرية فى تونس. إنها أدركت بمستويات متفاوتة - ولكن بشكل قطعى - أن الخطر الاستعمارى ماحق، وأنه لابد من مواجهته عن طريق تغيير نوعى فى الخطاب والمواقف السياسية.

يقول رشيد رضا مبينا الفروق العميقة بين نخبة تونس الزيتونية وبين علماء مصر الأزهريين: «.. هذان الوزيران: (العزيز بوعتور ويوسف جعيكا) من أشهر المتخرجين من ذلك الجامع. كان بوعتور نابغا فى العلوم العربية والدينية ويُعد من طبقة أهل الترجيح فى الفقه، وكذلك وزير القلم الجديد وهو الشيخ يوسف جعيكا، فهو قد درس فيه، ثم اشتغل بالسياسة، وتقلب فى المناصب حتى صار اليوم وزير العلم والاستشارة.

---

(١) انظر - على سبيل المثال - رشيد رضا - المنار والأزهر - مطبعة دار المنار - مصر - ١٣٥٣ هـ ص ٢١ وص ٢٢، ماتحدث فيه عن الشيخ محمد البشير النيفر.

لقد دخلا بباب السياسة، وهما شيخان زيتونيان بكل معنى الكلمة - كما يقول الغربيون، حتى ارتقيا إلى منصب الوزارة فهل يخطر ببال أحد من مدرسى الأزهر أن يستعد لمثل ذلك حتى يكون أهلا للوزارة أو لما دونها من أعمال الحكومة؟ كلا إن أحداً منهم لايفكر فى مثل هذا الاستعداد، ولو فعله أحد لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا فى العلم والدين»[1].

«إن الإعراض التدريجى عن مقولة ابن الجوزى وابن عقيل، جعل - منذ وقت مبكر رجال النخبة التونسية يقطعون مع العزلة التى غمرت علماء المسلمين فى المشرق قرونا متوالية. لقد أدركت النخبة فى تونس خاصة والغرب الإسلامى عامة، أن ظروف انعزال القيادة الفكرية الإسلامية عن القيادة السياسية قد ولت وانقضت. لقد كانت المخاطر الأوروبية الماثلة والمحدقة خير حافز للتكامل بين الدينى والسياسى، بعد أن عاش العالم الإسلامى فصلا للدين عن الدولة بشكل فعلى. فمنذ أن توفى أبو حنيفة فى السجن، وضرب مالك حتى شلت يداه، ومنذ أن التجأ الشافعى إلى مصر هربا من محاكم بغداد، وعانى ابن حنبل من رجال الدولة الأمرين، منذ ذلك الوقت ولعدة قرون، أرست النخبة المسلمة تقاليد «لائكية» الشكل، قبل ظهور اللائكية الحديثة فى الغرب الأوروبى. هذه «اللائكية الشكلية» قد ساهمت إلى حد كبير فى جعل القيادات السياسية مستهينة فى فعلها بالشرع لاتطلب من رجاله سوى التبعية المطلقة إكسابًا لحكمها صبغة الشرعية. وهو ما أدى فى ذات الوقت بالنخب المسلمة إلى انفصال فعلى عن الحياة السياسية وسبر أغوارها، والإغراق فى المسائل الفقهية الجزئية، ومن ثم التشبث بالصورة التاريخية فى فترته السابقة دون أى قدرة على إبداع صور جديدة للحكم مع مايلزم من فكر سياسى ملائم.

فى الغرب الإسلامى، وفى تونس خاصة، جرت الأمور فى الفترة الحديثة المعاصرة فى وجهة مغايرة. وهذا مايفسر إقبال النخبة التونسية على مشروع السيد جمال الدين الأفغانى الذى دعا فى جانب رئيسى منه إلى إعادة اعتبار العلماء بإقحامهم فى صلب الحياة، وتحولهم إلى القطب المناظر للسلطة السياسية ضمن البناء المجتمعى للأمة، وهذا ماكان يعنيه حين كان يتحدث بمرارة عن «انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة»[2].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مجموعة العروة الوثقى المذكورة آنفا - مقال «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك» (ص٣٣). وهذا - أيضا - هو معنى اللائكية، أى فصل الدين الفاعل عن السياسة، وتقريب (المنافقين) ليكونوا فى خدمة السلطة.

«هذا الاختيار التجديدى كان واقع النخبة التونسية، قد مارسته فعلا طيلة القرن الماضى، وهو ما مكن من إرساء عمل إصلاحى وتحرك نهضوى مبكر فى القطر التونسى. فهو الذى مكن الشيخ أحمد بن أبى الضياف من اعتباره أن «الاجتهاد لاينقطع[1]. وهو ما أتاح للشيخ بيرم الخامس (١٨٤٠ - ١٨٨٩) من تجذير الحركة الإصلاحية الكبرى للوزير خير الدين التونسى (١٨٢٠ - ١٨٨٩م)، وهو ما أتاح للمجلس الشرعى عام ١٨٧٩م من مطالبة الباى بمجلس للشورى لمقاومة الاستبداد «الذى لم ينزل الله به من كتاب»[2]، ولم تزد الحماية الفرنسية (١٨٨١م) النخبة التونسية إلا بإصرار على تعميق وعيها ضمن حركة وطنية عقلانية متنامية. وهو ماجعلها ممتدة إلى الخمسينيات من هذا القرن، فى حين نجدها تراجعت فى الشرق لتخلفها بعد وفاة الشيخ رشيد رضا، أطروحات تقليدية فى فكرها الدينى متصالحة مع التصوف فى منهاجها التربوى، ورافضة لكل تجديد على مستوى فكرها السياسى والاجتماعى؛ وهو مايمثل تراجعا خطيرًا بالنسبة لخطاب جمال الدين والشيخ محمد عبده. ومجلتا العروة الوثقى والمنار شاهدان على ذلك. وبالتالى لخطاب التحرك النهضوى المتقدم فى الغرب الإسلامى مع مايعنيه من تجاهل لتحديات العصر».

«لقد قدم الأفغانى وعبده مشروعا إصلاحيا من جهة الخطاب وأشكال العمل التغييرى. لكن تفاعل النخبة الإسلامية.لم يكن واحدا معه، ففى حين نجده يلقى كل العناية والتطوير فى الغرب الإسلامى وتونس أفضل مثال على ذلك، نجد أثره كان سلبيا إلى حد كبير فى المشرق العربى، وهو مايجب أن يراعى فى محاولة فهم «الصحوة الإسلامية».

ماذا أقول تعقيبًا على هذا البند (عن خطاب الأفغانى وتجربة النخبة فى تونس)؟ فى بند سابق عن (الجامعة الإسلامية) عقبت عليه فى بند تال له بعنوان «الجامعة الإسلامية - نحن أبعد عنها اليوم عما كنا فى عهد الأفغانى». وتعقيبا على البند السابق عن: «النخبة» أقول: (والقلب.. بل وكل قلوب المسلمين - تنبض بالأسى والألم) على مايجرى فى تونس، وجارتها الجزائر. إن «حقوق الإنسان - ومنها حق الحياة» تنتهك هناك وبلا حدود، فالتصفية الجسدية، والمحاكمات السرية والصورية، وهياكل الحكم التزويرية، وتسلط القوة العسكرية - كلها تجتمع وتلتقى عند «الإبادة للجميع». وخاصة الشباب، سواء من عساكر الحكومة فى الشرطة والجيش، أو من القوى المعارضة لها،

(١) الطيب العنابى - وثائق تونسية - حوليات الجامعة التونسية - عدد ٤ سنة ١٩٦٧م ص ١٥٣.

(٢) محمد الصالح مزالى - أحوال تونس قبل الاحتلال - الدار التونسية للنشر - ١٩٧٢م ص ٤٩.

ومنهـا من يتعـامل مع الموقف بقـوة السلاح. ولايشك أحـد من أن مايجـرى الآن فى البلدين العزيزين على قلب كل عربى وكل مسلم - أشـد وطأة على عامة الناس مما كان يجرى فى عهد الاستعمار!

كنت أعمل أستاذا فى الجامعة الإسلامية بليبيا (١٩٧١ - ١٩٧٣م) - وكان الحبيب بورقيبه (الذى كان متزوجا من فرنسـية، وأنجب منها من كان يسمى - بورقيبه الابن) - كان بورقيبه معاديا للتعليم الدينى، وخاصة جامع الزيتونة العتيق، وأذكر - مما أذكره له- أنه أباح (أو أمر) الناس بالإفطار فى رمضان (من أجل الإنتاج). وفر البعض بدينهم إلى هذا البلـد أو ذاك. وأذكـر منهـم الطالب (. . . .)[1] الذى التحق بالجامعـة الإسلامية بالبيـضا بليبـيا. وكان يرعـاه الله - يحمل إلىّ تحت عـباءته الكتب الإسلامـية الممنوع تداولها بليـبيا! وحـدث منذ سنوات غير قليلة أن قـام أحد وزرائه (أى وزراء بورقيـبه) بتحديد إقامته، وتولى السلطة و«التسلط» هناك!.

أما أنا - وكل مسلم - فإنا نراها «غمة لاتلبث أن تزول» وأنها - كما جاء فى المثل الغربى - «سحـابة صيف عما قريب تَقَشّعُ». سـتعلو كلمة الله فى كل مكان، و«**والله غالب على أمره**»، و«**متم نوره ولو كره الكافرون**».

رابعا: جما ل الدين الأفغانى - باعث نهضة الشرق
١٨٣٨ - ١٨٩٧

بنـــد: ٣١

يقول الأستاذ الرافعى[2]: إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير، والفيلسوف الشهيـر السيد جمال الدين الأفغانى، ظل الشرق رازحا قرونا عديدة تحت الجمود الفكرى والتأخر العلمى والاستعباد السياسى، وبقى فى سبات عـميق إلى أن قـيض الله له الحكيم «جمـال الدين الأفـغانى»، فنفخ فـيه روح اليـقظة والحياة، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك، وبالعقول أن تستيقظ؛ وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة.

---

(١) وأظن ان اسمه (الفهرى) - ترى ، ماذا كان من أمره؟!

(٢) ص ١٤٨ ومابعدها من الجزء الثانى من «عصر إسماعيل» (نقلا عن ص ٢٤٤ ومابعدها من كتاب «جـمال الدين الأفـغانى» للأسـتاذ مـحمـود أبو رية - من إصـدارات المجلس الأعلى للشئـون الإسلامية.



وإذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ومدى الرسالة التى أداها، فنذكر أنه كان فى حياته مصلحا دينيا، وفيلسوفا حكيما، وزعيما سياسيا، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية، واضطلع بها معا، فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد التى أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته، وترجع به إلى مبادئه الصحيحة، وفطرته الأولى، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت إلى تأخر المسلمين.

ومن الناحية الفكرية أدى المهمة التى قام بها فى أوروبا فلاسفة الفكر أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما: فعمل على إنارة البصائر وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد. ومن الوجهة السياسية استنهض الهمم واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية. وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب كواشنطن وغاريبالدى ومازينى وغيرهم.

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ويضطلع بها معًا، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة، وتفرقت الكلمة وعز النصير وتشعبت الأهواء يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية.

ويقيننا أن الأمم الشرقية لم تقدر حتى الآن حكيم الشرق حق قدره، ولا أدت له حقه من الوفاء والتكريم، وسيظهر فضله على مر السنين. وإذا كانت النهضة الفكرية والسياسية على عهد إسماعيل يرجع جانب كبير من ظهورها إلى السيد جمال الدين رأينا واجبًا علينا أن نترجم له فى سياق الحديث، وقد جعلنا معظم اعتمادنا فى وقائع الترجمة على ماكتبه تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. إلى آخره.

أقول: حقا، لقد كان السيد جمال الدين الأفغانى أمة فى رجل، ونهض بما لاتنهض به إلا العُصبة ذات القوة!!

خامسا: جمال الدين الأفغانى

مذهبه الفلسفى ومشربه الصوفى

لسعادة العلامة الجليل الأستاذ صلاح الدين السلجوقى(١)

بنـــد: ٣٢

وُلِدَ السيد جمال الدين الأفغانى مـن أسرة ذات مجد وسؤدد، لها تاريخ حافل فى البطولةَ والجهـاد، لم تُلق السلاح منذ قـرون أمام أى معتـد أو مـغير، حـاربت المغول والسيخ ولم تهن ولم تحزن، ولم يلـن لها عود. واجهت الاستعـمار الغربى، وهو فى عنفوانه، عندما انحدر كالسيل العرم، واستعبد القارة الهندية ذات الأربعمائة مليون نسمة وأكثر(٢).

وحينما كان السيد فى صباه لم يكن حـوله من حديث يشغل البال إلا أمر الهجوم الإنجليزى على أفغانسـتان وقام الأفغانيون كرجل واحـد لمحاربة الغزاة وإبادتهم، وكانوا نحو عشرين ألفا، غطت جثثهم ميادين القتال من كابل إلى كُنْر: (مسقط رأس السيد). وأسرة السيد، وهى حُسَينية، تلتهب قلوبها غيرةً على الدين، وهى مـشهورة بالمحافظة على أخلاق وسنن الرسول ﷺ. وقد ألهم السيد من هذا المحيط الروحى العالى، والبيئة المشحونة بالدم والبارود شيئين:

الأول: أن أشد داء بين المسلمين أن يكونوا خاضعين لغير الله، صاغرين للاستعمار الغاشم. الثانى: أن أعظم دواء لهـذا الداء، وهو ماجربه الأفغانيون أكـثر من مرة، هو الإيمان بالله، والتـمـسك بحـبل الله المتين، أى الوحـدة فى الفكر والعـقـيدة والآمـال والآلام.

وهذه كانت أول نواة فى شخصية السـيد المتكاملة المنظمة.. كان الوطن الإسلامى وحفظ كيـانه فى المقام الأول من اهتمامه، ومن هُنا كـانت السياسة العمـود الفقرى فى بنيان حياته، والركن اليـمانى (وهو أحد أركان الكعبة الشريفة) فى كـعبة تأملاته، فكل ماوهبه الله من علم وسـيع، وأدب رفيع، وفلسفة عميقـة (ولاشك أنه كان موهوبا من

(١) كان سفـيرًا للدولة الأفغـانية فى الجمهـورية العربية المتحـدة (مصر وسوريا). والنقل عـن كتاب الأستاذ «أبو رية» ص ٢٤٦ ومابعدها. هذا، والمقـال طويل رصين سائغ. وقد أوجزته ما أمكن، وبإضافات، وبلغتى أحيانا.

(٢) الآن (١٩٩٦م) - أكثر من سبـعمائة مليون - ورغم تعدد الأعراق والأديان واللغـات فيها تمارس الديمقراطية السياسية الغربية بنجاح.



الله كل هذا) ، كان عنده أمور ثـانوية تدور مثل السيارات والإلكترونات حـول مركزها العالى، أعنى السياسة.

المحيط العلمي: الذى يتمثل فى أفغـانستان وبختونستـان وشمال الهند (من القرن السابع عشر حتى عصر جمال الدين) فقد كان أكثر ازدحاما وازدهاراً بالعلم والحكمة من أى قطر آخر من الممالك الإسلامية ولاسيـما فى المنطق والفلسفة وعلم الكلام. فقد نبغ فى تلك الديار كثـيرون: وبعد أن ذكر أسمـاءهم (وهم عشرة ونيف) قال: إن الخـمسة الأخيرين منهم كانوا من معاصرى السيد (على وجه التقريب).

وأشار الكاتب إلى النزعة السائدة فى الدراسة وقتئذ (حيث تتداخل الفلسفة المشوبة بالتصوف) (وعلم الكلام المحشو بالفلسـفة) كان هذا كله مما بدأ به أبو على بن سينا فى كتابه الإشارات. واتبـعه فى هذا النهج كثيرون من المشاهير (ذكرهم) - وكـانوا فلاسفة وكلامـيين وصوفيين وأدباء (أى موسـوعيين فى هذا كله). والسيـد (وهو موهوب) أتم تحصيل كل مـاتقدم، «بل جاهد كثـيراً فى سبيل الاطلاع على كل مـاتبلغ إليه المدارس الفكرية (السياسيـة والفلسفية والعلمية الحديثـة) - وبنهم شديد. ويوصل الليل بالنهار، والنهار بالليل. وهذا لايفعله إلا من تمكن من شغـاف قلبه حب العلم. وكانت الفلسفة الاجتماعية عند فيلسوفـنا جمال الدين هى المصدر الذى انبعثت منه سائر أفكاره، وإلى الحد الذى جعله يمدها إلى الأمور الطبيـعية، ويعتبرها مقياسـا لها. وفى غالب الأحيان نراه يهجم على كل معسكر دهرى، بنفس السلاح الذى استعملته المدرسة الحديثة «وهذا مايعطيه صبغة النبوغ والعبقرية بلا شك أو نزاع».

وشخصية السيد الكلامية كانت كالمنظومة الشمسية فى غاية النظام والإتقان، وكانت كل مشاعره تدور حول مركز واحد هو الأمور الاجتماعية «أى الأشياء الإنسانية». وكان الغرض من الأخلاق والسياسة عنده هو «الكمـال» بالمعنى الذى كان يفكر فيه الشيخ أبو على بن مسكويه[1]، ومولانا جـلال الدين الرومى «البلخى» وبالطريقة التى أشار إليـها «هيجل»[2] وغيـره، لا بالأصول التى ذهب إليـها لامارك وداروين: وهو (أى مذهب السيد) «عبارة عن الانكشاف الروحى والسمـو بالغرائز، والتخلق بأخلاق الله. لقد كان - فى هذا المنحى - صوفيا.

---

(١) أبو على أحـمد بن مـحمـد (توفي عام ١٠٣٠م) انـظر الموسوعـة العربيـة الميسـرة ص ١٧٠٠ ومابعدها.

(٢) هيجل جورج فلهلم فردرك (١٧٧٠ - ١٨٣١) «فلسفة مثالية مطلقة» المرجع السابق ، ص ١٩٢٤ ومابعدها.



وكان السيد مطلعا على كل مناهج المدارس الفكرية والطبيعية والاجتماعية التى وجدت فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحتى التى وجدت فى العصر الحاضر بروحها وجوهرها وقوادها. فضلا عن المدارس السياسية من ديمقراطية واشتراكية وشيوعية. وكان جرحه وتعديله ونقده ورده بفكرة اجتماعية يبعثها الدين ويسيرها العقل، ويقودها الكمال الإنسانى. كان - فى دينه - مُوحِّدًا، وفى سياسته داعيا بالوحدة وكان بفكرته الصوفية يربط بين أجزاء الكون بعقيدة وجود الله الذى هو أصل الوجود ومنبع الشعور ومصدر الإرادة.

وكان السيد يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين، الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة وتعاون عريق منذ فجر الإسلام.

أثبت هنا قوله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾**﴾ [المائدة - وانظر الآيات التى تليها ٨٣، ٨٤، ٨٥].

وأعود وأتابع السفير السلجوقى: قال: «والسيد لم يؤلف كتابًا، ولا أسس مدرسة[(١)]، وهذه الآثار والمحاضرات التى تركها قد انبعثت من ضرورات فجائية وارتجالية له. إنه سقراط عصره وسقراط النهضة الفكرية فى الشرق. وفضلا عن ذلك فقد كان مجددًا، ومحركا وثائرا، ووراء كل حركة وثورة وتجديد، وكان - إلى ذلك كله - من أشجع الناس، وكان يهشم قفل التقليد، وحينما كان يلاقى علما أو بحثا أو مسألة كان يصهره فى بوتقته القائمة على العقل والوحى والكمال. فكان يهرق الزَّبَدَ ليذهب جفاء، ويأخذ بما ينفع الناس. ويقول السفير: (والمفكر والناثر المتمكن): «لايوجد فى طبقات العلماء والفلاسفة والمفكرين شخص يضاهى السيد، لا فى الإسلام ولا فى سائر الأديان، فلم نر غيره شخصا يفكر ويصلح.. إنه أول معمارى يجدد المعبد ويرممه بدون أى تغيير أو تخريب. «تَدَيَّن ولم يترك الدنيا، استغنى ولم (يترهبن) - تواضع ولم يكن وضيعا. قابل فى القصور الملكية السلاطين بأنف شامخ، وجلس مع أصحابه الفقراء فى المقاهى العامة، بوداعة وتواضع. لم يقبل الهدية فى أضيق الأحوال.. ولكنه كان يؤثر الرغيف الأسود مع كوبة من الماء، أو فنجان من الشاى مع مريده وصاحبه المخلص.

---

(١) ماذا يقصد السيد السفير واللغوى المتين، بكلمة «مدرسة» أيريد المكان والبناء؟ إنه بهذا المعنى، وفى مصر، كانت مدرسته - غالبا - بيته. وإذا كان يريد المدرسة الفكرية فقد كانت له مدارس بهذا المعنى، وخاصة فى مصر، وربما يقصد أن ماكان يقوله أو يفعله يأتيه من قبيل الإلهام.



سادسا: الشيخ رشيد والأفغانى

بنـــد: ٣٣

فى البند الســادس من هذا الكتـاب، وتحت عنوان «حـب الصــالحين» - ذكــرت فارسين، كانا مازالا ناشئين، تنافسا فى حب الأفغانى وآثاره، وخـاصة (جريدة العروة الوثقى) - هذان الفارسان هما (عبد القادر المغربى ومـحمد رشيد رضا). وقد خصصت البند السابع (أطول بنود الكتاب) لكتاب المغربى عن الأفغانى.

وفى كتـابه: «تاريخ الأستـاذ الإمام الشيخ مـحمـد عبده» خـصص الشيخ رشـيد الصفحات من ص ٢٧ إلى ١٠٢ للكلام عن «السيد جمال الدين» تحت عنوان «خلاصة سيرته». وبدأ بترجمة الأستاذ الإمام له (ص ٢٧ ومابعدها) (وانظر فى هذا ص ٦٤-من كتـابنا هذا). ويقول الشـيخ رشيـد (ص ٣٨ ومابعدها: «وإنـنا ندعم ماكتـبه الأسـتاذ الإمام.. بما كتبه أديب بك إسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد، وأفراد حزبه فى أنه «هو الحكيم الخطيـب بالغ الحجـة النبيــه المتـوقد الذكـاء الجرىء الذى لايعـرف الخـوف.. وغلبت عليه مـذاهب قـدماء الحكمـاء فـداخله فى ذلك بداءة بدء شىء من التصوف فانقطـع حينا بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيـقة حتى صار له فى القوم الكثير من الأتباع والمريدين، كل ذلك وهو دون العشرين، ثم خرج من خلوته مستقـر الرأى على حكم العقل وأصول الفلسفة الـقياسية.. شهـد الحروب فزاد جراءة واستخفافًا بالموت.. وفى مـصر جرت بينه وبين بعض علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة، فانقطع إلى منزله، وصار له فيه حلقة تدريس.

وهو عزب، عفيف النفس قانت، لاينام إلا الغلس إلى الضحى، ولايأكل غير مرة واحدة فى اليـوم غير أنه يكثر من شـرب الشـاى والتدخين.. نبيـه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر، ولكنه على فضله لايسلم من حدة المزاج.. (ص ٤٢). وفى نفس الصفحـة «ترجمة سليم بك العنحورى للسيد..» ومما جـاء فيها (ص ٤٣): وفي الهند أخذ عن علماء الـبراهمة الإسلام أجل العلوم الشرقـية والتاريخ.. وبرز فى علم الأديان، ومما جاء بص ٤٦: أن الأفغانى كان شديد الأنفة شديد الوطأة على الحكام يرنو إليـهم بعين الازدراء، وبعكس ذلك كـان كـثيـر التـعظيم والتكريم لأوليـاء العلم وأنصاره مهـما كانوا خاملين.. يبذل لهم الأنس.. ويخـفض جانب الدماثة، ويواسى محتاجـهم ومجتاحهم بكل مايقدر عليـه، وتصل يده إليه. وفى خلال عام ١٨٧٨م زاد مركزه خطراً فى البـلاد، وسما مقامـه؛ لأنه تداخل فى السياسيات وصـار له أصدقاء،

وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل محمود باشا البارودى. . وكثر سوَاد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره من أرباب الأقلام من مثل الشيخ محمد عبده. . وأخذ الأفغاني يقرب منه العوام، ويقول لهم يامعشر المصريين: مالكم ينزل بكم الخسف والظلم وأنتم صابرون، بل راضون، وتنتزف مواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون. . هبوا من غفلتكم. . إلى غير ذلك مما من شأنه أن يحرك الماء فيجعله ناراً. . ومنذ ذلك طارت الشرارة الأولى للثورة العرابية.

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام

فثار بعض قادة الجند على الوزيرين الأجنبيين وأوسعوهما ضربا وإهانة. . ومما جاء بص ٤٨: كان الأفغانى قد أمضى فى الإسكندرية بضعة أيام خطب أثناءها بقاعة (زيزينيا) خطبة فى النساء جمعت ألوفا من الفرنكات فوزعت بإيماء منه - على الفقراء. ولم يمض زمن حتى انقلب دست إسماعيل، وعلا الأريكة الخديوية توفيق. وكان من الواجدين على جمال الدين، فأخذ يجوس موامى أفعاله ويرود مرامى أقواله حتى علم أنه ممن ينزعون إلى إبدال الحكومة المقيدة إلى جمهورية ثورية، تحدثه نفسه بتولى زعامتها. ففاجأه بعض الشرطة عند بزوغ الفجر فاستاقوه إلى دار الضابطة، ثم إلى بورسعيد لإبعاده عن مصر، أما مكتبته فحجرت عليها الحكومة. وأما خادمه أبو تراب الذى صار بملازمته له فيلسوفًا صغيراً حالة كون أميا كبيرا فسجن زمنا ثم أطلق سراحه. . والأفغانى بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته. . وذكر العنحورى (ص ٤٩): أن الأفغانى لا يأكل إلا منفرداً، ويكثر من شرب الشاى والتبغ، وإذا تعاطى مسكرا فقليلا من الكونياك. .

أقول: كتب العنحورى صفحات غير قليلة عن الأفغانى، ذكر فيها أنه كان ملحداً، كما ذكر أنه كان إذا تعاطى مسكراً فقليلا من الكونياك. وبص ٤٩ ومابعدها: أن الأستاذ الإمام كان قد اطلع - حين كان مقيما فى بيروت - على ماذكره العنحورى وأقنعه بأنه مخطئ فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر إلى تخطئة نفسه فى الجرائد. . إلى آخره. وفى ص ٥٣ قال الشيخ رشيد رحمه الله: كان الأفغانى يكثر من شرب الشاى ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات. وأضيف (والكلام لى) أن السيد كان عفا (عف اليد، عف اللسان، عف البطن، عف الفرج) لقد كان كذلك، وبأوسع المعانى وأسماها. ومع ذلك طورد، وممن؟ من الإنكليز، ومن الحكام الذين اعتلوا عروشهم بقهر شعوبهم. لقد أخذ على السيد حدته، وربما تسرعه، والكمال لله. وأؤكد

وأجزم بأنه لو كان يتناول أي مسكر لما كان كما كان. إن من يفعل هذا أو مثله من عامة الناس يهدم نفسه. ﴿ ...كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]، (وانظر ماكتبه العنحورى مكذبا نفسه ص ٥٠، ٥١ من نفس المرجع - وانظر لى «رفاعة رافع الطهطاوى - الكتاب الثانى - ص ١١١» ومما قلته (ردًا على ماذكره بعضهم من أنه كان - وهو فى السودان «يشارك من يجتمع بهم من الأجانب شرب الخمر») - قلت: «وعلمى برفاعة ودينه وخلقه وطهارته، كل هذا يستوجب رفض الادعاء. إن رفاعة يعرف جيدا النص الصريح فى القرآن الكريم بتحريم الخمر وبأنها رجس من عمل الشيطان. (الآيات ٩٠، ٩١، ٩٢ - المائدة).

ويقول الشيخ رشيد ص ٥١: إن الناس قد ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يتهموا بالإلحاد كل نابغ فى العلوم العقلية، بل كل مستقل فى العلم لايتبع الناس فى كل مادرجوا عليه من التقاليد الدنية، ولذلك نُبزُوا بلقب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة، وأبى الحسن الشاذلى ومحيى الدين بن العربى من الصوفية. ومن الناس من يتهمون أمثال هؤلاء متعمدًا الكذب، ومنهم من يتهمهم لسوء ظنه وقصور عقله.

ومما ذكره الشيخ رشيد (ص ٧١ و ٧٢): بلغنى أن للسيد كتابة يحرض فيها على خلع السلطانين (شاه إيران وعبد الحميد) يقول فيها: إن خلعهما أهون من خلع النعلين. ولكن غلبه عبد الحميد بالدهاء، وحجر عليه فى الآستانة.

يقول الشيخ رشيد: «وقد حدثنى بعض من شهد مجلس السيد في الآستانة أنه سمعه يقول: «إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة».

وأقول: إن الشيخ رشيد يرحمه الله كانت قد غلبت عليه «حرفة البحث عن المتاعب» (أعنى الصحافة) - كان يقول فى معارضيه، ويقول معارضوه فيه. وفى هذه الساحة هاجم وهوجم (انظر - على سبيل المثال - كتابى «محمد فريد وجدى» ص ٨٧ وما بعدها). لكن الشيخ رشيد - قبل هذا وبعده - هو حافظ تراث الأستاذ الإمام ومذهبه. وكفاه شهادة عند الله وعند الناس، تفسيره المسمى «تفسير المنار» (١٢ جزءًا انتهى بالآية ٥٢[١] من سورة يوسف) - وكذلك مجلدات مجلة المنار التى عاشت زمنا غير قصير[٢] وكانت ذات انتشار واسع فى كل العالم الإسلامى. ومجموع هذه المجلدات ثروة دينية وفقهية كبيرة. ومن تراثه الضخم هذا الكتاب «تاريخ الأستاذ الإمام»

---

(١) ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف].
(٢) ٣٥ عامًا.



(المجلد الأول ١١٣٤ صفحة، والثانى ٦٥١ والثالث ٤٢٨) وله كتب وآثار أخرى. وفى النية بعون الله ومشيئته أن أكتب عنه بعد الفراغ مما سأكتبه بإذن الله عن الأستاذ الإمام (انظر كتابى محمد فريد وجدى ص ٢٠٣).

وأعود إلى السيد جمال الدين وأقول: إنه كان قد قدم مشروعًا للسلطان عبد الحميد يدعو فيه المسلمين كافة إلى الاعتصام بعروة الخلافة، ولا غرو فى هذا فهو صاحب الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. وقد نجح أبو الهدى فى إقناع السلطان بالانصراف عن هذا المشروع. (نفسه ص ٧٣).

منهج الجريدة[1]

بنـــد: ٣٤

سيأتى فى خدمة الشرقيين على مافى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات، والاحتراس من غوائل ماهو آت. وليستتبع ذلك البحث أصول فى الأسباب ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت بهم إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت[2] - وضل المرشد حتى لايدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة. وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين. ولبست عليهم مسالك الرشد. وتزيح الوساوس التى أخذت تلعب بعقول المنعمين، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم، وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العناية بلغت حدها. وتحاول إشراب الأفهام أن لاحاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة. تصورها يوجب فتور الهمم، وانحطاط العزائم، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما من الإدبار عن المطلوب، وهو تحت الجناح، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة، وأن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم. وهو ماتمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها (يقصد روسيا) التى جمعت كلمة شعوبها، وعنيت بجعلها أمة حربية مسلحة بأحدث آلات القتال.

---

(١) جريدة العروة الوثقى - نقلا عن ص ٢٢١ ومابعدها من جـ ٢ - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. للسيد رشيد رضا (رحمهما الله).

(٢) الخِرِّيت بكسر الخاء وتشديد الراء: الدليل الحاذق بخرت الأرض وهو معرفة طرقها ومضايقها.



أقول وأذكر بقـوله تعالي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال] إلى آخر الآيـة - ٦٠ الأنفال).
وفي آية أخرى يقـول تعالي: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]، فالقـوة والتسلـح بأحدث آلات الحرب أنْفَى للحـرب. ثم إن ذلك يجعل للدولة الكبرى هيـبة دولية وعسكرية تحـصنها ضد أى اعتداء عليها، أو على أى أقلية إسـلامية فى أى بقعة من بقاع الأرض. والاتحاد قوة، والتفرق ضعف. والمسلمون يدٌ واحدة على من عاداهم.

وأعود إلى مـابدأته نقلا عن المجلـة (ص ٢٢٢): ولاضرورة فى إيجاد المنـعة إلى اجتماع الوسائط التى جمعهـا بعض الدول الغربية الأخرى، ولاملجأ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهـايته، بل ليس له أن يطلب ذلك؛ وفـيما مـضى أصدق شاهد على أن من طلبه فَقَد أوقر نفسه وأمته وقرًا أعجزها وأعوزها.

وننبه على أن التكافـؤ فى القوى الذاتية والمكتـسبة هو الحافظ للعـلاقات والروابط السياسيـة، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتـلاع الضعيف؛ وتجعل إهاب الوداد المدبج بأشكال المجاملة شفافا ينم عمـا وراءه. والطامعون دائما ينقبون عن المسالك الدقيقة التى يقتحمونها فى دياجير الغفلات.

وندفع التهـمة الموجـهة إلى الشرقـيين عمومـا، والمسلمين خصـوصا من أنهم لن يتقـدموا فى مدارج المدنيـة إذا جمدوا على مافـاز به آباؤهم الأولون. ولاتهن فى تبليغ الشرقيين مايمسهم من حوادث السياسة العمومية، ومايتداوله السياسيون فى شئونهم، مع اختيار الصادق والثابت.

وتراعى (أى المجلة أو الجـريدة) فى جميـع سيرها تقـوية الصلات العـمومـية بين الأمم، وتمكين الألفة فى أفـرادها، وتأييد المنافع المشتركـة بينها والسياسـات القويمة التى لاتميل إلى الحيف بحقوق الشرقيين.

ومع كل هذا فإن هذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها، والحاملين عليها، لاتظهر إذا أدلجوا، ولاتنجد إذا غـوروا، وتذهب مذاهب الرشد، وتصيب بحول الله مـواقعه عند من سبق فى أزَلىّ علم الله هدايته. واللـه يهـدى مـن يشـاء إلى صـراط مسـتقيم.

وترسل إلى الذين نَعرف أسـماءهم مجـانا دون مقابل ليـتداولها الأمـير والخفـير، والغنى والفقير. ومن لم يصل إلينا اسه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف ومحل إقامته على النهج الذى يريده، والله الموفق.



الجنسية والديانة[1] الإسلامية

بنــــد ٣٥:

إن استقراء أحوال الأفراد من كل أمــة، واستطلاع أهوائها يثبت لثاقب النظر وجود تعصــب للجنس ونعرة عليــه عند الأغلب منهم. والمتـعصب لجنســه يتيــه بمفاخر بـنيه ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه دون تنبه منه لطلب السبب ولابحث فى علة هذا الوجدان حـتى ظن كثيـرون من طلاب الحقـيقة أن التـعصب للجنس من الوجـدانيات الطبيـعية، إلا أنه يبعـد ظنهم مانراه فى حال طفل ولد فى أمـة من الأمم، ثم نقل قبل التميز إلى أرض أمة أخرى، وربى فـيها إلى أن عقل، ولم يذكر له مولده، فإنا لانرى فى طبعه ميلا إليه، بل يكون خالى الذهن من قبله، ويكون مع سائر الأقطار سواء، بل ربما يكون آلف لمرباه، وأميل إليه، والطـبيعى لايتغير. ولهـذا لانذهب إلى أنه طبيعى. ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس رسمها على ألواحها الضرورات: فإن الإنسان فى أى أرض له حـاجات جمة، وفى أفـراده ميل إلى الاختـصاص والاستئـثار بالمنفعـة إذا لم يصبغـوا بتربية ذكيـة. وسعة المطمع، إذا صـحبها اقـتدار يطبعــها على العدوان. فـلهذا صار بعـض الناس عرضة لاعـتداء بعض آخـر، فاضطروا بعـد منازلة الشرور أحقـابا طوالا إلى الاعتصاب بلحـمة النسب على درجات متـفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس فتوزعـوا أمما كالهندى والإنجليزى والتركمانى ونحـو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفـراده المتلاحمة قادرا على صـيانة منافعه، وحـفظ حقوقه من تعـدى القبيل الآخر ثم تجـاوزوا فى ذلك حد الضرورة كمـا هى عادة الإنسان فى أطواره فـذهبوا إلى حد أن يأنف كل قـبيل من سلطة الآخر عليه علمـا بأنه لابد أن يكون جائرًا إذا حكم، ولئن عــدل فإن فى قـبـول حكمه ذلا تحس بـه النفس، وينفعـل له القلب، فلو زالت الضرورة لهـذا النوع من العصبـية تبع هو الضرورة فى الزوال كـما تبعهـا فى الحدوث بلاريب. وتبطل الضرورة بالاعتمـاد على حاكم يتضافر لديه القوى، وتتـضاءل لعظمته القدرة، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع، وتكون بالنســبة إليه متساوية الأقدام[2]، وهو مبدأ الكل وقهار السموات والأرض. ثم يكون القائم مـن قبله بتنفيذ أحكامه، مساهما للكافة فى الاسـتكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحـاكمين. فإذا أذعـنت الأنفس بوجود

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٣ ومابعدها - المقالة الثـانية - العروة الوثقى - ٢٢ من جمــادى الآخــرة ســنة ١٣٠١ هـ.

(٢) هكذا فى الأصل. ربما كانت «الأقدار» جمع «قدْر» (أى سواسية).

الحاكم الأعلى، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم فى التطامن لما أمر به اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها، فمحى أثرها من النفوس. والحكم لله العلى الكبير.

هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم - عن اعتبار الجنسيات، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الإسلامية. فإن المتدين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده، التفت عن رابطة الجنس، وهى رابطة خاصة - إلى العلاقة العامة وهى علاقة وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى؛ لأن الدين الإسلامى ليس قاصرا على دعوة الخلق إلى الحق. إنها - كما أنها كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد، وبيان الحقوق كُلِّيِّها وجزئيها. وتعيين السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود، وتعيين شروطها حتى لايكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعا لها. ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة، أو قوة بدنية أو ثروة مالية. وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة. فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم الإلهية المقدسة التى لاتميز بين جنس وجنس، واجتماع آراء الأمة وليس للوازع أى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم[1] على حفظ الشريعة والدفاع عنها.

وكل فخار تكسبه الأنساب، وكل امتياز تفيده الأحساب، لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق، وحماية الأرواح والأموال والأعراض. بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة، فهى ممقوتة على لسان الشارع، والمعتمد عليها مذموم، والمتعصب لها ملوم. فقد قال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[2] والأحاديث النبوية، والآيات المنزلة متضافرة على هذا. ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى - (أى اتباع الشريعة) - ﴿ ... **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. ومن ثم قام

(١) أعبر عن هذا - عادةً - بقولى ' إن رئيس الدولة بمكان سواء مع أحد أفرادها ، غير أن عبئه أثقل ومسئوليته أكبر.

(٢) رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعًا. أقول : وهناك أحاديث شريفة كثيرة فى هذا المعنى، منها - عن أبى موسى قال: سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء. فأى ذلك فى سبيل الله فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (رواه الجماعة). وانظر أحاديث أخرى فى ذات المعنى بص ٧ من كتابى «الجهاد» ط ١٩٩٠ م.

بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف له فى جنسه، ولاامتياز له فى قبيلة، ولاورث الملك عن آبائه، ولاطلبه بشىء من حسبه ونسبه، ولارفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع، وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة ملك الوازعين فى المسلمين كان يسديها إليهم على حسب اعتمادهم على الأحكام الإلهية، واهتدائهم بهديها، وتجردهم من الاعتلاء الشخصى، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته، ورفاهية عيشه، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس إلى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة هذا الوازع[1].

هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من نشأة دينهم إلى الآن، لايعتدون برابطة الشعوب، وعصبات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين؛ لهذا نرى العربى لاينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض. وإن المسلم فى تبدل حكوماته لايأنف ولايستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة، ذاهبا مذاهبها. نعم، إذا نبا فى سيره عنها، وجار فى حكمه عما نصت عليه، وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت عنه القلوب، وانحرفت عن محبته الأنفس، وأصبح، وإن كان وطنيا فيهم أشنع حالا من الأجنبى عنهم[2].

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون عن انفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها. ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أى جنس كان اتبع الأوامر الإلهية، وثابر على رعايتها، وأخذ الدهماء بحدودها، وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك، وعظمة فى السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين،

---

(١) الوازع فى السياق بمعنى الحاكم (من الأمير إلى الخفير) - هذا؛ وقد جربت الإنسانية على مدى تاريخها نظما سياسية مختلفة، ومنها الشيوعية التى وضعت الأفراد وفق المكانة أو الدرجة فى الحزب. وانظر كتابى: «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» - باب المساواة، ص (٣١٦ - إلى - ٤٥٥).

(٢) آخر أمثلتهم رجوع العرب إلى عصبيتهم الجنسية، وانقباضهم عن الترك حين شرعوا يميزون أنفسهم من حيث إنهم ترك. بعد أن ظلوا قرونا لاينفرون من سلطة الترك، إذ كانت باسم الإسلام لا باسم (الحاكمية التركية). أقول: وفى تاريخنا الحديث، والذى مازال مستمرا. إنه بعد أن حمل الاحتلال الأجنبى عصاه ورحل. وصارت أمور المسلمين إلى المسلمين (بالاسم فقط عند معظمهم) حكموا بالقهر لصالحهم وحاشيتهم. وللكافة المر والحنظل. و﴿ **لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم].

ولايتجشم فى ذلك أتعابا، ولايحتاج إلى بذل النفـقات، ولاتكثير الجيوش، ولامظاهر الدول العظيمة، ولامداخلة أعوان التمدن وأنصـار الحرية. ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين، والرجوع إلى الأصـول من الديانة الإسلامية القويمة. ومن سيره هذا تنبعث القوة، وتتجدد لوازم المنعة.

أكرر عليك القـول بأن السبب هو أن الدين الإسلامى، لم تـكن وجهته - كـسائر الأديان - إلى الآخرة فقط. ولكنه - إلى ذلك - أتى بما فيه مصلحة العباد فى دنياهم، ومايكـسبهم السـعادة فى الدنيـا، والتنعيم فى الآخـرة. وهو المعبـر عنه فى الاصطلاح الشـرعى بسـعادة الداريـن، وجاء بالمسـاواة فى أحكامـه بين الأجناس المتـبـاينة والأمم المختلفة.

ابيضت عين الدهر، وامـتقع لون الزمان حـتى أصاب أن بعضـا من المسلمين على حكم الندرة، يعز عليهم الصـبر، ويضيق منهم الصدر لجور حكامـهم، وخروجهم عن معاملتـهم على أصول العدالة الشرعـية فيلجؤون للدخول تحت سلطـة أجنبية؛ على أن الندم يأخذ بأرواحـهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق؛ فمـثلهم مثل من يريد الفتك بنفـسه، حتى إذا أحس بالألم رجع واسـترجع، وإن بعض مـايطرأ على الممالك الإسلامـية من الانقـسام والتـفريق، إنما يكون منـشأه قصـور الوازعين وحيـدانهم عن الأصول القـويمة التى بنيت عليهـا الديانة الإسلاميـة، وانحرافهم عن مناهج أسـلافهم الأقدمين. فإن منابذة الأصول الثابتة، والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مايكون ضررها بالسلطة العليـا. فإذا رجع الوازعـون فى الإسلام إلى قـواعد شرعـهم، وساروا سـيرة الأولين السابقين، لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة فى الملك، وألحقهم فى العزة بالراشدين من أئمة الدين. وفقنا الله للسداد، وهدانا طريق الرشاد.

الوحـــدة الإســلامية(1)

﴿ وأطيعُوا اللَّه ورَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ... ﴾(2)

بنـــد: ٣٦

أظلت ولاية الإسلام مابين نقطة الغرب الأقصى إلى تونكانى على حدود الصين فى عرض مابين قـازان من جهة الشمـال وبين سرنديب تحت خط الاستواء: **أقطار** مـتصلة

(١) نشرت فى العدد التاسع من العـروة الوثقى الصادر فى ٢٥ رجب ١٣٠١ هـ - ٢٢ مايو ١٨٨٤م فى بيان مفاسد أمراء المسلمين، وفى دعوتهم إلى الوحدة - نفس المرجع ص ٢٧٦ ومابعدها.
(٢) ٤٦ - الأنفال.



وديار متجاورة يسكنها المسلمون. وكان لهم فيها السلطان الذى لايغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلا. لايهزم لهم جيش، ولاينكس لهم علم، ولايرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم[1] متلاقية. ومنابتهم وغروسهم فى سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الأراضى المنحدرة على الجبل) - رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الأشجار، صنع أيدى المسلمين. ومدنهم كانت عامرة مؤسسة على أحدث قواعد العمران، تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم، وتفاخرها بشموس الفضل، وبدور العلم، وبنجوم الهداية، برجال كان لهم المكان الأعلى فى العلوم والآداب. كان من حكمائهم فى نقطة الشرق - أمثال ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم. وفى الغرب ابن ماجه وابن رشد وابن طفيل ومما تلوهم. ومابين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين[2]، وترتعد منها فرائص أعظم الملوك فى أوربا. ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوى، وملكشاه السلجوقى، وصلاح الدين الأيوبى. وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان. وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم، والسلطان سليمان العثمانى. أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم، ولم يمح أثرهم. كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى. ولها الكلمة العليا فى تلك البلاد إلى زمن غير بعيد. كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم. والمسلمون اليوم هم يملأون تلك الأقطار، التى ورثوها عن آبائهم، وعددهم لاينقص عن مائتى مليون[3]. وأفرادهم - فى كل قطر - بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم، وهم - بذلك - أشد ازدراء للحياة الدنيا، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل: جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب الأخذ بالظنون، والتمسك بالأوهام. ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات وأودع فى أفكارهم جراثيم الحق، وبذر فى نفوسهم بذور الفضل. فهم بأصول دينهم - أنور عقلا، وأنبه ذهنا، وأشد استعدادا

(١) الصيصة = الحصن ، والجمع صياص ، وانظر الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) كلمة فغفور على وزن عصفور لقب ملوك الصين ككسرى وقيصر لملوك الفرس والروم.

(٣) فى الهامش (ص ٢٧٧) - هذا بحسب الإحصاء لذلك العهد. وقد تبين أخيرا أنهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون. أقول : تقديرهم العددى الآن (١٩٩٥م) حوالى ألف مليون.

لنيل الكمالات الإنسانية. وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق، وبما يرون فى أنفسهم من الاختصاص بالشرف، وماوعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شئون العالم أجمع ولو كره المبطلون.

لايرغبون بسلطة لغيرهم عليهم، ولايحوم بفكر أحدهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم، وإن بلغت من الشدة واللين مابلغت. ولما بينهم من الإخاء المؤزر بمناطق العقائد بحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب، سقوط لنفسه ذلك إحساس يشعر به وجدانه، ولايجد عنه مسليا، وبما ساخ (غاص ورسب) من نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم إليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلى فى عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم، وأجدرهم بالفضل.

ذلك شأنهم الأول، وهذا وصفهم للآن. ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم، بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم؛ وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها، وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم ألا يدينوا لسلطة من يخالفهم. بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم، بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته[1]. هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون، هل غفلوا عن تكفل الله لهم بإظهار شأنهم على سائر الشئون ولو كره المجرمون؟ هل سهوا عن أن الله قد اشترى منهم - لإعلاء كلمته - أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا لا. إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاكمة فى إراداتهم، وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم. نعم، يوجد للتقصير فى إنماء العلوم، وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأنا بينا أن لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم، فتعدد الملكة[2] عليهم كتعدد الرؤساء فى القبيلة الواحدة، والسلاطين فى جنس واحد، مع تباين الأغراض، وتعارض الغايات. فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة، وقهر بعضهم لبعض. فأدت هذه المغالبات، وهى أشبه شىء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع، فضلا عن التقصير فى طلب مالم ينالوا

(١) جامع الكتاب : كل أمة، وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعا لها فى جنسيتها ودينها أو حكمها. ولكن الأوروبيين ينعمون علينا هذا الاعتقاد الذى لانعمل بمقتضاه. وهم يعملون، ويسمونه منا تعصبا، وما التعصب المذموم إلا هضم حقوق المخالف فى الدين وإيذاؤه لأنه مخالف، أو إكراهه على ترك دينه، وكل هذا يحظره الإسلام ويذمه.

(٢) المَلكة = المُلْك (المعجم الوسيط).



منها. والإغسار[1] دون الترقى فى عواليـها. ونشأ عن هذا مانراه من الفاقة والاحـتياج وَعَقِبهُ[2] الضـعف فى القـوة، والخلل فى النظام. وجلـب تنازع الأمـراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم.

هذا كان من أمـراء المسلمين مع مافيه من الـضرر الفادح عندما كـانوا منفردين فى ميادين الوغى، لايجاريهم فيها سواهم من المِلَل. ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمـان، وتمكن من طباعـهم حرص وطمع باطـل، فانقلبوا مـع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة، ومايتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة، وأطوار النفخـة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنـبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس، ولجـأوا للاستنصـار به، وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل.

هذا الذى أباد مسلمى الأندلس، وهدم أركـان السلطنة التيمورية فى الـهند، ومحا أطلالها، وعلى رسومها (أى أطلالها) شيد الإنكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السـفهـاء بالممالك الإسـلاميـة، ودهورتها أمـانيهم الكاذبة فى مـهاوى الضـعف والوهن. قبح ماصنعوا وبئس ماكـانوا يعملون! أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا مسيرة العلوم فيها وأوجبوا الفترة[3] فى الأعمـال النافعة من صناعة وتجـارة وزراعة بما غلّوا[4] من أيدى بنيها. ألا قاتل الله الحرص عـلى الدنيا، والتهالك على الخسـائس، ما أشد ضررهمـا، وما أسوأ أثرهما. نبذوا كلام الله خلـف ظهورهم، وجحدوا فرضا من أعظم فروضـه، فاختلفوا والعدو على أبوابـهم، وكان من الواجب عليهم أن يتـحدوا فى الكلمـة الجامعـة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشئونهم. ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع، والمنافسة فى السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات!

أما وعزة الحق، وسر العدل، لو تُرك المسلمّون وأنفـسهم بما هم عليه من العقائد، مع رعـاية العلمـاء العاملـين منهم، لتعـارفت أرواحـهم، وائتلفت آحـادهم. ولكن،

---

(١) غسر يغسر غسرًا : شدد على غريمه وتغسـر الأمر: اختلط والتبس. وتغسر الغزل: التوى والتبس ولم يُقْدَرُ على تخليصه. وتغسر الغدير: ألقت الريح فـيه العيدان. (المعجم الوسيط). وأضيف: هذا مثال على تعمد الكاتب استعمال: الألفاظ غير المألوفة، لإثراء اللغة ببعث مفرداتها القديمة.

(٢) أى نشأ عنه وترتب عليه . وفي المعجم الوسيط : عَقَبَ فلانا عَقبًا: خلفه وجاء بعقبه.

(٣) الفَتْرة : الضعف والانكسار (المعجم الوسيط).

(٤) أى قيدوا.

وا أسفاه! تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولانهى. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم حتى تناكرت الوجوه، وتباينت الرغائب. الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين لايحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولارسائل تنشر!

إن رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم، وتفيض عينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الأهواء. ولولا وجود الغواة من الأمراء ذوى المطامع فى السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم وغربيهم، وشماليهم بجنوبيهم، ولبى جميعهم نداءً واحدًا. إن المسلمين لايحتاجون فى صيانة حقوقهم إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه، وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس لما يطرأ على الملة من أخطار.

ألم تر أمة الروس هل تجد فيها مايزيد على هذه الأصول الثلاثة؟ هى أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا، وليس فى ممالكها ينابيع للثروة، ولئن كانت فليس هناك مايستفيضها من الأعمال الصناعية، فهى مصابة بالحاجة والإعواز، غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم، واتفاقهم فى النهوض به، وارتباط قلوبهم صير لها دولة، تميد بسطوتها رواسى أوربا. لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية، ولكن لم يمنعها ذلك من اقتنائها ولم يرتق فيها الفن العسكرى إلى حد ما عليه جيرانها. إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها، حتى صار لجيشها صولة تخيف، وحملة تخشاها دول أوروبا. فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا فيما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا إليه: من رعاية شرف الملة، والتألم بما يحط منه، والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا من كل مايثلمها؟ ماردَّ الأفكار عن الحركة، وما أقعد الهمم عن النهوض، إلا أولئك المترفون[1]، يحرصون على طيب فى المطعم، ولين فى المضجع، وتطاول فى البنيان، وتضافر بالخدم والخول. ولايراعون فى حرصهم مابعد يومهم، ويحافظون على لقب موضوع، ورسم متبوع. يقنعون منه بالاحتفال لهم فى المواسم والأعياد، وهز الرءوس، وثنى الأعطاف. تعظيما وتبجيلا، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات.

(١) هم جاحدو النعمة ومادة (الترف) - جاءت دائما فى القرآن الكريم فى مقام الذم. وانظر لى : «الترف فى القرآن الكريم» (كتابى مع الله - فى كتابه وسنة رسوله) (الفصل الثالث عشر).

هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم: ماذهب أثره) بكل دنيئة. هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم مالايقبله واحد من آحاد الناس دون موته. أولئك صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا، يحبسون هذه الأسود عن فريستها، بل يجعلونها طعمة للثعالب، لاحول ولاقوة إلا بالله.

أيا بقية الرجال، وياخلف الأبطال، ويانسل الأقيال! هل ولىّ بكم الزمان، هل مضى وقت التدارك؟ هل آن أوان اليأس؟ لا. لا! معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم. إن من أدرنه إلى بيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، لاينقص عددهم عن خمسين مليونا، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة. أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام، كما اتفق عليه سائر الأمم؟ ولو أنفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالإنفاق من أصول دينهم. هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض! أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المندفعة إليهم من جميع الجوانب.

لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا - بعد كونه أساسا لدينهم - تقضى به الضرورة، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات.

هذا آن الاتفاق، هذا آن الاتفاق. ألا إن الزمان يواسيكم[1] بالفرص، وهى لكم غنائم فلا تفرطوا. إن البكاء لايحيى الميت. إن الأسف لايرد الفائت! إن الحزن لايدفع المصيبة! إن العمل مفتاح النجاح. إن الصدق والإخلاص سهم الفلاح. إن الوجل يقرب الأجل! إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف ﴿ ...قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة].

ألا لاتكونوا ممن كره انبعاثهم، فثبطهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين. احذروا أن تقعوا تحت قول الله: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة].

---

(١) هكذا فى الأصل. وربما كان «يواتيكم».

إن القرآن حى لايموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود. ومن أصيب بسهم من مقته فهو ممقوت. كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه. وحكموه فى أحوالكم وطباعكم. ﴿ ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة].

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين. وهموا بملافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رُزِئ به المفرطون من قبلهم. ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة، وتوقظ من الرقدة، تصدر عن أعلاهم مرتبة، وأقواهم شوكة ولانرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف. والله يهدى من يشاء. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أقول : ودارت الأيام، ومضت السنون بعد السنين، وتوالت العقود[1]، حتى جاءت المناسبة، لأجلس بين كتبى، وبين يدى أوراقى، وفى يمناى قلمى، لأنقل لقارئى فى كتابى عن جمال الدين الأفغانى، مقالتين مما نشر فى «العروة الوثقى» - الأولى : وهى بعنوان «الجنسية والديانة الإسلامية»، والأخرى بعنوان «الوحدة الإسلامية» وذلك فضلا عن فاتحة المجلة التى تضمنت خطتها ورسالتها و«دستورها». وعادت الذاكرة إلى الثلاثينيات من هذا القرن، وإلى هذا المشوار (الذى تكرر مرتين أو ثلاثا) بين قريتى و«كفر المحروق» و«مدرسة كفر المحروق الإلزامية» - حيث عثرت - صدفة (فى الدرج الخاص بمدرس الفصل) على ورقات، أو ملازم قليلة من مجلة العروة الوثقى. ألقيت نظرة عليها، وقرأت سطوراً منها، وكنت شابا مازلت، شعرت بحلاوة لغتها، وطيب مذاقها، وقوة تأثيرها. تركت الورقات فى مكانها طبعا. ولما بدأت أتردد على القاهرة فيما بعد، كان الكتاب الذى يضم مقالات «العروة الوثقى» دائما فى بالى، وفى منتصف الأربعينيات من هذا القرن (١٩٤٥) - بدأ عملى فى القاهرة (ومع وزير المعارف العمومية) - وأحد أبواب هذه الوزارة يفتح على شارع الإنشاء (صفية زغلول حاليا) - وفى نفس الشارع دار المنار التى اشتريت منها كتاب «تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده» الذى يضم - مما يضم - مقالات «العروة الوثقى».

هذا، وعبارة «العروة الوثقى»، واردة فى سورتين من القرآن الكريم، أولاهما فى قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]. والأخرى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان].

---

(١) العقد من الأعداد : العشرة والعشرون إلى التسعين (ج) - عقود.



ومن الملاحظات التى سبق ذكرها يتبين حرص المجلة على بعث وإحياء كلمات غير مألوفة فى لغتنا الغنية والثرية بالألفاظ والمفردات مثل كلمة «الخِرِّيت» لتأخذ مكانها وتستقر فى كتابات معاصرى المجلة ومن يأتى بعدهم.

وما أكثر ماترد فى مقالات المجلة عبارات هى اقتباس من آيات الكتاب الكريم، فتضفى عليها نورًا من نور الله (وذلك فضلا عن الآيات التى تُذكر بكاملها).

من ذلك : (جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام..) مأخوذ من قوله تعالى :﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ [الأنعام: ١٤٦] – وقوله : ﴿ **وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ... ﴿٣٦﴾** ﴾ [يونس: ٣٦]، وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴿١٢﴾** ﴾ [الحجرات]. وغير هذه الآيات كثير.

ومن ذلك أيضًا (.. وماوعدوا به على لسان كتابهم الصادق من إظهار شأنهم على شئون العالم أجمع ولو كره المبطلون» مقتبس من قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [التوبة: ٣٢, ٣٣].

ومنه : (وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا ...﴿٤١﴾** ﴾ [الرعد]، ومن قوله: ﴿ **... أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ... ﴿٤٤﴾** ﴾ [الأنبياء].

ومنه : (هل نسوا وعد الله لهم أن يرثوا الأرض وهم العباد الصالحون.. هل سهوا عن أن الله اشترى منهم – لإعلاء كلمته – أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. لا، لا إن العقائد الإسلامية مالكة لقلوب المسلمين..) وهذا الذى تقدم مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [الأنبياء] – وقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾** ﴾ [التوبة].. إلى آخره.

وبعد، وفى عـقب ماتقدم، لايفوتنـى هنا أن أشير إلى قول بعـضهم[1] فى تحرير مقالات مجلة العروة الوثقى: إن الفكرة كانت للسيد الفيلسوف الأفغانى، وإن الكتابة أو الصياغة كانت للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. أردّ على هذا بأن الأستاذ الإمام لم يكن - فى هذه الشئون الوطنية والسياسية والاجتماعية «بلا فكر» لقد عاش حياته كلها - أو جلها، أو أهم فتراتها - فى ميادين المعارك الوطنية والسياسية والاجتماعية، لابالقلم فقط، بل وبالممارسة الفعلية.

لقد كان صاحب رسالة، صاحب دعوة نذر نفسه لها، قبل الثورة العرابية، ومعها وبعدها فى المنفى، وقبل أن يوافى أستاذه وصديقه الأفغانى فى باريس للمشاركة فى نشاط العروة الوثقى (كجمعية) وفى نشاطها (كمجلة).

وكذلك الأفغانى لايمكن أن يقال : إنه كان يقف موقفا سلبيا من الصياغة والتحرير. لقد كان الأفغانى والشيخ عبده شريكين فى الفكرة، أو الأفكار - بعبارة أدق - وكانا شريكين - كذلك فى الصياغة، بالأقل فى مراجعة المقالات قبل النشر. لقد كانا صديقين، وكانا متعاونين. وكان كل منهما «شخصية متميزة ومتفوقة فى كل ما دار من ميادين» - يرحمهما الله، ويجزيهما عنا، وعن كل المسلمين[2] خير الجزاء.

كلمات له (الأعمال الكاملة ص ٥٣٩)

بنـــد ٣٧:

الدين رادع عن رضى فى السر، والسلطان وازع فى الجهر بالقهر. من خبثت نفسه لان ملمسه وكثر ختله وخداعه.. القبة الجوفاء لاترجع إلا الصدى. ترك ماكان سببا للصعود يؤدى إلى الهبوط والسقوط.

---

(١) انظر - الرافعى - نفسه ص ٤٩ «ذكر الأمير شكيب ارسلان أنه سمع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: «إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة. والعبارة كلها لى، ليس للسيد فيها كلمة واحدة»!.

(٢) قد يكون ذا دلالة على مادكرت، ماجاء بص ٢٧٩ من نفس المرجع : «أما وعزة الحق وسر العدل..» ومن المعروف أن هذا القسم مما اعتاده فيلسوفنا الأفغانى. وانظر : جمال الدين الأفغانى لعبد الرحمن الرافعى- ص ١٨٣.

نسبية الحقائق والأحكام[1] (نفسه ص ٥٣٤ ومابعدها)

لكل خط طرفان. ولكل إنسان وجه وقفا، وفيه صفات قبيحة، ومزايا طيبة. والحكم على الأشخاص والأشياء إنما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف، ورغبة القائل.

برز أبو دجانة لقتال كفار قريش، وأخذ يتبختر. قال ﷺ : «مشية يكرهها الله، إلا فى مثل هذا الموضع».

وهكذا قال : «نعم الأدم الخل» تطييبًا لقلب ذلك الصحابى الفقير الذى لايملك سوى الخل، فقدمه طعاما فى دعوة رسول الله. وقال «بئس الأدم الخل». إذ قدمه صحابى موسر. فكان اختلاف الحكم على الشىء الواحد لاختلاف الوضع والواضع. وهكذا يكون الحكم على مايماثل ماذكرنا من الأشخاص والأشياء. السعادة فى الدنيا ضالة البشر، وإذا وجدها أحد فقلما يدل عليها، ولا أظنها من موجودات هذا العالم الفانى.

من كلمة بعنوان «الحكمة بين القلب واللسان»[2] (بتصرف - نفسه ص ٥٣٥)

دواء المسلم (المريض) فى القرآن. وماعلى طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه. ويعمل بأحكامه : ياقوم، إن محمدا جاء نبيا مرسلا. وقبل النبوة كان أمينا صادقا. لم يترك المهاجرين والأنصار، ليخوضوا - وحدهم - غمرات الموت فى الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش، بل هو هو، بذاته الكريمة، وقد ارتدى الدروع، وتقلد الصارم البتار، واقتحم الوغى، فتكسرت ثناياه، وتخضب وجهه بالدم انتصاراً للحق، ومقاومة للباطل. أين المسلمون اليوم من شىء من هذا الإقدام، وتلك الهمم؟!

وا أسفاه ! بئس الخلف نحن، ونعم السلف من قد سلف، ترتعد فرائصكم إذا سمعتم ذكر ما أنتم فيه من غريب الذل، خوفًا من أن تُدعوا لنزع نيره عنكم، فترجعون إلى بارد القول، وسفيه الرأى، اطلبوا حكمة قلب لاحكمةً من لسان، قتل من كان على هذه الشاكلة من إنسان!!

---

(١) وهى منقولة عن كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى (للمخزومى باشا).

(٢) وهى منقولة عن كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى



كتاب «الأعمال الكاملة - لجمال الدين الأفغانى»
الذى وضعه محمد عمارة (ص ١٣٧)
«ترجمة ذاتية» (وهى منقولة من كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى)

بند : ٣٨

يقول : «وأى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤ هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر. واضطررت لترك بلادى «الأفغان» مضطربة، تتلاعب بها الأهواء والأغراض. وأكرهت على مغادرة الهند، وأجبرت على الابتعاد عن مصر، أو - إن شئت - قلت أنى نفيت منها، ومن الآستانة، ومن أكثر عواصم الأرض. كل هذه الأحوال «خاطرات لاتسرنى» وليس فيها أدنى فائدة للقوم.

أما القول بأنها لاتسرنى، لابمعنى أنى نفيت من البلاد، أو سجنت.. كلا.. لأنى أعتقد أن السجن بطلب الحق من الظالمين العتاه «رياضة»، والنفى فى ذلك السبيل «سياحة»، والقتل «شهادة» وهى أسمى المراتب.

فأنا عن نفسى غير راض؛ ذلك لأن الخمول قد قعد بى فلم يوصلنى إلى أسمى مرتبة، وهى «مرتبة الشهداء»، وحطنى فى مصاف المنفيين من أرض إلى أرض، والمسجونين فيها. فما أبعدنى فى كل هذا عن أولى الهمم، ومن قام بالأعمال الخطيرة، والمطلب الجلل!».

أقول : ماذا يجرى فى «وجدان شيخنا الجليل، وهو يقول هذا الذى نقلته عنه؟ ماذا يعنى تاريخ الميلاد، والنفى عن أرض إلى أرض. إنه فى السجن، سواء فى هذه الأرض أو تلك. إنه يريد المرتبة الأسمى والأعلى، يريد «الشهادة» ! الشهادة فى سبيل الحق، فى سبيل المقهورين المظلومين. وما أكثرهم على وجه الأرض! إن الموت فى سبيل الله هو أقصى الأمانى! هذا نفسه هو ماكان يتمناه المسلمون يوم بدر فى عهد رسول الله. وماكانوا يتمنونه فى كل يوم من أيام القتال والجهاد في سبيل الله، فى عهد رسول الله، وفيما بعد عهد رسول الله، ولا أنسى قط هؤلاء من الصحابة الأجلاء الذين ماتوا بالمئات، فى حروب الردة، فى عهد الصديق رضى الله عنه. لقد أدركوا أسمى المراتب، مراتب الشهادة فى سبيل الله! لهم فى الدنيا حسن الذكر. إنهم أبطال النصر. وأجر الآخرة أكبر وأكبر. ليتنا نتعظ ! ليتنا نعتبر ! والباب مفتوح، وعلى مصراعيه، اليوم، وكل يوم. فليتقدم المسلمون وليتقدم الأحرار! فالمسلمون المظلومون المقهورون، والمضطهدون يستصرخونهم من البوسنة والشيشان، ومن الهند وغيرها!.

وأعود إلى شيخنا الأفغانى، وأقول : لقد تمنى الشهادة، فله أجر الشهداء، وإن لم تتحقق الأمنية. والأعمال - فى الإسلام - بالنيات! لقد سبق للأفغانى الشاب أن حارب مع أمير أفغانستان، ولم تكتب له الشهادة؛ لأن الله العزيز الحكيم، علام الغيوب، قد ادخره لتضحيات وبطولات كثيرة على مدى عمره المبارك.

لقد كان الأفغانى يعيش بروح كبير: روح السلف الصالح. إن ما فات الأفغانى من الموت فى ميدان القتال، فات الكثيرين من الصحابة، وهذا خالد بن الوليد سيف الله المسلول: يروى عنه أنه قال (أو كما قال) - وهو على فراش الموت - ليس فى جسمى مكان إلا وفيه ضربة سيف، أو جرح عميق من أثر رمح. ثم يقول : وها أنذا أموت ميتة الجبناء!! لقد كان الأفغانى والصحابة من قبله يشتهون الموت، وفى ساحة القتال فى سبيل الله!

وفي معنى حديث شريف :ستتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا : أمن قلة نحن يارسول الله يومئذ؟ قال: كلا. بل ستكونون كثيرين، ولكن كغثاء السيل. خفتم الموت، وأصابكم الوهن، فطمعت فيكم الأمم. إنى أرى حكامنا، وكيدهم بينهم شديد، ولكنى من المتفائلين.. سيولد خالد بن الوليد، والأفغانى - فينا من جديد!!

وللأفغانى صيحات[1]

بند : ٣٩

أقول : له صيحات مضى ذكر بعضها فى ثنايا هذه الدراسة، إحداها تلك التى استنهض بها الفلاح المصرى، والأخرى تلك التى أراد بها تحريك ملايين الهنود فى مواجهة الاستعمار البريطانى. وله صيحات أخرى كثيرة وعامة. وما أراها موجهة إلا إلى هؤلاء الذين عاش من أجلهم، أى إلى كل المسلمين والشرقيين المقهورين فى كل أنحاء المعمورة.

ما أتصور الأفغانى إلا كملاك، أو كطائر ميمون يُطوِّف بالجميع لاتحول بينه وبينهم سدود ولاحدود.

وهذه إحدى صيحاته : ألا أيها النائمون تيقظوا، ألا أيها الغافلون تنبهوا. يا أهل الشرف والناموس! يا أرباب المروءة والنخوة، يا أولى الغيرة الدينية، والحمية الإسلامية:

(١) والنقل من كتاب الأستاد «أبو رية» سابق الذكر (ص ٢٥٦ ومابعدها)



ارفعـوا رءوسكم تروا بلاءً منصبـا على أوطانكم. وما أنتم ببـعيدين مـنه، ولابمعزولين عنه. إن لم يكن أصـابكم اليوم فـسيـصنيـبكم غدا. تسـاهلتم فى الذود عن حقـوقكم المقدسـة، ولهوتم عما أضمـرت لكم الحكومة الإنكليزية، من الإهانة وسـوء الخسف. وتعللتم بالأوهام. فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتـم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله، وغركم بالله الغرور. أصبحتم على شـفا جرف المذلة، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل فى جحيم العبودية!

ألا إن وقت التدارك مافات، فالأرواح فى الأجساد، والعقول فى الرءوس، والهمم فى النفوس، وأقدام العدو فى زلل، وشئـونه فى خلل. فاثبتوا ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مـؤمنين. لاترضوا بالدون خـوفا من المنيـة، واعلموا أن ثباتًـا قليلا، وإقداما خفيفا فى هذا الوقت يفعل مالايفعله الجيش العرمرم.

فالثبات الثبات ! وحذار حذار من التواني والتقاعد. وهذا وقت يتقرب فيه المؤمنون إلى ربهم بأفضل عـمل شرعى. هذا وقت تُنال فيـه سعادة الدارين، للعـامل فيه خـير الدنيـا وله فى الآخرة الحـسنىٰ وزيادة. ألا إن الشـيطان يخـوف أولياءه، فـلا تخافـوا أعداءكم ولاتكونوا كالذين اسـتحبوا الحياة الدنيا على الآخـرة. كونوا مع الله فى نصره ينصـركم، ويثبت أقـدامكم. ثقوا بوعـد الله فلن يخلف الله وعده إن أخلصـتم له فى العمل. سلوا قلوبكم وامتحنوا إيمانكم، .ولاترتابوا فى وعد ربكم، فلن يرتاب إلا القوم الكافرون.

أقول : إن الصيحـة الكريمة، وهى مقتبسة – فى معظمهـا – من كتاب الله صادرة من القلب، قلب شيخنا الفيـلسوف، فتصل إلى قلوب سامعيه وقـارئيه. إنها دعوة إلى الجهاد، إلى الموت فى سـبيل الله! ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾**﴾ [الأنفال].

ومن طلب الموت فى سبيل الله وهبه الله الحياة ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ [آل عمران].

إن إسرائيل تملك الأسلحـة ذات الدمار الشامل، ومنهـا الأسلحة الذرية. ولايملك أحد من جيرانها العرب هذه الأسلحة الأخيرة.

ولظن إسرائيل بأن إيران تحاول صنع هذا السلاح، فإنهـا تستعدى الولايات المتحدة الأمريكية ضدها، ومما يؤسف له أن بعض العرب يتخذ ذات الموقف. والشقيقة باكستان

- مع بعدها عن إسرائيل، فإن هذه تحيك الحبائل حولها لذات السبب، أى لظنها أنها تصنع، أو فى سبيلها لأن تصنع السلاح النووى.

ولا توازن، ولاسبيل إلى السلام الحقيقى فى المنطقة - كما تنادى مصر دائما - إلا بتدمير إسرائيل لسلاحها النووى.

وأعود وأقول - واستجابة لصيحة شيخنا الأفغانى-: إن من يقتل فى سبيل الله له فى الآخرة حسن الأجر، ولأمته، وللأجيال التالية العز والمجد والفخر.

المغربى (١٢٨٤ - ١٣٧٥ هـ)

عن الأعلام للزركلى (ص ٤٧ من المجلد الرابع)

بند : ٤٠

عبد القادر بن مصطفى المغربى الطرابلسى نائب رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق. من العلماء باللغة والأدب. أصله من البلاد التونسية من بيت «درغوت» ومولده فى اللاذقية. نشأ فى طرابلس الشام وقرأ أعلى أبيه وبعض علماء دمشق والقسطنطينية. وعرف بالمغربى واتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورغّبه الثانى بالسفر إلى مصر فقصدها (سنة ١٩٠٥) (قبل وفاة محمد عبده). وانصرف إلى الصحافة فكتب كثيرا فى كبريات الجرائد. ولما أعلن الدستور العثمانى (١٩٠٨) عاد إلى طرابلس فأصدر جريدة «البرهان». وأقفلها عند ابتداء الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤). ودرس فى الكلية الصلاحية ببيت المقدس ثم استوطن دمشق. وتولى التحرير فى جريدة «الشرق» إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. ولما أنشئ المجمع العلمى العربى كان من أعضائه فنائبا لرئيسه. وعين محاضرا فى العربية وآدابها بالجامعة السورية، وجعل من أعضاء مجمعي مصر والعراق وألقى فى ردهة المجمع بدمشق جملة كبيرة من المحاضرات العامة. فى خلال عشرين عاما. وكان أول ما ألف من الكتب «الاشتقاق والتعريب - ط. سنة ١٩٠٨» ومن كتبه «البينات»، ط. مجموع مقالات له فى جزءين. و«الأخلاق والواجبات». ط. و«تفسير جزء تبارك». ط. و«على هامش التفسير». ومازال بعض مصنفاته مخطوطا. وكان على تقدمه فى السن دائم الحركة نشيطا. يتحرى النكتة فى حديثه ومحاضراته ومقالاته. وأصيب بصدمة سيارة فى القاهرة فعولج فى أحد مستشفياتها قريبا من ثلاثة أشهر وسافر إلى دمشق فلم يعش كثيرا وتوفى بها[1].

---

(١) مجلة المجمع العلمى ٣١ . ٤٩٩ والمحسعون ٧ ١ وعبد العربز مطر في الأهرام ١٤/٦/١٩٥٦. وعدنان الخطيب، فى مجلة المجمع العلمى العربى ٣٦ : ٣٣٢ ٣٥٢ إلى آخره

عن المغربى معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة
جـ ٥ ص ٣٠٦
(١٢٨٤ - ١٣٧٥ هـ) (١٨٦٧ - ١٩٥٦ م)

عبد القادر بن مصطفى المغربى. أديب، ناثر، لغوى، مفسر، صحافى - أصله من تونس، وولد بطرابلس الشام - تلقى العلم على والده، وحسين الجسر، وغيرهما، ونزح إلى مصر، وحرر فى جريدة المؤيد. ثم عاد إلى طرابلس الشام، وأصدر جريدة البرهان، واشترك مع عبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان فى تأسيس كلية دار الفنون بالمدينة، وساهم فى تأسيس الكلية الصلاحية بالقدس. ثم استوطن دمشق، وانتخب عضوا عاملا بالمجمع العلمى العربى، فنائبا للرئيس. وعين أستاذا للآداب العربية بالجامعة السورية، واختير عضوا عاملا فى المجمع اللغوى بالقاهرة فعضوا مراسلا بالمجمع العلمى العراقى، وتوفى بدمشق فى ٢٧ شوال. ودفن بمقبرة الفواخير بسفح قايسون. من آثاره : الاشتقاق والتعريب، الأخلاق والواجبات، البينات فى الدين والاجتماع، تفسير جزء تبارك وعثرات اللسان.

هذا، وقد جاء فى كتاب «الإسلام والتجديد فى مصر» لمؤلفه الكاتب الأمريكى المشهور الدكتور تشارلس آدامز فى صفحة ٢٤٠ مايلى : «تفيض كتابات الشيخ عبدالقادر المغربى بنفحة من الروح النقدية الحرة التى اشتملت عليها كتابات جمال الدين ومحمد عبده، وتدل على مابين تعاليم المغربى وتعاليم الشيخ عبده من تشابه. أ هـ» (ص ٧ من كتاب المغربى عن جمال الدين).

المغربى يتحدث عن نفسه

يقول المغربى - رحمه الله -: تلقيت من دراستى على والدى (وكانت تربيته أزهرية) - الاستسلام إلى كل ماجاء فى الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين، والتصديق بنصوصها دون تردد ولا ارتياب، أما شيخنا الجسر فقد اقتبست منه تعاليم فيها شىء من حرية النقد، وانطلاق الفكر. وقد تعلمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث وفيها الثمين، وأن بينها ماهو غير صحيح، ولامعقول ولاينطبق على القرآن ولا السنة النبوية الصحيحة، فيجب الانتباه إليه والتحذير منه. ولتمييز الحق من الباطل فى نقل الأخبار طريقتان: ١ - التدقيق فى سند الخبر وروايته. ٢ - تدقيق النظر فى إمكانية الخبر وعدم إمكانيته، وهذا ماقرره الفيلسوف المغربى ابن خلدون فى الكتاب الأول من مقدمته. وتمحيص الأخبار، وتمييز صدقها من كذبها مقدم وسابق على التمحيص بتعديل

الرواة. ولايرجع إلى هذا التعديل حتى يعلم أن الخبـر فى نفسه ممكن أو ممتنع. فإن كان الخبر مـستحيـلا فلا فائدة للنظر فى تعديل الرواة وتجـريحهم. فكان شيخنـا الجسر في دروسه إنما يشـرح لنا ماقاله ابن خلدون فـى نظريته. إن الواجب هو وزن الخبـر بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ...** ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى].

فلما اتصلت بالسيد الأفـغانى وأنعمت النظر في دراسة تعاليمـه انتقلت فى حياتى الفكرية إلى الطور الثالث، وهو آن نفهم النص الدينى فهما صـحيحا، يراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها ونستـوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة، ثم نجرأ على التصريح بما فهـمناه من النص سواء وافق رأى غـيرنا أم لا، فالأسـاس الذى بنى عليه الأفـغانى الإصلاح الدينى إذن هو تميـيز نصوص الدين، والحـرص على فهمـها فهـما حرًّا. ثم الجرأة فى الدعوة إلى الصحيح المعقول. وإطراح البـاطل الدخيل عليها، ثم الجهر بذلك كله من دون جمجمة فى قول، أو تقية من ذى صول.

أقـول وأشيـر: أولا : إلى مكانة الأفغـانى كمـصلح دينى، وهذا جـانب هام فى شخـصيته وثوريتـه. ثانيا : لقد دعـا الأئمة الكبار من السلف إلى عـدم تقليدهم. ولو فعلنا لما جمدنا، ولما توقـفت مسيرتنا. إن علينا أن نجتهـد وأن نجتهد، وأن نواظب على ذلك ونصبر، والله لايضيع أجر المحسنين الصابرين.

* * *



محمد عبده

الأستاذ الإمام

(١٨٤٩هـ - ١٩٠٥م)

سنوات فى تاريخ الأستاذ الإمام(*)

١٨٤٩	ولد بقرية محلة نصر.
١٨٥٩	بدأ يتعلم القراءة بمنزل والده.
١٨٦٢	تلقى أول دروس التجويد بالمسجد الأحمدى.
١٨٦٤	تلقى أول دروسه العلمية بالمسجد نفسه.
١٨٦٥	عاد إلى قريته وتزوج.
١٨٦٥	أعاده والده إلى المسجد.
١٨٦٥	حضر أول الدروس بالجامع الأزهر.
١٨٦٩	لقى السيد جمال الدين الأفغانى.
١٨٧٣	أخذ فى الكتابة المنشورة.
١٨٧٥	ألف حاشية على شرح الدوانى.
١٨٧٧	نال الشهادة العالمية.
١٨٧٨	عين مدرسا بدار العلوم.
١٨٨٠	عين محررا للوقائع المصرية.
١٨٨٢	نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرابية.
١٨٨٤	سافر من بيروت إلى باريس لإنشاء مجلة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين الأفغانى.
١٨٨٥	عاد إلى بيروت واشتغل بالتدريس وترجم رسالة الرد على الدهريين وشرح مقامات البديع ونهج البلاغة.
١٨٨٩	عاد إلى مصر وعين قاضيا بالمحاكم الأهلية.
١٨٩١	عين قاضيا بمحكمة الاستئناف.
١٨٩٥	عين عضوا بمجلس إدارة الأزهر.
١٨٩٧	ألف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصيرية.
١٨٩٩	عين مفتيا للديار المصرية.
١٩٠٠	انتخب رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية.
١٩٠٢	ألف كتاب الإسلام والنصرانية.
١٩٠٣	نشر الرد على هانوتو.
١٩٠٥	اعتزل مجلس إدارة الأزهر.
١٩٠٥	توفى بالإسكندرية.

(*) نقلا عن كتاب العقاد (ص ٢٧٨).

الشيخ محمد عبده

«الأستاذ الإمام وقصتى معه»

بند : ١

أقول : بَهَرَ الأستاذ الإمام أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الأفغانى بشموخ أنفه، وسمو نفسه، ونبيل طبعه، وكريم خلقه، وعظيم سجاياه، وعلو همته ومروءته، فقال له: «قل لى بالله : أى أبناء الملوك أنت»؟![(١)]، وختم الشيخ رشيد ماكتبه عن «الأفغانى» بقوله: «إنه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى، كما قال كثير من العلماء فى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: إنه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى.

ويقول الشيخ رشيد (ص ح) : إن المصلح العظيم جمال الدين لم يظفر فى شعب من الشعوب الإسلامية بمن يصلح أن يكون خليفةً له، ومتمما لإصلاحه. . إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده؛ لأن منصب إمامة الإصلاح والتجديد لايُرتقى إليها بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعليم وحدها - بل لابد فيه من الاستعداد الروحى والمواهب الفطرية. وكان الشيخ عبده (والكلام للشيخ رشيد) سليم الفطرة، قدسى الروح، كبير النفس، وصادف تربة صوفية نقية، زهدته فى الشهوات، والجاه الدنيوى، وأعدته لوراثة هداية النبوة، فكان زيته فى زجاجة نفسه صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نورا على نور ﴿ ... **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور].

ولى مع الأستاذ الإمام قصة، بل قصص :

فى الصفحة ٣١ من كتابى «صفحات. . من اليوميات» نقرأ (والكلام عن مدرسة المعلمين) «وممن ترجم لهم أساتذتنا فى مادة تاريخ الأدب الحديث (من نصوص لهم) السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والسيد عبد الله النديم. وهم ممن كان

---

(١) (ص ط من كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام - الشيخ محمد عبده» للسيد/ محمد رشيد رضا (جـ ١) وبص ١٠٢ من نفس المرجع



لهم جهد مشكور فى تطوير اللغة العربية ونقلها من عهد السجع المتكلف إلى اللغة المرسلة الرصينة، المشرقة الديباجة، القوية الأداء. ومنذ عهد مدرسة المعلمين والسياسه الأسبوعية وحتى الآن يلح علىّ إلحاحا أن أكتب عن الأفغانى ومحمد عبده، وإلى أن يأذن الله أدعو لهما وللجميع بالرحمة والرضوان(١).

والشيء يذكر، بأشياء منها أن السياسة الأسبوعية(٢) (وهى ذات تأثير بعيد المدى فى حياتى وتوجهاتى) - يرتبط أول عهدى بها بالشيخ محمد عبده. وصحن الجامع الأحمدى، (حيث كنا زملائى وأنا نتردد عليه كثيرا) رأيت السياسة الأسبوعية، ولأول مرة، وبها ترجمة للشيخ محمد عبده. ولإكبارى وحبى للشيخ، ذهبت ذات يوم (وعلى قدمى) - من قرية دماط (حيث كنت أعمل) إلى قرية أخوال الشيخ عبده (شِبشير وحصة شبشير) حيث كان يعمل أحد الزملاء يرحمه الله.

وأقول : مضت الأيام والسنون، بل وعشرات كثيرة من السنين، لأعود إلى كراسة لى تحمل عنوان «بلادى» كتبت لنفسى فيها أشياء كثيرة، وفيها أوراق مُنْتَزَعَة (ربما لما كان فيها من طعن فى العائلة المالكة، ومع ذلك بقيت أوراق فيها تحمل فى طياتها هذا الطعن) والطعن فى الحكام الظلمة لاشيء فيه - ديانة، بل ربما كان واجبا، وفي الأثر «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

وأعود إلى كراستى، وإلى الصفحة ٢٩ منها، ومايليها، وفيها العنوان التالى: شيء عن: الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. والكلمة مكتوبة فى تاريخين، تفصل بينهما فترة. الأول فى : الخميس ١٠ من ذى القعدة سنة ١٣٥٣ هـ (١٤/ ٢/ ٣٥) - الساعة ٩,٣٠ مساءً.

قلت : «من يوم أن عرفته (أعنى فى التاريخ)(٣) - وأنا أحبه وأجله، ومن ذلك اليوم وأنا شديد الكلف بالقراءة له، أو السماع عنه، أو الحديث فيه. أخذنا (حوله) - أول ما أخذنا - ترجمة قصيرة، وفقرات من مأثوره. لاتظهر شيئًا عنه، ولاتبعث على

---

(١) فى النية بإذن الله أن أكتب عن «النديم» فى كتابى (المرجو) «مصر والدستور - تاريخ ومواقف» وانظر - أيضا - عنه ص ٢٠ أهرام ٩/ ١٢/ ٩٦. من المراجع عن النديم كتاب «أيام لها تاريخ» لأخى المرحوم أحمد بهاء الدين - طبعة دار الشروق - ص ٩ - ٤٧ بعنوان «الأدباتى - خطيب الثورة».

(٢) أعدادها (من يوم بدأت اقتناءها) موجودة عندى. وهى من أعز ماتضمه المكتبة.

(٣) الكلمة بكل مافيها طبق الأصل، ومما يثير الدهشة أن اليوم الذى أنقل فيه الكلمة من الكراسة إلى هذه الأوراق هو يوم الجمعة ١ من ذى القعدة سنة ١٤١٦ هـ (٢٩/ ٣/ ١٩٩٦م).



التعلق به وكـان ذلك بمدرسة المعلمين بطنطا. وكانت دروسنا قـشورا[1]، أو شيئًا دون الواجب بكثيـر. وكانت النماذج التى اختارهـا مدرسنا لتدل على آثار الأستـاذ القلمية. جملاً من كلمـة له فى شكوى الزمان والحال، وخطابًا له إلى أحـد الإخوان. فلاحظت عذوبة لفظه ودقة معناه، وقوة مغزاه فى سريانه إلى النفوس، وتمكنه من القلوب.

ولعل ذلك كان فى عام ١٩٢٧، ولم يكن عهدى بالصحف قد ابتدأ. وذات يوم - وأنا فى صحن الجامع الأحمدى بطنطا، وجدت مع بعض الموجـودين صحيفة، (عرفت فيمـا بعد أنها السياسة الأسـبوعية). وفى الصحـيفة ترجمة للأستـاذ لازلت أذكر كيف التهمت هذه الترجمة التهاما. وكـيف أنى عنيت بنقل صورة الأستاذ عن الصحيفة على ورقة إحدى الكراسات مـتعرضا للوم الأستاذ (المدرس لى)؛ لأن الكـراسة على ما أذكر كانت للجغرافيا. وبعد ذلك قرأت عن الأسـتاذ (الإمام) شيئًا فى الصحف، وسمعت عنه شيـئًا من أفواه الناس. وكـان لكل ذلك فى نفسى ماكـان، إلى أن كان يوم الإثنين الماضى، وذهبت منتدبا للقيام بأعمال مدرسـة كفر المحروق. وهناك عثرت على كتاب، (أوراقه الأولى والأخـيرة مفقـودة) وهو - كما يظهر - مـقالات للأستاذ. لقـد تضاءل عندى كل ماقرأته لغيره عنه. بعد أن صرت - بين آثاره - منى إليه. كل جرة لقلمه، أو التفاتة لذهنه، كلها نفحات عظيمة جليلة لرجل نابغ عظيم.

لقد تأكـدت فى نفسى الرغبـة فى الحصول على كل هـذا الكتاب، وعلى كل آثار الأستاذ. ولقد نشأ عندى الأمل فى وضع كتاب عنه إن شاء الله. وظنى أن هذا الكتاب سيكون من خير مـايُهدى إلى الجيل الجديد. أنا أعرف أن الكتابة عن الأسـتاذ كتابة عن رجل عظيم من الذين يضن بمثلهم الزمـان. وهى - إلى ذلك - كتابة عن حـركة فكرية وسياسية ذات أهمية فى تاريخ وتطور هذه البلاد حتى هذه الأيام. لقد استطردنا، والذى أردناه اليوم هو أن نـثبت هذا الحديث: أتانا اليـوم الشيخ سـالم فراره، وتحدثـنا وتفتق الحديث بعـضه عن بعض، واستـدعى بعضه بعضـا إلى أن سألته : هل حـضرت على الشيخ محمد عبده ؟

- نعم : أربع سنوات.

- وماذا تذكر.

- أخذ عن جمال الدين، وأراد أن يقوم مقامه فى الناس، وكان شديدا فى درسه.

أقول: هذا من بروز شخصـيته وثقته فى نفسه) وكـان يعرف الذين يعقلون والذين لايعقلون مـايسمعـون، فلربما طرد هؤلاء الأخيرين. (وهذا يطابق مـاحـكاه لنا زمـيلنا

(١) من الإنصاف أن أقول : إن هذا العـهد من عهود مدارس إعداد معلمى المرحـلة الأولى كان خيرا من العهود التى تلته بكثير.

عبد المجيد أفندى الفقى من أنه حضر درس الأستاذ، وكان (أى عبد المجيد) صبيا بطاقيه فزجره الأستاذ وطرده.

- وماذا أيضا ؟

- (فظهرت عليه أشياء كثيرة، وكأنه لايستطيع التعبير عنها) ثم قال : كان شديد العطف على أبناء طائفته (أعنى المعممين) - ولو كان من هؤلاء الذين يقرءون عند القبور! (ونذكر الحرب التى وجهت إليه من المعممين)[1]. كثيرا ماكان يبكى وهو يقرأ دروس التفسير.

- هيه[2]؟ رجاه مرةً واحد من الناس فى أن يسعى له فى أمر، فوعده الأستاذ خيرا فانثنى الراجى وهمَّ يأخذ رجل الأستاذ ليقبلها. فانفعل الشيخ وقال: والله، ماقضيت لك أمرًا، وهل لغير الله تعنو الجباه؟!

- هيه ؟ كان الأستاذ جمال الدين يغادر مصر. فقال: لم أترك لكم مجلدا، ولكنى تركت لكم هذا، مشيرًا إلى الأستاذ الإمام.

وحين مغادرة الأستاذ جمال الدين مصر، لم يكن معه شىء من المال، فراح أبناؤه يجمعون له شيئا منه. فأمرهم أن كُفُّوا، وقال : ليس معى مال، ولكن معى لسانى.

تتمة : مساء الجمعة ٥ أبريل سنة ١٩٣٥ م (٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ)

وروى الشيخ سالم قال : كان الشيخ محمد عبده يقول لتلاميذه مامعناه : «تنظرون إلى الشيخ فلان والشيخ فلان فتستبعدون أن تكونوا أمثال هؤلاء: لا أحد يتميز عن أحد، ولكن لعن الله شيطان الكسل»!

وروى عن الشيخ جمال الدين أنه قال : (بعد أن خبر مشايخ الأزهر، قال فيهم (الشيخ الإمبابى فقيه، والشيخ فلان مُحَصّل!) فلما ذُكر الشيخ الطويل، قال عنه (هذا هو الرجل).

وأضيف (واليوم ١٩٩٦/١٢/٩) (أى بعد كتابة ماتقدم - وهو طبق الأصل - بأكثر من واحد وستين عاماً) - أضيف مايلى : فى الحديث الشريف «اللهم إنى أعوذ بك من

---

(١) أذكر هذين البيتين المنسوبين إليه :

ولست أبالى أن يقال محمدٌ   أبَلَّ أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينًا قد أردت صلاحه   مخافة أن تقضى عليه العمائم

(٢) فى المعجم الوسيط : هيه، هيه : تقال للاستزادة من الكلام. وماذكرته فى المتن دارج فى العامية المصرية.



الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع[1] الدين، وغلبة الرجال»[2]، فالكسل شيطان، نستعيذ بالله منه. فقول الشيخ سالم - مسندًا إلى الأستاذ الإمام «لا أحد يتميز عن أحد» محل نظر، فالناس يتميزون فيما بينهم - كذلك - بالموهبة والفطرة.

ومما شاهدته فى أفراد، هم أساتذة كبار. كان منهم (فلان) الذى كان حاد الذكاء، وكان منهم (فلان) الذى كان متوسط الذكاء. لم ينتج الأول شيئًا يذكر، ربما بسبب الكسل، أما الثانى فقد أنتج الكثير جدا؛ لأنه كان يعمل ويعمل الساعات الطوال.

الشيخ محمد عبده
وثلاثة نجوم فى حياته

بند: ٢

الشيخ درويش

فى مذكراته (ص ٤٢ ومابعدها) قال شيخنا رحمه الله : فى سنة ١٢٨١ هـ - جلست فى دروس العلم، وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الآجرومية فى المسجد (الأحمدى بطنطا) وقضيت سنة ونصف سنة لاأفهم شيئًا لرداءة طريقة التعليم. . . فأدركنى اليأس، وهربت من الدروس، واختفيت عند أخوالى ثلاثة أشهر. وقرر الفتى العودة إلى بلده والاشتغال بملاحظة الزراعة، وتزوج سنة ١٢٨٢ على هذه النية. والأثر الذى وجده فى نفسه من طريقة التعليم (فى طنطا والأزهر) هو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة من الطلبة، غير أن الأغلب منهم تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئًا، فيستمرون على الطلب حتى يبلغوا سن الرجال، وهم فى أحلام الأطفال. . ثم يُبتلى بهم الناس، وتصاب بهم العامة[3].

وبعد أن تزوج بأربعين يومًا ألزمه والده بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم، وبعد إباء وتمنع لم يجد مندوحة عن إطاعة الأمر. وأحضر له أبوه فرسا فركبه، وبعث معه أحد

(١) أحفظ الحديث الشريف، هكذا «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، والجبن والبخل، والعجز والكسل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» فيكون معنى الضلع - الغلبة.

(٢) (النبهانى جـ ١ ص ٢٤١). والحديث رواه أحمد فى مسنده - عن أنس.

(٣) شاهدت نوعًا من هؤلاء فى قريتى. وعامة الناس يلجأون إليهم فى مسائل الطلاق والميراث وغيرهما. ولا أظن أحدا منهم يقول: «لاأدرى».

أقاربه. كانت الريح عاصفة ملتهبة فرأى التعريج على كنيسة أوربن (كثير من سكانها من خؤولة أبيه) فأبى صاحبه فتركه، وأسرع (الفتى محمد عبده) إلى حيث يريد. فرِحَ به شبان القرية؛ لأنه كان معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح. أدركه صاحبه وبقى معه إلى وقت العصر. أراده على السفر، فقال له : خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد إلى طنطا. بقى فى القرية خمسة عشر يوما - تحولت فيها حالته، وتغيرت رغبته[1].

وجاء دور الشيخ درويش[2] النجم الأول فى حياته، والذى سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا، حتى طرابلس الغرب، حيث جلس إلى السيد محمد المدنى، وتلقى عنه شيئًا من العلم، كما أخذ عنه الطريقة الشاذلية. وكان الشيخ درويش يحفظ الموطأ (للإمام مالك) وبعض كتب الحديث، ويجيد حفظ القرآن وفهمه. ولما رجع إلى قريته اشتغل بالزراعة.

أقول : إن الشيخ درويش هو الذى - وإلى حد كبير - قد علّمَ نفسه. واعتماد الإنسان على نفسه فى التعلُّم، يعنى اختيار الطريق الصعب، وهذا يرسخ ماظفر به من العلم، والعلم نور للعقل، والتصوف نور للقلب، والاثنان سمو للنفس. وهذا كله كان عدة الشيخ فى احتمال طالب (مشاغب).

يقول الشيخ عبده : جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة، وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى مريديه بالأطراف، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره. فرفضت طلبه بشدة، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها، ونفرت منه أشد النفور، ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد. لكن الشيخ تلطف وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب، وقرأت منه بضعة أسطر، فاندفع يفسر لى معانى ماقرأت بعبارة واضحة، تغالب إعراضى فتغلبه وتسبق إلى نفسى. وبعد قليل جاءنى الشبان يدعوننى إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم. بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه، وألح علىّ فى قراءة شىء منه فقرأت ثم تركته إلى اللعب، وفى اليوم التالى فعل مافعل فى الأول، وكذلك فعلت. أما فى اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه، وهو يشرح لى نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها. ولما قال لى إنه ذاهب إلى مزرعته

---

(١) أقول : إنه القدر يلعب دوره. لقد كان من المحتمل أن يبقى فى القرية يلاحظ الزراعة، ولو بقى لكان من وجهائها، فشخصيته قوية. ولاننسى فى التحول إلى طلب العلم ضغط والده. ولقد مررت بدور كهذا وكان لضغط والدى أثره

(٢) وهو أحد أخوال أبيه

طلبت منه ترك الكتاب، واستأنفت القراءة، وأخذت أضع عـلامة على مالم أفهمه، إلى أن جاء وقت الظهر، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب.

فلما حـضر شـرح لى ما أردت، وظهـرت عليه عـلامات الفرح! ولم يـأت اليوم الخـامس حتى صـار أبغض شيء إليّ مـاكنت أحب من لعب ولهـو، وأحب شيء إلى ماكنت أبغض من مطالعة وفهم. وتحت عنوان «مفتاح سعادتى».

قال : كانت الرسائل التى قدمها إلى الشيخ تحتوى على شيء من معارف الصوفية، وكلامهم فى آداب النفس وترويضهـا على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.

وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ماهى طريقتكم ؟ قال : طريقتنا الإسلام. قلت: أوليس كل هؤلاء الناس مسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين. هذه الكلمات كـانت كأنها نار أحرقت جميع ماكان عندى من المتـاع القـديم... متـاع الغرور بأنـنا مسلمـون ناجـون، وإن كنا فى غمـرة ساهية[1] !

سـألته: مـاوردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عـقب الصلوات. فقـال : لاورد لنا سوى القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة من أرباع مع الفهم والتدبر. فقلت له : أنّى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئًا؟ قال : أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة فيفيض الله عليك ببركتها التفصيل. وإذا خلوت فاذكر الله على طريقة بينها لى. وقد رأيتنى بنفسى فى عالم آخر غـير الذى كنت أعهد، واتسـع لى ماكان ضيقـا.. وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ماكان صـغيرًا، وتفرقت عنى جميع الهموم، إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس.

أقول: إن هذا يـجمع بين العلم (نور العـقل)، والتصـوف (نور القلب) وهذا هو الأثر الذى وجده فى الشيخ درويش خضر، والذى كشـف له ماكان خفيـا عليه مما أودع فى فطـرته.. لقد غاب عن أبيـه خمسة عشر يوما، رآهـا أبوه - ولاريب - مهربا، أما ماتحقق فقد كـان لأبيـه مطلبًا.

وتحت عنوان «فى سـاحة الدرس» (ص ٤٨ ومابعـدها من المذكرات) عـاد الشيخ الشاب إلى سـاحة الدرس بروح جديد وعزم أكـيد، وتصميم على المضى قـدما. ذهب

(١) أقول : وفى هذا يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء].



الفتى (المارق) وجاء الفتى الطموح الذى صار فيما بعد «الأستاذ الإمام». يقول : ذهبت إلى طنطا، وكان ذلك قرب انتهاء السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢هـ. ولأسباب عَرَضَتْ لبعض المشايخ عاقت أحدهما عن إتمام شرح الزرقانى (على العزية) (هكذا)، وأخرى عاقته عن إتمام شرح خالد على الآجرومية، أى أنه أدرك كلا منهما فى أول الكتاب الذى كان يُدرس[١]. يقول : «وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع بحمد الله. وعرف ذلك عنه بعض الطلبة فصاروا يتحلقون حوله ليشرح لهم الدرس قبل أن يلقيه الشيخ ويقول: وذات يوم (وهو فى مجلس الإلقاء والشرح لزملائه) - رأى أمامه شخصا يشبه أن يكون من هؤلاء الذين يسمونهم بالمجاذيب. فلما رفع رأسه قال له، مامعناه «ماأحلى حلوى مصر البيضاء» فقلت له: وأين الحلوى التى معك؟ قال : سبحان الله، من جد وجد. ثم انصرف، فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله إلىَّ ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا[٢].

النجمان الثانى والثالث

الشيخ حسن الطويل

والسيد جمال الدين الأفغانى

النجم الثانى فى حياة الأستاذ الإمام هو الشيخ الطويل - ويعود بنا الأستاذ أحمد أمين[٣] إلى الشيخ درويش ويقول: إن الدرس الثانى الذى علمه للطالب محمد عبده هو هدمه للنظرية الأزهرية التى تقول: إن هناك علومًا تُعلّم وعلوما لاتعلم، فكسر الشيخ درويش هذه الحدود، وقرر أن كل العلوم يجب أن تُعلَّم، ويجب أن يطلبها الطالب ما أمكن، ولايستثنى من ذلك إلا مايتخذ شكل العلم، وهو ليس بعلم كالسحر والشعوذة. أما المنطق والفلسفة والرياضيات وما إلى ذلك فليست بحرام، بل هى واجبة على طالب العلم. ومن أجل ذلك عاد الشيخ عبده إلى الأزهر يطلبها فوجدها عند الأستاذ حسن

---

(١) وفى المثل : «ملك الملوك إذا وهب، لاتسألن عن السبب».

(٢) تكلم الشيخ بعد ذلك فى مذكراته عن «لقائه بالسيد جمال الدين» - وسأترك المذكرات إلى كتاب الأستاذ أحمد أمين «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» لأنقل عنه ماجاء فيه (ص ٣١٢ ومابعدها) عن النجم الثانى فى حياة الأستاذ الإمام.

(٣) أحمد أمين ١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م (الأعلام للزركلى جـ ١ ص ١٠١) أى أنه فى تاريخ وفاة الأستاد الإمام عام ١٩٠٥ كان فى السابعة والعشرين من عمره. وانظر له عن الشيخ الطويل (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٣١٢ وما بعدها).

الطويل وهو شخصيــة غريبة : ذكاء حاد ومعرفة بالرياضيــات حتى كان يحل لطلبة دار العلوم مــا أشــكل عليــهم من تمرينات هــندســيــة، واتصــال بكتب الفــلسـفــة، وعلم بمصطلحاتها، ومعرفــة بالدنيا والسياسة. وشجاعة فى الكلام بما يعتــقد ولو حُرِمَ منصبه فى دار العلوم، وزُهد فى الدنيا حتى لايهمه منها شىء. يلبس قفطانا من «البفتة» وجبة من «البفتــة» أيضا. ويقال له : إن على مبــارك باشا سيزور دار العلوم غدا، فــيعزم أن يلبس كما يلبس كل يوم، فينــصح له أن يتخذ شيئًا من الأناقة فيــقول : إذًا أبعث بجبة من الصوف وقفطان من الحرير إلى دار العلوم، أما إن أردتم «حسن الطويل» فهو هو فى ملبســه. ويُدعى إلى موائد الأغنياء للإفطار فى رمــضان فيــأكل من طبق الفول، ويزهد فيما عداه. ويُطرد من دار العلوم لكلامه فى السيــاسة فيُنْفق عليه صاحب مقهى بلدى، فإذا عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه ليصــرف على بيتيهما كما كان يفعل وهو مطرود. ويدرس فى الأزهر الفلسفة والمنطق فــيحضر دروسه نخبــة من الطلبة مثل محمد عبده، ويُرمى هو وتلاميذه بالزندقة.

ولكن دروس الشيخ الطويل تفتح شهية الشيخ محمد عبده ولاتغذيه، فيجد الغذاء الكافى عند السيد جمــال الدين الأفغانى وقت حضوره إلى مصر. فــيتصل به ويلازمه، وتتفتح له آفاق كانت مغلقة، ويحس أنه وجد طلبته.

أقول: وهــذا (أى جمــال الدين) هو النجم الثالث فى حــياة أســتاذنا الإمــام. من سلسلة «كتاب الهلال» كتاب باسم «الثائر الإسلامى جمال الدين الأفغانى» والكاتب هو الشيخ محمد عبده[(١)] .

وأقول : حقا، لقد كان جمال الدين ثائرًا، وثائرًا إسلاميا. اختاره الله لرسالة، إنه أحد هؤلاء الذين يظهرون فــى عالمنا الإسلامى بين وقت وآخر، كل مائة عــام مثلا، أو أقل من ذلك قليــلا أو كثيــرًا - يظهرون بمشيــئة الله ليجــددوا دين الله، بتخليــصه من الخرافــات ومما نسب إليه، وليس منه. وفى الحــديث الشريف «من تقــول علىَّ متعــمدا فليتبوّأ مقعده من النار» (أو كما قــال) ومع ذلك فما أكثر مادُسَّ فى الحديث الشريف مما ليس منه، لأسباب سياسية أو لأسباب أخرى. وفى كــتب التفسير كثير من الإسرائيليات والتأويلات الضالة المضلة. وأعداء الإسلام والمسلمين كثيرون. كانوا، ومازالوا. وهاهى إسرائيل تصــدر طبعات من القرآن الكرِيُم تحــذف منه ماتشاء وتضيف مــاتشاء. ويتكرر كثيرًا من المفسرين القدامــى والمحدثين، أن ينقل اللاحق عن السابق من غير أن يتنبه إلى الدخيل. وعملية التنقية والغربلة والتخليص والتطهير إحدى مهام مجددى الدين.

(١) أكتوبر ١٩٧٣ - العدد ٢٧٤.



وأعود إلى جمال الدين وأقول: إنه الثائر الإسلامى الذى حمل هموم المسلمين، وما أكثر همومهم، التى كانت ومازالت حتى اليوم. لقد دعا جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية (بمعنى اتحاد المسلمين أو وحدتهم، فى شكل تجمع دولى، يتطور إلى تجمع دستورى) إننا أبعد الآن من هذا الهدف مما كنا فى عهد جمال الدين. لقد مزقّنا الأقوياء عن عمد ومازالوا، وصرنا لهم تبعا. وهم يعلنون عداءهم للإسلام، وبالصوت العالى.

لكن، ومن قلاع الكفر، أسلم فلاسفة ومفكرون مرموقون. وهم، ونحن معهم، متفائلون. وستفلس حضارتهم وينتشر الإسلام بينهم، وبهم! وأعود مرة أخرى إلى جمال الدين الثائر الإسلامى، الذى حارب وناضل فى عدة جبهات ضد الاحتلال الذى رحل، ولكنه - لضعفنا - وتهافت بعض حكامنا - عاد إلينا تحت تسميات جديدة خادعة. وحارب وناضل ضد الجهل الذى لم نتخلص منه حتى اليوم. وحارب وناضل ضد الاستبداد، استبداد نفر منا بنا. ولن نجد أنفسنا إلا عندما يكون الحكم خالصا للشعوب. وهذا سيكون، وفى وقت ليس ببعيد. وطريقنا هو هو الذى دعا إليه جمال الدين: التمسك بالقرآن والسنة والإجماع. وهذا هو النجم الثالث فى حياة الأستاذ الإمام الذى كان تلميذه الأول، ثم صار الصديق وزميل الكفاح.

أحمد أمين

بند ٣:

سبق أن ذكرت عنه ما أعيده هنا عن تاريخ مولده ووفاته (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٥٤م) وقلت : إنه كان فى تاريخ وفاة الأستاذ الإمام (١٩٠٥) فى السابعة والعشرين من العمر. أضيف هنا عن الأعلام للزركلى (مجلد ١ ص ١٠١) - أنه أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ - عالم بالأدب، غزير الاطلاع علي التاريخ. من كبار الكتاب. . مولده ووفاته بالقاهرة. قرأ مدة قصيرة فى الأزهر، وتخرج بمدرسة القضاء الشرعى، ودرس بها إلى سنة ١٩٢١، وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، ثم عيِّن مدرسا بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتخب عميدًا لها عام ١٩٣٩. . إلى آخره. تكلم فى كتابه «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» عن الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، أى أنه - وكما ذكرت فيما سبق - كان فى السابعة والعشرين من العمر عند وفاة الشيخ. تكلم عن ظروف الوراثة والبيئة وتأثيرها فيه -

وعرج على موضوع يُثيرنى وأثيره كثيرًا، وهو موضوع «المواهب» التى لاحصر لها، والتى لاتظهر ولاتُعرف. «والناس - كالكنوز المدفونة يُقضى عليها أحيانا بالدفن الأبدى. وأحيانا يُعثر عليها فتكون مصدر ثراء. وفى عصر الشيخ إلى عصرنا (عصر الكاتب) لم تسعفنا نظم التربية وحالة البلاد الاجتماعية لنستكشف الأحجار الكريمة، بل هى فى أغلب الأحيان تعمل على دفنها فى الرمال:

لاتعجبن من هالك كيف ثوى   بل فاعجبن من سالم كيف نجا

أقول : لقد كان الوليد محمد عبده يحمل بين جنبيه موهبة فطرية فوق العادية، وكان اكتشافها فيما بعد - فى صدر الشباب ومقتبل العمر «فلتة» - أو صدفة، ليكون كما شاء الله له أن يكون. لقد «نجا» وهذا هو المثير للعجب! ففى تاريخ مولده، ومعه، ولد آلاف يحملون مثل موهبته الفطرية على مستوى الأرض المصرية (على سبيل المثال). ولكن هذه لم تكتشف، ولم تُعرف. عاشت فى المجهول (فى عالم الخدم مثلا) وذهبت إلى المجهول، إذ ثوت وإنطمرت فى الرمال!

كان (كرايتون) كما صوره الكاتب الإنجليزى فى روايته، شخصا عجيبا، ومثيرا للدهشة، كان خادما فى أسرة ورثت الغنى والألقاب الملكية. وذات يوم خرجت الأسرة فى رحلة بحرية، وفوجئت بريح عاصفة وأمواج عاتية، قلبت سفينتهم رأسا على عقب. غرق من غرق، ونجا من نجا بمعجزة، وكان (كرايتون) بين الناجين، الذين تعلقوا ببعض أخشاب السفينة ورمت بهم الريح والأمواج إلى جزيرة صغيرة مجهولة. وكان بها ماء عذب وثمار. ورأى القوم أنفسهم مضطرين إلى استئناف حياة جديدة. وعجز الذين تربوا فى الدّعة ولين العيش عن التفكير. وكان (كرايتون) الخادم الفقير يحمل فى أعماقه وجوارحه مواهب فريدة، وروحا وثابة. وفرضت المواهب نفسها، وكانت له الزعامة والقيادة. وعمل الآخرون معه كمساعدين، ومناولين، ومنفذين لأوامره وأفلح القوم فى إنشاء حياة جديدة، إلى أن تسوق إليهم الصدف سفينة تحملهم إلى عالم العمران الواسع!

وأعود إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين لأنقل عنه صورة للأزهر (المعهد الأشهر) الذى تلقى فيه الشيخ الشاب محمد عبده دروسه. قال : (عن العلوم التى يدرسها الطالب وطرق تدريسها) - كانت هذه الطرق فى منتهى العقم. كان على الطالب أن يدرس كذا وكذا، وكتابا فى النحو . وهذا النحو هو الطامة الكبرى.. وكان يعلّم كما فى كتاب «الكفراوى على الآجرومية» وأول درس فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» الباء حرف جر، واسم مجرور بالباء، وعلامة جره كسرة ظاهرة فى آخره، والجار والمجرور

متـعلق بمحـذوف تقديره: أوْلف. وأوُلف فـعل مضـارع مرفـوع لتجـرده من الناصب والجازم. والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا. هذا إن جعلت الباء أصلية فإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به. وتقول فى الإعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد، واسم مبتدأ مرفـوع بالابتداء، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخـره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به»... إلخ.

ويعلق الكاتب على ذلك: باسم الله ماشاء الله هذا هو أول درس لمن لم يعرف فى النحو شيئًا، فلو أن متكلما تكلم بالسريانية لكان أهون.. ويذكر الكاتب من أمثلة ذلك الزمان الشيخ يوسف الذى كان يعظ النساء فى مسجد سيدنا الحسين، والنسوة جاهلات أميات، كنّ يتحلقن حوله للتبرك، كان يقرأ عليهن الأحاديث النبوية.. وكان ينسى نفسه، وينسى حال المتحلقات حوله، وينسى مقتضى الحال فيتساءل أثناء شرحه : «لم حُذف المسند إليه؟» - فيكون الكلام كتلاوة اللاتينية فى الكنائس لمن لم يعرف كلمة لاتينية، أو خطبة لأتراك لم يعرفوا شيئًا من العربية؟! كذلك كان تعليم النحو فى الأزهر والجامع الأحمدى للمبتدئين.. ورحم الله الشيخ الكفراوى فما علم مايجنى كتابه على المبتدئين ماخطّ منه حرفا !؟

كان محمد عبده فى سن الخامسة عشر حين جلس فى الجامع الأحمدى، ويواجهه هذا الوضع المقلوب، فلم يكن منه إلا الهرب.. وقد سبق ذكر ماكان من أمره. واختزن شيخنا هذا الدرس فى نفسه، فتجلى فيما بعد فى حمله عبء إصلاح الأزهر.

ويقدم لنا الكاتب صورة حية للأزهر والطالب فى الأزهر كما عَرَفَ وشاهد[1]: يقول: والتعليم فى الأزهر إذ ذاك، وكما رأينا إلى عهد قريب - يلقى العبء كله على الطالب نفسه. فعليه أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر، ثم يفعل مايشاء إلى أن يتقدم لامتحان العالمية فهو الذى يختار مدرسه، ويختار علومه، ويحضر أو لايحضر، ويجد أو يلعب، ويفهم أو لايفهم، كل هذا متروك إلى نفسه، وهو أسلوب يفيد الخاصة ويضر العامة.

يأتى الطالب من بلده فيسكن فى حجرة فى الأزهر، وقد يشاركه فى الحجرة طالب وأكثر، وفى الحجرة كل أدواته وأدواتهم، حصير مفروش على الأرض وصندوق فيه بعض الملابس وبعض الزاد و(مرتبة) ولحاف يفرشهما ليلا، ويطويهما صبحا؛ و(حلة) يطبخ فيها بنفسه من حين إلى آخر فى الحجرة نفسها. وقد حدث محمد عبده عن نفسه أنه غضب على كتاب فطبخ به عدسًا. ومن حين لآخر يأتيه الزاد من البلد، بعض الخبز

(١) ص ٣٠٧ ومابعدها - من كتابة «زعماء الإصلاح...».



وبعض الجبن وشيء من السمن. فإن كان أهله على شيء من الثراء فشيء من الفطير، وشيء من الدجاج المذبوح. وهذه هي دنياه.

أقول : هذه ليست دنيا طالب الأزهر فقط، بل هي - كذلك - دنيا كل مغترب في طلب العلم، في المدارس والمعاهد غير الأزهرية. وقد عشت هذه (الدنيا) في أواخر العشرينيات من هذا القرن، في غرفة ممتازة، أرضيتها من الخشب، وبها نافذة كبيرة تفتح على الناحية القبلية فتغمرها الشمس. وكانت أجرتها في الشهر عشرين قرشا. كنت - لتفوقي - دائما - أحصل من المدرسة على ثلاثة جنيهات سنويا - منها - وليس بكلها - أثثت غرفتي بسرير ومكتب وكرسي و (وابور جاز) وكنت أحمل ساعة جيب من أشهر نوع في ذلكم الزمان. ومن مشترواتي فرشة ملابس، وأداة للحلاقة أستعملهما - ودائما - وحتى اليوم. وما أكثر ماتنقلت بين البلدان والأقطار، وهما ملازمان لي كظلي. أما الطعام فكان ممتازا، لقد كنت بطنطا، وقريتي ليست بعيدة عنها، وكنت أحمل منها، ويحمل أهلي إليّ كل ما لذ وطاب[1].

وأعود إلى كتاب الأستاذ أحمد أمين، وأنقل عنه (ص ٣٠٨ ومابعدها) - والطالب المجد يصحو عند آذان الفجر فيصلي الصبح، ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه الذي يستمر إلى الضحى... والشيخ يقرأ الجملة ويشرحها، والطلبة يستمعون ويعترضون والشيخ يجيب وأحيانا يحتد الشيخ فيضرب أو يلعن. ولاينتقل الشيخ من جملة إلى جملة إلا بعد أن يقتلها بحثا. وقد تضيع الساعتان أو الثلاث في سطر إذا اقتضى الحال، فإذا ختم الشيخ درس الفقه بقوله : «والله أعلم» - انصرف الطلبة يبحثون عن «فطورهم» فمن كان منهم له «جراية» وهي رغيفان إلى خمسة، تسلمها من رواقه، وخرج إلى محيط الأزهر، حيث دكاكين الفول المدمس والطعمية، فاشترى منها ماشاء، وإن كان طالبا متقدما بعث طالبا صغيراً يقوم بذلك عنه. وإن كان فقيراً باع رغيفين أو أكثر من الجراية ليشتري بثمنها إدَامًا. وإن كان ذا يسار استعاض عن الفول بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية في بعض الأيام. وإذ ذاك ترى الأزهر كله مائدة للطعام، حلقات، وعُدَّ هذا فطوراً وغداء معًا. وبعد أن ينتهي اليوم العلمي للطالب يعود إلى بيته. وإن احتاج إلى ضوء فمصباح يشتعل بالجاز بواسطة فتيل من غير زجاج، ولابأس بدخانه. وإذا اشترك جماعة في حجرة، وكانوا فقراء، تقاسموا ثمن الجاز، كل عليه

(١) بعد فترة الدراسة، ومع بداية عملي في الوظيفة - أرهقت نفسي فمرضت وكنت في العشرين من عمري. وبعد معاناة، شفاني الله بالعلاج الطبيعي. وكل هذا مفصل في كتابي : «صفحات.. من اليوميات».



ليلة أو أسبوع. وقد حدث «الهلباوى»[1] أنه تنازع مع زميله على ثمن الجار لأنه لم يشأ أن يدفع نصيبه.

ويتدرج الطالب فى الكتب... ولـكل كتاب - تقريبـا - متن هو الأصل، وشرح بشرح المتن، وحـاشية تشرح الـشرح، وقد يكون هناك تقريـر يشرح الحاشيـة. والشيخ يطالع كل هذا اسـتعـدادًا لما يمطره الطلبة عليـه من الأسئلة. ويبـدأ الشيخ بـقراءة المتن ويشرحه بجميع ماكتب عليه مناقشا مهاجما مدافعا حتى تنتهى المعركة بانتهاء الدرس.

وليس بالنادر أن تسمع صـيحة تقـوم فى الدرس أو قبله أو بعده لاخـتلاف طالبين على مكان فى الحلقة أو نحـو ذلك. فيتـضاربان، ويتعصب أهل الصـعيد للصعـيدى، وأهل البحـيرة للبحـراوى، فتكون معـركة حامـية يتدخل فـيها جنود الأزهر المســمون بالمشدِّين[2].

وإذا مررت بصحـن الأزهر رأيت حصرًا مفروشـة، نشر عليها خـبز مما أرسله أهل المجاورين[3] إليهم ليتجفَّف فى الشمس خوف العفن.

ورأيت ثيابا منشـورة، ومياها مصـبوبة إلخ. وفى الدروس تجد مريضـا إلى جانب صحيح، وقذرًا بجانب نظيف، ولم يفكر أحد فى إشراف طبيب.

وقلّ أن تجد مدرسـا تعرض فى درسه لمسألة خلقية أو حث على فـضيلة، أو حذر من رذيلة! كل الكتب التى تدرس فى الأزهر مـن نتاج العصـور المتأخـرة، تحدرت من العصور الزاهية، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدها روحها فصارت شكلا. النحو كان يراد به النطق الصحيح والكتابة الصحيحة وفهم كتب الأدب فهمًا صحيحا فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين فى النحو[4]. وأصول الفقه كان يقصد منهـا التمرين على الاجتهاد فى

---

(١) من أشهر المحامين فى عصره.

(٢) إلى صحن الجامع الأحمدى كان يتردد سـائر الطلبة (وأنا منهم) - وكانت المعارك المشار إليها فى المتن تنشب من وقت إلى آخر. وكان السلاح المستـعمل هو المركوب - نوع من الأحذية (المعجم الوسيط) - والمعارك كانت تنشب بين طلاب الجامع الأحمدى عادة، وكنا نسميها معارك بالسلاح الأحمر، وهو لون المركوب.

(٣) المجاورون : من يسكنون الأماكن المقدسة، ويعتكفـون فى المساجد. وقد غلبت هذه الصفة على طلاب الأزهر. (نفس المرجع، ص ٣١٠ - هامش).

(٤) بعد «كتاب القرية» كانت المدرسة الراقيـة هى أول مدرسة التحقت بها. وكنا نخرج لرياضة المشى - ومعنا كـتبنا - بين المزارع، وعلى شواطئ التـرع. ونصادف بعض طلاب المسجد الأحـمدى. ونتفق نحن تلامـيذ المدرسة على أن نوجه إلى أحـد طلاب هذا المسجد هذا السؤال: اذكـر مثلا للفعل والفاعل، ونؤكد على أن جوابه سيكون : «جاء زيد» وهذا الجواب دائما، ولاسواه.

التشريع. فأصبحت ولا اجتهاد ولا تشريع. والبلاغة كان يقصد منها كيف يكتب القول البليغ، فصار المؤلفون فيها أعاجم لايحسنون التعبير كالسعد التفتازانى، حتى أباح الشيخ أحمد الرفاعى لنفسه أن يدرس أكبر كتاب فى البلاغة، وهو المطول. ثم يعترف بأنه لايحسن أن يكتب رسالة، ولو غير بليغة؛ لأن هذا من عمل تلاميذ المدارس المدنية..!! واشتهر من فطاحل علماء هذا العصر الشيخ الرفاعى هذا. وأساس شهرته أنه يحسن فهم الكتب وتحليل الجمل، وإثارة الشبهات حولها، حتى يُعقّد السهل، ويغمض الواضح. والشيخ عليش، وهو من أصل مغربى، شهرته فى تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهى الأسباب، وضيق أفقه وغيرته على الدين بالمعنى الذى يفهمه. ولكن هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية، فاتسع أفقهم، كالشيخ البسيونى إمام المعية. وكان طريفًا فى شكله وملبسه وفى تأليفه. والشيخ حسن الطويل كان ذكيا حكيما، له نظرات فى الحياة صائبة، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة.

هذا هو الأزهر الذى رآه محمد عبده، يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية، ويعلم طالبه الدقة فى الفهم والقدرة على الجدل. وهذه محمدة؛ ولكن مع الأسف، لاتستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا فى الألفاظ، وتجعل صاحبها غارقا فى الاحتمالات بما يراه فى الحواشى والشروح من التأويلات. فكل شىء يجوز حتى دخول الجمل فى البندقة - على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه.

يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهما لبضعة كتب، أما الدنيا وشئونها فإنه يجهلها كل الجهل فلا جغرافيا ولاتاريخ ولارياضة ولاطبيعة ولاكيمياء، فكل هذه علوم أهل الدنيا. وما للآخرة والدنيا؟! ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير، وعلى الوظائف الصغيرة أكثر. كل شىء خارج من المألوف كفر أو حرام أو مكروه، فتحويل «الميضأة» القذرة إلى حنفيات حرام وذهاب للبركة. وقراءة كتب فى الجغرافيا أو الطبيعة أو الفلسفة حرام. ولبس «الجزمة» بدعة! فإن تحركت نفس للإصلاح خُنقت دعوتها فى مهدها ورميت بالزندقة. ومثل هذه البيئة تنتج عقولا جامدة ونفوسا خامدة، إلا أن يتداركها الله بمدد من الخارج. وقد ذكر الشيخ محمد عبده أنه حاول أن يغسل أثر هذه البيئة فنجح فى بعض وأخفق فى بعض. فإن رأيت نابغًا خرج منها فذلك برغمها لابفضلها. ومن الأسف أن ولاة الأمور من أولى الأمر، مع علمهم بنقص الأزهر وحاجته إلى الإصلاح - خوفا من العلماء والرأى العام - يتركونه وشأنه يأكل بعضه بعضا وأنشأوا بجانبه المدارس المدنية يشكلونها كما يشاءون.

فى هذا الجو عاش صاحبنا نحو اثنى عشر عاما: من سنة ١٢٨٢ - سنة ١٢٩٤ هـ حيث نال شهادة العالمية.

الإمام محمد عبده

للأستاذ الدكتور عثمان أمين

بند : ٤

١- قصتى مع الإمام

لى مع الأستاذ الإمام قصة طويلة لم تتم فصولها، وأرى من حق الإمام علينا، وربما كان من حقكم علىّ، أن أروى طرفا منها.

بدأ الفصل الأول من هذه القصة فى غضون سنة ١٩١٥، وأنا صبى من صبيان قرية مصرية فى نحو العاشرة من عمرى: «ونشأت فى بيئة دينية محافظة ومتسامحة أيضا. وأراد والدى أن أحفظ القرآن كما حفظه، فأدخلنى «كتاب» القرية، على عادة أهلها. ولكنى - فيما ذكرت والدتى - لم أمكث فى «الكتاب» إلا ساعة أو بعض ساعة، ولم ألبث أن تركته إلى غير رجعة، فرارا من «الفقيه» أو «سيدنا الشيخ»، حين أراد أن يغتصب ماكان معى من فطائر وحلوى! فرأى الوالد أن يقوم هو بمهمة تعليمى، وشرع فى تحفيظى «جزء عم»، مستعينا بتفسير الإمام محمد عبده. وقد كانت هذه أول مرة سمعت فيها اسم الأستاذ الإمام. وأحسب أن طريقته فى التفسير قد استهوتنى وأنا بعد صبى. ومن يدرى فلعل ما انطبع فى نفسى حينئذ من تفسير الإمام لآى الذكر الحكيم فى سور «الناس» و«الفلق» و«أبى لهب» و«الفيل» وغيرها من «جزء عم» - ذلك التفسير الذى لايحتاج فى فهمه إلا إلى «أن يعرف القارئ كيف يقرأ أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان - لعل انطباعا كهذا كان له أثره الجوانى القوى، حين اتجهت من نفسى بعد ذلك بنحو عشرين سنة، إلى اختيار «محمد عبده وآراؤه الفلسفية والدينية» موضوعا لرسالة الدكتوراه من جامعة باريس[١].

أما الفصل الثانى فتقع أحداثه فى الفترة بين مايو من سنة ١٩٢٩ ومارس من سنة ١٩٣٠، حين كنت طالبا بكلية الآداب بالجامعة المصرية. واسمحوا لى أن أنقل نص ماكنت قد قيدته عنها فى يومياتى الجوانية وسوانحى المطوية : «الثلاثاء ٢٨ من مايو ١٩٢٩ : أهدانى أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق نسخة من ترجمته الفرنسية لرسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، فعكفت على قراءة المقدمة الجميلة المستفيضة التى قدم بها للطبعة الفرنسية عن : أفكار محمد عبده وآرائه. ليت العارفين من علمائنا وأدبائنا

---

(١) انظر كتابنا : «الجوانيه أصول عقيدة وفلسفة ثورة» القاهرة ١٩٦٥. ص ٢٩ ، ٣٠.

يهتمـون بتراثنا الفكرى اهتماما جـادا دائبا، حتى يقدموه إلى العـالم الغربى فى الصورة اللائقة به، على نحـو ما رأينا من جهود أسـتاذنا الجليل فى رسالة التوحـيد. بارك الله صنيعه، وسدد خطى العـاملين (٨٩). وكتبت فى يوم ١٢ مارس سنة ١٩٣٠ : «طلبت من أستاذنا الدكتور منصور فهمى أن يـسمح لى بأن أعدّ تحت إشرافه بحثا فى «الأخلاق الإسلامـية فى رأى الشيخ محـمد عبده». فـرحب الأستاذ الفـاضل بهذا الطلب، وزاد فتـفضل فجعل الموضـوع ضمن مقـررات الدراسة فى مادة الأخلاق التى كـان يقوم هو بإلقائها على طلاب الفلسفـة. ذهبت توا إلى المكتبة لأحصر مافيهـا من مؤلفات الأستاذ الإمام، فلم أجد فيهـا إلا القليل. وعندئذ قررت أن أقتنى لمكتبتى الخصوصيـة مجموعة آثاره المنشورة كاملة، فبدأت بذلك، من حيث لا أدرى، عـملية شاقة عسيرة: كنت إذا وجدت : رسالة التوحيد، عند أحـد باعة الكتب، لم أجد عنده : الإسلام والنصرانية، وإذا وجدت : تفسيـر الفاتحة، لم أجد: تفسير جزء عـم. ولبثت على تلك الحال أياما بطولهـا فى رحلة إلى أقصى الدنيـا، أى إلى الدكاكين الصـغيرة المنشـورة هنا وهناك فى الأزقة والحارات، والمتاخمة لأروقة الأزهر الشريف! وأنفـقت وقتا وجهدا كثيرا فى هذه المحاولة البطولية، محاولة اقتناء مؤلفات أعظم قادة الفكر فى مصر الحديثة، وكأنما كنت أتعقب تاريخ رجل نشأ من قبائل : نيام نيام، أو فى بلاد تركب الأفيال! (١٠٣). وفى يومـية بتـاريخ ١٩ من مـارس ١٩٣٠ كـتبت : «لم لانـعنى بأعلام الفـكر عندنا عناية الغـربيين برجالهم فى كل مـجال؟ هـذا ديكارت حين أردت أن أدرس فلسفـته بنفـسى وجدت الفرنسـيين وقد مهدوا لى سبـيل البحث وجعلوه محـببا ميسـورا: اهتموا بطبع مؤلفاته كلها طبعات مختلفة عديدة، بين منفردة ومجموعة، وأكاديمية وشعبية. ووجدت هذه الطبعات جميعا فى مكتبة الجامعة، لايحتاج الطالب إلا إلى الرجوع إليها كلها متى شاء، أما نحن فى مصر فلم يقم بعد من يتولى طبع مجـموعة آثار الشيخ محمد عبده، ولو فى طبعة شـعبية واحدة. ترى أننتظر حـتى يقوم عنا بهذه المهمـة واحد من أفاضل المستشرقين، ويكتفى الأزهريون منا وغير الأزهريين بإنكار فضل هؤلاء الغربيين الأجلاء بدعوى أنهم إفرنجة وغير مسلمين؟ لقد آن الأوان لأن نكف عن مثل ذلك التنطع المريب والعبث الثقيل!» (١٠٤ - ١٠٥).

أما الفـصل الثالث فتـرجع أحداثه إلى ماقـبل خمس وعشـرين سنة، حين عشت التجربة الأليمـة نفسها، وتبينت مبلغ قلة العناية بقادة الفكر عندنا، فـعبرت فى رسالتى للكتوراه عن الأسـتاذ الإمام[١] - تلك الرسـالة التى نشـرت بالفـرنسـيـة سنة ١٩٤٤

(١) Muhammad Abduh, Essai sur ses idées philosophiques et religieuses, Le Caire 1944
«محمد عبده فى آرائه الفلسفية والدينية» (بالفرنسية)، القاهرة ١٩٤٤.

وصدرت الطبعة الأولى بالعربية سنة ١٩٥٥ تحت عنوان : «رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده»، وقلت فيها حينئذ ماترجمته: . . . وقد لاحظت، كما لاحظ غيرى، منذ زمان غير قصير أن الفكر المصرى الأصيل لم يحظ بما يستحقه من عناية الباحثين، إذ إن جمهرة المستشرقين، من أوربيين وأمريكيين، قد بهرتهم ذخائر الشرق، فشغلتهم دراسة ماضيه البعيد عن إطالة النظر فى حاضره أو ماضيه القريب، ورأيت، مع الأسف الشديد، أن أكثر أهل المعرفة من المصريين قد وقفوا من ممثلى الحياة العقلية فى بلادنا موقفا سلبيا فى بعض الأحايين، قليلى المبالاة فى أكثرها. . . »، وقلت فى خاتمة الرسالة: «محمد عبده من أبرز شخصيات التاريخ الإسلامى الحديث. وليس فى مصر من يجهل اسم الأستاذ الإمام الذى أصبح لقبا له وعلما عليه فى ديار الإسلام. ولكن يبدو لنا مع ذلك أن هذا الرائد للفكر العربى لم يعرفه قومه كما كان ينبغى أن يعرفوه، ولم يلق إنصافا من معاصريه، فمنذ أكثر من نصف قرن من الزمان، دفعت الأحقاد الشخصية أو الخصومات الحزبية بعض الناس إلى أن يرسموا للإمام صورا شوهاء تارة، مطموسة السمات تارة أخرى. وهى فى الأغلب صور إذا ارتضاها الفرض أو الخيال أنكرتها الحقيقة التاريخية. هذا إلى أن أكثر ماشاع فى مصر عن هذا الرجل العظيم قد تنوقل على سبيل التقليد السلبى والنظر السطحى دون فحص ولاتمحيص، فجاء مشوشا لم يرتب وفجا لم ينضج، وكانت نتيجة ذلك كله أن ذاعت عن الرجل أقوال متهافتة، هى أشبه بالعملة الجارية والرواسم (الكليشهات) السائرة، وفشت عن جملة أفكاره مزاعم باطلة وتأويلات واهية، تنقضها آثاره وتنكرها حياته نكرانا مبينا»[١].

٢ - أسباب تشويه الصورة:

ولعلى أستطيع اليوم أن أفسر أسباب هذا الموقف العجيب، موقف التجنى المريب، على الأستاذ الإمام، وعلى غيره من قادة الفكر فى ربوع الإسلام، فأرده إلى عاملين خطيرين تأثرت بهما، فى عصور الاضمحلال، أحكام الناس على ثمرات هذا الفكر ومنزلته وأصالته: وهما من جهة، تعصب الغربيين على العروبة والإسلام، نتيجة لتمكن رواسب «الصليبية» من نفوس الأكثرين منهم، حتى لدى من كان يظن فيهم أنهم أشد الناس تحررا من سلطان الدين، ومن جهة أخرى، عقدة النقص عند جمهرة المسلمين المتأخرين، نتيجة لخضوعهم - أجيالا طويلة - لإرادة الغاصبين والمستعمرين- وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين العاملين الخطيرين عاملا جديدا لايقل عنهما خطرا، وقد

(١) انظر «رائد الفكر المصرى»، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٥ ص ٢٦٤.



ظهرت آثاره البشعة في النصف الأول من هذا القــرن، بعد أن استشرى هذا الداء الوبيل على يد الزمرة الباغية من دعاة الصهيونية العالمية وتتلخص الأسباب فيما يلى:

(أ) التعصب : وشاهدى على حقيقة العامل الأول - (وهو مجاهرة كتاب الغرب بإنكار فضل العرب والمسلمين) - هو ما اعترف به فى عصرنا هذا أحد النابهين من علماء الأوربيين، فقد جاء على لسان العالم الفرنسى «جوستاف لوبون» فى ختام كتابه المشهور عن «الحضارة العربية» قوله : «ربما يتساءل القارئ : إذا كان شأن العرب كما رأينا، فما سبب المغالاة فى إنكار أثرهم من قبل علماء كان يظن أن تفكيرهم يسمو بهم عن كل تميز أو تعصب دينى. وجوابنا فى واقع الأمر أن الرأى المستقل المبرأ عن الهوى أدنى إلى أن يكون شيئا ظاهريا لاحقيقيا. وماكنا قط أحرار الفكر بصدد موضوعات معينة: فإن العصبيات التى توارثناها والتى تحملنا على أن نجاهر بعداوتنا للفكرة الإسلامية وأنصارها قد تراكمت لدينا قرونا طويلة، حتى أضحت جزءا من كياننا لاينفك عنا»[1].

(ب) عقدة النقص : وشاهدى على العامل الثانى (غلبة عقدة النقص على تفكير المستضعفين من الشرقيين والمسلمين) هو ما لاحظه من قبلنا السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ مصطفى عبد الرازق، أما جمال الدين الأفغانى فكثيرا ماكان يقول - فيما روى لنا المخزومى باشا : «يتخذ الغربيون فى الشرق أساليب عجيبة للقضاء على الروح القومى، وقتل التربية الوطنية، وتقويض الثقافة الشرقية، فتراهم يزينون للشرقيين أن ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة، ويلقون فى روعهم أنه ليس فى تاريخهم مجد يذكر، ويوهمونهم بأن قصارى المجد للشرقى النابه أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنه لايحسن التعبير بها، وأن ماتعلمه من الرطانة الغربية هو غاية مايستطاع بلوغه من الثقافة الإنسانية. ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لاجامعة لقوم لالسان لهم، ولالسان لقوم لاتاريخ لهم، ولاتاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم».

وأما الشيخ مصطفى عبد الرازق فقد عبر عن شعوره بالألم لقلة مايعرفه الشباب المصرى عن الأئمة من رجال النهضة العربية، إذ قال رحمه الله : «فى بعض سنوات الحرب (الأولى) شهدت فى الجامعة المصرية قبل ضمها إلى وزارة المعارف حفلة جمعت جمهرة من شباب العلم، وخطب فيها طائفة من كبار الأدباء وكبار الأساتذة. وكان يجرى على ألسنة الخطباء ذكر أئمة النهضة الحديثة فى مصر فى فروعها المختلفة من

(١) جوستاف لوبون : «الحضارة العربية» (بالفرنسية)، باريس.



سياسية واجتماعية وعلمية، فهتف الجموع وبلغ حماس الشباب أقصاه، حتى إذا جرى ذكر الشيخ محمد عبده خفت هنالك صوت الشباب وفترت حدة الهاتفين. انصرفت يومئذ حسيرا محزونا، أكاد أتهم بقلة الوفاء... بلداً ينسى فيه فضل الشيخ محمد عبده بعد سنين! لكن عتبى على شبابنا كان ممزوجا برحمة، لأنهم لم يعرفوا من أمر الرجل شيئا يغريهم بأن يحبوه ويقدروه حق قدره». وقال رحمه الله فى ختام محاضرته السادسة من سلسلة محاضراته عن الإمام محمد عبده : «هبت أعاصير الثورة العرابية، وأستاذنا رئيس لتحرير الجريدة الرسمية، وقد حوكم مع زعمائها، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر. ومعروف أن الأستاذ كتب مؤلفا لم يتم فى تاريخ الثورة، تأخر طبعه ونشره فيما تأخر إلى الآن من آثار الأستاذ التى لاتفتأ نطالب بنشرها فى أيديهم. ولو أتيح لنا الاطلاع على ذلك المؤلف لاستطعنا أن نبحث فى علاقة الشيخ محمد عبده بالثورة العرابية بحثا وافيا. ولقد ضنّ بعض صحابة الشيخ عبده ورفقائه فى ذلك العهد بما كنا نريده منهم من البيان فى مثل هذا الموضوع فعذرناهم. وما نملك إلا أسفا على فتور الهمم فى خدمة تاريخ رجالنا الذى يخدم تاريخنا القومى وحركتنا الإصلاحية، وإلا رجاء أن تكون الأجيال الناشئة أبر برجالها وأشد عناية بالإصلاح ورجال الإصلاح»[(١)]، وقد استهل الشيخ بحثه الطريف عن «الليث بن سعد» المصرى، بملاحظة من هذا القبيل فقال : «غير أن المصريين متهمون بأنهم يبخسون فضل أهل الفضل بينهم، على حين يمنحون الغرباء تقديرهم جزافا». فواجب علينا أن نبرئ من هذه التهمة قومنا، ومن وسائل ذلك أن نحيى ذكرى العظماء من أسلافنا، وأن ننصف اليوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم كل مايستحقون من إنصاف»[(٢)].

(ج) **تسلل الصهيونية** : وأما شاهدى على العامل الثالث (محاولة الصهيونية العالمية أن تهدم المنابر الشامخة المضيئة فى العالم العربى) فهو ماخبرته بنفسى، منذ عشرين سنة، حين قمت أثناء جولة لإلقاء محاضرات ثقافية فى المدن الفلسطينية، بالدعوة إلى إنشاء جامعة علمية عربية فى القدس تناظر الجامعة العبرية هناك، ثم ماتبينته، منذ أكثر من عشر سنوات، حين أتيح لى الاشتراك فى مؤتمر دولى نظمته جامعة «هارفارد»، من قوة نفوذ الصهيونية فى أجهزة الإعلام وفى الجامعات الأمريكية[(٣)]. وهل نحن بحاجة إلى أن يذكرنا بما نعرفه جميعا من مناورات سياسية

---

(١) مصطفى عبد الرازق : «محمد عبده» دار المعارف، القاهرة ١٩٤٦ ص ١١٩ ، ١٢٠.

(٢) مصطفى عبد الرازق : «الإمام الشافعى» (سلسلة أعلام الإسلام) القاهرة ١٩٤٥ ص ٧٢.

(٣) انظر مقالنا : «نفوذ الصهيونية فى الجامعات الأمريكية» فى مجلة منبر الإسلام، القاهرة. لم يشر إلى العدد، ولا إلى التاريخ وعذره أنه أعدّ هذه المحاضرة، وألقاها فى الخرطوم بعيداً عن مراجعه.

تقوم بها الصحافة فى أوربا وأمريكا، بتحريض من الصهيونية، كلما بدرت بوادر عمل إيجابى ينم عن اتجاه أقطاب العرب إلى بذل الجهود لجمع الشمل وضم الصفوف وتوحيد الأهداف؟

٣ - التحول العظيم :

ولكنى على الرغم من هذه العوامل كلها متضافرة، وعلى الرغم من ظهور بعض رواسبها على السطح من حين إلى حين، أرانى اليوم مغتبطا أوفر اغتباط بانتهاز هذه الفرصة، وأى فرصة أخرى، للتحدث عن الأستاذ الإمام، وهدفى من ذلك تحقيق أمرين: الأول قيام ببعض الواجب علينا نحو أمتنا، بالعمل الدائب لإحياء ذكرى النابغين من أبنائها، ولعلنا بذلك ندفع التهمة عن قومنا، ونستعيد بعض ماضيعناه. والثانى أداء لحق من حقوق الله علينا، بالشكر له على سابغ نعمته، إذ أيقظ الوعى المستنير لدى المفكرين منا، وأعاد إلينا ثقتنا بأنفسنا، حتى أصبحنا قادرين على أن نكتب بأيدينا تاريخنا، دون أن ننتظر أن يكتبه لنا غيرنا.

وكيف لا أغتبط اليوم وأنا أشهد تغيرا جذريا فى معرفتنا لأنفسنا، وفى نظرتنا إلى العالم من حولنا، وأستبين على اليقين صدق قوله تعالى : ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ... ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد].

ومن ذا الذى يستطيع أن يشك فى أن حالنا اليوم قد تغير عما كان عليه بالأمس، يوم كان أستاذنا مصطفى عبد الرازق - رحمه الله - يتحسر على جهل شبابنا بمآثر العظماء من أسلافنا؟ ويوم كان المتفرنجون من معاصرى «جمال الدين» يرددون فى كل مكان بأن كل مايقع فى الغرب جدير بالإعجاب، وأن أساليب الحياة الأوربية مبرأة من كل عيب منزهة عن كل نقد؟

وما أعظم الفرق بين نظرة شبيبتنا الجامعية فى أيامنا هذه، وبين نظرتها فى الربع الأول من هذا القرن! ولعلى لا أذيع اليوم سرا إذا قلت اليوم أننى - منذ ثلاثين سنة - قد لقيت من العنت والأذى ألوانا، لأنى تجرأت فاخترت «فلسفة محمد عبده» موضوعا لرسالة الدكتوراه من جامعة باريس.

فأين نحن الآن من ذلك الوضع، وقد أصبح اسم الأستاذ الإمام على كل لسان، وأضحى شرح تعاليمه فى جامعة القاهرة والجامعة الليبية وجامعة الخرطوم جزءا من برامج الدراسة فى الفلسفة المعاصرة؟ وظهرت عنه عشرات من الكتب الجادة بقلم مؤلفين من العرب، وكان أحدثها كتاب لشيخ الأدباء المرحوم عباس محمود العقاد سنة ١٩٦٢.

٤ - صورة مشرقة :

معذرة إذا كنت قد أطلت على القراء بتحليل جوانب لموقفنا من قادة نهضتنا، ولكن هذا مابدا لى أن أقدمه بين يدى الموضوع، قبل أن أحاول رسم المعالم المميزة لشخصية الأستاذ الإمام، وبيان الرسالة الجليلة التى اضطلع بها لإصلاح المجتمع العليل. ولعل فى هذا الحديث الوجيز تذكرة للعارفين وعبرة للناشئين.

وبدهى أن المقام يتسع لقول مستفيض فى سيرة محمد عبده، وفيما تضمنته هذه السيرة الجميلة من أعمال مشهورة وآثار مذكورة، سواء فى مصر أو فى ديار العروبة والإسلام.

ولكنى أكتفى هنا بأن أؤكد للقراء بأن صورة الإمام، كما تتبدى لنا بعد دراسة شخصيته والإحاطة بسيرته، قريبة الشبه بالصورة التى رسمها له من قدّر لهم أن ينعموا بلقائه أو يفيئوا إلى ظلاله، ومن فتح الله عليهم ففهموه، بالتعاطف العقلى والمشاركة من الداخل، لابتسجيل الأقوال، ورصد الحركات، كما تصنع بعض الآلات، ولابترديد أفكار «جاهزة»، أو أفكار «مجهزة» أو أفكار جاهزة حتى قبل أن تجهز.

فى ٣١ من يوليه سنة ١٩٠٥ كتب «هارولد سبندر» - كاتب حزب الأحرار الإنجليزى - كلمة رثاء للإمام بعد وفاته بثلاثة أسابيع، وصف فيها لقاءه له بدار صديقه «ويلفرد سكاون بلنت» بعين شمس، فقال : «هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام، والتفت فجأة لسماعه وقع حوافر فرس، فقال: هاهو الرجل. . فالتفت مثله، فإذا بصورة إنسان يقول الناظر إليها أنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين: شيخ حسن البزة، جهير الصوت، يمتطى فرسا عربيا كميتا جميلا، يقبل نحونا على مهل، وعليه الأردية الطويلة التى لاتزال تضفى على الإنسان فى بلاد الشرق رونقا ورواء، وفوق رأسه العمامة الكثيفة التى هى الوقاية الحقيقية من حر الشمس. ولما انتهى إلينا ترجل وتلطف فى تحيتنا، وتناول معنا فنجان شاى، وأنشأ يحادثنا بالفرنسية. وكان حديثه حديث مراقب مفكر، وقف يرقب الحوادث من مكان بعيد. وتمنى فيما سبق لوطنه أمانى كبارا، ولكنه تخلى عنها، وإن يكن من البين أن نيران غيرته القديمة كانت لاتزال مشتعلة فى نفسه. وكنت ألمح فى عينيه ذلك الابتسام المشوب بالكآبة والرحمة، الذى لايرى إلا فى وجوه من قاسوا كثيرا من الأهوال والشدائد»[(١)].

---

(١) محمد رشيد رضا - «تاريخ الأستاذ الإمام. . .»

وكتب عنه تلميذه ومريده السيد/ رشيد رضا فى مجلة «المنار» فقال: «إنه سليم الفطرة، قدسى الروح، كبير النفس. وصادف تربية صوفية نقية، زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى، وأعدته لوراثة هداية النبوة، فكان زيته فى زجاجة نفسه صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار»[1].

وقال عنه عباس محمود العقاد فى كتابه «عبقرى الإصلاح والتعليم»: «رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة، ورأيته مرات لاتحصى فى صوره الشمسية التى لاتلتبس إحداها بملامح صورة أخرى، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة إلى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير إليه: قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك أنهما تنازعتا يوما أو تتنازعان.. وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة، وهى فى طلعتها الإنسانية بشر مثلنا، وإن لم نكن نحن بشرا مثلها فيما تتلقاه من وحي الله»[2].

٥ - فتوة وفروسية

وإذا كنا نحن قد جئنا إلى هذه الدنيا متأخرين فى الزمان، فلم يواتنا الحظ برؤية الأستاذ الإمام، فلعلنا نستطيع - ببذل جهد من التأمل فيما تحت أيدينا من آثاره الوفيرة- أن نرسم له صورة جديدة هى أقرب إلى أن تكون «جوانية»، نتبين فيها ملامح «الفتوة»، الحقيقية، المتمثلة فى شجاعة الرأى وشهامة الخلق وكرم النفس، إلى درجة لم تكن معهودة فى البيئة المحيطة به، حتى قالت عنه جريدة «المقطم» يوم تأبينه : «لقد كان الإمام فى قلب بلاد الشرق، بلاد الخوف والرهبة والاستبداد، رجلا جرىء الفؤاد حر الضمير، يجاهر برأيه ويثبت عليه، ولايخشى بأس متسلط، ولايهاب صولة كبير. وقد جرّ عليه ثباته على رأيه، وجراءته وقلة خوفه ورهبته أهوالا كثيرة ومصائب ومحنا عديدة».

ويحلو لى هنا أن أورد بعض الأمثلة على سمات القوة والفتوة فى شخصية الأستاذ الإمام:

حدث مرة أن جاءه خطاب من مجهول، يهدده فيه بالقتل، فقرأه وابتسم، ورمى به غير عابئ بالتهديد. وركب ذات يوم فى عربته مع الشاعر حافظ بك إبراهيم إلى عين شمس، فقال له حافظ: «لو أننا فوجئنا الآن بهذا الذى أرسل إليك تهديده فماذا يكون موقفك ياسيدى؟». فأجاب على الفور : «إنى لأهنئ نفسى إذا وجدت فى مصر من يستطيع أن يقول فى وجهى أخطأت. فكيف بى إذا وجدت من يريد أن يقتلنى!».

---

(١) «المنار» المجلد الثامن، القاهرة ١٩٠٥.

(٢) عباس محمود العقاد . «عبقرى الإصلاح والتعليم» القاهرة ١٩٦٢.



وحادثة أخرى تدل على تأصل الفتوة الإسلامية فى مواقف هذا الرائد الكبير. أرسل الخديوا «عباس الثانى» إلى شيخ الأزهر يأمره شفويا بأن يرقى شيخا من المحاسيب إلى الدرجة الأولى، مع أن ذلك الشيخ لم يكن من كبار العلماء. فلم ينفذ شيخ الأزهر أمر الخديو، لمخالفته لقرار مجلس إدارة الأزهر. فاستاء الخديو استياء شديدا، وانتظر حتى اجتمع عنده علماء الأزهر فى إحدى التشريفات الخديوية، فقال لشيخ الأزهر بلهجة الاستنكار: «ألم آمرك بترقية فلان؟». فحاول الشيخ الاعتذار متلعثما، فما كان من الأستاذ الإمام إلا أن نهض من نفسه، وقال بصوت الشجاع الذى لايهاب قولة الحق: «إن القرار الذى قرره مجلس إدارة الأزهر هو التنفيذ لأمر الخديوى، لأنه؛ مقتضى مانص عليه القانون المتوج باسم سموه. وأما الأوامر الشفوية فلا شأن لنا بها» ثم سكت الإمام قليلا وقال فى شىء من النقد الساخر: «إذا شاء أفندينا أن تكون الترقيات العلمية بمقتضى إرادته، فليصدر بذلك قانونا ينسخ القانون الحالى، ومادة قانونية جديدة نصها: «ترقيات العلماء توجه إليهم بأمر منا»! فما سمع الخديوى هذا الكلام بمحضر العلماء حتى احمر وجهه من شدة الغضب، ووقف إيذانا للحاضرين بالانصراف.

ونحن لانرى فى مثل هذه الشجاعة فى إبداء الرأى ونصرة الحق تحديا ولا صلفا، ولكنها صراحة نفس، واستقامة ضمير، واعتزاز بالكرامة، عند رجل يأبى أن يتهاون فى أداء واجبه مهما تكن الظروف والنتائج.

ومن دلائل هذه الفتوة النادرة، فى عصر الإمام وفى كل عصر على الإطلاق، أنه كان يعطى من ماله بغير حساب، ويسرع إلى نجدة الناس فى الملمات، وكانت له معونات لمن نكبهم الدهر من أهل المروءات يبالغ فى كتمانها، وأكثر من هذا أنه كان يسعى لصاحب الحاجة، وهو يعلم أنه أساء إليه، وقدح فيه، وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته. روى بعض خاصة الإمام أن شابا أزهريا رقيق الحال كان يلوذ به. فأراد الإمام أن يعينه على أمره، فجاء ذات يوم وقال له: «إنى أريد لك الخير ياولدى. وقد فكرت أنك تستطيع أن تنال منه شيئا إذا طعنت علىّ وانضممت إلى خصومى» - فاعترض الشاب قائلا: «معاذ الله يامولاى! إن هذا محال»، فقال الإمام: «لا. ليس هذا بمحال، وإنى أنصحك جادا أن تشرع منذ اليوم فى كتابة المقالات بتوقيعك، فتملأها طعنا علىّ، ومهاجمة لى. عندئذ يلتفت إليك خصومى - وهم أقوياء وكثيرون - فيستميلونك ويساعدونك». وعمل الشاب بهذه النصيحة، وأخذ يهاجم الأستاذ، فعرفه الخصوم ومنحوه منصبا مرموقا..

وكان الشيخ محمد عبده يروى لأصدقائه هذه القصة ويعلق عليها ضاحكا وهو يقول : «والعجيب أن صاحبنا هذا، بعد أن اتبع نصيحتى ونال بغيته، لبث يهاجمنى بحرارة كأنه يؤمن بما يقول»!.

٦ - إحسان وإصلاح :

وفي الأبيات القليلة التى ألقاها حفنى بك ناصف فى رثاء الشيخ محمد عبده، لخص الشاعر المصرى السمات البارزة فى سيرة الإمام والخصائص المميزة لدعوته الإصلاحية التى ازدهرت فى العالم الإسلامى، أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر. قال الشاعر رحمه الله:

يقضى حوائج سائليه فلا يرى	فى نفسه سأما ولا استكبارا
ويعلّم الناس الأمانة والوفا	والصدق والإخلاص والإيثارا
ويظل بالإصلاح مغرى كلما	وجد السبيل إلى صلاح سارا
حتى كأن عليه عهدا للعلا	أن يصلح الأخلاق والأفكارا

وفى مستهل هذا القرن العشرين، كانت الشبيبة الإسلامية عموما، والشبيبة العربية خصوصا، فى حيرة من أمرها فى لجة هذا العالم المضطرب الأمواج، فأخذت تقلب البصر فى الظلام الكثيف، تتلمس بصيصا من نور، وتتطلع إلى رائد يرشدها ويهديها سواء السبيل. وسرعان ماوجدت رائدها فى شخص الأستاذ الإمام، فى شخص رجل قد زانته الحكمة، وصقلته الثقافة، وحنكته التجارب، دون أن تفقده حدة الذهن وتأجج العاطفة وعزمة الشباب، رجل عرف كيف يجمع بين القديم والحديث، ويؤلف بين العلم والدين، ويعيش لأمته قبل أن يعيش لنفسه ولأسرته، وبالإجمال رجل يحافظ على زى الشيوخ، ولكنه يحمل قلبا ورأسا لم يعهد الناس لهما نظيرا بين أصحاب الطرابيش ولابسى العمائم والقفاطين.

٧ - زعامة روحية :

والتفّت الشبيبة حول الأستاذ الإمام؛ لأنه كان بروحه الفتية أقدر الناس على استنهاض الشباب لتحقيق المبادئ العالية، وحفزه إلى بذل الجهود لتوخى سبيل الحق والخير والجمال؛ ولأنه كان بعلمه وإخلاصه أقدر الزعماء على تحرير الأذهان من زيف الآراء، وتصفية القلوب من زيغ المعتقدات. واستطاع الإمام أن يطبع فى نفوس معاصريه أعمق الآثار؛ لأنه وقف من المجتمع موقف الناقد الحصيف، فأعلن حقوق الفكر، ودافع

عن كرامة الفرد، وأيد مطالب الضمير، ورفع لواء الحرية، ودعا إلى «الاجتهاد»، وحمل على المقلدين، وحاول أن يبث فى نفوس المسلمين مكارم الأخلاق - التى هى المقصد الأسنى لرسالة الرسول - أخلاق الصبر والدأب، ومواصلة السعى وإتقان العمل، والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.. ومن حق الأستاذ الإمام علينا أن نقول : أنه هو الذى زود التفكير المصرى بالوحدة والانسجام، وطبعه بطابع الدقة والتحديد، وأنه هو الذى استطاع بقوة شخصيته وكتاباته أن يكون مصدر إلهام لرجال الدين والسياسة والاجتماع والفلسفة فى العالم العربى، فنشأت بفضله وانتمت إليه أربع مدارس مهمة فى هذه المجالات : الدينية ويمثلها محمد رشيد رضا، والسياسية ويمثلها سعد زغلول، والاجتماعية ويمثلها قاسم أمين، والفلسفية ويمثلها مصطفى عبد الرازق.

كان الشيخ محمد عبده رائدا من رواد الثورة المصرية، أودع السجن، وحكم عليه بالنفى مع العرابيين، وقاوم فى جريدة «العروة الوثقى» سياسة الاحتلال البريطانى فى وادى النيل، وندد بما يسمى «الاتفاق الودى» (L'Entente Cordiale) المعقود بين إنجلترا وفرنسا على حساب الشعوب العربية، وعارض مطامع الخديوى عباس الثانى، وفضح مساوئ حكم الوالى محمد على، وسعى إلى إصلاح الأزهر، ودعا إلى إنشاء الجامعة المصرية، ودأب على إيقاظ الوعى القومى الصحيح، المتمثل فى أداء الواجب نحو الأمة، والاعتزاز بكرامة الإنسان، وبذل جهده ووقته فى سبيل بعث الروح الإسلامية الأصيلة، مناديا بتحرير الفكر من قيد التقليد، وتطهير الإسلام من أوهام العوام، وتصفية العقيدة من شوائب الجهالة.

وإن الآراء الحرة التى جهر بها، منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، عن التربية والتعليم، وعن نظم الحكم، وعن العدالة الاجتماعية، وعن الصلة بين العلم والدين، وعن موقف الإسلام من الفنون، وعن مركز المرأة فى المجتمع - هى آراء لم تتخلف عن العصر، ولم تخلق الأيام جدتها، بل إننا نراها اليوم تعود أشد ماتكون قوة وحياة وإلحاحا.

أما أثر الإمام فى العالم الإسلامى فنستطيع اليوم أن نقول مطمئنين أن النهضة الفكرية التى انتهت بتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى هى امتداد لأفكاره الإصلاحية، وأن المدارس التجديدية الكثيرة، فى أفريقيا الشمالية والهند وباكستان وإيران والصين وآسيا الشرقية الجنوبية، شاهدة بفضله مرددة لذكراه.

٨ - قضية الإصلاح :

وقد قلنا وكررنا القول فى كتاباتنا العديدة عن الأستاذ الإمام أن قضية الإصلاح «الجوانى»، إصلاح العقيدة والعقلية والأخلاق، هى الرسالة الأولى التى اضطلع بها ذلك المصلح الفيلسوف، وأن هذا الجانب من التربية الإنسانية هو الذى حظى بكل اهتمامه فى حياته الخصبة النافعة الهادية، فهو يكافح العادات والتقاليد السيئة، وينقد البدع والمعتقدات الفاسدة، ويحمل على الظلم والاستبداد، ويندد بجميع الانحرافات الاجتماعية والسياسية، ويبذل السعى للوصول لإصلاح مناهج التعليم الأزهرى، ولإصلاح المحاكم الشرعية. . يتصدى لذلك كله بغية إصلاح الأخلاق فى الجماعة الإسلامية عموما، وفى المجتمع العربى خصوصا.

ولكنه من جهة أخرى كان مقتنعا أشد الاقتناع بأن السياسة مادخلت شيئا إلا أفسدته. وقد أشار فى «رسالة التوحيد» إلى الأضرار التى لحقت بالعقائد الدينية حين تغلغلت فيها الأهواء السياسية. فأورثت المسلمين شقاقا وخلافا، ثم إن جمهرة البلاد الإسلامية، سواء كانت مستقلة أو تحت حكم الأجنبى المحتل أو المستعمر، لم يكن لها فى ذلك الحين إلا حكومات ظالمة مستبدة ، فمحاولة تأييد سياسة معينة، أو مناوأة سياسة أخرى، عن طريق الدين أو العلم، تكون عاقبتها شرا على الأمرين جميعاً، ومن الخير للمصلح أن يستغل لمطالب الإصلاح بعض الاستعدادات الطيبة عند أصحاب السلطان.

ولكن الأستاذ الإمام، على الرغم من حبه وإيثاره لرسالته كأستاذ للشباب ومربّ للنفوس، وعلى الرغم من انصرافه عن السياسة الحزبية، لم يكف قط عن إبداء رأيه فى المشكلات العصرية الكبرى من سياسية واجتماعية، فنهض بعبء ذلك الكفاح الروحى الموصول، الذى يكفل للمفكر حق الإشراف على سير المجتمع فى عصره. وحسبنا أن ننظر فيما قام به الأستاذ الإمام من نشر المؤلفاتىأو كتابة المقالات، وأن نعتبر ما ألقى من دروس فى تفسير القرآن أو تقويم اللسان، وما بث من إصلاح فى القضاء أو فى التعليم أو فى الإفتاء حسبنا على الجملة أن نقدر ما بذله من الجهود الإصلاحية الصادقة فى مجالات الأخلاق والدين والاجتماع، لنقر بأنه استطاع أن يخدم الحقيقة وأن ينفع الأمة خيراً من أولئك المجاهدين المزعومين، الذين لم يكونوا فى الغالب سوى سياسيين محترفين مهرجين[(١)].

---

(١) انظر «رائد الفكر العربى» ص٢١٩

٩ - تحية المنصفين :

هذا خلاصة ما بسطنا القول فيه منذ سنين فى رسالتنا عن فلسفة محمد عبده. ويسرنا اليوم أن نوجه أصدق التحية إلى جميع الكتاب والمفكرين الذين أنصفوا ذلك الإمام الكبير وقدروا رسالته إلى الأمة العربية حق قدرها، ويسرنا بوجه خاص أن ننتهز الفرصة لنحيى ذكرى إمام الأدباء فى هذا العصر، عباس محمود العقاد، إذ استطاع - رحمه الله وجعل الجنة مثواه- أن يهدى إلى العربية سيرة محمد عبده : عبقرى الإصلاح والتعليم دروساً حية قيمة للشبيبة الواعية العاملة[١].

ونحمد الله أن أتاح لهذه الأمة من ذوى البصيرة والأريحية، من أمثال رشيد رضا، ولطفى السيد، وقاسم أمين، ومصطفى عبد الرازق، وعباس محمود العقاد، ممن أدوا إليها رسالة التنوير كاملة، فعرفت بفضلهم أن هذا الرائد العربى الكبير كان من الدعاة «المتشهدين»، الذين قد يخسرون حياتهم وحياة ذويهم، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة، فتظفر فى نهاية مطافها بكل شىء، حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية كما قال العقاد عن الحسين بن على «أبى الشهداء»[٢].

وأن الشبيبة العربية الواعية لتدرك اليوم فى وضوح أن أهم رسالة ينبغى أن نقوم بها فى فترة تجميع طاقات الانطلاق التى نشهدها فى هذه السنين، هى العودة إلى تراثنا الروحى نتعمقه ونستلهمه، والإصغاء إلى رواد الوعى عندنا نتلقى عنهم ونهتدى بهديهم.

١٠ - بين السياسة والإصلاح :

ومن المعلوم لمن تتبع تاريخ محمد عبده، مستنداً إلى مصادره الوثيقة، لا إلى الأرجاف والظن والتخمين، أن الرجل كان منذ البداية وطنياً مخلصاً، وفدائيًّا رشيداً، اشتهر فى مراحل حياته كلها بأخلاق الفتوة والفروسية، فكان هو الواضع لبرنامج «الحزب الوطنى» الذى طالب، قبل قيام الثورة العرابية بإقامة الحياة النيابية، وإطلاق الحريات الفكرية، وتحسين حال الفلاح، وإلغاء «السخرة» والتخلص من نظام الطبقات. ومعلوم أيضاً باعتراف الإنجليز أنفسهم أنه كان «الروح المدبر للثورة»، على حد تعبير كرومر عميد الإنجليز فى مصر. ومعلوم كذلك أنه كان قد قرر - بتحريض من أستاذه

(١) انظر تعليقنا على كتابه فى «المجلة» عدد مارس ١٩٦٢.

(٢) عباس محمود العقاد «أبو الشهداء» فى سلسلة كتب الهلال ص١٧٥.



السيد جمال الدين - التخلص من استبداد الخديوى إسماعيل، وأكثر من هذا أنه فكر تفكيراً جديًا فى قتله، وهذا أيضاً مستقى من مصادر إنجليزية[(١)].

ولكنه لما عاد من المنفى بعد استتباب سلطة الاحتلال فى مصر وجد أن السبيل الصحيح إلى الإصلاح لايكون عن طريق السياسة كما كان يرى أستاذه جمال الدين بل عن طريق التربية والتعليم، فوجه همته إلى هذا المجال ورسم لذلك كله خطة شاملة : وهى أن يوطد صلاته باللورد كرومر، ليستعين به على تنفيذ مشروعاته الإسلامية التى كان يناوئها الخديوى عباس - باسم الدين.

وبدهى أن الأستاذ الإمام لم يكن فى هذا الموقف ممالئا للإنجليز، بل بالعكس كان الإنجليز يريدون استمرار سياسة «دنلوب» فى قصر التعليم على الكتاتيب، وكان الإمام يعارض هذه السياسة أشد المعارضة، ويدعو إلى تعميم المدارس المدنية وإنشاء جامعة مصرية، فهل نلغى عقولنا ونقول مع القائلين بأن الأستاذ الإمام كان صديقاً لكرومر وكفى!

ونحن نعلم علم اليقين بأن شخصية الأستاذ الإمام هى التى أرغمت سلطة الاحتلال على احترامه وتقديره، فى الوقت الذى أعلن فيه كرومر ازدراءه للخديوى نفسه ولزمرة العملاء من المأجورين أو المنافقين؟[(٢)].

وما أحرانا فى هذه المسألة أن نذكر للمرحوم العقاد مواقفه المشرفة فى الرد على تخرصات المتخرصين، ممن درجوا فى هذه السنين على التهجم بلا حرج ولاحياء على ذكرى رجل عظيم القدر قليل النظير فى نهضتنا الوطنية «علّم مواطنيه صفوة القومية الصادقة، ونادى بمبدئها الصحيح : مصر للمصريين، يوم كانت السيادة العثمانية قبلة كثير من المتخبطين بالدعوة الوطنية على غير هدى!». ونحسب أن أولئك المتهجمين الظالمين محتاجون إلى أن يتريثوا ويتدبروا دروس التاريخ وليعلموا أن الأستاذ الإمام هو أول من طالب المحتلين بإسناد مناصب الوزارة إلى الوطنيين الفلاحين، وأبلغ ذلك إلى الوكالة البريطانية بوساطة المستشرق الأيرلندى «ولفرد سكاون بلنت» سنة ١٨٩١، قبل أن يرتفع صوت واحد من دعاة الأحزاب فى الصحافة أو الخطابة»[(٣)].

---

(١) ولفرد بلنت : «التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز لمصر» «بالإنجليزية» لندن ١٩٠٧ وكرومر : «مصر الحديثة» م٢ لندن ٨ ١٩ص ١٧٩ - ١٨١.

(٢) كرومر : «عباس الثانى» (بالإنجليزية) لندن ١٩١٥ ص ٦٩ - ٧١.

(٣) العقاد فى «اليوميات» «الأخبار» عدد ٢٣ من نوفمبر ١٩٦٠.

١١ - طريق الفيلسوف :

ولم يكن محمد عبده إماما عصريا من أئمة المسلمين فحسب، بل كان كذلك فيلسوفا على المعنى الصحيح: نظر إلى الفلسفة نظرة قديمة وجديدة فى آن واحد، فمن ناحية، أخذ الفلسفة على معنى ممارسة الفضائل الأخلاقية، وهداية السلوك الإنسانى، ومن ناحية أخرى، أدرك أن التفكير الفلسفى لاينبغى أن يظل محصورا فى مجال النظر الصرف، وأنه لايستطيع أن يعطينا عن الوجود شعورا صحيحا، إلا إذا ألقى بنا فى معترك الدنيا، وإلا إذا اضطرنا أن نتحمل مسئولية شخصية بإزاء كل مايحدث فيها.

من أجل هذا رأى أن الخطوة الأولى فى كل مسعى فلسفى وكل إصلاح حقيقى هى تنبيه الوعى وإيقاظ الضمير، واستثارة روح النقد تمهيدا للفهم. فلا عجب أن نراه فى جميع أقواله ورسائله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة «التقليد»، أى تقبل آراء الغير دون المطالبة بالدليل، ودون الالتفات إلى حق كل شخص فى استقلال النظر، وأن نراه دائم الإشادة بمبدأ «الاجتهاد»، أى الفكر المتحرر من كل عائق، وشديد الحملة على المقلدين، حتى لنجده يصفهم أحيانا بما يقرب من انعدام الإيمان والمروق من الدين. وهو لايكف عن التنبيه إلى أن أبواب الاجتهاد لاتزال مفتوحة لجميع المسائل التى تثيرها ظروف الحياة المتجددة: فإن فكرا يكون مقيدا بالعادات مستعبدا للتقليد، لهو فكر ميت وليس له قيمة: «الفكر إنما يكون فكرا له وجود صحيح، إذا كان مطلقا مستقلا، يجرى فى مجراه الطبيعى الذى وضعه الله تعالى إلى أن يصل إلى غايته». وهذا البحث الحر، أو هذه «الحاسة الناقدة» - باصطلاح الفيلسوف «كانط» - هى فيما يرى الأستاذ الإمام الخاصية الإنسانية على الحقيقة، خاصية الناطقية، أى هى مايميز «الحيوان الناطق» عن سائر الحيوان. إنها بعبارة أخرى : الشجاعة فى طلب الحق، تلك الشجاعة التى تجعل طالب الحق صابرا ثابتا لاتزعزعه المخاوف، وتجعل المرء عزيزا كريما، بعيدا عن أوهام العوام، محطما لأصنام السوقه. وبهذه الشجاعة «يكون الإنسان حرا خالصا من رق الأغيار[١]، عبدا للحق وحده». وبها يتيسر للإنسان أن يعرف الرجال بالحق ولايعرف الحق بالرجال، كما قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

---

(١) لى عبارة بذات المعنى أكررها فى كتبى وهى «الحرية هى إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبدا لغير الله».

١٢ - المجتمع والأخلاق :

وقد كان الإمـام مفكرا أخلاقيا بطـبعه وفطرته، ميالا إلى العـمل ميله إلى النظر، يريد دائما أن يتصل بالناس، وأن يخاطب الضمـائر، وأن يؤثر فى النفوس أثرا مباشرا. ولقد آمن محمد عبده، كما آمن الغـزالى من قبله، بأن الأخلاق الإنسانية قابلة للتغير، وكلاهمـا فنّد مزاعـم من ذهبوا إلى أن الأخـلاق لاتتغـير، وأنها «مـن مقتـضى المزاج والطبع» فقـال الغزالى : «لو كـانت الأخلاق لا تقبل التـغير لبطلـت الوصايا والمواعظ والتأديبات»، ولما قال رسول الله ﷺ : «حسنوا أخلاقكم». ويقول الأستاذ الإمام : «إن بذور الخيـر التى يلقيها الهـداة المرشدون فى نفوس الناشـئين لابد أن تنمو وتغلب بذور الشر التى أصيبوا بها من البيئة؛ ولأن الحق دائما يغلب الباطل - والخير يصرع الشر، إلا إذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضـاعوا فى كثرة الأشرار». ويقول أيضا : إن الله قد أودع فى فطرة الإنسان التمـييز بين الخير والشر، وأقام له من وجـدانه وعقله أعلاما تدله عليهما، «فالله تعالى لم يجعل الـشر أحب إلى أنفسنا من الخير، كما يزعم بعض أهل النظر فى الأخلاق الإنسانية».

ومهما يكن الأمر فإن حياة الإنسـان لاتكون أخلاقية إلا بقدر ماترتفع عن المصالح الفردية وتستهدف مصلحة المجتـمع؛ لأن الحياة الأخلاقية لايمكن أن توجد لدى الإنسان إلا من أجل الجمـاعة وفى نطاق الجماعـة. وهذا ماعناه الفيلسـوف المصلح، حين وجه اللوم الشديد إلى بعض رجال الدين الذين قصروا عن فـهم الأركان الأساسية للأخلاق الإسلامـية: أنهم فقدوا الإيمان بالله «لأنـهم أخذوه اسما، واكـتفوا به علما ورسـما». وليس بينهم مايدل على تضـامنهم أو الثقة فى أنفسـهم. فهم لايحيون حيـاة عصرهم، ويجهلون مـايدور حولهم، ويعتـزلون الناس فى مجـتمعهم، ولـم يعد لديهم أمل فى النهوض ببلادهم.

ولايسـتطيع الإنسـان أن يعـمل للناس مـالم تربطه بـهم أسبـاب الود والتـآلف والتـعاطف. ولكن ينبـغى فيـمن يتصـدى للهداية الأخـلاقيـة أن يتوافـر فيه الـصدق والإخلاص، فـإن روح الصدق والإخـلاص روح مشـترك بين العلم والأخـلاق، وهذا الروح يتضمن استقلال الحكم وحرية الإرادة. ويقول الإمام فى دروس الإفتاء : «لأجل أن يتـرك الإنسان أثرا فى العـالم يحتـاج إلى شيـئين مـهمين، وهـما الإخـلاص وقوة

الأخلاق». وإذن فرجل الأخلاق يتعين عليه أن يبدأ بمهمة شاقة، وهى أن يصلح نفسه وأن يجاهدها بكبح جماعها، والسيطرة على شهواتها. وهذا مايسمى فى الاصطلاح الإسلامى المأثور «جهاد النفس»، وهو عند الأستاذ الإمام مرادف لسيادة الإنسان.

وإذا كان الإمام يلح على ضرورة النصح الأخلاقى العام، ويراه فرض عين لافرض كفاية كما يقول فقهاء الإسلام، فذلك لأنه كان يعتقد أن الخير شىء مفطور فى طبيعة الإنسان، وأنه «لايحتاج إلا إلى تذكرة وتنبيه لكى يظهر للعيان».

١٣ - العمل محك الصدق والإخلاص :

والناظر فى التراث الفكرى الذى خلفه لنا الأستاذ الإمام يتبين بجلاء أن الروح التى ألهمته خلال فترات نشاطه كلها، هى روح العمل البناء الذى كان يراه أمثل طريق إلى تقدم الأمة تقدما موصولا. و«العمل» عنده هو السبيل القويم لنيل الفضائل، فإن أول صفات الفضيلة هى الإيجابية والفاعلية. والأعمال هى المحك الصحيح للصدق والإخلاص. ومن أقواله فى ذلك: «الدليل على صدق الإنسان فيما يدعيه من الإخلاص أن يبذل من نفسه فى سبيل غيره، فإن لم يبذل فهو كاذب. ومهما يبلغ الإنسان، ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير مخلص». ولذلك كانت أعز أمانيه لهذه الأمة «أن يكون الفعل فيها أكثر من القول، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا، كبيرا كان أو صغيرا، مجدا فى نيل الفضيلة الثابتة حتى يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها، حتى تكون بذاتها شاهدا على أهلية صاحبها لما يقول».

١٤ - إنسانية الإمام :

ومحمد عبده فيلسوف عصرى حقا، إذا راعينا الاتجاهات العامة لفكره. وهو شديد القرب منا، من حيث إنه يعبر عن طبيعة يسودها الشعور الأخلاقى، ومن حيث إنه يجعل لذلك الشعور السبق على الجدل المدرسى والمماحكات الكلامية.

وإذا استثنينا الغزالى، لم نجد من بين فلاسفة الإسلام أحدا قبله أوتى استعدادا نفسيا كهذا. فبدلا من ذلك الإيمان المسرف بقدرة العقل وقضايا الذهن - ذلك الإيمان الذى نلحظه عند ابن سينا مثلا - نجد عند محمد عبده اتجاها هو أدنى إلى أن يكون إنسانيا، فهو لايغترف من معين الجدل إلا بقدر واعتدال.

على أن الأستاذ الإمام لم يكن من «القطعيين»، لا فى الفلسفة ولا فى الدين: فبينما كان ابن سينا يلتزم جانبا واحدا من الحقيقة يناصره، ويذود عنه، كان محمد عبده

على نقيضه قليل الثقة بالمذاهب المغلقة، يريد أن يمدّ بـصره إلى مايمكن أن يسمى حقيقة «مفتوحة» - بتعبير الفيلسوف المعـاصر «برجسون»، وبالتالى إلى حقيقة أوسع وأكثر ثراء وخصوبة. من أجل هذا بدت لنا نظرات الإمام فلسفة ضافية، تنطوى على عناصر القوة والمرونة معا، وترحب بما لانهاية له من إمكانيات المستـقبل: فإذا كان ابن سينا قد يروقنا بمذهب محبوك محكم التأليف، فمـحمد عبده يروقنا ولاشك بما أظهر من روح الاتزان والشعور الأخلاقى، والنزوع الإنسانى، على نحو ما يتجلى لنا بصورة رائعة فيما خلف لنا من فكر وعمل.

ومن أجل ذلك كله كان الرجل خليقا أن يحـيا بيننا بفكره الملهم لأعماله، وبذلك الأثر الجميل الذى طبعـته روحه المخلدة، لافى تلاميذه المباشـرين فحسب، بل فى عدد من المفكرين، لم يروه ولكنهم عرفوه بآثاره، فقدروه وأحبوه.

١٥ - دعوة تنوير مقصدها التحرير:

وما من شك فى أنه كان للأستاذ الإمام أكبر الأثر فى توجيه حركات التجديد التى لاتزال إلى يومنا هذا تزداد على الأيام نمـوا وازدهارا، بفضل دعـوة «التنوير» التى بدأها فى مصر، وامـتدت إشعاعـاتها إلى ربوع العالم الإسلامى، حـتى صح لنا أن نقول مع قاسم أمين: «نعم كان للإمام الكبير الذى فرض على نفـسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثـيرون. وهم جيش الجهل المركب من عـامة الناس الذين لم ينالوا من التربيـة والعقل مايؤهلهم لأن يدركوا مقاصـده ويفهموا مباحثه، فاقتصـروا على التمسك بما وجد عليه آباؤهم من قبل.. فكان الأستاذ الإمام يحـارب هذا الجيش الطويل العريض بقوة وعزيمة يحار العقل فيهما. ولكنه كان يدافع بقدر الضرورة ولايتعداها، ويحارب حرب الشجاع الكريم الذى لايطعـن من الخلف ولايخـدع ولايغش. وكـان فـضـلا عن ذلك لايكره خصومه ولايبغض أعداءه، وإنما يناقش أفكارهم، وينقـد أوهامهم، ويهدم معتقداتهم، ويرجو لهم الهداية، ويرشدهم إلى الصواب».

ولانزاع اليوم فى أن «عبقـرى الإصلاح والتعليم» - كما دعاه فقيدنـا الكبير عباس العقاد - هو طراز ممتاز من علماء المسلمين.

وإذا كان قد استحق لقب «الأستاذ الإمام» فذلك لأنه لم يكن إماما فى شئون الدين فحسب، بل كان إماما فى أمور الدنيا أيضا.

ولايخفى أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية، على نحو ماعهدنا فى سيرة ذلك المصلح الفيلسوف، هو الجوهر الخالص من تعاليم الإسلام».

نظرات فى مذكرات الأستاذ الإمام

بند ، ٥

محمد عبده - والأسرة العلوية

أبدأ فأقول: إن الاستبداد شر كبير، ولايمكن أن ينبت فى تربته إلا المر والحنظل وهذا، وعلى سبيل المثال، محمد على الذى صار بالمكر والغدر أميرا على مصر، وبعبارة أصح الذى صار إقطاعيا كبيرا، على «إقطاعية كبيرة» هى مصر، فأول مايتبادر إلى ذهنى هو مقارنة بين ما حدث فى اليابان[1] - على سبيل المثال وما حدث فى مصر فى اليابان حكم الإمبراطور، وبنى وشيد من أجل اليابان وشعب اليابان، وجاء من بعده من أباطرة وحتى اليوم، والإمبراطور وشعبه يبنون ويبنون، ويجدون فى البناء ويجدون. واليابان اليوم إحدى أغنى وأقوى دول العالم. وهى - على التحقيق - أغناها وأقواها اقتصاديا، أما محمد على، فإنه إذا كان قد عمل وعمل، فإنه فعل مافعل كإقطاعى عمل لنفسه، ولمن يرث الإقطاعية من ذريته. لقد كان شعب مصر غائبا عن باله، وإذا ذكره (هو ومن جاء بعده) فإنما ليسخره ويستغله ويستذله. وأحد أحفاده (توفيق) هو الذى قال لممثلى شعب مصر (تسانده وتحميه القوى الأجنبية): (إنكم عبيد إحساناتنا) - قالها فى ميدان عابدين، وفى يوم عابدين الشهير (٩/٩/ ١٨٨١).

وأعود وأقول : فليقل القائلون عن محمد على مايشاءون، أما كاتب هذه السطور فيرى أن مايقوله فيه شيخنا الإمام هو الأولى بالثقة.

وهذه قطوف مما كتبه :

قال : (٥٤ ومابعدها) - جاء الجيش الفرنسى (الحملة الفرنسية على مصر) - دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها، احتل عاصمتها. وأخذت القوى الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر، وبدأت المناوشات والمقاومة تشتد ضد جيش الاحتلال، ولم يهدأ لرؤساء العساكر الفرنسية بال. وهذا ماكتبه نابليون فى تقاريره إلى حكومة الجمهورية الفرنسية. كان العربان يصطادون عساكره من كل طريق، ويسلبونهم أرواحهم بكل سبيل مما اضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها، راجيا من وراء هذا تهدئة أهلها. وأخيراً - ودون الدخول فى التفاصيل- حملت الحملة الفرنسية عصاها ورحلت. وظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر.

ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها أو ماذا صنع محمد على؟

«كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضىء لرؤساء الهيئات والطوائف والفئات -

---

(١) وبدايات النهضة اليابانية معاصرة لعهد محمد على.



طرقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم. وكان من الممكن أن يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم مابلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده، أو كانت البلاد تنتظر أن يأتى أمير عالم بصير فيضم العناصر الفاعلة القوية فى البلاد بعضها إلى بعض، ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها. ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقى سلم المجد خطوة بعد خطوة، وتبلغ مرادها.

ونعود ونقول : ماذا صنع محمد على : لم يستطع أن يُحيى، ولكن استطاع أن يميت !! كان معظم الجيش معه. وكان صاحب حيلة ودهاء بفطرته. فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من «الأحزاب» (أى الطوائف) على سحق كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً ويمحقه. وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه همه ودهاءه إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها أحداً. واتخذ من دعوى المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين. إن نزع سلاح الرجل يعنى سلبه شجاعته. لم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل حتى انحط الكرام وساد اللئام. ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال. أما جمع العساكر بل والتلاميذ، فكان يتم بالطريقة التى نسميها الآن «زوار الفجر» فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وإرادة. وحول مصر إقطاعًا كبيرا له ولأولاده. واشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى. ووسيلته لذلك الاستعانة بالأجانب، الذين استقدمهم من بلادهم (أوربا)، وأوسع لهم فى الامتيازات التى جاوزت ماسبق من معاهدات. حتى صار كل صعلوك منهم فى مصر ملكا يفعل مايشاء. وانقلب الوطنى غريبا فى داره. واجتمع على مصر وأهلها ذلان : ذل ضريبة الحكومة الاستبدادية. وذل التسلط الأجنبى الذى جاوز كل شريعة وانتهك حقوق الإنسان، كإنسان! وإذا قالوا عُنى بالرى، فإنما كان ذلك لرى إقطاعه؛ وإذا قيل عُنى بالطب، فمن أجل الجيش والكشف على المجنى عليهم حينما يراد إيقاع الظلم بهم.

أقول : وفى كتابى «فى إصلاح التعليم الأولى» إشارة إلى كتاب كان قد أرسله إلى ابنه إبراهيم، يحذره فيه من أن يقع فيما وقع فيه ملوك أوربا من نشر التعليم بين الشعوب، فثارت عليهم وأسقطتهم من فوق عروشهم! وكان لمحمد على دولة، وكان للدولة رجال، ولكن ليسوا من المصريين، وإنما كانوا إما من الأرنئود أو الجراكسة أو الأرمن المورالية. وكان هؤلاء جميعا يحكمون بما يهوون، لايرجعون إلى شريعة ولا إلى قانون. وإنما يبتغون مرضاة الأمير، صاحب الإقطاع الكبير. ومع كثرة البيوت المصرية رفيعة العماد، فلم يكن لها بين رجاله مكان. وفى بعض كتبى ذكرت فى حالة كهذه مرت بمصر هذا البيت:

حرامٌ على بلابلها الدوح   حلال للطير من كل جنس

وفى صفحة ٥٩ يقول شيخنا الإمام: أين مدارس الفنون الحربية؟ وأين الذين نبغوا من طلابها، فإن وجدنا، فهل هم من المصريين؟ عدوا، إن شئتم أحياءً أو أمواتا!!

تُرجمت كتب كثيرة فى مختلف العلوم والفنون. ولكن هذه الكتب أودعت المخازن من يوم طبعت، وأغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا، فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، أو تقليل ثقلها عنها، فنشرتها بين الناس، فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا على أنها ترجمت تنفيذًا لرغبة بعض الرؤساء الأوربيين بقصد نشر آدابهم فى البلاد، لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ولامنتفعين بتلك الكتب!!

سبق أن أشرت إلى أنهم كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق والقرى، فهل هذا مما يحبب الناس فى العلم، ويرغبهم فى إرسال أولادهم إلى المدارس، كلا. بل كان يخوفهم من المدرسة، كما كان يخوفهم من الجيش.

علم الشبان الهرب من الجندية، وعلم آباءهم وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت وكانوا لايعودون فعلا إلا نادرًا[1].

أقول : شهدت عهد الاحتلال الإنجليزى لمصر، وفى ظله كانت القيود العديدة التى تكبل أيدى المصريين، فلا يكون لهم إلا جيش (اسمى) قليل العدد ردىء التسليح. وكان لايجند إلا من لايستطيع دفع البدل (٢٠ جنيه على ما أذكر)، وكثير من هؤلاء كانوا يُحدثون فى أنفسهم العاهات حتى يفلتوا من هذا الشىء البغيض. وكان الآباء والأمهات ينوحون وينتحبون إذا وقع أبناؤهم فى هذه الشباك!

وتحدث شيخنا (ص ٦٠ ومابعدها)، وتحت عنوان «الزراعة والصناعة»، وكان مما قال: حمل الأهالى على الزراعة، ولكن ليأخذ الغلات. ولذلك كانوا يهربون من امتلاك الأطيان، كما يهرب الناس من الهواء الأصفر والموت الأحمر وبغَّضَ إلى المصريين المعمل والمصنع لأنهم كانوا مسخرين، وضحية استبداده بهم، وبثمرة عملهم. وكانوا ينتظرون الوقت الذى لايعاقبون فيه على هجر المصنع والمعمل. وأقول: ما ألعنها من حياة حرمت الإنسان من حريته فى اختيار عمله، ومن الراحة والاستمتاع بها، مما لايتحقق إلا بتحديد ساعات العمل. وهو مالم يتحقق للعمال إلا من وقت قريب، والقافلة تسير!

الجيش والأسطول : يقولون إنه أنشأ جيشا كبيرا، وأسطولا ضخما. لكن هل

---

(١) أشار شيخنا إلى ماكانت عليه الحال فى عهد المماليك (أى قبل عصر محمد على) حيث كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء، ويحاربون لايبالون بالموت، أما فى عهد من يزعمون أنه محرر مصر فما كان ينتهى سجنهم إلا بالموت!

علّم المصريين حب التجنيد؟ هل كان الجيش جيش مصر، والأسطول أسطولها، كلا، بل كانا ملك ظالمهم وعدوهم المستبد بهم. وليقل لنا أنصار الاستبداد، كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغوا رتبة البكباشى (مقدم)؟ ولقد كان لذلك فى نفوس المصريين أسوأ الأثر. لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت!! وظهر ذلك الأثر حينما دخل الإنجليز لإخماد ثورة عرابى. لقد دخلوها كما يدخل أى إنسان على قوم دون استئذان!! بعكس ماحدث عند دخول الفرنسيين مصر، إذ قامت ضدهم، وثاروا عليهم حتى رحلوا عنهم.

الدين والأوقاف : أى دين كان دعامة لسلطان محمد على؟. إنه دين تحصيل الضرائب بالكرباج والبطش. وليقل لنا أى قائل: أى عمل لمحمد على ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى؟!!

أقول : إن الإسلام دين الرحمة. وقلب محمد على وأفعال محمد على كانت كلها ناطقة بالقسوة، قسوة دونها قسوة الحجارة!!

وهذا مثل أذكره: كان المعلم غالى قد قدم لمحمد على تقريرا، بين له فيه ثقل عبء الضرائب، وتعذر تحصيلها. فأمر به فقتل شر قتلة. وكان من بشاعتها أن انخلعت قلوب كل من شهدها. (وهى واقعة ذكرها فتحى باشا زغلول فى كتابه «المحاماة»)، أما عن الأوقاف فيقول: أخذ ماكان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشىء من النقد لايساوى جزءا من الألف من إيرادها. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه فى السنة(١).

وقصارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط، وماتوا على ذلك. كان محمد على تاجراً زارعا، ومستبدا ماهراً، لكنه كان لمصر قاهراً، ولحياتها الحقيقية معدما.

الخديو إسماعيل : (٢)

كان المصريون قبل سنة ١٢٩٣ هـ(٣) يرون شئونهم العامة والخاصة ملكًا لحاكمهم الأعلى ومن ينوب عنه فى تدبير أمورهم. . يتصرف فيها حسب إرادته. وكانت

---

(١) لقد كتب الأستاذ الإمام ماكتب منذ نحو قرن من الزمان. وهذا النصف مليون يساوى مئات الملايين من الجنيهات الآن!

(٢) ص ٦٣ ومابعدها. وحديث شيخنا هنا حديث معاصر للأحداث.

(٣) سنة ١٢٩٣ هـ توافق ١٨٧٦م التى وقعت فيها الحرب العثمانية - الروسية، وكان لها مع يقظة جمال الدين أثرها.

سعادتهم وشقاؤهم موكولين إلى أمانتــه وعدله أو خيانته وظلمه. ولايرى أحد منهم أن من حقــه أن يرى رأيا فى إدارة شئون بلاده. أو فكرة يتــقدم بها فى عمل من الأعــمال يرى فيها صالحا لأمته. ولاعلاقــة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مملوكون لها مصرفون فيما تفرضه عليهم. وكانوا بعيدين غاية البــعد عن معرفة ماعليه الأمم الأخرى، شرقية كانت أم غــربية. ومع سفــر البعض منهم إلى البــلاد الأوربية، وماجــاورهم من البلاد الإسلامــية (أيام مــحمــد على وابنه إبراهيم) لم يشــعر الأهالى بشىء من ثمــرات تلك الأسفار، ولافوائد المعارف التى حصلوا عليها.

وقد أنشــأ إسماعيل مــجلس الشورى فى مصر عــام ١٢٨٣هـ. ومع أن الغاية من إنشائه أن يكون للأهالى رأى فى شئون بلادهم يرجع إليه الحاكم، فإن أحدا منهم، ولا من أعضاء المجلس نفسه كان له ذلك الحق؛ لأن إســماعيل قيده فى النظام وفى العمل، أما عن النظام فــقد قيــده بالنص على أن المجلس ينحصر عــمله فيمــا تراه الحكومة من اختصاصه، ومــايعن لها أن ترسله إليه للتداول فيه. وأما فى العــمل فلأن الخديوى كان يرسل عند المداولة من يخبر الأعــضاء بإرادة جنابه السامى؛ فيقررون مــايريد بعد مداولة صــورية، فكان المصــريون فى ذلك الحين يشــعرون بأن الإرادة المطلقــة هى التى كــانت ولاتزال تصرفهم فى آرائهم. وهل كــان فى استطاعة أحد أن يعمل بخــلاف مايأمر به؟ هل كان يجوز لشخص أن يميل بفكره عن الــطريق التى رُسمتْ له، أو عن الوجهة التى يتوجه إليها الحاكم، لو أن الفكر السليم حــدّثه بأن هناك وجهة خيرا من تلك الوجهة؟! هل كان يمكنه أن ينطق بمــا حدثه به فكره؟ كلا.. إنه كان إلــى جانب كل لفظ نفى عن الوطن، أو إزهاق للروح، أو تجريد من المال!. وبينما الناس على هذه الحال.. لاكاتب ينبههم، ولاخطيب يوقظهم، إذ عرض شىء قلما يُلْتَفَت إليه، ولاتحوم الأفكار حواليه. وإن كان مما يعرض فى كل مكان، وجرت به السنة الإلهية فى كل زمان.

نهضة جمال الدين:

جرت سنــة الله فى خلقه أن عظائم الأمــور تتولد من صــغارها، كــما أن ضــخام الأشــجار تنبــثق من بذورها. جــاء إلى هذه الديار[1] سنة ١٢٨٨هـ رجل بصيــر فى الدين.. إلى آخره.

---

(١) فى الهامش، ص ٦٥ مــايلى : نزل جمال الدين الأفــغانى مصــر فى أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ٢١/ ٣/ ١٨٧١م، وقــد ولد فى كابل ١٢٥٤ هـ - المــوافق سنة ١٨٣٨م وهو أكبــر بأربع سنوات عن الشــيخ مــحــمــد عبــده الذى ولد فى ســنة ١٢٥٨ هـ- الموافق ١٨٤٢ م. وفى هذا الهامش خطأ فالشيخ عبده ولد عام ١٨٤٩ وتوفى عــام ١٩٠٥م عن حوالى ستة وخمسين عامًا، فالقول بأنه ولد عام ١٨٤٢م خطأ.

الشيخ محمد عبده فى شبابه

بند : ٦

بالصفحة الخامسة من أهرام ١٨/٨/١٩٩٣م حيث مركز تاريخ الأهرام «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» - (الحلقة ٦ من سلسلة المقالات التى يكتبها د. يونان لبيب رزق) يوم الخميس من كل أسبوع.

نقرأ العناوين التالية : «مجاور الأزهر - الذى أسس صفحة الرأى». ويلى ماتقدم العناوين التالية «تنوير البصيرة وتطهير السريرة! التمدن يعود إلى مصر بعد رحلة إلى الغرب! الدعوة إلى نبذ جميع التعصبات الدينية، والاختلافات المذهبية. الدماء المصرية تضخ فى عروق الأهرام - الدعوة إلى أن يقف كل من بنى النوع على أفكار الآخر التى قد كابد عليها وثابر. وعلى ذات الصفحة صورة للشيخ محمد عبده فى شبابه - (بالعمامة والجبة والقفطان، ولحية سوداء). وصورة أخرى تحتها مايلى : «حلقة من حلقات دروس الأزهر فى القرن الماضى).

وبعد ذلك نقرأ للدكتور لبيب (أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس) : «فى العدد الأول من الأهرام توجه محرره بالدعوة إلى أصحاب «الأقلام البليغة أن يزينوا من وقت إلى آخر جريدتنا بما يسطرونه من بديع الكتابة والحِكَم والفوائد التى يلتذ باجتنائها كل ذى ذوق سليم»!

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت صفحة الرأى تفرض نفسها على الجريدة الوليدة التى كان مكانها المختار فى إحدى الصفحتين الثالثة أو الرابعة أو كليهما فى وقت لم يكن عدد صفحات الأهرام يتجاوز الأربع.

ومن بين الأعداد الأربعة الأولى احتل «العالم العلامة والأديب الفهامة الشيخ محمد عبده» أحد المجاورين بالأزهر - كما وصفته الجريدة - مكان الصدارة فى الصحيفة. فقد كتب فى اثنى عشر عدداً من الأعداد الأربعين. ولم يكن هذا المجاور سوى الأستاذ الإمام الذى لعب دوراً مؤثرا فى التاريخ المصرى بعدئذ.

أقول : وبينما كانت كتابات «مجاور الأزهر» علامة بارزة بالنسبة للأهرام خاصة صفحة الرأى فيه، فإنها كانت الباب الذى دخل منه محمد عبده إلى عالم الصحافة الذى اكتسب فيه مكانة رفيعة، فقد انتقل بعد سنوات قليلة إلى «الوقائع المصرية» ليحررها ثم يرأس تحريرها فى مطلع الثمانينيات (من القرن التاسع عشر). تبع ذلك وبعد نفيه فى أعقاب الثورة العرابية، أن أصدر من باريس هو وأستاذه السيد جمال الدين

الأفغانى «مجلة العروة الوثقى» التى اكتسبت صيتًا عريضا. باختصار فقد كان الأستاذ الإمام أول من دخل الديوان، وتربع فيه قبل أن يصبح أستاذًا وإماما، وإن كان على وشك! كان عُمر محمد عبده حين بدأ فى الكتابة فى الأهرام لايتجاوز السابعة والعشرين (١٨٤٩ - ١٨٧٦) - وكان على وشك الحصول على العالمية التى نالها بالفعل فى العام التالى (١٨٧٧)، غير أن الأهم من ذلك أنه كان قد انخرط قبل ذلك فى الحياة العامة من خلال انضمامه إلى المجموعة التى تحلقت حول السيد جمال الدين الأفغانى بعد أقل من عام من وصول السيد إلى مصر (١٨٧٢)، أى قبل أربع سنوات من كتابته فى الأهرام. معنى ذلك أن «محمد عبده» قد جاور بالثلاثة : الأزهر بوجوده، ومقر السيد جمال الدين بعقله، وديوان العالم الحديث (أى الأهرام) بقلمه. وبينما تكثر المعلومات عن مجاورته للجامعة الإسلامية العتيدة، أو للمفكر السياسى البارز، فإن المعلوم عن مجاورته «لديوان الحياة المعاصرة» قليل رغم أهميته.

تصدر هذه الأهمية فيما نراه من أن المقالات الأربع التى كتبها الشيخ فى الأهرام، بين العدد الخامس والعدد الأربعين كانت ذات دلالة بالغة بالنسبة للطرفين: الأهرام والكاتب: بالنسبة للأهرام لم يجد القائمون عليه مايمنع من أن يحتل مجرد «مجاور بالأهرام» يراسل الصحيفة من القاهرة، من أن يحتل كل هذه المكانة فى الجريدة الوليدة. وقد رأى هؤلاء منذ المقال الثانى للرجل أنه أكبر كثيرا من أن يوصف «بالمجاور» لما تعنيه الكلمة من أنه مازال فى مرحلة «التلمذة» وأخذت تصفه بعد ذلك «بأحد أهل العلم بالجامع الأزهر» كما فتئت تسبغ عليه الألقاب المناسبة : العالم العلامة، الأديب الأريب. وما إلى ذلك. فضلا عن ذلك فإنه كان يعبر عن رغبة واضحة من جانب الديوان بأن يكون القاعدون فيه أساسا من المصريين. لقد أدرك أصحاب الأهرام منذ ذلك الوقت المبكر أن صحيفتهم لن تعيش دون أن تضخ فى عروقها الدماء المصرية[1]. ومن هنا جاء إعطاء كل هذه المساحة «لمجاور الأزهر» الذى أصبح بعد قليل أحد أهل العلم، أما الأهمية بالنسبة للطرف الثانى الشيخ عبده فتصدر من أن الأهرام قد أفسح له كل هذه المساحة التى أعطته الفرصة لأن يقدم لونا جديدا من الأفكار لم يكن معهودًا من المصريين أن يعشقوه، ناهيك عن أن يعبروا عنه![2].

---

(١) فأصحاب الأهرام شوام، وباقى «الكوكبة» من كتاب ومراسلين شوام، بل وأغلب المشتركين شوام. كل ذلك كان بطبيعة الحال - يؤدى إلى أن يحتكر الشوام الصفحة (هكذا!) - وهو فيما يبدو مالم يرق لأصحاب الأهرام.

(٢) أشار صاحب الديوان إلى أن يعقوب صنوع وجريدته «أبو نظارة» وأديب إسحاق وصحيفته «التجارة» قد خاضا فى أمور من تلك التى خاض فيها الشيخ عبده، من مجلسه فى الديوان، ولكنهما كانا من غير المصريين. فضلا عن أنهما ليسا من المشايخ المعروفين بالاتجاه المحافظ.

يقول صاحب الديوان: ونرى أن مجمل الأفكار التى عبر عنها الشيخ عبده فى مقالاته التى نشرت فى الأعداد الأولى هى التى لفتت الأنظار للرجل، ووضعت الأساس لشهرته التى نالها بعد ذلك، الأمر الذى يتطلب إعادة قراءة هذه المقالات، وبعد مايقرب من قرن وربع من الزمان.

وربما يكون المقال الأول من المقالات الأربعة التى كتبها محمد عبده أكثر المقالات شهرة، مع أنه أصغرها، فقد نشر على عدد واحد، وهو مالم يحدث لأى مقال آخر. ومصدر هذه الشهرة أنه قد أتيح له فرصة إعادة النشر فى «مركز الأهرام للترجمة والنشر» عام ١٩٨٦م. والذى وضع هذا المقال فى صدر المقالات التى تضمنها والتى أعطاها عنوانا من عندياته : «الأهرام. . . جريدة مؤسسة على أحكم قواعد الأحكام» لأنه كان فى أصله من غير عنوان. غير أنه فى تقديرنا أن المقال الثالث الذى حظى بمساحة واسعة من الجريدة (ستة أعداد) هو أهمها، وهو مقال غير معنون، شأن مقالات الصحف فى ذلك العصر؛ وإن كان الأستاذ أحمد أمين فى كتابه المعروف «زعماء الإصلاح» قد أعطاه عنوانا من عندياته وكان «المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى». ونرى أن هذا المقال يمثل العمود الفقرى، ليس فحسب بالنسبة إلى سلسلة المقالات التى أسس من خلالها الشيخ محمد عبده صفحة الرأى فى الأهرام، وإنما فى وضع القسمات الأساسية لطريقة تفكير المصلح الكبير والتى لم يحد عنها كثيراً مابقى من حياته، وكانت قصيرة ولكنها كانت عريضة. . أخطر القضايا التى طرحها «مجاور الأزهر» النجيب كانت قضية العلوم النقلية والعلوم العقلية التى كانت محرمة حتى ذلك الوقت دراستها فى الجامعة الإسلامية العتيدة. وأقول : وبعد أن يروى الشيخ الفتى قصة شخص (كأنه هو) والطموح الذى استقر فيه، وماصاحبه من رغبة فى التغيير، وما لاقاه من البعض من معارضة ومقاومة، ونقد، والنصح له بعدم الخروج على المألوف عند الشيوخ من معاصريه، ومن سبقهم فى الماضى القريب[1]. ويقول صاحب الديوان : «ويسفر الشيخ عبده فى موقع آخر من المقال عن كونه من أول دعاة الحركة العقلانية (Rationalism) فى مصر التى كانت قد استوت تماما فى أوربا خلال القرن الثامن عشر. وللحركة العقلانية مجموعة من السمات المعروفة: - عدم الاستسلام لأفكار الأقدمين دون وضعها موضع النقد ومايتبع ذلك من غلبة الفكر السلبى على الفكر القائم على القبول

(١) مع أنه منذ ألف عام وفى عهد ازدهار الفكر الإسلامى عامة، كان الذى يدعو إليه من حركة عقلانية هو السائد والمألوف

بأفكار السلف مهما كـان كنهها - تحكيم العقل باعتبـاره أعظم هبة للإنسان دون الجرى وراء الغيب[1] - وأخيرًا «علوم الطبيـعة» قبل علوم ماوراء الطبيعة - الميتـافيزيقا. وهو ماعـبر عنه مـحمد عـبده بالضبط فى هـذا المقال الطويل. رفض الشيخ الأخـذ بالعلوم النقلية على حـساب العلوم العقليـة، هذا جانب، والجانب الآخر هو الخـاص بالترويج لعلوم الطبيـعة على حساب علوم ما وراء الطبـيعة، وقد خـصص مجاور الأزهر لذلك قسما مـستقلا. ويثير الاهتـمام فى هذا القسم أنه قد اختار نفس نقطة البـداية للاهتمام بتلك العلوم التى استهل بها الأوربيون حركتهم النهـضوية (وأساسها الحركة العقلانية): التطلع إلى السماء، ورصد النجوم وحركتها، واستخراج أسرار الطبيعة ونظامها البديع الذى كان زادًا لاينقطع عن علماء الرياضيات والفيـزياء. باختصار كان الفلك هو الباب الذى دخلت منه أوربا إلى عـالم الطبيعـة، وهو مانبـه إليه شيـخنا بقوله: «إن المقـصد الأعلى للعقل هو استكشاف أسرار الوجود، وذلك مقام لايعلو عليه شيء!!

ويشير إلى حِسِّ البصر كوسيلة للإدراك، هل كان من الممكن أن يتمكن العقل دون البصر- من اسـتقبال وَقْدِ الضِّيا، واستطلاع سكان الفضا، (يقـصد الأبراج، والأفلاك والكواكب والنجوم) ويتحدث شيخنا - كذلك - عن الفـوائد الكبيرة من معرفة تراكيب الحيوانات على اخـتلافها وتناسب أعضـائها وائتلافها، وينتهـى من كل ذلك إلى التنبيه على أهمية التواصل العلمى مع العـالم المتقدم «حتى يقف كل من بني النوع على أفكار الآخر . . .

أقول : فـيمـا تقدم إشـارة إلى السُّنن الكونية، وإلى مـسائل صـارت الآن «علوما مـستـقلة» - كعلم «الأحـياء» (أى الحـيوان والـنبات) - وعلم الفلك، وآلات الرصـد الحديثة، وعلوم طبقات الأرض، ومايضمه جوفها. .إلخ.

هذا من جهـة، والجهة الأخرى هـو عدم الانغلاق عمـا لدى الغير مـادام نافعـا - «والعلوم» «كلهـا» مـيراث الإنسـانيـة كلهـا. والتعـاون فى هذا المجـال أو المجـالات واجب عقلي ودينـى ﴿ . . . **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** . . . ۝٢﴾ [المائدة]. إنه ركب الحضارة، ولاحضـارة بلا علم. وإذا كانت الحضارة - عندهم علمـا فقط، فـهـى عندنا علم وتقوى. إن القـافـلة تسـيـر، ويجب أن يكون للمسلمين والشرقيين إسهام كبيـر فيها.

---

(١) كلمة (الغيب) توضحها العبارة التى بعدها، أى مـاوراء الطبيعة، وليس «الغيبيات» التى نؤمن بها (انظر الآيات الأولى من سورة البقرة) على سبيل المثال.



وأعود وأنقل عن صاحب الديوان (الدكتور يونان لبيب رزق) - قال : الأطروحة التى قدمها محمد عبده فى هذا المقال الصادر فى الأهرام يوم ٢/٩/١٨٧٦ تقوم على ثلاث ركائز : الأولى تقوم على أساس أن التمدن البشرى أول مابزغ بزغ فى مصر، فكان أبناء العالم إذ ذاك يتندّون نداها، ويستجدون جداها، ويستمطرون من الغيث قطرات، فكان التمدن فيها نهرًا حين كان عند غيرها طفلا. . الركيزة الثانية تدور حول فكرة انتقال هذا «التمدن» إلى الغرب حيث عم انتشاره وتلألأت أنواره. . والركيزة الثالثة يقول فيها شيخنا: «استدار الزمان كهيئته، ورجع الأمر إلى بدايته، وعاد التمدن إلى مسقط رأسه. . إنها بضاعتنا ردّت إلينا. وأقول : إذا كان ذلك كذلك، وهو كذلك، فلا شيء فى أن ننقل عن غيرنا كل مانحتاج إليه، وتكون فيه فائدة لنا. وبعبارة أخرى، هيا، هيا إلى العلم، والعلم الحديث، الموجود الآن عند غيرنا. إننا إذا لم نفعل جمدنا، رجعنا إلى الوراء فى وقت تقفز الشعوب المتقدمة - إلى الأمام - قفزًا.

وبعد إشارة إلى تخلف الشرق[1]، قال : إن ما أوصله إلى ذلك هو تفرق الآراء واختلاف الأهواء. مما جعله يدعو قومه إلى نبذ جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية، لحماية أوطانهم من وطأة أعدائهم. وأطماعهم. إن هذا المقال صدر فى الأهرام فى ٣ فبراير سنة ١٨٧٧ ، وبعد أقل من ست سنوات احتلت بريطانيا مصر. وكأنما كان الشيخ الشاب يتنبأ بما سيحدث!!

لقد كان محمد عبده واعيًا للهدف من مقالاته، وهو هدف استمر يتوخى الوصول إليه فى كتاباته فى الوقائع المصرية، وفى العروة الوثقى. يقول الرجل فى إحدى هذه المقالات: إن هدفه منها هو بث الأفكار بين الناس لتكون سببا فى تنوير البصيرة، وتطهير السريرة، وتحرك فيهم حمية الغيرة.

أقول : أى أنه كان يرمى إلى خلق رأى عام مصرى مستنير، قوى واع، يخشاه الحكام فلا يستبدون، والأجانب فلا يعتدون، بل ولايفكرون فى الاعتداء عليه. ولكى تكون الثمرة دانية، والنتيجة مؤكدة اختار الصحافة، فهى الأوسع انتشارا ورجح جريدة الأهرام؛ لأنها «مؤسسة على أحكام قواعد الأحكام الكافلة بإرشاد المسترشدين. . والقائمة بنشر العلوم بين العموم. . . إلى آخره.

ويتبادر إلى ذهنى، وأنا ألخص هذا المقال، بيت من قصيدة طويلة قالها المرحوم على بك الجارم أحد العظام الذين خرجتهم دار العلوم، وصاحب قصة «غادة رشيد»

---

(١) ومنه مصر والعرب وأكبر التجمعات الإسلامية. وكانت دعوة شيخنا الأفغانى، وكان جهاده فى سبيل الشرق، مع المساواة التامة بين الجميع وبغير أى تفرقة بين مسلم وغير مسلم، وكان هذا نفسه هو مذهب تلميذه وصديقه الأول محمد عبده.



(وهو رشيدى على ما أعلم) - والبيت قاله فى رثاء زميله ورصيفه «المرحوم الشيخ أبو الفتح الفقى» قال :

من كان فى الخمسين فخر بلاده   قد كان فى العشرين فخر لذاته

وهذا البيت يصدق فى أستاذنا الإمام. لقد كان بحق فى الخمسين فخر بلاده كما كان - وهو شاب - فخر الشباب جميعا!!.

من الجوانب الاجتماعية

فى حياة الأستاذ الإمام

بند: ٧

يحرص الأستاذ رجاء النقاش - فى مقاله الأسبوعى بجريدة الأهرام - على أن يتحف قراءه بالتأريخ[١] لما أهمله التاريخ. وجهده فى هذا الاتجاه ظاهر ومشكور.

ومقاله بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٥ (ص ٢٣) - جعل عنوانه «الشيخ والصالون» والمراد بالشيخ هو الشيخ محمد عبده، أما الصالون فهو صالون الأميرة نازلى فاضل، ذات المقام الرفيع، والمنزلة المرموقة عند الجميع، من المصريين وغير المصريين. وهؤلاء وهؤلاء من صفوة المجتمع، بل صفوة الصفوة من النابهين والمثقفين، وذوى الشهرة الواسعة والجاه العريض، ومنهم - كما سيأتى بعد - سعد زغلول وقاسم أمين.

ويقول الكاتب الكبير إنه حين زار «متحف بيت الأمة»[٢] القائم فى مواجهة ضريحه الفخم، لفتت نظره صورة معلقة فى حجرة نوم سعد، ظنها صورة زوجته، ولكن الفنان صلاح عيسى الذى كان يصاحبه قال له: «إنها صورة الأميرة نازلى فاضل!». فمن هى هذه الأميرة التى كانت لها كل هذه المكانة فى قلب سعد، زعيم ثورة ١٩١٩ التى لم تعرف مصر نظيراً لها لا من قبل ولا من بعد!؟ إنها نازلى مصطفى فاضل، ابنة الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديوى إسماعيل.. وقد كان المفروض أن يصبح مصطفى فاضل وليا لعهد إسماعيل وحاكما لمصر من بعده، ولكن إسماعيل استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من الرشوة والدسائس وغير ذلك لكى يغير نظام الوراثة للعرش، فبدلا من أن يكون للأكبر من أسرة محمد على جعله إسماعيل مقصوراً على أولاده وأحفاده.

---

(١) وفى أعلى (١) بهمزة فوق الألف التى بعد التاء للأستاذ الإمام يرحمه الله.

(٢) وقد كان قبل ذلك مكان سكن سعد وأسرته، وفيه نشأ على ومصطفى أمين اللذان يمتان بصلة قرابة بسعد من جهة أمهما.



والحاكم الذى جاء بعده هـو ابنه توفيق. وفى عهده، وبخيانتـه تم احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م. ومما يقوله الأستاذ رجاء فى مـقاله، بعد إشارة إلى أقلام مجردة من النزاهة جـرت بالطعن فى الأستـاذ الإمام - يقول فـيه: «إنه إمـام المسلمين الأعظم فى القرن العشرين، صـاحب النور والجلال والعبقرية الروحية والعقلـية» : والأستاذ الإمام «الذى كان على صلة وثيقة بالأميرة هو الذى قدم إليها شخـصيات أخرى كثيرة ومهمة، وعلى رأس هذه الشخصيات سعد زغلول وقاسم أمين».

ومن الأمانة الواجبـة التى لم تفت الكاتب الفاضل إشارته إلى مـرجعه الأول الذى استمد منه ماجـاء فى المقال من معلومات هو بحث دقيق للأستاذ الدكتـور السيد فهمى الشناوى[1] الذى قال- مما قـال : إن مصطفى فاضل، والد نازلى هو الذى حـول قصره إلى مدرسة، أصـبحت المدرسة الخديوية القديمة، وكـان صاحب أكبر مكتبـة خاصة فى مصر أصبحت فيما بعد هى دار الكتب المصرية، ومعظم كتبها من عيون الأدب والتاريخ العربى. وكـان مصطفى فاضل محبوبا من المصريين لموقفـه من إسماعيل، ولانـصرافه للعلم والأدب دون السياسة. وقد انعكس الجـو الأدبى والفكرى الراقى الذى نشأت فيه نازلى فاضل على سلوكها، ففتحت فى قصرها الذى كان قائما إلى جوار قصر عابدين، مكانًا أو صـالونًا يلتـقى فـيـه أهل العلم والأدب من صـفـوة المصـريين الأصـلاء فى مصريتهم، ومنهم - فضلا عمـن سبق ذكرهم- إبراهيم المويلحى. لقد كان هذا الملتقى يحتـضن الفكر الحر والتقـدمى، بل والثورى، ولولا هذا مـاتردد عليه الفيلسـوف الثائر جمال الدين الأفغانى، وتلميذه الصحفى الثائر (الشامى الأصل) أديب إسحاق.

يقول الدكـتور الشناوى: إن صالون نازلى فـاضل كان أول صالون أدبى فى مـصر الحديثة. وكان رواده يتناولون ويتدارسون فضلا عن الأدب وفروعه - أحوال البلاد ذاتها سياسيا وفكريا، كما كانوا يتابغون الكتب الأجنبية، ويفندون كل مايجىء فيها من مزاعم مما يمس مصر، وينشرون هذا كله وعلـى نفقة الأميرة، سواءً كان مايردّون عليـه كتبا أو مقالات فى الصحف بلغـة عربية أو فرنسية. كلّ هذا دون أن تتـباهى الأميرة أو تمن به على شعب مصر.

ويقول الأستاذ رجاء - نقلا عن الدكتور الشناوى: سبق القول بأن الشيخ عبده هو الذى قدم «سعد زغلول» للأميرة التى اختارته محامـيا لها، وكان لها فى حياته أثر كبير جدا فـهى التى شجـعته على تعلم الفـرنسـيـة، ثم هى التى زوجته مـن «صفيـة» كريمة مصطفى باشا فهمى (رئيس وزراء مصر لمدة ١٥ عـاما) فلاح مصرى ابن فلاح مصرى،

(١) كانت مهنته الطب، وهوايته تاريخ مصر.

يتزوج من تركية، ابنة تركي، وأرستقراطي كبير. إن وراء هذا شيئًا، تبينته الأميرة، وهو شاهد كبير على فطنتها وبعد نظرها. لقد اكتشفت في سعد، وفي وقت مبكر، مقومات الزعامة! ونسيت صفية لقبها التركي، وحملت اسم صفية زغلول. وكانت له نعم الزوجة، وكانت للمصريين نعم الأم؟! وإذًا، وليس بعجيب أن يضع سعد صورة الأميرة العظيمة في غرفة نومه! نعم عظيمة. ولكن التاريخ نسيها، وذكر الوصيفات في بيت فاروق!

وننتقل إلى علاقة الأميرة، وأثرها في حياة قاسم أمين الذى كان من أحب الناس لمحمد عبده وأقربهم إليه[1]. عاد قاسم أمين من بعثته في فرنسا، وهو يحمل صورة براقة للمرأة الفرنسية، وأخرى قاتمة للمرأة المصرية. وأخذ يكتب في «المؤيد» (أشهر الصحف المصرية الوطنية وقتئذ) - مقالات يحمل فيها على المرأة المصرية، ويدعوها إلى أن تبقى حبيسة البيت، وألا تخوض في الشئون العامة.

وطبيعي أن تغضب الأميرة نازلي، وأن تغضب أشد الغضب، وطلبت من الشيخ محمد عبده أن يصطحب معه إليها الأستاذ قاسم أمين لكي تناقشه بالحسنى، بدلا من الرد عليه علنًا. وحضر قاسم مجلسها، ووجدها تتكلم عدة لغات، منها الفرنسية، وأنها على دراية واسعة بالشئون العامة الداخلية والعالمية، وعرف كذلك من يشاركون في صالونها، وهم من القمم! وكان هذا كله كافيا لكي يعود إلى عكس ماكان يدعو إليه، وبحماس! إنّ المرأة المصرية وقتئذ، كانت تفوتها الفرصة، فرصة التعليم. والسبب في ذلك هو الرجل! وهكذا ظهر الكتابان السابق ذكرهما «بفضل الشيخ محمد عبده والأميرة نازلي».

وهذه شهادة للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق[2] الذى كتب بحثًا عن أثر المرأة في حياة الشيخ عبده. يقول فيه: «إن صالون الأميرة نازلي فاضل كان مجتمعا للعظماء وقادة الرأى في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وقد اتصفت هذه الأميرة

---

(١) حتى قال البعض: إن الأستاذ الإمام هو مؤلف الكتابين اللذين صدرا يحملان اسم قاسم أمين وهما «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» - والواقع غير ذلك، فالكتابان من تأليف قاسم أمين، غير أن الأستاذ الإمام زوده بأفكاره، بل وسانده إذ ذكر له استعداده لتقديم الأدلة الشرعية على ماذهب إليه!

(٢) ١٨٨٥ - ١٩٤٧ - وزير الأوقاف السابق، وشيخ الأزهر وأستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة فؤاد الأول. وكان والده صديقا للشيخ محمد عبده، وكان مصطفى نفسه تلميذا له ومن أكثر الناس التصاقا به، ووفاء له، ومعرفة بأفكاره.

بصفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال، وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والإجلال».

وشهادة أخرى للأستاذ الدكتور عثمان أمين (أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب - جامعة القاهرة) وهو أحد كبار المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بتاريخ الأستاذ الإمام - يقول فيها: إنه وقع له أثناء بحثه عن آثار الأستاذ الإمام خطاب يشهد بوجود الصداقة القوية بين محمد عبده ونازلي.فاضل. والخطاب بالفرنسية، وبخط الأميرة. وهى تدعوه إلى القدوم لرؤيتها، وهذا هو نص ترجمة الخطاب «صديقى العزيز: أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة. أنا آسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس - صديقتك المخلصة - نازلى» - ويعلق الدكتور عثمان أمين على هذه الرسالة بقوله: «. . فأمر الصداقة بين الشيخ والأميرة حق. . واختلاف الشيخ إلى قصر الأميرة مقرر. ولعلنا لانبالغ إذا قلنا: إن عناية الشيخ بإتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التى كانت تتكلم الفرنسية كإحدى بنات (السين) ذوات الثقافة العالمية والأدب الرفيع. ونظرة إلى مجموعة الكتب الفرنسية التى وجدت بمكتبة الأستاذ الإمام والتى تعالج شئون الأدب بنوع خاص تؤيد ماذهبنا إليه من أثر الأميرة فى ميول الأستاذ الإمام وقراءاته.

وهكذا يتضح لنا من كل هذه الإشارات والشهادات أن صالون نازلى فاضل كان من أخطر المؤثرات فى حركة النهضة الفكرية والاجتماعية فى مصر الحديثة، وأن الشيخ الإمام كان ألمع روّاد هذا الصالون، بل ربما كان ألمع روّاده على الإطلاق. وأنه قد فتح أبواب هذا الصالون لأصدقائه وتلاميذه النابهين من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين؛ وأن هؤلاء الأصدقاء والتلاميذ قد أصبحوا على يد محمد عبده من رواد هذا الصالون ومن الذين تأثروا به أكبر التأثر. ومع ذلك فإن نازلى فاضل لم تحظ ببعض الاهتمام الذى حظى به كل من جئن بعدها من رائدات النهضة فى مصر. وهؤلاء الرائدات على أهميتهن وقيمتهن أقل تأثيرا ونفوذا فكريا منها. لقد كان تأثير نازلى أشمل وأعمق من كل من جئن بعدها. ومن الغريب أن يهمل المؤرخون شخصية مثيرة متنوعة الجوانب كشخصية هذه الأميرة القوية الثائرة. .وأغرب من ذلك ألا يلتفت إليها الفنانون فى السينما والمسرح والرواية، بينما يلتفتون إلى شخصيات عابرة وهامشية إلى أبعد الحدود مثل ناهد رشاد وحكمت فهمى وامتثال فوزى!![1]

هذا، ولا أملّ تكرار القول بأن الأستاذ الإمام كان «أمةً فى رجل». وفى معنى حديث شريف أن من لايحمل هموم المسلمين فليس منهم. ولا أخطئ إذا قلت، ومن

(١) من أراد مزيدا من التفاصيل يرجع إلى ص ٢٢ من أهرام ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٥م.



منطلق إسلامى، وكما أقام الفيلسوفان المصلحان (الأفغانى ومحمد عبده) دعوتهما، على أن من لايحمل هموم الناس (وخاصة المقهورين) فليس بمسلم؛ أقول: إن المسألة أخلاقية وإنسانية، والإسلام ومكارم الأخلاق مترادفان. إننا كعرب وكمسلمين - وبصفة عامة - ننتمى إلى مايسمى بالعالم الثالث، وهو العالم المغلوب على أمره، والذى يستنزف الأغنياء الأقوياء ثرواته. ومن واجب الشعوب عدم السكوت على ذلك، ومن واجب الذين يحملون رايات الإصلاح والحرية أن يتحملوا مسئولياتهم القيادية.

ولا أحسبنى أستطرد إذا قلت: إن شئوننا اليوم (وهى مثقلة بالأدواء) لاتختلف كثيرا عما كان عليه أمرنا فى عصر الأستاذ الإمام، الذى كان يحمل الهموم كأنه دولة ناهضة صالحة تسهر على شئون الجميع. ويحضرنى الآن موقفه، وريادته للأعمال الإصلاحية، ومنها - على سبيل المثال - الجمعيات الخيرية، كجمعية الهلال الأحمر المصرى، والجمعية الخيرية الإسلامية[1]. وهذه وتلك - كانتا ومازالتا تقومان بأعمال اجتماعية عظيمة ومتشعبة. وكما كان شأنه فى جمعية الهلال الأحمر رائدًا ومنفذا، كان شأنه فى الجمعية الخيرية الإسلامية. كان مع مؤسسيها فى الطليعة، وتولى رئاستها عام ١٩٠٠ ميلادية.

وأضيف قائلا: إن هذا الزعيم الكبير الذى أرانى أعجز من أن أفيه حقه لم يسلم من عديمى الأخلاق كما نرى فى البند التالى.

حملات رخيصة[2] على المفتى
وإدانة من كل الأوساط ومنها القضاء

بند ٨:

عن الصفحة السابعة من أهرام الخميس ١٧/ ١٠/ ١٩٩٦م ننقل العناوين الكبيرة التالية : (الأهرام ديوان الحياة المعاصرة - د. يونان لبيب رزق) (قضية الصحافة المأجورة أو الصفراء : صحيفة الخلاعة وهجومها على أسرة الدرمللى - أشهر صحف الابتزاز فى : التمثيل - الخلاعة - الباباغللو - الأرنب - حمارة منيتى - الفونوغراف.

بعد ذلك (وبالخط الكبير: حمارة منيتى على اليمين - ثم صورة فيها شيخ يراقص راقصة (ومعهم آخرون كان الكل فى مرقص) وعلى يسار الصورة (بالنسبة للقارئ أو

(١) وانظر بند ١٠.

(٢) وانظر كتابى عن «الأفغانى» (بند ١٥).

الناظر) «صورة مصطنعة لمفتى الديار المصرية ينشـرها خصومه فى «حمارة منيتى». صف من الصور فيه صور للشيخ محمد عبده - المنفلوطى - أحمد عرابى - حافظ إبراهيم - الملكة فـيكتوريا (ملكة بريطانيـا فى أزهى عصـورها) وعلى يسار هذه الـصور: الأهرام تصف صحف الابتزاز بالمارقـة، وتأخذ عليها لغـتها السفيـهة! وعلى يمين الصور، وفى إطار خاص، صورة للدكتور يونان لبيب رزق.

وفيما عـدا إعلان يشغل أقل من خمس الصفحة، فـإن المقال يشغل الباقى. وننقل من المقال مايلى:

فى ٣ مارس عـام ١٩٠٢ نشرت جـريدة صغـيرة اسمـها «حـمارة منيتى» يمـلكها صحـفى اسمه محـمد أفندى توفيق، وأخرى اسـمها البـاباغللو يملكها صحفى اسـمه عبدالمجيد كـامل توجد صورة لمفتى الديار المصرية الشيخ محـمد عبده - وهو فى لباس الرقص مع سيدة أوربية مـقرونـة بقصيدة هجاء حـادة للرجل. وقد جاءت الصورة فى سياق حـملة شنها خصـوم الشيخ عليه لبعض آرائه خـاصة ماجاء فـيما عُرف بالـفتوى الترنسفاليـة، والتى أباح فيها الرجل لبعض الأفراد فى الترنسفـال «بلبس البرنيطة لقضاء حوائجهم». ولما ثبت أن هذه الصورة مصطنعة وقفت الدنيا ولم تقعد. ولم يقتصر الأمر على الحمارة أو صاحبها، بل تعداه إلى قضية حريـة الصحافة.

أول الأخبـار عن القضيـة قدمتـها «الأهرام» على لسان سكان الدرب الأحـمر فى عددها الصادر يوم ٧ مـارس فى خطاب مفاده أنهم رفعـوا عريضة إلى النيابة العمـومية يوجهون فيها أنظارهـا إلى قصيدة نشرتها جريدة حمارة منيتى وأومـأت فيها إلى حضرة المفضال الشيخ محـمد عبده مفتى الديار المصرية، وأن النيابـة استدعت صاحب الجريدة وسألته عما نشر فى صحيفته وأن المفتى وجه أنظار النيابة إلى الأمر.

الشاعر الذائع الصيـت حافظ إبراهيم بعث لجريدة الأهرام قصـيدة طويلة يرد على قصيدة حمار منيتى جاء فى مطلعها:

إن صـوروك فإنما قد صـوروا	تاج الفخار ومطلع الأنـوار
أو نقصـوك فإنـما قد نقصـوا	ديـن النبـى محمـد المختـار
سخروا من الفضل الذى أوليته	والله يسخر منهم فى النـار

وقال المنفلوطى مما قال :

حسدوا مجـدك الـرفيـع وظنـوا	أنهم قد رأوا إليك سبيـلا
فافتروا ما افتـروا ورامـوا دليـلا	فأقامـوا من الخيال دليـلا
لك رسـم فى حبة القلب يحكى	شرفا باذخا ومجدا أثيـلا

بعد ذلك وصلت الصحيفة (الأهرام) رسالة وقعها ثلاثون شخصا من أعيان القاهرة فحواها أن الطعن علـى مثل مفتى الديار المصرية هو استهزاء واحتقـار من جهة، ومن جهة أخـرى أن الكاتب استخدم آيات قرآنيـة فى غير موضعـها المناسب وفى ذلك مس بالديانة.

وصل رد الفعل إلى «قاعـة الجمعية العمـومية» حين تقدم أحد أعـضائها على بك الشمسى فى جلسة ١٦ من مارس باقتراح جـاء فيه: إننا نرى أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد، وقـد ملأوا الدنيا سفاها وتعـديا على الأعراض فاقترح على الجمـعية أن تطلب من الحكومة سن قانون عمومى للمطبوعات يقى الناس من هذه الفوضى، أو أنها تقرر معاقبة من يخرج عن حده.

وسارت النيابة فى الدعوى، وقدم صاحب حمارة مـنيتى إلى المحاكمة أمام محكمة الموسكى الجزئية يوم ١٧ مارس وكان ازدحام الناس شديدا.. وأُجلت القضية أسبوعين. واستمرت حمارة منيتى وهاجمت بعنف الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، بنفس القدر الذى هاجمت به حـافظ إبراهيم مما دفع الرجلين إلى رفع قـضايا على صَاحب حـمارة منيتى، ولـكنهما تنازلا لتـوسط الأهرام. وتطورت الأمور إلى صـراعات بين مـختلف الاتجاهات على الساحة السيـاسية، أما محاكمة صاحب «حـمارة منيتى» فانتهت بالحكم عليـه فى أول أبريل بالسجن البـسيط ثلاثة شـهور، وعلى صـاحب البابـاغللو بـالحبس البسيط ستة شهور.. إلى آخره.

وانظر البند ١٥ من كتـابى عن «جمال الدين الأفغـانى» وهو بعنوان «إلى هذا الحد من اللاأخلاقية يمضى عباس حلمى!». وتحت عنوان (فرعى) من نفس البند، وهو مهمة الإثارة نقرأ مـايلى: أما الكتاب الذى صُـور فى عهد عـباس حلمى الثـانى وبواعز منه للهجوم على الأفـغانى، وهو بعنوان «تحذير الأمم من كلب العجم» وحـمل اسم مؤلفة أطلقت على نفـسهـا (الحرة اللى لسـانها خارج لبـره، خادمـة الوطن والدين.. الست المصونة.. «حمـارة منيتى»)؛ وفى الكلمة مايوضح دور الخديوى فى هذا الهـجوم، كما يؤكد هذا الدور أيضا - صدور كتاب آخر باسم المؤلف نفسـه فى مهاجمة الشيخ محمد عبده، بعنوان «كشف الأستار فى ترجمة حياة الشيخ الفشار».. إلى آخره..

صفحات من تاريخ مصر الحديث
ودور الأستاذ الإمام

بند ٩٠:

بعد أن تكلم شيخنا الأستاذ الإمام - له الرحمة والرضوان - عن «نهضة جمال الدين» (ص ٦٥ ومابعدها من المذكرات، وعن أثره فى نهضة مصر (السياسية والفكرية والاجتماعية)، وعن تشجيعه للشباب وسائر مريديه على الكتابة (وخاصة فى الصحف) - وفى الشئون العامة بالذات، وشجب الاستبداد، والدعوة إلى الدستور، وجعل الحكم للشعب. والعض بالنواجذ على القرآن والسنة (وهذا مادعا إليه، وبإصرار، فى كل البلاد الإسلامية) - ولما نشبت الحرب العثمانية الروسية، اشتد شغف الناس بأخبارها، والانتصارات التى يحققها أحد الطرفين والانكسارات التى تحيق بالطرف الآخر، وانقسم الناس فى مصر، وكان من بينهم شامتون فيما يصيب الجيش العثمانى من هزائم.

أقول : كانت الشعوب العربية، تضمها ولايات خاضعة للحكم العثمانى، وكان حكما استبداديا، وكان فاسدًا كذلك؛ تتفشى فيه الرشوة التى تمتد من الصدور[1] العظام فى عاصمة الخلافة إلى الولاة والجنود فى سائر الولايات. كان السوس ينخر فى عظام الرجل المريض (الخلافة العثمانية). ولو كان حكمها عادلا وشوريا لتغير الوضع، وتغير مجرى التاريخ!

وأعود وأقول: كان إسماعيل قد أسرف فى الاستدانة من الدول الأجنبية، وكان يستدين بفوائد باهظة، فضلا عما يأخذه السماسرة الذين يتوسطون بينه وبين الدول والمصارف التى تقوم بالإقراض (غير الحسن)[2]. وأدى هذا إلى تدخل الدول الأجنبية (وخاصة إنجلترا وفرنسا) - فى شئوننا الداخلية - بحجة المحافظة على حقوق الدائنين.

وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد فى المالية المصرية، الأمر الذى أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة، وتعيين وزير إنجليزى للمالية، وآخر فرنسى للأشغال العمومية، كما أن المحكمة المختلطة أصدرت أحكاما ضد إسماعيل وحكومته. وكانت الآراء السياسية التى يبثها جمال الدين فى طلابه ومريديه، ومايبينه لهم وللناس عن أنواع الحكومات الدستورية والاستبدادية تؤثر فيهم وفى سائر الطبقات. ولكن الشعور

(١) رؤساء الوزارات.

(٢) أقصد الربا الفاحش جدا.



بحقوق الأمـة فى أمر حكم نفسها، ومراقبة أعمال حكامهـا لم يسر فى هذه النابتة من المصـريين، إلا وقد صـحبـه رؤية التـصرف الأجنبى فى حـكومتـهم، وتحكم أوربا فى شئونهم. فتعلقت آمال البصراء من المواطنين بإصلاح عظيم. غير أن سوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها والخوف من السلطة (الأجنبية) كان عقبة فى طريق الإصلاح. وقد ضاق الخديوى إسماعيل بالوزيرين الأوربيين وأخذ يسعى للخلاص منهما. فدعا مجلس شورى النواب إلى الاجتمـاع. والتأم المجلس فى ٩ المحرم سنة ١٢٩٦ هـ (٢ يناير عام ١٨٧٨م)- اجـتمـعـوا - فى شـعور قـوى بسـوء الأحـوال، وفى جو من التـشـويش والاضطراب. ولم تقدم الحكومة للمجلس إلا مـا لا أهمية له عندها، فكثر فى المجلس انتقاد الحكومة، ولما أمرت بإقفال أبواب المجلس، هاج النواب، وصدر من بعضهم شدة فى الجواب. وامـتنعوا عـن الانصراف حتـى يعلموا من أخـبار الحكومـة مايخـبرون به منتخبـيهم. وكانت هذه أول مرة يظهـر فيها للنواب رأى يخـالف رأى الحكومة. ولكن ماكان منهم ليكون إلا بسبب شد الخديوى لعضد المعارضة.

وقد قلق ضباط العسكرية وقتئذ من تأخير رواتبهم، وأحسوا بانحراف الخديوى عن رئيس حكومـته نـوبار، وزملائه النظار (الـوزراء) فثـاروا عليـه. وهاجمـوه هو ووزير المالية[1] فى الطريق. وقبـض أحدهم عليه من شـاربيه، وأهانوا بعض الوزراء، فـجاء الخديوى وهدأ ثورتهم التى كانت بتـحريض منه لإسقاط وزارة نوبار، وتم له ذلك دون الوزيرين الأوربيين اللذين أُدخلـوا فى الوزارة الجديدة برئاسـة توفيق ولىّ العـهد. وقـد ازداد تضييقهما على إسماعـيل فى التصرف. فلجأ إلى وسيلة أخرى، وهى طلب أعيان البلاد عزلهـما، وقد اجتمع أعـيان البلاد فى دار السيد علـى البكرى (نقيب الأشراف) ووضعوا اللائحة الوطنية التى تعهدوا فيـها بوفاء ديون أوربا وضمانتهم لها. وقد أحدث التجاء إسماعيل إلى أعيان الأمة شعوراً بقوة لم يعرفوها من قبل. فقد أيقنوا أنه - وهو الحاكم القوى السلطان - قد صار فى حاجـة إليهم، فزادهم ذلك ولوعًا بما كانوا يتمنونه من المشاركة فى الحكم، تفاديا للمضار التى تقع فى حالة انفراد الحاكم بالسلطة!

وأثناء الأزمة (ص ٧٢ ومابعدها) سافـر رياض باشا ونوبار باشا إلى أوربا، وسعى هذا الأخير إلى إقناع فـرنسا وإنجلترا بالسعى لعـزل الخديوى. وكان السيـد جمال الدين الأفغانى قد أسس حزبا فى مصر باسم «الحـزب الوطنى الحر» وكان من أغراضه السعى لتنازل الخديوى إسماعيل لولى عهده توفيق الذى كان على صلة بهذا الحزب، وكان بين الاثنين (الأفغانى وتـوفيق) محادثات فى هذا الشأن. وقـد سعى كثيـر من الأعيان لدى

(١) وهو إنجليزى.



شريف باشا رئيس الوزارة المصرية، يظهرون له ميلهم إلى ولى العهد توفيق، حتى يقنع إسماعيل بالتنازل له، وقد فعل. وقد ذهب وفد من المصريين ومعهم الأفغانى إلى وكيل دولة فرنسا فى مصر، وأبانوا له أن فى مصر حزبا وطنيا يطلب تنازل الخديوى، وأن الإصلاح لايتم إلا على يد توفيق. وقد خلع إسماعيل بإرادة سلطانية أرسلها إليه برقيا الصدر الأعظم فى ٢٦/٦/١٨٧٩م، وتولى شريف باشا رئيس الوزراء[1] تقديمها إليه.

هذا، وظهر عجز الحكومة عن أداء بعض أقساط من دينها فى أوقاتها المحددة عام ١٨٧٦م. ولكن الخديوى إسماعيل كان يريد أن يكون هذا العجز معروفا عند الدول ذات النفوذ، ويجب أن يتدخل أيضا فى تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد.. ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية المصرية عن أداء الدين، ولم يبق من وجوه الوفاء مايكفى له، أعلنت الدول قطع مرتب الآستانة، ونادت به ملكا مستقلا على مصر لايؤدى خراجا إلى سلطان آخر. وكان يسره أن يكون ملكا ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة، وبين خليط من الأجانب يصرفونه داخل بلاده حسب مايريدونه. ثم لم يكُفّ إسماعيل عن تصرفه الخفى فى المالية المصرية بما يزيد من ارتباكها. أخذ يسوى أموره بالاستدانة، ثم بالاستدانة، ووجد من يقرضه ويقرضه، لا لأغراض مالية واقتصادية فحسب، بل لأغراض سياسية! كانوا راضين عن حاكم يجر بلاده إلى الخراب، ويمهد لهم الطريق للتدخل فى شئونها السياسية. «وصدق فيه قول القائل : إنه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفحش الفائدة، وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا أخذها من الرعية بأشد أنواع العذاب. وقضى مع ذلك سبع عشرة سنة فى سلطنة تامة وكلمة نافذة! لقد بذل ما بذل فى إضاعة نفسه، وهو يظن أنه ساع إلى الاستبداد بالملك والوصول إلى الاستقلال به[2]. (نفسه ص ٨٨).

---

(١) فى ٣٠ يوليو ١٩٤٥م كان عيد العلم الذى حضره فاروق وحاشيته والشيخ المراغى والسنهورى باشا وزير المعارف الذى حضر مسرعا ومعه كتابى «عصر إسماعيل» وكنت أحد المكرمين، وأُعطيت نسخة منه - وكله ثناء عليه طبعا.

(٢) أقول : والشعوب - فى البداية والنهاية، ودائما - هى التى تدفع الثمن. تحمل شعبنا أداء الدين وفوائده، ولم تمض سنوات على خلع إسماعيل، وتولى توفيق، وتوالى الأحداث إلا كان الاحتلال. إنها هموم وهموم عانى منها شعبنا كثيراً، كثيرا، كثيرا..

وصدق فى شعبنا قول الشاعر :

ولو كان هما واحدا لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث

ومع ذلك فإن شعبنا لم يقع تحت سنابك الأحداث. بل بقى شامخا. وشعوبنا العربية والإسلامية فى طريقها إلى الاتحاد والتوحد. وإنها على موعد مع مستقبل عظيم، خلال زمن ليس بالطويل بإذن الله.



دخلت مصر فى عهد الخديوى توفيق فى طور جديد من الحياة (ص ٧٦ ومابعدها فقد كان لهـا من إرشاد السيد جمال الدين وتعاليمـه، وسعى الحزب الوطنى الذى ألفا مافتـح أقفال القلوب والعقـول لتدرك حالة حكومتـها ومايجب أن تكون عليـه، وسيرة الأجانب فيها ومـاتخشى أن تنتهى إليه. فقد تولى هذا الأخيـر ولاية أمة غير الأمة التى كان يتصرف والده فيهـا تصرف الراعى المالك بالمواشى. ولكن هذا الأمير لم يكن شرها ولامسرفا، بل كان - فى أول عـهده - عفيفا رحيما، فـكان لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته فيما بعد.

وقد كان أول عمله أن كتب إلى مـحمد شريف باشا[1] فى اليوم الثانى من ولايته أمرا بتأليف الوزارة بعد قـبول استعفائها. صرح فـيها برغبته فى تحقيق آمـال الأمة فيه. (انظر ص ٧٦ و ٧٧). وقـد انعكس كل ذلك على فكر توفـيق. وقـد ذكر الإمـام هنا مشروع شـريف باشا الخاص بوضع قانون أساسى (أى دسـتور) لمجلس النواب، يضمن لهم حرية القول والفكر، ومن النظر فيما يحق لنواب الأمـة درسه ومناقشته على حسب ماقـرأه ورآه فى بلاد أوربا. . . وفرح بذلك الأحرار فـالتصديق عليـه فاتحة عهـد جديد لمصر والمصريين. ثم قـال الإمام: وتظاهر الأجانب بالرضا عن الإصلاح المشـروع فيه. وأُنْشِئَتْ جمعية فى الإسكندرية باسم «مصر الفتاة» ولم يكن فيها مصرى حقيقى بل كان أكثر أعضائهـا من الشبان اليهود المنتمين إلى الأجانب. وقد رفعت هذه الجـمعية لائحة إلى الخديوى فيها من مطالب الحرية مايسـتحق الاعتبار، وأنشئت - بعد ذلك - «جريدة مصر الفتاة» فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد. . على حين كان أولئك الأجانب فى ظل الاستبداد يقرضـون الفلاح المائة بمائتين فى بضعة أشهر، وكانوا يتـصرفون فى المصريين كتصرف حكومتهم بهم[2].

يتـساءل شيـخنا : لكن مـاحظ الأجانب فى مـصر من إطلاق الحـرية للمصـريين وتخويلهم الإصلاح المرغوب؟. ولو وضـع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للأهالى سعـادتهم، هل يمكن للأجانب أن يتمـتعوا بالسلطة والنفـوذ بما كانوا يتمتـعون به تحت

(١) كتب فى الهامش عنه أنه من عائلة عريقة الحسب والنسب.

(٢) هذا يعنى أن الظلم كان يقـع على المصريين من هؤلاء وهؤلاء، أما عن الإقـراض بالربا الفاحش فإن هذا ظل مستمرًا حتى القـرن الحالى - وانظر فى ذلك كـتابى (الإسـلام والقضـاء - فصل بعنوان «لجنة تسوية الديون العقارية).

السلطة الاستبدادية؟.. نعم قد يصح هذا إن أمكن أن يكونوا ملائكة قديسين يؤثرون مصلحة المصريين على مصلحتهم؟!.. المحقق الذى لاريب فيه أن وكيل دولة فرنسا (مسيوتربكو) عندما أحس بمقاصد الخديوى وميله إلى مشايعة الإحساس العام أخذ يسعى فى إقامة الموانع دون ذلك. ودعا وكيل دولة إنجلترا للاتفاق معه على إقناع الخديوى بضرر ذلك فى الوقت الحاضر، وقت الارتباك المالى الذى يحتاج إلى حل سريع، وإلا أدى ذلك إلى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام!! وقد ساعد (وكيلى فرنسا وإنجلترا) البعض من حاشية الخديوى الذى عدل عما أزمع؛ وصمم على رفض الإصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا الذى أصر هو الآخر على وجهة نظره.. واستعفت النظارة (الوزارة)، وتألفت نظارة جديدة برئاسة توفيق فى ٢٤ أغسطس ١٨٧٩م.

وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ فى مصر يظنون أن محرك هذه الأفكار الحرة هو السيد جمال الدين.. كادوا ضده عند الخديوى، وأخافوه منه. وصدر أمر بنفيه دون تمحيص أقوال الوشاة. وكان النفى مزريا ومؤلما - وخاصة على رجل كالأفغانى - (أبوالحرية والأحرار، وموقظ الشرق وحكيم الإسلام)[1].

لقد فجعت آمال الناس بشدة هائلة للقسوة الشديدة التى نزلت بمن كان يقول له الخديوى توفيق قبل النفى بأيام على مسمع من الحاضرين: «إنك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد».

لاريب أن الانزعاج بنفى السيد كان عاما.. ولكن الخديوى أظهر سروره بما فعل، وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار فى رمضان.. فأظهر الطرب بذلك من كان لايعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر السيد، وأُلزمت الجرائد بنشر الأمر بالنفى.. وأبت إحدى الجرائد نشره؛ لأن محررها كان من تلامذة السيد فعطّلت.

تقرر إنقاص الجيش العامل إلى اثنى عشر ألفا، وصرف عدد عظيم من الجند إلى بلادهم. وقدم جماعة من الضباط عريضة إلى الخديوى بعزل ناظر الجهادية لأسباب جوهرية ذكروها فى عريضتهم (ص ٨٣) ولم يتوجه الفكر إلى هذه الحركة والبحث فى أسبابها وعلاجها قبل أن تأخذ قوتها، ويظهر أثرها بمثل ماظهر به فيما بعد (نار كانت تحت الرماد - وكان لها ضرام بعد وقت ليس بالطويل).

---

(١) وانظر ص ٨٠ ومابعدها.



قال الخديوى: إننى لا أنكر حاجتنا إلى معونة الأجانب، ولكنى أريد رجالاً مثل بارنج (لورد كرومر فيما بعد) يشتغلون بإصلاح المالية، ولايخلطون الإدارة بالسياسة، ويكونون فى وظائف سامية، لكنهم لايكونون وزراء فأشاروا إلى نوبار باشا، فأظهر غاية التمنع من قبوله.. إبعادًا لدسائسه.. فأشير إلى مصطفى رياض باشا فأبان شدة ميله إليه، وقال: «إنه الصديق الحميم والصادق الأمين». وعهد إليه برئاسة النظارة فى ٥ شوال سنة ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩/٩/٣م. وكان الخديوى يريد حل المسألة المالية وينتهى من مشكلتها قبل جميع المشاكل. وكان معظم الاهتمام منصرفًا إلى إرضاء الأجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ماكانوا ينالون من فوائد الدين الباهظة. وتحت اسم المراقبة المالية صار للأجانب حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها. (ص ٩٠) وصدر الأمر بتعيين المراقبين العموميين قبل توجيه رئاسة النظار إلى رياض باشا بأيام.

وكانت لهما سلطات غير محدودة على المسائل المالية من إيرادات ومصروفات، ثم إنه قد تقرر ألا يُعزلا إلا بموافقة حكومتيهما، (أى أنهما ليسا بموظفين فى مصر، بل هم دولة فوق الدولة). وحق المراقبة محرر من كل قيد (ص ٩١).

هذا، وقبل أن يتكلم شيخنا عن وزارة رياض باشا، كتب مايلى، تحت عنوان «خيبة أمل وحزن» لم يمر (ماتقدم من تفاقم التدخل) - على الأنفس والعقول بلا أثر خادش، وهزة أسف عامة، لكل من كان يلوح فى قلبه شعاع الفكر، ويدور فى خلده خيال الميل إلى استقلال البلاد، ووضع الإصلاح فيها على قواعد سليمة، وإحاطته بما ينقى أعمال السلطة العليا من كل قصد غير مصلحة الوطن، ويصونها عن كل غرض يسوق إلى تأييد السلطة الأجنبية، بعد أن عرفت آثارها، وتمكنت من النفوس النفرة منها. وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين، وأكثروا من الانتقاد عليه قبل مجىء رياض باشا، وقبل أن تبين حدود المراقبة على هذا الوجه. وبعد أن نُشر هذا الأمر، وعرفه العام والخاص. ولم يدع إنسانا حتى أنطقه، ولا قلمًا حتى أطلقه، وجرائد هذا التاريخ شاهدة به (ص ٩٣).

وزارة رياض باشا

(ص ٩٤ ومابعدها)

لما ألف مصطفى رياض باشا الوزارة(١) احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية لإصلاح الحال العام ونظارة المالية (مؤقتا) لحل مشاكلها مع الأجانب. وقد سار فى الإصلاح سيرة حميدة لاشىء فيها إلا محاولته تعميم العدل، والمساواة فيه بسرعة. وملخص ذلك :

إلغاء السخرة: كانت السخرة فى مصر نوعين - عاما وخاصا، أما العام فهو إكراه الحكومة الأهالى على العمل بغير أجر فى المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) - على الأنهار العظيمة، وحفر الجداول (الترع) الكبيرة، وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة، وأما الخاص فهو أن يُلْزِمَ الأعيان من دونهم من الأهالى بالعمل فى منافعهم الخاصة بغير أجر كالعمل فى المبانى والأراضى بجميع أنواع العمل. فكان جميع الوجهاء، وجميع موظفى الحكومة يرهقون الأهالى بهذه السخرة، ويقرنونها بالضرب والإهانة. حتى أن بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة. وقد كان لكل ذات من الذوات الفخام منطقة نفوذ يستخدم سكانها فى أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم فى جميع مواسم الزراعة على شرط أن يحمل العاملون أقواتهم وأدوات العمل. وغذاء ماشيتهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة، فإن كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين. ولكنه لايسمح لهم بأماكن تقيهم من المطر والبرد شتاءً ولابمستظل يقيهم الحر صيفا. كان البرد يقتلهم شتاء، والحر يذيبهم صيفا.

أقول : يقول الشاعر :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وفى المثل : لايفل الحديد إلا الحديد، فالقوة لاتردها أو لاتوقفها إلا قوة. ولهذا المعنى اعتبار فى الفقه الدستورى، فهو يساوى مانسميه فى هذا الفقه «توازن السلطات» وأعود إلى السخرة، وأقول : تبًا، وتبًا للذين مارسوها سواءً فى معناها الخاص أو العام. إنهم لم يكونوا مسلمين إلا بالاسم فقط، هل يكون مسلما هذا الذى كان يتلذذ بضرب (آدمى) كرمه الله؟! (وأحيل - فى هذا المعنى على كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة») (طبعة ثانية - بنود ٦٦ - ٧٠، عن المسلمين حين ينسون مبادئ

---

(١) مصطفى رياض بن إسماعيل الوزان بن أحمد بن حسن الوزان أحد كتبة الحكومة المصرية. ولد سنة ١٨٣٤ وتوفى سنة ١٩١١م عن سبع وسبعين سنة. كان كاتبا فى ديوان المالية فى يناير ١٨٤٨م وأخذ يرتقى المناصب حتى صار وزيراً (نفسه، هامش ص ٩٤).



الإسلام) ومن (٧١ - ٧٣) بعنوان «فى ميدان عابدين» (٩-٩-١٨٨١) (والجحيم، الجحيم للظالمين).

وعن «المذكرات» ص ٩٥ ومابعدها، يقول شيخنا وقد شدد الوزير بإلغاء السخرة بنوعيها، لقد آخذ مدير القليوبية مرة لأنه أرسل بعضًا من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التى تصل إلى أراضى القبة لأنها خاصة بالخديوى. ووبخ المدير توبيخًا شديدا، وعرض الأمر على الخديوى فأظهر استحسانه، ولكن لم يذهب بلا أثر فى نفسه، فإن مبالغته فى العدالة إلى هذا الحد مما لايرضى السلطة المستبدة العليا فى مصر، مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال. فانظر ماذا يكون فى نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين والحاليين من رياض باشا بعد حرمانهم من منافع[1] أبدان الرعية بغتة بلا تدريج؟!

ثم إن رياض باشا شرع فى وضع نظام لتوزيع الإعانة على الأعمال العمومية لتحل محل السخرة. فخفف الويل عن عدد كبير من الفلاحين، وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة.

ومن عدل رياض باشا (والكلام لشيخنا الإمام) - أنه عنف فريد باشا مدير الشرقية (مع وجود قرابة بينهما)؛ لأنه أرسل مائتى رجل لإصلاح خط سكة حديد السويس الذى جرفته السيول استجابة لطلب مصلحة السكة الحديد كما جرت العادة.

وطلب كتابة منشور عام موجه إلى المديرين يحذرهم فيه من مثل هذا العمل، ولما كتب كُتاب الداخلية المنشور راجعه مرارا ليكون أكثر دقة وشمولاً وانتهى الأمر إلى أن تولى الشيخ محمد عبده[2] كتابته.

ومما جاء فيه : «وليعلم المديرون والأهالى جميعا أن الأهالى ليسوا عبيدًا، ولا لأحد عليهم سلطان إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة. وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوى بإعتاق الأهالى من عبودية التسخير. . بل العبودية للحاكم الأعلى على وجه الإطلاق (أى المولى سبحانه وتعالى) .

---

(١) أقول : هذا عن طلاب المنافع الملوثة بخطيئة الاستذلال والقهر، لكن، وماذا عن الرعية؟ لهم الله، الذى يبعث فيهم رجالاً تعمر قلوبهم بالعدل والشجاعة وبعد النظر. إن الطريق مازال طويلاً لإنصاف الإنسان من أخيه الإنسان. والحل فى الإسلام والقرآن.

(٢) كان رياض باشا يعرف الشيخ محمد عبده منذ كان شابا بالأزهر. . وهو الذى اختاره محررا ثالثا بالوقائع المصرية (فى أوسط ١٢٩٧هـ - ١٨٧٩م) - ثم طلب منه إصلاحها ورقاه إلى المحرر الأول. فضم إليها الشيخ عبده سعد زغلول، وإبراهيم الهلباوى وعبد الكريم سلمان والسيد وفا.



توزيع مياه النيل :

كان توزيع مياه النيل يحابى الأغنياء على حساب الفقراء حتى جاء رياض فأمر بتوزيعه بالقسط. كان بولينو باشا (والاسم كما هو واضح أجنبى) يستفيد من آلة بخارية له حيث يبيع الماء الذى ترفعه للفلاحين حتى فى موسم الفيضان حيث يجدون الماء من غير أى تكلفة. ولما جاء الباشا برجال مسلحين ليمنعوا فتح الترعة التى يسقى منها الأهالى، أمر رياض بفتحها ولو بقوة السلاح. وفُتحتْ.

إلغاء الضرائب :

فى الشهور الأولى من وزارة رياض أمر بإلغاء ثلاثين ضريبة ونيفا من الضرائب الصغيرة التى أضرت بالأعمال الصناعية والتجارية الخاصة بالوطنيين وزاد مائة وخمسين ألف جنيه على ضريبة الأطيان العشورية، عملاً بمبدأ العدل الاجتماعى - التخفيف عن الفقراء والزيادة على الأغنياء. ثم عفت الحكومة عما عجزت عن تحصيله من الرسوم والضرائب إلى سنة ١٨٧٦م.

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل :

ثم نظم رياض برنامج الإيرادات والمصروفات من الحكومة (الميزانية)، وألفت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وإنصافهم، ووضع نظام للتحصيل فى الأوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة، وعرف الفلاح ما له وما عليه. وقد وضع هذا طبقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا.

وقد ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الأغنياء والفقراء والوطنيين والأجانب فى التحصيل. وكان الأغنياء والأجانب يماطلون عدة سنين، وكثيرا مايُعفى عنهم بعد ذلك. وظهر عند التنفيذ أن بعض أغنياء الأجانب كان فى ذمته ضرائب سبع سنين، فحصلت منه بقوة الحكومة. وهذا مما لم يكن يُسمع به من قبل.

إبطال الكرباج والحبس :

وقد صدر الأمر بإبطال الضرب بالكرباج فى تحصيل الأموال الأميرية، فعجب كثير من الناس لذلك. وقالوا : كيف يمكن أن يُحصل مال من الفلاح دون ضرب !! وأنكره كثير من المديرين، وظنوا أنه قد هدم ركنا عظيما من سلطان الحكومة!! ثم صدرت أوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواءً كانت أميرية أم شخصية. ولقى تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل إلى الظلم من أنفس أكثر الحكام. ولكن لم تأت نهاية حكم رياض حتى كان الحبس قد مُحى؛ إلا ما ندر.

ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر، أن الذين حُفظت أبدانهم من الضرب والجلد، وأرواحهم وأجسادهم من الحبس لاقتضاء الحقوق، سواء كانت للحكومة أم للأفراد - كانوا يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به، وأنه لايفيد إلا الكرباج. كما لايزال قوم منهم يقولون ذلك إلى اليوم، وكانوا يهزءون لتلك الرحمة، اللهم إلا الذين لمع فى عقولهم روح الفهم، ووصل إلى أبصارهم شعور الإحساس بما للإنسان من حق الكرامة التى خصه الله بها. . . !

أقول : فى العدد الثانى - يوليو ١٩٤٨م (السنة الخامسة) من «مجلة الإصلاح الاجتماعى»[1] (ص ٣٩ ومابعدها) مقال لى بعنوان «من بلايا الجهل» - أنقله هنا كما هو: قلت: بينما كنت أتحدث مع بعض القرويين عن المدرسة الأولية فى القرية، ووجبة الطعام المتواضعة التى تقدمها وزارة المعارف للتلاميذ، وأثر هذه الوجبة فى إقبال أهل القرية على المدرسة، وإذا بأحد الحاضرين - من الأميين طبعا - ينطلق قائلا فى دهشة: «مافائدة الحكومة من تغذية هؤلاء التلاميذ؟!» وماجرى به لسان القروى الأمى ليس بغريب ولاعجيب، بل هو يعبر عما استقر فى نفوس الملايين من (فهم) لوظيفة الحكام ونصيب المحكومين.

لقد مضى أكثر من ربع قرن (وقتئذ) على صدور دستور ١٩/٤/١٩٢٣. هذا الدستور الذى أنشأ فى مصر نظاما نيابيا، وقرر أن السلطات مصدرها الأمة. ومن مقتضى هذا النظام النيابى الديمقراطى أن الحكومات فيه تأتى من الشعب، وتعيش بالشعب، ولأجل الشعب. هذا هو مايقرره قانوننا الأعلى. ومع ذلك فلا زالت الأكثرية من المصريين تعيش بعقلية أيام (الملتزم) تلك الأيام التى لم يكن يعرف فيها المحكومون من الحكومة والحكام إلا شخص الملتزم البغيض، الذى لايتخذ طريقه إليهم إلا للسخرة والاستغلال وابتزاز المال!

والحق أننا لم نفلح بعد فى إقناع الأكثرية من المصريين بأن الحكومة فى العصر الحديث، ماهى إلا خادمة للشعب، وأن كل ماتصنعه فى مجال نشاطها السياسى أو الإدارى أو التعليمى أو الصحى أو الاجتماعى. . . إلى آخره، ليس لها غرض من ورائه إلا مصلحة الشعب. والحق كذلك أننا لم نصل بعد إلى إقناع المواطنين بمدى حقوقهم كمواطنين فى ظل الوضع الجديد. وسنبقى كذلك عاجزين عن إفهامهم حقوقهم

---

(١) صاحب الامتياز (رابطة الإصلاح الاجتماعى) - النائب عنها محمد العشماوى باشا - وزير المعارف فى حكومة صدقى باشا الثانية (على ما أذكر)، أى بعد حكومة رياض باشا بنحو ثلاثة أرباع القرن.

وواجباتهم إزاء الدولة مادامـوا أميين!!

وإن استقراء نهضات الدول الحديثة ينبئ أن تقدم هذه الدول في مدارج القوة والمكانة الدولية كان مرتبطا بإصلاح أحوالها الداخلية، وعلى الأخص تعميم التعليم. والمصلح الاجتماعي في سبيل إيجاد مجتمع أرقى وأسعد، تبدو مهمته دقيقة وصعبة لأنه يعالج أكثر من علة، ويرمي إلى تحقيق غرض عظيم، غير أن هذه المهمة تصبح بلا شك - في بلاد كمصر أدق وأصعب بسبب تفشي الأمية بين الأكثرية من المصريين. وكم يعاني المصلحون من جهل الجهلاء!! إن الجهل يعوق، بل قد يضيع علينا جهودنا في سبيل مقاومة الآفات الأخرى كالمرض والفقر.

وكم من أسرة بالريف لاينقصها المال، ومع ذلك تعيش عيشة الفقراء؛ محرومة من الصحة ومن مظاهر النعمة؛ لأنها بسبب الجهل لاتنتفع بما وهبها الله من أسباب اليسار. وهذه الأسرة وأمثالها إذا نزل بساحتها مرض انتظرت المعجزة أو الموت، ولاتفكر في اتخاذ الأسباب والسعي إلى الطبيب. وإنك لترى ثقة هؤلاء في الدجالين أكبر من ثقتهم في الطب الحديث.

وكم من جماعات ينزل بها الخسف والظلم فتسكت على الخسف والظلم!! ومن العبث أن تحمل هؤلاء على ممارسة ما لهم من الحقوق التي قررتها القوانين، لأنهم لايعرفون لأنفسهم هذه الحقوق.

وإذا كان مما يؤسف له أن تبقى حتى هذا اليوم نسبة المتعلمين بين المصريين ضئيلة جداً رغم مضي أكثر من عشرين عاما على إنشاء التعليم الإلزامي، فإن أخشى مانخشاه أن تأتي سنوات أخرى وتمضي ونحن مستمرون في هذا التقصير نحو تعميم التعليم. إن أخشى مانخشاه أن يترك الجيل الحاضر مشكلة الأمية كما تلقاها من الجيل السالف من غير حل ملقيا بأعبائها على الجيل الجديد.

وإن هذا ليحملنا على أن نتجه صادقين مخلصين بالدعوة والرجاء إلى الزعماء والحكام والأحزاب والهيئات أن يضعوا في المقام الأول من برامجهم مكافحة الأمية وتعميم التعليم بين جميع المصريين حتى يتم ذلك على نحو نافع شامل في أقرب وقت مستطاع.

وبعد ذلك ينفسح المجال أمام الجيل الجديد لأداء رسالات أخرى للنهوض بمصر وقيادة الشرق، والمساهمة في حضارة العالم. اهـ.

(ويوم ٧-٥-١٩٩٦م - يكون قد مضى على نشر المقال السابق قرابة نصف قرن من الزمان. ونسبة الأمية مازالت مرتفعة جدا (وخاصة بين النساء) - فى بلاد العرب والمسلمين، ومصر بالذات).

وأعود إلى المذكرات (ص ٩٩ ومابعدها) :

قانون التصفية :

بعد مفاوضات بين مصر والدول العادلة الفخيمة، قبلت هذه الدول تأليف لجنة لتصفية الديون المصرية التى استدانها شخص إسماعيل باشا، ولايعرف فى البلاد من آثارها فى المنافع العامة إلا القليل. قبلت الدول تأليف لجنة لم يكن فيها إلا مصرى واحد. وأصدرت اللجنة قانون التصفية. وأهم مسائل هذا القانون هو كيفية توزيع دخل الحكومة، ودخل بعض الأملاك على الديون. وقُدِّر لنفقات الحكومة ٤,٨٩٧,٨٩٠ جنيها، وفيها جزية الدولة العثمانية على مصر، وفوائد قناة السويس.. ومابقى من مالية القطر المصرى فهو للدين وفوائده.. وعدّ الناس هذا اليوم من الأعياد الوطنية فى ذلك الوقت. وفى الحقيقة (والكلام لشيخنا) كان هذا القانون فاصلاً بين ماضٍ قلق مشوش.. وبين مستقبل واضح معروف. كما تمنى الخديوى توفيق. وهو أساس نظام مصر الحالى حتى سنة ١٩٠٤م.

إصلاح الوقائع المصرية

كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعلى البلاد، توزيع الضرائب. ترسل إلى من ترسل إليه بغير طلبه، ويُجبر على دفع قيمتها بالوسائل التى كان يُجبر بها الممولون على الدفع. وأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة فى ذاتها تحمل الناس على طلبها.. وكان قد أحس بتوجه الأفكار إلى طلب شىء من طلاوة العبارة، ووفرة المعنى، وحسن الانتقاد. وكان الأهالى قد تعودوا على عدم الثقة بما تنشره الحكومة، فهى تنشر ماتنشر ولاتتقيد به. ولم يكن فى الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة إلا مدح الخديوى وكبار الحكام على الطريقة القديمة .

وأراد رياض أن تكون الجريدة يومية، وأن تتضمن مايجذب الناس إليها. وهداه بحثه إلى تعيين الشيخ عبده، وكان الخديوى قد انحرف عنه لأنه تلميذ جمال الدين، وتولى رياض استرضاء الخديوى فرضى، وعيِّن الشيخ محرراً ثالثا. وطلب رياض منه وضع خطة يمكن بها إصلاح الجريدة، ونظرت الخطة لجنة كان الشيخ من أعضائها، ووُضعت لائحة للجريدة وتحريرها، ولقلم المطبوعات، وأمضاها رياض، وعين صاحب التقرير (الشيخ عبده) رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية. واختار الشيخ محررين معه، ممن يجيدون الكتابة. وحمد العامة والخاصة له ذلك.

صلة الجريدة بحياة الأمة (ص ١٠٣ ومابعدها)

وقد يقول غير العارف بسير الحوادث، وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر: سعادتها أو شقائها، طمأنينتها أو قلقها، تقدمها أو تأخرها؟ فنجيبه.. بأن تاريخ مصر إن كان مجموع حوادث أمة لها حياة سياسية وأدبية وعقلية، فلتغيير سير الجريدة الرسمية، وتحرير إدارتها مكان رفيع من تلك الحوادث، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه. وإن كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتغتذى وتموت، فالبحث فيها من خصائص علم التاريخ الطبيعى، ولاعلاقة لنا به الآن.

وربما تبسم استخفافا بالأمر بعض العُقّل الذين لم يتعودوا النظر فى طبيعة ترقى الأمم، ولا يحرك إحساسهم إلا الصدمات الصادعة، والقواصف القارعة، وهو من موضوع التاريخ الطبيعى كما قلنا.

إن واضع لائحة إدارة الجريدة الرسمية لم يكن من أرباب المنازل السامية فى مصر. ولكنه نبت فى تربتها واتصلت حياته بحياتها، وأشربت مداركه الإحساس بحاجتها. ولما تناولت عملا مما له علاقة بشئونها العامة فتح له الإحساس بابا من المعرفة بطريق إيصال منفعة من المنافع إليها. فلما دُعى لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة فى بابها، يعجب لها الناظر فيها، وخصوصا إذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين. ولكن لكل بلد طبيعة خاصة به، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والأزمان.

أقول : العبارات المتقدمة لايقولها إلا مصلح عظيم مستنير. ينفتح على مالدى الغير (والغير هنا هم الدول المتقدمة حضاريا وعلميا) - ينفتح عليها، وينقل عنها كل نافع؛ ونصوغه فى قوالبنا المصنوعة من تربتنا وتراثنا وزماننا.

نواحى إصلاح الجريدة

تضمنت اللائحة أن جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمجالس الملغاة ملزمة بأن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع مالديها عن الأعمال المهمة التى تمت أو التى شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وأن لإدارة الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أى عمل من الأعمال عندما ترى له وجها، حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التى كانت الإدارة جزءا منها. وإذا رأت فى الجرائد التى تنشر فى مصر، عربية أو أجنبية ذكرًا لخلل فى عمل أو سوء تصرف فى أمر ما؛ **فلها** الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية إلى النظارة أو الإدارة التى يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة، فإن كان حقا مانشرته الجريدة يؤاخذ المخطئ بواسطة رؤسائه،

وأشعرت إدارة المطبوعات بذلك، ونشر في الجريدة الرسمية، وإن كان باطلا كلف صاحب الجريدة بإثبات ماذكره، وإلا أنذر مرة بعد أخرى، وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائما على حسب الأحوال. وإن من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان «قسم غير رسمى» مايعن له أو يرد إليه من الفصول الأدبية مما له مساس بالأحوال العامة. وقد منح رياض باشا هذه السلطة لإدارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللائحة، وإما علمًا بأن ذلك من صالح البلاد وحاجتها الحاضرة.

إصلاح التحرير:

وأول مابادرت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى الإدارات والوزارت. فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعانى المطلوبة فيها، واقتضائها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لاطائل تحتها، ثم ترسم الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترا لعيوب الإدارات. وأخطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير. وعمَّ ذلك المديريات كما عمَّ النظارات.

وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة، ولازال يتقدم إلى اليوم. وهكذا كان شأن الجرائد. كانت تتسابق إلى إظهار مزاياها فى التحرير حتى ترضى إدارة المطبوعات. وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات. وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ وضبط المطالب؛ فتمت بذلك نهضة التحرير التى بدأت من سنين مضت. وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها، فقضى لها أن تظفر على يد من كان له دخل فى نشأتها.

سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس فى الأفكار، وخف عليها التعبير عما فى الضمائر، وكثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسير التعارف بين المتباعدين، ونشأ بين الناس نوع من الألفة أحدثه الشعور بجامعة اللغة. وبعد أن كان نظر الواحد منهم لايجاوز شخصه، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بنى أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة إلى المقصد العام، كما أن له حركة خاصة إلى المقصد الخاص. وفى هذا من تواصل الأفهام مالايخفى على عاقل. وله أثر فى إنهاض النفوس مالايخفى إلا على غبى جاهل[1].

---

(١) هذا معنى عظيم، وهو يعنى مانقرره الآن فى الدراسات الدستورية من إثارة اهتمام الناس وضرورة مشاركتهم فى الحياة العامة (السياسية وغيرها) ومايتصل بذلك من «حق تقديم العرائض» .. إلى آخره!!

كانت إدارة المطبوعات، أو دائرة التحرير - تبحث فى جميع منشورات الحكومة ولوائحها وأعمال المديريات، وأحكام المحاكم، وتبدى رأيها فى جميع ذلك، وتنشره فى الجريدة الرسمية. وكان ماينشر من الآراء يأخذ مكانه من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويُبنى عليه التعديل أو التغيير. ويبادر إلى نشر ماتم فى الجريدة الرسمية.

كانت دائرة التحرير تبحث فى الجرائد عامة، وماكان فيها متعلقا بانتقاد بعض عمال المصالح يكتب عنه من إدارة المطبوعات إلى المصلحة التى كانت موضع النقد. ويسأل العامل عما نُسب إليه، فإما أُوخذ إذا صحت النسبة، أو أُنذر صاحب الجريدة إذا لم تصح عملا بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية - كما سبق- فارتفع شأن الجريدة فى نظر الحكام والناس عموما من جهة، واشتد حرصها على تحرى الصدق من جهة أخرى. أما القدح الشخصى فكان ممنوعًا على وجه الإطلاق سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أم لم يشتك، فكان ذلك من أسباب ثبات الحكام على السير فى طريق الكمال، والتنافس فى محاسن الأعمال.

ومع إطلاق الحرية للجرائد فى بيان الحقائق - كان لها قدوة فى الجريدة الرسمية التى تلتزم الوقار دائما. - إنه - وبحق - لم يبق عامل، ولارئيس، بل ولاناظر (أى وزير) إلا أحب أن تظهر محاسن أعماله على صفحات الجريدة الرسمية، ويخشى أن تكون له سوأة فتبدو بنفثة من نفثاتها.

انتقاد وفكاهة : (ص ١٠٨ ومابعدها)

ومن فكاهات ذلك التاريخ أن (أ. بك) مدير بنى سويف، بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية، ومؤاخذة نظارة الداخليّة له على بعض أخطائه، أصدر أمرا بعدم دخول الجريدة إلى مديريته وكتب بذلك كتابا غير رسمى إلى صديقه مدير المطبوعات، فوقع الكتاب فى يد رئيس التحرير (إذ لم يكن سواه فى الإدارة) فنشرت تلك الفعلة فى منشور عام، أرسل إليه وإلى سائر المديرين، ونشر فى الجريدة، فانظر إلى أثر ذلك فى العامة والخاصة. وهذا مما علم الناس طرق انتقاد الحكومة وأعمالها، وإفهامهم أنها قد وضعت من نفسها رقيبا عليها يبين مواضع الضعف فيها، ويرشد إلى العلاج، وهذا مما يرفع الهمم فى إعمال الفكر لمعرفة الحق، ويسوق العزائم إلى طلبه.

لم يضيع رئيس التحرير فرصة فى انتقاد وزارة المعارف، وإظهار المعايب، والإرشاد إلى طرق الإصلاح. فغضب لذلك وزيرها[1]، وكان بطىء الحركة، خامد الفكر، بعيدًا عن الإحساس بحاجة الوقت فاشتكى إلى رياض باشا من ملاحقة الجريدة الرسمية، وتنقيبها عن مواضع الخلل فى أعمال وزارته. وأجاب رياض بأن الحق أولى بالتأييد، فإذا كان مانشرته الجريدة غير صحيح فعلى الناظر أن يقيم الدليل، والجريدة مستعدة لنشره. فسكت؛ لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد.

مجلس أعلى للمعارف

وبعد أن تبين رياض باشا أن السكوت على الخلل نوع من الإهمال الذى لايغتفر، ذاكر يومًا رئيس التحرير فى ذلك، وفى الوسيلة إلى إصلاح نظارة المعارف. وقال : أما تغيير الناظر فغير ممكن لأن له مكانة فى نفس جناب الخديوى، ومن جهة أخرى فنحن كحزمة ضُمَّتْ أعوادها برباط واحد[2] . فعرض رئيس التحرير عليه تشكيل مجلس أعلى للمعارف، يكون الوزير منفذا لقراراته، ولم تمض أيام حتى تم التشكيل (من مصريين وأجانب) وكان رئيس التحرير عضوا فيه. وكانت قرارات المجلس تصدر جميعها لمصلحة البلاد.

وقلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية؛ من انتقاد عمل من الأعمال العمومية، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة، أو الأخذ بفضيلة يُبنى عليها العمران. لقد كانت لسان الحكومة لدى العامة ولسان العامة لدى الحكومة. لهذا كان لرأيها فى الأنفس مالم يكن لغيرها من الجرائد.

ولم تكن مقالات الجريدة لإظهار البراعة أو الافتخار، بل كان الكاتب يكتب مايكتب لأثره فى الأنفس لاغير. ولم يكن الأثر يتخلف قط[3] .

بهذا، وبما سبقه تنبهت الأفكار، وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم الأمة، التى مزقها الظلم وأماتها الجور، وانبعثت النفوس تطلب ماشعرت به من حاجاتها، فأنشئت الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية - لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية، وأولادهم بالتربية. ولم يكن يُسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل !!.

---

(١) وكان وقتئذ على باشا إبراهيم، وكان على مبارك باشا وقتئذ ناظرا للأشغال.

(٢) وهذا مايُترجم الآن دستوريا عن تضامن الوزارة فى سياستها، وتضامنها فى مسئوليتها عن هذه السياسة.

(٣) ويرجع هذا إلى الإخلاص، فما كان من القلب يصل إلى القلب!!

وقد اتجه عـزم وزارة الأوقاف إلى الأخذ بوسيلة من أجل وسـائل الإصلاح، وهى تقريب دار الكتب العربية ومدرسـة دار العلوم من الجامع الأزهر، وتوسيع نطاق المدرسة ليبلـغ طلابها خمـسمـائة، وأن يرتب التدريس على طريقـة تؤدى إلى تكثيـر الأساتذة المهذبين.. بل إلى إعـداد عدد كبـير من أهل الذكاء لإدارة كـثير من الأعـمال الإدارية والقضائية فى البـلاد.. وبهذا كان يتسنى لنظارة الأوقاف أن تقدم للأمـة المصرية خدمة متصلة بوظيفـتها، بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين، وبناء معابد قلمـا يوجد فيها من المصلين أحد. بل بهذا كانت تقدم الهياكل الإلهية فى قلوب المؤمنين، وتزيد فى عدد المعلمين الحقيقيين، فإن ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفـسهم الوسائل لترسيخها، وإقامة ماتدعو إليه الحاجة منها. وكان توجه وزارة الأوقاف إلى هذا المشروع بناء على ماعرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضا[1] .

إصلاح نظام العسكرية:

وقد وجهت الحكومة عزيمتها إلى إصلاح نظام العسكرية. كانت مدة الخدمة خمس سنين يعود بعدها العسكرى إلى أهله ليـمكث ست سنين تحت الاحتياط. رأت الحكومة أن الضبـاط الكبار لايمكن أن يكونوا مـن العساكـر المقتـرع عليهم، بل لابد أن يحـصر تعيينهم فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل فى المدارس العسكرية لاغير.

حكومة توفيق (ص ١١٣ ومابعدها)

كانت حكومتـه موجهة فى أوائل عهـدها إلى مافيه الخيـر لمصر وأهلها، ولم تكن قائمة على الأثرة أو الاستـبداد بالسلطة وقضاء شهوة الحاكـمين وأعوانهم. وكان توفيق عفيفا لين الجانب يميل إلى التحبب إلى الـشعب، وتعرف أحواله بالسياحة فى العواصم والمدن المصـرية. وكان بعـيدا عن الإسـراف، وقـد اكتـفى بزوجة واحـدة، وترفع عن ارتكاب ماكان يرتكبه غيره[2] من الأمور الفاضحة، فاجـتمع فى نفوس (الشعب) المهابة

(١) أقول: كانت الخزانة العـامة للدولة - خاضعة - إيرادًا وإنفاقا - للمـراقبين الأجنبيين، أما نظارة الأوقاف - (كنظارة تقوم برسـالة دينية) فلم تكن تخضع لهما. ومن هنا نتـبين بعد نظر الجريدة الرسمية ورئيس تحريرها - يالها من همّة، همة الأستاذ الإمام!! وفى العبارة شجاعة أدبية، وهذه الشجاعة الأدبية كما تكون فى مواجهة الحكام تكون فى مواجهة الناس. ولايقوم بهذا إلا مصلح عظيم.

(٢) يريد والده الخديوى إسماعيل، وماكان يأتيه فى عهده من الإسراف والمآثم.



والمحبة، وهما أقوى سند للحاكم. . وهما الصفتان اللتان يُبنى عليهما الملك والسلطان. وما أسعد الحاكم الذى يكون فى حكمه مهيبا محبوبا. وكان فى ذات الوقت متفقا مع أعضاء حكومته وسائر كبار الموظفين على مايخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها، ويُحسن أحوالها. . وقد رفع ذلك قدره فى نظر الأجانب أيضا. وقد تناسى الناس ما آتاه بعد توليه العرش من النفى[1] بغير محاكمة ولاتحقيق وسرعته فى تعيين المراقبين الأجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة حتى كادت تندمل تلك الجراح، وإلقاء تبعة الأخطاء على غيره. وقد وفق إلى وزارة[2] (رئيسها ومعظم أعضائها) من خيرة الرجال. . وقد كان لهذه السيرة (سيرة الحكام) تأثير حسن. . والإحساس بالأمل من تمكين المصريين فى حفظ مابقى لهم، واسترداد ماذهب منهم على مدى الزمان. ورضى العقلاء من الحرية بما شهدوا من أعمال الحكومة، وانضموا فى العمل إليها، وقبلوا ماكان فى جسمها من العلل. . خضوعًا لحكم الضرورة مع قوة الأمل فى الشفاء، أما الساخطون فقد أحسوا بشىء جديد من القوة، وأن مطالبهم - مع مافيها من طيش - سهلة التحقيق[3] .

وكان أهل الإصابة فى الرأى يتمنون لو استمرت سيرة الحكومة فى ذلك عشر سنين على الأقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه. . وعند ذلك كان يتهيأ لأهالى البلاد أن ينزعوا إلى نظام أكمل مما أعطى لهم وأن يطلبوا سبيلا إلى تحقيق شىء مما لايزال يثقل عليهم، ولكن. . وآسفاه حال دون تلك الأمانى أمور. .

أقول : إنى لا أنقل على هذه الأوراق كل شىء. أما شيخنا - وهو ذو بصيرة ونزاهة، فقد عرض كل شىء. إنه يعيش وسط الأحداث، كما عايش ماكان، ويشارك حَسَنِى الظن - توقع مستقبل أفضل - لكن - كما سبق القول - حال دون ذلك أمور:

منها ماكان منشؤه رياض نفسه وبعض النظار - ومنها ما له علاقة بالخديوى توفيق - ومنها ماسببه امتداد السلطة الأجنبية الجديدة - ومنها نهوض الساخطين لاستعمال ماوجدوا فى ذلك من الوسائل لإثارة الفتنة لقلب وزارة رياض. (يرجع للتفاصيل ص ١١٧ ومابعدها).

(١) لعله يقصد نفى السيد الأفغانى.

(٢) كان اسم الوزارة والنظارة اسمين مترادفين فى ذلك العهد (هامش (١) ص ١١٦).

(٣) كل هذا يعنى أنه مع الأوضاع الجديدة قد تمهد الطريق لمستقبل أفضل.

عرابى.. ومجلس النواب
وموقف الأستاذ الإمام

يقول الأستاذ الإمام (ص ١٦٢ ومابعدها من مذكراته):

أراد عرابى أن يستعين بقوة فوق قوته الشخصية، وأن يلتمس سلطةً تعلو سلطته وسلطة الحكومة معا، ولها من الشأن فى مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على مايصدر منها خارجًا عن الدستور أو مخالفا للعدل ماتخشى عواقبه، وتتقى مصايره، وكان يطالع فى الجرايد وفى بعض الكتب المترجمة من اللغات الأوربية، ويسمع من بعض المطلعين على مايجرى فى ممالك أوربا، بأن مجالس النواب فى تلك الممالك هى القائمة بحفظ أصول النظام، وهى القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده، والحاجبة للاستبداد فى الأرواح والأموال، والحافظة للحرية الشخصية فى الأعمال.

وقد رأى أنه لو كانت فى البلاد تلك القوة النيابية، وكانت حكومتها حكومة شورية لكانت الشورى عاصمة لحياته، حافظة لحقوقه فى وظائفه، ومأمنا يلجأ إليه إذا حوّم طائر الانتقام عليه. ولم يعلم أنه لو كانت فى مصر حكومة دستورية يقضى فيها القانون، ولايستبد فيها الرأى لأُوخذ عرابى ومن معه أشد المؤاخذة، ولقضى عليهم بجزاء ماهتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا فى الجند من الميل إلى الفوضى[١] .

ويقول الأستاذ الإمام ص ١٦٤ ومابعدها من المذكرات: وشد أمل عرابى فى نيل أمنيته أن أغلب أهل الطبقة العليا من الناس، ككثير من الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على القلق ويُشعر بالملل من إدارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التى بيناها[٢] . ولما أخذ عرابى يتحسس مافى نفوس الناس وجد أن أمنية التغيير لم تزل تجول فى صدر كل واحد ممن كان يلتقى بهم.. وكلمة مجلس النواب دائرة على

---

(١) فى الهامش كتب من قام بالعرض والتحقيق والتعليق على المذكرات (طاهر الطناحى) «لعله قد فات الأستاذ الإمام أن الثورة على النظام القائم لاتتفق والخضوع له والعمل بحدوده، والسير على قانونه فمؤاخذة عرابى هنا فيها نظر! ثم ماهذا النظّام الاستبدادى الذى سارت عليه حكومة توفيق، والذى ازداد يوما بعد يوم حتى اضطر محمود سامى البارودى باشا وزير الحربية إلى الاستقالة على أثر محاكمة بعض الجنود الذين حكم على أحدهم بالأشغال المؤبدة، وعلى الآخرين بالأشغال الشاقة ثلاث سنوات. وقد قابلها الخديوى بعفوه؛ لأن الذى كان سببا فى فتنة أحد عملائه. وكل ماحدث هو فصلهم من الخدمة (١٦٢ ١٦٨ من المذكرات) وقول شيخنا:..لكانت الحكومة الشورية حافظة لحياته - أضيف إليها : «ولحياة الجميع»؛ ثم إنه ما كانت الثورة لتكون لو كانت الحكومة شورية. و لاتنسى الأجيال أن الثورة على الاستبداد بإطلاق، كان فى مقدمة مادعا إليه الأفغانى ومحمد عبده..

(٢) مثل إلغاء السخرة.. إلى آخره مما سبق ذكره تحت عنوان «وزارة رياض».



الألسنة. وفى وهم الكثير ممن نظروا فى سير الأمم الأوربية أن علاج كل داء ينحصر فى تحقيق معنى هذه الكلمة. فلما نطق بها عرابى- وهو صاحب النفوذ فى الجند سمع دوى الاستحسان من كل جانب، وصفقت له الأحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الأيدى فاشتد بذلك عزمه، وخيل له أن الأمة ستكون سنده.

أخذ عرابى بعد ذلك (ص ١٦٦ ومابعدها) يجهر بطلبه هذا، وخاطب رياض باشا فى شأنه فأباه عليه، فأخذ يخاطب بعض العلماء، ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الأجنبى، ورد ماسلبته أيدى الأجانب. ووجد فى حضرات المشايخ (وهم على مانعهد من السذاجة والبعد عن معترك السياسة) - وجد إصغاء لقوله وتأييدا لرأيه، وكذلك وجد نفس الشيء ممن كان يخالطهم من الأعيان ومشايخ العربان. وكان يقرر لكل من لاقاه أن لاسبيل لنيل مبتغاه، إلا بتأييده فى طلب مجلس النواب، فيجد أذهانا مقتنعة، وإرادات مستسلمة. ذلك لأن القوة فى يده ولأن نفوسهم ترى منتهى راحتها فى التغيير على أى صورة جاء[1]؛ وكان يشجع بعض الضباط على كتابة العرائض للمطالبة بمجلس النواب، ولكى يقووا طلبهم أخذوا فى الطعن فى الحكومة.

أقول : لايخطر ببال أحد الشك فى إدراك الأستاذ الإمام للشورى ومجالس الشورى، فالشورى من صفات المؤمنين ﴿ ... **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى]، وقد أمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : ﴿ ... **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]، والمشاورة - هنا - تعنى مشاورة أهل الشورى والرأى ثم اتباعهم. وقد طبقها رسول الله ﷺ، قبل الخروج إلى أحد؛ وفى مواقف كثيرة أخرى نزل فيها عند رأى الأغلبية (وهو الذى يتلقى الوحى) ولنا فى رسولنا عليه الصلاة والسلام قدوة وأسوة.

وأما فيما يتعلق بعرابى - الفلاح المصرى البطل، فخلاصة الرأى فيه أنه حاول ففشل، ويرجع ذلك إلى تآمر الخيانة والأطماع الإمبريالية ضده وضد مصر[2].

وأنقل عن كتابى «محمد فريد وجدى» مايلى[3] - تحت عنوان: «المناخ العام»: «نشأ وجدى وترعرع فى ظروف كانت أقسى، أو من أقسى مامر بمصر فى تاريخها

---

(١) وأحيل فيما يتعلق بالشورى على كتابى «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» (الطبعة الثانية - بنود ٢٩٩ - ٣١٥).

(٢) «محمد فريد وجدى» مايلى (ص ٢٧ ومابعدها).

(٣) أقول : لايتمسك بالتغيير «على أى صورة جاء» إلا من به هوس ثورى أو مس شيطانى! والهوس الثورى يعنى التهور والتورط وعدم تقدير العواقب. وهذا مما يحدث فى تداعيات أى ثورة، حيث يختلط الخطأ والصواب.

الحديث. ولد وجدى بالإسكندرية حيث كان يعمل والده، وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة عربية وأخرى فرنسية حتى نقل والده إلى القاهرة عام ١٨٩٢م. ومنذ أواخر الستينيات من القرن الماضى سرت فى مصر حركة قوية متوثبة تهدف إلى (تمصير أداة الحكم) ونقل صلاحيات (أو ولاية) اتخاذ القرار إلى مجلس نيابى مكون من ممثلى الشعب. كانت المناصب العليا - المدنية والعسكرية- فى أيدى الشركس والأرمن والأتراك وغيرهم وعلى رأسهم الخديوى. ولما أفلح الطامعون فى مصر من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم جر الخديوى إسماعيل إلى الاستدانة والإسراف فى الاستدانة بفوائد باهظة (فضلا عما يحصل عليه السماسرة) ولما عجز الخديوى عن سداد الأقساط والفوائد تدخلوا فى شئون مصر بحجة المحافظة على حقوق الدائنين، وخلعوا إسماعيل الذى حل مَحله ابنه توفيق. وفى عهده كانت الثورة العرابية وقمة الوثبة المصرية التى وقف فى وجهها الجميع من خصوم شعب مصر (من الداخل والخارج) : - الخديوى توفيق ومعاونوه من الخونة. والأوربيون وعلى رأسهم الإنجليز والفرنسيون. وانساق معهم السلطان العثمانى الذى أعلن تمرد عرابى وزملائه، وخروجهم على السلطة الشرعية.
وباسم السلطان وُزعت فى مصر آلاف المنشورات التى تتهم عرابى وصحبه بالخيانة! وفى الإسكندرية، وفى عام ١٨٨٢ حين كان وجدى طفلا أو صبيا - اصطنع أعداء مصر الفتن بين المصريين والأجانب لتبرير ضرب الأسطول الإنجليزى حصون المدينة الباسلة.
ولما يئس العدو من اقتحام التحصينات - فى كفر الدوار - تحول إلى قناة السويس ودخلها بتآمر الإدارة الفرنسية معه. وكانت معركة التل الكبير، وكانت الهزيمة. وكان الاحتلال الإنجليزى لمصر، والذى استمر فيها ثلاثة أرباع القرن. ولاريب أن وجدى (طفلا كان أم صبيا) عاش جو الفتن التى اجتاحت الإسكندرية، وسمع طلقات مدافع المعتدى الغادر وهى تدك دفاعاتها بلا هوادة؛ ولاريب أنه عاش (البلبلة) التى صاحبت الهزيمة وأعقبتها؛ ثم هذا الركود السياسى الذى خيم على المناخ المصرى إلى أن انطلق فيها صوت مصطفى كامل الذى كان وجدى أحد أعوانه! نعم كانت بلبلة، وكانت فتن، وكانت شائعات غذاها العدو المحتل، وأشعلها على مدى العقود التى احتل فيها ديارنا. وكانت كلها تركز - بالذات - على أن نفقد ثقتنا فى أنفسنا، وفيما يلى بعض الشواهد:

جاء فى المقال الافتتاحى[1] لجريدة الدستور (عدد ٢٣/١١/١٩٠٧) - وهو بعنوان «كيف نعيش كراما؟» : «مضى على المصريين عهد كانوا - لضعف شعورهم الوطنى -

---

(١) المقال بدون توقيع، وهذا يعنى أنه لصاحب الجريدة ومديرها.



إذا ضمهم مجلس، اعتز أحدهم أنه من الغز[1]، واعتز الآخر بأنه من الجراكسة، أو من السوريين أو العرب، ومن لايجد نسبا أجنبيا أغمض طرفه انكسارًا، ولسان حاله يقول:

فغضَّ الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولاكلابا

وبعد أن يشيد بأمجاد المصرى كمصرى وكمسلم - يقول : إنه لاينقصنا إلا الاستقلال. وثمن الاستقلال وأسسه هى الفضائل، هى الأخلاق. وقد أجاد شاعرنا شوقى حين قال :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفي نفس العدد من نفس الجريدة (ص ٢) مقال بعنوان «حقوق الوطن» بقلم محمد كامل السويفى؛ وفيه: إن الإنكليز دخلوا مصر لتهدئة الثورة التى أنتجتها الحركة الطائشة. ويشير إلى حديث للخديو مع جريدة الطان الفرنسية، وفيه أن الأمة المصرية رشيدة، وقد حان الوقت لاستقلالها (وانظر - أيضا : كتاب الدكتور الحاجرى عن وجدى (ص ٢١ هامش ١) . وفيه - نقلا عن الدستور، وصف للثورة العرابية بأنها حركة طائشة دبرتها الدسائس الأجنبية للقضاء على الحركة الوطنية. (الدستور عدد ١٦/١١/١٩٠٧) - وهو العدد الأول من الجريدة.

وأضيف إلى ماتقدم؛ ماجاء فى السطور الأولى من المقدمة التى كتبها المرحوم الأستاذ محمود الخفيف لكتابه[2] - كتب : كان المصريون إلى عهد قريب يذكرون اسم عرابى، فلا يبعث هذا الاسم - وا أسفاه! - فى أذهانهم إلا صور العنف والنزق. ونراهم - وإن لم يقصدوا - يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة، كأن هذه المعانى من مرادفاته. وما أذكر مجلسا تطرق الحديث فيه إلى عرابى - إلا وسرت فى الوجوه كآبة، وتسابقت الألسن إلى الهزء به، وتعديد مساوئه، وإبراز مثالبه؛ اللهم إلا قلة لايعجبهم هذا الكلام، ولكنهم لايعرفون كيف يدافعون عن هذا الظلم».

أقول : لقد أشرت فى كثير مما كتبت إلى الفلاح المصرى البطل «أحمد عرابى». من ذلك كلمة حماسية فى العدد الخامس من السنة الأولى (يناير ١٩٥٢) من مجلة «المعلم الأول» (ص ٢٧ ومابعدها - بعنوان «دور المعلم الأول - بعد إلغاء المعاهدة». وبعد أن قلت - مما قلت - عن مصر: إنها هى التى نهضت - بقيادة عرابى - نهضة لو

---

(١) يعنى بهم الأتراك.

(٢) «أحمد عرابى - الزعيم المفترى عليه» (من جزءين بهما ٦٩٢ صفحة - كتاب الهلال - العددان ٢٤٥ و ٢٤٦ - يونيو ويوليو عام ١٩٧١م).



قــدّر لها النجـاح لكانت إحـدى الدول العظمى[1] . ثم قلت : «ولكنه الاسـتـعـمـار البريطانى البغيض الذى كـان يتربص بنا، والذى استعان بنفر منا علينا، فـأحال نهضتنا نكسة، وأفقـدنا حريتنا وكرامتنا واسـتقلالنا، واستنزف مواردنا وامـتص دماءنا، وأشاع الجـهل والفقـر والمرض فينا، وسلط عـاداته السـيئـة علينا، وساق الانحـلال إلينا. إنه الاستعمار البريطانى الخبيث الـذى لم يكتف بغزو أرضنا، بل غزا عقولنا وقلوبنا، فشوه تاريخنا، وحاول أن يفقدنا الثـقة بأنفسنا، وبكل عزيز لدينا، وصورنا أمام أنفـسنا شعبا يتخذه الغالب مطيـة له. وهى فرية اختلقها هؤلاء الأعداء، ورددها الجـهلاء، حتى نجد من بيننا من يسىء الرأى فى ماضينا وحاضرنا، ويتشكك فى مستقبلنا. . ». وفى كتابى: «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة» (طبعة ثانية - ص ١٦٩ ومابعدها) - وتحت عنوان «فى ميدان عابدين» «موقف تاريخى لـلشعب المصرى فى وجه ظالميه» قلت: فى اليوم التاسع من سـبتمبر ١٨٨١م، وفى مـيدان عابدين بالقاهرة، وقف شـعب مصر = (يتقدمه فلاح مـصرى) موقفا تاريخيا عظيما فى وجه حـاكم مصر الخديوى توفيق. إنه يوم من أيام الحرية فى تاريخ الشعوب، ومن أجل كل الشعوب، ولم يبدأ هذا اليوم من فراغ. . إلى آخره.

وأعود وأقول : إنه لم يكن شيخنا وحده هو الذى شجب (الحركة العرابية) وأداءها . وقد مر بنا أن تسميتـها (الحركة الطائشة) كان تعبيرًا شائعـا بين حملة الأقلام، وفيما تنشره الصحف. وفى تطور للحوادث كـان إسقاط وزارة رياض أحد مطالب العرابيين. ورياض باشا هو الذي اتخـذ القرارات التى أعادت للمـصريين (وخاصة الفـقراء منهم) كرامتهم واحترام آدميتهم حين منع السخرة، والضرب بالكرباج. . إلى آخره. وهو الذى قرر التسوية بين الأغنياء والفقراء فى توزيع المياه وغير ذلك مما لم يعرفه الناس من قبل. وهو هو الذى ألغى أنواعا كثـيرة من الضرائب التى كانت تثقل كاهـل الفقراء، وأضاف مبلغًا كبيرا إلى مايدفعه الأغنياء من الضرائب الفورية ليسد العجز ويقيم نوعا من التوازن بين هؤلاء وهؤلاء.

وإن نسينا، فـلاينبغى أن ننسى دوره فيـما أسمـيه انقلابا فى وضع جـريدة الوقائع الرسمية، ومـساندته المطلقة لرئيس تحريرها الأستاذ الإمـام الذى نهض بها هو ومعاونوه (ومنهم سعـد زغلول) - نهضـة ماكانت لـتكون لولا شخصـية الأستـاذ الإمام وهمـته وثقافتـه وغيرته. لقد جعل منهـا مشرفًا عامـا على سائر أجهزة الدولة وهيئـاتها، حتى

(١) فى تلك الفترة ومـاقبلها كانت اليـابان دائما فى الاذهان، وكانت نهضتـها معاصرة لـنهضتنا فى القرن الماضى.



وزارة الداخلية التى كانت إدارة المطبوعات وإدارة الجريدة تابعتين لها. لقد أعلت الجريدة (المؤيدة من رياض) المصلحة العامة وجعلتها فوق الأشخاص - أيا كانوا - وفوق المصالح والمطامع الخاصة.

وإنى فى غنى عن الإشادة بدور الأفغاني ومحمد عبده فى محاربة الفساد والاستبداد والدعوة الملحة للعودة إلى القرآن والسنة، وقد آتت هذه الدعوة أكُلها وانتشرت بين الناس عامة، والمثقفين خاصة. وما العرابيون إلا من هؤلاء. إن الثورة العرابية كانت - كغاية وهدف - أولى نتائج السياسة الثورية التى حمل لواءها الأفغانى ومحمد عبده. وإن هذه السياسة الثورية، وإن مقالات الأفغانى ومحمد عبده فى الجرائد المصرية والوقائع الرسمية لم تذهب سدى. والأعمال فى الإسلام بالنيات وفشل الثورة العرابية راجع - أساسًا - إلى تآمر الخيانة والأطماع التوسعية.

لقد نُفىَ الأفغانى بلا تحقيق. ولقد حوكم الشيخ محمد عبده وسجن، وأغلب ظنى أن ذنبه عند الطغاة هو دعوته إلى الحق[1] فى الوقائع الرسمية وغيرها.

ورغم آراء عنيفة لمحمد عبده فى عرابى والعرابيين، فإنه شاركهم فى النتائج المؤسفة. انضم إليهم عندما تأزمت الأمور التى انتهت بالاحتلال. وأخذ الأعداء بيد الرجل الفاضل الهمام إلى السجن..!

مجلس النواب

إننا لسنا بحاجة إلى التنويه بأهمية الرأى العام القوى الذى تخشاه الحكومات. وهذا الرأى العام الذى تتحاشى الحكومات المساس بكبريائه لايكون إلا مع إدراك الشعوب لحقوقها إزاء حكامها، ومع وعى كامل وناضج بأنها مصدر السلطات. وفى بعض البلاد المتقدمة قد لاتكون هناك نصوص بشأن استقلال القضاء - مثلا - ومع ذلك لاتجرؤ الحكومة (أى حكومة) على المساس بهذا الاستقلال تجنبًا لغضب الرأى العام. وفى بلاد أخرى (فى العالم الثالث) توجد نصوص باستقلال القضاء وحمايته، ومع ذلك تَعَرَّض هذا القضاء لمذابح متتالية، وفي هذا استخفاف واضح بالرأى العام.

وفيما يلى أشير فى سطور قليلة إلى التجربة النيابية فى مصر خلال الربع الثانى من هذا القرن (العشرين). توفى شيخنا الإمام الهمام عام ١٩٠٥. وبعد بضعة عشر عاما من وفاته اندلعت ثورة ١٩١٩ - وخلال هذه الفترة كانت الحرب العالمية الأولى سنة

(١) وحب الأوطان حق وواجب ومعاداة الظلم والاستبداد حق وواجب.

١٩١٤ - ١٩١٨. وكانت دولة الاحتلال قد فرضت الحماية على مصر. وكان الخديوى عباس حلمى الثانى خارج مصر فمنعته من دخولها - وعَيَّنت السلطان حسين الذى جاء بعده الملك فؤاد ثم الملك فاروق. ومن الأيام الخالدة فى تاريخ مصر يوم ١٣ من نوفمبر عام ١٩١٨، الذى جعلته مصر عيدا وطنيا لها باسم «عيد الجهاد الوطنى»، ففيه ذهب ثلاثة إلى دار المعتمد البريطانى (المندوب السامى). كان على رأس الثلاثة سعد زغلول (وكيل الجمعية التشريعية المنتخب)، والصديق الصدوق للأستاذ الإمام، وساعده الأيمن فى تحرير الوقائع الرسمية التى كان يرأس تحريرها الشيخ محمد عبده، ويعضدها رياض باشا. وإذا كانت «العروة الوثقى» (بأعدادها الثمانية عشر) ذات دوى إسلامى وشرقى، لم يكن لصحيفة أخرى من قبل ولامن بعد، فهذا يقال - أيضا - فى الوقائع الرسمية فى عهد ازدهارها - فى المحيط المصرى. وأعود إلى يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ وأقول: إن زميلى سعد فى هذا اليوم وفى هذا اللقاء مع ممثلى بريطانيا العظمى - هما على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى باشا وقد طلبوا السماح لهم بعرض مطالب مصر على الحكومة البريطانية عقب عقد هدنة الحرب العالمية الأولى، وانتهت المقابلة بالرفض[(١)]. وأخذت بريطانيا تساوم وتسوف وتهدد، وتنفى الزعماء، فاندلعت ثورة ١٩١٩[(٢)]. وقام «الوفد» كوكيل للأمة بإرادتها الحرة. وانشق البعض على «الوفد وسعد». ثم كان أن صدر دستور ١٩٢٣ فى ظل ماعرف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر الذاتى (والمقيد بتحفظات) واستمر الجهاد بزعامة سعد والوفد ثم مصطفى النحاس والوفد على مدى الربع الثانى من القرن العشرين كما سبق أن ذكرت. وكان الوفد يناضل ضد استبداد القصر ليؤكد أن الأمة هى مصدر السلطات[(٣)] ويناضل ضد الإنجليز لإنهاء الاحتلال وترسيخ الاستقلال الكامل لمصر والسودان.

وأعود مرة أخرى وأقول : إنه لم يُجْر انتخابات حرة خلال الربع الثانى من القرن العشرين إلا وكان انتصار الوفد فيها كاسحا ساحقًا. والذى قرر هذا وكرره وأكده هو شعب مصر ، رغم تفشى الأمية فيه! إنه كان - رغم هذا - على وعى سياسى ناضج وثابت. وبيانه فى هذه الكلمات التى تعد على أصابع اليد الواحدة: «إنه كان يثق فى زعامته»!

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة، ص ٥٨٣.

(٢) كانت ثورة عارمة شاملة ملتهبة، قدم فيها الشهداء دماءهم عن طيب خاطر - كانت ثورة لم تعرف مصر مثلها من قبل ولامن بعد.

(٣) وهذا مما أسأل الله أن ييسره لى، ويهيئ لى أسبابه فى كتاب، أو كتيب بعنوان: «مصر والدستور - تاريخ ومواقف» (وانظر - كتابى : محمد فريد وجدى ص ١٠٣).

الهـــلال الأحمـــــر

بنــــد : ١٠

على الصفحة ٧ من أهرام ٢٣ مايو سنة ١٩٩٦م ، ومرة أخرى مع «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» (١٣٠) التى يحررها الدكتور يونان لبيب رزق، (وهى صفحة أسبوعية) نجد بالخط الكبير: «الهلال الأحـمر المصرى - أول دعاة لتأسيسه: محمـد عبده وفتحى زغلول. وفضلا عن صـورة مُعتادة للدكتور يونان - توجـد صورة لكل من : الخديوى عباس حلمى - الشيخ محمد عبده - الشيخ على يوسف - عبده الحامولى.

يلى ذلك (على أرضية سوداء - وبالخط الأبيض الكبيـر)- الغرض من الجمعية : «مساعدة جـرحى الجيش وعيلات قتلاه وأيتـامهم فى الحرب السودانية - الجمـعية تولد مصرية خـالصة ولا أثر للوجود الأجنبى فيهـا - مشكلة التمويل تقف عقـبة أمام تطور الجمعية». يبدأ المقال بإشارة إلى نشأة الصليب الأحمر وأشهر ممرضة فى التاريخ ، وهى «فلورانس نيتنجيل» التى قامت خلال حرب القـرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) بتشكيل مجموعة من الممرضات نــزلت بـــهم إلى شـبه الجزيرة المشهورة. . وكانت رسالتهـا التخفيف من ويلات الحرب على المتقـــاتلين، كل المتقاتلين أيا كانت الدول التى ينتسبون إليها. وكانت تركـيا طرفـا فى حرب القرم، وكـان اثنا عشر ألفـا من المصريين يشـاركون فى جيشها. وفى عام ١٨٦٤ عقدت معـاهدة جنيف لتقنين رسالة الصليب الأحمر - أشهر منظمة إنسانية فـى التاريخ، والتى وقعت عليها جميع الدول الـكبرى فى ذلك العصر. ولحماية جـميع العاملين فى الإسعـاف والتمريض ونحوهمـا، كان مطلوبا لتمـييزهم - وسائر معداتهم - وضع شريط يحمل صليبا أحمر على أرضية بيضاء.

وكان فى مقدمة أول مجموعة تصدت لإنشاء منظمة الهلال الأحمر فى مصر الشيخ محمد عبده (رئيس أولى اللجان التى دعت إلى تكويـن الهلال الأحمر) - ومعه أحمد فتحى زغلول، شقيق الزعيم سعد زغلول.

شهادة الميلاد الأولى للجـمعية حررها أحمد فـتحى زغلول وبعث بها للأهرام التى نشرتها فى صدر صـفحتها الأولى فى عددها الصادر فى ١٠/٥/١٨٩٦، مما جـاء فيها «فى يوم ٢٦/٤/١٨٩٦ اجتمع فى منزل سعادة أحمد سيوفى باشا حضرات أمين فكرى باشا ناظر الدائرة السنية، ومحمـد ماهر باشا محافظ مصر والأستاذ الشيـخ محمد عبده القاضى بمحكمة الاستئناف. . وأحمد فتحى زغلول بك كاتب سر اللجنة وقرروا إرسال منشـور لأولى البر والإحـسان. ويُلاحظ غـيـاب الوجود الأوربى من عـمل الجمـعيـة

الوليدة.. كما يلاحظ أن أحد أعيان الإسكندرية «البارون فليكس دى منَشّه» كان قد سعى قبل أسابيع من تأسيس جمعيتنا (السابقة الذكر) إلى إقامة ما أسماه «جمعية الصليب الأحمر المصرية» التى لم تلق إقبالا واختفى ذكرها بعد قليل. يقابل ذلك وجود العنصر العربى (المغربى والسورى) - فى جمعية الهلال الأحمر. وكما كانت حرب القرم هى الرحم الذى خرج منه الصليب الأحمر فقد كانت الحملة المصرية الإنجليزية على السودان (لمحاربة المهدية)[1] هى الرحم الذى خرج منه الهلال الأحمر. وحدث تنافس بين مختلف عواصم المديريات، بل وعواصم المراكز على إقامة الحفلات الخيرية لجمع التبرعات للجمعية. وكان يحييها جميعها أشهر مطربى العصر: عبده الحامولى. وشاركت الصحافة فى الإشادة بجمعية الهلال الأحمر وبيان أغراضها ووجوب مساعدتها. وفى المقال الذى أنقل عنه إشارة إلى الفروق بين الصليب الأحمر الذى خرج من رحم حرب القرم والهلال الأحمر الذى خرج من رحم حرب السودان: من ذلك أن المعونة الطبية فى هذه الأخير كانت أضعف فى ميدان الحرب من الأولى - كانت مهنة التمريض غير شائعة فى المحروسة (العاصمة المصرية) - كما أن النساء فى مصر كن حبيسات البيوت. ولعل ذلك مادفع الداعين لجمعية الهلال الأحمر إلى صرف جهودهم إلى العناية بأسر قتلى المعارك أكثر مما دفعهم إلى العمل على حمايتهم من القتل (أى إنقاذهم من الموت بسبب إصاباتهم).

وفى المقال إشارة إلى أن المؤسسين قد عقدوا اجتماعًا آخر فى منزل السيوفى باشا، وصاغوا منشورًا وقعه رئيسها الشيخ محمد عبده، ونشرته الأهرام وسائر الصحف، وكان بمثابة أول خطة عملية لجمع التبرعات: أُنشئت لجنتان إحداهما لجمع المال من الأعيان، والأخرى لجمع المال من الموظفين.. إلى آخره.

أقول: إن المال عصب الحياة، حياة المؤسسات الخيرية وغيرها. وكان فى مصر دائمًا رجال للنهوض بكل ما يبنى الأوطان، وخاصة من ناحية الجهود الذاتية التى تعنى تخفيف العبء عن الحكومة، بمشاركتها فى كل المشروعات التى تعود على البلاد بالنفع والخير. وإخلاص القيادة الناهضة بالجهود الذاتية والثقة فيها هما الركيزتان الأساسيتان للنجاح.

هذا، وقد أشرت فى البند السابع إلى الجمعية الخيرية الإسلامية، والدور الذى قام به الأستاذ الإمام فى إنشائها ومضيها فى أداء رسالتها. وأضيف هنا مانشرته الأهرام فى

(١) المهدية (وكذلك السنوسية فيما بعد) - كانت المهدية ثورة قومية عربية إسلامية، وفى هذا الوقت كان الحاكم الحقيقى لمصر إنجلترا ورسالة الهلال الأحمر إنسانية، أى تقوم بواجبها نحو كل الأطراف.



ص ٧ من عددها المؤرخ ٢٤/ ٤/ ١٩٩٧م - بمناسبة وفاة الأستاذ الإمام (الأهرام ديوان الحياة المعاصرة) - د. يونان لبيب رزق. فى هذه الصفحة صورة كبيرة للأستاذ الإمام تتوسط صورا أخرى (منها صورة للأفغانى) - أكتفى بالعناوين - فى الجمعية الخيرية الإسلامية - مساعدة الأسر الفقيرة المستورة - فى إصلاح المحاكم الشرعية - إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لتعليم الطلاب العلوم العصرية - فى مجلس شورى القوانين: يتبنى قضية تطوير الكتاتيب. فى الإفتاء : دور مؤسس فى تحويل مكتب الإفتاء إلى دار الإفتاء، فالصفحة كلها تقريبا خاصة[١] به وبأهم إنجازاته.

دخول الأستاذ الإمام الامتحان فى الأزهر[٢]

بند : ١١

بعد أن تلقى - رحمه الله تعالى - ماتلقاه على شيوخ الأزهر، وعلى السيد جمال الدين الأفغانى - عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعهود. وقد كتب عن امتحانه مانصه :

عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هـ[٣] . وابتليت فى الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش[٤]، وكان يعادينى على الغيب اتباعًا لآراء من لارشد عندهم من بلداء الطلبة. وكانوا قد أجمعوا أمرهم على أن لايمنحونى درجة ما فى العلم، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها، ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من الامتحان بالدرجة الثانية، وصرت مدرسا من مدرسى الجامع الأزهر، وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية» إلخ.

وقد أخبرنى - رحمه الله - (والكلام للشيخ رشيد) أن بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب

---

(١) مسمى الجمعية الخيرية الإسلامية بدأ فى أواخر عصر إسماعيل وارتبط فى تلك المرحلة باسم عبدالله النديم. وقد اتخذت تلك الجمعية الإسكندرية مقرا لها، وانصرف نشاطها بالأساس إلى التعليم، حيث لقيت مدرستها التى أقامتها بالثغر رواجا دام حتى انتهاء الثورة العرابية واختفاء النديم فى ربوع الريف المصرى (عن نفس صفحة الدكتور يونان).

(٢) ص ١٠٢ ومابعدها - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - جـ ١ للسيد محمد رشيد رضا.

(٣) هكذا فى الأصل فلم يذكر جمادى الأولى أم الثانية.

(٤) كان الشيخ عليش متشددا، وكان يطارد بعصاه (حلقات) الفلسفة ويكفر (محمد عبده)، ووزره - فى نظره - أنه من تلاميذ الأفغانى!

فوق ماكانوا ينتظرون طفقوا يناقشون ويراجعون وينتقلون ويستطردون حتى صار الامتحان مناظرة تتولاها المشاغبة والمكابرة. فعندئذ حلف الشيخ العباسى أنه لم ير أحدا امتحن في عصره مثله، وأنه لو كان فوق الدرجة الأولى درجة ممتازة لاستحقها. فأراد أحد الشيوخ - وأظنه الشيخ الرافعى - أن يوفق ويصلح، فأخذ الورقة وكتب له الدرجة الثانية - وطفق يعرضها على إخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه ليوقعوا عليها فوقعوا، ثم أعطوها للشيخ العباسى فأمضاها لهم، ولم يحب أن يراجعهم بعد أن رأى منهم مارأى، فظفروا ببعض المطلوب، وهو حرمانه من الدرجة الأولى.

أقول : لقد مضى على تاريخ امتحان شيخنا حوالى القرن وربع القرن بالتاريخ الهجرى. وهكذا كان شأن الأزهر وامتحانات الأزهر وقتئذ؟! كثيرون لم يكونوا يحصلون على العالمية إلا بعد أن يتقدم بهم العمر. ولم تستطع لجان الامتحان - إذا كانت على النمط الذى رأينا - أن تكون منصفة. لقد كانت عاجزة عن تجاوز الاعتبارات الشخصية، والسمو فوقها. ولولا أن تدارك الشيخ العباسى الأمر لسارت الأمور فى الطريق الأسوأ. وهل هناك ماهو أسوأ من مقاومة الكفاءات، والقذف بها فى عالم اليأس! لم يكن الشيخ عبده هو أول من عومل هذه المعاملة ولم يكن آخرهم. وكم لهذه اللجان المجحفة من ضحايا! أما شيخنا، وهو هو من اعتزاز بنفسه، فلم ينحن أمام الظلم، ولم يلن أمام الباطل؛ بل إنه شاغب مشاغبيه، وساجل مساجليه. وثبت على الحق ضد كثرة، وأصحاب سلطة وسطوة، تمسكت بالباطل. كان منه العلم والفضل، وكان من معارضيه الصد والكيد! إن موقفه من لجنة الامتحان هذه، وإن موقفها منه، كان قَدَرَه وحظه على مدى حياته!

وأعيد، وأكرر هذا البيت :

لاتعجبن من هالك كيف ثوى   بل فاعجبن من سالم كيف نجا!

طلبه العلم بعد التدريس[1]

إذا كانت الكثرة ممن يحصلون على العالمية، يعتبرونها غاية التحصيل، والتعلم، فلا تتجه همتهم بعد ذلك إلا إلى استغلال العلم وطلب المال به، وإحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل؛ فإن شيخنا لم يسلك مسلكهم، وإنما اختار

(١) ص ١٠٣ ومابعدها.

مسلك السـلف الصالح الذين يؤثر عنهم: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» - وكان يقول إلى آخر حياته: إننى لا أزال طالب علم، وأستزيد منه كل يوم. وكان له فى طلب العلم ثلاثة أدوار: **الأول** الطلب على طريقة (قراءة المتون مع الشروح والحواشى والتقارير) سلكها زمنا ثم ملها إلى غيرها، فقيض الله له العلامة جمال الدين الأفغانى الذى سلك به ومعه طريقا آخر، ورفعه إلى سماء عرفان الحقيقة والإفصاح عنها باللغة الرفيعة. بعد تحريره من قيود تقليد المؤلفين، وتعويده الحكم باليقين. وكان هذا فى مجال العلوم الإسلامية المكتوبة باللغة العربية، مع شىء قليل من العلوم الحديثة، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة[1] .

وأما الدور الثالث فهو النظر فى علوم الإفرنج. قرأ - رحمه الله - كثيراً مما تُرجم من الكتب، ثم تعلم اللغة الفرنسية. فصار يقرأ الكتب فيها لايكاد يتركها. وكانت عنايته بعلوم الأخلاق، والنفس، وأصول الاجتماع الإنسانى والتاريخ وفلسفة وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم. وقلما علم بكتاب إفرنجى يتكلم عن الإسلام والمسلمين إلا واستحضره وقرأه. وقد قرأ عدة كتب فى تربية الإرادة خاصة. . وهذه العلوم الإفرنجية هى التى أعطته القوة العظيمة فى الدفاع عن الإسلام، وفى زيادة البصيرة بخدمته. وكان يقول: من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية لايُعد عالما فى هذا العصر. كتب يقول: بدأت تعلم الفرنسية وأنا فى الرابعة والأربعين من العمر. ولكن ميلى لتعلم لغة أجنبية بدأ أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته. وعندما سافر إلى فرنسا أول مرة لم يتيسر له تعلم الفرنسية لتفرغه لتحرير العروة الوثقى ولصحبته لجمال الدين، فكانا يتكلمان العربية.

وبعد عودته من المنفى إلى مصر، واشتغاله بالقضاء رأى زملاءه فيه يعرفون الفرنسية، وهى اللغة الأم للقوانين المطبقة، فحفزه هذا إلى تعلمها، واستحضر أستاذاً ساعده فى ذلك. فإذا انفرد وقرأ، قرأ بصوت عال. يقول: استطعت القراءة والفهم، أما الكلام فلا. تكررت أسفاره إلى سويسرا وغيرها وحضر دروس العطلة فى كلية جنيف، وبعد أن أشار إلى العلاقات المتشعبة فى الشرق والغرب قرر أن تعلم لغة أوربية صار واجبا للاستفادة من الأخيار منهم، واتقاء الأشرار. (وفى مثل دارج) «من تعلم لغة

---

(١) كان جمال الدين يشجع مريديه على الاتصال بالغرب المتقدم، ونقل المفيد النافع عنه.



قوم أمن مكرهم». وكان ديدنه دائما الاستزادة من المعرفة، والعمل بقول السلف: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد»[1] (وقد سبق ذكره).

فى تربيته الروحية وتصوفه

تحت هذا العنوان - كتب المرحوم الشيخ رشيد طويلا، وخاصة عن التصوف (من حيث هو)، وعن شيخنا والتصوف أنقل عن ذات المرجع (ص ١٠٦ ومابعدها) مايلى:

نشأ شيخنا فى بيت يوصف أهله بالأخلاق الفطرية الحميدة التى لاينقصها إلا نور العلم وقد كان له. وقد مر بنا أنه فى صباه وصدر شبابه لم يُعن إلا بالفروسية من ركوب الخيل وغير ذلك. وهذه الألعاب (والكلام للشيخ رشيد) مما يحسن أن يُربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية؛ وهى مما يُربى عليه أبناء الملوك والأمراء فى أوربا.

وبعد أن أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية. وأقول: إن الشيخ درويش كان النجم الأول من نجوم ثلاثة كان لها تأثيرها فى حياته. وقد مر الكلام فى ذلك. وأضيف هنا مما جاء تحت ذات العنوان. أن الشيخ درويش (الذى تولى تربيته الدينية) ألزمه العزلة ومجاهدة النفس (والكلام للشيخ رشيد). وكان من جبلة شيخنا (ومنذ الشباب) - أن يأخذ كل شىء بقوة[2]. فكان مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر، ويمشى مطرقًا لاينظر إلا حيث يضع قدميه، ولايكلم أحدًا إلا لضرورة. وقد بقى عدة سنين لايُلقى نظرة على

---

(١) العبارات المذكورة فى المتن عن شيخنا تثير عندى الكثير. فقوله: إنه كان يقرأ بصوت مرتفع يذكرنى بأنى كنت كذلك. وكنت فى سن العشرين، وكنت بعيدًا عن أهلى «مدرسا بإحدى القرى»، وكنت إلى جانب عملى المرهق فى التدريس أستعد للتقدم لامتحان كفاءة دار العلوم، وكنت أقرأ عن مارتن (المصلح الدينى) - ففاجأتنى أول نوبة لمرض النيورستانيا ولم يتم شفائى إلا بعد ثلاث سنوات، وكان أنجعها وأنجحها (العلاج الطبيعى) - وكل هذا مفصل فى كتابى «صفحات من اليوميات» - وذات الكلمة عن شيخنا تثير عندى خاطرًا آخر. فإنى أزعم أنى أحب العلم. ومن هذا المنطلق عشت معظم حياتى أجمع بين عملى الوظيفى، والقراءة والكتابة (غالبا لنفسى) وآخر عملى الوظيفى كان التدريس بجامعة أم درمان الإسلامية التى تركتها أول عام ١٩٨٣ - ومنذ ذلك التاريخ أقرأ وأكتب وأنشر كتبا - والقافلة تسير بعون الله.

(٢) أقول: يقول تعالى: ﴿وإذْ أخذْنا ميثاقَكُمْ ورفعْنا فوْقكُمُ الطُّور خُذُوا ما آتيْناكُم بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا ما فيه لعلّكُمْ تتّقُون ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣]؛ وانظر - أيضا - وعلى سبيل المثال ٩٣ - البقرة و ١٤٠ - الأعراف و ١٧١ من نفس السورة و ١٢ مريم.. إلى آخره. وفى هذه الأخيرة يقول تعالى: ﴿يا يحْيىٰ خُذِ الْكِتاب بِقُوَّةٍ وآتيْناهُ الْحُكْم صبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم] (خذ الكتاب بقوة أى بجد واجتهاد).



امرأة أجنبية حتى فى الطريق. وقد كان لكثرة الانهماك فى الذكر والفكر والنظر فى كتب التصوف والتنقل فى أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه، ويزج فى عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون، فيناجى أرواح السابقين. ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه؛ ولكنه كان يقول: إن مايحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لايجوز ذكره لغير العارف، ولاتجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك؛ لأنهم يفتنون كثيرًا من الناس ولايفيدون به أحدًا. وقال مامعناه: مازج أحد نفسه فى عالم الخيال، ثم قدر على الخروج منه إلا أن يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه، وذلك قليل.

وأقول: (والكلام للشيخ رشيد) - إن السيد جمال الدين هو الذى أخرجه منه ورقى به إلى ماهو خير منه. ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن جاراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد، وأسبق إلى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عُقَد كلام الصوفية التى يعجز عن حلها. حتى أقنعه أنه أحد أفراد أهلها.

ولو كانت الجماهير من الناس يعرفون فى أيام حادثة الشيخ عليش شيئًا من أمر الرجل فى تصوفه ومنسكه لهاجوا على الشيخ عليش، وإن كانت شهرته بالصلاح عظيمة، وعلى من وشى عليه من فساق المجاورين، ولما خاضوا فى فقيدنا بالذى خاضوا. ولكنه كان يبالغ فى كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة. والأمة مستعدة للشر، وكانت الشبهة عليه حضور حلقات الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد جمال الدين الأفغانى. إن الشيخ درويش هو الذى رباه أيضا على التعرض للإرشاد الدينى والتصدى لنصيحة الناس. كتب شيخنا فقال: «قلت: إننى كنت فى أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئى إلى الأزهر فى عزلة عن الناس إلا من أستفيد منه علما أو نصيحة، لكن بعد مضى سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودنى فى سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة وبلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى - قال لى - عندما رجعت إلى محلة نصر سنة ١٢٨٨ هـ. إلى متى هذه العزلة، وما الفائدة فى العلم وتحصيله إذا لم يكن لك نورًا تهتدى به، ويهتدى به الناس. إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك.. فعليك أن تخالط الناس وترشدهم إلى الطريق القويمة والسنة الصالحة. فذكرت له ثقل الناس على نفسى إذا لقيتهم، مع بعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم، فقال لى: هذا من أقوى الدواعى إلى ماحثثتك عليه، فلو كان جميعهم هداة مهديين لما احتاجوا إليك، ثم أخذ يستصحبنى إلى مجالس العامة، ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه إلىّ الخطاب لأتكلم، فيتكلم الحاضرون فأجيبهم، وأنطلق فى القول على وجل أول الأمر، ومازال بى حتى وُجد عندى شىء من الألفة بالناس. وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاءً شديدًا ومات فى السنة

التاليـة» اهـ. يقول الشيخ رشـيد : يظهر لى أنه أحس بـأن عمله قد تم بتكمـيل تربية مريده، وأنه أُلهم أن أجله قـد دنا، إذ تم عمله فـبكى بكاء مودع. وللصوفـية من هذا الإلهام والشعور، ما هو معروف مشهور.

(وللصوفـية أحـوال ومقامـات) - وكان شيـخنا محـمد عبـده فى الصوفـية نكرة لاتتعرف، أنه صاحب مقام لاتغلبه الأحوال، ولايسـهل عليه التأثير فى نفوس الأغيار، ولايحتاج إلى كلفة لإخفاء ماهو فيه وكتمان ماوُهِبَه وأُعطيه، فكان مقامه مقام الصدق، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصـيته أنه كان من أبناء الدنيا.. ولكن من وقف على تاريخه يعلم أن هذا الظن من البـاطل، فإنه كان يخفى ما اسـتطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال. ولما عاد من منفاه فى سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيـا فى المحاكم الأهلية قال : إنى خلقت لأكون معلما لا لأكـون قاضيا، وإننى أعلم أننى إذا دخلت القضـاء أرتقى إلى أعلى درجاته، ومع هذا أختـار أن أكون معلما فى مـدرسة دار العلوم، على علمى بأنه لا ارتقاء فى صنعـة التعليم. ولما بُلِّغ أنه صار مـفتيا انكـمش وأخبرنى (والكلام للشـيخ رشيد) بذلك وهو ممتـعض حتى أنى لم أنطق بكلمة تشعر بالسرور أو التهنئـة، ولكنى قلت له: ومالى أراك منقبضًا؟ قال: لأن هذه وظيفـة لا عمل فيهـا (تكلم الشيخ رشيـد بعد ذلك ص ١٠٩ ومابعـدها حتى ص ١٣٠ - تحت عنوان «ماهو التصوف»؟

ومما جاء فى هذه الصفحة الأخيرة (بشأن إصلاح الطرق الصوفية ، وصعوبة ذلك) - إن إصلاح شأنهم عسـير جدا، ولايقوم به إلا من جمع بين العلم الصـحيح والتقوى والإخلاص وقـوة التأثير بالكلام وبالإرادة، وهيـهات أن يوجد أفراد من هؤلاء اتفـاقا، وإنما يوجد كـل عدة قرون منهم واحـد، وكثـيرا مـا يكون لهذا الواحـد من الصوارف مايحول دون التصدى لهذا الإصلاح، فيجب على المسلمين السعى إلى تربية عدد منهم. وقد كان الأسـتاذ الإمام من أولئك القادرين على هذا الإرشـاد.. لكن صرف عنه حتى أن أكثر الناس كانوا يظنون أنه ليس منه فى ورد ولاصدر. وطالما كـانت نفسه تتوق إليه - يقول الشيـخ رشيد قال لى مرة: إذا يئـسنا من إصلاح الأزهر فإننى أنتـقى عشرة من طلبة العلم وأجعل لهم مكانا عندى فى عين شـمس أربيهم فيه تربية صوفـية مع إكمال تعليمـهم، وأستعين بك على ذلك. وكـان اقترح مثل هذا الاقـتراح على السيد جـمال الدين أيام كانا ينشئان العروة الوثقى فى باريس.

ولو تم للأسـتاذ هذا على الوجـه الذى يريده لكان أعظم أعمـاله فائدة. ومـاكان يحول دون تمامه إلا تعسـر الاهتداء إلى عشرة من المريدين المستعدين لهـذه التربية. فإن

أوبئة فساد الفطَر والأخلاق وضعف الإرادات والعزائم لم يكد يسلم منها إلا الأفراد الذين يعز الاهتداء إليهم بالسعى، وإنما يُعرف منهم من يُعرف بالاتفاق والمصادفة غالبا. على أن تلك الروح العلية، والإرادة القوية جديرتان بتحويل الطباع، وتبديل الأوضاع.

أقول : ليس لى فى الصوفية على هذا النحو الأصيل والرفيع توجه ولا اهتمام. وإذا كانوا يسمونها عالم الحقيقة، فقد شدتنى إليها دنيا الشريعة. إن قضايا التأمل والنظر والتفكر، والترقى فى مدارج الصوفية ليست مما يأتى عفويا أو اتفاقا. إن لها مسالك لايسلكها ولايمضى فيها إلا قلة لايجود بها الزمان إلا نادراً. وعندى خبرات وذكريات عن الأدعياء: فى طفولتى وصباى، وعندى كذلك مشاهدات ومعلومات عما رأيت فى السودان. فى قريتى انتميت إلى الرفاعية، وإلى الشاذلية القاوقجية. وكان شيوخها من الصالحين. إن سن الشباب هى سن الطيش، وما أكثر هؤلاء من الشباب الذين جرفتهم تيارات الجريمة. إنها ليست جريمة السرقة مثلا، إنما هى جرائم التخريب المتبادل، قلع الزرع، وحرق فدادين القمح. وأعتقد أن الذين أراد الله لهم الانتماء إلى الطرق الصوفية، أراد لهم - وفى نفس الوقت الصون من الأعمال الشيطانية، أما فى السودان فقد كان للطرق الصوفية مكانة جليلة وخطيرة. لقد انتزعتهم من التعصب للقبلية إلى التبرك والاعتزاز بالطريقة وشيخ الطريقة. حين توفى الشيخ على الميرغنى، وكان ولداه (محمد وأحمد شابين مازالا) رأيت الوزراء (من المنتمين إلى الختمية «الميرغنية») يقفون بين أيديهما كما لو كانا فى حضرة الوالد الراحل.

ولقد رأيت فى قريتى دجالين من الشباب يرتدون ملابس مشايخ الطرق، ومنها العمامة الحمراء أو الخضراء، ثم يسيحون إلى حيث لايُعْرفون (من الغربية إلى مديرية البحيرة) ويمارسون النصب والدجل - وخاصة مع النساء[1] - على أوسع نطاق. ولعن الله الجهل الذي مازالت الكثرة من أبناء شعبنا غارقة فيه! .

وأعود إلى السودان ، وعملى فى جامعة أم درمان الإسلامية، وكان مديرها (أو رئيسها) - فترةً ما - الدكتور حسن الذى استقال عقب وفاة والده ليحل محله فى مقامه كشيخ للطريقة[2] .

---

(١) فى النساء ضعف، وهن - غالبا - وخاصة فى الريف - مغلوبات على أمرهن - وكثيرا مايلجأن إلى أدعياء الصلاح من أجل تميمة أو تمائم لمنافسة الضرائر وكسب قلوب الأزواج - إليهن - وماشابه ذلك.

(٢) أما الدكتور التفتازانى (الذى أعرفه وأعرف أباه عن قرب) فقد احتفظ بعمله كأستاذ للفلسفة الإسلامية والتصوف، وكنائب لرئيس جامعة القاهرة، مع توليه منصب «شيخ مشايخ الطرق الصوفية» له الرحمة والرضوان

شيخنا الإمام... وهنيئا له

بنـد : ١٢

في كتـابه القيم «زعماء الإصـلاح - في العصر الحـديث»، وفي ترجمته للأسـتاذ الإمام استشهد الأستاذ الكـبير أحمد أمين - وهو بصدد الكلام عن عامل الوراثة، وعن المواهب الفطرية النادرة (أو قل : الأحـجار النفيسـة) - التي لم يتهيـأ لها من الظروف ما تهيأ للشيخ محمد عبـده لكي يظهره (أو يُكتشف) وكان مصيرها الدفن في الرمال، أو الضياع كما يحدث للملايين من فقراء الفـلاحين وغيرهم، الذين اكتسحتهم الأمواج المتراكبـة المتلاطمة من الفقر والجهل والمـرض، فتاهوا وذابوا فيها ولم يشـعر بهم أحد، بل، ولم يشعروا هم بأنفسهم! استشهد بهذا البيت (ص ٣٠٣ من الكتاب المذكور)

لاتعجبن من هالك كيف ثوى   بل فاعجبن من سالم كيف نجا؟!

ما أكثر ماتسلط عليّ هذا المعنى ككابوس ثقـيل، وأنا أشهد وأتألم لما تعانيه بلادي وديار الإسلام، بل والكثرة الكاثرة من سكان هذا الكوكب الذي نعيش فيه!!

وأنتقل إلى ماقصـدته، ومالاقاه الشيخ محمد عبـده في طريقه من مصاعب، وفي حياته من متاعب منذ حمل على كاهله مسئولية الإصلاح. لقد حاربته كل الجهات حتى الأضداد، اجتمعت كلمتهم على الكيد له، وحتى من أراد إصلاح أحوالهم وإنقاذهم مما كانوا فيـه. لقد عمد إلى الإصـلاح عن طريق التربية والتعليم، والـقدوة الحسنة، وأول ماقصد، قصد إصلاح الأزهر، أكبر مؤسـسة علمية وتعليمية على مدى القرون، وحتى عصره (عصر الإمام).

قاومه الجامدون المتمسكون بكل قديم، ووقف معهم خديوي مصر عباس حلمي[(١)] الذي مضى في عدائه وفجره إلى أقصى مـدى من اللاأخلاقية واللادينية، وهبط وسقط في مستنقعات الإسفاف. ولاقى شيخنا الألافي[(٢)] حين اتجه إلى إصـلاح المرافق الدينية الأخرى كشئون الأوقاف والمحاكم الشرعية.

وأعود مرةً أخرى إلى البيت السالف الذكر، وإلى هموم شيخنا الإمام ومتاعبه، لقد كان محـمد عبده «أمـةً في رجل» وقد حمل همومًـا تنوء بها العصبـة ذات القوة. ولو وزعت متاعبـه على مجموعة من ذوي العزم لناءت بهـا، ووقعت تحت ثقلها. وإني لا أعـجب لموته في السادسـة والخمـسين من العـمر، وإنما أعـجب كيف عـاش إلى هذه

(١) وقـد مضى من ذلك خـلال هذه الدراسـة (انظر بند ٨)، وانظر أيضـا (بند ١٥) من كتـابي عن جمال الدين الأفغاني، وهو بعنوان «إلى هذا الحد من اللاأخلاقية. يمضي عباس حلمي».

(٢) أي المتاعب.

السن؟[1] كيف نجا؟ وقد كان الكيد يأتيه من كل جهاته، ومن فوقه ومن تحته، ومن شماله ويمينه، ومن حيث يتوقع، ومن حيث لايتوقع!! إنه لم يكن من بليدى الحس والمشاعر!!

شيخى ، العالم الفاضل، والرجل الصالح: لك فى قلوبنا منازل الأبرار، ولك عند الله منازل المقربين. . ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة].

الشيخ محمد عبده

وتفسيره المستقل المستنير للقرآن الكريم

بند : ١٣

فى كتابى الذى أعتز به، عن «غزوات الرسول وسراياه» - تابعت هذه الغزوات والسرايا، لأقرر - وأنا مطمئن القلب والعقل - أن الناس لم يُكرهوا على الدخول فى الإسلام. والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة البقرة: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]- ومع ذلك ، فإن كتب التفسير التى اطلعت عليها، وهى ليست قليلة، وكذلك كل الفقه، هؤلاء وهؤلا مجمعون على أن الإسلام انتشر بالسيف.

ويوضح ذلك الدهلوى[2] بقوله : «لماذا ذهب الفقه القديم عامة إلى أن قتل الكفار واجب وإن لم يبدءونا، وأن الخيار لهم بين أحد أمرين: إما الإسلام وإما القتل لا ثالث لهما. ويمضى قائلا: إن تكليف الله عباده بما أمر ونهى، مثله كمثل رجل مرض عبيده، فأمر رجلاً من خاصته أن يسقيهم دواءً، فلو أنه قهرهم على شرب الدواء وأوجره فى أفواههم لكان حقا.

إن كثيراَ من الناس تغلب عليهم الشهوات الدنية والأخلاق السبعية ووساوس الشيطان، ويلصق بقلوبهم رسوم آبائهم، فلا يسمعون فوائد الدواء. فليست الرحمة فى حق هؤلاء ليدخل الإيمان إليهم رغم أنوفهم، تركهم وذلك ، ولاعلاج إلا بقتل من كان منهم ذا نكاية شديدة فعند ذلك يدخل أتباعهم وذراريهم فى الإيمان برغبة وطوع.

(١) والأعمار بيد الله.

(٢) المعروف بشاه ولىّ الله بن عبد الرحيم الدهلوى انظر كتابه «حجة الله البالغة - تحقيق الشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٧٨٤ ومابعدها دار الكتب الحديثة بالقاهرة.



ولذلك كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر «وكان عليك إثم الأريسيين» (أى الأتباع من الفلاحين). وربما كان أسرهم وقهرهم يؤدى إلى إيمانهم. وإلى هذا أشار النبى ﷺ حيث قال: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة فى السلاسل»[1].

وفى زاد المعاد لابن القيم (جـ ٢ ص ٢٢٣ ومابعدها): أمر الله سبحانه وتعالى النبى الكريم بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية[2]. وبنفس المرجع ص ٧٥ ومابعدها – تحت عنوان: «الجهاد – فى تفسير المنار والسياسة الشرعية للشيخ خلاف» «فى حدود اطلاعى أقول: «إن الإمام محمد عبده» (ت. عام ١٩٠٥م) هو أول من ذهب إلى الرأى المخالف لآراء الفقهاء القدامى، ومن نسج على منوالهم إلى ماقبل عصره كالنسفى والجلالين والآلوسى وغيرهم، ثم حذا حذو الإمام الكثيرون ممن جاءوا بعده، مما شكل فريقا حديث النشأة، لكنه واسع الانتشار.

وفيما يلى عرض لآراء الأستاذ الإمام وصاحب المنار (رضى الله عنهما). فى تفسير المنار (جـ ٢ ص ١٦٧ ومابعدها) عن الآية ١٩٠ – البقرة ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾**﴾، أى أنى أذنت لكم فى القتال على أنه دفاع فى سبيل الله للتمكين في عبادته فى بيته، وتأديبا لمن يحاول أن يفتنكم عن دينكم وينكث عهدكم «ولاتعتدوا» بالقتال فتبدءوهم، ولافى القتال فتقتلوا من لايقاتل كالنساء، أو من ألقى إليكم السَّلَم، ولابغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب. وعن الآية ١٩١ ﴿**...وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ...**﴾، أى إذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم. ﴿**...وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ...**﴾ – يشير إلى ماتعرض المسلمون له من ترغيب وترهيب وتعذيب. وما تقرره هذه الآيات على هذا الوجه مطابق لقوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾**﴾ [الحج]، وهذا أول مانزل من القرآن معللاً بسببه. فإن انتهوا عن القتال فكفوا عنهم، أو فإن انتهوا عن الكفر فإن الله يقبل منهم. (١٩٢– البقرة) وعن الآية ١٩٣– ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾، عطف على الآية ١٩٠ التى بينت بداية القتال. وهذه (١٩٣) بينت غايته. قال الأستاذ الإمام: أى حتى لاتكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين، ويمنعونكم من إظهاره والدعوة إليه، ويكون الدين لله، أى يكون دين كل شخص خالصا لله. ﴿**... فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ...﴿١٩٤﴾**﴾ [البقرة]، أى أن المحظور فى الأشهر الحرم هو الاعتداء دون المدافعة.

---

(١) (من حديث طويل رواه البخارى وغيره) (وانظر: كتابى الجهاد – ص ٦٦ ومابعدها).
(٢) (نفس المرجع – الجهاد طبعة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٩م) (ص ٦٩ ومابعدها).

﴿ **والحرمات قصاص** ﴾ أى بالمقاصة والمعاملة بالمثل. وقال الأستاذ الإمام: إن حروب الرسول ﷺ كانت كلها دفاعا، فآيات الأنفال نزلت فى غزوة بدر الكبرى، وآيات براءة نزلت في ناكثي العهد من المشركين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ... **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**. ... ⁽٧⁾ ﴾ [التوبة: ٧]. . إلى آخره.

هذا، وأضيف هنا بعضا مما كتبه فضيلة الإمام الأكبر[1] د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر عن حياة الأستاذ الإمام واجتهاده. وكان مما جرى به قلمه: ولد فضيلته من أسرة مشهورة باعتزازها بكرامتها، وقد تحملت فى سبيل ذلك كثيراً من التضحيات. وقد ورث عنها عزة النفس، وعلو الهمة، وواسع المروءة، وقد لاحظ فيه صديقه الأفغانى (حكيم الشرق) هذه الصفات، صفات النبل والسمو، فكان يقول له مداعبا: «قل لى بربك: من أى أبناء الملوك أنت؟!». وقال عنه الخديوى عباس حلمى الثانى: «إنه يدخل عليّ كأنه فرعون!!». وفى سنة ١٨٧٩ صدر قرار من الخديوى بعزل الأستاذ الإمام من مناصب التدريس، وحددت إقامته بقريته. . وبعد ذلك صدر قرار آخر بتعيينه محرراً ثالثا فى جريدة «الوقائع المصرية» ثم رئيسا لتحريرها، فكتب فيها عشرات المقالات الهامة والمتنوعة. . وفى سنة ١٨٨٩ صدر قرار بتعيينه مفتيا للديار المصرية. وفى هذه الفترة بدأ فى إلقاء دروسه بالأزهر الشريف فى تفسير القرآن الكريم، واستمر فى إلقائها لمدة ست سنوات تقريبا إلى أن لقى ربه فى السابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ (١١/٧/١٩٠٥م) - بعد حياة زاخرة بجلائل الأقوال والأعمال. ويضيف فضيلة الإمام الأكبر أن الأستاذ الإمام رحمه الله بنى فلسفته فى الإصلاح على أسس أهمها: العمل الجاد والدائم لنشر التربية والتعليم بين أفراد الأمة ذكوراً وإناثا، صغاراً وكباراً، أغنياء وفقراء. وكانت هذه الفكرة من الأفكار التى آمن بها إيمانا راسخا، وجهر بها فى مقالاته وخطبه وأحاديثه العامة. وتأكيدا لهذه الأفكار نقل الكاتب الكريم تفسير الأستاذ الإمام للآيات الأولى من سورة «العلق»: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ⁽١⁾ خلق الإنسان من علق ⁽٢⁾** ﴾.

إنه لايوجد بيان أبرع ولادليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه، وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات. . ونقل الإمام الأكبر عن الأستاذ الإمام قوله: «أمر التعليم هو كل شيء، ويبنى عليه كل شيء. .» وكان الأستاذ الإمام يعجب من أن بعض نبهاء الأمة أعطوا معظم جهودهم للسياسة، ولم يعطوا الجوانب التعليمية والتربوية إلا القليل. . وقد اعتمد الأستاذ الإمام فى تأكيده على أن سعادة الأمة ورقيها فى العلم بجميع فروعه على ماجاء فى هذا الشأن - فى القرآن

(١) انظر له: الاجتهاد فى الأحكام الشرعية (١٦) (من أعلام الاجتهاد فى العصر الحديث: الأستاذ الإمام محمد عبده) - ص ١٠ من أهرام ١٤/٥/١٩٩٦م.

الكريم والسنة الشريفة - وكـانت ثروة اجتهاداته - خلال توليه منصـب الإفتاء (حوالى ست سنوات) - أكثـر من ألف فتوى، فى مختـلف الشئون. «وكلها - أوجلهـا - كما جاء فى كلمة الإمام الأكبر - مسـجلة فى سجلات دار الإفتاء المصرية. وهى مرجع هام لكل دارس وباحث. . إلى آخره.

عن كتاب العقاد - عبقرى الإصلاح[1] والتعليم ومكانه من الثورة العرابية

بند : ١٤

يقول الأستـاذ عباس العقاد فى كتـابه «عبقرى الإصلاح والتعليم - الأسـتاذ الإمام محمـد عبده» : كان الشـيخ محمد عـبده ثائرًا، ولكنه لم يكن عرابيـا؛ لأنه كان على خلاف مـع الزعيم أحـمد عرابـى فى برنامجـه العملى، ولم يجـمع العزم على تأيـيد العرابيين إلا لتوحيد الصفوف فى وجه الاحتلال الأجنبى بعد التجاء الخديوى توفيق إلى الدولة البريطانية.

كان يؤيد الثورة العرابية فى أمرين «أولهما» تنبيه الرأى العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم وإصلاح نظام الحكم، وإسناد المناصب الكبـرى ووظائف الحكومة عامة إلى الوطنيين، و«ثانيهما» - وهو أحوج إلى الوقت والأناة - هو التعويل على إنهاض الأمة، وإقامة نهـضتها على أسس التـربية والتعليم، وإعدادها للحكم النيـابى المستقل برغبـتها الصادقة وقدرتهـا على صيانته من عبث الولاة والمتـسلطين، لأنه كان سيئ الظن بالنظم التى تأتى من جانب الملوك. . بعـد تجربة هذه النظم فى سائر البلاد الشـرقية . . إذا لم تكن للأمة قدرة على حماية مجالسها. إلا أنه كان يخالف زعماء الثورة فى اتباع الخطة التى تؤدى إلى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكرى من جانب الدول الأجنبية.

وكان يؤيد وزارة رياض باشا فى برنامج الإصلاح، ولاسيما رفع السخرة. . إلخ. ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبتـه على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتـزالها. وكان يؤيد الشكوى العامـة. . وكان يعيب على بعض الشـاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكاواهم الصغيرة. . وكان بعض هؤلاء ينقم على الوزارة خير أعمـالهـا. . وهو رفع السخـرة. . لأن مصـالحهم الخـاصة كـانت تقوم على تسـخيـر الفلاحين. . ولم يكن الأسـتاذ الإمام مـتحيـزًا لفريق ضد فـريق إلا حين ظهرت بوادر الاحتلال الأجنبى . . ووجب أن تقف الأمة فريقًا واحدًا على مقاومته. .

---

(١) العدد الأول من سلسلة «أعلام العرب» «وزارة الثقافة والإرشاد القومى - الإدارة العامـة للثقافة» ص ١٤٦ ومابعدها - تحت عنوان «مع الثورة العرابية».

أما الـوجهـة التى استـقبلهـا بكل قلبه. . فـهى الوجـهة التى خُلق لهـا بالفطرة، ورجحتـها عنده التجـربة بعد التجربة - وهى إيقـاظ حمية الرأى الـعام للمطالبة برفع المظالم وإصلاح نظام الحكم. . على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم.

وكان قـبل استـفحـال الخطب يلقى زعمـاء الثورة. . ليـقنعهم بفـضل هذه الخطة ويحذرهم من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية إلى ماوراء الغاية المأمونة. .

ويقول الأستاذ العـقاد (نفسه ص ١٤٩ ومابعدها) : وقـد بسط الأستاذ الإمام آراء الزعماء وآراءه يومئذ فى تاريخه للثورة العرابية، وسـمعنا كثيرا من تفصيلاته على ألسنة شهودها الثقات، ويوافقه تمام الموافقة ماسبمعه صديقنا المازنى ونقله عن والده، حيث قال فى كتابه فى قصة حياته: «. . ثم قامت الحـركة العرابية، وسارت بأسرع مما كان ينتظر، وكان غـرضهـا تحرير المـصريين، والتـخلص من عناصر التـرك والشراكـسة المتـحكمين المستولين على المناصـب فى الإدارة والجيش. ومضت إلى غايتهـا فى جو من الدسائس الأجنبية والأطماع الدولية، فخشى الشيخ محمد عبده العاقبة، وكان بعيد النظر، سديد الرأى، فتوقع - إذا لجّ العرابيون فيما هم فيه ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتدال أن ينتهى الأمر باحتلال الإنجليـز لمصر. فكان لهذا يقاوم العرابيين مقاومـة شديدة، وينعى عليهم قصر نظرهم، وقلة تبصرهم، ويبسط فيـهم لسانه حتى ضجوا وهددوه بالقتل، إذا ظل يعتـرض طريقهم ويناوئهـم. وأراد بعض العرابيين من أصـدقاء الإمام أن يصلح مـابينه وبينهم، وأنا أعرف هذه القـصة لأن الذى حاول إصـلاح ذات البين من أقربائى، ولأن بيت جدى كان هو مكان الاجـتماع. وتكلم العرابيون، وتكلم دعـاة التوفيق، ثم تكلم الشيخ محمد عبده فأصر على رأيه أن العرابيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتلال الأجنبى. فأخفقت المساعى للصلح والتوفيق. وكان أبى من رجال الأزهر وزملاء الشيخ محمـد عبده فى الدراسة، وتلاميـذ السيد جمال الدين. . فـسأل الشيخ محمـد عبده: أكنت تلج هذه اللجاجـة فى عنادك مع العرابيين لو كان السـيد جمال الدين فى مـصر؟ فكان جواب الشيخ مـحمد عبده هذه الكلمة المتـرعة: يامحمد : لو كان السـيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية، ولا احتاج أحد إليها؛ لأن السيد كان يغنى بشخصه عن كل ذلك. وتمثل ببيت من رثاء المتنبى:

كان من نفسه الكبيرة فى جيـ ش، وإن خيل أنه إنسـان

ولما استـفحلت الحركـة العرابية، وضرب الأسطول الإنجـليزى الإسكندرية، انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين، و. . لأن الواقعة قد وقعت، وكان ماخاف أن يكون،

فلم يسعه إلا أن يكون مع قـومه ولو كانوا مخطئين - على الغريب. وكان يتـمثل ببيتى الحماسة :

بذلت لهم نصحى بمنعرج اللـوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغـد
ومـا أنا إلا مـن «غزيّة» إن غوت غـويـت وإن تـرشـد غزيّة أرشـد

والواقع أن السيد جمال كـان كما وصفه تلميذه الأكبر الشيخ مـحمد : «من نفسه الكبيرة فى جـيش». وهو الذى يرجع إليه الفضل الأول فى قيام الحركـة الدستورية فى تركيا ومـصر وإيران. وهو الذى أثار نفوس الهنود المسلمين على الاستعـمار الإنجليزى. وقد خشيه سلطان تركيا وشاه إيران وخديو مصر والإمبراطورية البريطانية [(١)] .

ويمضي الأستاذ العقاد، قائلا: ويشتمل تاريخ الأستاذ الإمام فى الثورة العرابية على أمثلة شتى من أمثلة العظمة بالرأى الأصيل والنظر البـعيد. . وإنه لأحصف عقلا وأبعد نظرًا من أن تخفى عليه العاقبة. . وأى عاقبة؟ عاقبة الوقوع فى قبضة الاحتلال الأجنبى نفسه، وأخطر منه وقوع أعداء الاحتلال فى قبضة الخديوى المنتصر المنتقم، ومعه رؤساء جمـيع الوزارت الذين عاداهم العرابـيون، وفى طليعـتهم رياض ، أقربهم إلى الأسـتاذ الإمام وأسـتاذه جمال الدين. وأنـبل من ذلك أنه ثبت على رأيه فى محاربة الاحـتلال الأجنبى وخيانة توفيق فى مذكـرته التى كتبها أثناء محاكمته وقـال فيها: «هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفـا بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان، فكان يتعاون المسلمـون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحـماس غريب، وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنكليز».

ثم قـال عن مؤامـرة الخديوى لحـرق القاهرة، إنه «شـاع فى القاهرة أن الخـديوى سيسـعى بواسطة بعض أتباعه ليـحدث شغبـا فى نفس القاهرة. . ولما فشل مسـعاه هذا أرسل برقية رمـزية لمحافظ الإسكندرية وهذا نصها: قد ضمن عـرابى أمر الأمن العام، ونشر ذلك فى الصحف، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل، وإذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول، وصغر شأننا، أما الآن وأسـاطيل الدول فى مياه الإسكندرية، وعقول الناس متهيـجة، فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيـرهم أمر محتمل، فاخـتر لنفسك إما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا» - إلى أن قال : «وفى يوم هذا الحادث توجهت إلى السراى فرأيت موظفـيها فى جدل عظيم مما حدث، وكانوا يبـالغون فى رواية الأخبار، ويضحكون من عهد عرابى بالمحـافظة على الأمن العام. ومن المعلوم أن موظفى السراى لايقولون إلا مايسر الخديوى. . .».

---

(١) تأمل !! كيف يهز الأفغانى كل هؤلاء من القواعـد!! وكيف كانوا يرهبونه، وقد تآمر كل هؤلاء ضده لقد ذهبت دولهم وبقى الأفغانى وبقى تاريخه الغنى بالمفاخر!!

وهكذا (والكلام للعقاد) جمع الشيخ السجين فى تقرير واحد بين اتهام السلطتين (الإنكليز والقصر) ولم يخطر بباله أن يدارى إحداهما ليأمن شرها، ويحتمى لها من الأخرى؛ كما فعل الكثيرون ممن قدموا إلى المحاكمة العسكرية.

وفى المحاكمة كان هناك شهود الزور، ومن لفقوا ضد الشيخ ماشاء لهم . أما الشيخ فلم ينف إلا افتراءات المفترين، ولم ينكر ماوقع منه رأيًا وعملاً. أما المحامى عنه (وهو إنكليزى، وله فى الشرقيين عامة رأى غير حميد) - فإنه لم يستطع أن يحجب عن عقله عظمة الرجل، كما أشاد بمواهبه الخارقة فى غير موضع فى كتابه عن أحداث الحركة. فمن عباراته «إنه ربما كان أعظم الناس، موهبة بين الوطنيين المصريين.. ولاشك أنه ساعد من قبل كثيرًا على جعل الرأى العام عاملا حقيقيا، فى الترقى المصرى، ولم يكن متهوسا فى الدين، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأى الجمهورى الحر.. ووطنيته التى لاشائبة للأنانية فيها هى التى حالت دون استياء رفقائه المتحمسين من خطته الدينية علانية.. حتى أن عرابى باشا صديقه قال عنه مرة: «إن رأى الشيخ عبده[1] أصلح للقبعة منه للعمامة». ثم كتب بعد توديعه «فى مساء اليوم الأول من شهر يونيه سنة ١٨٨١ : «ودعت فى الظلام محمد عبده الذى ذهب أخيرا منفيا عن القطر المصرى مدة ثلاث سنوات.. ومصر لايسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر..» وفى المنفى لم ينقطع عن حملته على الاحتلال، وعلى الخديوى صنيعته.. فعل هذا وهو يعلم أنه بذلك يطيل منفاه أبدا..

وفى ختام هذا الفصل تكلم الكاتب الكبير عن وزن الثورة العرابية بميزان الثورات عامة.

فى الطور الثانى من حياته العملية

وهو ماقبل النفى

تمهيد فى حظه مما يكون به الرجل عظيما

بند : ١٥

مما يقوله الشيخ رشيد تحت هذا العنوان (نفس المرجع ص ١٣١ ومابعدها) إذا تساءلنا، من هو أعظم الرجال، لكان الجواب محل الاتفاق هو : إن أعظمهم وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم إلى رفع الأمة من درجة دنيا إلى درجة عليا؛ وهؤلاء قلما تجود الأجيال بواحد منهم على كثرة العلماء والصلحاء والقواد السياسيين فى كل

(١) هكذا فى الأصل، وربما كان اللفظ «رأس» لا «رأى» والسياق يحتمل الأمرين.

زمان. وإنما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطرى وراثى والآخر كسبى، وهذا لايكون إلا بالتربية القويمة والتعليم النافع.

وكان استعداده (أى فطرته) الأصل فى تربيته وتعليمه. هذه الفطرة السليمة هى عند شيخنا التى لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لايفهمها. ودرج صاحبنا على عدم ترك المسألة حتى يفهمها، ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها هو كذا. ولذلك سارع إليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات. وقد أعجبته طريقة السيد جمال الدين، فإنه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للأفهام، ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها عليها، فإن انطبقت فيها وإلا أبان مافيها من التقصير. أو يقرأ العبارة ويبحث فى دليلها فيقره أو يفنده ويجزم بغيره[1]. وبهذه الطريقة ارتقى إلى أن يحكم بنفسه فى المسائل، ولايرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لمؤلف الكتاب. ومما امتاز به شيخنا (الأستاذ الإمام محمد عبده) على إخوانه المجاورين الأزهريين هو أنه فى بدايته لم يرض أن يحضر شيئًا لايفهمه، وفى نهايته لم يرض بما يفهمه إلا بعد أن يستشير فيه الدليل فيرضاه له. ومما يذكر له أنه لم يقنع بالعلوم المتداولة فى الأزهر. بل كان من أوائل عهده يطلب العلم إلى يوم وفاته. وكان يؤثر من العلوم مايزيده كمالاً فى نفسه، ويعينه على رفع شأن أمته.

ورغم كل العوائق فإن مارأيناه منه يكاد يكون من الخوارق. لم يكن يتكلم فى علم إلا وتراه صاحب القدح[2] المعلى فيه كأنه الواضع له. وأما من الناحية النفسية فقد تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات والأوهام حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه. وكمل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان. وأهم ما اتفق له تربية الإرادة، أى ملكة العزيمة والإقدام فقد كان فى ذلك نسجيا وحده فى أمته.

من تاريخ الأستاذ الإمام[3]

تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم فى الأزهر

كان - عفا الله عنه - قبل أخذه شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التى يحضرونها في الأزهر، ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ بعض الكتب لطائفة منهم فقرأ لهم إيساغوجى فى المنطق، ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازانى مع حواشيه، مع مقولات السجاعى بحاشية العطار، وغير ذلك من الكتب التى لم تكن تقرأ فى

(١) أقول : أى أن النص لايستعبده، فما أكثر مايخطئ الكاتب. ومن هذا المنطلق دعا إلى عدم التقليد، أى الاجتهاد ولماذا لانستقل برأينا، فهم رجال ونحن رجال؟

(٢) القدح المعلى: الحظ الأوفر.

(٣) انظر تاريخ الأستاذ الإمام - للشيخ رشيد جـ ١ ص ١٣٣ وما بعدها.

الأزهر، فكثر سواد المجتمعين عليه، وكان يدعوهم إلى مطالعة مالم يتعودوا من الفنون والكتب ويفتح لهم أبواب المذاكرة والمناقشة ليلاً، فكانوا يغتالون الليل ولايشعرون بطوله، وفتن الأذكياء بحسن بيانه ودقة فهمه، وحسده أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عليش. . إذ ذهب ابن للشيخ عليش مع طالب آخر فقالوا: إن فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية وقد رجح فى درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية. وكان الشيخ عليش - رحمه الله - أذنا يصدق كل ماسمع وكان شديد الغيرة فى الدين[(١)]، حديد المزاج، سريع الغضب، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذى لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل إلى الفقيد فجاءه وهو يقرأ الدرس فى المسجد الحسينى. فقال الشيخ عليش: بلغنى أنك تقرأ كتاب العقائد النسفية درسًا، قال : نعم. قال الشيخ عليش : وبلغنى أنك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية. قال : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى فلماذا أقلد المعتزلى؟ إذًا أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل. قال الشيخ عليش: أخبرنى الثقة بذلك. قال : هلمّ الثقة الذى يشهد بذلك، فليميز بيننا هنا بين المذهبين، وليخبرنا أيهما رجحت. قال الشيخ عليش : أو مثلك يفهم شرح العقائد؟ قال: الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلنى إن شئت: فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عليش المهيب[(٢)]. وقال بعضهم: إن هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته، وأخذ عمامته عن رأسه، ولغط الحاضرون. فتركها الفقيد رحمه الله وذهب حاسرًا عن رأسه. فقال أناس : إن الشيخ عليشًا ضربه. وقال آخرون: إنه منعه من الدرس. وكثرت الأقوال والإشاعات والرؤى والأحلام فيه وفى السيد جمال الدين. والحق أن ماذكرناه هو كل ماحصل، وأن الفقيد لم يمتنع عن قراءة الدرس. وقد أشيع أن الشيخ عليش لابد أن يمنعه من الدرس بالقوة. واشتهر أنه ترك قراءة الدرس فى مسجد محمد بك أبى الذهب، وأتمه فى بيته. وقد حدثنى أنه لم يترك الدرس. وأنه كان يضع بجانبه عصا، وقال: إذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا. وأما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها؛ بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين فى دين كل من السيد الحكيم والأستاذ الإمام، حتى عدوا حبس الأستاذ فى أمر الثورة العرابية كرامة للشيخ عليش، ولم يعدوا حبس عليش كرامة له. والعادة أنه قلما يسلم أحد من أئمة الصوفية، وأئمة الدين وكبار الحكماء من مثل هذا الطعن وأنه من مناقب حكيمنا. أما الذى خسر فهو الأزهر والعلم والمصلحة العامة. أما

---

(١) على نحو فهم المتشدد للدين.

(٢) كنت أحضر «مجلس الناحية» (يرحم الله أعضاءه جميعا) كان معظمهم شبه عوام. وكان ألسنهم خطيب المسجد الذى قال مما قال : من أقوال الرسول ﷺ: «خير أمتى فى المدن» و«خير أمتى على نهر». فقلت: (وكنت فى نحو السادسة عشر) - هذا لايمكن أن يقوله الرسول ﷺ قال الألسن · هل درست علم الحديث؟ قلت · هذا مرفوض عقلا. .

الحكيمان فلم يحترم أحد من عقلاء العصر، والأجانب أحدًا من أهل الشرق كاحترامهم لهما. إن دروس الشيخ فى الأزهر كانت بناء جديدًا للعقائد على أساس البراهين القطعية، وتجديدا لما بَلِى من سائر العلوم العقلية. وكانت حلقة درسه فى الأزهر واسعة تحيط بأعمدة كثيرة. وكان يقرأ فى بيته درسا فى الأخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين. من ذلك كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه الرازى، وكان ذلك سبب طبعه للمرة الأولى - وقرأ كتاب (كيزو) فى السياسة.

وحسد الفقيدَ بعضُ الشيوخ فكانوا يصدون عنه تلاميذهم. يقول الشيخ رشيد: حدثنى حفنى بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه فى الأزهر إلا على سبيل الاختبار، مع مراعاة الحذر والاحتراس وأنه تبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه.

تدريسه فى مدارس الحكومة(1)

عين الفقيد أواخر عام ١٢٩٥هـ مدرسا للتاريخ فى مدرسة دار العلوم، وللعلوم العربية فى مدرسة الألسن الخديوية، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس بالأزهر. بدأ فى دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون وكان يشجع تلاميذه بها على كتابة المقالات بروح حرة، وعقلية ناقدة. وقد كتب - رحمه الله - فى ذلك العهد كتابا حافلا فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، انتقد فيه بعض ماقاله ابن خلدون، واستدرك عليه مانسخته طبيعة الاجتماع فى هذا العصر من أحكام العمران فى العصور الغابرة.

وكان فى مدرسة الألسن آية البيان فى إحياء اللغة العربية، وإشراع الطريق اللاجب فى التعليم، والخروج بالطلاب من مآرق العهد القديم.

أقول : لقد كان التدريس (سواء فى قاعات المدارس أو خارجها) أمنية عند الحكيمين. كانا قد وهبا نفسيهما من وقت مبكر لإنشاء جيل أو أجيال تتلقى عنهما، وتكون امتدادًا لهما. يقول الشيخ رشيد : حدثني بعضهم أنهم كانوا عندما يحضرون دروس الأستاذ الإمام ومجالس السيد يشعرون بأن فى استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم. وقد ظهرت آثار روح الشيخين فى أعمال تلاميذهما، فكان منهم أرقى القضاة الأهليين(2) والمحامين وأساتذة المدارس العالية. ومن أشهرهم سعد زغلول - وإبراهيم اللقانى - وحفنى ناصف - ومحمد صالح - وسلطان محمد.

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٥ ومابعدها.

(٢) وقتئذ كان فى مصر قضاء أهلى وقضاء مختلط. وهذا الأخير قد انتهى أجله مع نهاية النصف الأول من هذا القرن العشرين.

الإمام فى السجن[1]

وهو الفصل العاشر والأخير من مذكراته

بند : ١٦

لما انهزمت مصر فى الثورة العرابية قبض على الأستاذ الشيخ محمد عبده مع من قبض عليهم من زعماء الأمة لمحاكمتهم؛ وأودع السجن رهن مثوله أمام المحكمة العسكرية التى ألفها الخديوى توفيق لهذا الغرض. وقد قضى فى السجن ثلاثة أشهر وأياما، ثم حوكم وحكم عليه بالنفى إلى خارج القطر المصرى ثلاث سنوات، فأقام فى بيروت مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الإسلامية - للأدب والتوحيد وعلوم الدين ثم فرّ إلى باريس[2] .

وقد نظم قصيدة طويلة أثناء سجنه تبلغ نحو مائة وخمسة عشر بيتا، وصف فيها الثورة العرابية وموقفه منها. ثم كتب فى ذلك الحين خطابا إلى أحد أصدقائه يرد فيه على الخونة المنافقين الذين انتهزوا فرصة القبض عليه وكتبوا فيه تقارير حشدوها بالكذب والبهتان. وهذا الخطاب قطعة من الأدب، أما القصيدة فقد جاء فيها :

مالى يعنف قلبى من تغاضيه ... دهرٌ يبالغ فى عجب وفى تيه

أبيت ليلى كملسوع تساوره ... زرق الأفاعى وقد شُدَّت أياديه

وماذنوبى لدى دهرى سوى شمم ... يأبى الدنايا وأفكار تضاهيه

سريت للمجد هونا غير[3] ذى عجل ... على أساس من التقوى أراعيه

مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه ... وشيمة الحر تأبى خفض أهليه

وأما الكتاب الذى أرسله إلى أحد أصدقائه (ولعله سعد زغلول) - فقد تبادل معه عدة خطابات أثناء نفيه فى بيروت، وكان زميلاً له فى تحرير الوقائع المصرية فى عهد الثورة العرابية. وهذا هو الخطاب :

فى ٩ المحرم سنة ١٣٠٠ هـ - الموافق ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢م

عزيزى :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة - كأننى صارم فى كف منهزم . هذه حالتى : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى،

---

(١) ص ٢٤٧ ومابعدها.

(٢) إنه لم يفر، وإنما استقدمه جمال الدين فوافاه هناك.

(٣) فى الأصل (على)، وفيه أخطاء مطبعية كثيرة.

واعترضت مابين المشرق والمغرب، وامتدت إلى القطبين، فـاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس. إذ تغلبت طبيعتـها على المواد الحيوانية[١] أو الإنسانية، فأصـبحت قلوب الثقلين كالحـجارة أو أشد قسـوة، فتبارك الله أقـدر الخالقين! انتثرت نجـوم الهدى، وتدهورت الشموس والأقمـار، وتغيبت الثوابت النيرة، وفرّ كل مضــيء منهزما من عالم الظلام، ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبـةً بنيراتها[٢] إلى عوالم غـير عالمنا هذا. فولى مـعها آلهة[٣] الخير أجـمعين. وتمخضت السلطة لآلهة الشـر فقلبوا[٤] الطباع، وبدلوا الخلق، وغيروا خلق الله، وكانوا على ذلك قادرين.

رأيت نفسى اليوم فى مَهْمَه لايأتى البصر على أطرافه. وفى ليلة داجية، غطى فيها وجه السماء بغمام سوء، فـتكاثف ركاما، لا أرى إنسانا، ولا أسمع ناطقا، ولا أتوهم مجيبا. أسمع ذئابا تعوى، وسبـاعًا تزأر، وكلابا تنبح، كلها يطلب فريسة واحدة، هى ذات الكاتب. والتف على رجلى نينان عظيمان، وقد خـويت بطون الكل، وتحكم فيها سلطان الجوع. ومن كانت هذه حاله فهو - ولاريب - من الهالكين!

تقطع حـبل الأمل، وانفـصمت عـروة الرجـاء، وانحلت الثـقة بالأوليـاء، وضلّ الاعتـقاد بالأصفيـاء، وبطل القول بإجابة الدعـاء، وانفطر - من صدمة الباطل - كـبد السماء، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين!

سـقطت الهمم، وخـربت الذمم، وغـاض ماء الوفـاء، وطمـست معـالم الحق، وحُرِّفَتْ الشرائع، وبُدِّلت القوانين، ولم يبق إلا هوى يتـحكم، وشهوات تُقضى. غيظ يحتدم، وخشونة تنفذ. تلك سنة الغدر، والله لايهدى كيد الخائنين.

ذهب أرباب السلطة فى بحـور الحـوادث الماضيـة، يغـوصون لطلب أصـداف من الشُّبه، ومقذوفات مـن التهم، وسواقط من اللـمم، ليموهوها[٥] بالسفسطة، ويغشوها بأغشية من معدن القوة، ليبرزوها فى معرض السطوة[٦] ويغشوا بها أعين الناظرين!

---

(١) هكذا ؟

(٢) بنيراتها (فى المذكرات وفى تاريخ الأستاذ لرشيد رضا).

(٣) لعله يقصـد (أرباب) وهو جائز. وفى القرآن الـكريم - على لسان يوسف ﴿... إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

(٤) فى الأصل (فقبلوا) (الأخطاء كثيره جدا مع الأسف).

(٥) فى الأصل · (ليموهوها بماه السفسطة).

(٦) هنا كلام مكرر.

لايطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكشفونه، أو لحق خفى فيظهرونه. كلا، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين.

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة، وأعداء المروءة، وفاسدى الأخلاق، وخبثاء الأعراق. رضوا لأنفسهم قول الزور، وافتراء البهتان، واختلاق الإفك، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق، بتقارير محشوة بالأباطيل، ليكونوا بها علينا من الشاهدين!

كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة، ولم تحل قلبى منه وحشة، بل أنا على أتم أوصافى التى تعلمها، غير مبال بما يصدر به الحكم، أو يبرمه القضاء، عالما بأن كل مايسوقه القدر، وماساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه؛ لأن الله يعلم - كما أنت تعلم - أننى برىء من كل مارمونى به. ولو اطلعت عليه لملئت منه رعبا، أو كنت من الضاحكين! نعم، خنقنى الغم، وأصمى فؤادى الهم، وفارقنى النوم ليلة كاملة، عندما رأيت اسمك الكريم، واسم بقية الأبناء والإخوان المساكين تنسب إليهم أعمال لم تكن، وأقوال لم تصدر عنهم، قصد زجهم فى السجون، لكن اطمأن قلبى، وسكن جأشى، عندما رأيت تواريخ التقارير متقادمة، ولم[1] يصبك شرر الشر، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابًا لايذر الأحياء ولا الميتين!

قدم فلان وفلان تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقى، ولم يتركا شيئًا من التحريف إلا قالاه. وذكرا أسماءكم فى أمور أنتم جميعا أبعد الناس عنها. ولكن لاحرج عليهما، فإنى أعدهما من المجانين!

ولم أتعجب من هذين الشخصين إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح، ويرتكبان مثل هذا الجرم الشنيع. ولكن أخذنى العجب، كل العجب، غاية العجب، بالغ ماشئت فى عجبى، إذ أخبرنى المدافع عنى بتقرير قدمه (فلان) الذى أرسلت إليه السلام، وأبلغته سرورى عندما علمت باستخدامه[2]، وأنا فى هذا الحبس رهين!

إلى هذا الوقت لم يصلنى التقرير، ولكن سيصل إلىّ. إنما فيما بلغنى، أنه قد شهد[3] بأقبح شىء لايشهد به إلا عدو مبين! هذا اللئيم الذى كنت أظن أنه يألم لألمى، ويأخذه الأسف لحالى، ويبذل وسعه إن أمكنه فى المدافعة عنى. فكم قدمت له نفعا، ورفعت له ذكرًا، وجعلت له منزلة فى قلوب الحاكمين!

---

(١) فى الأصل: (ومع ذلك لم يصبك...) إذ رأيتها غير منسجمة مع السياق.
(٢) وكذلك هذه غير منسجمة.
(٣) فى الأصل (شاهده).



كم سمعنى أقاوم هجاء الجرائد، وأوسع محرريها لومًا وتقريعًا، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية، وكان علىّ فى بعض أفكارى هذه من اللائمين!

كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعًا لرأى فلان، وأعارضه أشد المعارضة. ثم لم أنقض له عهدًا، ولم أبخس له ودًّا، وحقيقة، كنت مسرورًا لوجود (موظف؟)[1] فما باله أصبح من الناكثين!

آه ! ما أطيب هذا القلب الذى يملى هذه الأحرف، ما أشد حفظه للولاء، ما أغيره على حقوق الأولياء، ما أثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء، ما أشد اهتمامه بشئون الأصدقاء، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة. وإن كانوا فيه غير صادقين!

ما أبعد هذا القلب من الإيذاء، ولو للأعداء، ما أشده رعايةً للود، ما أشده على العهد، ما أعظم حذره من كل ماتوبخ عليه الذمم الطاهرة، ما أقواه إقداما على العمل الحق، والقول الحق، لايطلب عليه جزاءً. وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين!

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم، هو الذى سَرَّ قلوبهم بالترقية، وملأها فرحة بالتقدم، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة، وشرح صدورهم بلطف المجاملة. ودافع عنهم أزمانا، وخصوصا هذا اللئيم، أفنشرح الصدور وهم يحرجون، ونشفى القلوب وهم يؤلمون، ونفرحها وهم يحزنون. تالله قد ضلوا وماكانوا مهتدين!

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على مايلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات وما ينشأ عنها من فساد الطباع، الذى يجعل العموم فى قلق مستديم، ومابقى من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودته فإن تسللوا جميعا بمثل هذه الأعمال، وأصبحوا من مودته خالين، واتخذوه وقاية لهم من المضرة، وجعلوه ترسًا يعرضونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تصويبها إليهم، كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به أغراضهم، فينالوا منها حظوظهم، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم، والله يتولى حسابهم، وهو أسرع الحاسبين!

آه ! ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شئون الأحبة، وإن جاروا فى تصرفهم. إن طبيعة هذا القلب كطبيعة ناعم الخز، إذا اتصل بذى الود، وإن كان

---

(١) غير مفهوم.

خشنا فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته. وإن هذا القلب فى علاقته مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة، أيما حادث يحدث، وأيما كيماوى يدقق، لايجد للتحليل بينهما سبيلا، وأظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين!

أى عزيزى . . الآن وصلنى تقرير اللئيم، فقرأته بأول نظرة، ووجدته كما بلغنى. وسأرد عليه فى بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله إن كان إنسانا. ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة فسأنتظر بالرد عليه، وتتميم رقيمى إليك بعض ساعات، فكن معى من المنتظرين!

رددت على التقرير، وكان كل مافيه الغش والتغرير . وذكر فيه فلانا. . بأشنع مايؤاخذ به إنسان فى هذه المسألة، كما ذكره الخبيثان قبله. ولكن دفعت ماقاله فى جانبه أيضا، وأخذت على نفسى كل مسئولية تنسب إليه أو إليكم، فما عليكم إن شئتم إلا أن تكونوا منكرين!

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم فى شئون أيام الحوادث، فلا يدخل عليكم غش السؤال والإرهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكارى وأقوالى التى كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ومن كانوا لها من الطالبين. إلى هذا الحد قفوا. فإن سئلتم فقولوا مانحن بتأويل الأحلام بعالمين!

فى هذا الوقت وصلنى الرقيم مبشرا ببقائكم فى مركزكم، فقمت ورفعت يدى وناديت: الحمد لله رب العالمين. وأخذنى الأسف على حبس فلان، ولكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين!

ياعزيزى: أعود إلى ذكر مالأولئك القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رءوسهم ، فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم، فقاموا ينطقون بما لايعون، ويتكلمون ولايفهمون. مابالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم، وأمر من الصفراء، وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث مايحملون!

ما بال دقات قلوبهم تفيض من اللؤم أشد مما يفيض بئر «برهوت» (هكذا) تقذف بسائلات بشعة الطعم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها! لكن أعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لايشمون ولايذوقون ومن ظلماتها لايبصرون!

هل بطل ياعزيزى ماجاء على لسان النبوات: الإنسان أسير الإحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك : المعروف بذر المحبة يغرسها فى أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: إن

الحيوان يُقاد بالزمام، والإنسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافةً ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة، وبيانا لفضائلها ومنافعها فى الاجتماع الإنسانى ؟ هل كان خرافةً ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشرى؟ أم صح كله، لكن الناس به جاهلون!

هل أتأسف أن كنت سباقا إلى الخيرات، هل أتأسف أن كنت مقداما فى المكرمات؟ هل أتأسف أن كنت شجاعا فى الدفاع عن ذوى مودتى؟ هل أتأسف أن كنت أبيا أغار أن ينسب مكروه لأولى صلتى؟ هل أستحق العقاب على حبى لبلادى والناس لها كارهون!

كلا، والله لن يكون ذلك، ولم أزدد فى سبيل الفضيلة إلا بصيرة، ولم أتردد فى المحافظة عليها إلا ثباتا ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوى فى حفرة الغدر، ولآخذ بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولأبينن لقومى أنهم كانوا فى ظلمات يعمهون، ولأظهرن الصدق فى أجمل صوره، ولأجلونه للناس فى أبهج حلله، ولأثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثانى فى روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر فى حياتك المتحدة، وأنه صاحبك إذا طال ليل الكدر، ومصباحك إذا غسق دجى الهموم، تستضىء به فى حل ما انعقد، وتستعين بقوته فى تيسير ماعسر، وتذهب إلى أوج المعالى، والناس من معجزات الصدق يتعجبون!

إننى اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف، وقد صار سقوط الجاه كمرضٍ يصيب الجميل الفاتن، فيُضعفُ الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويَزلْزِلُ القوى، فيقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب، ويثقل على الأهل والعشائر فى التمريض، ويسلمهم إن طال زمن معاناة العلاج، فيصبح المريض منهم فى أدنى المنازل، وقد كان ربًّا لهم وهم له ساجدون!..

لكن أقول لكم: إن الحوادث المريعة سوف تنسى، وإن هذا الشرف يُرد. ولئن أبت طبيعة هذه الأرض بخستها، أن يكون لها من عودة نصيب، فليعودن فى بلاد خير منها، ولأجذبن إلى المجد أحبتى، ومن إلى المجد ينجذبون!

كل ذلك إن عشت، وساعدتنى صحة الجسم، ولاأطلب شيئًا فوق هذين سوى معونة الله الذى عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون!



أطلت عليك الكلام فـلا تسأم، وأظنه آخـر كتاب منى إليك فـى السجن، إلا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى فإن تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى، وإلا كانت المراسلة أجلى وأعلى. ولاتجزع فليس فى الأمر مايفزع، وهو أهون مما يتوهمون. وأسأل الله أن يـغض عنكم أبصار الظالمين، ويحـفظكم من نكاية الخائنين، ويسـر قلبى بالطمأنينة عليكم، وعلى سائر الإخوان والأبناء أجمعين[1] .

محمد عبده

المسلمون[2] والإسلام

آراء للأستاذ الإمام[3]

بند : ١٧

رأيه فى الوطنية والدين

(نفسه ص ٢٠٤ ومابعدها)

كان الأفغانـى يرشد مريديه وحزبه السياسى إلى وجـوب اتحاد أهل كل قطر شرقى للتعاون على الأعـمال الوطنية السياسيـة والعمرانية، وكان حزبه مؤلفـا من أذكياء الملل المختلـفة. وكان مع هذا يدعـو المسلمين إلى الإصـلاح الإسلامى الخاص بهم فـى فهم العلم والدين، وشـد أواصـر الأخوة الإسـلامـيـة مع جمـيع المسلمين عـلى اختـلاف مذاهبـهم. ولم نر أحدًا (أيا كـان) قد اتهمـه بالتفريق بين أهـل الوطن الواحد، ولابين المذاهب الإسلامية، بل كان داعية اتحـاد وطنى فى كل وطن وداعية اتحاد شرقى عام فى دعوة الشرق كله وإرشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب. وداعية اتحاد إسلامى فى الإصلاح الدينى، ونبذ الشقاق فى الدين. وكـذلك كان الأستاذ الإمام، أى أنه كان فى كل ذلك شريكا وامتدادا له.

وقد كان بعض كـتاب المسلمين طعنوا فى بطرس باشا غالى واتهمـوه بمحاباة القبط فى الوظائف وغـيرها (حين كان وكـيل وزارة الحقـانية). وكـان الأستاذ الإمـام وقتـئذ (١٣٠٥ هـ) فى بيروت، فلمـا رأى هذا الشقاق الوطنى فى الجرائد المصـرية، كتب فى وجوب تلافـيه مـقالة فى جريدة «ثمـرات الفنون» - عنوانها «مـصر والمحـاكم الأهلية»

---

(١) وانظر تعليق الشيخ رشيد على هذا الكتاب ص ٢٧٣ من تاريخه.

(٢) كتاب الهلال - عدد رقم ٤٣٧، - ص ١٩٦ ومابعدها.

(٣) فى الهامش كتب ناشرو الكتاب، الآتى «مانرويه فى هذا الفصل عن مريده وتلميذه السيد محمد رشيد رضا - اقتبسناه من الجزء الأول من كتابه «تاريخ الأستاذ الإمام» مع التلخيص».

وكتب إلى بعض مريديه بمصر (سعد زغلول) أن يسعى إلى نشرها فى بعض الجرائد الإسلامية فنشرها.

أقول : كان سعد زغلول أبرز تلاميذ الأستاذ الإمام وأعظمهم مكانة. أليس هو الفلاح ابن الفلاح المصرى الذى تزوج من صفية ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمى (والتى صارت - فيما بعد صفية زغلول - أم المصريين)؟

وما أحسب سعدًا بطل (ثورة ١٩١٩) (أعظم ثورة حقيقية فى تاريخ مصر الحديث) لا أحسبه حين جمع (وهو رئيس الوفد - وكيل الأمة) بين المسلمين والأقباط ودون تفرقة - لا أحسبه إلا منطلقا مما دعا إليه الأستاذ، وجسّده سعد فى ثورة عارمة. وإذا كان الأستاذ الإمام هو من نعرف مكانا ونشاطا وعلما وفضلا؛ وإذا كان الأستاذ الإمام قليل النظير، إذ عاشت بين جوانحه مبادئ الأفغانى - إيمانا وتطبيقًا، فكذلك سعد عاش حياته كلها، وما أعظمها من حياة، يحمل بين جوانحه، وفى لحمه ودمه وعظامه، مبادئ شيخه وأستاذه الشيخ محمد عبده، وخاصة فيما يتعلق بعدم التفرقة فى الوطن (وهو للجميع) بين مسلم وقبطى. لقد أطلق أستاذه هذا الأمر كمبدأ، وجسّده سعد فى العمل.

قال فيه شاعر كبير (أظنه جميل صدقى الزهاوى) فى مطلع قصيدة فى رثائه :

لقد كان سعد هَلْكُه هلكَ أمة ... وماكان سعد هلكُه هلكَ واحد!

وعلى ما أذكر فإن مطلع قصيدة شوقى فى رثائه:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... فانحنى الشرق عليها فبكاها

أما مطلع قصيدة حافظ فهو :

إيه ياليل هل شهدت المصابا ... كيف يَنْصَبّ فى النفوس انصبابا

وتحت كلمة بعنوان «رأيه فى اللغة والتأليف» ص ٢٠٦ ومابعدها، قال الأستاذ الإمام: إن اللغة العربية فى حاجة إلى إصلاح آخر، فوق إصلاح التعليم، لفنونها وآدابها. ويقول رشيد رضا: إنه قد قال لى : إن هذا النوع من الإصلاح لايرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيين فيه إلا باشتغال جدي لمدة خمسين سنة.. وأما كتبنا العربية فقد كان دائم الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها. وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين.. ويمكننا أن نعرف عن تاريخنا الإسلامى من الكتب الأفرنجية، فيها مالانجده فى كتبنا العربية. وقال فى وقت آخر: إن العالم المسلم لايمكنه أن يخدم

الإسلام من كل وجـه مما يستـوجبه العـصر إلا إذا كان مـتقنًا[1] للغة من لـغات العلم الأوربية تمكنه من الاطـلاع على مافيـها عن الإسلام وأهله من مـدح وذم وكذلك على مافيها من العلوم المختلفة.

رأيـه فـى الصوفيـة (ص ٢٠٧ ومابعدها)

قال الأستـاذ الإمام: إنه لم يوجد فى أمة من الأمم من يضاهى الصـوفية فى علم الأخلاق وتربية النفوس. وسبب ما ألم بهذه الطائفة تحامل الفقهاء عليها، وأخذ الأمراء بقول الفـقهاء فيـها. فأولئك يُكفـرون. وهؤلا يعذبون ويقتلون، حـتى أنه قُتِلَ فى هذا البلد (القاهرة) فى يوم واحد خمسمائة صوفى.

احتقر الأمراء والسلاطين الفقهاء فى أنفـسهم، واستخدموهم لأغراضهم التى تؤيد سلطتـهم ونفوذهم وجـعلوهم على الفـتوى فـاستنبطـوا لهم مايطلبـون، وأفتـوهم بما يشاءون. ويقول الأستاذ الإمام (ص ٢٠٩) وكل ما أنا فـيه من نعمة فى دينى أحمد الله تعالى عليها فسببها التصوف الصحيح الخالى من البدع والخرافات، والمرغب في العلوم.

رأيـه فـى المسلمين (ص ٢١٠ ومابعدها)

أقول: إنى دائما أردد فى هذا الشأن، أن الشعوب الإسلامية عاشت قرونا وقرونا فى ظل استـبداد الحكام (منهم أم من غـيرهـم - ومع وجود اسـتثناءات كأنهـا الفلتات) وحين يشتد ظلام الاستبداد، والجهل والفساد، فإن الصالحين - غالبا ينزوون سائلين الله السلامة، ويطفـو على السطح أدعياء العلم الذين يستعـملهم الولاة، والذين يفتونهم بما يريدون، ويبررون سوء مايفعلون. وإنى - دائما أقول أيضًا: إن الأمل - دائما - معقود على الولاة والدعـاة، فإذا ظلمـوا (أى الولاة)، ونافقـهم الدعاة فـعلى الدنيا الـسلام. والشـعوب - دائمـا - هى التى تتلقى النـتائج، ومـا النتـائج إلا المر والحنظل! والويل للضعـفاء! وإذا استثنينا هؤلاء الـذين يُكرَهُون، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، فالبـاقون فى حرج شديد دنيا وأخرى.

والله - سبحانه وتعالى - هو القائل: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ... ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء]. وإنى أنضم إلى هؤلاء الذين خـرجـوا من قلاع الكفر وأسلموا حـديثا (وهـم كثيرون). إنهم متفائلون، وإنى مـتفائل. لقد انهارت

(١) فى الهامش: لقد تحقق ماكان يهدف إليه الأستاذ الإمام، ووُجد من العلماء والمفكرين فى السنين الأخيرة من خدم الإسلام أجل الخدمـات بمؤلفاتهم القيمة كالأستاذ عباس العقـاد والدكتور محمد حسين هيكل ومحمد فـريد وجدى وأحمد أمين وغيرهـم. وأضيف أنهم جميـعًا كانوا يتقنون لغةً أجنبية أو أكثر.



الشيوعية، والسوس ينخر فى عظام مايعرف (بالحضارة الغربية)، وستأتيهم النهاية من باب «سوء استعمالهم للحرية» ﴿... واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾ [الصف].

ومما جاء عن الأستاذ الإمام تحت ذات العنوان : «إن المسلمين مصابون بالعقم لايموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والأعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله على خلاف مانرى فى الأمم الحية. وكان يذكر كثيرين من أصحاب هذه المزايا فى مصر وسوريا: كالشيخ محمد المهدى العباسى، والشيخ على الليثى فى مصر، والأمير عبد القادر الجزائرى والسيد محمود حمزة مفتى الشام وغيرهم، لايوجد أحد مثلهم أو يقرب منهم، على أنه قال أخيرا مايدل على رجائه فى نهضة المسلمين «إننى أرى فى هذه الشجرة الجرداء، ورقات خضراء، فلا أدرى أهى من بقايا الحياة الأولى - أم هى بدء حياة جديدة»؟[1].

وأما رجاؤه فى مستقبل الإسلام فى الجملة - دون شعوبه الحاضرة - فكان رجاء كاملا لأنه متصل برجائه فى الإسلام نفسه. وهذا الرجاء لم ينقض قط، وإنما كان شكه فى أول شعب يحيى الإسلام، هل هو من المنتمين إليه، أم من الذين سيهتدون به[1] .

رأيه فى الإسلام

كان يجزم بأن الإسلام، إسلام القرآن، والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فى سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رضى الله عنهم) - هو دين الفطرة، دين المستقبل وأن أمم الحضارة فى الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية مايضطرهم إلى طلب المخرج منها فلا يجدون ذلك إلا فى الإسلام. إسلام القرآن والسنة، لا إسلام المتكلمين والفقهاء. وقد صرح بهذا فى مواضع كثيرة.

رأيه فى المذاهب الأربعة (ص ٢١٢ ومابعدها)

كان يجل جميع الأئمة المجتهدين، ويرشد طلاب العلم إلى اتباعهم فى اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقادًا وتخلقا وأدبا وعملاً واستدلالا. ويقول : إنه لامعنى لاتباع المذهب إلا هذا. وأما جعل كلام المجتهد دينا يُتعبد به فهو ينافى دين الإسلام نفسه، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من قبل أهل الكتاب بقوله : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ... ۝٣١﴾ [التوبة] و«العامى لامذهب له، وإنما مذهبه

---

(١) أقول : إن الذى يعنينا، وننتظره، فى وقت ليس ببعيد، هو ظهور الإسلام وعلوه «على الدين كله» (٣٣ - التوبة) سواء على أيدينا أم على أيدى غيرنا (ممن سيدخلون فيه).

مذهب مفتيه. والمدار فى أساس هذا الموضوع على أصل الإمام مالك فى أن مدار العبادات على النصوص ووجوب الأخذ بظواهرها. ومدار أحكام المعاملات فى غير المنصوص على القواعد، واعتبار المصالح العامة.

وكان الأستاذ الإمام مالكى المذهب فى نشأته الأولى تفقه بمذهب مالك، ثم قرأ فقه الحنفية فى الأزهر، وامتحن فيه امتحان شهادة العالمية. وأصل مذهب الحنفية فى فرائض الدين، والمحرمات الدينية لاتثبت إلا بنصوص الكتاب والسنة القطعية بل نقل الشافعى فى كتاب «الأم» عن أبى يوسف أن مشايخه وسائر علماء السلف لايقولون فى شىء إنه حرام إلا ماكان بينا فى كتاب الله تعالى بلا تفسير. ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن السلف أنهم لم يكونوا يوجبون ولايحرمون شيئًا إلا بنص قطعى، وأن الأحكام العامة للأمة لاتثبت إلا بنقل الأمة المتواتر بالعمل.

رأيه فى الفقه والفقهاء

ضيع المسلمون دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها وتركوا كل مافيه من المحاسن والفضائل ولم يبق عندهم شىء.. هذه الصلاة التى يصلونها لا ينظر الله إليها ولايقبل منها ركعة واحدة: حركات كحركات القرود، وألفاظ لايعقلون لها معنى. لايخطر ببال أحد منهم أنه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه، ويسبح بحمده، ويعترف بربوبيته، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره.

ومن العجب أن فقهاء المذاهب الأربعة وربما غيرهم أيضا - قالوا: إن الصلاة بلا حضور ولاخشوع يحصل بها أداء الفرض، ويسقط الطلب. ماهذا الكلام؟ إنه لباطل. كل آية تذكر فى القرآن تبطله. قالوا: النية فى الصلاة أن يقصد الإنسان فعل هذه الصلاة دون غيرها. وبالغ بعضهم فقال: لابد من تصور جميع أعمالها عند التكبير. وفسروا قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» بهذا وقصد الفعل عند مباشرته طبيعى: إن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة. إن اليهود لم يحرفوا التوراة أكثر مما حرفوا. المراد بالنية فى الحديث قصد المرء وغرضه من فعله. وهو إما وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، وهو النية الصحيحة، وإما غرضٌ آخر كالرياء.

إن صلاة المستر براون الإنجليزى عندى خير من صلاتهم. وهو رجل إنجليزى رأى ترجمة القرآن فأسلم[1]. وهو يحملها ويقرأ فيها دائما عند الفراغ، ويصلى بحسب

(١) كان مستر براون ضابطا بحريا، ولما رأى الكلام عن البحر وظلماته وأمواجه وأهوالها فى ترجمة القرآن سأل أحد الهنود من المسلمين: هل ركب محمد البحر وسافر فيه؟ قال: لا. قال: إن مافى القرآن عن البحر لايمكن أن يكون خبر مخبر من الناس. فكان هذا سبب عنايته بقراءة الترجمة واهتدائه للإسلام.



مايفهم من القرآن، ويستقبل القبلة كلما حرره بحسب معرفته بعلم الفلك ويركع ويسجد. فهذا وُجد عنده روح الصلاة. وكان لايعلم الأوقات، ولاعدد الركعات. قال لى : إننى أصلى عند الفراغ بحرارة وخشوع.

وسألنى عن صلاته فقلت له : أنا أصلى، فصلِّ معى. وعلمته كيفية الصلاة فى زمن قصير بالعمل. فتمت له الصلاة بصورتها وروحها. وقال لى مرة : إنه يعجب لكون المسلمين والمؤمنين بالقرآن لايسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس؟! وقد سألنى: من أكثر الناس جناية على القرآن؟ فقلت: ذووه وأصحابه، فسُرّ بجوابى هذا كثيرا. أوتى كل هذا الإعجاب والاعتبار والاعتداد به، مع أن الترجمة الإنجليزية له بعيدة عن الصواب فى مواضع كثيرة. ثم قال شيخنا: وقد جعلوا (أى الفقهاء) - كتبهم هذه على علاتها أساس الدين. ولم يخجلوا من قولهم : إن العمل يجب بما فيها (إن عارض الكتاب والسنة؟؟!) فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث. وانحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على مافيها من الخلاف فى الآراء والركاكة!؟ ثم قال : إذا رجعنا إلى كتب القرون المتوسطة كالزيلعى، نكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه. ومادمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ولانعرف الدين والعلم إلا منها فلا نزداد إلا جهلاً. هذا الشوكانى لما كسر قيود التقليد الأعمى، حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها. وقال : إن حالة الفقهاء هذه هى التى ضيعت الدين. وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الأمة) وحالة الحكم أمام الفقه قال : إن العامى الذى يحتاج إلى الكسب والعمل لامتسع عنده لصرف سنين طويلة فى تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات فى الأزهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة، وأى حاجة إلى هذه الأبحاث الطويلة، والتدقيقات فى مسائل المياه والطهارة والصلاة. قال ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وشرح صلاته ووضوءه مما يمكن تلخيصه فى ورقات قليلة. وكل ماء يشرب وينقى به البدن يُطهّر به. من أين جاءهم أن ماء الزهر والورد لايصلح للوضوء به. وهل فيه شىء من المادة إلا الماء وقليل من الطيب الذى هو من مقاصد الشريعة؟ وماء الكولونيا أحسن شىء للوضوء فإنه يمنع آثار المرض أيضا. وكان الشيخ الإمبابى يقول بنجاسته لأن فيه «سبرتو». وهل يوجد شىء مطهر كالسبيرتو؟، والاستدلال على نجاسته بإسكاره ضعيف[1] ، فإنه لايمكن شربه لأنه مخرق للجوف، كذلك محلول السليمانى من أحسن المنقيات والمطهرات «الطبية» وشربه قاتل.

---

(١) فى الهامش : ظاهر هذا أن الأستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات. ولكننى أفتيت فى المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك وأقره (هامش رشيد رضا).

ثم إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع، لم ينص عليها فى هذه الكتب فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم؟ هذا لايستطاع، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها.

إن أهل بُخارَى جوزوا الربا للضرورة. والمصريون ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص. فاضطر الناس إلى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب. والفقهاء هم المسئولون عند الله تعالى عن هذا؛ وعن كل ماعليه الناس من مخالفة الشريعة؛ لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان. ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها، أى كأحكام الضرورات. لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها؛ ويجعلونها كل شىء، ويتركون لأجلها كل شىء! يقرءون الأصول ولايخطر ببال أحد منهم أن يُرجع فرعًا من هذه الكتب إلى أصله، أو يبحث عن دليله، بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لايلزمنا النظر فى الكتاب والسنة. دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذى تشتت به شمل الأمة. ويكتفون بقول: «وكلهم من رسول الله ملتمس» «كان ينبغى أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذى ينبغى أن يكون عليه العمل. وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بزمان أو مكان ينبغى لهم التنبيه على ذلك. وأن هذا الحكم ليس عاما، وإنما سببه كذا. . لا أنهم يجعلون كل ماقيل عن فقيه واجب الاتباع فى كل زمان ومكان»!

* * *

الملحق الأول

الميت الذى لايموت

الشيخ محمد عبده بمناسبة ذكراه الثلاثين

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات(١)

«عجيب عجيب !! شيخ يلبس حلة مقطوعة الكم، ضيقة الرُّدن، مُبنَّقة الجيب، ويعْتَمّ على طربوش كطربوش الأفندية، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة، ثم يتكلم الفرنسية، ويصاحب الخواجات، ويغشى بلاد الكفر، ويترجم كتب أوربا، ويأخذ عن جمال الدين، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح، ويريد أن يدخل فى الأزهر علوم المدارس، ويشتغل بالأدب، وينشئ المقالات للصحف، ثم يحرم «الدوسة»، وينكر الوسيلة، ويحلل الموقوذة، ويسوغ لبس القبعة، ويجيز الربا فى صناديق التوفير، ويحاول الاجتهاد، ويفسر القرآن على غير طريق السلف. . ! نعوذ بالله من شر هذه المحنة، وعواقب هذه الفتنة، ونسأله أن يقبضنا على منهج السنة، ومذهب الجماعة. . »
هكذا كان يقول جمهور «العلماء» فى صحن الأزهر حين انبلج نور الإصلاح من جبين محمد عبده؛ كما كان يقول مشركو قريش فى فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله؛ لأن دعوة الدين فجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع، فى الأخلاق والطباع. فقال الناس حين رأوا رجلا رأسه فى السماء ورءوسهم فى الأرض، انظروا كيف يريد أن يغير نظام الكون ويغير خلق الله؟! ولأن دعوة الإصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البُلَه، وجمود كغشية الموت، واستغراق كخدر الأفيون، من طول ماتنكرت له الأحداث، وطغت عليه البدع، وعَلَت فيه الجهالة، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية، أوصوا مع الرهبان، يقطع أهله عن الناس، ويجرى بهم إلى الخلف، ويعيش معهم فى الماضى، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين، أن يتوفر على مسائل الفقه، ويتقيد بآراء السلف ويتعبد بألفاظ الموتى، فلما نبههم الإمام إلى أن الدين للدنيا، والعلم للعمل، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء، ليّظل أثر الدعوة شديدا، وحبل الدين جديدا، وخلافة الله قائمة، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمته سمت البيئة، وزيه زى القوم، ورأيه رأى الحلقة؛ فاستوحشوا من ناحيته، وأنكروه، وقالوا معتزلى مبتدع!
قال الأستاذ الإمام وهو ينفض باسما ماحثوه على عطفيه من الظنون والتهم: لاصلاح للدين إلا بإصلاح الأزهر، ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله، ثم استعان على خصومه بالإحسان والتضحية والصبر، حتى آمن من آمن، وهادن من هادن، ووضع يمناه فى

---

(١) الرسالة - العددان ١٠٥ و١٠٦ (على التوالى ٨ و ١٥ يوليو ١٩٣٥).



أيديهم، ويسـراه فى أيدى أولئك الذين فتنهـم الغرب. فأنـغضوا رءوسـهم إلى مدنـيا الإسلام، وذووا وجوههم عن ثقافة العـرب، يحاول أن يصل بين الثقافتين، ويوفق بين العقلـيتين، ويجعل من هـؤلاء وهؤلاء وحدة متـسقـة الفكر، متـفقة الهـوى، متـحدة الغـرض، تؤلف بين الـدين والعلم، وتقـرب بين الشـرق والغـرب وتـصل بين الماضى والحاضر، فنجح بقدر ماينجح الأنبيـاء والمصلحون فى إبان الدعوة، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومـة، ويبذرون البذر فى عصف من المـعارضة. ثم ينفثون فـى أتباعهم القليلين المخلصين، أرواحهم الخالقة، وقواهم الخـارقة، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس، وشهودا على الناس، وأدلاء على الحجة.

لاريب أن الإمام مـحمدًا كان من أولئك الأعـلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسـانية من قرن إلى قـرن . وأخص . . ماتميـزهم به الطبيـعة متـانة الخلق، وصلابة الرجولة وشدة الأسر، وقوة الحـيوية، وحدة الذهن، وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وثاقة التركيب، وشجاعة القلب، فشب نابيا على الضعف، أبيا على السكون. يريد أبوه أن يكون تلميذا كَلدَانة فى المكتب فيـأبى هو إلا أن يكون زارعا كإخوانه في الحقل! ويرسله أبوه إلى المعـهد الأَحـمدى يطلب العلم. فـيفـر منه إلى مدارج السبل يطلب الفـلاحة ! لأن حفظـة القرآن، وحمـلة الفقـه، كانوا موضـع العطف من القلوب لقلة الكسب، وضعف الحيلة؛ وحيويته تأنف الجمـود، وحريته تأبى القيود، ورجولته تعاف الشفقة. ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيـه، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة، سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب، فأخذ الشريعـة والطريقة على السيد محمد المدنى والتصـوف في المغرب يقوم على ذكـر الله بالاستحـضار، وتلاوة القرآن بالاستـذكار، ورياضة النـفس بالتأمل. فأخـذ يروض جمـوح طبعه بالـصلاة، ويلطف حمـيا شـبابه بالذكر، ويطفئ غليل قـلبه بالدرس، حتى فتح السـبيل بين نفسـه وبين الوجود الأبدى والكمال المطـلق. ثم اتصل بالسيد جـمال الدين فـتولى عقـله يثقفـه بالمنطق، ويكمله بالحكمة، ويقـويه بالملاحظة. وكان لهؤلاء الثـلاثة : أبيه مربى جسـمه، وشيخـه مربى روحـه، وأستـاذه مربى عـقله، أبلغ الأثر فى تكوين صـفاته وتـوجيـه حيـاته، وتبليغ رسالته.

تولدت حيوية الإمام القـوية من جبلة أبيه الحرة فى «محلة نصر» وتكونت نفـسيته الدينية من صوفية خـاله النقية فى «كنيسة أورين» ، وتفتحت عقليـته العلمية من شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة. فكان سر الوراثة يجريه فى الاعتقاد على الإخلاص، وفى العزم على المضاء، وفى القول على الصراحة، وفى العمل على الجرأة، وفى الحياة على

التمرد، فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء الإرهاص فى الأنبياء، كان لايفتأ منذ الحداثة يساوره فى كل هم يحاوله، وعمل يزاوله، وموضع يستقر فيه. وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس، ولطف الحس، وحدة الفطنة. فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب، ويسأم الركود فيبتغى التحول. ولذلك كان الإمام لايكره طبعه على حال، ولايلبس سمعه على رأى، ولايملك لسانه عن نقد، ولايكف عزمه عن تغيير. ولايخزل جهده عن إصلاح. دخل المعهد الأحمدى فبرم بالتعليم لفساد الطريقة وسوء الكتب. فكان وكده طول عمره أن ينعش الدين من هذا الخمود، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى، وينقذ الطلاب من هذا العنت. وظهرت مقالاته فى الأهرام وهو لايزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية، والمعارف العصرية، والأدب المنتج، ثم تولى رئاسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين والتقاليد الإدارية فى الحكم، والبدع الفاشية فى الدين والعادات المنكرة فى المجتمع. وكانت مقالاته فى «الوقائع المصرية» دستور اللغة، ونظاما للكتابة، ومنهاجا للفضيلة قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه.

ثم شايع العرابيين فى الغضبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم، فأعقبته النفى إلى سوريا وهناك دله ذلك الشعور النبوى فيه إلى ماجره سوء سياسة السلطان، من انفراج الحال بين الأديان، وجفاف الثرى بين الإخوان؛ فوضع دستورا لإصلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الإسلام، ومشروعًا لإصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت. ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية، لكان شأنها غير ذلك الشأن، وعاقبتها غير هذه العاقبة. ثم اتسع أفق تفكيره وانفسح مدى نظره، فراعه حال المسلمين فى قناعتهم بالدون، واستنامتهم إلى الهون وقعودهم عن مسايرة التمدن، فوافى الأفغانى إلى باريس، ودعا فى «العروة الوثقى» أشتات الأمة إلى الوحدة، وأموات الجهالة إلى البعث، وأسرى العبودية إلى التحرر.

ثم ولوه - بعد العفو عنه - القضاء، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية، وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية، وارتجل لهذه من الإصلاح ماحقق لوجودها النفع. وجدد فى قضائها الثقة، وضمن لقضائها التنفيذ. ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى الدينى والمدنى فى إصلاح الأزهر لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر، فإذا قلبه على الوضع الذى يريد، فقد وضع المكواة على أصل العلة، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية. ولكن أبا لهب وأشياعه فى الجامع وفى القصر أرادوا وأسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله، فاطفأوا بكيدهم سراج حياته!!!

ذلك سر الوراثة الفسلجية عن أبيه القروى الفـقير الباسل. أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقى العارف فـرجوعه إلى مشارع الدين الصافية وعـقائد القرآن الأولى. قال ذات يوم لخاله: ماطريقتكم؟ قال الإسلام. قال: وماوردكم؟ قال: القرآن. فلم يتبع منذ يومئـذ إلا سبـيل المؤمنين، ومنهـاج الأئمة، أيقظ همـه للإسلام، فـقرب عقـائده من الأفهـام، وقطع عنه ألسنة المبشـرين والمستعـمرين بالأدلة النواهض، والحـجج الملزمة. وجعل عزمه للقرآن، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام بينة. فبراهين قضاياه من قواعده وبينات دعاواه من شواهده، ومـضامين عبقرياته من هديه، وأفانين بلاغـاته من وحيه، وعناوين مـقالاته مـن آيه. فكأنه رسول الرسل ظـهر فى عـصر العـلم الشاك والمدنيـة الملحدة، ليكـشف عما غـيب الله من نور الكتاب وسره. أمـا سر الوراثة العـقلية عن أستـاذه الحكيم الثائر فذلك النفوذ البـعيد في علوم الفلسـفة، والبصر الشـديد بضروب المعرفة، والإلمام المحيط بـثقافة العصر، والعلم الواسع بقواعـد العمران، وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبـار الأمم، وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث طبع ذكى، ونبوغ فطرى، ونفحة من روح الله ليعيد كلمته على لسانه، ويبعث شريعته عن قلبه.

كان الإمام محمد عبده عبقرية ثائرة نافذة لاتعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية، ولكنها انـحصرت - بحكم الظروف - فـى الإصلاح الدينى، فوفـقت بين الدين الذى تأخر والعلم الذى تقدم موقف ابن رشد وابن سـينا من قبل، يحاول التأليف بين القلب والعقل، والتوفيق بين الرأى والنقل. فذهب أكـثر جهده باطلا بين الجامدين الذين يرون فى تجديد الدين بالعلم بدعة، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييده العلم بالدين رجعية. فلو أنه عالج الإصلاح الاجتماعى من طريق العلم، أو السياسى من طريق الحكم، لدفع الأمة إلى الأمـام قرنا على الأقل (وهذا القول عندى مـحل نظر) وبعد، فإن فى مـيدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الإسلام ومصلح الأزهر، ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفـلان) وأشباهه لاستغفرنا الجهل سبعين مـرة، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الإمام وخليفته، فهل يتحقق الظن، ويصدق الأمل؟!

توقيع : أحمد حسن الزيات

* * *



الملحق الثانى

عن مجلة الرسالة

العدد ٥٥ - ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٤ صفحة ١٢٢٨

بمناسبة ذكرى وفاة الإمام

وقفة على دار الإمام محمد عبده بعين شمس

للشاعر الحاج محمد الهراوى

أظلامًا وأنت فى عين شمس ... وعبوسا من بعد صفو وأنس؟

كيف أصبحت يامشابة غاد ... كيف أمسيت يامنارة ممسى؟

كنت والعهد منك غير بعيد ... بيت مَلك بغير تاج وكرسى

كنت للفضل والمكارم والنبـ ... ـل جميعا، للناس من كل جنس

كنت للعلم، والمعلم والطـ ... ـالب، مجلى نهى، ومعهد درس

عُطِّلَتْ هذه الدروس وكانت ... ملء أهل الزمان فى كل حس

وانطوت، ثم لايزال صداها ... بين صدر يرن فيه وطرس

فانظر الدار وهى قفر خلاء ... بعد أهل، فهل ترى من محس؟

وانظر الرسم إن أصبت جوابا ... فى كلام أو فى إشارة خرس

هيه يادار بعد أنس أجيبى ... كيف أوحشت بين يوم وأمس؟

لاتراك العيون من دمعها المسـ ... ـيل حزنا، إلا بنظرة خلس

نظرات تعيد ذكرى إمام ... كاد يُنسى، وصُنعه غير منسى

حسدت مجدك الليالى فمالت ... بعد لين عليك، ميلة بأس

أقفرت هَذِى الربوع وأقوت ... واستحالت إلى معالم درس

لايكاد البناء يقوى على الأر ... ض ولايثبت الجدار بلمس

مابناك الذى بناك ليزهى ... بالذى شاد من قباب وأس

وهو لو شاء شاد عرشا وفرشا ... من لجين ومن حرير الدمقس

إنما آثر التواضع حلما ... للذى فيه من تواضع نفس

ليس يعنى بزخرف العيش حزا ... قطع العيش بين نفى وحبس

فأقام البناء من لبنات ... خشنات أطرافها غير مُلس

لايبالى وكل شىء سيبلى ... أن يطوف البلى عليه بطمس

أنكر النفس ثم باع هواها ... في سبيل الأوطان بيعة بخس

ومضى يحمل الكريهة فردا ... مستهينا بكل بأس وبؤس

مستعينا بالله والحزم والعز ... م ووحي الحجى وتدبير رأس

نفس حر تجملت بخلال ... يتجافين عن صغار ورجس

خصه الله بالمواهب والرأ ... ي بعيد المرام صلب المجس

رجل كان حين يقطع أمرا ... يتقاضاه من مخالب يأس

ليس يثنيه عن أياديه قوم ... يصبغون الجميل صبغة ورس(1)

فلقد عاش (عبده) في زمان ... جُلّ من فيه بين كيد ودس

حسدوا فيه نعمة الله فيهم ... ورموه بكل منكر حدس

فإذا مات أيقنوا أي ركن ... هدمته يد الضلال بفأس

قل لشعب حظ النوابغ منه ... حظ سقراط حيث أودى بكأس

تقتلون النبوغ حيا وتمضو ... ن بكيا عليه في بطن رمس

أيها الناس هاهنا قام بيت ... فوق آثار خفرع وكيوبس

لم يكن من صروح هامان فرعو ... ن، ولاكان من حصون الفرس

فإذا ذل فالذي قد بناه ... ليس من طينة الذليل الأخس

آه لو كان شكسبير بناه ... أو بناه أخوه «هيجو» الفرنسي

لرأى الناس أي دار تجلت ... واستحالت إلى حظيرة قدس

أثر النابغين في كل شعب ... هو ميراث كل جيل وحرس

أيها الناس هاهنا سر مجد ... قبست منه نورها عين شمس

وهاهنا أشعة ذكرى ... تستضيء العقول منه بقبس

فأقيموا البناء من قبل أن يأ ... تي يوم يحول فيه للبس

واجمعوا فيه ماتشتت منه ... بيد الدهر من متاع ولبس

واجعلوه للعلم دارا وللذ ... ين منارا أو مرجعا للتأسي

ينبري للوفود منه خطيب ... صامت القول في بلاغة قس

يوعظ العقل للحياة ويمضي ... يفتح العين من عماء ونعس

ذاك من جانب الوفاء إلى الشعـ ... ـب نداء لصاحب غير نكس

---

(1) مادة صباغة.





السيد

محمد رشيد رضا

الشيخ محمد رشيد رضا من كتبه
عرض ومناقشة (خلافات وخصومات)

بند ١ : فى كتابى عن «جمال الدين الأفغانى» - فصل بعنوان «حب الصالحين» - فصل[(١)] ٦ - ص ٣١ ومابعدها (والكتاب تحت الطبع). وفى مطلع الفصل: «ما أجمل أن يكون حب الصالحين قد جاء مبكرا، واستقر فى قلوب الناشئة !! » وما أطيب أن يصير هذا الحب «هياما» بأحد العظماء أو ببعضهم، وما أحلى أن تلتقى عند هذا الحب وحوله قلوب مازالت غضة !!

فى كتاب «المغربى» عن «جمال الدين الأفغانى» قصة من قصص هذا الحب الذى تمكن من قلبى ناشئين هما عبدالقادر المغربى ومحمد رشيد رضا. . أحبا الأفغانى وكذلك تلميذه وصديقه محمد عبده. أما الذى شدهما إليهما فكانت تلك الدرة قليلة النظير، والعظيمة التأثير حتى اليوم وغداً إنها «العروة الوثقى»[(٢)]. . . إلى آخره.

ومن المعروف عن شيخينا الأفغانى ومحمد عبده، قلة ما تركا من كتب وخاصة الأول. لقد كانا يحملان هموم المسلمين، وهى هموم كثيرة تنوء بها العصبة ذات القوة!! كان كلاهما يحمل رسالة الإصلاح العام بُشعبها الكثيرة: محاربة الاستعمار بلا هوادة، ومحاربة الاستبداد بكل صُوَره. كان كذلك الأول، وإن غلب عليه الجانب السياسى، وكان كذلك الثانى وإن غلب عليه الجانب الاجتماعى والتربوى.

لم يؤلف الشيخان كما قلت، إلا فى حدود ضيقة. ولكنهما تركا من أَلَّف: وألف كثيرا وغزيراً. وعلى رأس هؤلاء الشيخ محمد رشيد رضا.

من كتبه

١ - الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية. وهى أول مؤلفاته. استهدف به الرد على أبى الهدى الصيادى (مستشار السوء للسلطان عبدالحميد)، الذى تعرض للشيخ الصوفى عبد القادر الجيلانى.

---

(١) (٢) عن الشيخ رشيد وطموحاته المبكرة (عليه الرحمة والرضوان) أحيل على الفصل ٦ المشار إليه فى المتن والبند ٧ (وهو ما كتبه المغربى عن الأفغانى) وكذلك أشير إلى كتاب (السيد رشيد رضا الإمام المجاهد) - (الدكتور إبراهيم العدوى) - وفيه تفصيل لمراحل حياة السيد رشيد.

٢ - مجلة المنار (١٣١٥ هـ - ١٨٩٨ م) إلى (١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م)(١) (وهى السنة التى توفى فيها الشيخ رشيد يرحمه الله، وتلك المجموعة من مجلة المنار هى المعلمة الإسلامية الكبرى، والكنز الذى احتوى ثمار تجارب رشيد رضا وآراءه فى الإصلاح الدينى والسياسى.

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وما جرى بمصر فى عصره(٢).

٤ - نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء فى الإسلام)

٥ - الوحى المحمدى

٦ - المنار والأزهر

٧ - ذكر المولد النبوى

٨ - الوحدة الإسلامية

٩ - يسر الإسلام وأصول التشريع العام

١٠ - الخلافة أو الإمامة العظمى

١١ - الوهابيون والحجاز

١٢ - السنة والشيعة

١٣ - مناسك الحج

١٤ - تفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير المنار

١٥ - حقيقة الربا

١٦ - مساواة الرجل بالمرأة

١٧ - رسالة فى حجة الإسلام الغزالى

١٨ - المقصورة الرشيدية(٣).

للأستاذ طاهر الطناحى (دار الهلال) «عرض وتحقيق وتعليق» على «مذكرات الإمام محمد عبده»(٤). ومما جاء فيما كتبه الأستاذ الطناحى (ص ٥ وما بعدها) إذا كنت لم أسعد بلقاء هذا الإمام العظيم فقد سعدت بلقاء بعض تلامذته ومريديه. وفى مقدمتهم المرحوم شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم والسيد محمد رشيد رضا، والشيخ

---

(١) صدر الجزء الأول من المنار سنة ١٣١٥، أى عقب هجرته مباشرة إلى مصر، وآخر ما طبع الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين فى ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ / ١٩٣٥.

(٢) من ثلاثة مجلدات كبيرة الأول فى ١١٣٤ صفحة.

(٣) نقلا عن ص ٢٦٩ وما بعدها فى كتاب «رشيد رضا - الإمام المجاهد للدكتور إبراهيم أحمد العدوى رقم ٣٣ - أعلام العرب».

(٤) العدد ٥٠٧ - مارس ١٩٩٣ (كتاب الهلال).

مصطفى عبدالرازق، والأستاذ إبراهيم الهلباوى، وقد كان الأخير قرينا وزميلا له منذ الصبا.

وقد أتاحت لى معرفتى بهؤلاء الرجال الكبار أن أقف على الكثير من ذكرياتهم التاريخية والعلمية والأدبية والوطنية عن حياة الشيخ محمد عبده، وقد دونت بعض ذلك فى الكتابين الأول والثانى من هذه المجموعة الجديدة[١].

هذا، ومما يذكر أن الأستاذ الإمام حين توفى... لم يكن قد أتيح له أن يجمع مابحث وكتب فى مؤلفات مطبوعة كما فعل الكثيرون من رجال العلم والأدب والإصلاح، فقام تلميذه المرحوم السيد رشيد رضا بجمع الكثير من كتاباته فى الوقائع الرسمية، وفى مجلة المنار، وفى جريدة العروة الوثقى... وقد نشر طائفة من تفسيره للقرآن الكريم، ودون له تاريخاً جمع فيه الكثير من الأبواب، ولم يخرج للناس هذا التاريخ (تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده) إلا فى سنة ١٩٣١م، بعد وفاة الأستاذ الإمام بستة وعشرين عاماً، وقبل وفاته هو ببضع سنوت.

وقد عمد السيد رشيد (والكلام للأستاذ الطناحى) إلى شىء لم يسبق إليه مترجم لحياة عظيم من عظماء التاريخ ولا لتلميذ عن تاريخ أستاذه. فقد وضع تاريخ الشيخ محمد عبده وما قام به من أعمال وكأنه يضع تاريخًا لنفسه أيضا. فقد لاترى فصلا أو بحثا للسيد رشيد عن الأستاذ الإمام إلا وأشرك فيه نفسه، كأن حياته جزء من حياة الإمام، بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمله مكملا لأعمال الإمام فى بحوثه وآرائه وكتبه.. وقد روى عن الإمام أبياتا قالها وهو على فراش الموت يدعو الإمام فيها الله تعالى أن يجعل السيد رشيد خلفا له على دين الإسلام - يضىء نهجه ويسير على طريقه، ويماثله نطقا وعلما وحكمة، وهذه هى الأبيات:

ولست أبالى أن يقال محمد	أبل، أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه	مخافة[٢] أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجّون نيلها	إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيارب إن قدرت رجعى قريبة	إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا	«رشيدا» يضىء النهج والليل قاتم
يُماثلنى نطقاً وعلما وحكمة	ويشبه منى السيفَ والسيف صارم

(١) كتاب «الإسلام دين العلم والمدنية» وكتاب «دروس من القرآن الكريم».

(٢) فى الأصل (أحاذر) - وإنى أحفظها كما فى المتن.



ويقول صاحب التقديم: «وسواء أكانت هذه الأبيات للشيخ محمد عبده أم للسيد رشيد الذى رواها عنه فإنها تدل على عنايته بنفسه، وإيمانه بأنه خليفته فى الإصلاح الإسلامى؛ وقد استولى على الكثير من آرائه، واقتنع بأن له الحق فى طبعها وشرحها والزيادة عليها دون أحد غيره من تلامذة الأستاذ الإمام.

وقد كان من أهم الجوانب فى حياة محمد عبده الجانب الوطنى، ولكن السيد رشيد أجمل فيه القول إجمالاً، بل حاول أن يدافع عن اشتراكه فى الثورة العرابية، باعتباره مواليا لأسرة محمد على و «مدافعا» عن الخديوى توفيق، ومنتقدا لأحمد عرابى وصحبه، وغير موافق على ثورته ولم يكن كذلك. فقد كتب أحد الصحافيين عن الثورة العرابية بمناسبة العفو عن زغمائها المنفيين فى جزيرة سيلان، وأسند للأستاذ الشيخ محمد عبده أنه أحد أركان هذه الثورة، فانبرى له السيد رشيد وكتب مقالاً فى صفحة ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد ١٣١٩ هـ - الموافق سنة ١٩٠١ م).

وكان خديو مصر فى ذلك الحين عباس حلمى الثانى، فدافع عن اشتراك محمد عبده فى الثورة العرابية، وقال - فيما قال - عرض هذا الصحافى المتحذلق بذكر الفتنة العرابية وياليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية، ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال. . . . حين كانت الثورة مازالت فى دور التكوين، كان الشيخ محمد عبده من أعلام الكتاب وقادة الرأى فى مصر، إذ كان رئيسا لتحرير الوقائع الرسمية. ومنذ عُيِّنَ محررا فى هذه الجريدة عام ١٨٧٩ م كان يكتب مقالات وطنية وأدبية واجتماعية ودينية، وكلها تهدف إلى الإصلاح القومى ونشر الحرية ومعارضة الظلم والاستبداد، وكان يهدف فى كل مقالة إلى رفع مستوى الأمة، وقد كان ينتقد فيها الحكومة انتقادا كان من أهم أسباب سقوط وزارة نوبار باشا، وكان رجال الجيش وسائر المتعلمين فى الأمة يرونه الرائد الأول ليقظة البلاد، وبعد أن ذكر الكاتب بعض عناوين مقالاته قال فى مقال له بعنوان «الشورى والقانون»: إن استعداد الناس لأن ينهجوا نهج الشورى غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقرر لدى أهله، بل يكفى كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد، وأحوال العباد، ومما تقدم سرده تعلم أن أهالى بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأى العام، وأخذوا يتنصلون عن جُرم الإهمال، ويستيقظون من نومة الإغفال. ومن هذه المقالة وحدها ما ينفى ما ادعاه السيد رشيد من أن محمد عبده كان معارضا للعرابيين فى ثورتهم لأنه كان يرى أن الأمة

غير مستعدة لتدبير شئونها بنفسها، كما يدل على أن نقده للعرابيين فى أوائل الحركة كان لاستقلالهم عن الأمـة، ولكن لما انضم عرابى للأمة وحصل منها على توكـيلات أعيان البلاد والقـرى وممثليها، وظهـرت الحركة العـرابية بمظهـر قومى كان من أوائل رجـالها يؤيدها بالرأى والعلم والقـول والعمل. وقد كـانت مقالاته قـبل الثورة العـرابية، ومنذ تولى الوقائع الرسـمية بواعث هذه الثورة. فقـد كان هو وعدد من زعمـائها من تلامذة الأفغانى، وقد أسسـوا معه أثناء وجوده بمصر حزبا سياسـيا باسم «الحزب الوطنى الحر» وكان هذا الحزب يطالب الخـديو إسماعيل بالتنازل عن الحكـم ويطالب بالإصلاح، وقد سعى لدى محمد شريف باشا لكى يقنع إسماعيل بالتنازل. وقد قال الشيخ محمد عبده عن جمال الدين... إن هجرته إلى مصر وإقامـته فيها من عام ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ كانتا بعثا وطنيا سياسـيا لها، وحدا فاصلا بين ماضٍ مظلم وحاضر مضىء، ومسـتقبل مبشر بالكرامة والحـرية. وقد كتب فيـما كتب قـبل احتدام الثورة العـرابية مقالا عن «الحـياة السيـاسية والوطن والوطنية» بتـاريخ ٢٨/ ١١ / ١٨٨١ م بعد موافقـة الخديو على طلب العرابيين وصدور قـانون مجلس النواب، جاء فيـه «الوطن فى اللغة... وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنتـسب إليه، ويحفظ حقك فيه، ويعلم حـقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك. ومن أقوالـهم فيه: لا وطن إلا مع الحرية، ولا وطن إلا مع وجود الحقوق والواجبات السياسية. ذلك بعض ما كان يكتبه قبل الثورة... وقد فتحت هذه المقالات عقول الأمـة ووجهتها نحو طلب الحريـة والإصلاح، بعد أن عاشت زمنا فريسة للطغيان والفساد والجهل.

فإذا كان للشيخ محـمد عبده ضلع فى الثورة العرابية واشتراك فـيها: فهو أولا: ذلك البعث الـذى نشأ من مقـالاته وآرائه التى أثرت فى الأمة مـا بين عسكريين وغـير عـسكريين، وأغنياء وفقراء، وهيأتها للثورة. وثانيـا: ما قام به من مساعدة العرابيين بعد أن انضمـوا إلى الأمة وانضمت إليـهم الأمة، وتحقـق اتحاد الجميـع على طلب الحرية، ومجلس النواب، والخلاص من الظلم والاستبداد.

ولذلك حين فشلت الثـورة وقبض على زعمائهـا، كان فى مقدمـة هؤلاء، وقد حوكم الإمـام، وقضى عليه بالنفى ثـلاث سنوات خارج مصـر. فى حين حكم بالبراءة للبـعض وإذا كان قـد نصح للعـرابيين أول الأمر وهم منفـردون بالحـركة بالتـريث فى معارضـتهم وقتئـذ لمصطفى رياض باشا رئيس الورراء؛ فذلك لأن رياض باشـا كان فى أول عـهده من أحـسن رؤسـاء الوزارات الذين تولوا الحكم فى ذلك الحين بعـد الوزير الأجنبى الظالم نوبار باشا، فقد رفع كثيرا من الظلم عن المصريين، وخاصة الفلاحين.

وكان محمد عبده - وقتئذ - يراه مثالا للرئيس الوطنى العادل الذى يجب تأييده. فلما وجده ضعف أمام النفوذ الأجنبى واستبداد توفيق عارضه رغم ما كان يحفظ له من أُبُوّة، مُفَضِّلا أبوة الوطن على أبوته.

ولا ريب أن الذين أرادوا أن يدافعوا عن الشيخ محمد عبده بأنه لم يكن موافقا للعرابيين فى ثورتهم، وأنه كان ينتقدهم، ولا يتفق وإياهم فى الرأى، قد أسرفوا فى ذلك كل الإسراف... (ويرجع من يشاء إلى بقية هذا التقديم - بص ١٨ و ١٩و٢٠).

عن الشيخ رشيد أيضا
بين فريد وجدى ورشيد رضا

تحت عنوان «يكظم الغيظ ويعفو عن الناس» كتبت مايلى (ص ٨٧ و ٨٨) من كتابى «محمد فريد وجدى وحسن استعمال الحرية» (الطبعة الأولى - عام ١٩٩٤ م)

ما قرأت لوجدى، وما تتبعت أقواله وأفعاله وسلوكياته وتصرفاته ومعاملاته - إلا ازددت يقينا بأنه ما كان ليكون كما كان إلاّ لأنه «رجل مسلم»، حسن إسلامه فَحَسُنَ منه كل شىء إنه من العلماء الذين قال فيهم رسولنا عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء» إنه ونظراءَه امتدادٌ لهم. وفى القرآن الكريم الكثير والكثير عن فضلهم ومكانتهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] ؛ وقوله : ﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ... ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة]: وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت]. وإنى إذ أشير إلى ما فى كتاب الله وسنة رسوله عن العلم والعلماء أذكر هذه الواقعة التى ذكرها الدكتور محمد طه الحاجرى فى كتابه «محمد فريد وجدى - حياته وآثاره» (١٩٧٠ ص ١٣٣ ومابعدها). والواقعة خاصة بالعلاقة بين محمد فريد وجدى، ورشيد رضا صاحب المنار[1]، إذ نشبت بينهما معركة

---

(١) انظر سابقا - بند ٢٥. وكان الشيخ رضا فى رسالته إلى الشيخ المغربى، والمشار إليها فى البند المذكور قد قال عن وجدى: «فريد بك وجدى ابن وكيل محافظ دمياط شاب نبيه ذكى أبصر أهالى دمياط بحالة الإسلام، وجهته مثلنا دينية وله اعتناء بالفلسفة... وهو منفرد بهذه الأفكار فى دمياط... وزرت فريد بك وزارنى ونشط همتى على إنشاء المنار..

هذا ما قاله عند مقدمه إلى مصر، فماذا قال عن وجدى بعد ذلك، وعندما تغير ما فى القلوب، هذا ما نشير إليه فى المتن. ومن واجبى أن أقول: إننا بشر ولنا أخطاؤنا، وفينا عيوبنا والشاعر يقول:

من ذا الذى ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط ؟!

ويقول: ولستَ بِمُستبقٍ أخا لا تلمّه ... على شعث أى الرجال المهذب ؟!

قلميـة. وكان الشـيخ رشيـد هو البادئ بالهـجوم وقلب حسنات «وجـدى أفندى» إلى سيئات واسترسل فوصفه بأوصـاف هو منها براء. لقد عاب عليه - على سبيل المثال - وساخراً ومتـهكما أنه صاحب «مدرسة العلوم العالية التى لم تكن تشـغل سوى حجرة فى إحدى المدارس، كما أن صاحبها هو الأستـاذ الوحيد فيها. وقد رد عليه وجدى فى جريدة اللواء، وأشار إلى ذلك مع رد عليه فى مجلة الحياة، وبينـما استمر الشيخ رشيد فى الطعن عليه توقف هـو إذ تدارك نفسه التى اعتـادت على دفع السيئـة بالحسنة. وفى العدد التالى من الحياة كـتب كلمة قصيرة رجا فيها القراء ألا يعـتبروا الصُّحف التى نشر فيها الردّ جزءًا من المجلة قائلا فى ذلك: «ربما أن هذه أول مرة قـابلنا فيها السيئة بمثلها، فيجبُ ألا تحفظ هذه الملزمة فى مؤلفاتنا، ونرجو حضرات القراء رفعها منها، وقد جعلنا أرقام المجلة تابعة للملزمة التى قبلها. هدانا الله إلى خير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الألسنة والأقلام».

وخيـر مـا أبـدأ بـه فى تعليـقى على ماتقـدم هو مـايلى من نصـوص قرآنيـة ونبوية. يقـول تعالى فى صـفات المؤمنين كمـا جاء فى سـورة الشورى - (الآية ٣٧): ﴿ والَّذين يجتَنبُون كبَائر الإثْم والْفواحش وإذا ما غضبُوا هُمْ يغْفرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، ويـقـول فـى الآيـة ١١٠ النساء ﴿ومن يعملْ سُوءًا أوْ يظْلمْ نفْسهُ ثُمَّ يسْتغْفر اللَّه يجد اللَّه غفُورًا رَّحيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

ويقول فى الآيتين ١٤٨ و ١٤٩ من نفس السورة ﴿ لا يُحبُّ اللَّهُ الْجهْر بالسُّوء من الْقوْل إلاَّ من ظُلم وكان اللَّهُ سميعا عليمًا ﴿١٤٨﴾ إن تُبْدُوا خيْرًا أوْ تُخْفُوهُ أوْ تعْفُوا عن سُوءٍ فإنَّ اللَّه كان عفُوًّا قديرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ وفى سورة آل عـمران يقـول تعالى: ﴿ وسارعُوا إلىٰ مغْفرةٍ مّن رَّبّكُمْ وجنَّةٍ عرْضُها السَّمواتُ والأرْضُ أُعدَّتْ للْمُتَّقين ﴿١٣٣﴾ الَّذين يُنفقُون فى السَّرَّاء والضَّرَّاء والْكاظمين الْغيْظ والْعافين عن النَّاس واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنين ﴿١٣٤﴾ والَّذين إذا فعلُوا فاحشةً أوْ ظلمُوا أنفُسهُمْ ذكرُوا اللَّه فاسْتغْفرُوا لذُنُوبهمْ ومن يغْفرُ الذُّنُوب إلاَّ اللَّهُ ولمْ يُصرُّوا علىٰ ما فعلُوا وهُمْ يعْلمُون ﴿١٣٥﴾ أُولٰئك جزاؤُهُم مَّغْفرةٌ مّن رَّبّهمْ وجنَّاتٌ تجْرى من تحْتها الأنْهارُ خالدين فيها ونعْم أجْرُ الْعاملين ﴿١٣٦﴾ ﴾ [١٣٣ - ١٣٦]، أما عن الأحاديث الشريفة التى ذكـرها أصحاب التفاسير مما يتعلق بالآيات السـابقة وما تتضمنه من كظم الغيظ والعـفو عن الناس، ومغالبـة النفس الأمارة بالسوء، والانتصـار على ما يجتاحها عند الغضب فهى كثيرة جدا. وأحيل على سبيل المثال - على ابن كثير وتفسير القرطبى، مكتفيا بالنصين التاليين: «. . . اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا،



وإذا أساءوا استغفروا» (رواه ابن ماجة والـبيهقى عن عائشة رضى الله عنها). وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قـال: «من كظم غيظا وهو يقـدر على إنفاذه مـلأه الله أمنا وإيمانا» (رواه ابن جرير).

وبعد: فقد استـقرت القيم الإسلامية - كما جـاءت فى كتاب الله وسنة رسوله، فى قلب المرحوم وجدى وعقله، وجرت فى دمـائه وعظامه، ومن كان هذا شأنه لم يعد للنفس الأمارة بالسوء تسلط عليه. وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

البند ٢: مع الشيخ رشيد فى مجلة المنار

هذه هى الصفحة الأولى من العدد الأول من «المنار»

(صورة طبق الأصل)

المنـــــار ١٣١٥

مجلة شهرية تبحث فى فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران

تصدر فى كل شهر عربى مرة

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر - إدارة مجلة المنار) والتلغرافى « المنار بمصر »

المجلد الأول

سنة ١٣١٥ و١٣١٦

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشا فى مصر والسودان

وفى المملكة العثمانية ثلاثة ريالات ونصف، وفى الخارج ١٨ فرنكا.

و١٥ شلنا فى الهند و٧ روابل فى روسيا - والدفع سلفا.

(حقوق إعادة الطبع والترجمة للكل أو البعض محفوظة لمنشئ المجلة

الطبعة الثانية ١٣٢٧ هـ

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر)

ص١

(فهرس عام لجميع المواد التى وردت فى المجلد الأول)

حرف ا



آداب الفتـاة (كتـاب) ص ٩٣٥ . . إلى آخـره . . وهذا يسـهل الوصـول إلى الموضوع فى هذا المجلد الضخم (٩٥٦ صفحة) - ومما جـاء فى هذه الصفحة الأخيرة تحت عنوان « مستـقبل المنار » بعض الاقتراحات من قراء المنار وأصـدقائه . . . ثم قال: اقترح علينا كـثيرون أن نجعله مجلة بشكل الموسوعـات والهلال؛ لأن شكله الآن يخرج فى التجليـد كبيراً، وورقـه يخسر بالطى بعض حُسنه ومـتانته . . . واقتـرح آخرون من الأفاضل علينا . . . أن نضرب صفحا عن الكلام فى جزئيـات المسائل السياسية، والجرح والتعديل فيها، ونكتفى بذكر الأخبار المهمة على الوجه الصحيح . .

وها نحن أولاء نجعل جريدة المنار فى أول سنتـها الثانية مجلة أسبـوعية، ونجعل فيها بعد المقالات الافتتاحية . . بابا مخصوصا لمباحث التربية والتعليم، ويدخل فى ذلك علم تدبير المنزل بجميع شعبه . .

(فاتحة السنة الأولى للمنار)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى[(١)]. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب[(٢)].

أما بعـد: فهذا صـوتٌ صارخٌ بلسانٍ عـربى مبين. ونداء حق يقـرع - مع سمع الناطق بالضـاد - مسـامع جمـيع الشرقـيين. ينادى من مكان قـريب يسمـعه الشـرقى والغربى، ويطيـر به البخار فيتناوله التـركى والفارسى. يقول: أيها الشـرقى . . تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بُدِّلَتْ الأرض غير الأرض، ودخل الإنسان فى طور آخر، خضع له به العالم الكبير. فهذه الجمادات تتكلم بغير لسان، وتكتب بغـير قلم ولا بنان . . واستولى أخوك المستيقظ على قـوى الطبيعة، فقـرن بين الماء والنار، وولدهما البـخار، واستـخدم الكهـرباء والنور، فاختـرق بذلك الجبـال، واختبر أعـماق البحـار . . ووصلت أمواج صوته إلى كل مكان سـحيق . . بل عرج بهمته إلى القبة الفلكية، فـعرف الكواكب ومدارها، ومادتها ومقدارها . . . كفى، كفى . . هُبَّ من سـباتك . . انظر إلى أخيك المستـيقظ . . إن الطبيعة تـخضع لإشارته،

(١) ٥٩ النمل، بهذه الآية الكريمة وقبل أن أعرف المنار - أبدأ كل كتبى. ونص الآية « قل . . . . إلى آخر الآية ».

(٢) ٩٩ هـــود.

فيتم لـه كل ما يريد. . «واعلم أن هذا العصر عـصر العلم والعمل، ومن جمـد وكسل باد. « وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»(١).

كانت العلوم الطبيعية على عهد أسلافك أفكارا متضاربة. . . لم تأت عن امتحان وتجربة واختبار. . فكثر ذاموها. وأما فى هذا العصر فليس العلم إلا ما أثبته العمل، أو بُنى عليه عمل. . فـما لم يحتف به العمل من قطريه لا يعول عليه. . فـالأعمال تنمى العلوم، والعلوم تمد الأعمال، وشاهد ذلك عندك الحديث الشريف « من عَمِلَ بما عَلِمَ، وَرَّثَهُ الله علم ما لم يعلم» قاعدة وضعت فى الشرق، واهتدى للانتفاع بها أهل الغرب، والذين صدرت بلغتهم لاهون غافلون، لا تجعل حظك من حياتك الأماني والتشهى. . . ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ... ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] فعليك بالعلم والعمل. . .

ويقول السيد رشيد عن المنار، وعـن نفسه (ص١١): أنشأت هذه الجريدة إجابة لرغبة من تنبـهت نفوسهم لإصلاح الخلل، ومشايعـة للساعين فى مداواة العلل، الذين أرشدتهم التعاليم الدينيـة، وهداهم النظر فى الآيات الكونية إلى أن اليأس من روح الله هو عين الكفر والضلال. فأحـبوا أن يعملوا لأمتهم، ويقوموا بخدمـة لملتهم، فالجريدة تكون وصلة بينهم وبين الأمـة، تبعث بإرشـادهم روح الهـمة فى أفرادهـا. . . وتجارى الحُدَاة لدى السـير فى مناهج الترقى، وتَنْتَـصب (منارا) فى ظلام الشبهات، ومـجاهيل المشكلات وغـرضها الأول الحث على تـربية البنات والبنين. . . والتـرغيب فى تحـصيل العلوم والفنون. وإصلاح كتب العلم، وطريقة التعليم. . . والتنشيط على مجاراة الأمم المتمـدنة فى الأعمال النافـعة، وطرق أبواب الكسب والاقـتصاد، وشـرح الدخائل التى مازجت عـقائد الأمة، والأخلاق الرديئـة التى أفسدت الكثـير من عوائدها، والتـعاليم الخادعة التى لَبَّسَتْ الغَيّ بالرشاد، والتأويلات الباطلة التى شبهت الحق(٢) بالباطل حتى

---

(١) ٢٩ غافـر (هذه الهوامش من وضعى ثم نلاحظ النّداء (أيها الشرقى) وهذا من آثار الأفـغانى ومحمد عبـده، والمواطنون فى الجامعة الشرقية سـواء أيا كان الانتماء الوطنى أو الدينى. ولاحظ كذلك « أخـوك المتيقظ» فـلا تعصب ضـده ولا عزلة عنه. أما من ظلم منهـم بأن مسنا بأذى، فدفعه عنا واجب.

(٢) فى هذه الصفحة إشارة إلى الأستاذ الإمام ورسالته (وإن لم يذكر اسمه): كما أنه يوضح أن المنار مازال لسان حال له ولرسالته - ثم يبين: بل ويشيد بتعليم البنات والبنين ويلمح إلى رداءة الكتب القديمة، ورداءة طريقة التـعليم - ويدعو إلى الأخذ بالأسباب التى جعلت الغـرب يتقدم، بعكس الشرق الذى تغشاه الأوهام والعادات والسـلوكيات الفاسدة المفسدة - وفى الصفحـة التالية امتداد لهذه المعانى بأسلوب السيد رشيد الذى يجمع بين الدقة والبلاغة والإشراق.



صار الجَبْر توحيدا، وإنكار الأسباب إيمانا وترك الأعمال المفيدة توكلا، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحاداً، وإيذاء المخالف فى المذهب ديناً، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا، واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفانا، والذلة والمهانة تواضعا. . . . تشخص (المنار) هذه الأمراض النفسية وأشباهها، وتوضح عللها، وتصف علاجها وتجتهد فى تأليف القلوب المتنافرة، ووصل العلائق المتقطعة، وتحاول إقناع أرباب النحل المتباينة، والمذاهب المختلفة، أن الله سبحانه وتعالى شرع الدين للتحاب، والبر والإحسان. وأن المناصبة والمواثبة تفضى إلى خراب الأوطان، وتقضى على هدى الأديان[1] . . . وتحث الجريدة على التمسك بالدين وتبين أنه أساس السعادة، وأن الكفر فساد للعمران[2]، وتدرأ الشبه الواردة على الشريعة الإسلامية، وتدحض مزاعم القائلين أنها سد حائل بين الآخذين بها وبين المدنية (يقولون هذا أو نحوه - جهلاً، أو عداوةً وحقدا). والجريدة - إلى ما تقدم - ترشد العاملين إلى أن محاولة الطفور غرور. وتُنَبِّه العثمانيين إلى أن الشركات المالية[3] هى مصدر العمران، وينبوع العرفان. . . فهى تنشئ المكاتب والمدارس وتشيد المعامل والمصانع. . . وتنشر محاسن اللغة العربية وفنونها. . . ولا تأتل[4] الجريدة أن تذكر ما تفيد معرفته من أخبار السياسة الخارجية. مع بيان من الحوادث المحلية، ولا تميل مع ريح حزب من الأحزاب، ولا تتطرف إلى جانب تفريط أو إفراط بحسب ما يصل إليه الاجتهاد. لكنها عثمانية المشرب، وحميدية[5] اللهجة، تحامى عن الدولة العثمانية بحق، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق وتتحامى المطاعن الشخصية، والأماديح الشعرية. . لكنها لا تنثنى عن تقريظ الأعمال العامة الموضوع، وتقريظ الكتب المؤلفة لإفادة الجمهور، بالقول الصحيح والانتقاد الرجيح. وتقبل الانتقاد الأدبى من كل أحد. . وتذعن للحق، من أين انبلج فجره، وتتلقف الحكمة من حيث أتت[6] . . هذا ما توجهت إليه النفس. . بعد تصحيح النية وإخلاص القلب. يقول السيد رضا: . . . وإنى حمَّلت نفسى عبئًا ثقيلا . . لكنى

---

(١) انظر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

(٢) هذا ما تبينه رسالة الرد على الدهريين للأفغانى ونقلها إلى العربية الأستاذ الإمام وأبو تراب مرافق الأفغانى. (والترجمة كانت عن الفارسية).

(٣) هذه دعوة إلى مجاراة العصر بإقامة البنوك (المصارف) ونحوها.

(٤) فى هذا وما يأتى بيان لخطة الجريدة.

(٥) يعنى السلطان عبدالحميد، وفى هذا كياسة وسياسة.

(٦) والحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيثما وجدها، وفى هذا دعوة لنا لنأخذ عن الغير كل نافع لنا.

مع ذلك أعلم أن للحق أنصارا، وللصالحات أعضاء تستمد منهم الجريدة سمو أفكارهم وتغتذى بالكلم الطيب[1] من مجانى عرفانهم..

وقبل البدء فى العمل بإصدار المنار، ساوره تردد بين الإقدام والإحجام - يقول فى (ص١٣ وما بعدها) وما أجدرنى بموقف الحيرة بين بين، وقد أنذرنى بعض عظماء هذا القطر بما صدقه به الابتلاء والخبر من أن الجد مرغوب عنه، لا مرغوب فيه، وأن السواد الأعظم من الأمة قد ثار حابلهم على نَابِلِهِم، وهضم مفضولهم حقوق فاضلهم، فأصبحوا ومطامح أنظارهم انتقاد الحكومة المحلية، ومطارح أفكارهم العداوات الشخصية، ولا يديرون ألحاظهم.. لما وراء الغميزة والإزراء، إلا ما كان من نكتة هزلية، أو رواية غرامية، فإذا رأوا جريدة تفند أقوالهم، وتلغى إسرافهم فى أمرهم.. يوشك أن يلفظوها لفظ النوى.. لكننى وطنت النفس على الاقتناع بمؤازرة الكرام، ومعاضدة الأخيار، ونرجو أن يكونوا آخذين فى النمو لما تقتضيه حالة العصر. والله المستعان.. ومن يتوكل على الله فهو حسبه[2].

اصطلاحات كتّاب العصر

تحت هذا العنوان كتب السيد رشيد (ص١٤ وما بعدها من المجلد الأول) ما نقل منه ما يلى: من القضايا المسلمة أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ولا مندوحة عن مراعاة ما يتواطأ عليه الجمهور ومجاراة الناس على ما يصطلحون عليه فى كل زمان ومكان. وقد انطلقت ألسنة أهل هذا العصر، وجرت أقلامهم بألفاظ يريدون بها من المعانى غير ما تدل عليه فى أصل اللغة، أو فى عُرف العصور السالفة. ولهم ألفاظ أخرى جاءتهم من الفنون الحادثة والاكتشافات الجديدة، والكثير منها مما لم يستعمله العرب، فرأينا أن نشرح فى صحيفتنا هذه الألفاظ حينا بعد حين؛ لأن الكثير من القراء غير عارفين بها على الوجه الذى يستعمله، وبالمعنى الذى يفهمه العارفون.

من ذلك لفظ الطبيعة، والطبيعى، والنواميس الطبيعية، وقوى الطبيعة، والكفر، أقول: أقتصر هنا على ما يلى: النواميس الطبيعية: المراد بالناموس الطريقة الثابتة المطردة

---

(١) يقتبس السيد رشيد فى كل ما يكتب - من القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

(٢) ﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].



التى يحكم الله تعالى بها على الكون، وهو محرف عن لفظ (نومس) اليونانى ومعناه الشريعة، وكثيرا ما يدور على ألسنة الطبيعيين (شريعة الطبيعة). ويستعمله كتاب العربية... مجاراة لهم.. وكان الأَوْلىَ أن يُترجم لفظ (نومس) بالسُّنَّة، فيقال: سنة الطبيعة، والسنن الطبيعية.. وسنراه كثيرا فى هذه الجريدة، وقد نعتاض عنه أحيانا بقولنا سنة الكون، والسّنن الإلهية، وسنة الله فى خلقه. وأما لفظ الكفر فيطلق فى عرف الكتاب اليوم على الملاحدة، فمهما أطلقنا لقب الكافر، أو اسم الكفر فى كلامنا فنريد به ما ذكرنا، ولا نطلقه على المخالفين لنا فى الدين من أصحاب الملل الأخرى، فهم ليسوا كفارا بهذا المعنى، بل نقول بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعا لأنه صار فى هذه الأيام من أقبح الشتائم... ذلك أن معنى الكفر فى أصل اللغة الستر والتغطية وكانوا يسمون الليل كافرا؛ لأنه يغطى بظلامه الأشياء، وأطلقوا اسم الكافر على طلع النخل وأكمام (الزهر) لما ذكرنا... وقد سمي القرآن الكريم الزراع كفارا، كما هو المشهور فى تفسير قوله تعالى: ﴿ ...كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ... (٢٠) ﴾ [الحديد]. وفى كتب التفسير (الكفار أى الزُّراع)، وفى المعجم الوسيط ما يؤيد ما ذكره صاحب المنار من المعانى المتنوعة للفظ (كفر) و(كافر).

ويقول (صاحب المنار): فى « معين الحكام » (وهو من كتب الفقه المعروفة) «ولو قال للذِّميٍّ يا كافر - إن شق عليه - يأثم. وإذا ثبت أنه لا يجوز نداؤه بهذا اللقب فى وجهه لأنه يستاء منه فلا شك أن إطلاقه عليه فى غيبته غير جائز أيضا؛ لأن غيبته محرمة. ولهذه المباحث (يقصد اصطلاحات كتاب العصر) - مقالات فى الأعداد التالية.

وعقب ما تقدم مباشرة، وتحت عنوان « مشروع مفيد » (سكة حديدية بين بورسعيد والبصرة) وكتب عن هذا الموضوع أربع صفحات (١٩ - ٢٣) ثم نقرأ هذا العنوان « مجمل الأحوال السياسية » (ص ٢٣ - إلى - ٣٠) قال: لم نر عاما كثرت مشاكله السياسية كهذا العام، فإننا نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام فى الشرق والغرب، فى العالم القديم والعالم الجديد، ففى مياه الصين تتجمع الأساطيل الأوروبية، وتتكاثف الغيوم قبل نزول الصواعق. وفى أفريقيا تزحف الجنود وتتسابق الحملات إلى أعالى النيل تسابق خيل الطراد، وفى الهند سُقيت الأرض بدم الإنسان وسَمَّدتها فضلات النسور والعقبان من جثث القتلى... وفى كوبا - وراء الأقيانوس - قد صارت الحرب، بين الأسبان والأمريكان قاب قوسين أو أدنى. وفى كريت لا يزال السيف مُصْلتًا، والإخوة العثمانيون يفنى بعضهم بعضا، وفى النمسا استفحل الخلاف بين العناصر المختلفة، فصار البعض يتوقعون... سقوط تلك المملكة

العظيمة. وفى إيطاليا وسيسليا ساد الجوع إثر غلاء الخبز وقلة الأعمال فثار الشعب بنهب الأفران مقتحما حراب البوليس، وهجمت النساء صارخات طالبات لهن ولأولادهن خبزا، أما فى فرنسا فقد مرت الزوبعة السياسية مرور الزوابع الطبيعية على أعشاب الأرض تعبث بها ولا تحدث ضررا.

ويمضى الشيخ رشيد قائلا: ويطول بنا المقال إن رمنا تفصيل تلك الحوادث السياسية الخطيرة، على أنه لابد من الإلماع إليها إلماعا يطلع قراء المنار على إجمال تفاصيلها الماضية، ويكون توطئة للحوادث الآتية: ويكتب فى الصفحات من ٢٤ - إلى ٣٠ عن: المسألة الصينية - المسائل الأفريقية، ويخص الحبشة (وهى أفريقية كما هو معروف) ببعض التفصيل. قال: بنى السيف فى القرن التاسع عشر إمبراطوريتين عظيمتين: الأولى الإمبراطورية الألمانية، والثانية الإمبراطورية الحبشية. وعن هذه الأخيرة قال: إن انتصار الأحباش على الطليان فى موقعة عدوة أنال منليك رئاسة الحبشة، وجعله إمبراطورا على ملوكها المتحدة.. ونشر صاحب المنار حديثا جرى فى بورسعيد بين أحد مكاتبى الجرائد الأوربية والمسيو.... سكرتير منليك الخاص (ص٢٨ - إلى ٣٠).

س: هل تحب مصر ؟ جـ: لا أحبها؛ لأنها بلاد قوم لا يحبوننا، ويسمون الحبشى «عبدا».

س: وما رأيك فى الإنكليز ؟ جـ: لا نخشاهم، وحسبهم الآن الدراويش. وإنا لا نحذر غير الفرنساوية.

س: وما صنعتم بأسرى الطليان ؟ جـ: أساءوا معاملة أسرانا، فلم نقابل ذلك بالمثل، لأننا نعتبر الأسير مقدسا، ويجب ألا يمسه أى سوء..

س: وهل الملكة مهذبة ؟ جـ: اسم جلالتها تايتيس، أعنى الشمس، وهى نبيهة وشديدة الاهتمام بالآداب العمومية.

س: ما معنى اسم « منليك » (وهو الملك وقتئذ) ؟ جـ: إن تاريخ هذه الكلمة قديم، فقد جاء فى التقاليد القديمة أن ملكة سبأ سمعت بحكمة سليمان الحكيم، فوفدت عليه، ثم وضعت منه غلاما، فراعها ذلك، فصاحت « ماذا يقول سليمان ». فقولها ماذا يقول، ترجمته فى اللغة الحبشية « متليك » ولذلك سمى به ابن ملكة سبأ[1].

س: ما عدد سكان الحبشة ؟ جـ: عددهم خمسة ملايين من الأحباش المسيحيين، ومليونان ونصف من المسلمين، واثنا عشر مليونا من الوثنيين.

(١) أقول: قارن بما جاء عن سليمان وملكة سبأ فى سورة النمل: الآيات ١٥-٤٤.



س: وهل يعيش هؤلاء كلهم فى راحة وسلام ؟

جـ: يعيشون بالراحة الممكنة، على أن الأرض مخصبة، والهواء معتدل، والحرية مطلقة للجميع، أما الآداب العمومية فنقية، والاهتمام بها عظيم. وفى المدن الكبرى مدارس للفرير، تربى الأولاء أحسن تربية.

س: ما نظام البوليس ؟ جـ: لا بوليس فى الحبشة، فإن كلاً منا يحترم ملك الغير وحقوقه وعنواننا كلنا: « اغلق شفتيك وافتح بابك » والعبارة واضحة، فالسكوت - كما يقال - من ذهب. وفتح الباب يعنى الكرم.

هذا، وقد علق المحرر على ما تقدم بما يلى: « على أن تلك الأمة الخارجة من غياهب الهمجية.. لا تزال فى ظلام التعصب الدينى والجهل الوخيم، لذلك لا تحسن معاملة المسلمين من رعاياها، على أنها ستعلم خطأها حين يسقط عن عينيها برقع الجهل والغباوة.

قال صاحب المنار - عليه الرحمة والرضوان: « هذا ما اخترناه من العدد الأول. وما بعده إلا الأخبار المحلية وبرقيات الأسبوع».

يلى ذلك (ص٣١ وما بعدها)

القول الفصل

محاورة فى سعادة الأمة[1]

الصفحة الأولى من «المنار» (المجلد الرابع والثلاثون)

المنـــار

١٣١٥

مجلة إسلامية تبحث فى جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى

وتقوم بفريضتى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وجمع كلمة المسلمين

لمنشئها السيد محمد رشيد رضا[2]

المجلد الرابع والثلاثون

سنة ١٣٥٢ هـ

---

(١) نشرت فى فاتحة العدد الثانى الذى صدر فى يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ هـ. هذا، والمحاورة تبدأ من ص٣١، وتنتهى فى ص٤٦ - ونكتفى بهذا القدر من هذا العدد.

(٢) المجلد الخامس والثلاثون غير موجود بالمكتبة التى استعير منها على ما يبدو.



الاشتراك عن سنة ١٠٠ قرش صحيح (صاغ) فى مصر . . . إلى آخره

سنتها عشرة أجزاء

عنوانها البريدى: دار المنار بشارع الإنشاء بمصر رقم ١٤ (الطبعة الأولى)

الجـــزء الأول | المنــــــــار أنشئت سنة ١٣١٥ هـ | المجلد الرابع والثلاثون

فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألبـاب

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: « إن للإسلام صوى[1] ومنارا كمنار الطريق »

٢٩ المحرم سنة ١٣٥٣ برج الثور سنة ١٣١٢ هـ ش مايو سنة ١٩٣٤

(فاتحة المجلد الرابع والثلاثين من المنار)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى] أحمده وأصلى وأسلم على رسوله المصطفى، وخاتم أنبيائه المجتبى، وعلى آله الطيبين، وخلفائه الراشدين. وسائر أصحابه الهادين المهديين، وأوليائه الأئمة الوارثين، الذين استخلفهم فى الأرض لإقامة أمر الدنيا والدين. ومن اتبعهم إلى يوم الدين. (٦ - ١٦٥) **﴿وهو الَّذى جعلكُمْ خلائِف الأَرْضِ ورفع بعْضكُمْ فوْق بعْضٍ**

(١) صوى الصوى فى الطريق - نصبها - والصوة ما نصب من الحجارة ليستدل بها على الطريق، وفى الحديث أن للدين صوا ومنارا أنار الطريق (المعجم الوسيط).



درجات لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام].

أما بعد فإننى أذكر قراء المنار فى فاتحة مجلده الرابع والثلاثين بفاتحة المجلد الذى قبله، إذ عرضت عليهم فيها حال شعوب الإسلام كلها بعد حرب الأمم الكبرى (أى الحرب العالمية الأولى) ليجعلوا نصب أعينهم ما وقع على بعضها من الغبن والخسارة وما أصاب بعضها من الربح والانتعاش، وما هى عرضة له من الأمرين تجاه دول الاستعمار إذا وقعت الواقعة وجاءت الطامة الكبرى بالحرب الثانية المتوقعة وما يجب عليهم فى دينهم ودنياهم، وما لكل منهما من الصلة والتأثير فى الآخر، فإن أكثر المسلمين عن هذا غافلون ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى] ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات] ومضى السيد رشيد فى ذكر مساوئ دولتى الاستعمار (إنجلترا وفرنسا) ومطامعهما فى الدول العربية والأفريقية والآسيوية. . . وعداوتهما للإسلام والمسلمين فى كل مكان.

وذكر محرر المنار الحرب السعودية اليمنية، والتى انتصرت فيها السعودية على اليمن (تحت حكم الأئمة الزيدية) وضمت (أى السعودية) بعض أراضى اليمن إلى أراضيها.

ثم يقول: هذا وإن من بشائر الاستعداد للوحدة العربية القريبة أن لاح لنا من جانب حكومة العراق بارقة. . . صغيرة فى صورتها، كبيرة فى معناها، هى قصة تمثيلية فى بث الدعوة إلى الوحدة أطلق عليها اسم (مثلنا الأعلى) كانت وضعت فى آخر عهد المرحوم الملك فيصل (الهاشمى) وحضر تمثيلها أول مرة[1]. . . إلى آخره (كلمة الافتتاح هذه شملت ثمانى صفحات.

بعد ذلك (فى نفس العدد الأول من المجلد ٣٤) (ص ٩ - ٣٢) نجد هذا العنوان: سورة هود عليه السلام (وهى الحادية عشرة فى المصحف وآياتها ١٢٣) (تفسير الآيات من ١ - ٦). فتاوى المنار (ص ٣٣ - ٣٨) ثم نقرأ هذا العنوان «جزيرة العرب والوحدة العربية وسعينا لعقد الاتفاق بين الإمامين (الملك عبدالعزيز آل سعود وإمام اليمن) وفقهما الله تعالى. وفى (ص ٤٢) وما بعدها (المكتوبات بين صاحب المنار وجلالة الإمام يحيى فى شأن التنازع بينه وبين الملك عبدالعزيز) (ص ٤٢ - ٥٢)

---

(١) أقول: إن « التأليف » و« التمثيل » فى مثل هذا المجال كثير، وهو لا يغنى كثيرا. لقد دعانا القرآن الكريم إلى الأخذ بأسباب (القوة) ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال] - والاتحاد قوة فعلينا تصفية الخلافات. . . ولنتذكر الحكمة القائلة: « نتعاون فيما هو محل اتفاق، وليعذر بعضنا بعضا فيما هو محل خلاف ».

تبديلا» فهذا النص لا يحتمل تأويلا فى أنه لا يدين بشيء من المعجزات الكونية، فإنْ قرر أن وقوع شيء منها تبديل للسنة الإلهية. .

هذا عن إحدى الرسائل، أما الأخرى، فإن المنكرات المعنية فيها فهذا نصها: (١) قصة أبرهة والكعبة فى ص ٦٤، (٢) أسطورة شق الصدر (هكذا عنوانه) (ص٧٢)، (٣) بدء الوحى (ص٩٥)، (٤) ما نسبه إلى السيدة خديجة، (٥) ما قاله فى الإسراء (ص١٥٣ وما بعدها)، (٦) ما عقب به على معجزة الغار، (٧) تلبيسه فى قصة سراقة (١٧٩ وما بعدها)، (٨) دعواه أن النبى أقر المنكر (ص٤٣٣)، (٩) عزوه إلى السيدة عائشة ما لا يليق.

جواب المنار (نفسه - ص٧٩١ وما بعدها).

أقول (والكلام لصاحب المنار): إنى حسن الظن فى خطة الدكتور محمد حسين هيكل الدينية الجديدة، وأعتقد أنه يريد بها خدمة الإسلام ومناهضة الإلحاد والإباحة، وأرى أن هذا الكتاب يجذب كثيرا من الزائغين إلى الإيمان بنبوة محمد خاتم النبيين.

يعلم أهل الحديث أن أكثر ما رُوى من الخوارق وما فى معناها لا يثبت برواية قطعية متواترة لا يُعَدُّ حجة على النبوة يجب الإيمان بها، بل لا يصح بحديث مسند مرفوع يتخذ دليلا ظنيا عليها، وأن المحدثين تساهلوا فى رواية الضعاف والمنكرات منها لأنهم عدوها من باب المناقب التى تنفع أولا تضر، وأن بعضهم لم يتحاموا رواية الموضوعات[1] أيضا. ألم تر أن أشد المتأخرين منهم عناية، أو تساهلا فى تصحيح ما لا يصح أو تقويته كالسيوطى يقول فى الروايتين الطويلتين فى المولد النبوى إنهما منكرتان شديدتا النكارة، ولولا أنى رأيت الحافظ أبا نعيم ذكرهما فى كتابه (دلائل النبوة) لما ذكرتهما، يعنى فى خصائص النبوة، وهاتان الروايتان عليهما مدار قصص المولد الرائجة بين الناس، ولعل أكثر الذين يسمون العلماء أو كبار العلماء يجهلون نكارتهما وبطلانهما. ولعل من يتجرأ على هذا الإنكار عند الجمهور يتهم بالكفر أو بالتقصير فى حب المصطفى عليه الصلاة والسلام على الأقل. وإنه عليه الصلاة والسلام لغنى عن تأييد نبوته بالباطل، بل لا يجوز ذلك. وإننا نعلم أن كل ما وجهه إليه أعداء الإسلام من الطعن فيه أو أكثره فهو من هذه الروايات الباطلة. وأكثر علماء عصرنا يجهلون هذا، ويعجزون عن الرد عليه بالأدلة المقنعة، حتى أن كثيرا من قراء كتاب الدكتور هيكل يرون أنه من أقوى المدافعين عن الإسلام حجة فى حين يراه آخرون أشدهم طعنا

(١) أى التى تعمد واضعوها الكذب على رسول الله.



عليه وهدمـا له. أفمـا لهذا التبـاعد بين المسلمين من حـد ؟ بلى، ولكن مَنْ هذا الذى يضع هذا الحد الفاصل بين الحق والباطل ؟

ثم يقـول (ص٧٩٣): أهم مـا ينكره الأزهريون والطروقيـون (أى أصحـاب الطرق الصوفية) على هيكل أو أكثره مسـألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها فى كتاب الوحى المحمدى من جميع مناحيـها ومطاوبها فى الفصل الثانى، وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد بالذات. ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمـائه لا حجة؛ لأنها موجودة فى زماننا ككل زمـان مضى. وأن المفـتونين بهـا هم الخـرافيـون من جمـيع الملل. وبينت بسـبب هذا الافتتان، والفروق بـين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغـيره، فعسى أن يطلع عليها المختلفون فى كتاب هيكل؛ لأن حكمنا بينهم لا يكون فاصلا بدونها.

مع الشيخ رشيد
فى تفسير المنار

البند ٣ : يقول تعالى فى سورة النساء: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾**﴾.

يقول صاحب التفسير: السبب[1] الخاص لا يخـصص عمـوم الخطاب. قال فى لباب النقول: أخـرج ابن مردويه عن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عـباس قال: «لما فتح رسول ﷺ مكة دعا عـثمان بن طلحة فلما أتاه قال: أرنى المفتـاح - أى مفتاح الكعبة. فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يارسول الله، بأبى أنت وأمى، اجمعه لى

(١) السبب الخاص هو مـا يعرف بأسباب نزول الآية - أو الآيات - الكريمة، أما الخطاب فـهو موجه لكل المسلمين بل والناس كافة و فى كل زمان ومكان.



مع السقاية فكف عـثمان يده. فقال رسـول الله. : هات المفتاح يا عثمـان: فقال: هاك أمانة الله، فقام فـفتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جـبريل برد المفتاح فدعا عـثمان بن طلحة فـأعطاه المفتاح ثم قال: «إن الله يأمـركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» حتى فرغ من الآية. وأخـرج شعبة فى تفسيره عن حـجاج عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية فى عثمان بن طلحة أخذ منه رسول الله. مفتاح الكعبة فدخل به البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآيـة، فدعا عثمان فناوله المفتاح. قـال: وقال عمر بن الخطاب «ما سمعته يتلوها قبل ذلك. قلت: ظاهر هذا أنها نزلت فى جوف الكعبة اهـ.

أقول: (والكلام لصاحب التـفسير) - بل الظاهر أنهـا نزلت قبل فتح مكة، وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم تلاها يومئـذ استشهاداً، وإن لم يتذكر عمـر أنه سَمعَها قبل ذلك، إن صحت الرواية وصح أن عمر قال ذلك، فقد صح عنه أنه ذهل عند وفاة رسول الله. عما ورد فى ذكـر موته حتى قرأ أبو بكر: ﴿**وما محمدٌ إلاَّ رسُولٌ قدْ خلتْ من قَبْله الرُّسُلُ أفإن مَّات أوْ قُتل انقلبْتُمْ علَىٰ أعْقَابكُمْ ومن ينقلبْ علَىٰ عقبيْه فلن يضرَّ اللَّه شيْئًا وسيجْزي اللَّهُ الشَّاكرين**﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران] الآية فتذكر. وذهل عن آية: «وآتيتم إحداهن قنطاراً» (٤ : ٢٠) حتى ذكرته بها المرأة التى راجعـته فى مسألة تحديد المهور - كما تقـدم فى أوائل هذه السورة - وكل واحد عرضـة للنسيان والذهول[1] والرواية عن ابن عباس لاتصح وإن اعتمدها الجلال. فـقد ذكرنا من قبل أن المحدثين قالوا: إن أوهى طرق التفسير عن ابن عباس هى طريق الكلـبى عن أبى صالح. قالوا: فإن انضم إليهما مروان الصغير فهى سلسلة الكذب. وأما رواية شعبة عن حجاج فإن كان حجاج هذا هو المصيصى الأعور، فقد كان ثقة ولكنه تغير فى آخر عمره. وهو ممن روى عن شعبة وابن جريج ولم يذكـروا أن شعـبة روى عنه، ولكن شعـبة روى عن حجـاج الأسلمى وهو مجهول كما قال أبو حاتم[2].

وفى الروايتين بحث[3] من جهة المعنى أيضا، فإن النـبى ﷺ أولى بمفتاح الكعبة من عثمان بن طلحـة ومن كل أحد. فلو أعطاه للعباس أو غيره لـم يكن فاعلاً إلا ماله الحق فيه، ومن أعطاه إياه فـهو أهله وأحق به. وليس هذا من باب «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ٣٣: ٦) بل لأن الكعبة من المصـالح العامة، وإنما كان يكون من هذا الباب

(١) أقول. إذا كان عمر رضى الله عنه قد ذُهل فى المرتين المذكـورتين فهذا غير كاف للقول بأنه ذُهل فى الثالثة، وتسفط روايته وتضيع الحقائق.

(٢) ومن قوله: (الرواية عن ابن عباس، إلى قوله «أبو حاتم» تزيد لم يأت بشىء).

(٣) عنوان المفسر لهذا الموضوع بما يلى «حق النبى فى التصرف بالمصالح العامة».

لو أن المفتاح مفتاح بيت عثمان بن طلحة نفسه ونزع ملكه منه وأعطاه آخر. بل إن الحكام الآن فى جميع الممالك ينزعون ملك من يرون المصلحة العامة فى نزع ملكه منه. ولكنهم يعطونه ثمنه[1] شاء أم أبى.

الأستاذ الإمام: بعد ما بين الله تعالى لنا من شأن أهل الكتاب ما بينه - حتى تفضيلهم المشركين فى الهداية على المؤمنين بالله وحده، وبجميع كتبه ورسله[2] - أدبنا بهذا الأدب العالى ؛ وأمرنا بالأمانة العامة، وهى الاعتراف بالحق، سواء كان الحق حسيا أو معنويا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴿٥٨﴾﴾ [النساء] - فالكلام متصل بما قبله بمناسبة قوية تجعل السياق كعقد من الجوهر متناسب اللآلئ، فسواء صح ما ذكر من حكاية الكعبة أو لم يصح، فإن صحته لاتضر بالتئام السياق ولابعموم الحكم، إذ السبب الخاص لاينافى عموم الحكم.

والأمانة حق عند المكلف يتعلق به حق غيره، ويودعه لأجل أن يوصله إلى ذلك الغير كالمال والعلم، سواء كان المودع عنده ذلك الحق قد تعاقد مع المودع على ذلك بعقد قولى خاص صرح فيه بأنه يجب على المودع عنده أن يؤدى كذا إلى فلان مثلا أم لم يكن كذلك فإن ما جرى به التعامل بين الناس فى الأمور العامة هو بمثابة ما يتعاقد عليه الأفراد فى الأمور الخاصة، فالذى يتعلم العلم قد أودع أمانة، وأُخِذَ عليه العهد بالتعامل، والعرف أن يؤدى هذه الأمانة ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم. وقد أخذ الله العهد العام على الناس بهذا التعامل المتعارف بينهم شرعا وعرفا بنص قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران]. ولذلك عدَّ علماء أهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبى ﷺ، فيجب على العالم أن يؤدى أمانة العلم إلى الناس، كما يجب على من أودع المال أن يرده إلى صاحبه. ويتوقف أداء أمانة العلم على تعرف الطرق التى توصل إلى ذلك.

فيجب أن تُعرف هذه الطرق لأجل السير فيها. وإعراض العلماء عن معرفة الطرق التى تتأدى بها هذه الأمانة بالفعل هو ابتعاد عن الواجب الذى أمروا به وإخفاء الحق بإخفاء وسائله هو عين الإضاعة للحق. فإذا رأينا الجهل بالحق والخير فاشيا بين الناس، واستبدلت به الشرور والبدع، ورأينا أن العلماء لم يعلموهم ما يجب فى ذلك

---

(١) هذا مايعرف بنزع الملكية للمنفعة العامة، وقد مارسه بعض الخلفاء الراشدين لتوسيع الحرم المكى أكثر من مرة.

(٢) انظر الآيات ٤٤ ومابعدها من نفس السورة.

المسألة الأولى: فى معنى الأمانة ما يُؤمن عليه الإنسان من الأمن، وهو طمانينة النفس وعدم الخوف. يقول تعالى: ﴿ ... **هل آمنكُم عليه إلاَّ كما أمنتكُمْ علىٰ أخيه من قبلُ...** ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف] ويقال: أمنه بكذا ﴿ **ومنْ أهل الكتاب منْ إن تأمنْهُ بقنطار يؤدّه إليْك...** ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:] - ويقال: ائتمن فلانا، أى عده واتخذه أمينا وائتمنه على الشىء كأمنه عليه ﴿ ... **فليؤدّ الّذى اؤتُمن أمانتهُ...** ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة]. . . ويسمى من يحفظ الأمانة ويؤديها حفيظا أمينا، ويسمى من لايحفظها أولا يؤديها خائنا: ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تخُونُوا اللّه والرّسُول وتخُونُوا أماناتكُمْ وأنتُمْ تعلمُون** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال] فمن خان عالما عامدا كان من العصاة ووجب عليه الضمان.

المسألة الثانية - فى معنى العدل. . . . المسألة الثالثة - أنواع الأمانة.

المسألة الرابعة: قدم الأمر بأداء الأمانات على الأمر بالعدل. . . . . المسألة الثامنة: المسلمون مأمورون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق. وقد قال تعالى: ﴿ ... **وإذا قُلْتُمْ فاعْدلُوا ولوْ كان ذا قُرْبىٰ...** ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] وهذا الأمر موجه إلى الحكام وغيرهم.

قال تعالى: ﴿ ... **إنَّ اللّه نعمّا يعظُكُم به...** ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء]، أى نعم الشىء الذى يعظكم به، وهو هنا: أداء الأمانات والحكم بالعدل؛ لأنه لايعظ إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم ما عملتم به مهتدين متعظين «إن الله كان سميعا بصيرا» فلايخفى عليه شىء من أقوالكم ولا من أفعالكم ولامن نياتكم، فلا تدَّعُوا ماليس فيكم من الأمانة والعدل ولاتقولوا مالاتفعلون فإنه سيجزى كل عامل بما عمل. أمر الله تعالى برد الأمانات إلى أهلها، وبالحكم بين الناس بالعدل: ويدخل فى رد الأمانات توسيد الأمة أمر الأحكام إلى أهلها القادرين على القيام بأعبائها. ويجب فى الحكم بالعدل مراعاة ما جاء عن الله تعالى وعن رسوله. ، وما يتجدد للأمة من الأحكام. والمصلحة في ذلك لاتحصل إلا بالطاعة، ومن هنا قال عز وجل: ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنُوا أطيعُوا اللّه وأطيعُوا الرّسُول وأُولي الأمْر منكُمْ ...** ﴿٥٩﴾ ﴾ [**النساء**].

قال الأستاذ الإمام وقد اختلف فى «أولى الأمر». قال بعضهم هم الأمراء، واشترطوا ألا يأمروا بمحرم. . والآية مطلقة، أى وإنما أخذوا هذا القيد عن نصوص أخرى كحديث «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» وحديث «إنما الطاعة فى المعروف». وبعضهم أطلق فى الحكام فأوجبوا طاعة كل حاكم وغفلوا عن قوله تعالى: «منكم» وقال بعضهم إنهم العلماء، ولكن العلماء يختلفون، فمن يُطاع فى المسائل الخلافية ومن يعصى ؟ وحجة هؤلاء أن العلماء هم الذين يستطيعون أن يستنبطوا الأحكام غير

المنصوصة من الأحكام المنصوصة. وقالت الشيعة: إنهم الأئمة المعصومون، وهذا مردود إذ لادليل على هـذه العصمة. ولو أريد ذلـك لصرحت به الآية. ومعـنى «أولى الأمر» الذين يناط بهم النظر فى أمر إصلاح الناس أو مـصالح الناس. وهؤلاء يختلفون أيضا، فكيف يؤمَر بطاعتهم دون قيد ولاشرط ؟ قـال رحمه الله: إن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والـعقد مـن المسلمين وهـم الأمراء والحكـام والعلمـاء ورؤساء الجند وسـائر الرؤساء والزعمـاء الذين يرجع إليهم الناس فـى الحاجات والمصالح العامـة. فهؤلاء إذا اتفقوا علـى أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيـه بشرط أن يكونوا منا، وألا يخـالفوا أمر الله ولاسنـة رسوله التى عرفـت بالتواتر، وأن يكـونوا مختـارين فى بحثهـم فى الأمر واتفاقهم عليه. وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة وهو ما لأولى الأمر سلطة فيه ووقوف عليه. وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط ليس لأحد رأى فيه إلا مايكون فى فهمه.

فأهل الحل والعـقد من المؤمنين إذا أجمعـوا على أمر من مصالح الأمـة ليس فيه نص من الشارع مـختارين فى ذلك غـير مكرهين عليه بـقوة أحد ولا نفوذه، فطاعـتهم واجبة، ويصح أن يقال: هم معصومـون فى هذا الإجماع. وذلك كالدِّيوان الذى أنشأه عمر باستشارة أهل الرأى من الصحابة رضى الله عنهم، وغيره من المصالح التى أحدثها برأى أولى الأمر من الصحابة ولم تكن فى زمن الرسول. ولم يعترض أحد من علمائهم على ذلك. قـال: فأمر الله فى كـتابه وسنة رسوله الـثابته القطعـية التى جرى علـيها. بالعمل همـا الأصل الذى لايرد. وما لا يوجد فيـه نص عنهما ينظر فـيه أولو الأمر إذا كان من المصالح العامة؛ لأنهم هم الذين يثق فيـهم الناس ويتبعونهم فيجب أن يتشاوروا فى تقرير ما ينبغـى العمل به. فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمـل بما أجمعوا عليه، وإن اختلـفوا وتنازعوا، فـقد بين الواجب فيـما تنازعوا فـيه، فى قوله تـعالى: ﴿ ... **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...** (٥٩) ﴾ [النساء] وذلك بأن يعرض على كتاب الله وسنة رسـوله وما فيهما من القواعـد العامة والسيرة المطَّردة، فمـا كان موافقا لهما عُلـم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به، ومـا كان منافراً علم أنه غيـر صالح ووجب تركه.

وبذلك يزول التنازع وتجتمع الكلمة. وهـذا الرد واستنباط الفصل فى الخلاف من القواعد هو المـعبر عنه بالقياس، والأول هـو الإجماع الذى يُعتدّ به. وقـد اشترطوا فى القـياس شروطـا بالنظر إلـى العلة. والـغرض من هذا الـرد ألا يقع خلاف فـى الدين والشرع؛ لأنه لاخلاف ولا اختلاف فى أحكامهمـا. كما قال الأستاذ: والمراد ألا يفضى التنازع إلـى اختلاف التفـرق الذى يلبس المسلـمين شيعـا ويذيق بعضهـم بأس بعض،

ولكنهم لم يعملوا[1] بالآية فتفرقوا واختلفوا. قال النيسابورى: «وإذا ثبت أن حمل الآية على هذه الوجوه (التى ناقشها) غير مناسب تعين أن يكون المعصوم كل الأمة أى أهل الحل والعقد وأصحاب الاعتبار والآراء، فالمراد «بأولى الأمر ما اجتمعت الأمة عليه» اهـ فقوله أهل الحل والعقد وأصحاب الاعتبار والآراء هو بمعنى قول الأستاذ الذى أدخل فيه أمراء الجند ورؤساء المصالح... وهذا هو المعقول لأن مجموع هؤلاء هم الذين تثق بهم الأمة، وتُحفظ مصالحها. وباتفاقهم يؤمن عليها من التفرق والشقاق. وبهذا أمر الله بطاعتهم لا لأنهم معصومون من الخطأ فيما يقررونه.

وقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله الرازى لتصريحه فيه بما يسمونه اليوم فى عرف أهل السياسة بسلطة الأمة، وتفنيده قول من قال: إن المراد بأولى الأمر الأمراء أو السلاطين وهو مايتزلف به المتزلفون إليهم حتى أنهم كانوا يتلون هذه الآية على مسامع السلطان عبدالحميد فى كل صلاة جمعة على أننا قد صرحنا بهذه الحقائق فى المنار وفى التفسير من قبل.

قال الرازى - بعد تقرير كون الجزم بطاعة أولى الأمر - يقتضى عصمتهم فيما يطاعون فيه مانصه: «ثم نقول: ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمة لأنا بينا أن الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر فى هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أننا فى زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم (أقول[2]: ومثله المجتهدون فى الفقه) عاجزون عن الوصول إليهم (كذا) عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم. وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذى أَمرَ المسلمون بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة ولا طائفة من طوائفهم. ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم هو المراد بقوله: «وأولى الأمر» أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة».

هذا، وقد ذكر الشيخ رشيد فى موضوع المقصود بأولى الأمر، وجوها كثيرة ناقشها واستبعدها، ثم قال (ص ١٥١) - والمتبادر إلى الذهن أن أولى الأمر هم الذين يختارون الإمام الأعظم، وهو الصواب.

قال السيد فى شرح المقاصد (ص١٥١): «وتنعقد الإمامة بطرق أحدها بيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس» إلخ. فأهل الحل والعقد الذين هم

---

(١) فى الأصل: «لم يعلموا».

(٢) الكلام للشيخ رشيد



خواص الأمـة من العلمـاء ورؤساء الجند والمصـالح العامـة هم أولو الأمر الـذين تجب طاعتهم فـيما يتفقون عـليه؛ لأن عامة الناس ودهمـاءهم يتبعونهم بارتيـاح واطمئنان، ولأنهم هم العارفـون بالمصلحة التى يحتاج إلـى تقرير الحكم بشأنها؛ ولأن اجـتماعهم واتفاقهم ميسور، ولذلك كان إجماعهم بمعنى إجماع الأمة برمتها.

إن الآية مبينة أصول الدين وشريعته والحكومة الإسلامية، وهى:

الأصل الأول: القرآن الحكيم والعمل به هو طاعة الله تعالى.

الأصل الثـانى: سنـة الرسول. والعـمل بهـا هو طاعـة الرسول عـليه الـصلاة والسلام.

الأصل الثالث: إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجـيش والمصالح العامة كالتجارة والصنـاعة والزراعة وكذا رؤساء العمال والأحزاب ومديرى الجرائد المحترمة ورؤساء تحريرها - وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر.

الأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها عـلى القواعد والأحكام العامة المعلومة بالكتـاب والسنة وذلك قوله تـعالي: ﴿... **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...** (٥٩)﴾ [النساء].

فهذه الأصـول الأربعة هى مصـادر الشريعة. ولابد مـن وجود جماعة يـقومون بعرض المسـائل المتنازع فيها علـى الكتاب والسنة. وهل يكونـون من أولى الأمر أم ممن يختـارهم أولو الأمر من علـماء هذا الشأن. ويجـب على الحكام الحكم بما يـقرره أولو الأمر وتنفيذه. بذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين أو ثلاث:

الأولي: جـماعة المبـينين للأحكـام الذين يعبـر عنهم أهـل هذا العصـر بالهيـئة التشريعية.

الثانية: جماعة الحاكمين و المنفذين وهم الذين يطلق عليهم اسم الهيئة التنفيذية.

الثالثة: جماعة المحكمين فى التنازع، ويجوز أن تكون طائفة من الجماعة الأولى.

يقول الشـيخ رشيد: ويجـب على الأمة قبـول هذه الأحكام والخضوع لـها سرا وجهرا؛ وهى لا تـكون بذلك خاضعة خانـعة لأحد من البشر، ولا خـارجة من دائرة توحيد الربوبية الذى شعاره إنما الشارع هو الله و﴿... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا**

إلاَّ إيَّاهُ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] » فإنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله.. بإذنه، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بهم، واطمأنت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها، فهى بذلك تكون خاضعةً لوجدانها لا تشعر باستبداد أحد فيها، ولا باستذلاله واستعباده لها. بل يصدق عليها مادامت حكومتها على هذا الوجه أنها أعز الناس نفوسا، وأرفعهم رؤسا، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ولابد لنا قبل أن نحرر مسألة التنازع من فتح باب البحث فى اجتماع أولى الأمر وتقريرهم للأحكام فى المصالح العامة التى تحتاج إليها الأمة، فقد علمنا أن أولى الأمر معناه أصحاب أمر الأمة فى حكمها وإدارة مصالحها. وهو المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ ...وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨]، ولايمكن أن يكون شورى بين كل أفراد الأمة، فتعين أن يكون شورى بين جماعة تمثل الأمة، ويكون رأيها كرأى مجموع أفراد الأمة لعلمهم بالمصالح العامة وغيرتهم عليها، ولما لسائر أفراد الأمة من الثقة بهم وبأحكامهم. وما هؤلاء إلا أهل الحل والعقد. ولكن كيف يجتمعون ومن يجمعهم ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد ترك ذلك لنا لنختار ما يناسب زماننا. والشريعة أساسها اليسر ورفع الحرج. واختيار ما يؤدى إلى المدنية والتقدم مطلوب (وانظر ص ١٥٣)، ومن القواعد الشرعية أنه لاضرر ولاضرار، وأن ما حرم لِذَاته يباح للضرورة، وأن ما حرِّم لسد الذريعة يباح للحاجة، ومراعاة العدل لذاته، ورد الأمانات إلى أهلها. ولكننا ما رعينا هذه الهداية حق رعايتها فقيدنا أنفسنا بألوان من القيود التى اخترعناها وسميناها ديناً وصار حكامنا الذين خرجوا بنا عن هذه الأصول المقررة فى الكتاب والسنة فريقين: فريقا رضوا بالقعود واختاروا الموت علىّ الحياة توهماً منهم أنهم بمحافظتهم على قيودهم التقليدية محافظون على الإسلام، ولسان حالهم يقول: إن الموت على ذلك خير من الحياة باتباع غير المسلمين فى أصول حكومتهم. وفريقا رأى أنه لابد من تقليد غير المسلمين فى قوانينهم الأساسية أو الفرعية فكان كل من الفريقين بجهله حجة على الإسلام فى الظاهر، والإسلام حجة عليهم فى الحقيقة. وكتاب الله حى لايموت، ونوره متألق لايخفى، وإن جعلوا بينهم وبينه ألف حجاب. ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ... ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام].

المقابلة بين شكل الحكومتين: الإسلامية والأوربية

ليس بين القانون الأساسى الذى قررته هذه الآية على إيجازه وبين القوانين الأساسية التى قررتها أرقى حكومة فى الأرض فى هذا الزمان إلا فرق يسير نحن فيه أقرب إلى الصواب وأثبت فى الاتفاق منهم، إذا نحن عملنا بما هدانا إليه ربنا.

هم يقولون: إن مصدر القوانين الأمة ونحن نقول بذلك فى غير المنصوص فى الكتاب والسنة، كما قرره الإمام الرازى آنفا، والمنصوص قليل جداً.

وهم يقولون: إنه لابد أن ينوب عن الأمة من يمثلها فى ذلك حتى يكون ما يقررونه كأنها هى التى قررته، ونحن نقول ذلك أيضا.

وهم يقولون: إن ذلك يعرف بالانتخاب ولهم فيه طرق مختلفة، ونحن لم يقيدنا القرآن بطريقة مخصوصة فلنا أن نختار فى كل زمن ما يؤدى إلى المقصد...

وهم يقولون: إن هؤلاء إذا اتفقوا وجب على الحكومة تنفيذ ما يتفقون عليه، وعلى الأمة الطاعة، ولهم أن يسقطوا الحاكم الذى لاينفذ قانونهم ونحن نقول بذلك، وهذا هو الإجماع الحقيقى الذى نعده من أصول شريعتنا.

ونحن نعلم - كما يعلمون - أن رأى الأكثرين ليس أولى بالصواب من رأى الأقلين، ولاسيما فى هذا الزمان حيث يتكون الأكثر من حزب ينصر بعض أفراده بعضاً فى الحق والباطل.

الأكثرية لاتستلزم الحقيقة والإصابة فى الحكم... فتبين بهذا حكمة عرض المسائل التى يتنازع فيها أولو الأمر على جماعة يردونها إلى الكتاب والسنة، ويحكمون فيها بقواعدهما.

أولو الأمر مخيرون فى طريقة رد الشىء المتنازع فيه إلى الله والرسول بين أن يكون ذلك بوساطة بعض منهم أو من غيرهم بشرط أن يكونوا عالمين بالكتاب والسنة والمصالح العامة، فإن اتضح الأمر برده للكتاب والسنة لوضوح دليله وجب العمل به حتما؛ وإلا كان المرجح هو الإمام الأعظم كما تدل عليه السنة فى ترجيح النبى ﷺ لما اختلف فيه الصحابة ببدر وأحد وعلى أى شىء يبنى ترجيحه، الذى ظهر لى (والكلام للشيخ رشيد) أن النبى ﷺ رجح فى أحد رأى الأكثرين مخالفا لرأيه. ورجح فى بدر الرأى الموافق لرأيه، ولم يكن هناك أكثرية ظاهرة فيجب أن يراعى الإمام ذلك، ولا مجال فى هذا للتفرق والاختلاف.

والقول الثانى أن المخاطبين هم غير أولـى الأمر، أى العامة. وصرح بعضهم بأن هذا يختص بأمر الـدين، فهو الذى لايعمل فيه برأى أولـى الأمر. والأولى أن يقال هم مجموع الأمـة. وعلى هذا يكون للأمة أن تقيم من يـحكم فيما يختلف فـيه أولو الأمر برده إلى الكتاب والسنة.

والمسائل الدينية لاينبغـى أن يكون فيها تفرق ولاخلاف ﴿ ... **أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...** ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]؛ لأن العمل فيه بالنص لا بالرأى.

يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ...** ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء] فبين أن ما ينـظر فيه أولو الأمر هو المسائل العـامة كمسائل الأمن والخـوف، وأن العامة لاينبغى لهـا الخوض فى ذلك. بل عليها أن تردّه إلـى الرسول وإلى أولى الأمر، وأن من هؤلاء منَ يتولّى أمـر استنباطه و إقناع الآخرين. ص ١٥٦. وهـذه الآية تنفى أن يكون أولو الأمر هـم الملوك والأمراء، لأنه لم يكن مع الرسول ملوك ولا أمراء، وأن يكونوا هـم العارفين بأحكام الفتوى فقط لأن مسائل الأمن والخوف ومـايصلح للأمة فى زمن الحرب يحتـاج فيه إلى الرأى الذى يختلف باختلاف الزمان والمكان.

قال تعالى: ﴿ ... **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...** ﴿٥٩﴾ ﴾ [**النساء**]، أى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول إلخ، أى ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله إلخ. وفيه تعريض أو دليل على أن من لايؤثر اتباع الكتاب والسنة عـلى أهوائه... ولاسيما فى مسائل المصالح الـعامة لايكون مؤمنا بالله واليوم الآخر إيمانا يعتد به. «**ذلك خير وأحسن تأويلا**»..، أى ذلك الذى شرحناه لكم فى تأسـيس حكومتكم وإصلاح أمـركم، أو ذلك الرد للشىء المتنازع فـيه إلى الله ورسوله خير لكم فى نفسه لأنه أقوى أساس لحكومتكم... وهو على أنه خير فى نفسه أحسن مآلا وعاقبة لأنه يقطع عرق التنازع ويسد ذرائع الفتن والمفاسد.

ومما جاء فى الصفحة ١٥٧. إذا كان الله تعالى قد أكمل لنا بالإسلام دين الأنبياء أصولاً وفروعا ووضع لـنا أصول الكمال للشريعـة المدنية، ووكل إلينا أمر الترقـى فيها بمراعاة تلك الأصول، فكان يـنبغى لنا بعد اتساع ملك الإسلام ودخـول الممالك العامرة التى سبقت لهـا المدنية فى دائرة سلطانه أن نرتقى فى نظام الحكومـة المدنية (على توالى السنين والعـقود والقرون) فـيكون خَلَفُنَا فـيها أرقى من سلـفنا لما للخلف مـن أسباب ووسائل هذا الترقي. ولـكنهم حولوا الحكومة عن أسباب الـشورى، وأضاعوا الأصول التى أمروا بإقامتها فى هذه الآية، فجرى أكثرهم على أن أولى الأمر هم أفراد الأمراء أو السلاطين وإن كانوا جائرين. ومنهم من قال: إنهم العلماء المجتهدون فى الفقه خاصة،

ثم قالوا: أنهم قد انقرضوا وأنه لايجوز أن يخلفهم أحد، وأن الإجماع خاص بهم، وكذلك استنباط الأحكام الفرعية خاص بهم ومهما اشتدت حاجة المسلمين إلى استنباط أحكام لوقائع وأقضية جديدة فلايجوز لأحد أن يستنبط لها حكما، وأن ما تنازع فيه المسلمون لايجوز رده إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة، والعمل بما يهديان إليه. بل يجب أن يقلد كل طائفة من المسلمين من شاءوا من المختلفين فى الأحكام الشخصية ويتبعوا الحكام فى غيرها. ولا ضرر فى اختلافهم وتفرقهم شيعا، وإن تفرقت كلمتهم فى الأحكام والقضايا وفى العبادات حتى صار الحنفى يمكث فى المسجد وإمام الشافعية يصلى الصبح بالمتسبين إلى مذهبه فلا يصلى هذا الحنفى معهم حتى يجيء إمام مذهبه فيأتم به.

تعقيب

أقول: الشورى[(١)] موضوع وشكل، مضمون ومؤسسة، أما الشورى كموضوع ومضمون فتعنى (دون دخول فى التفاصيل) تشاور الأمة (أو الشعب) - عن طريق ممثليها فى المجالس النيابية (البرلمانات) فى المسائل العامة (من سياسية واقتصادية واجتماعية. . . واتخاذ قرارات فيها، أما الشكل (وهو هام جدا جدا) - فهو اختيار الأمة الحر، والمنزه والمبرأ من كل تزييف أو تزوير[(٢)] لممثليها (أو نوابها) فى الدوائر الانتخابية (والعادة أن يكون هناك تنافس مفتوح بين حزبين أو أكثر).

هذه هى القاعدة، ولكن يحدث - أحيانا - أن الأمة (أعنى المكلفين - أو هيئة الناخبين) تحكم وتتخذ القرار - أو القرارات - مباشرة عن طريق ما يعرف بالاستفتاء، ولايكون فى العادة إلا فى المسائل الهامة جدا، والغالب أن تشترط فى ذلك أغلبية خاصة.

وأرى حقا عليَّ أن أشيد بمعالجة الأستاذ الإمام والشيخ رشيد للموضوع. وقد عرضاه وناقشاه بطبيعة الحال من زاوية إسلامية فى دولة إسلامية (لا عالَمَانيَّة).

وقد قارن الشيخ رشيد - عليه الرحمة و الرضوان - بين المبادئ والقواعد والأوضاع فى الدولة الإسلامية والدول الغربية (وهى دول عالمانية) - وأبرز الاتفاق بين هذه وتلك فى أكثر الحالات.

---

(١) وانظر لكاتب هذه السطور: «الإسلام وحقوق الإنسان - دراسة مقارنة » (الطبعة الثانية - الفصل السابع - من الجزء الثانى ص ٥٤٢ إلى ٥٨١) .

(٢) هذا الأمر لايُثَارُ على الإطلاق فى البلاد الراسخة المبادئ والتقاليد البرلمانية (كما هى الحال فيما يعرف بالعالم الغربى).

وأقرر هنا - ما كررته فيما كتبت من قبل - عن سلطان المال وعمليات غسل المخ فيما يجرى هناك، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وانتخاب الرئيس بالذات. إن مئات الملايين تنفق هناك فى هذه المناسبات.

أعود وأشير إلى عمليات غسل المخ، التى تتولاها وسائل الإعلام من صحف وإذاعات مسموعة ومرئية، وهم لا يتعففون هناك عن الطعن، طعن كل فريق فى الآخر، بأدنأ الاتهامات. أما فى الدولة الإسلامية التى ننتظرها، فإن كل شىء سيجرى بالطهارة والنزاهة والعفة عن كل مالا يليق بأخلاق الإنسان المسلم (رجلاً كان أو امرأة). ومن جاوز فاستبعاده أمر لا مفر منه. إن الاختيار سيكون للصفوة ديناً وخلقاً، وليس لطلاب الدنيا والسلطة والمتاع الزائل. والقادة والصفوة لابد أن يسوسوا الناس - أساسا - بالقدوة. ولنا فى الرسل عليهم الصلاة والسلام أسوة. لقد صنعهم الله -جل شأنه-[1] بعينه.

أما عن الفصل فى التنازع والاختلاف فسيكون عن طريق المحكمة الدستورية العليا. وليس عن طريق أولى الأمر، أو طائفة منهم. والمحكمة الدستورية المرجوة ستتكون من أعضاء متبحرين فى الشريعة الإسلامية التى لاتمنع من الاستئناس بتجارب الغير وخبراتهم وقوانينهم التى لاتخالف شريعتنا الغراء السمحة.

ومن القواعد المقررة فى شريعتنا وفى الشرائع الأخرى، أن النص الأدنى يجب ألا يخالف النص الأعلى، فإذا صدر من مجلس الشورى مثلا (قرار أو تشريع أو قانون) مخالف للدستور طعن فيه بعدم دستوريته أمام المحكمة السابق ذكرها.

أما عن الأكثرية والأقلية فمن المحقق أن الأكثرية لاتكون دائما على حق، وما كان من الأكثرية قبل غزوة أحد هو خير مثل، وقد نزل الرسول عليه الصلاة والسلام عند رأيها، وهو رأى فريق الشباب، وقد كان رأى الشيوخ ومعهم الرسول عدم الخروج من المدينة إلى أحد. والتفاصيل والعواقب معروفة.

وإذا كان رأى الاثنين خيرا من الرأى الواحد، وهو خير أكثر وأكثر إذا كانوا ثلاثة أو أكثر، فالمنطق ينتهى إلى ترجيح رأى الأغلبية، والقول بغير ذلك غير مقبول.

---

(١) فى أهرام اليوم (١٥ / ١/ ١٩٩٧م).(ص١و٢٢) «إحالة رئيسى بنكى الدقهلية والنيل و ٣٠ متهما إلى محكمة أمن الدولة العليا، منهم كبار المسئولين فى البنكين وبعض رجال الأعمال وأعضاء فى مجلس الشعب.. وَوُجِّه للمتهمين تهمة الإضرار العمدى بالمال العام حيث بلغت جملة القروض التى منحها رئيسا البنكين وكبار المسئولين بهما للعملاء ملياراً و ١٤ مليون جنيه بدون ضمانات.

بند ٤ : للسيد محمد رشيد رضا كتاب بعنوان «حقوق النساء فى الإسلام - نداء للجنس اللطيف» (مكتبة التراث الإسلامى - ١٤ شارع صفية[١] زغلول - القصر العينى - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م) والكتاب يكاد يستوعب كل شيء، ويجيب على الأسئلة التى يمكن أن تخطر على البال.

وإنى أعلم أشياء عما جاء فى حقوق المرأة في الكتاب والسنة، وإنى - أيضا - عايشت ما كان يجرى - فى قريتى وفى غيرها من غَمْط[٢] وحيف بحقوق المرأة، وكأننا لسنا بمسلمين. لقد كان المورِّثون من آباء وأجداد، بل وأمهات وجدات، ينحازون إلى الأولاد الذكور، وعلى حساب الإناث، حتى على مائدة الطعام. والكل (من النساء) مستسلم لهذا الظلم، وكأنه هو الشريعة والقانون. والحيف كان يقع عادة على حقوق النساء فى الأراضى الزراعية. أما فى العقار السكنى، فكنا نجد المورثين - غالبا - منصفين، لتجنب ما قد يحدث من ظلم زوج البنت لها، وفى هذه الحالة تجد المأوى فى بيت ذويها. أما فى الأراضى الزراعية، فكانت هناك أقلية تترك العين مملوكة على الشيوع بين الجنسين، وكانت هناك أغلبية تحتفظ بها للذكور، مع إرضاء البنات بشيء مناسب من المال (النقدى). فإذا كان زوج البنت ذا شخصية قوية وله فى القوم هيبة - ترك المورثون الموروثات[٣] على الشيوع لتوزَّع بينهم على الوجه الشرعى.

وأظن أن الأمور - فى ظل تغير الظروف، تتجه الآن إلى الأفضل، أى لصالح المرأة. إن الدولة قد فتحت أبواب المدارس والجامعات للجميع، وبلا أى تفرقة بين البنين والبنات. والعلم والوظيفة والدخل من الوظيفة كَوَّنت هذه كلها - وذاتيا - الصفة الاستقلالية للمرأة، وهذا فى المجتمع ككل، وبصفة خاصة فى الأسرة وبيت الزوجية. وهكذا صنعت الظروف ما لم تحققه الإرادة البشرية خلال أزمنة طويلة.

وبعد هذه السطور التى جاءت عفو الخاطر أعود إلى كتاب السيد رشيد عليه الرحمة والرضوان. يقول المؤلف (ص٤ وما بعدها)[٤]: إن الجماعة التى تألفت من

---

(١) شارع الإنشاء - سابقا - وفى هذا الشارع يوجد القصر الذى عرفته مملوكا للمؤلف - وهو واقع فى حى المنيرة - حى القصور التى كان يملكها الوجهاء سابقا. وهى الآن - فى معظمها - مقار لعدد من الوزارات.

(٢) غَمِط الحقّ: أنكره وهو يعلمه.

(٣) وهى - غالبا - أرض زراعية.

(٤) عدد صفحات الكتاب ١٥٠.



إخواننا مسلمى الهند (مدينة لاهور) قد اقترحت عليه كتابة رسالة فى أهم ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله عن «حقوق النساء» و الإصلاح الذى يجب على الجنس اللطيف أن يعرفه فى كل شعب، ويطالب به الرجال ليُتَرْجَمَ باللغات المشهورة، ويُنْشَرَ فى كل الآفاق.

قال : قبلت الاقتراح، وسعدتُ بالقيام بهذا الواجب الكفائى العظيم.

أقول: عن هذه الواجبات، أو الفروض الكفائية - إن لها أهمية عظمى فى الإسلام ؛ لكننا نهملها، وكأنها ليست من ديننا. إننا نهمل، بل نهدم ركنا أساسيا من ديننا. ومن هنا كانت القاعدة التى تقول: إنه إذا لم يقم البعض بهذا الفرض أثِم الجميع. وفى مقدمة المطالَبين بالقيام به الولاة، والدعاة، أى الحكام والعلماء.

وبسبب هذا الإهمال المتعمد ساءت أحوال المسلمين فى كل مكان !!

يقول تعالى: ﴿ ...**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**(١٢٢) ﴾ [التوبة] وفى « أوضح التفاسير » فَهَلاَّ نفر من كل جماعة منهم طائفة ليتعلموا ويتبصروا ولينذروا قومهم بما تعلموه وتفقهوا فيه، لعلهم يحذرون الجهل فيَتجنبونه.

وفى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم» - (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة) «المجلد الأول»، «ليس للمؤمنين أن يخرجوا جميعا إلى النبى. إذا لم يقتض الأمر ذلك. فليكن الأمر أن تخرج إليه طائفة ليتفقهوا فى دينهم وليدعوا قومهم بالإنذار والتبشير حينما يرجعون إليهم ليثبتوا دائما على الحق وليحذروا الباطل والضلال - وفى الهامش (وهو تعليق اللجنة العلمية): فى الآية الكريمة بيان لقاعدة هامة فى الكتاب، وهى ما كان للمؤمنين أن ينفروا جميعا نحو غزو أو طلب علم، كما لايستقيم لهم أن يُثبِّطوا جميعا، فإن ذلك يخل بأمر المعاش. ولذلك يعين من كل فرقة طائفة لطلب العلم والتفقه وتحصل على المراد وتعود لترشد بلقى القوم». هذا ! وقد أفاض شيخنا القرطبى - كعادته - فى تفسير الآية، وقال: إن فيها ست مسائل:

المسألة الأولى: هى أن الجهاد ليس على الأعيان(١)، وأنه فرض كفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال... إلى آخره.

يقول الشيخ رشيد (ص٤ وما بعدها)، بعد أن افتتح بالبسملة والآية ٢١ من سورة الروم ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً**

(١) من قولنا: فرض عينىّ، وفرض كفائى.



ورحْمةً إنَّ في ذلك لآيَاتٍ لَقوْمٍ يتفكَّرُونَ﴿٢١﴾ ﴾ - ألا يامعشـر النساء... هل تدرير كيف كانت عيشة جداتكن، قبل بعثة النبى الأعظم، محمد النبى الأمى.؟ أم تدرين أد البشر لما يفـقهوا كنه الأقانيم (الأصول) الثـلاثة للحياة الزوجية التى جـاء بها الإسلام، وهى: السكون النفـسى الجنسى الذى يتحـد به الزوجان فيـكونان حقيـقةً واحـدة كالماء والهواء - والمودة التى تتـعدى الزوجين إلى أسـرتيهمـا... والرحمة التى تكمل لهـما بالمولود الناتج من زواجهما. تعالين أحدثكن عـما كانت عليه جداتكن... وبما جاء به الإسلام: كـان جميع نساء البـشر مرهقات بظـلم الرجال، كانت المرأة تُشتـرى وتباع، كالبهيمة والمتاع، وكـانت تكْره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تُورث، وكانت تُملَكُ ولاتَملك. وقـد اخـتلف الرجـال فى بعض البـلاد فى كـونهـا إنسـانا ذا نفس وروح خالدة... وفى كونها تدخل الجنة أم لا ؟... فقرر أحـد المجامع فى رومية أنها حيوان نجس لا روح لها ولا خلود. ويجب أن يُكَمَّ فـمها كالبـعير والكلب العقور لمـنعها من الضحك والكلام، لأنهـا أحبولة الشيطان... وكـان بعض العرب يرون أن للأب الحق فى قتل ابنته، بـل وفى وأدها، أى دفنها حية. وكان منهم مـن يرى أنه لا قصاص على الرجل إذا قتـل المرأة وَلاَ ديَة. وكان أهم إنصـاف للمرأة منحهـا إياها الشعب الـفرنسى (بعد ميلاد محمد. وقبل بعثته) - أن قرروا - بعد خلاف وجدال - أن المرأة إنسان، إلا أنها خلقت لخدمة الرجال (ص٥).

أقول: فى هذه الفتـرة كانت المسـيحيـة، قد انتـشرت، وبأمر مـن أحد الأباطرة الرومان، فى رومـه، وفى أملاك رومـا التى جعلت من البحـر الأبيض المتوسط بحـيرة رومانيـة. والمسيحيـة دين سماوى، ومريم، هـى أم المسيح، فكيف يكون ذلك، إلا أن يكون الأمر أمر مسيحية اسمية، ووثنية غالبة ؟!

الرجال قوامون على النساء

مع الآية الكريمة ٣٤ من سورة النساء

بند ٥ : يقول تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴿٣٤﴾** ﴾.

فى أوضح التفاسير «الرجال قوامون على النساء» أى قائمون عليهن بالأمر والنهى والتوجية والزجر والتأديب، والإنفاق والرعاية، كما يقوم الولاة على الرعية، وذلك لأن

القوامه أحوج إلى الحزم والتدبير، منها إلى الحنان والوجدان. فصفات القوامة والرئاسة متوافرة فى الرجل، لأنه خلق ليكون قائما ورائدا ؛ كما أن صفات الرقة والحنان والرحمة والوجدان متوافرة فى المرأة، لأنها خلقت لتكون زوجا وأماً.

«بما فضل الله بعضهم على بعض» - أى هذه القوامة، بسبب تفضيل الله تعالى للرجال على النساء، لوفور علمهم، ومزيد قوتهم، واضطلاعهم بالأعباء الجسام. «وبما أنفقوا من أموالهم» أى لأن النفقة واجبة عليهم، وهذا هو سبب قوامة الرجل على المرأة. فإذا انعدمت هذه الأسباب، وكان الرجل خاملا ضعيفاً، جاهلا معدما، فأى قوامة له على المرأة النابهة، القوية، العالمة، الغنية ؟!

«فالصالحات» من النِّساء مطيعات لله تعالى ولأزواجهن «حافظات للغيب بما حفظ الله» أى حافظات لعرضه وماله حال غيبته. بما أمر الله به أن يحفظ، أو حافظات لما يجرى بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه، ويجمل ستره. قال: «إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه». ولا يخفى ما يأتيه الآن سفهاء القوم، حين يصبح أحدهم فيقول: صنعت فى ليلة أمس كيت وكيت. وتصبح زوجته فتقول لجارتها: لقد صنع بى أمس كيت وكيت، فيتضاحكن لتلك السفاهة الشنيعة، والبذاءة الممقوته ! «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهنّ فى المضاجع، واضربوهن» أى واللاتى تخافون نشوزهن. النشوز هو العصيان، وعلى الزوج فى هذه الحالة أن يأمر زوجته بالطاعة. والهجر فى المضاجع يعنى عدم النوم معهنّ فى فراش واحد، أو كناية عن عدم إتيانهن. «واضربوهن» ضربا يسيرا غير مبرح، ولكنه يبلغ حد الإيلام، وإلا انتفت به حكمة التأديب.

يقول صاحب التفسير: انظر كيف يعلمنا الله تعالى كيف نؤدب نساءنا ؟ وكيف نتدرج بهذا التأديب: فمنّ نُصح يبلغ حدّ اللطف، إلى هجر لايبلغ حد العنُف، إلى ضرب بعيد عن القسوة. فإذا نفع الوعظ حَرُم الهجر، وإذا تمّ التأديب حرم الضرب. «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» أى إن أطعنكم بالوعظ فلا تبغوا عليهن بالهجر، وإن أطعنكم بالهجر فلا تبغوا بالضرب. وأقول: فى ختام الآية يقول تعالى: «إن الله كان عليا كبيراً» فيا أيها الحمقى والمتغطرسون من الرجال أفيقوا، ولا تتجاوزوا حدود الله، المبينة بالآية الكريمة، «ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون»

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء]. وفى نهاية الآية ١٩ من نفس السورة يقول تعالى: ﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].



أقول: إن العلاقة الزوجية يجب المحافظة عليها. ولا أقول: مهما كانت الأسباب ولا أقول - كذلك - بأى ثمن. وإنما أدعو إلى التعقل، وإلى النظر فى العواقب، وإلى عدم مطاوعة الانفعالات الغاضبة التى تطفئ نور العقل. والقرآن الكريم - كما مرّ فيما تقدم - يقول: وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله، وحكما من أهلها إن يريدا (أى: الزوجان) إصلاحاً يوفق الله بينهما. فهذه خطوة واجبة كما يجب النظر في الأمر مرةً، ومرات، فعسى ﴿ ... **أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** (٢١٦) ﴾ [البقرة] ومن يدرى ؟ فإذا ركب الشيطان رأس أحد الزوجين، فنزع إلى زوج آخر مكان الزوج الحالي، فكثيرا مايحدث أن يقع فى الأسوأ والأتعس. ولايَظُنَّنَ أحد أن الأزواج الذين يمضون فى حياتهم الزوجية إلى النهاية هم الأكثر سعادة، والأدنى إلى الصواب. أنهم هم الأكثر عقلا وتدبرا. ومع ذلك فإن الإسلام قد أحل الطلاق. وهو أبغض الحلال إلى الله. وفى ذلك يقول تعالى: ﴿**وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعا حكيما** (١٣٠) ﴾ [النساء] وأعود وأقول: إنه فى حالة ما إذا كان مع الزوجين أولاد، فيجب من أجلهم التجاوز عن الكثير، وتحمل الكثير، ولكن ليس بإطلاق!!

تعدد الزوجات

بند ٦: يقول تعالى: ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا** (٣) ﴾ [النساء]. وأنقل عن «أوضح التفاسير» ما كتبه عن تفسير الآيتين: قال: وإن خفتم ألا تعدلوا فى شأن اليتامى فتزوجوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. (انظر مبحث «تعدد الزوجات» بآخر الكتاب). ذلك أقرب ألا تعولوا أى تجوروا من عال الحاكم فى حكمه إذا جار. أو ألاّ تعولوا بمعنى ألا تميلوا من عال الميزان عولا إذا مال. وقيل: المعنى ذلك أدنى ألا يكثر عيالكم. يؤيده قراءة من قرأ «ألا تعيلوا».

وعن الآية ٤ - النحْلَة = العطاء الذى لايقابله عوض، أو نحلة أى عن طيب نفس، أو نحلة أى حقا لهن لا مراء فيه، أى فإن طبن لكم عن شيء من المهر فكلوه حلالاً لا شبهة فيه.

وفى آخر الكتاب كتب عن تعدد الزوجات أربعة عشر صفحة وبعض الصفحة. ومما جاء من هذه الصفحات، قال فى مطلعها: وهو قول صريح واضح لا لبس فيه،

ولايخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة. . . ومضى فى البيان، مع مقارنة أحيانا بالشرائع الأخرى. ومما ذكره «وقد شنع فيلسوف الإسلام الشيخ محمد عبده على التعـدد وهى سقطة شائنة، رغم ما كان عليه - رحـمه الله تعالى - من رأى قويم وفكرة صـائبة» وقد جزم الكـاتب الإنجليزى الكبير «بـرنارد شو » فى كتابه الحـياة الزوجية. بأن الدولة الإنكليـزية ستضطر - حسب تقدمهـا المطَّرد - إلى اتخاذ الإسلام دينا لها قبل انقضاء هذا القرن[1].

وقد أشار الكاتب الـفاضل إلى الداعين إلى الاقتصار على زوجـة واحدة. زعموا أن قوله تعالى:﴿ ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ... ﴿٣﴾ ﴾ [النساء]، وقوله - عزَّ من قائل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء] قيد فى عدم التعدد. . . (مع أن) «السنة المطهرة قـد جاءت بالتعدد. . . وأول من جهر بهذا الرأى الفاسد المرحـوم وحيد الدين الأيوبى[2] . . . وقد ذهب الأستاذ الكبـير عبدالعزيز فهمـى باشا إلى نفس الاتجاه. ويـقول صاحب أوضح التفـاسير: «هذا، وقد اخـتلفت الآراء. . . فى التعدد: فـمن قائل إلى إباحته إباحـة مقيدة، ومن قائل يـحظره ومَنعه، ومن قائل بتحريمه وذمه ومما جاء فيما ننقله عن الرجل الفاضل صادق اللهجة أن من حق الزوجة الأولـى إن خشيت عـلى نفسـها أو دينهـا من زواج زوجها عـليها، أن تـطلب الطلاق، خصوصا إذا تزوج بمن دونها حسبًا ونسبًا.

وقد روى أن بنى هشـام بن المغيرة ذهبـوا إلى رسول الله. يسـتأذنونه فى تزويج بنت أبى جهل بن هشام لعلىّ بن أبى طالب، فـغضب. ولم يأذن بهذا الزواج إلا على شريطة طلاق ابنتـه فاطمة رضى الله تعالى عنهـا حتى لاتُطعن فى كرامتـها أو تفتن فى دينها. وقـال: إن بنى هاشم بن المغـيرة استـأذنونى فى أن يزوجوا ابنتـهم علىّ بن أبى طالب، فـلا آذن لهـم، ثم لا أذن لهم، ثم لاآذن لهم إلا أن يحـب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى. إن ابنتى بضعة منى يريبنى ما يريبها، ويؤذينى ما يؤذيها.

فـمن هذا يعلم أنه لايجوز إيذاء الزوجـة بالتـزوج عليهـا بمن هى دونها حـسبـا ونسبـا. ويجب أن يكون التعدد بقـصد الاستـعفاف لابقـصد الإسفـاف أو الإسراف، ولايكون بقـصد الإضـرار بالزوجة الأولي. وبـعد أن تكلم عن زواج النبى. من عـدة زوجـات، وأسبـاب ذلك، قـال بقى شيء واحـد وهو من الخطورة بمكان، وهو أن بعضهم يروى عن الطاهر المطهّر. أنه قال: حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت

---

(١) أقول: إن «شو» لم ينفرد بذلك، بل قاله آخرون، وإن اختلفوا من حيث المدة.

(٢) أنه كان رحمه الله - من أنصار اللغة العربية ومحققيها.

قرة عينى فى الصلاة. وقال أيضا: أُعْطِيتُ قوة أربعين فى البطش والجماع. وهذا كله - كما ترى - ممجوج مرذول لايصح نسبته بحال لسيد النبيين وإمام المتقين ؛ ولو رويت هذه الأحاديث فى سائر الصحاح، وأسندت فى كل المسانيد لايسعنا إلا رفضها ثم قال الكاتب الفاضل وهل بعد هذا نلوم المبشرين فى طعنهم على الرسول صلوات الله عليه وسلامه بأنه شهوانى يميل إلى النساء، ونحن الذين نسلمهم بأيدينا الحجج، ونقيم لهم بأنفسنا البراهين على صحة زعمهم، وصدق إفكهم. . . إلى آخره.

نعود بعد هذا إلى الفريق الآخر الذى أدان التعدد وشجبه، إذا لم يكن للمصلحة. . . وننقل عن كتاب «حقوق النساء فى الإسلام - للسيد محمد رشيد رضا ما يلى (ص ٤٧ ومابعدها) تحت عنوان «الإصلاح الإسلامى في تعدد الزوجات » - قال: لما بعث الله محمدا خاتم النبيين فى العرب، وأبطل شرعُهُ الزنا وكل ما هو فى معناه من أنواع الأنكحة، وكل ما هو مبنى على عد المرأة كالمتاع أو الحيوان المملوك، لم يحرم تعدد الزوجات تحريما مطلقا، يَدَع الرجال على ما كانوا عليه من الإسراف فى العدد وفى ظلم النساء، بل قيده بالعدد الذى تقتضيه مصلحة النسل وحالة الاجتماع ويوافق استعداد الرجال له، وهو أن لايتجاوز الأربع وبالقدرة على النفقة عليهن، واشترط فيه العدل بين الزوجين أو الأزواج لمنع ما كان من ظلم النساء بقدر الاستطاعة، وهو ما قد يُفضى بالمتدين بالإسلام إلى الاقتصار على زوج واحدة إلا للضرورة. (وذكر الآية ٣ من سورة النساء - وقد سبق ذكرها).

والعول = الجور، أى ذلك الاقتصار على امرأة واحدة، أو ملك اليمين أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور والظلم المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه. فالآية تدل على تحريم التعدد على من يخاف على نفسه ظلم زوجة محاباة لأخرى وتفضيلا لها عليها وعلى تحريمه بالأولَى إذا كان عازما على هذا الظلم، بأن كان يضارها لكرهه لها. ثم قال تعالى فى الآية ١٢٩ من السورة نفسها ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء] فإذا قرنت هذه القضية بقضية: ﴿ ... **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ... ﴿٣﴾ ﴾ [النساء] أنتجتا وجوب الاقتصار على امرأة واحدة، ولكنه قال بعدها: ﴿ ... **فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ** ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء] فعلم به أن غير المستطاع هو فى الحب وأثره من ميل النفس، فيجب ضبط النفس فى أثره وما يترتب عليه من المعاملة المستطاعة فى النفقة والمبيت وغيرهما، وهو العدل المشروط فى الأولي. إن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ولم يندب إليه، وهو - كذلك لم يحرمه تحريما قطعيا لا هوادة فيه، أى أنه تركه مباحا ولكن بقيود. . . لقد صار تعدد الزوجات فى الامصار مثاراً لمفاسد لاتُحْصَى

فى الأزواج والأولاد وعشائر الزوجين حتى انقلب ما جاء فى كتاب الله عن صفات الزواج من محبة ومودة ورحمة إلى أضدادها. وقد حمل شيخنا الأستاذ الإمام فى سياق تفسيره للآية فى الأزهر حملة منكرة شديدة على هذه المفسدة فى مصر. وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة مع كثرة هذا التعدد الإفسادى الذى صار يجب منعه عملاً بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»[1] الثابتة فى الحديث ؟ وقاعدة «تقديم درء المفاسد على جلب المصالح» وهى متفق عليها. يقول الشيخ رشيد: وقد نشرنا أقواله فى تفسيرها فى الجزء الخامس. وذكرنا فى أول المجلد ٢٨ من المنار أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد لغير ضرورة مبيحة لامفسدة فيها.

مكان المرأة ومكانتها فى الإسلام
(الشئون المالية)

بند ٧: أقول:

يقول تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾ [النساء]. ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ... (٢٥)﴾، إلى آخر الآية ٢٥ من نفس السورة).

ويقول: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾ [المائدة: ٥].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ... (٥٠)﴾ إلى آخر الآية - ٥٠ - الأحزاب ».

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس. وفى الهامش إشارة كذلك إلى الصفحات من ٣٤٤ - إلى - ٣٧٥ - ج ٤ تفسير المنار - لمن أراد تفاصيل أكثر - وفى الدراسة إشارة إلى أن التعدد فى الإسلام مع ما فيه من نقد، خير من الفوضى الجنسية المنتشرة فى الغرب.



ويقول - عز من قائل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم (١٠)﴾ [الممتحنة].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿... أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى (٦) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا (٧)﴾ [الطلاق].

أقول: الأجورُ - فى كل ما تقدم يراد بها المهور. والإسلامُ يُيَسِّرُ الأمر فى ذلك تيسيراً حتى يغضَّ الجنسان (الرجال والنساء) أبصارهم ويحفظوا فروجهم. يقول تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠)﴾ [النور]. ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن... (٣١)﴾ إلى آخر الآية ٣١ من نفس السورة). هذا عن تيسير الزواج وإمكانه بأقل القليل[(١)].

أما عن أعلى المهور فلا حد له، وتجوز المغالاة فيه، يقول تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا (٢٠)﴾ (الآية ٢٠ النساء). فى قوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ دليل على جواز المغالاة فى المهور؛ لأن الله تعالى لايمثل إلا بمباح. وخطب عمر رضى الله عنه فقال. ألاَ لا تُغَالوا فى صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا، أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله؛ ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتى عشرة أوقية[(٢)]. فقامت إليه امرأة فقالت يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا. أليس الله سبحانه وتعالى يقول: «**وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً؟**» فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر. «القرطبى - مجلد ٥ ص ٩٩ ».

---

(١) فى حديث الموهوبة قال عليه الصلاة والسلام: « ولو خاتماً من حديد » - وانظر القرطبى - مجلد ٥ - ص ١١٨.

(٢) ذهباً، أم فضة، أم شيئاً آخر.. لبس فى المرجع تفصيل ؟

انتقل - بعد ما تقدم - إلى كتاب الشيخ رشيد - رحمه الله - عن «حقوق النساء فى الإسلام» قال - تحت عنوان «حقوق النساء المالية (ص١٥): (قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم[1] من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن فى التصرف فيما يملكن واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن ؛ فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة (أى الإنفاق) على المرأة وأولادها، وإن كانت غنية) وأعطاها حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك، ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن ما لها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى وغيره من الأعمال المشروعة. علما بأن المرأة الفرنسية - على سبيل المثال - لاتزال مقيدة إلى اليوم[2] بإرادة زوجها فى جميع التصرفات المالية والعقود القضائية.

وتحت عنوان «حقهن فى الميراث » كتب (ص ١٥ وما بعدها).

بدأ بقوله تعالي: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴿٧﴾ ﴾ [النساء]، ثم بين نصيب كل وارث من الرجال والنساء فى آيات المواريث من هذه السورة (الآيات ١٠، ١١، ١٢، ١٧٦) - وهي مبنية على قاعدة «للذكر مثل حظ الأنثيين» من الآية العاشرة المفصلة في سائر الآيات. . وحكمة جعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل أن الشرع الإسلامى أوجب عليه الإنفاق على المرأة، فبهذا يكون نصيب المرأة مساويا لنصيب الرجل تارة، وزائدا عليه تارة أخرى باختلاف الأحوال. إلى آخره.

وتحت عنوان «مهر الزواج» (ص ١٦ وما بعدها) - قال: مما امتازت به الشريعة الإسلامية المحمدية فى تكريم النساء على جميع الشرائع والنظم التى يجرى عليها البشر فى الزواج أنها فرضت على الرجل أن يدفع لمن يقترن بها مهراً مقدما على البناء بها - فى حين أن الشعوب الأخرى غير المسلمة تفرض على المرأة أن تدفع هى المهر للرجل، ولكنهم يسمونها باسم[3] آخر، فترى العذراء مضطرة إلى الكد لأجل أن تجمع مالا تقدمه لمن يقترن بها إذا لم يكن لها ولى من والد أو غيره يدفع لها هذا المال. وكثيرا ما تركب المركب الصعب، وتتعرض للعنت والتفريط فى العرض فى سبيل تحصيل هذا المال. . !!

---

(١) يقضى السياق - هنا - أن لفظة «العجم» تعنى كل من عدا العرب.

(٢) أى يوم تأليف الكتاب.

(٣) أقول إنهم يسمونها بالإنجليزية والفرنسية Dot (دُوتْ) - بالإنجليزية The money a woman Brings with her at marriage . ونفس المعنى بالفرنسية.



نَـــصٌ

هذا الذى سيأتى «نص» إنه «نَصٌ مَّا» لا يتميز عن غيره، ولايُغنى عنه. إنه شىء مّا مما كتبه الشيخ رشيد فى كتابه «الوحى المحمدى».

قال (ص ٢٢٣ وما بعدها)

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

الإصلاح الإنسانى، الاجتماعى، السياسى، الوطنى، بالوحدات الثمان

وحدة الأمة - وحدة الجنس البشرى - وحدة الدين - وحدة التشريع بالمساواة فى العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة فى التعبد - وحدة الجنسية السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة.

جاء الإسلام والبشـر أجناس متفرقون، يتعـادون فى الأنساب و الألوان واللغات والأوطان والأديان والمذاهب والمشارب، والشـعوب والقبـائل والحكومات والسيـاسات. يُقاتل كل فـريق منهم مخالفه فى شـىء من هذه الروابط البشرية وإن وافقـه فى البعض الآخر. فـصاح الإسلام بهم صـيحة واحـدة، دعاهم بها إلى الوحـدة الإنسانية العـامة الجامعة، وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادى وحرمه عليهم. وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية. وبيان أصول الكتاب الإلهى، وسنة خاتم النبيين فى الجامعة الإنسانيـة، لايمكن بسطهما إلا بمصنف كبـير، نكتفى فى هذا المقصـد من إثبات الوحى المحمدى بسرد الأصول الجامعة فى هذا الإصلاح الإنسانى الداعى إلى جعل الناس على ملة واحدة، ودين واحد، وشرع واحد، وحكم واحـد، ولسان واحد، كما أن جنسهم واحد وربهـم واحد. ونبدأ بالأصل الجـامع فى هذا، ونقفـى عليه بالأصول والـشواهد المفصّلة له.

(الأصل الأول للجامعة الإسلامية الإنسانية وحدة الأمة)

قال الله تـعالى فى سورة الأنبـياء مـخاطبـا أمة الاسلام بعـد ذكر خـلاصة من قصصهم (٢١ : ٩٢): ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1].

ثم بين لها فى سورة المؤمنين أنه خـاطب جميع النبيين بهذه الوحـدة للأمة فقال: (٢٣ : ٥١) ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

(١) قرأ الجمهور «أمتكم» بالرفع، على أنها خبر، وأمة بالنصب على أنها حال لازمة، و «واحدة » صفة لأمة.



﴿وإنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاتَّقون (٥٢)﴾، ولكن كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس، وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم. فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم وبمن بينهما. فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة فى الدولة الواحدة، ومثل اختلاف شرائعهم ينسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين فى الدولة الواحدة أيضا إلى أن كمل الدين (١) - أكتفى بذكر الآية ١٥٢ من سورة النساء ﴿وَالَّذين آمنُوا باللَّه ورُسُله ولَمْ يفرِّقُوا بيْنَ أحد مِّنْهم أُولَئك سوْف يُؤْتيهمْ أُجُورهُمْ وكَانَ اللَّهُ غفُوراً رَّحيماً (١٥٢)﴾ [النساء].

الأصل الثانى

الوحدة الإنسانية

وذلك بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم، وشاهده العام قوله تعالى: (٤٩ : ١٣) ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وَجعلْنَاكُمْ شعُوبًا وقبائل لتعارفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أتْقَاكُمْ ... (١٣)﴾ [الحجرات] وقد بلغ النبى ﷺ ذلك فى حجة الوداع، فتلا الآية وقال ما خلاصته: «إنه ليس لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود فضل - ولا العكس - إلا بالتقوى (من حديث العداء بن خالد فى المعجم الكبير للطبرانى). وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف، وإلى ترك التعادى بالتخالف (٢).

الأصل الثالث

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر، وشاهده الأعم قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاس إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُمْ جميعا ... (١٥٨)﴾ [الأعراف]. ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦) ﴿لا إكْرَاهَ فى الدِّين قد تَّبيَّنَ الرُّشْدُ من الْغَيِّ﴾.

---

(١) وأحال على ص ١٧٦ - ١٧٨ من الكتاب، وفى هذه الصفحات إشارة إلى الآيات (٤ - ١٥٠ - ١٥٢).

(٢) من شواهد القرآن فى الوعيد على التفرقة بين الناس باختلاف أنسابهم قوله تعالى (٢٨ : ٤) ﴿إنَّ فرْعوْن علا فى الأرض وجعل أهْلَها شيعًا يسْتَضْعفُ طائفةً مِّنْهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويسْتَحْيى نساءهُمْ إنَّهُ كان من الْمُفْسدين (٤)﴾.



الأصل الرابع

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر والبر والفاجر، والملك والسوقة، والغنى والفقير والقوى والضعيف.

الأصل الخامس

الوحدة الدينية بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية، عباداته فمنها العبادات التى تقتضى الاجتماع، كالصلاة ومناسك الحج[1]. فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام فى صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة. والوقوف بعرفات، وسائر مواطن الحج، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية، ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم. قال تعالى (٤٩: ١٠) ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا**...۝١٠﴾ (٩: ١١): ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**...۝١١﴾.

الأصل السادس

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة، كحماية أهلها والدفاع عنهم، إلا حق الإقامة فى جزيرة العرب ولاسيما الحجاز فإنه خاص بالمسلمين؛ لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد. وحكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها فلايجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم، المسلمون وغيرهم فى هذا سواء.

الأصل السابع

وحدة القضاء واستقلاله، ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية، فإن الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه فى ذلك، فهو يسمح لغير المسلمين فى أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم. وهذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب؛ لأنه إشراك فى الحكم والتشريع. وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم. والأصل فيه قوله تعالي: « ٥ - ٤٢» ﴿... **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ**

(١) وكذا الصيام والمساواة فيه أظهر. وإن كان هو تركا للشهوات لا فعلا يُرى بالأبصار ولكنه فعل نفسى، يُرى أثره، ولايخفى على أحد أمره.



أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وقوله بعد آيات: (٤٩) ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءاهم عما جاءك من الحق﴾.

الأصل الثامن

وحدة اللغة، ووجهها: إنه لا يمكن الاتحاد بين الناس، وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة، إلا بوحدة اللغة.[1] وما زال الحكماء الباحثون فى مصالح البشر العامة، يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة، يتعاونون بها على التعاون والتآلف، ومناهج التعليم والأدب، والاشتراك فى العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية. هذه الأمة قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما، والاتحاد بأخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة، ولذلك كرر فى القرآن. بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا، وكرر الأمر بتدبره والتفكر فيه، والاتعاظ والتأدب به. وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه والحكومة التى يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هى عادة البشر فى ذلك، وكذلك كان الأمر فى الفتوحات الإسلامية العربية كلها.

وقد فصلتُ فى المنار والتفسير مسألة وجوب تعلم اللغة العربية فى دين الإسلام، وكون ذلك مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعى (رضى الله عنه) فى «رسالته» وهو الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين، إلى أن كثر الأعاجم وقل العلم، وغلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين، بما فرضه الله فى العبادات من القرآن والأذكار.

الشواهد من السنة على وحدة الجنس واللغة: كان النبى ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذى ينافى وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد، كما شبههم بقوله: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رضى الله عنه)، وكان يخص بمقته وإنكاره، التفرق فى الجنس النَّسَبى أو اللغة. أما الأول فمشهور، فقد تغاضب أبو ذر (رضى الله عنه) - وهو منَ المسلمين السابقين الأولين المتقين - مع بلال الحبشى مولى أبى بكر (رضى)، وتسابًا، فقال له

(١) المراد أنه لايمكن هذا - مع حرية الدين التى قررها الإسلام - إلا باللغة.

أبو ذر يا ابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبى ﷺ فقال لأبى ذر «أعَيَّرتَه بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» (رواه البخارى فى مواضع، ومسلم من غير ذكر اسم بلال. ولفظ البخارى فى كتاب الأدب عن أبى ذر) «كان بينى وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية فَنِلْتُ منها، فذكرنى إلى النبي. فقال لى: «أسابيت فلانا؟ قلت: نعم. قال أَفَنِلْتَ من أمه ؟ قلت: نعم. قال إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على ساعتى هذه من كِبَر السنّ ؟ قال: نعم، هم إخوانكم، إلى آخر الحديث. وسيأتى الوصية بالرقيق، وروى أن أبا ذر تاب توبة نصُوحا حتى أمر بلالاً أن يطأ على وجهه. وأما الثانى فيجمعه مع الأول ما رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن قال: جاء قيس بن مطاطيه إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى، فقال هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هذا ؟ (يعنى هذا المنافق بالرجل النبى ﷺ، وأن الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لأنهم من قومه، فما الذى يدعو الفارسى والرومى والحبشى إلى نصره ؟) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فأخذ بتلبيبه[1] ثم أتى النبى. فأخبره بمقالته. فقام النبى. مغضبا بجر رداءه حتى أتى المسجد، ثم نُودى: إن الصلاة جامعة[2] ! وقال النبى. : «ياأيها الناس: إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ؛ وإنما هى اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربى، فقام معاذ فقال، فما تأمرنى بهذا المنافق يارسول الله ؟ فقال: «دعه إلى النار». فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل. أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية، أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الأخوة الإسلامية أكانت حدثت فيهم تلك الشعوبية المجوسية الأولي، وهذه العصبية التركية الأخرى؟ كلا، إنهم لو حافظوا عليها، لعمّموا أخوتها، ولأصلحوا بها شعوب الأرض كلها.

يعترض بعض ذوى النظر القصير، والبصر الكليل على توحيد اللغة فى الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويُردّ عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر إن أريد بالبشر جميع أفرادهم. وأن الحكماء مازالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة، مع علمهم بأن ترقى بعض اللغات بترقى أهلها فى العلوم والفنون السياسية، والقوة والعصبية يستحيل معها أن يرغبوا عنها إلى غيرها. ولم يسع أحد

(١) اللبب بفتحتين موضع النحر، وتلبيبه ما على لببه ونحره من الثياب، أى قبض عليها وجذبه بها.
(٢) هذه الجملة يُدعى بها إلى صلاة العيدين، وكل اجتماع عام فى المسجد بلفظ «الصلاة جامعة» ولفظ الصلاة فيها منصوبه بتقدير احضروا الصلاة أو الزموها.



منهم لجمعهم على دين واحد، وأن القرآن الذى شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر، قد علمنا أن حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ... (١١٩)﴾ [هود]، وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذى يثيره الخلاف فيهم. هذا الخلاف الذى جعل أعظم شعوب الأرض وأرقاهم فى العمران. يبذلون فى هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم فى سبيل الحرب التى تنذر شعوبهم بالخراب والدمار. فإذا كان مقتضى طبع البشر ألا يتفقوا جميعهم على شىء واحد من لغة ولادين، ولا غيرهما من الأمور التى تختلف فيها الآراء، فهذا لايمنع دعوتهم كلهم إلى الحق والخير. ولابد أن يستجيب خيارهم على قاعدة غلب الحق على الباطل وقد استشكل هذا بعض العلماء من حيث المخاطب بتنفيذه. فقلت لهم: إن المخاطب بتعميم لغة الإسلام هم أولو الأمر المخاطبون بتعميم دعوة الإسلام وإقامة شرع الإسلام وقد جرى ذلك على الصحابة والخلفاء من بعدهم، كما تقدم. دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الأمم، فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد فى قرن واحد مابين المحيط الغربى إلى أقصى الهند أو الصين، ولولا ما طرأ عليه من الابتداع وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد والتفرق والاختلاف لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة كل من دَخَلَ فى حظيرته من الأمم، فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه، بل علمنا القرآن أن هذا سنة عامة فى الاجتماع البشرى، بل فى كل تنازع بين الحق والباطل، والنافع والضار، والصالح والفاسد. إنما يكون الغلب للأفضل، والثبات والبقاء للأمثل. فراجع الآيات فى دفع الحق للباطل، ثم اعتبر فيه بهذا المثل الماثل. (١٣ : ١٧) ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال (١٧)﴾.

قال أحد كبار علماء الألمان فى الآستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغى لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبى سفيان، فى ميدان كذا فى عاصمتنا (برلين)».

قيل له: لماذا ؟ قال: لأنه هو الذى حول نظام الحكم الإسلامى عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب. ولولا ذلك لَعمَّ الإسلام العالم كله، وإذن لكنا نحن



الألمان وسائر شعوب أوربا عربا مسلمين. وقد أعجبت هذا الألمانيّ عصبيته القومية وخيلاؤه الأوروبية التى عتلت قومه وجيرانهم إلى جحيم الحرب الأخيرة عتلا(١) . فأخسرت أوروبا عشرين مليونا من الرجال، وألوف الملايين من الأموال، وباء فيها قومه بالخزى والنكال وسيطرة الاستذلال، وإنما كان كره أن يكونوا قد اهتدوا بالإسلام، بما صرفت بصره عصبيته الألمانية عن رؤية المصلحة الإنسانية الجامعة. ولو نظر فيها لأبصرها ولعلم أن الأفضل والأمثل والأكمل للبشر توحيد شعوبهم بحيث يتفاضلون بعلوم أفرادهم وأعمالهم، لا بأنسابهم وأوطانهم ولغاتهم المفَرِّقة بينهم وهو قد علم من قبل أن هذه الجامعة الإنسانية لاسبيل إليها إلا بهداية الإسلام، فلا تنال إلا به، ولو اهتدت به أوروبا اليوم لزالت أضغانها، ووجهت فنونها وعلومها إلى إسعاد البشر وعمارة الأرض كلها. فإن إصرار الإفرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء واحتقارهم السود والحُمْر والسّمر والصفْر، وهضمهم لحقوقهم، واستباحتهم لظلمهم، لمِنْ أكبر العار على حضارتهم. وإن استثناءهم للأصفر اليابانى أخيراً من هذا الاحتقار لما يلطخهم بعار فَوْقَ عار. وإن حضارة الإسلام الإنسانية الجامعة لتعلو عليها ألوفا من الأميال لا الأمتار. فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الأصول إلى توحّد الأممُ والشعوب، ويؤلف بينها بما تجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسى لا بالقهر العسكرى من رأى أو إلهام نبع من نفس محمد الأمى فى سن الكهولة ففاق بها جميع الأنبياء والحكماء ؟ أم الأقرب إلى العقل أن تكون بوحى من الله تعالى أفاضَه عليه ﷺ.

ماذا أقول بعد هذا الذى تقدم تحت عنوان «نص» - مما نقلته عن كتاب «الوحى المحمدى» للشيخ رشيد عليه الرحمة والرضوان، إنى لا أقول إلا التأكيد والإشادة بما جاء فى كتابه القيم. إنه امتداد لمدرسة الأفغانى ومحمد عبده. إنهما وإنه مصلحون كبار، ورواد أبرار للفكر الإسلامى فى العصر الحديث. إن «الوحدات الثمانى» التى تضمنها «النص » تكفى وحدها كأساس، وكمنطلق - أيضا - لبناء الدولة الإسلامية

---

(١) عتله إلى الشيء أو المكان جره بقهر، ودفعه إليه بعنف.

(٢) قولنا: إن هذا أقرب إلى العقل مفهومه أن مقابله وهو أنه من رأى محمد. ممكن أيضا، وإن فاق به جميع الأنبياء والحكماء، وهو من باب التساهل وإرخاء العنان ولايمكن أن يقال مثله فى كل مقصد من هذه المقاصد العشرة التى تضمنها النص الخامس فما بالك بها كلها هل يعقل أن تكون آراء حدثت لأمّىّ فى سن الكهولة فقررها ونفذها ؟ كلا.

هذا، ومن المعروف أن الشيخ رشيد - عليه الرحمة والرضوان - قد توفى عام ١٩٣٥ م. فما الحرب التى أشار إليها فيما تقدم هى الحرب العالمية الأولى. كما أن أوروبا اليوم - ومنذ ما بعد الحرب العالمية الثانية تخطو نحو الوحدة.



التى يرنو إليها طلابها من كبار مفكرى الغرب والشرق. ولن يطول الزمن إذا أخذنا بالأسباب: على المسلمين وعلى رأسهم، وفى مقدمتهم الولاة والدعاة. أن يصلحوا أنفسهم ليملأوا الفراغ الذى تخلف عن سقوط الشيوعية فى أوروبا، وعن سقوطها المتوقع فى غيرها، بل وانهيار الحياة المادية القائمة فى الغرب الأوربى والأمريكى كذلك. إن العالم كله سيختار الأفضل لإنقاذه من الفقر الروحى الذى يعانى منه. والإسلام هو البديل الوحيد. ولابد من قيام الدولة «النموذج»، الدولة «المثلى» التى تمضى قدما نحو الشورى الحقيقية والعدل الاجتماعى. وإن الرواد المسلمين الأول لم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم. لم يهابوا الموت، بل طلبوه، فوهبهم الله الحياة، الحياة الفضلى لهم ولمن أتى بعدهم. وأقول مرة أخرى إنه لابد من «الدولة النموذج» لتشد الآخرين إلى ديننا، وتحملهم على احترامنا. ومن الأساسيات التخلص من الجهل، ومن البدع ومن كل ما يعتبره العامة دينا، وهو ضد الدين، الذى جاء فى كتاب الله، وسنة رسول الله.

بعد أن كتبت ما تقدم، اطلعت على ما جاء فى عمود صندوق الدنيا الذى يحرره الأستاذ أحمد بهجت بعنوان «الخواء الروحى » (ص٢ - أهرام - ٩ - ١ - ١٩٩٧) - وفيه: التقيت بالأستاذ الدكتور المهندس محمد إبراهيم المصرى وهو. . . . ورئيس مجموعة أبحاث الإلكترونيات الدقيقة بجامعة واترلو فى أونتاريو بكندا التى يعيش بها منذ أكثر من عشرين عاماً وهو رئيس الجمعية الإسلامية بالمنطقة. يرى الدكتور المصرى أن المسلمين فى حاجة إلى صحوة إسلامية ثانية تمضى بهم إلى ربانية إسلامية وروحانية جميلة معتدلة تجمع بين أمور الدنيا والدين. . . وليس من الممكن أن يكون كل مسلم فقيها، ولكن يمكن أن يكون ربانيا يشغف قلبه حب الله ورسوله، وحب كتابه الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. إن المسلمين لو ملأوا قلوبهم بحب الله لساد العدل ربوع البلاد الإسلامية، ولصرنا خير أمة. إن الربانية الإسلامية أو صوفية الكتاب والسنة هى أحد العلوم الإسلامية التى يجب أن يكون اهتمامنا بها كاهتمامنا بالشريعة والفقه والمعاملات والعبادات. وهى ثروة هائلة لم يلتفت إليها المسلمون بالدرجة الكافية. يقول الدكتور المصرى: نحن نعيش فى الغرب الذى يحيا فى خواء روحى شديد. والإسلام قادر على أن يقدم الحل الروحى المعتدل الذى يجمع بين القلب والعقل والدين والدنيا. وبعيداً عن شطحات الصوفية يمكن أن يقدم الإسلام جوانب قابلة للتطبيق على المستوى الفردى لأهل الغرب. وهذه خدمة جليلة يقدمها الإسلام لعالم أجدبت حياته الروحية وتضخمت حياته المادية.

بين هيكل وناقديه

واستطراداً إلي قضايا: الروح - الساعة - المعجزات - الوحى إلى الأنبياء قال صاحب المنار:

المعجزات (أو خوارق العادات) مما قد حررته في كتابي «الوحي المحمدى» فى الفصل الثانى، وفي المقصد الثانى من الفصل الخامس. بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد. بالذات، ونبوة غيره وآياتهم بشهادته أيضا. ولا يمكن فى عصرنا إثبات (أى معجزة)، إلا به، علماً بأن الخوارق الكونية شبهة (عند العلماء المتخصصين) وليست حجة ؛ لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى. وأن المفتونين بها هم الخرافيون فى جميع الملل.

أقول: وفي هذه السطور (السابقة). ومن وجهة نظر السيد رشيد (وهو رجل خبير بصير) - فيها ما يحسم الخلاف بين هيكل وناقديه لصالح هيكل[1].

أما كتاب « الوحى المحمدى» فنقرأ على غلافه والصفحة الأولى منه، ما يلى: المؤتمر الإسلامى - الوحى المحمدى - ثبوت النبوة بالقرآن، ودعوة شعوب المدنية إلى الإسلام - دين الأخوة الإنسانية والسلام: تأليف السيد محمد رشيد رضا - حقوق الطبع محفوظة للمؤتمر الاسلامى. (الطبعة السادسة - ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م - مطبعة نهضة مصر - الفجالة - القاهرة)(الكتاب من ٣١٦ صفحة) من القطع الكبير.

أما الفصل الثانى الذى أحال عليه فهو بعنوان «فى إقامة الحجة على مثبتى الوحى المطلق. فى إثبات نبوة محمد». وأما المقصد الثانى من الفصل الخامس (وهو مما أحال عليه) فإنه بعنوان المقصد الثانى من مقاصد القرآن - بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل.

---

(١) فى أهرام اليوم الجمعة - ٢٣ من شعبان سنة ١٤١٧هـ (٣ / ١ / ١٩٩٧ م) (صفحة ٨ - أدب التى يشرف عليها الدكتور عبدالعزيز شرف) - نقرأ: «د. محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م) فى احتفاليته الدولية) - وفى السطور الأولى: فى إطار اختيار القاهرة سنة ١٩٩٦ عاصمة ثقافية إقليمية للعالم العربى أقام المجلس الأعلى للثقافة على مدى أربعة أيام (١٤ إلى ١٧ ديسمبر ١٩٩٦) احتفالية دولية عن د. محمد حسين هيكل وجهود الاستنارة المصرية فى ذكرى مرور ٤٠ سنة على رحيله، والكلمة طويلة، وبها بيان بالمزمع عمله، وهو كثير... ومما تقرر إنشاء جائزة سنوية باسمه.



منهج القرآن الكريم فى مسائل: الروح، والساعة وغيرهما

أبدأ بذكر هذه الآيات الكريمات، راجيا أن أعرف (بمشاركة القارىء الكريم) منهج القرآن الكريم فى مسألة «الروح» و «الساعة» وكذلك مسألة المعجزات، ثم أعود وأثبت بعض الآيات الكريمة التى جاءت فيما يوحيه الله إلى أنبيائه.

جاءت كلمة (أو لفظ) «الرُّوح» فى آيات كثيرة من كتاب الله. منها قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء].

يقول صاحب «أوضح التفاسير» «ويسألونك عن الروح» التى يحيا بها البدن. ما صفتها؟ وما ماهيتها؟ وما طبيعتها ؟ وذهب قوم من المفسرين إلى أن الروح المسئول عنه: هو جبريل وهناك أقوال أخرى كثيرة. «قل الروح من أمر ربى» توهب بقدرته، وتسلب بأمره ولايعلم حقيقتها إلا هو ولا سيطرة لأحد عليها، وجوداً وعدماً - وهى باقية بعد فناء الأجساد، حتى يوم المعاد، فيعيد الله لكل جسد روحه، ليحاسبها على ما اكتسبت فى دنياها، فيعذب الكافر العاصى، ويثيب المؤمن الطائع.... وقوله تعالي: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ دليل على عجز الإنسان عجزا تاما عن معرفة حقيقتها وكنهها... إلى آخره.

أما الساعة، فأكتفى بما جاء، عنها فى الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾.

أقول: ومعنى الآية: أن المراد بالساعة يوم القيامة، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾

وأعود وأقول: إنهم يسألون عن الساعة، إثباتها وإقرارها ووقتها، والجواب أن ذلك كله مما يدخل فى علم الله، لايُظهر وقتهَا إلا هو، ثقلت وعظم شأنها فى السموات والأرض أى على أهلهما، وذلك بسبب ما يصاحبها من أهوال وأهوال. إن الكفرة يكذبون بها. أما المؤمنون فهم مشفقون منها: وفى هذا يقول تعالى ﴿ ...وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ... (١٨) ﴾ [الشورى: ١٨]. إن عقيدة المسلم

هى أنه لايدخل الجنة[1] بعمله، ولكــن برحمة الله التى وسعــت كل شىء، وكيف لا نكون مشفقــين منها ؟! ونحن نعلم من رواية عن أبى بكر رضى الـله عنه أنه قال: (ما معناه) «والله لو كانت إحدى قدمى فى الجـنة، والأخرى خارجها لَمَا أمـنْتُ مكر الله» وفى ذات المعنى، ولكن بصـيغة أخرى عن عمر رضى الله عنـه أنه قال: لو قيل لى إن الناس جميعا يدخُلون الجنة إلا واحداً لظننتَ أنى هذا الواحد.

ومع ذلك فإن آيات القرآن الكريم مطَّردة على أن مـن آمن وعمل صالحا فهو من الناجين: يقول تعالى - عـلى سبيل المثال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

وأذكر ما يلي - وعلى سبيل المثال - من سورة البينة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

وفي الآية ٧ و مـا بعدها من نفـس السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة].
أقول: نعـم ! إن خشيـة الله، أى تقوى اللـه، هى الطريق المأمـون، والمأمول، لقبـول الأعمال.

وعن« المعجزات » (أى خوارق العادات)

أثبت هنا هذه الآيات، وعلى سبـيل المثال. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام] ويقول تعالى فى نفس الـسورة (الآية ١٠٩ ومابعدها ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ

---

(١) وذلك لما عـسى أن يكون قد صاحـب العمل من رياء، أو غـير ذلك. والله - وحـده هو علام الغيوب. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] فلابد من إيمان يقينى لا ارتـياب فيه، ثم عمل صالح يصدقه، ثم قبول من الله.

﴿لِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ وفى سورة الأعراف (الآية ٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا[1] قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف].

ومن سورة آل عمران ﴿... الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران]. ومن سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء]. ومن سورة الإسـراء - أيضا - ننقل هذه الآيات الكريمات: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء].

يقول تعالى فى الآية ٨٨ من سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ... إلى آخر الآية﴾ والآية ظاهرة المعنى. وإذا كان النص الكريم فى هذه الآية «.. على أن يأتوا بمثل هذا القرآن» ففى الآية ٢٣ من سورة البقرة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾. وفى آية أخرى (١٣-هود) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ... ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) اجتبيتها، أى هلاً أخترتها واختلقتـها (عن أوضح التفاسير) - وفى المعجم الوسيط (اجتباه)، أى اصطفاه واختـاره لنفسه. وفى تفـسير القـرطبى: معنى «اجتبيـتهـا»، أى اختلقتهـا من نفسك، فأعلمهم أن الآيات من قبل الله، وأنه لايقرأ عليهم إلا ما أنزله اللـه عليه. وفى تفسير ابن كثير أقوال كثيرة فى معناها. ومما جاء فيه أن القرآن هو أعظم المعجزات، فقال: «هذا بصائر».

أقول: بالقرآن الكريم - وهو معجزة الله الخالدة الباقية تحدى المولى - جل وع المرتابين المتشككين «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) ﴾ [الكهف]. إنهم «الأخسرون أعمالا» (انظر الآية ١٠٣ من نفس السورة). وأنتقل إلى الآيات ٨٩ وما بعدها - والسابق ذكرها: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** (٨٩) ﴾ [الإسراء] - وتعليقي الوجيز على هذه الآية - قوله تعالي: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...** (٥٦) ﴾ [القصص] ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا...** (٩٠) ﴾ [الإسراء] إلى آخر الآيات. والرد في الآيات ذاتها ﴿ ... **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** (٩٣) ﴾ [الإسراء] إلى آخر الآيات. وعن قوله تعالي: ﴿ ... **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا...** ﴾ يُذَكِّر بقوله تعالى في سورة هود ﴿ ... **وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٧) **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ...** (٨) ﴾ [هود]؟

أقول: إن «الناموس» (أو النظام الكوني) لايخرقه (أى بالمعجزة) إلا خالقه وليس رهن إشارة الضالين المضلين المكذبين بيوم الدين !!

إن المولى جل وعزّ أيد موسى بالعصا، التى تلقف ما يأفكون. وكان فرعون والملأ من قومه، وصنائعه، مشهورين بالسحر، فالمعجزة جاءت لاقتحام ما نبغوا فيه، وتميزوا به. أما العرب فكانوا أهل بلاغة وفصاحة، وكثيراً ما كان أفصح أفراد القبيلة هو رئيسها. «وأسواقهم» أو ندواتهم كسوق[1] عكاظ وغيره. كانت (مهرجانات) يتنافس فيها الشعراء والفصحاء. ولنتذكر هنا حديث المعلقات وقد كان القرآن كتاب الله الذى أنزل على رسوله ﷺ، هو المعجزة التى تحدى بها الله ورسوله هؤلاء الفصحاء ليأتوا بسورة من مثله.

وفى نهاية هذا البند أذكر كلمة عابرة عن «الوحى».

عن المعجم الوسيط: وَحَى إليه، وله (يَحِي وحيا): أشار وأومأ. وَحَى - أيضا. أى كلمه بكلام يخفى على غيره. وحي: كتب إليه... وحي: أمره. وحى الله إليه: أرسل. وحى أى ألهمه. وحى = سَخَّره. إلى آخره.

---

(١) من أسواق العرب فى الجاهلية، موضعه بين نخلة والطائف وذى المجاز. كانت تجتمع فيه القبائل مدة عشرين يوما من هلال ذى القعدة إلى العشرين منه، فى كل سنة يتبايعون فيه. كما كان الشعراء يحضرون السوق لينشدوا ما أحدثوا من أشعار التفاخر والحماسة والمجادلة.

وفى التنزيل العزيز. ﴿... فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم] (أى أشار وأومأ) وفيه - أيضا - «و أوحى ربك إلى الـنحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » (٦٨ - النحل) (الوحى هنا وحى إلهام).

أما الوحى إلى الأنبياء والرسل، ففى التنـزيل الحكيم آيات كثيرة فى ذلك: يقول تعالى - وعلى سـبيل المثال - ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء] وانظر الآيات التى تليها: - ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦).

* * *





الدكتور / عبد الوهاب عزام

(أمة في رجل)

(١٣١٢-١٣٧٨هـ = ١٨٩٤ - ١٩٥٩م)

الدكتور عبدالوهاب عزام
ذكريـات

بند ١ :

أنقل عن كتابى « صفحات من اليوميات (ص٢٨ - بند ١٨) مايلى (بعد عبارات عن تفوقى بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا، وحصولى على جوائز وهدايا من أساتذتى، وعلى مكافأه تفوق من الدولة كل عام - قلت : وفى دبلوم الدراسات العليا للشريعة الإسلامية (عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦) طلب إلينا (زملائى وأنا) فضيلة الشيخ محمود شلتوت (الذى صار شيخا للأزهر فيما بعد) - أن يتقدم أحدنا ويعيد الدرس الذى ألقاه، وكان من حظى أن أكون «هذا المعيد» وكنت موفقا غاية التوفيق (لغةً وإلقاءً وإلماماً) وقد تكرم مشكوراً فأثنى على أطيب الثناء. وأستطرد وأقول : إنه قد قربنى إليه كصديق، وما أكثر ما جرى بيننا من أحاديث، منها حديث الاعتراض على تعيين الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخاً للأزهر دون المفتى الشيخ عبد المجيد سليم الذى عين شيخا للأزهر فيما بعد. ولم يكن الاعتراض - كما قال الشيخ شلتوت على شخص الشيخ مصطفى وعلمه وفضله. ولكن على مبدأ التعيين من خارج الأزهر. وإذا لم تكن ذاكرتى قد خانتنى فإن رئيس الوزراء، وقتئذ كان المرحوم النقراشى الذى عدل القانون لينطبق على الشيخ مصطفى. وبسبب هذه الصلة بين المرحوم الشيخ شلتوت وبينى أخذت أتردد على مسجد قصر المنيل (قصر الأمير محمد على توفيق) لصلاة الجمعة، لأكون أحد المستمعين لخطبته والمصلين خلفه. وكان يحدث أحياناً أن نجلس بعد الصلاة فى حديقة القصر مع الأمير وزواره. وفى هذا المجلس عرفت ممن عرفت الدكتور عبدالوهاب ويرحم الله الجميع. لقد كان فى حديقة القصر مجموعة من «الصبار» «نادرة» وقيل (فريدة) ترى، ما خطبها، بعد أن تغير الزمان عليها ؟!! (وانظر صفحات من اليوميات ص ٢٨ بند ١٨).

عبدالوهاب عزام فى ذكراه

للسيدة الفضلى والأستاذة الجليلة د. نعمات أحمد فؤاد

بند ٢ :

أستاذى فى «الفـارسية والتركـية» وهو أول من عمل فى مصر عـلى إنشاء الدراسات الشرقية وأول من علم الفارسية والتركية وآدابهما فى جامعة القاهرة الأم.

وهو أول من قدم إلى العـرب شاعر الإسلام مـحمد عـاكف فأتاح له منبر الجامـعة ووصله بطلابها محاضرا. . . وأذاع شعره على صفحات (الرسالة).

وبعد الشاعر التركى العظيم قدم رجلنا عبدالوهاب عزام إلى العرب والمسلمين الشاعر الفليسوف المؤمن كما كان يدعوه شاعر باكستان محمد إقبال.

كان عالمـا وكان عالّما بالفتح - كـان جواب ثقافاته وكان جـواب آفاق وبلاد. وما أوسع آفاقه فى سياحات الأرض. . . . وما أغنى سـياحاته فى أرض المعرفة. كان علامة كبيـرة فى الحياة الأدبية والثقـافية. وقد عـرف وطنه، قدره. . كما عرفـته أوطان أخرى أنزلته منهـا رفيع المكان فـجلجل اسم عبدالوهاب عـزام فى المجامع العلمـية والمؤتمرات الأدبية والفكرية مَـثّلَ مصر فى الشرق والـغرب، السفارة التى لاتغـيب ولا تخيب. . . شرف بها وشرفت به.

انتـخب الدكتـور عبدالـوهاب عزام بالمجلس الأعلى لدار الكتب المصـرية (١٩٤٤) وانتخب عضوا بالمجمع اللغوى فى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦، واختير عضوا فى مجامع سوريا والعراق وإيران التى قلدته الوسام العلمى، كـما قلدته حكومة لبنان وسام الأرز الوطنى ١٩٤٧. ومثل الدكتور عبدالوهاب عزام جامعة القاهرة فى مؤتمر العيد الألفى للفردوسى ومؤتمر بروكسل ١٩٣٨ ومؤتمر الندوة العـالمية للإسلاميات المجتمعة فـى جامعة البنجاب بمدينة لاهور ١٩٥٧. وكان رئيسا للمؤتمر وممثلا لجامعتى القاهرة والرياض معا وقد جلى فيه حين تحدث عن (تحدى الأفكار الحديثة، والآراء الاجتمـاعية للجماعات الإسلامية) وغير هذا من مؤتمرات.

وقد أتاحت له الأسفار والسفارة العلميـة، الإلمام بلغات عدة بل إنه كان يحسن غير قليل منها قراءة وكتابة وأدبا. .

كان الدكتور عبدالوهاب عزام يجيد من اللغات التركية والفارسية والأردية والإنجليزية والفرنسية.



حين كتب الأستاذ العقاد مقدمة ديوان الدكتور عزام «المثانى» قال : وكان لدراسة الفارسية والأردية أثر فى تقريبه ثقافتهما يحسب من سفارات الأدب التى تعاون فيه العلم والعمل. ومن هذا التقريب الذى لم يسبق إليه تعريفه قراء العربية بتاريخ الرباعية فى الآداب الفارسية والعربية. فهو أوفى ما كتب بلغتنا فى هذا الموضوع.

ولم تقف إجادة الدكتور عبدالوهاب عزام للغات الشرق والغرب وإدراكه العميق لحضارتيهما عند حدود الثقافة الخاصة للفرد، بل تجاوزت هذا المعنى على رفعته، إلى ما هو أعم وأشمل وأنفع فألف الكتب، ونقل الآثار، وعرف بالرجال، وراد الأماكن وحقق المواقع.

جمع الله فى لسانه كما يقول الأستاذ عبدالمنعم خلاف فى رثائه (ألسنة العرب والفرس والترك والهند أعظم أمم الحضارة الإسلامية فكانت داره ناديهم وموائده قراهم).

وكان موضع ثقتهم وإعزازهم وسفير بعضهم إلى بعض. وترجمان التعارف والأخوة بينهم.

كانت كتب الدكتور عبدالوهاب عزام، ريادة فى أدب البعث العربى للنهضات الإسلامية الحديثة. وقد نقل عنه الأستاذ مصطفى السقا أسماء كتبه ومضامينها من مذكرة كتبها الدكتور عزام بنفسه قبل وفاته جاء فيها :

١ - الرحلات الثانية وهى فصول تضمنت وصف ما رأيته فى أسفارى فى جزيرة العرب وبلاد أخرى وأرسل مع الرحلات الثانية الأولى للاستئناس بها. وقد نشرت الرحلات الأولى سنة ١٩٤٧.

٢ - كتاب الشوارد (طبع فى كرجى ١٩٥٣) وهو خطرات سنة كاملة بدأتها فى الحجاز وختمتها فى باكستان خمس وستون وثلاثمائة خاطرة قصدت فيها إلى مقاصد منها دعوة النشء إلى الحياة الكريمة الطاهرة الأبية ورفعهم عن مستوى العيش الذليل.

٣ - كتاب النفحات : خاطرت ثلاث سنوات متتابعات أرجو أن يكون فيها براءة للشبان من الأدواء وعصمة من الشيوعية والإباحية وما إليها من آفات العصر.

٤ - منظومة اللمعات وهى منظومة فيها زهاء ستمائة بيت أهديتها إلى الشاعر محمد إقبال.. أقول إن ما فى هذه (المنظومة) جديد رائع فى اللغة العربية من حيث الموضوع والأسلوب.

٥ - ديوان رسالة المشرق (بيام مشرق)، وهو ديوان للشاعر الفيلسوف الكبير محمد إقبال، جواب لديوان المغرب الذى نظمه الشاعر الألمانى الكبير جوته... وفى الديوان

رباعيات وقصائد فى فنون شتى تعد من أسمى ضروب الشعر فى الأمم كلها، ترجمته نظما وذللت له اللغة والقوافى على غرابة موضوعاته فى اللغة العربية وبعد كثير من معانيه عما ألفه الشعر العربى. . . وأرجو أن يكون ثروة جديدة فى أدبنا وقد ترجم الدكتور عزام هذا الديوان عن الفارسية.

٦ - ديوان ضرب الكليم لإقبال، الديوان ترجمة الدكتور عزام ولكن عن اللغة الأردية وطبع فى القاهرة سنة ١٩٥٢ وهو يمثل فلسفة إقبال الذاتية ومن هذه الكتب : (موقع عكاظ)، كتاب (الأوابد) كتاب (محمد إقبال سيرته وفلسفة شعره) (والمثانى) وهو رباعية فلسفية أخلاقية، وقد ذكر الدكتور يحيى الخشاب من مؤلفات الدكتور عزام مدخل الشاهنامة العربية للبندارى ١٩٣٢. التصوف وفريد الدين العطار ١٩٤٥ مهد العرب ١٩٥٥ - نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية ١٩٣٨ - المعتمد بن عباد ظهر بعد وفاته ١٩٥٩.

وترجم الدكتور عزام : فصولا من المثنوى عن الفارسية - جهار مقالة عروض عن الفارسية، اتحاد المسلمين لجلال نورى عن التركية مع الأستاذ حمزة طاهر.

كما ترجم الدكتور عزام مقتطفات كثيرة من الشعر الفارسى والشعر التركى نشرت فى مجلة الرسالة. وللدكتور عزام بحوث نشرها فى مجلة المجمع منها : صلات اللغة العربية باللغات الإسلامية، أسماء العشب والشجر فى بوادى العرب - الألفاظ الفارسية والتركية فى اللغة العامية المصرية - الألفاظ العربية فى اللغات الإسلامية غير العربية.

ومن أبحاثه فى مجلة كلية الآداب (أوزان الشعر الفارسى)، (نظرات فى سنن المسلمين فى كتابة التاريخ). ونقل الدكتور عزام «الشاهنامة» إلى العربية.

وهكذا كانت سيرته نفحات، «نفحاته» فى الأدب، آيات. . . . وأدبه فى تراثنا المصرى والعربى كتبا ودواوين ودراسات.

كان الدكتور عبدالوهاب عزام ترتيلة فى تدينه، وكان عزام ترنيمة فى أدبه شعره ونثره، وكان عزام صفوا أعذب ما يكون الصفو فى إنسان. . وكان عزام صفوا أعمق ما يكون الاستماع إلى معزوفة الكون الكبرى فما يلبث أن يتهدى مسترسلا، ويترسل متهديا هاديا، صافيا نقيا.

أستاذى العميد : سطور قليلة من كثير كتبته عنك. . . هى تحية لك وذكر واصل موصول يشترك معى فيه خلق كثير وتاريخ طويل.



عبدالوهاب عزام

من الموسوعة العربية الميسرة

١٨٩٣ - ١٩٥٩

بند ٣ :

أديب وباحث عربى. ولد بالشوبك الغربى (الجيزة) أتم دراسته بالأزهر ومدرسة القضاء الشرعى - حصل منها على درجة العالمية ١٩٢٠ وداوم دراسته بالجامعة المصرية الأهلية - حصل على درجة الماجستير من مدرسة اللغات الشرقية بلندن - عين مدرسا بكلية الآداب (جامعة القاهرة) - ونال الدكتوراه فى الآداب. تولى عمادة كلية الآداب (١٩٤٥ - ١٩٤٨) - عين سفيراً لمصر لدى المملكة العربية السعودية، فباكستان. تولى إدارة جامعة الرياض - له آثار علمية كثيرة. ونشر «الشاهنامة» باللغة العربية عام ١٩٢٣.

عن الأعلام للزركلى - مجلد ٤ ص ١٨٦

عبدالوهاب عزام

(١٣١٢ - ١٣٧٨هـ - ١٨٩٤ - ١٩٥٩م)

بند ٤ :

عبدالوهاب بن محمد بن حسن بن سالم عزام : عالم بالأدب، مصرى. ولد فى الشوبك (من قرى الجيزة بمصر) ودخل الأزهر، وتخرج بمدرسة القضاء الشرعى (بالقاهرة) ودرس بها، واتجه إلى الجامعة المصرية القديمة فأحرز شهادة فى الآداب والفلسفة سنة ١٩٢٣. واختير مستشاراً للشئون الدينية فى السفارة المصرية بلندن فالتحق بقسم اللغات الشرقية بجامعة لندن، ونال منها درجة الدكتوراه فى الآداب الفارسية. وعاد إلى القاهرة فمنح شهادة الدكتوراه فى الأدب من جامعتها. ودرس الفارسية بكلية الآداب بالجامعة المصرية.

ثم كان عميداً لتلك الكلية إلى أن عين وزيراً مفوضاً لمصر فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٨ ونقل إلى الباكستان، وأعيد إلى السعودية سفيراً سنة ١٩٥٤ - ولم يلبث أن أحيل إلى المعاش فكلفته السعودية بإنشاء جامعة الملك بالرياض فأنشأها. وتوفى بالسكتة القلبية (فجأة) بمنزله بالرياض.



معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة - مجلد ١٤ ص ٤٠٣

عبدالوهاب عزام

(١٣١٢ - ١٣٧٩هـ - ١٨٩٤ - ١٩٥٩م)

أديب عارف بالفرنسية والإنكليزية والفارسية والأردية والتركية، ولد فى شوبك الغربى بمصر من أسرة ليبية الأصل وتخرج بمدرسة القضاء الشرعى ودرّس لها وحصل على إجازة فى الآداب من الجامعة المصرية، وعين بالسفارة المصرية بلندن. والتحق بجامعة لندن ودرس اللغة الفارسية ونال شهادتها بدرجة أستاذ فى الآداب ثم عين مدرسا بجامعة فؤاد الأول فدرس الأدب العربى واللغة الفارسية والتركية، ونال شهادة الدكتوراه برسالة عن الشاهنامة. ولما أنشئ قسم اللغات الشرقية فى جامعة فؤاد الأول اختير لرئاسته، فعميداً لكلية الآداب بالقاهرة، فمديرا بالنيابة لجامعة فؤاد، وانتخب عضوا بالمجمع اللغوى المصرى، والمجامع العلمية بسوريا والعراق وإيران. وانتقل إلى السلك السياسى الخارجى فعين سفيرا لمصر بالمملكة العربية السعودية، فسفير ا لها بالباكستان فسفيرا لها بالمملكة العربية (السعودية) فمديرا لجامعة الملك سعود. وزار كثيرا من بلاد الغرب والشرق كسويسرا وفرنسا وبلجيكا وتركيا وإيران وأكثر الأقطار العربية. وتوفى بالسكتة القلبية بمنزله بالرياض ونقل جثمانه إلى القاهرة ودفن بها[1]. من آثاره الكثيرة[2] ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام - رحلات عبدالوهاب عزام، الشوارد أو خطرات عام، مذكرات فى تاريخ الأمة العربية - والأوابد.

(١) بلال يؤذن

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٥ :

بمناسبة العام الهجرى الجديد (١٣٥٤) (أى منذ أربعة وستين عاما هجريا) (نحن الآن فى عام ١٤١٨ هـ) - أصدرت الرسالة عددا[3] ممتازا (مؤرخ ١٢ محرم ١٣٥٤ (١٥ / ٤/ ١٩٣٥) وحشدت للعدد عددا كبيرا من الكتاب، ممن اعتادوا الكتابة فيها، وممن لم يعتادوا ومنهم الأستاذ على عبدالرزاق. . .

---

(١) بمسجده بحلوان.

(٢) فى مجلة المجمع العلمى العربى - له زهاء عشرين كتابا فى التاريخ والآداب وبعضها مترجم. وفى آخر ساعة : له ٣٤ مؤلفا.

(٣) ص ٦٠٤، ٦٠٥ من العدد رقم ٩٣.



قال الدكتور عزام :

كاد الليل ينسلخ عن النهار ، وبشرت بالصبح أنفاس الأسحار. والدجى مهو، وسنان، سيفزعه عما قليل ذنب السرحان[1] والناس هاجدون، وكأنهم أيقاظ ينتظرون صلاة الصبح وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد، تتحين دعاء المؤذن، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصد قطبها وتتجه إلى إمامها. والإمام هاجد يرعاه ربه، تنام عيناه، ولاينام قلبه وملء الأرض والسماء السكينة والسلام.

وسرى فى أحشاء الليل سار كطيف الخيال، اتخذ فى الليل جلبابا، وطوى من الصبح قلبا وجابا. «آدم شديد الأدمة، نحيف طوال أجنا، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شمط كثير»[2] تحمل جمنه الشمطاء تباشير الصباح الوضاء.

ويرتقى جدار المجلس، فيجلس مقلبا وجهه فى السماء، ثم ينتفض قائماً، فيضع سبابتيه فى أذنيه فيبعث فى حواشى الظلماء، صوتا يجلجل فى الأرجاء - الله أكبر الله أكبر - الله أكبر الله أكبر ! أترى فلول الظلام مذءونة، تلوذ بالباطل المنهزم، أم ترى الباطل مذعوراً يلتف فى تلك الظلم ؟ ذلك النور المنبثق من الأفق بسمة الفجر الصادق لهذا الصوت الإلهى، بل ذلك النور الوضاء، استجابة، النهار لهذا النداء. فما الفجر إلا صوت نورانى يتلألأ بنغمات ذلك النور الصوتى ؛ ليت شعرى أيهما الصباح، وأيهما أذان بلال بن رباح ؟ ويمضى بلال يصدع قلب الظلام بشهادتى الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم يحيحل بالصلاة والفلاح، ثم يعيد التكبير فى تمديد، فيختم بكلمة التوحيد لا إله إلا الله !

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ إلى القلوب، فلم تتجاف عن مضاجعها الجنوب، فيثوب بالقوم: الصلاة خير من النوم[3].

يتهلل وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لصوت الحق مدويا فى أعقاب الباطل. ويبسم لصوت الحق عاليا طليقا يملأ ما بين الأرض والسماء، والمشرق والمغرب، ويبسم حين يسمع دعوة الحق فى قلب الجزيرة العربية على لسان عبد حبشى. وهل فى شرعة الإسلام عبد وحر ؟ وهل فى سنة محمد عربى وحبشى؟ وتنبعث فى كل أذن من هذا

---

(١) ذنب السرحان الفجر الكاذب وهو الضوء الذى يظهر فى الأفق مستطيلا قبل الفجر، وكان بلال يسبق الفجر بأذانه.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) زاد بلال هذه الكلمة بعد الأذان، فأقره الرسول عليها.



الصوت نغـمة، وفى كل قلب مـن هذا النور إشراق فيـهب الأصحاب من مـراقدهم، تقشعر جـلودهم، وتطمئن قلوبهم، فتسـتيقظ كل دار بأهبة الصلاة مـن الرجال والنساء والولدان والولائد.

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبوية قائلا : «حى على الصلاة، حى على الفلاح، الصلاة يا رسول الله»[١].

ويسفر النهار، وتنـثال الجموع إلى المسجد، فانظر من ترى؟ يخـرج نفر إلى المسجد من خوخات دورهم. فهذا الآدم الربعة عظيم العينين : ذو البطن سيف الله الغالب على بن أبى طالب، يخـرج من حجرة فاطمـة، وهذا الآدم الجسيم الطويل / الأصـلع عمر الفاروق، وهذا الأسمـر الرقيق البشرة ضخم المنكـبين، كثير شعر الرأس عظـيم اللحية عثمان ذو النورين. والصديق كان فى السنح هذه[٢] الليلة، فيقدم مسرعاً، فتراه أبيض نحيفاً، معروق الوجه، غائر العينين، خفيف العارضين أجنأ[٣].

ويقبل مـن عائلة بنى زهرة بجـانب المسجد ثلاثة : أحـدهم قصير دحـداح ذو هامة عظيـمة، شـثن الأصابع، كـثيـر الشعر، يـخضب بالـسواد، هو سـعد بن مـالك بن أبى وقاص. والثانى آدم نحيف قصير له شعـر يبلغ ترقوته، يلبس ثوبا ناصع البياض، تضوع منه ريح الطيب، يمشى فى وقار وسمت هو عـبدالله بن مسعود. والثالث ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود. ويقبل آخران : فهذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد، وهذا القـصير الأبلج الأدعج عمـرو بن العاص، فى أثرهما رجل جـميل عظيم الهامة مكتمل، يخطر فى مشيته هو مـعاوية بن أبى سفيان، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خـفيف اللحية، أجنأ، أثرم الـثنيتين هو أبو عبيدة بـن الجراح ويقبل من ناحية الحـرّة الشرقية رجلان : سـعد بن أبى معاذ سـيد الأوس، وسعد بن عبـادة سيد الخزرج، ويأتى رجل طويل نحيف، كثير الشعـر، عليه سيما الحزن هو سلمان الفارسى ووراءه رجل ربعة أحمر، شديد الحمرة، كثيـر شعر الرأس، يخضب بالحناء هو صهيب الرومى وانظر بـين الجمع طلحة والزبيـر وأبا موسى الأشعرى، وأبـا أيوب الأنصارى. ويأتى بنو الصحابة، فـهذا الغلام الطويل الأحمر عبدالله بن عـمر، وهذ الغلام الطويل الأبيض المشرب بـالصفرة، الجسيـم الوسيم، الصبيـح الوجه عبدالله بـن عباس، وهذا الصبى الذى يشبه أبا بكر عبدالله بن الزبير.

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) السنح محلة فى المدينة على ميل من المسجد كان لأبى بكر دار بها.

(٣) حلية الخلفاء الراشدين من الطبرى، وبقية الصحابة من : الإصابة، وطبقات ابن سعد.

ويخـرج رسـول الله، صلوات الله عليـه فـيـقـيم بلال الصـلاة : الله أكـبـر الله أكبـر . . . . . إلخ. فيسـوى الرسول الصفوف، ويسـد الفرج فيـها، ويكبر فـيكبرون ويذهب هذا التكبير نغمـة منسقة بين ضوضاء العالم وجلبتـه، ودعوة للحق بين أكاذيب وأباطيله، يذهب التكبيـر فى الأرجاء، طمأنينة لقلوب، ورعدة لقـلوب، ورجاء لقوم، وخوفـا لآخرين يبـشر الضـعفـاء والمظلومين بملكوت الله فى الأرض، وينذر الجـبارين والظالمين بالقصاص العادل.

إنما مزق شمل الظالمين هذه الصفوف لا صفـوف القتال، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال.

ويقرأ الرسـول فى الركعة الأولى آيات من سـورة النور منها: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾ [النور]. ويقرأ فى الركـعة الثانية آيات مـن سورة الحج، منها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج].

هذه جمـاعة يمحصهـا الله ليورثها أرضه، ويعـلمها لتقـوم بين الناس بعدله. وهذا الصف من العباد يجـمع خلفاء الأرض وأمراءها وولاتها وقـضاتها، ومعلميـها وقوادها وجندها. وتلك الشرذمة من الزهاد هم ورثة العروش والتيـجان عما قليل، الذين يقسم الله رزقه بأيديهم، ويصرف حكمه فى الأرض بألسنتهم. جمـاعة تضمهم جدر المسجد اليوم، ولا يسعهن العالم غداً. جماعة فى أرض فقيرة بين لابتين[١]

سينتـشرون بين المشرقين والمغـربين، وستشـرف الأرض بحملاتهم، وتقـر بعدلهم، وتضىء بإيمانهم. قضيت الصلاة وانتشر المصلون.

(١) اللابة ـ الحرَّة. والمدينة بين حرتين، شرقية وغربية.

لا إله إلا الله وحده صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده. قد فتحت بهذه الجماعة الأقطار، وعمرت الأمصار. هذا عمـر فى الشام قد أزال عنها سلطان الروم، ثم جاءها ليبـرم العهود، ويتفـقد الرعية. وهذا بلال فـى جيش المجاهدين غازيا، ينظر عـمر إلى بلال يود أن يسمع أذانه، ويهاب أن يستمع لـمؤذن رسول الله، ويقول الناس لعمر : لو أمرت بلالا أن يؤذّن، ويقترح عمـر على بلال الأذان، فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين، فيدوِّى فى الأرجاء : الله أكبر الله أكبر. لقد كان أذان الشام تصديق أذان المدينة. أجل أجل، لقد صدق الله وعده !!

ولكن انظر إلى عمر، ألا تراه ينشج ؟ ألا ترى دموعه تبل لحيته ؟ ألا ترى القوم فى بكاء ونحـيب ؟ مَا دَهَاهم ؟ مـا أبكاهم ؟ لقد نصـرهم الله، ومكن لهم فى الأرض، وأغناهم وأعـزهم. فمـا دهاهم وما أبكاهم ؟ يبكون إذ رأوا المؤذن، ولم يـروا الإمام، يبكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله !!

ماذا أقول، أقولها مرات ومرات، ودائما، لقد نقلنا الدكتورعبدالوهاب عزام ، بقوة إيمانه، وإخلاصه، وصدق لهجته، ونقاء سـريرته، وجمال تصويره، إلى حضرة رسول الله وصحب رسول الله، ومسجد رسول الله كل هذا فى عهد رسول الله !!

لقد تابع الدكتور عزام الأحداث، فأجسن المتابعة - علينا أن نستحضر ما جاء فى هذا المثال دائمـاً، وليت شعرى مـتى نعود إلى قريب مما كانـوا ؟!. إننا نعيش على الأمل، على الرجـاء، على أن يعـود للمسلمـين فى أرجاء الأرض عـزهم ومـجدهم وقـوتهم ومكانتهم، ونحن موقنون أن هذا لن يكون إلا بالتمسك بكتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة السلف الصالح!!

ورد الربيع(١)

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٦ :

دار الفلك دورته، وعاد سـيرته، فـسرت فى أعصـاب الأرض هزة الحياة وتفـجرت عروقها بالمياه، وسالت قمم الجبال جداول وأنهاراً، واشتعلت الأرض أزهاراً وأشجاراً.

تبرجـت بعـد حـياء وخفر   تثنـى علـى الله بآلاء الـمطـر

صرحت الأرض بمكنونها، وأبانت الحياة عن ضميرها. فنبتت معانى الحياة والجمال، فى ألفاظ من الأوراق والنّوار.

(١) افتتاحية العدد ٩٠ من الرسالة - مؤرخ ٢٥ مارس سنة ١٩٣٥.



باح الربيع بأسرار البساتين وعطَّرَ النفسَ بأنفاس الرياحين

ونفخت أنفاس الربيع الحرّى الحياة فى كل ذرة، فأخرجت قواها أعشابا وأزهاراً، فرقتها ألوان، وألفتها معان

لم يبق للأرض من سر تكاتمه إلا وقد أظهرته بعد إخفاء

أبدت طرائف شتى من زواهرها حمراً وصفراً وكل نبت غبراء

أى مسرح للفكر، وأى مجال للخيال، وأى مَرَادٍ للطرف !

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هى منظر

وفى أرجوانى من النور أحمر يشاب بإفرند من الرومى أخضر

إذا ما الندى وافاه صبحا تمايلت أعاليه فى در نثير وجوهر

إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها عليها صقال الأقحوان المنور

والطير مغردات كأن أصواتها ذوب هذه الألوان، وكأن ألوان الروض جَمدُ هذه الألحان.

يهتز الطائر الغرِّيد على الغصن الأملود فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال، كأنما الطير إبر الحاكيات، تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات. والعصفور مرح تتداوله الأغصان، وتتهاداه الأفنان، تارةً فى انتزاء بين الأرض والسماء، وتارة تغيبه الحديقة، كأنه فى هذا الجمال فكرة دقيقة. صغير تملأ الهوا نغماته، ضئيل تشغل الجو خفقاته. والفراش قلق بين النوار، هائم بين الأزهار، لا يقر له قرار، كأن كل فراشة زهرة طائرة، أو قبلة بين الأزهار حائرة، أو نغمة فى جمال الروض سائرة.

والشعراء ينافسون الطير على الأيك طربا وتغريدا، وفى المرج تسبيحاً وتحميدا. تنبجس فى جوانحهم ينابيع البيان، وتتفتح سرائرهم عن أزهار الشعر. ففى كل قلب ربيع، ومن كل قصيدة روض، وفى كل معنى وردة، وعلى كل قافية نغمة. هكذا تفيض الحياة على الجماد والنبات والحيوان، وينتظم الجمال الخليقة والإنسان، كأنما العالم كله فكرة واحدة، أو قصيدة خالدة ! ذلكم الربيع الذى فتن الناس فافتنوا فى وصفه للإبانه عن محاسنه، والإشادة بذكره والاحتفال بمقدمه. فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيداً ومجدته بشتى الوسائل تمجيداً. وأولع به الشعراء فى كل قبيل، ولم يخل من المفتونين به جيل. والناس فى مصر فى ربيع دائم، ومن أرضهم وسمائهم، وزرعهم ونيلهم، فهم لايحسون مقدم الربيع إلا قليلا. ولو أنهم عرفوا، كَلَبَ الشتاء والجماد

الهواء، وقشعريرة الأرض، وقسوة السماء، ورأوا كيف تموت الطبيعة فى زمن، وتلتف من الثلج فى كفن.

وقد غاب فى الثلج الربيع وحسنه كما اكتن فى بيض فراخ الطواويس

ثم شهدوا كيف يأتى الربيع فيكهرب كل ذرة، ويفيض كل عين ثرة، يخلق كل نضرة لاحتفوا بالربيع احتفاء غيرهم وعرفوا فيه النشور بعد الموت ! على أن للربيع فى مصر دقائق، يسرّ لها الإنسان، وشيات أبصرها الشعراء، فى كل زمان.

جاء الربيع فليت فى كل قلب من صفائه قطرة، وفى كل نفس من جماله زهرة، وفى كل خلق من عبيره نفحة، لتعمر النفوس بمعانى الحياة وتستنير بأشعة الجمال، ويسكن الناس إلى السعادة حينا وينسون أساليب العداوة والبغضاء زمنا. وليت الناس جروا مع الحياة طَلَقَهَا، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها، فأنبت الربيع فى كل قسوة رحمة، وفى كل يأس أملاً، وفى كل حزن سروراً، وفى كل ظلام نوراً. ليتهم اجتمعوا على ورد الحياة متصافين، كما ترف على جداول الربيع الرياحين. «ولكن الإنسان قد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالَماً بذاته، فكان نشوزاً فى نغم الكون، ونفوراً فى نظام العالم ! فلو أنه اقتصد فى تصنعه، وائتلف كما كان بالطبيعة، لاتحد الآن مع الربيع، فشعر بتدفق الحياة فى جسمه، وإشراق الصفاء فى نفسه، وانبثاق الحب فى قلبه، وأحس أنه هو فى وقت واحد زهرة تفوح، وخضرة تروق، وطائر يشدو، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة»[1].

« وبعد، فلكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة رسالة بليغة تؤديها إلى النفوس الشاعرة، والفطر السليمة. فليت شعرى أية رسالة يحملها الربيع إلى ذوى القلوب الواعية منا ؟

قابل أيها القارئ بين الشتاء والربيع، بين رقدة الطبيعة ونهضتها، وإن شئت فبين موتها ونشورها، فستجد هذه الدورة على قصر أمرها قد تضمنت حكمة الحياة كلها. وإلى هذه الحقيقة يشير الربيع فى رسالته إلى الناس» ![2].

أقول : فى ذات اليوم الذى قرأت فيه ونقلت رائعة المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام، بعنوان «ورد الربيع» لتكون ضمن كتابى عنه، نشرت جريدة الأهرام فى ملحقها المؤرخ ٢٣ - ٥ - ١٩٩٧ م (ص٨) (وهى صفحة «أدب») التى يشرف عليها د. عبدالعزيز شرف - قصيدة بعنوان «اسألونى عن الربيع» (للشاعر المجيد محمد التهامى) (والملحق هو ملحق الجمعة) قال :

---

(١) الزيات.

(٢) العبادى.

خطرات تثور في وجداني ... وحياة تَمَرَّدَتْ في كياني
بعثر السر في الوجود فغنى ... شاعر الكون مستطير الجنان
أقصارى الربيع في البستان ... وقصارى الجمال في اللمعان ؟
وقصارى الحياة في كل هذا ... وما في الوجود معنىً ثاني ؟
خدَعتَنَا رُؤى الحياة كثيرا ... إن حُسْنَ الجمال في الألوان
ذاك شركٌ على الجمال وكفر ... أيُجَازى الجمال بالكفران ؟
إن ظننا الجمال لونا فإنا ... قد أعدنا عبادة الأوثان
أيُّهَذَا الجمالُ لستَ بريقا ... يتبدى على ثغور الحسان
أيّهذا الجمال لست خطوطا ... تتلوى في رقة وافتتنان
أيهذا الجمال أنت وجود ... عبقرى الرؤى خفى المعان
أنت نور على جبين نبى ... راح يهدى الأجيال بالأديان
وينادى السماء للأرض حتى ... يتلاقى القديس بالشيطان
يمزج الروح بالتراب فتبدو ... في جلاء حقيقة الإنسان
أنت سر مُسْتَبْهَمٌ أبدي ... يتبدى في رعشة الإيمان
صانه الله في وجودٍ سحيقٍ ... ثم أبدى الوجود للفنان
فاسألوني عن الربيع فإني ... قد رأيت الربيع رأى العَيان
ولمست الربيع حقًا ورَبِّى ... قد لمست الربيع لمس البَنَانِ
وطويت الربيع عمرا طروبا ... وتمادى بدوره فطواني
إن يقال الدهور فهي زماني ... أو يقال السحاب فهو مكاني
أزهور على الرياض حسان ... ونسيم معطر الأردان ؟
لا هو الحب حاكم في دمانا ... لايطيق الخضوع للأزمان
والتقينا فكان ذاك ربيعاً ... رغم أنف الفصول والأكوان
إن رأيتم غير هذا ربيعاً ... فاتركوني مع الربيع وشاني

التجديد فى الأدب

«حول مقال الأستاذ أحمد أمين»

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٧ :

قال قرأت فى «الرسالة»[١] مقالا للأستاذ الفاضل أحمد أمين عنوانه «التجديد فى الأدب» فرأيت آراء بينة استحسنتها، وألفيت رأيا آخر لم أقبله . . وقد سارعت إلى الكتابة وأنا أشعر أن الذى يحبب إلى مجادلة الأستاذ حبى وإعظامى وتلمس محادثته كلما وجدت إليها سبيلا فى المجالس أو فى صفحات المجلات . . . . أعجبنى قول الأستاذ عن المجددين «فإذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد، وما ضروبه وما مناحيه وما يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربى ؟ جمجموا فى القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ولا واضحة الدلالة». وأنا أزيد على هذا أن التغيير ليس فضيلة ينبغى الحرص عليها، والتنافس فيها، والتفاخر بها، وإنما يستحسن التغيير أو التجديد حين تدعو الحاجة إليه. والكاتب النابغ إذا أحس الحاجة إلى التجديد بدَّل وغير وابتدع فى غير صخب ولا سخرية ولا مباهاة، ثم عرض على الناس نتاج رأيه، وثمرة ابتكاره فيرضونها أو يجادلون فى أمر وضحت معالمه واستبانت حُدُوده. الكاتب المجدد حقا هو الذى يمضى فى سبيله قدما مبينا عن آرائه ومشاعره على الأسلوب الذى يفى بهذا البيان. والخطة التى يؤثرها ويفضلها. لا يتكلف الإغراب والشذوذ ليقال إنه مجدد. والشاعر المطبوع هو الذى يسير على فطرته مخلصا لنفسه مبينا عنها لايبالى أن يكون قد لزم الجادة المطروقة أو حاد عنها. ثم يعرض على الناس شعره فيما اختار من موضوع وأسلوب فى الوزن والقافية. فإذا ثار الناس عليه جادل عن نفسه وأوضح حجته. والأدب فيما أحسب يؤثر فيه الاستطراف، فقد يغيِّر الشاعر أسلوبا طال عليه العهد وملَّه الناس. وقد يرجع الناس إلى الأسلوب المهجور بعد حين فيستطرفونه. فالتغيير فى الأدب واسع المجال، ولكن ينبغى أن يُحس الحاجة إليه، وتستبين سبله.

الأدب العربى تقلب فى أطوار مختلفة، وابتدعت فيه بدع كثيرة، ولكن لم يسمع أن المبدعين مهدوا لابتداعهم بمعركة كلامية فى القديم والجديد. نظم ابن المعتز موشحة، وافتن المغاربة فى الموشحات افتنانا خرج بها عن الأوزان والقوافى المألوفة. ومضى

(١) الرسالة - العدد الثامن فى أول مايو ١٩٣٣ ص ٦ وما بعدها.

الناس على هذا، ولم يمهد لهـذا الابتداع بثرثرة فى التجديد. ولم يـكن للمجددين من حجة إلا أن ألقوا إلى الناس موشحاتهم تحتج لنفسها.

وكـذلك نظمت قصص كليلة ودمـنة وغيـرها فى القافـية المزدوجـة، ولم يكن هذا معروفا من قبل. وكتب بديع الزمان الهمـذاني مقاماته، وهى طريقة جديدة. وما عرفنا أن تقدم هذا وذاك جدال أجوف ذو دوى كالذى نسمعه فى هذا العهد، والمتنبى ذهب فى الشعر المذهب الذى ارتضاه، ثم قال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسـهر القـوم جـراها ويختصم

المعرى ملأ شعره بالفلسفة وأمور لم يألفها الشعر من قبل، وكتب رسالة الغفران على غير مـثال، فما دعا إلى طريقـته ولاجادل فيـها أحداً. وما أحسب لامـرتين - الشاعر الفرنسى - حين نشر «الـتأملات» قد أجهد نفـسه فى الدفاع عن نفســه، والهجوم على مخالفـيه، هذه هى الطريقة المثلى التى تجنبنا المعارك الضالة، والكلام المتـهاتر، والحجج المبهمة، حين يدور الجدل على أمر مشهود بيِّن يمد الكلام ويقصر النزاع. ثم يكون المثال الجديد حجة لنفسه، تسد السبل على المعاندين والمغالطين. هذه هى الطريقة المثلى. وأما الجمجمة بغير طحن، أو الجمجمة فى طحن الكلام وإثارة الخصام فجناية على القارئين، ومضلة للباحثين. إنما يكثر تحدث الإنسان عن صـحته حين يعتل، وأما الصحيح القوى فهو عامل جاهد ماض فى سـبيله، لا يقيِّس كل خطوة بنصح الأطباء، ولايزن كل أكلة بما أعطى من الدواء. وكذلك أعجز الناس عن الابتكار والإتقان أكثرهم ضوضاء وصخبا وسخرية وافتراء وادعاء. أعود إلى مقال الأستاذ أحمد أمين، بعد أن ند القلم فى الكلام عن التجديد والمجددين. وأترك للأستاذ المقدمة التى ذكر فيها «العناصر الثابتة» فى الأدب و «العناصر المتغيرة»، وأتصدى لكلامه فى تجديد الألفاظ. هو يرى أن التجديد فيها على ضربين : الأول : اختـيار الألفاظ التى تناسب العصر، ويرضاها ذوق الجـيل الحاضر، وضرب الأسـتاذ مثـلا كلمة هبيخ وبعـاق وكنهور. وأنا لا أريد أن أناقش الأسـتاذ فى الأمثلة فـقد قرأنا فى كـتبنا القديمة أن «المناقـشة فى المثال ليـست من دأب المحصلين». ولكنى أخالفـه فيـما سمـاه ذوق العصر، وأعـرض نفسى لحكمـه حين يقول : «وهذا بديهى لا يحتاج إلى إطالة، وكل من جهل هذه الحقـيقة لا يفلح أن يكون أديباً» أخالفه فى أن يجعل الذوق حكما، ولاسيما ذوق الجيل الحاضر على قصوره فى اللغة والأدب. وأخشى أن يقتصـر هذا الذوق على ما ألف من الكلمات، فكل كلمة غيـر مألوفة نابية عن الذوق ثقيلة على السـمع، فإذا أراد كاتب أن يدل على الهواء بـين السماء والأرض فقـال : «السكاك» أو «السمهى» ضحـك منه أهل الذوق، وإذا أراد أن يدل على الهواء

بين جبلين فقال : «النفنف» سخروا منه، وإذا قال : صفقت الباب وأجفته بمعنى أتممت إغلاقه أو تركت فيه فرجة » «رجلته» اشمأز الذين لم يسمعوا بهذه الكلمات، على أن البيان فى حاجة إليها. إن الذوق يسقم ويصح. والأديب النابغة يستملى فطرته، فيلائم الذوق العام، أو يسيّره حيث يشاء، ولايقف نفسه أسيرا تتصرف فيه الأذواق. إن أمر الألفاظ أجل وأخطر من أن يحكم فيه الذوق وحده. إن الحاجة خلاّقة الألفاظ ومبقيتها. والحاجة لا تبالى بالأذواق. فعلى كل أمة وكل جيل أن يأخذ من لغته الألفاظ التى يحتاج إليها، ويخلق الألفاظ التى لايجدها، غير مبال بالغرابة أو الثقل الذى يبدو أول الأمر، فإن الاستعمال جدير باستئناس الكلمة والملاءمة بينها وبين أذواق الناس. وكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها الناس فألفوها ولم يجادلوا فيها، فبعض كتابنا يقول البروباجندا والديمقراطية والارستقراطية والميتافيزيقية على بعدها عن طبيعة لغتنا وأوزانها. أنا أعرف أن القدماء من أدبائنا غلوا فى الظرف وأخذوا على المتنبى وغيره كلمات سموها نابية أو حوشية. وقد تجلى هذا الظرف فى كتاب «المثل السائر» وغيره، ولكن هذه الرقة لايقام لها وزن عند الحاجة الملحة. بعض ألفاظ اللغة محاكاة الأصوات، وبعضها فيما أظن تخيل المعانى فى الأصوات. حاكت اللغة صوت الريح والرعد والطير وأنواع الحيوان ونحوها، ومثلت المعانى الأخرى فى ألفاظ تلائمها. فليس لنا أن ننفر من الألفاظ الشديدة ونتجنبها، إن أردنا أن ندل على المعانى الشديدة فالعقنقل والحقف والكثيب والجلمود وأشباهها ملائمة لمعانيها، ولابد من استعمالها لندل على هذه المعانى. ولكن الذوق الحاضر يؤثر الألفاظ اللينة الخفيفة الجرس، المألوفة ويترك مثل هذه الألفاظ على شدة الحاجة إليها.

ينبغى أن تؤثر الألفاظ القوية الشديدة لمعانيها، والألفاظ الخفيفة لمعانيها دون إنصات لحكم الأذواق، بل ينبغى أن يعمل الأديب لإحياء الألفاظ الطبيعية الشديدة كلما نزعت بالأمة رخاوة الحضارة إلى نسيانها، وينبغى أن تعالج اللغات بالألفاظ القوية التى تبدو ثقيلة غير مألوفة، كما يعالج ترف الحضارة بضروب السياحات والرياضات الشاقة. والاستعمال جدير بتذليل كل صعب، واستئناس كل وحشى. يجب أن يحكم موضوع الكلام لا أذواق المترفين. فالشاعر فى القاهرة أو باريس إذا وصف الجبال أو الحروب، وهى بعيدة من إلفه ساغ له أن يأتى بالألفاظ التى تثير الرهبة والهيبة.

إن اللغات العامية فى البلاد العربية نتيجة الأذواق المختلفة. ولغة الأدب الموحدة فى هذه البلاد نتيجة مقاومة هذه الأذواق بالتعليم، ورفعها إلى مستوى أرفع وأقوم. أضرب للأستاذ الفاضل مثلا قول مسلم بن الوليد فى وصف الصحراء :

ومجهل كاطراد السيف محتجز عن الأدلاء مسجور الصياخيد

تمشى الرياح به حسرى مولهة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

ما رأيه فى « مسجور الصياخيد » و «أكتاف الجلاميد» ؟ أهى ملائمةٌ لذوق الجيل الحاضر ؟

وهل يرى غيرها أجدر بمكانها فى هذا الشعر إنها لاريب حسنة فى موقعها، بالغة ما أريد بها من وصف الصحراء حين تشتعل فيها الهواجر، فإن كان علم الجيل الحاضر باللغة ينفر به عن أمثال هذه الكلمة، فليس على الكاتب أن يتحرز عنها، ولكن على الناس أن يألفوها. ثم ماذا يرى الأستاذ فى قول ابن هانى الأندلسى :

فحياضهم من كل مُهْجَة خالع وخيامهم من كل لبدة قَسْوَرِ

من أكل أهرت كالح ذى لبدة أو كل أبيض واضح ذى مغفر

طردو الأوابد فى الفدافد طردهم للأعوجية فى مجال العثير

ماذا يرى إن كان جهل جيلنا الحاضر باللغة ينفر بذوقه من قسور وأهرت والأوابد والفدافد والأعوجية. وهل ينبغى أن يهجر قول الشريف الرضى :

من القوم حلوا بالربى وأمدهم قديم المساعى والعلاء القدامس

تحلهم دار العدو شفارهم وترعيهم الأرض القنى المداعس

بهاليل أزوال بكل قبيلة ملاذع من نيرانهم ومقابس

أو ينبغى أن يهجر ذوق الجيل الحاضر إن نفر من مثل هذ الشعر ؟ أرى أن حاجة الكتاب إلى الإبانة والإعراب والإبداع تسوغ لهم أن يتخيروا من اللغة ما يشاءون، ويطبعوا ذوق الأمة كما يبتغون. وأرى أن الذوق ربما كان وليد الجهل وفساد الطبع، والاستكانة إلى كل هين يسير، والركون إلى كل سفساف مبتذل.

للذوق الحكم حين يتسع العلم باللغة والأدب، وتعرض ألفاظ عدة لمعنى واحد، فيختار الذوق واحدا منها. وللاختيار أسباب كثيرة : فقد يختار «هبيخ وبعاق وكنهور » وقد يختار غيرها. وإنما الفظاظة والثقل أن يعمد الكاتب إلى كلمات غير مألوفة فيؤثرها على المألوف إغراباً وتعمقا وشذوذاً ومخالفة للذوق دون جدوى.

ثم يقول الأستاذ: «لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار» وأنا أقول بعد الذى قدمت: ما

أشد حاجتنا إلى كثير من هذه الألفاظ المهجورة، فإنها مجدية على من يعرفها ويستعملها، وعسى أن تصير ملائمة لذوق الجيل الحاضر حين يعرفها فيقضى بها حاجته من الإبانة عما يريد.

ربما يقول الأستاذ بعد قراءة هذه الكلمة : إن الذوق فى رأيى هو الذوق الذى تخلفه الحاجة والمعرفة والتمكن من اللغة والأدب وبلوغ الحاجة مما نريد. لا الذوق الذى يكون على العلات فى كل حين. فإن يكن هذا الذى أراده أستاذنا فقد شرحته وبينته وبررت بوعدى حين لقيته فقلت : سأنقد مقالك أو أشرحه.

أقول : إن المعركة الأدبية قد استمرت بين الأديبين العظيمين، والمفكرين العملاقين، عبدالوهاب عزام وأحمد أمين. وللمعارك الأدبية الفكرية آثارها الإيجابية فى تطور العلوم والآداب والفنون. ولما كان الكتاب عن الدكتور عزام فأنعم به فى كل ميدان صال فيه وجال - إنه العظيم الكريم النبيل. وأضيف أنى أكتفى بما تقدم مما نقلته عنه حول «التجديد فى الأدب».

الأعاصير[1] (كتاب)

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٨ :

قال عمى الكريم عبدالرحمن عزام : قد أهدى إلىّ من وراء البحار ديوان اسمه «الأعاصير» فأحسست فى كل حرف منه ناراً، وفى كل بيت إعصاراً، وذكرت قصائد المتنبى الذى يقول فيها :

مدحت قوما وإن عشنا نظمت لهم ... قصائدا من إناث الخيل والحُصُنِ

تحت العجاج قوافيها مضمرة ... إذا تنوشدن لم يدخلن فى أذن

قلت : فأعرنيه لأقرأه. قال : على شرط أن تكتب عنه فى الرسالة. قلت : إن وجدته جديراً بالكتابة. قرأت الديوان كله، فإذا قلب ثائر، ونفس طامحة، ملكت عليها العربية فكرها وإحساسها، فليس بها إلا الفخر بماضى العرب، والأنفة من حاضر العرب، والرجاء فى مستقبل العرب. وإذا الكتاب - كاسمه - أعاصير ثارت فى البرازيل، وانطلقت كقصائد المتنبى :

(١) الرسالة - العدد الثانى والعشرون - المؤرخ ٤ / ١٢ / ١٩٣٣ - ص ٤١ وما بعدهما - باب الكتب. وصاحب الديوان هو الشاعر القروى رشيد سليم الخورى.

إذا سِرْنَ عن مقولى مرة وثبن الجبال وخضن البحارا

حتى وافت بلاد العرب تذكى فى خمـودها ناراً، وتنفث فى كل نفس إعصاراً. تتبع الشاعر أحداث حوران ودمشق وفلسطين فأشاد بذكر أبطالها، ونعى على من خذلوهم، وخص أهل لبنان قومه، بأوفى نصيب من لومـه، وهو فى شعره كله عربى لا يفرق بين دين ودين، وقوم وآخـرين، بل هو على مسيـحيتـه، يعتز بالعـرب المسلمين، ويعجب بمفاخـرهـم، ويعذل المسيـحيين على أن لم يساهمـوا إخوانهم فى الثـورة على الباطل، والاستجابة لدعوة الوطن.

والشعر – جملته – معمـور بالمعانى الجيدة، حال بالأسلوب السهل المتين، ولا أطيل على القـارئ وصفى، ولكن أَدَعُ الشـاعر يعرب عـن آماله وآلامه. وضع عـلى غلاف الديوان سبعة أبيات، منها :

إلـهي رُدَّ مـــــالك مـــن أيـاد	عـلى وطـنى وردّ لـهــــا الأيـادا
خلـعت علـى رباه الحـســن فــذا	وألبـــست القطـين به الحــــدادا
شـــبـــول الأرزبات الحـلم عـــجـزاً	وبعض الـصـبــر مـوت إن تمادى
فكـونوا النـار تحــرق أوقـــذى فى	عـــيـــون البطـل إن كنتم رمـــادا

وأهدى الكتاب إلى شهداء الوطنين فى بيتين

يارفــــاتاً تحت الـرمـــاد دفـــيـناً	مـبـعـــداً عـاطل الرُّمـوس نـسـيـا
لك أهــدي هذا الـكتـــــاب لأنــى	لم أجـد فى البــلاد غـيـرك حـيـا

ويقول فـى قصيـدته (بطل الصحـراء) التى ألقاها فى حـفلة لإعانة أبطال المجـاهدين، الخطاب لسلطان باشا الأطرش :

يا شـــــريـدا عن البـــلاد طـريدا	أنت فى كـل مــعـــبــد من بلادك
كل مـــا فى أقـــلامـنا من مــضــاء	مـستـمـد مـن مـرهفـات حـدادك
كل مـــا فـى صـدورنا من لـهـيب	هــو أضــــــرام وريـة من زنـادك
كل مــــــا فـى هتــــافنـا من دوي	هو ترجـيـع نبـضــة من فــؤادك
كـل مـــــا فـى آثـارنا مـن خلـود	هو تاريـخ سـاعـــة من جــهـــادك
أيهـــا المنـجـد المحـــاويج عــــار	أن نصم الأســـمـــاع عن أمـدادك
لو فــرشنا لـك الجـفـــون مــهــاداً	وجـعلنا الأهـداب حـشـو وسـادك
مـــا جــزيناك سـاعـــة من ليـــال	بت عنـا على حــراب ســـهـــادك
كـل حُــرٍّ فــداك يا فــادى الشـــا	م وأولاده فِـــــــــــدَى أولادك

وفى قصيدته فى وصف هجوم سلطان باشا على الدبابة الفرنسية وقتل من فيها :

وثبت على سنام التنك وثبا ... عجيبا علم النسر الوقوعا
وكهربت البطاح بحد عضب ... بهرت به العدا فَهَوَوا ركوعا
كأن به إلى الإفرنج جوعاً ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
تكفل للثرى بالخصب لَمَّا ... هفا برقا فأمطره نجيعا
وفجر للدماء بهم عيونا ... تجارى من عيونهم الدموعا
فَخَرَّ الجند فوق التنك صرعى ... وخر التنك تحتهم صريعا

ومن قصيدته التى عنوانها (الاستقلال حَقٌّ لاهِبَة) ؛ يصف فيها مجاهدى جولان : -

ولئن نسيت فلست أنسى بينهم ... رجل الرجال وفارس الفرسان
فكأنهم منه مكان قناته ... وكأنه منهم مكان سنان
يرمى بهم قلب الوطيس كأنهم ... حَمم الحِمام قذفن من بركان
يفنى الرجال بأحدب ومقوّم ... صدين فى اللبات يلتقيان
ويكاد يفترس العدوَّ جوادُه ... فكأنه أسد على سرحان

وفى عيد استقلال لبنان :

تروى بدجلة مدمعي وفراته ... يا موطنا لم يبق غير رفاته
خلت المحافل من بلابله فلا ... تقع العيون على سوى حشراته
حسب الحزين عليك أنك مائت ... قد عيدت أحبابه لمماته
شقُّوا له الأعلام من أكفانه ... وتبادلوا الأنخاب من عبراته
أعلام إذلال كأن خفوقها ... فى جَوِّه لطم على وجناته
ملفوحة بتحسرات سراته ... خفاقة بتنهدات هداته

ومن قوله فى لوم قومه

رضينا للتعصب أن نهونا ... فأغمضنا على الضيم العيونا
نقول : المسلمون المسلمونا ... فنرميهم ونحن الخائنونا
نبيع بدرهم مجد البلاد

فـتى حـوران لا لاقـيت ضـرا | لأنت أحق أهـل الشـام فـخـرا
لئـن لم يؤتك الـرحـمن نصـرا | فـحسبك أن غـضـبت ومت حـرا
ولم تـسلس لقـيـد أو قـيـاد

بـربك قـل مـتى لـبنان ثـارا | ليـدرك من علـوج الغـرب ثارا
مـتى نـفـرت إلى السـيف الـنصـارا | لتـغـسـل بالدم المسـفـوك عـارا
ونحـرز مـرة شـرف الجـهـاد

ويقول : بعنوان «صيحة الجهاد»

ولـو لـم تكـونى فـرنجـيَّـة | لكنـت سـعـادى قـبل سـعـاد
ولـكـنـنى عـربـىّ المنـى | عـربى الهـوى عـربى الفـؤاد
لعـمرك (يامـود)[1] لـولا ذووك | لما مـيـز الحب بـين العـباد
ولا أكـرهـوا شـاعـراً أن يـقـ | ـول لهـذى البـلاد وتلك البـلاد
فـهم أوغـروا بالعـداء الصـدور | وهم أضـرمـوا النار تحت الـرمـاد
فـلا تعـذلى شـاعـرا زاهداً | وكـم هـام بـالحـب فـى كـل واد
فـإنـى حـرام عـلى هـواك | وفى وطنى صـيـحـة للجـهـاد

ويقول فى حفلة عيد الفطر التى أقامتها الجمعية الخيرية الإسلامية بالبرازيل :

أكـرم هذا العـيـد تكريم شـاعـر | يتـيـه بآيات النبى المعـظم
ولكنـنى أصـبـو إلى عـيـد أمـة | مـحـررة الأعنـاق من رق أعـجم
إلى عَلَم مـن نسج عـيـسى وأحـمـد | و« آمنة » فى ظله أخت « مـريم »
هبـونى عـيـدا يجـعل الـعـرب أمـة | وسيروا بجثمانى على دين برهم !
فـقـد مـزقـت هذى المذاهب شـملنا | وقـد حطمـتنا بين ناب ومـنسم
سـلام عـلى كـفـر يـوحـد بيـننا | وأهلاً وسـهـلا بعـده بجـهنم !

---

(١) فتاة إنجليزية تحببت إلى الشاعر .

وفى قصيدة الأطرش والدبابة :

اذا حـاولت رفـع الضـيم فـاضـرب ... بسـيف محـمـد واهجـر يسـوعـا

« أحـبـوا بعـضكم بـعـضـاً » وعظنا ... بهـا ذنبـا فـمـا نَـجَّتْ قطيـعـا

وبعد فللشاعر القروى « رشيد سليم الخورى » الثناء والإعجاب من العرب والعربية، والتحية من كل نفس حرة، وقلب بالمعالى خفاق. عبدالوهاب عزام

فى الأدب الشـرقى:

الزامر الأعمى

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٩:

من الأدب التركى

أقول : لكل إنسان لسان، وللدكتور عـزام - ككل إنسان - لسان. ولكثرة ما يعرف الدكتور عزام، من لغات، شرقية، وغربية، فإنى أرى « لسانه » أشبه بمدرسة للألسن ! له منى تقدير وإجلال عظيمين، وسقى الله قبره بشآبيب الرحمة والرضوان.

وأنتقل إليه يقول :

جلست إلى دواوين الشعر التركى أقلب الأجـيال بين يدىّ، أطالع مرة وجه «نجاتى» و«ذاتى»، وانظر أخرى إلى «باقى» و«نفعى»، وثالثة أرى «نديما» و«راغب باشا» و«الشيخ غالب»، ثم أعمـد إلى العصور الأخيـرة، فإذا «أسناسى» و«نامق كمال» و«ضـيا باشا» و«توفيق فـكرت» و«عبدالحق حـامد» وغـير هؤلاء، وبينا أطوى العـصور باللمـحات، وأقلب الأجيال تقليب الصفـحات، بصرت «بالصفحات» ديوان الشاعـر الكبير صديقى الكريم محمد بك عاكف، فسارعت إلى الجزء الأول، فانفتح عن قطعة عنوانها « الزامر الأعمى » فقرأتها، ثم عمدت إلى القلم فترجـمتها نثرا إذ ضاق الوقت عن نظمها، وأنا أقدمها للقراء كما جاءت عفو البديهة فى الاختيار والترجمة.

الزامر الأعمى

كنت أرى هذا السائل الضرير، يتأبط ذراع قائده، وفى يده قصبة عتيقة، ينبعث منها صوت قوى، كأنه النواح فى المأتم، ويمر به الناس فيقفون ويستمعون رحمة به ورثاء له.



ثم يلقى كل منهم إلى كشكوله البائس الذليل، خمس بارات أو عشراً. كان يبعث أناته في قصبته المرضوضة فينبعث إلى أذنه في رنين العشرات والخمسات صدى البُشرى، ورسالة المودة. رنات لا تفنى في أنين الناى الحزين، ولكنه يؤلف نغمة أخرى تسايره. كم أحزننى هذا الصوت، وكم أقَضَّنى ذلك المرأى الأليم. إنه من دهره في ليال متتابعة مد يده، لا يتنفس في آفاقها المظلمة صبح ولا يخرج، ولا يلوح في وجهه لمحة من النور - تحدث عن بسمات الرجاء والأمل - كلا ! إن هذا الوجه الأغبر. هذا الوجه التعس قد أقْتَمَتْ فوقه سحب متراكمة من الشقاء. ماضيه ظلامٌ، وظلامٌ مستقبله، سله عن الحياة فهى حقيقة مظلمة مديدة، تراها نظراته حجابا من الظلمات دون حجاب. إنه لا يبصر المصائب، ولكن كل شىء حوله مصيبة، يمتد به العمر الشقى في هذا العالم البائس، ويتحسس ظلامه الذى ما ينتهى، فلا يظفر بطريق تخرجه إلى صبح الأمل المسفر. وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها مخبأ في عراك الأيام، ولكن يد الريح العابثة تنازعه هذا الستر كلما هبت، فتكشف عن كتفيه، وتَلَقَّى بصدره أمواج المطر والبرد.

* * *

بينما أخرج السوق بصرت بسائل يبعث أنينا حزينا، وهو متكئ على أحجار تغشاها أوحال، وتحته حصير أبلاها مر الأيام ولا يظله إلا طنف «سبيل» هناك. ولكن صوت الناس لا ينطلق الآن بعيدا، وإنما سمعت عن كثب صدى كنسيس المحتضر.

ليت شعرى أكان يزمر لنفسه أم كان يئن. لا أحد يسمع له ! ولا أحد يقف عنده ! ولكن المارة يلقون إليه بنظراتهم ثم تمضى بهم السبل[1]. ومن ذا الذى يصيخ إلى صوت تلفظه المقابر ؟ أيها المسكين ! وطن على الموت نفسك ! واقطع أنات الشكوى. لا لا أصخ ! قد سمع في الكشكول رنينا مديدا ! يا لها من نغمة من الرجاء مطربة. يا لها بشرى استمع لها القلب والأذن معا.

الماء يخترق الطنف، فينسكب المطر من ثقوبه فيضرب الكشكول البائس ! سمع الأعمى الصوت فحسبه نبض الرحمة قد جاشت به قلوب المارة، فمد يده، مدها إلى الكشكول، ولكن، هيهات ! قد خاب رجاؤه، وكذب ظنه، ارتدت يده المتجمدة من البرد ! ارتدت إليه فارغة مبتلة !

* * *

(1) هذا اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وأنَّ هذا صراطى مُستقيماً فاتَّبعُوهُ ولا تَتَّبعُوا السُّبُل فَتفرَّق بكُمْ عن سبيله ذلكُمْ وصَّاكُم به لعلَّكُمْ تتقُون ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].



أقول : هذه ترجمة للدكتور عزام لنص تركى، مـاذا أراد الشاعر بهذا القصيد؟ وماذا أراد المترجم ؟ الأجوبة كـثيرة، ولكنى، وآيات القرآن الكريم دائمـا فى خاطرى - أجد الجواب فى قوله تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]، وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل].

إننا - نحن الناس - نعـيش فى نِعَمٍ لا تُحـصى، وتحـيط بنا النعم من كل جـانب، والفضل من الله وإليه، والقـضية ليست فى حاجـة إلى تفكير أو بحث : انظر إلى هذا الأعمى ! واحمد الله على نعمة البصر، وانظر إلى الأصم الأبكم، واحمد الله واشكره كثـيرا على نعمـة السمع ! والنعمـة تاج على رأس صاحبـها لا يعرفـها إلا عند فقدها!!

منطق الطير[1]

القصة الصوفية الخالدة

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٠:

فى الأدب الفارسى. :

فريد الدين العطار، شـاعر صوفى عظيم من شـعراء القرن السادس الهـجرى، وهو أحد الثلاثة الذين انتـهت إليهم الإمامة «بين شـعراء الفرس المتصوفين» والآخـران مجد الدين سنائى الغزنوى، ومـولانا جلال الدين الرومى. وللعطار من المنظومات الصـوفية زهاء أربعين، بعضـها يحتـوى على عشرة آلاف بيت. وهو أحـد المؤلفين الذين حالت كثـرة مؤلفاتهم دون معـرفة آرائهم معرفـة بينة. وأعظم منظوماته وأسيـرها وأدخلها فى الشعر، منظومة سماها «منطق الطير» وتعرف أحيانا باسم «هفت وادى» أى سبعة الأودية وهى زهاء ١٦٠٠٠ قَصٍّ فيها اجتماع الطير وتساؤلها عن ملكها، وتعريف الهدهد إياها بهذا الملك، ومكانه، ووصفه الطريق إليه، ثم توليه قيادة الطير التى رضيت السفر الشاق إلى ديار العنقاء واجتيازه بها سبعة أودية وما أصاب سفر الطير حين بلغ غايته، ويتخلل هذا قصص عـديدة، يفصل بها السـياق، ويبين بها بعض مـقاصده، وأنا أجـمل لقراء الرسالة هذه القصة على طولها فى صفحات قليلة، وعسى أن أستطيع أن أنقلها من بعد كلها إلى اللغة العربية.

---

(١) الرسالة - العدد ٣٥ - مؤرخ ٥ مارس ١٩٣٤ ص ٣٨٦ وما بعدها.



يبدأ العطار كتـابه بحمد الله وتمجيده والثناء عـليه بكلمات هى غاية ما بلغـته فلسفة الصوفية، ثم يُثَنِّى بفصل عنوانه «نعت سيد المرسلين وخاتم النبيين» يطيل فيه ما شاءت بلاغته وإيمانـه، ثم يُثَلِّث بمدح الخلفاء الراشديـن على نسقهم فى الخلافـة، وينعى على أهل العصبية الـذين يفرقون بين صحابة رسول الله صلى اللـه عليه وسلم، ويذكر ست قصص لتأييـد رأيه. ثم يشرع فى مقصوده بعد هـذه المقدمة التى تستغرق سـتمائة بيت ويعالج الموضوع فى خمس وأربعين مقالا وخاتمة.

يبدأ وصف اجـتماع الطيـر، ويذكر - فيمـا يذكر منهـا - الهدهد والببـغاء والدراج والبلبل والطاووس، والفاختة[1] والقمرى والبازى، ويصف شكل كل طائر وطباعه.

اجتمعت الطير فتـشاكت ما هى فيه من الفرقة والفوضى وفقد رئـيس يجمع كلمتها ويهديها السبيل على حين لا تخلو أمة من ملك. فـانبرى الهدهد يخطب فيذكر خبرته، واعتزاله الناس، وجده فى طلب الحق، وصحـبته سليمان بن داود، وأنه طوف الأرض سهلها وحزنها، وخبر قاصيها ودانيها، ثم قال : عرفت أن لنا ملكاً، ولكن عجزت عن المسير إليه وحدى، فإذا تعاونا استطعنـا أن نبلغ مكانه. إن لنا ملكا اسمه سيمرغ، وراء جبل اسمه جبل قاف، وهو منا قريب، ونحن بعيدون.

هو فى حـرم جلاله لا يحـيط البـيان بوصـفه، ودونه آلاف من الحـجب، واستـمر الهدهد يفيض فى وصـف السيمرغ، حتى راع السامعين بيـانه. قال : وأول عهد الناس به، أنه كـان طائرا فى ظلمـات الليل فوق بـلاد الصين، فسقـطت من جناحـه ريشة، فقامت قيامة الأمم، وأعجب الناس بما فيها من الألوان العجيبة والنقش، وتعلم كل منها فنا. ولا تزال هذه الريشة فى الصين. ومن أجل هذا جاء فى الأثر «اطلب العلم ولو فى الصين» ولو لم يظهر فى هذا العالم نقش هذه الريشـة ما كان فى العالم أحد منكم أيتها الطير. فلمـا سمعت الطير بيان الهدهـد هاجها الشوق إلى السيمـرغ، وأزمعت الرحلة إليه. ثم ذكـرت ما فى الطريق من أهوال، فَـبَدَا لبعضـهن أن يؤثر العافيـة، فادعى كل لنفسه عذرا :

قال البلـبل : أنا إمام العاشـقين، ملأت القلوب وجـداً بأغاريدى، فكيف أسـتطيع مفارقة حبيبى الورد ؟

---

(١) ضرب من الحمام المطوق.



وقالت الببغاء : إن جمال هذا الريش أغرى بى الناس، فحبسونى فى الأقفاص، فقاسيت الغم الطويل، والألم الممض، حسبى ما قاسيت، على أنى لا أستطيع أن أطير تحت جناح السيمرغ.

وقال الطاووس : كنت مع آدم فى الجنة، فطردت منها، وكل همى أن أعود إليها ولست بعد قادرا على مصاحبة السيمرغ.

ويذكر البط طهارته وعيشه فى الماء وزهده، ويعتذر بأنه لا يستطيع مفارقة الماء والعيش على اليبس، ويعتذر الحجل بأنه ألف الجبال فلا يستطيع أن يبرحها، وتعتذر الصعوة بضعفها، والبازى بأنه لا يود أن يترك مكانه من أيدى الملوك وهلم جرا. . .

يجادل الهدهد هذه الطيور، ويرد عليها أعذارها، ويرشدها إلى الخير، ولا يألو فى النصح لها، فتطيف الطيور بالهدهد تسأله : كيف نقطع هذا الطريق البعيد وما يصلنا بهذا الملك العظيم، فى أسئلة كثيرة، فيوبخهنّ على التوانى فى الطلب، والركون إلى الدعة والوجل من لقاء الشدائد. ثم يقول مبينا نسبة الطير إلى السيمرغ، إنه تجلى كالشمس من وراء الحجب، فبدت آلاف الظلال على الأرض. وما الطير إلا هذه الظلال. ثم يقول : إن العشق إذا صَدَقَ استهان العاشق كل شىء فى سبيله. واقتحم كل عقبة إلى حبيبه. (وهنا يستطرد الشاعر إلى قصة الشيخ صنعان الذى أخرجه العشق عن طوره، وهى قصة عجيبة تستغرق أكثر من ٢٠٠ بيت، ولا يتسع لها المجال هنا، ولا يحسن إجمالها).

هاجت الطير شوقا، وأجمعت على أنه لا بد لها من أمير تطيعه على اليسر والعسر، واتفقت على أن يقرع بينها، فأصابت القرعة أجدرها بالإمارة وهو الهدهد. فوضع التاج على رأسه وتقدم، واجتمعت إليه أسراب الطيور فأشرف بها على طريق موحشة مقفرة. فسأله سائل : ما لهذا الطريق مقفرا ؟ قال : إن الناس تجنبوها إشفاقا وخوفا، وحكى أن أبا يزيد البسطامى[1] خرج إلى البرية فى ليلة مقمرة والناس نيام، فراقه جمال الليل وتهويده. وعجب كيف خلا هذا المقام من المشتاقين، فسمع مناديا يناديه : إن الملك لا يأذن لكل إنسان أن يسلك طريقه، وأن عزتنا أبعدت السائلين عن بابنا. ثم تقدمت الطير «فرأت طريقا ولا غاية، وألماً ولا دواء. هنالك تهب ريح الاستغناء فينحنى لها ظهر السماء. هناك صحراء لا يعبأ فيها بطاووس الفلك، فكيف بطير هذه الدنيا؟»[2].

---

(١) هذا الاسم موجود فى الإقليم الذى أنتمى إليه (كفر الزيات - غربية) وهو اسم لولىٍّ معروف - وزُوّاره كثيرون).

(٢) يعتقد شعراء الفرس أن السماء فى مظهرها المقبب منحنية أو ساجدة خشية، وكذلك يسمون الفلك أسماء كثيرة منها الطاووس لكثرة ما يبدو فيه من ألوان.



فلما هال الطير مـا رأت، حفت من حول الهدهد فـقالت : إنك طوفت فى الآفاق وعرفت كل شىء فارق المنبر لنسألك عمـا حاك فى صدورنا، فلابد أن نطهر قلوبنا من الريبة، صعـد الهدهد وشدا بعض الطير بألحان هاجت وأذهلتـها، ثم تواترت الأسئلة، فكان أول سؤال أن قال طائر : آخبـرنى أيها الإمام، كيف فضلتنا جميـعا، وكيف كان هذا التفاوت بيننا وبينك ؟ قـال الهدهد : منحنى هذه الدولة نظرة من المليك، إنها دولة لا تنال بالطاعة، فكم أطـاع إبليس. لا أقول : إن الطاعة لا تجب، فـعليك بالطاعة لا تفتر عنها سـاعة. ولكن لا تقدمها ثمنا. امض عمرك فى الطاعـات، حتى تصيبك من سليمـان نظرة. ثم سئل الهـدهد عشرين سـؤالا، أجاب عنها مُـفَصّلاً مـسهبـا ضاربا الأمثال.

وكان السـؤال التاسع عـشر : ما الهـدية اللائقة بتلك الحضـرة التى تؤمهـا ؟ وكان جواب الهدهد لا تحـمل شيئاً فهنالك كل شىء. وليس خيـرا لك من الطاعة والعشق. والسؤال العشرون : يفتح القسم الثـانى من الكتاب وهو الذى يصف الأودية السبعة التى تعترض السائرين إلى حضرة السيمرغ. سـأل سائل كم فرسخا مسافة هذه الطريق ؟ قال الهدهد : أمامنا سبعة أودية، لا نعرف مسافاتها، لأن أحدا لم يرجع منها فيخبرنا عنها. أمامنا أودية الطلب والعـشق والمعرفة، والاسـتغناء، والتوحـيد والحيرة والفـقر والفناء. (وإلى هنا انتهى ما جاء بالعدد ٣٥ من الرسالة، وما يأتى نشر فى العدد ٣٦ منها صفحة ص ٤٢٤ وما بعدها).

والشاعر فى وصف هذه الأودية يذهب مع الشـعر المذاهب البعيدة، فيملؤها جـميعا بالأهوال والدموع، ولست أدرى أكـان الهدهد حازمـا حين وصف الأودية هذا الوصف المروع، وهذا إجمال وصفها.

١ - فى وادى الطلب : يعترض السالك عقاب كثيرة، ويلقى من النصب والتعب ما يضنيه، ولا بد له أن يفـرغ من كل ما يربطه بهـذا العالم، ويطهر قلبـه من علائق هذه الأرض، فإذا تم الطهر أصاب القلب شعاع من النور الإلهى، فيتضاعف طلبه ألف مرة، وإذًا يذهب قدما لا تثنيه الأخطار والأهوال.

٢ - وأما وادى العشق فهو النار يمضى فيـه العاشق كاللهب مضرما، ثائرا ولا يفكر فى العواقب، لا يعرف الكفر والدين، ولا الشك واليقين، الخير والشر سواء عنده. كلا بل لا خير ولا شر إذا اضطرم العشق. هناك القلب خفاق، يحترق ويذوب، ليرجع إلى مكانه كالسمك أُخـرجت من البحر إلى الصحراء. هنالكم العـشق نار، والعقل دخان، فإما جاء العشق فر العقل مسرعا.

٣ - ثم وادى المعرفة الذى لا أول له ولا آخر. هنالكم تتشعب السبل، وكل يسلك الطريق الذى يستطيعه، وكيف ترجو أن يسير الفيل والعنكبوت معا فى هذا الطريق الوعر إنما يسير كل سالك على قدر كماله وقربه بمقدار حاله. هنالكم المعرفة متفاوتة، فهذا يجد المحراب، وذاك يجد الصنم. إذا أضاءت شمس المعرفة من ذلك الفلك العالى، أبصر كل بمقداره، وكل ما يرى فهو وجه الحبيب، وكل ذرة محل آلاف الأسرار، تتألق كالشمس من وراء الحجب. هنالك الظمأ الدائم إلى الكمال... إلخ.

٤ - وادى الاستغناء : تعصف من الاستغناء ريح صرصر، تدمر فى كل خفقة إقليما... يقول العطار « يا عجبا، إن النملة هناك تربو قوتها على مائة فيل، وإن غرابا لا يشبع بمائة قافلة. هنالكم أبحر... لو سقطت آلاف الأرواح فى واحد من هذه الأبحر، ما كانت إلا قطرة واحدة فى بحر لا ساحل له. ولو هوت الأفلاك والأنجم ما كانت إلا كورقة سقطت من شجرة... إلخ». (يريد شاعرنا أن يشرح ما يدركه السالك فى هذه المرحلة من استغناء الله عن العالم، وصغر هذه العوالم كلها وضآلتها فى جانب الحقيقة الكبرى، ويبين أن الأشياء هناك لا تقاس بمقاييسنا).

٥ - وادى التوحيد : هنالك كل عدد يصير واحدا فى واحد فيتم الاتحاد. ولكن هذا الواحد ليس كالواحد الذى يذكر فى العدد. هو وراء العدد والحد (كلام يذكرنا بكلام فيثاغورس فى نشأة العالم من الواحد) هنالكم لا أزل ولا أبد... فكل الأشياء كانت وستكون عدها. (ومعنى هذا الكلام المبهم فيما أظن «والكلام للدكتور عزام» أن الله هو الحقيقة التى لا يحدها الزمن. وكل ما عداها، مما يقاس بالماضى أو الحاضر عدم. فلا شىء قائم إلا هذه الحقيقة).

٦ - وادى الحيرة : هنالك يلاقى السالك أضدادًا أو نقائص، تلوح له كلما اختلفت على نفسه الأحوال والإدراكات، وهو بين هذا وذاك يفقد نفسه، لا يستطيع أن يهب قلبه لهذا الجلال ولا أن يمنعه، ولا يقدر على أن يسير وحده أو يتبع غيره، فهو نفور من الخلق ومن نفسه، لا مسلم ولا كافر لأن دين الحيرة لا يحد، ولا يعرف الحب ولا البغض، ولا التقوى ولا الفسوق، لا هو خيِّر ولا شرير، ولا موقن ولا مرتاب، لا هو كل شىء ولا هو شىء ولا هو كل ولا جزء من كُل... إلخ.

٧ - وادى الفقر والفناء : أنقل هنا بعض الفقرات مما جاء فيما كتبه الدكتور عزام عن هذا الوادى. « بلغت الطير مقام الفناء وهو عند الصوفية أن يتجرد الإنسان من نفسه ويُخضع صفاته للصفات الإلهية، ويرجع - كما يقولون - قطرة فى البحر تموج بموجه. ويقول أبو سعيد فى تعريف الفناء إنه فناء الشعور بالبشرية. ولأجل توضيح لغة العطار الشعرية أنقل الجملة الآتية عن كشف المحجوب :

« الفناء درجة من الكمال ينالها الأولياء الذين تحرروا من آلام المجاهدة وخرجوا من سجن المقامات والأحوال، وانتهى طلبهم إلى الكشف فرأوا كل ما يرى، وسمعوا كل ما

يسمع وعـرفوا كل أسـرار القلب، ولكنهم أدركوا نقص كـشفـهم، فأعـرضوا عن كل شيء، وفَنَوْا فيما رغبوا إليه، وفى هذه الرغبة فقدوا كل رغباتهم ».

وراء هذه الحال حال أخـرى يسميها العطار وغـيره من الصوفيـة « البقاء فى الفناء » ويقول عنها كتَابنا هذه العـبارة العجيبة، وهو يعترف أنها حـال لا تشرح إلا بالتمثيل : فلما مضى مائة آلاف من القرون، القرون التى لا زمـان لها، أرجعت الطيور الفانية إلى نفسها، فلما رجعت إلى نفسها بغـير أنفسها رجعت إلى البقاء بعد الفناء. (وتأويل هذا بكلام الصوفـية الآخرين : أن الإنسـان يفنى عن نفسـه، عن إرادته ورغباته وشـهواته الخاصة فيبقى فى الله، يريد من أجل الله، ويرغب فى الله، ويفعل كل شيء غير غافل عن الله طرفة عين.

يقول الدكتور عزام : هذه خلاصة ما فى الكتاب كما فهمته. والكتاب فى حاجة إلى بحث مفصل، ولعله يتاح من بعد.

ثم يختم العطار منطق الطير بقوله : قد عطرت بأعطار آفاق العالم، وهجت العشاق فى كل مكان تارة تنفث العشق المطلق، وتارة تغنى أغانى الحب لمن عـشق، ففى شعرك كنز العـاشقين، وزينة لا تفنى للوالـهين. قد خـتم عليك « منطق الطير » كـما يحـيط بالشمس ضوؤها.

عبد الوهاب عزام

من روائع الشرق والغرب

محمد إقبال[1]

من كتاب «رموز بيخودى»

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

بند ١١ :

ختم شـاعر الإسلام الأكبـر محمـد إقبال كتـابه «رموز بيخـودى» - بتفسيـر سورة «الإخلاص» - وجـعل كل آية من السورة عنوان فـصل من الشعر، فنـظم ثمانية عـشر ومائة بيت تبين عما تمكن فى نفسه من المعانى الإسلامية الجليلة

وفيما يلى ترجمة منثورة للأبيات التى كتبها تحت عنوان :

---

(١) عن الرسالة - عدد رقم ٨٥ بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٣٥ ص ٢٧٧.



ولم يكن له كفوا أحد

ما المسلم الذى تحقر الدنيا عيناه ؟ ما هذا القطب الذى وضع فى الحق مناه؟ زهرة من الشقائق فى ذروة جبل شاهق، ضحكت للشمس والقمر ولم تر جانىَ الزهر، ونفخت فى حمرتها النار، أنفاسُ الأسحار تظل تحضنها السماء تحسبها كوكبا تخلف فى الفضاء. وتقبلها أشعة الشمس الأولى، ويغسل غبارَ النومِ من عينها الندَّى. اشدد «بلم يكن»[(١)] عقداً لتكون بين الأقوام فرداً. إن الواحد الذى تنزه من الشريك، يأبى عبده أن يكون ذا شريك. وإن المؤمن وهو فى الذروة العليا، تأبى غيرته أن يسامى «لاتحزنوا» وشاح على صدره «وأنتم الأعلون» تاج على رأسه[(٢)]. يحمل عبء العالمين لايضجر، ويطوى صدرُه البحر والبر. قد ألقى أذنه إلى قصف الرعود، فإن يخر البرق تلقاه بمنكب مشدود. سيف على الباطل، وللحق مجن لايكسر وأمره ونهيه معيار الخير والشر. مائةُ شمعة مقمرة فى عقدة من شرره، وتنال الحياة كما لها من جوهره. ليس فى هذا العالم ذى الضوضاء نغمه. إلا تكبيره فى الأرجاء عظيم العدل والعفو والجود والإحسان، كريم السجايا على نُوَب الزمان. هو فى المجامع برد وسلام، وفى الهيجاء نار تذيب الجسام. وهو فى البستان نَجىّ العنادل. وفى الصحراء باز صائل. لم يرض قلبه تحت السماء قرارا، فاتخذ على الأفلاك داراً. طائر ينقر نجوم السماء، ويحلق وراء القبة الزرقاء.

إنك لم تمد جناحا للطيران، فلبثت دودة فى الرغام. قد أذلك هجرك القرآن، فأغرقت فى شكوى الزمان. أيها الساقط كالندى على التراب وفى يده من الحياة كتاب. حتام تتخذ فى الثرى مجالك، هَلُمَّ فألق على الثريا رحالك.

عبدالوهاب عزام

محمد إقبال

من رباعياته المسماة «شقائق الطور»

ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٢ :

١ - يا قلبى إلام تجهل جهل الفراشة الرعناء ؟ إلام تحيد عن سنن العظماء ؟ احرق نفسك مرة بنارك. إلام تطوف بنار غيرك ؟

٢ - يارب أية لذة فى الوجود ؟ كل ذرة هائمة بهذا الشهود. تشق الوردة الفَنَنَ النضير، فتبسم فرحا بهذا الظهور.

---

(١) إشارة إلى الآية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

(٢) إشارة إلى الآية ﴿ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

٣ - سمعت الفراشة فى العدم تقول : هب لى من الحياة حرقة واضطرابا. أذرُ رمادى فى السحر، ولكن متعنى بالحياة ليلة.

٤ - فتحت فى ضمير النجوم سبيلا، وظللت بنفسك جاهلا. كن كالنواة، وأبْصِرْ نفسك، لتخرج نخلة باسقة من تربتك.

٥ - ترنم الطائر الغرد على الأفنان، يقول فى مطرب الألحان ؛ أخرج كل ما فى صدرك صُراحاً : آهة أو صرخة، أو غناء أو نواحا.

٦ - يضيرك النظر فى بستانى العجيب، إن لم يكن روحك شهيد الطلب، إنى أبِينُ عما فى ضمائر الأغصان، وليس ربيعى طلسماً من الروائح والألوان.

٧ - أنا بين طير المروج غريب، أظل وحدى على غصن العشٍّ فى نحيب. إن تكن رقيق القلب، فقف منى بعيدا، فإنما يرشح دمى فى أنفاسى تغريدا.

٨ - تصب الحياة ألوانا جديدة كل حين، ما الحياة صورة واحدة على مر السنين. فإن يكن صورة الأمس يومك، فقد حرمت شرارة الحياة طينتك.

٩ - ما علق قلبى بهذا البستان، فمضيت طليقا من قيود الزمان والمكان. ولكن كريح الصبا سريت، فمنحت الورد اللون والنضرة ومضيت.

١٠ - إن خمره جعلت خزفى كأس جَم[١]، واستسرت فى قطرتى فصارت كاليمّ. وضع العقل فى رأسى صنما، وجعل «خليل»[٢] العشق دارى حرما.

١١ - قل عنى للشاعر المفلق، ما جدوى حرقتك إن احترقَت كالشقائق؟[٣] لاتصهر نفسك هذه النار، ولاتَنير للبائسين الديار.

١٢ - أنا لا أعرف حسنك وقبحك، فقد جعلت عيارها خسارتك وريحك ليس مثلى وحيدا بين بنى آدم، إنى أرى بعين أخرى هذا العالم.

عبدالوهاب عزام

---

(١) كأس جم أو كأس جمشيد، كأس خرافية كان ملوك الفرس القدماء يرون فيها الأقاليم السبعة.

(٢) إشارة إلى بناء إبراهيم الخليل البيت الحرام، والمراد هنا التفريق بين العقل والعشق على رأى الصوفية.

(٣) الشقائق أزهار حمراء، فهى تشبه النار وليس لها حرارتها.



صفحات من الشعر الهندى

بند ١٣ :

فى العدد الأول من «الرسالة»[1] (لصاحبها أحمد حسن الزيات يرحمه الله) - نجد هذا الباب (ص٢٠ وما بعدها) «فى الأدب الشرقى» - أما الموضوع فهو «صفحات من الشعر الهندى».

- ١ -

من ديوان رسالة الشرق لشاعر الهند العظيم محمد إقبال - بقلم الدكتور عبدالوهاب عزام (المدرس بكلية الآداب).

يقول : محمد إقبال هو شاعر الهند العظيم، وأكبر شعراء الإسلام فى عصرنا. درس الفلسفة فى إنجلترا وألمانيا وتزود من الفلسفة القديمة والحديثة ما شاء له الذكاء والاجتهاد. وهو اليوم قائد من قادة الأفكار فى الهند، وله من الشعر دواوين عدة بلغ فيها الغاية، نظم واحدا منها باللغة الأردية، وسماه (بانك درا) - أى صلصلة الجرس. ونظم خمسة بالفارسية وهى : كذا وكذا. . . وبيام مشرق (رسالة المشرق) وقد جعله جوابا للقصائد المشرقة التى نظمها الشاعر الألمانى جوته. وآخرها «جاويد نامه» (الكتاب الخالد). والقطع المترجمة هنا مأخوذة من «بيام مشرق »

الحياة

بكى سحاب الربيع فى جنح الليل فقال :

إن هذى الحياة بكاء مستمر !

فتلألأ البرق الخاطف أن «قد غلطت إنها لمحة من الضحك ! » ليت شعرى، من أخبر البستان بهذا، فهو حديث مستمر بين الندى والورد ؟!

الله والإنسان :

الله

خلقت العالم من ماء واحد وطينة واحدة، فخلقتَ الفُرس والتتار والزنج. خلقت من التراب الحديد، فخلقت أنت السيوف والسهام والمدافع وخلقت الفأس لأغصان الشجر، والقفص للطائر الغرِّيدا.

---

(١) مؤرخ ١٥ يناير عام ١٩٣٣.

الإنسـان

خلقت الليل فخلقت المصباح، وخلقت الطين فخلقتُ الآنية. خلقتَ الصحارى والجبال والربَى، فخلقت الجنات، وحدائق الورد، والطرق المشجرة.

أنا الذى صنع المرآة من الحجر !

وأنا الذى صنع الدواء من السم !

اليـراعــة

سمعت اليراعة تقول : لست كالنملة ينال الناسَ أذاها ؛ ولست كالفراشة، فإنى أشتعل ولا أحمل منة لأحد. إذا صار الليل أشد حلكا من عين الظبى، أنرتُ لنفسى بنفسى الطريق!!

الحقيقـة :

قالت العقاب بعيدة الرأى للعنقاء : إن الذى يراه ناظرى سراب

فأجاب ذلك الطائر : أنت ترين : ولكنى أعلم أنه ماء

فارتفع صوت السمكة من لجة البحر : أجل، يوجد شىء وهو فى هياج واضطراب!!

أتجاوز بعض العناوين (الفرعية) وما تحتها، وأنقل ما يلى عن صفحة ٢٢

العشق

هذه الكلمة الآخذة بالقلوب، والتى هى سر وليست بسر. أنا أخبرك من سمعها، وأين سمعها ؟ استرقها الندى من السماء، فأوحاها إلى الورد، وسمعها عن الورد البلبل، وثنتهَا عن البلبل ريح الصبا.

حـداء[1]

نغمة حادى الحجاز

يا ناقتى الخطارة. وظبيتى المعطارة

وعدتى والشارة[2]

(١) تذكر هذه القطعة بأرجوزة أبى العلاء المعرى التى قالها على لسان سائق الحاج. ومطلعها : دنياك تحدو بالمسافر والمقيم جمالها

(٢) الشارة = الزينة والرواء.



والمال والتجارة ودولتي السيارة
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
جميلة الرواء مطربة الرعاء
محسودة الحوراء وغيرة الحسناء
بُنَيَّةَ الصحراء
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
كم غصت فى السراب فى وقدة اليباب
وسرت لم تهابى فى الليل كالشهاب
والنور عنك نابى
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
قطعة غيم غادي سفينة الرواد
كالخضر فى البوادي تمضين فى سداد
فَلْذَةُ قلب الحادي
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
حرقتك الزمام وسيرك الأنغام
يتعبك المقام لا الجوع والأوام
والسفر المدام
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
مُمْسية فى اليمنِ مصبحة فى قَرن
ترين حَزْن الوطن. كالخز تحت الثفن
إيه عزال الختن
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب
بدر السماء نَعَسَا خلف التلال خنسا
والصبح قد تنفسا مَزّق هذا الفلسا
والريح ترجى نفسا
حشى الخطى قليلا منزلنا قريب

لحنى دواء السَّقَمِ		والروح ملء نغمى
يحدو الركاب كلمي		من جارح وبلسمي

هلم بنت الحرم !

حثى الخطى قليلا		منزلنا قريب

لم لا تقول الشعر[1]؟

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٤ :

كتبت إلىّ أيها الأخ الكريم تسألنى (لماذا صمت بعد تغريد، ونضبت بعد فيض، وسكنت بعد المرح، واكتأبت بعد الفرح ؟ وما هذا الوجوم والإطراق بعد التهلل والإشراق ؟ أين قلبك الهدار، وقلمك المكثار ؟ وأين شعرك الشاعر، ونظمك الساحر ؟ ليت شعرى وقد أمكنك القول، لم لا تقول الشعر ؟

يا أخى بماذا أجيبك ؟ لقيت الحياة مبتسما، ونشأت مترنما، أطالع تباشير الصباح مرحا كالأطيار، مترنحا مع الأشجار. تروقنى أنوار الأفق، وتشدهنى طلعة ذكاء فى مواكب الضياء. أراقب الأضواء فى الصباح والإمساء، وأساير الظلال بالغدو والآصال. وأخلو إلى القمر، أشرب ضياءه، وأحس فى نفسى صفاءه وأقول :

البر والبحر ذوب من سَنَا قمر		تردد الطرف فيه فهو حيران

وأتأمل الأزهار فى شعاعه، وأقبل الورد فى لألائه، وأساير النيل أجرى مع مائه. وأضطرب مع أمواجه وأقف على البحر فرحا بآذيِّه المهتاج، معجبا بسلاسل الأمواج. أرقب العراك المتواصل، بين الماء والساحل.

وكم طربت لزقزقة العصافير فى نور الصباح، وتنزِّيها على متون الرياح، وضحكت لبكور الغراب، سابحا فى الضباب. وكم فتننى الوجه الجميل، والخلق النبيل، فقلت

فى كل حُسْنٍ أرى سرًا يجاذبنى		نفسى، ومالى بهذا السر عرفان

أرى الجمال فتطبعه زجاجة العين على صفحة القلب، فإذا هو على لسانى وقلمى،

---

(١) الرسالة العدد ١٨ فى ١ / ١٠ / ١٩٣٣ ص ٢٠، ٢١ - هذا وفى هامش الصفحة ٢٠ إجابة على السؤال الذى بالعنوان، والإجابة هى كتب إلى بذلك أحد الأصدقاء فأجبته بهذه الكلمة.



فأنطلق قائلاً معجبا، ومنشدا مطربا. وكل شىء يبعث الأمل، ويحدو إلى العمل. كأن القضاء طوع الخيال، وليس فى الدنيا محال، وكأن الإنسان يستطيع أن ينحت الجبال بقلمه، وينزف البحر بفمه. والمستقبل وضاء، وكل ما فى العالم ضياء. ثُمَّ نفذ الفكر إلى ما وراء الظاهر، وتطلع إلى ما فى السرائر، وجاوز القشر إلى اللباب، وخاض الضحضاح إلى العباب. وكشف المجاز عن الحقيقة، وطالع ضمائر الخليقة، فانبهم العالم واستعجم، فإذا كل شىء مبهم. فالفكر فيما وراء الحجب حائل، وكل سر هناك مائل. الضوء هناك ضباب، والبصر حجاب، فامَّحَت الأشكال، وخفيت الألوان، وعيت الريشة فى يد الراسم، وحار القلم فى بنان الشاعر، وبهت المنطق دون البيان، وجمد اللفظ على اللسان، ويبقى السر المحجب، أبيًّا على كل مطلب. أو يبص من الحقيقة حاجب يعظم عن ضيق الألفاظ، ويكبر على سلاسل القوافى والأوزان.

ورحم الله الشاعر سنائى إذ يقول: « رجعت عما قلت، إذ ليس وراء الألفاظ معان، وليس لما ندرك من المعانى ألفاظ. أهم بالأمر الصغير، فإذا هو حلقة فى سلسلة، وطريق إلى كل معضلة. وجزء من كل حقيقة هائلة.

وأحاول الأمواج فتنفتح عن الأعماق، فيضل الفكر، وتزيغ الأحداق. وأعالج حمرة الشفق، فإذا وراءها خبيئات الأفق، وإذا الأفق صلة الأرض والسماء، وكيف بما فيهما من حقائق، وكيف بما استسر من أسرار الخالق ؟

وأهم بالكلام عن الحيوان، فإذا أنا فى لجة الحياة، وهى السر العُجَاب، وسطها فوق الأرض وطرفاها فى التراب. وأريد أن أصف الذرة، فإذا هى والشمس سواء، باهرة الحقيقة، رائعة الضياء. أنظر إلى الصغير فيكبر، وأعمد إلى الواضح فيستعجم. والأمل تكسرت أمواجه على صخور الحقائق، وضل سرابه فى صحارى الحياة، يا أخى، ها أنا على ساحل المحيط الأعظم حائر الطرف بين اللجة والشاطئ، مقسم الفكر بين الظاهر والباطن. ولست أدرى، أأبقى صامتا مبهوتا، أم أهجم على الأهوال، وأغوص فى الأعماق، ثم أبين عن عرفانى وجهلى، وإدراكى وعجزى، أو أرجع إلى العهد القديم، أصف الألوان والأشكال، والضياء والظلال».

أقول : ماذا أقول فى هذا الشعر المنثور، والنثر المنظوم، والبيان المعجز ، والأداء القوى القليل النظير. إنه الدكتور عبدالوهاب عزام. المتعدد المواهب، العبقرى العملاق. ويزيد الله الذين اهتدوا هدًى، ومن يتق الله يهد قلبه، ويزده علما وإدراكًا وفهما.



دمشق

(العدد (٢١١) وتصحيحات بالعدد (٢١٢) من الرسالة)

١٩ / ٧ / ٣٧ و٢٦ / ٧ / ١٩٣٧ م

(ص ١١٩٠ وص ١٢٤٠)

(رسالة الشعر) دمشق

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٥ :

يا أخي صاحب الرسالة هذه أبيات نظمتها في إحدى زياراتي لدمشق العظيمة، وطويتها ثم رأيت أن موضوعها يشفع لما فيها من قصور فأرسلتها إليك لترى رأيك في طيها أو نشرها

هذى دمشق فخل القلب يمتَار ... طالت على القلب أشواق وأسفار

كم ما طالتك بها الأيام أمنيةً ... لها على الدهر إعلان وإسرار

حط الرحال فهذا جهرة بَرَدَى ... وذى دمشق هُنَاكَ الأهل والدار

لا تُعجِلْني فما الأيام مسعدة ... لا تخدعنِّي فصرف الدهر غدار

دعنى أؤلف آمالا مُشتَّتة ... وأسمع القلب، ملء القلب أسرار

دعنى أزود قلبى مِلْءَ مُنْيته ... ففى فؤادى أسفار وأخطار

وردت جلَّق ملتاعا ومغتبطا ... تطغى بنفسى آمال وأفكار

دمشق مجتمع الأعصار قد زخرت ... فيها كما اندفقت في البحر أنهار

خطَّت أمامى سراعا فوق رقعتها ... من الوقائع أسطار فأسطار

فكل رجل على التاريخ سائرة ... وكل طرف إلى التاريخ نظّار

وللأذان دوى فوق أربعها ... وللأذان ببطن الأرض إسرار

يذيع قبرُ بلال[1] في مآذنها ... صوتا له من وراء الغيب تسيار

كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت ... منه الخمائل وهو الدهر ثرار

ذهبت للمسجد[2] المعمور أسأله ... وقد تَدُلُّ على الأعيان آثار

رأيت فيه خلال القوم ماثلةً ... وللبناء من البانين أقدار

علوت في قمة التاريخ مأذنة[3] ... لها من الحق والتاريخ أحجار

---

(١) بلال بن رباح مؤذن رسول الله، وقبره في دمشق.

(٢) مسجد جامع بني أمية بدمشق

(٢) مأذنة الجامع الأموى صعدت فيها مع بعض الأصحاب

نطوف حول خطوب الدهر فى صَخَبٍ … وتزحم العينَ دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته … ذل الزمان وفيه المجد خطار
دانت لهيبته الأهوال واجتمعت … فى همة العُرْب أقطارٌ وأعصار
كأن ما بين سَيْحون وقُرطُبة … على الخريطة أَفنار وأشبار
أحْيتْ دمشق رميم الشعر فى خلدى … لاغرو قد تَبْعَثُ الأشعار أشعارُ
وقفت فيها أسيم الطرف فى فتن … من الجمال لديها الطرف يحتار
كلا فؤادى وطرفي فوق بهجتها … بين الحضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها … ورُبَّ أخضر منه تقدح النار
واها لقلبى إنْ يبدُ الجمال له … سطراً تبدت من الآلام أسفار
خاض المطامع، طماح المنى عرم … على الشدائد والسراء ثوار
وقاسيون على الجنات مطّلع … بين الرياض وبين الشهب نظار
عارى المناكب بالشجراء متّزر … ثبت الجنَان على الأحداث جبار
نسْرٌ يرى اللوح منه هامة عطلا … لكنه ذنبَ الطاووس جزار
شجا فؤادى عفاءَ فى مدارسها … والدهر بالناس دولات وأدوار
يا دار هذا زمان السعد فابتسمى … لا فاتَك السعد بعد اليوم يادار
وقفت بالغوطة الخضراء أنشدها … قلباً أضلته[1] أفياء وأشجار
هفا كما انطلق العصفور من قفص … دعته فى الروض أطيار وأزهار
قالت : رأيت دمشقا فى مفاتنها … فكيف ينجو فؤاد فيك شعّار؟
فَسل دمشق هناك الروض مزدهر … والجو مبتسم والحسن سحار
قالت دمشق : وما عندى به خبر … سائل بدمّر لايخدعك إنكار
يادمَّرَ الخير قلبى فيك مرتهنٌ … لاتجحديه فما يجديك إصرار
ردى فؤادى ففى دهرى له عِدَةٌ … وفى فؤادى لأرض العُرْب أوطار
فقد وردتك يوما فى حمى نفرٍ … من الغطاريف فيهم يأمن الجار
كأنما كل حر فى عزيمته … نجم يضيء، على الأهوال سيار
وكان مجلسنا أيكاً على بردى … تردد الحسنُ فيه فهو محتار
نزجى الأحاديث من شكوى ومن ألم … ومن أمان ذوت فيهن أعمار
نبْنِى على أسس التاريخ آتينًا … وللمعالى من التاريخ أسوار
وننشد المجد تدعوه عزائمنا … والمجد مُصغٍ إذا ناداه أحرار
إنى أرى المجد قد أضفى أشعته … وأشرقت فيه دولات وأمصار
أبصرت فى الظلمات الشمس طالعة … كما تراءى لنجم الصبح إسفار

(١) أرجح أنها «أظلّته».

عثمان بن أبى العلاء

الرجل الذى غزا الأسبان ٧٣٢ غزوة

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٦ :

ملك بنى مرين يعم المغرب الأقصى، ويرث دولة الموحدين. وهذا سلطانهم السادس يوسف بن يعقوب بن عبدالحق (٦٨٥ - ٧٠٦ هـ) - يُسيِّر الجحافل لتمكين ملكه ويجتهد ليكسب الدولة المرينية رونق الحضارة وبهاء الملك، ولكن جماعة من بنى مرين حسدوا بنى عمومتهم على السلطان، ونفسوا عليهم الرياسة، وزعموا أنهم أحق منهم بميراث عبدالحق فثاروا على السلطان يوسف واعتصموا بجبال ورغه، فأنزلهم السلطان من صياصيهم وألحمهم السيف فأشفق أعياض بنى مرين على أنفسهم، ولحقوا ببنى الأحمر بالأندلس سنة ٦٨٦. ثم رجع إلى المغرب بعد سنين أحدهم عثمان بن أبى العلاء إدريس بن عبدالله بن عبدالحق لينازع بنى عمه السلطان، فثار فى جبال غمارة، فاشتعلت عليها ناره، واستطارت منها ثورته، فعمت بلاداً كثيرة، ولجأ إليه كل مخالف من بنى مرين وغيرهم، ومات يوسف وعثمان فى ثورته، فخلفه ابنه أبو ثابت (٧٠٦ - ٧٠٨) فسير الجحافل إلى عثمان فهزمهم، ومد - على رغم أبى ثابت - سلطانه إلى بلاد أخرى، فنهض أبو ثابت نفسه بجنود لا قبل لعثمان بها، فخلى البلاد، واعتصم بسبتة. وهى يومئذ فى قبضة بنى الأحمر. ومات أبو ثابت، فخلفه أخوه أبو الربيع سنة ٧٠٨. واصطلح بنو مرين وبنو الأحمر، فضاق المغرب على عثمان بن أبى العلاء فولى وجهه شطر الأندلس فيمن تبعه من قرابته.

لم يكن للمسلمين فى الأندلس إلا مملكة غرناطة الضيقة. وقد ألح العدو عليها وصمم على محوها واستمات فى الدفاع عنها المسلمون، إذ كانت الملجأ الأخير، والوزر الذى ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد. وكان بنو مرين يرسلون جيوشهم مددا لبنى الأحمر حينا، ويسيرون إلى الجهاد بأنفسهم حينا. وكان أولو النجدة والصرامة كابن أبى العلاء يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين، غضبا لدينهم، وحمية لإخوانهم. جاء عثمان الأندلس فتولى مشيخة الغزاة، وحسن بلاؤه وعظمت مكانته، فكان شجى فى حلوق الأسبان، وكان غصة لبنى الأحمر، شاركهم فى سؤددهم حتى كاد يستأثر بالأمر دونهم وهو من قبل خصم قومه ملوك المغرب، ثار عليهم وزلزل دولتهم زمانا، لم يكن عثمان ملكا، ولكنه :



كـان مـن نفـسه الكبـيرة في جيش، ومـن كِبْرِيَاهُ في سـلطان

تولى زعامـة الغزاة ثلاثا وعشرين سنة، فـما وهن عزمه، ولا فل حـده، ولا أغمد سيفه، ولا حط سرجه.

وما كان إلا النار في كل موضع   تثـير غـبارا في مكـان دخـان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما الجيوش الجرارة والحروب المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صَمَّمَ.

فأثبت في مستنقع المـوت رجلـه   وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

حسبي من الإفاضة في وصف عثمان، والإشادة بذكره، أن أنقل هنا ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :

هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علم الأعلام، حـامي ذمار الإسـلام، صاحب الكتـائب المنصورة، والأفـعال المشـهورة والمغـازي المسطورة، وإمام الصـفوف، القـائم بباب الجنة تحت ظلال الـسيوف، سـيف الجهـاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآسـاد، العالي الهمم، الثـابت القدم، الهمـام الماجد الأرضَى، البطل الباسل الأمْـضَى، المقدس المرحوم أبي سعـيد عثمـان بن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبدالحق. كان عمـره ثمانيا وثمانين سنة، أنفقه مـا بين روحة في سبيل الله وغدوة حـتى استوفى المشهور سبعـمائة واثنتين وثلاثين غزوة. وقطع عمره مجاهدا مـجتهداً في طاعة الرب، محتـسبا في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جـهاد الكفار، مصادمـا بين تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، مـا ساد ذكره في الأقطار، أشهر من المثل السيـار، حتى توفي رحـمه الله وغبـار الجهاد على أثوابه، وهو مـراقب لطاغيـة الكفر وأحزابه، فمـات على ما عاش عليـه، وفي ملحمة الجهاد قـبضه الله إليه، واسـتأثر به سعيدا مـرتضى، وسيفه على رأس ملك الروم منتضى، مـقدمة قبول وإسعـاد، ونتيجة جهاد وجلاد، ودليـلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الأندلس لـبعده، أتحفه الله برحمـة من عنده، توفي يوم الأحد الثاني لذي الحـجة من سنة ثلاثين وسبعـمائة، رحمه الله..

عبدالوهاب عزام

أقول : هذه إشـادة ببطل مغوار، عاش ومـات مضرب الأمثـال، ومن واجب حملة الأقلام، حفز همم ما يأتي من أجيال وأجيال !!



المعتصم بن صمادح[1]

علـى فـراش المـوت

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٧:

الأندلس فى أمر مريج زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت. وفقدت رواسيها من بنى أمية فمادت، وأصبحت كرقعة الشطرنج، يتغالب الملوك على كل بيت فيها. كل قوى يحوز ما وسع حوله وهمته. والعيش غلاب «والبر أوسع والدنيا لمن غلبا».

فى هذا المعترك مَلَكَ محمد بن أحمد بن صمادح التجيبى مدينة (وشقة)، وملك بنو عمه مدينة (سرقسطة) ثم غلبوه على مدينته، ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المرية) غصبها من عبدالعزيز بن بنى عامر، وخلفه ابنه ابو يحيى المعتصم بالله وهو فى سن الرابعة عشرة، نشأ فى ملك ضيق الرقعة، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة، وحلية العلم والأدب والسخاء الشامل، والجود العمم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه، وحتى قال أميرالمؤمنين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس : « هذان رجلا هذه الجزيرة ». قال ابن خلكان : « وكان رحب الفناء، جزيل العطاء حليما عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع فى مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء، وقال الفتح بن خاقان: « ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع فى انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت فى جبين أيامه وسمها. لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة. . . وكانت دولته مشرعا للكرم، ومطلعا للهمم، فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفقت فيها أقلام الأعلام وتدفقت بحار الكلام، كإجادة ابن عمار وإبداعه، فى قوله معتذرا من وداعه :

أمعتصما بالله والحرب ترتمى ... بأبطالها والخيل بالخيل تلتقى
دعتنى المطايا للرحيل وإننى ... لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإنى إذا غَرَّبْتُ عنك فإنّما ... جبينك شمس والمرية مشرقي

وكان المعتصم كالمعتَمد بن عباد شاعراً مجيدا. كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم ... وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خلا يسرنى ... مباديه إلا ساءني فى العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة ... من الدهر إلا كان إحدي المصائب

(١) العدد الثلاثون - بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٣٤ ص ٢٥ وما بعدها.

طوى الأمير أربعين عاما فى إمارته، شاع فيها ذكره ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطره، ورأى أحداثه وعبره، ثم حم القضاء، وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم، وتعفى على آثارهم، ولقى «رجلا الجزيرة» الصدمات الأولى، فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير أغمات، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات، وعلم ابن حماد بما أصاب صاحبه فملكه الغم وناء به الحزن، وكان أسعد من صاحبه جَدًّا تَجاهُ الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة : رب عيش أخف منه الحمام. ولله ابن بسام حين يقول : « وكان بين المعتصم وبين سريرة، أسلفت له عند الحمام يدا مشكورة، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، فى سلطانه وبلده، وبين أهله وولده ».

دع ما نمق الكتاب، وأنشد الشعراء، ودع أربعين طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة - الليلة التى طلع عليه بالردى فجرها - ها هو ذا على فراش الموت فى قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة. ترى خيامه، وتسمع ضوضاءه، ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب، والجند المصطخب، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاما : «لا إله إلا الله، نغص علينا كل شىء حتى الموت ». قالت « أروى » (إحدى جواريه) «فدمعت عينى» فلا أنسى طرفا إلىّ يرفعه، وإنشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه،

ترفق بدمعك لا تُفْنِه ... فبين يديك بكاء طويل

عبد الوهاب عزام

أقول : يقول تعالى فى سورة « الملك - الآية ٤ » ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ - وإنى أدعو القارئ أن يرجع البصر مرة ومرات، فى هذا البيت الذى رددته « أروى » « ترفق. . إلى آخره. . إن الظروف المترعة بالظلام والأسى هى التى أنطقت « البطل » بهذا البيت، وهو على فراش الموت.

لقد نجاه الموت من الأسر، وذل الأسر ولكن ما مصير الأهل والولد من بعده؟ لا ريب أن هذا قد ضاعف من عذابه واضطرابه. لقد عاش « أميرا» على «مدينته » أربعين عاما، جمع الله له فيها من الفضل والخير والمجد، ما لم يتيسر إلا للقليلين من الأمراء والنظراء. قد شد هذا إلى بابه الشعراء، وجذب إليه من هم فى حاجة إلى العطاء والسخاء، وما أكثر هؤلاء، وأميرٌ مثله يسعده أن يرى السعادة تمتد إلى سكان مدينته،

وكل من يلـوذ به وإليـه، وفى القـــرآن الكريم ﴿ ... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] !!.

وأعود إلى أستاذنا الدكتـور عبدالوهاب مشيدا بالصورة القلميـة الرائعة لما عرضه فى كلمته من أحداث. إن هذه الكلـمة قد مضى على نشرها ثلاثة وستون عـاما، لقد كان جيل عام ١٩٣٤ يعـيش بالأمل والكفاح لإزاحة المحتل عن أرضه، وخـلال العقود التى تفصل بين الـثلاثينات والتسـعينات من هذا القـرن العشـرين، قامت إسرائيل بتـعضـيد وحـماية من الـقوى المعـادية للعـرب والمسلمين. وها هى ذى تعـربد وتهـدد، وتتطلع وتطمع، محـمية من الولايات المتحدة الأمـريكية بالذات، إن الأمل معـقود على وحدة الصف، ووحدة الكلمة على شعوب العرب والمسلمين عامة، وحكوماتهم خاصة. والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال].

جلال الدين منكبرتى[1]

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ١٨:

سارت جيوش التـتار تقذف بالموت والدمار ﴿ ... فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء] خرت المدائن لصولتهم فـأسروا وقتلوا، ثم سلطوا الماء والنار فأخربوا ودمروا، وانطلقوا فى جحافل من السيوف والسهام، والنار والدخان، والدمـاء والماء والهول والفـزع. وعلاء الدين ملـك خوارزم قـد أوقد النار فلم يسـتطع إطفـاءها، وفتح باب الشـر فلم يقدر على إغـلاقه. لم يفن جنده، ولم تـثبت عزيمـته فمـازال يهجر المدينة بعد المـدينة حتى اعتصم بجـزيرة فى بحر الخزر فـهلك بها. ورث جلال ملك أبيه، وإنما ورث الضـراب والطعان، وعرشا فى أشـداق المنون. تخاض إليه الأهوال وتقطع دونه الآمال. لقد ذهب الملك وعلاء الدين معا. وورث جلال الدين دين أبيه من الكفاح والنضال، ورث القتال الحاضر والملك الغابر.

---

(١) جلال الدين خـوارزم شاه بن محمد عـلاء الدين السابع من ملوك الدولة الخوارزمـية تولى الملك بعد أبيه سنة ٦١٧ وقتل سنة ٦٢٨ هـ.

هذا : والنقل عن ص ١١ وما بعدها من «الرسالة». عدد مؤرخ ٢٠ من ذى الحجة ١٣٥١ هـ ١٥ إبريل عام ١٩٣٣.



هلم جلال الدين ! ادفع عن رعيتك مالا يدفع، واختر لنفسك، وليس فى الـتتر خيار. همـا خطتان : إما إسار وذلة، وإما دم، والقتل بالحر أجدر. تحفز البطل تحفز الأسد، وتقهقر ليثبت. ولكن المغول كانوا فى إثره حيثما سار، يطوون وراءه الليل والنهار، حتى خرج من ملكه وقارب الهند، وهناك صف جلال جنده، وهم عصابة ليس لهم ديار، إلا ظهور الخيل والغبار، فهزم عدوه الجبار فى ست معارك.

يلقى المنية فى أمثال عـدتها   كالسيل يقذف جلمودا بجلمود

ولكن طوفان المغول أعظم من أن تثبت فيه صم الجلاميد، أو يغنى فيه العزم المصَمِّم والبأس الشديد فذلكم جلال الدين على نهر السند، وأولئكم المغول على نهر السند يكر عليهم كالأسد المُحْرَج، ويَصْدُقُهم القتال فى الفجر إلى الظهيرة، يموت فى يمينه الحسام بعد الحسام، وينفق تحت عزائمه الجواد بعد الجواد. فلما سدت على العزائم سبل النصر، وضاقت بالمجال حيل الأبطال، حمل على عدوه فحطمه ثم انثنى إلى النهر فاقتحمه. والموت خزيان ينظر، تلك لجة النهر تموج بجلال الدين وجنده، وفوقهم من سهام المغول وابل منهمر، وفى الهمم القعساء تستوى الغبراء والدأماء. أعجب الأعداء بهؤلاء الأبطال فوقفوا معجبين ينظرون. غرق معظم الجند وخرج البطل يبقايا القتل والغرق، ليلقى بهم عدوا آخر فهذا (جودى) أحد أمراء الهند يغير على البطل المُرَزَّأ لينفيه من أرضه، وهذا جلال الدين - على العلات - يصمد للمغير فيهزمه، ثم جاءه مدد من جنوده، فتقدم فى أرض الهند، وأقام فيها حيث شاء على رغم (قراجه) أمير السند وإيلتتمش أمير دهلى، إذ تحالفا وحالفا عليه الدهر.

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة   إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

أتحسب أن جلال الدين بلغ من الجهد غايته، ومن الجلد نهايته، وقد أعذر إلى المجد والملك والرعية، أتحسبه قد فقد ملكه جميعه، وهزم فى أرض غريبة فهو حرى أن يطلب فى فجاج الأرض مفرا، أو يلتمس فى زواياها مستقرا ! كلا ! إنه فقد ملكه ولم يفقد رجاءه، ولا عزمه ولا إباءه. إن له ملكا وإن يكن فى يد العدو الجبار، وإن له عرشا، وإن يكن فى ذمة الزمان الغدار، إن أمامه فى عراك الخطوب ثمانى حجج تطير فيها بين المشرق والمغرب همته، وتنقله من حرب إلى حرب صرامته، ويسلمه من مصيبة إلى مصيبة حظه.



يشق طريقه بين الأهوال إلى كرمان ففارس فأصفهان فالرى، ثم يصمد للخليفة العباسى الناصر فيهزم جنده، ويقتل قائده، ويسوق المنهزمين إلى أسوار بغداد ثم يستولى على تبريز ويتخذها دار ملكه، ويغير على الكرج كأن أعداءه ليسوا أكفاء نضاله، وبينما هو فى تفليس جاءه نبأ هائل. وناهيك بخيانة الأعوان فى حومة الطعان : أنبئ أن براقا الحاجب والى كرمان قد مالأ المغول، فبادر من تفليس إلى كرمان ليعاقبه بخيانته ثم يرتد من كرمان إلى الشمال ليحارب التركمان والملاحدة فيهزمهم، ويجزيهم بما اقترفوا فى غيبته ويشرق تلقاء دامغان ليهزم جيشا من المغول، ويرجع إلى الغرب حين يعلم أن الكرج تألبوا عليه، فيلتقى الجمعان، وتأبى على جلال الدين شجاعته ومضاؤه إلا أن يبارز أبطال الكرج، وقد قتل منهم أربعة من صناديدهم ولاءً، ثم حمل على الكرج فهزمهم أجمعين.

هذه سنة سبع وعشرين وستمائة وجلال الدين يعمل ليؤلف أمراء المسلمين ويضرب بهم هذا العدو المدمر، فلا يمهله عدوه، فيباغته ثلاثون ألفا من المغول فينهزم أمامهم، ولكن ليستولى على مدينة كنجة.

عشر سنين نازل فيها جلال الدين منكبرتى أحداث الزمان مجتمعة، وغلب فيها جهد الأعداء وخيانة الأصدقاء، وجالد عدو المسلمين وخليفة المسلمين وحارب المغول والتركمان والملاحدة والكرج.

أرأيت جلال الدين نجما يدور به فلك من الخطوب بين المشرق والمغرب ؟ أعلمت أن الرجل العظيم يخلق أحداث التاريخ ولا ينقاد لها. إن يكن ما يروى عن جلال الدين مستحيلا، فكم بين حقائق التاريخ من مستحيلات !

غياث الدين أخو جلال الدين يمالئ الأعداء أيضا، فانظر إلى البطل العظيم عام ٦٢٨ وقد اجتمع عليه الأعداء، وخانه الإخوة والأصدقاء، وناء بقلبه خذلان أعوانه لا بطش أقرانه. ها هو ذا مكتئبا حزينا مشردا يسير فى قرى الكرد، ولعله كان يحاول أن يخلق من عزمه جندا وحربا وانتصارا وملكا، ولكن رجلا من الكرد باغته ففتك به :

أتته المنايا فى طريق خفية	على كل سمع حوله وعيان
ولو سلكت طرق السلاح لردها	بطول يمين واتساع جنان

ولكن النفس العظيمة التى ملأت العدو والصديق هيبة وإعجابا لا تموت بموت الجسد. فقد أكبر الناس أن يموت البطل الذى غلب الموت فى كل معترك فبقوا أكثر من

عشرين عاما يتحدثون أن بطلهم حى، وأنه ظهر فى هذا المكان أو ذاك. بل حاول بعض الناس أن يلبسوا عظمته، ويحملوا اسمه، فناءوا بالعبء فأخذهم المغول بغير عناء.

يا شباب الشرق ! قلبوا صفحات مجدكم، فإن أعظم المصائب أن تمحى ذكرى الآباء من صدور الأبناء، وإن لكم فى جلال الدين لعبرة.

أقول : وإن فيكم يا أستاذ الأجيال لعبرة وعظة وقدوة للجميع. لقد كان جلال الدين بطلا صنديدا فى ميدان، بل ميادين، القتال، وأنت - أيضا - يا دكتور عزام - بقلمك، وثقافاتك المتعددة، وأفكارك المستضيئة بنور الله، عشت تناضل عن أمتك العربية والإسلامية، وعن كل المقهورين. لقد كان جلال الدين بطلا، لكن من واجبنا الإشادة بك، إذ قدمت للقراء عامة، وللشباب خاصة، سيرة هذا البطل : أنت الذى اخترت قصته وجلوت صورته وجددت ذكره، وإن الذكرى تنفع المؤمنين. لقد كنت ببلاغتك، وأسلوبك القوى الأخاذ كالرسام الماهر المبدع الذى يخرج رسومه ناطقة معبرة، وعلى خير وجه.

قبر مفقود(1)

للدكتور عبد الوهاب عزام

بند ١٩:

قال صاحبى : هذا مسجد النبى دانيال، فولجنا إلى الفناء، فإذا جماعة من السؤّال جالسين إلى الجدار، كأنهم موتى أعوزتهم القبور. قال صاحبى : وهذا البناء مقبرة، فملنا ذات اليمين، إلى رجل واقف بباب البناء، عرفنا من موقفه وأوامره أنه قيم المقبرة.

السلام عليكم !

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. هل من حاجة ؟

يا سيدى : شاعر من شعراء الترك، ووزير من وزرائهم. قدم إلى مصر أيام محمد على باشا، ومات بهذه المدينة، ودفن بجوار النبى دانيال، فهل تعرف عن قبره خبرا ؟

- أكان وزيرا فى مصر ؟ كلا، وانما مر بمصر حاجا، ثم عاد إليها بعد الحج فمات بالإسكندرية.

---

(١) الرسالة - العدد ١٧ - مؤرخ ١٩٣٣/٩/١٥ م ص ٨.



- هذه مقبرة لأسرة الأمير عمر، يا محمد ! اذهب معهما إلى المقبرة القديمة، أليست مفتوحة ؟ لا يا سيدى، ولكن فتحها يسير، فهناك إبراهيم، سرنا وراء الرجل، ليسلك بنا مضايق فى فناء المسجد حتى انتهى إلى زقاق ضيق يفضى إلى باب مرتفع، فنادى إبراهيم وكلمه فجاء بحمل المفتاح، وتقدم إلى الباب ففتحه ثم ألقى خشبة ضخمة على كوم من الحطب أمام الباب فارتقى إليها ودخل فتبعناه.

سور قصير يحيط بعرصة واسعة فيها ارتفاع وانخفاض وأكوام من التراب وأكداس صغيرة من الأحجار، يبدو بداخلها قبران إلى اليمين عليهما نصبان من الرخام وإذا أنعم النظر تبين قبرين دارسين أو ثلاثة فى أرجاء أخرى.

قال إبراهيم : ليس هنا إلا القبران اللذان ترى. فتأملت كتابة تركية، فقرأت ما فى سطور الفناء من عظات وتواريخ وأسماء، فإذا اسمان آخران ودفينان مضى عليهما زهاء ثمانين عاما، فجلت فى أرجاء المقبرة، فرأيت قبرا عليه نصب واقع يتضمن اسما آخر ثم مررت بقبر لا نصب عليه وبنصب لا قبر له بطشت يد الزمان العسراء ببقايا الفناء.

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع !

لبثت حينا أسائل القبور والأحجار فلم تحر عن الشاعر جوابا. فرجعت إلى إبراهيم فقال : كانت هذه الأرض كلها قبورا فذهب بها الحفر. قلت : أى حفر ؟ قالو : قلبوا الأرض يفتشون عن قبر الإسكندر. وقد أخرجوا ما ضمته الأرض من أحجار وعظام إلى عشرين مترا فلم يظفروا بشىء. قلت : إنها لتعزية إن فقدنا قبر شاعرنا فقد ضل فى ثنايا الأرض وظلمات التاريخ قبر الملك العظيم الفاتح الإسكندر بن فليب. إنها لتعزية ! رجعنا إلى صاحبنا الذى أشار بالذهاب إلى المقبرة القديمة فقال : هل عثرتم على القبر المنشود ؟ لا، رأينا قبورا قليلة وقرأنا ما وجدنا من أنصاب فلم نعثر على قبر عاكف باشا.

هنا مقبرة سعيد باشا، أيمكن أن يكون مدفونا هنالك ؟ ليس بعيدا فقد حدث التاريخ أن محمد على باشا أحسن وفادته، وبالغ فى الحفاوة به، فليس بدعا أن يكون قد أمر بدفنه بين قبور الأمراء، يا فلان (قيم مقبرة سعيد باشا) وكان بجانبه - ادخل بهما لعلهما يجدان القبر، فأحسبنى رأيت هذا الاسم على بعض القبور.

عندى أوراق فيها أسماء القبور كلها، فتفضلا معى. ودخل إلى بهو به مكتب فأخرج ورقتين بهما أسماء معظمة لأمراء وأميرات. أسماء كانت عناوين حياة حافلة بالعظمة والرفاهية. مليئة بخطوب الزمان، ونوب الأيام، وما هى الآن إلا أسماء قبور ما وجدت «عاكف باشا» بين الأسماء فشكرت الرجلين وانصرفت.

قال صاحبي : لم تعثر عليه. قلت : أجل، ولكنى أعلم أنه فى باطن الأرض، فإن لم يكن لشاعر من قبر. فهب الأرض كلها قبره. يا أخى : إنما يخلد الناس بالآثار، لا بهذه الأحجار. وقد صدق جلال الدين الرومى إذ قال :

وذكر الدكتور عزام البيت بالفارسية، ثم بالعربية (من صياغته طبعا)

فلا تطلبن فى الأرض قبرى فإنما صدور الرجال العارفين مزارى[1]

وكما انشغل شيخنا وأستاذنا عزام بالبحث عن قبر لعظيم يعرفه بين قبور معظمها دارس هناك. فقد انشغلت بالبحث عن قبر عالم جليل، وفقيه مجتهد، هو الإمام القرافى، وكان ذلك منذ نحو خمسين عاما. وكنت قد قرأت أنه دفن بدير الطين بمصر القديمة. ودير الطين هو المسمى الآن دار السلام وهى غير بعيدة عن المعادى حيث أقيم. وكما ذهبت جهود الدكتور عزام بلا طائل، ذهبت كذلك جهودى، ولى بالقرافى اهتمام، وقد كان أهم مصادرى فى بحث كتبته. وفى الموضوع تفصيل لن أهمله بإذن الله.

الرافعى

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٢٠ :

كان مصطفى صادق الرافعى أحد كتاب الرسالة، فلما صعدت روحه إلى رحاب الله، بكَتْهُ الرسالة ورثته. وفى العدد ٢٠٣ منها (وهو مؤرخ ٢٤ مايو سنة **١٩٣٧**) عدة مقالات عنه. وقد تركت الرسالة المقالة الافتتاحية، وهى بعنوان **(الرافعى)** للدكتور عزام. و فى العدد التالى (٢٠٤) مقالة عنه لأخى (الإنسان) الأستاذ عبدالمنعم خلاف، وهى بعنوان «مات كاتب البعث !» (الرحمة والرضوان عليهما، وعلى صاحب الافتتاحية الدكتور عزام) – لم أتابع الأعداد التالية. ولكنى أعلم أن عارفى مكانته وعلمه وفضله لم ولن ينسوه.

بدأ الدكتور عزام بمايلى : «قال قائل : «مات سنائى».

إن موت مثل هذا العظيم ليس خطبا أمما. لم يكن تبنة ذهبت بها الريح، ولا كان ماءً جمد فى الزمهرير، ولا كان مشطا كسرته شعرة، ولا كان حبة سحقتها الأرض، إنما

(١) مزار كلمة مشتقة من الزيارة، وهى تقال للقبر فى الفارسية والتركية، وقد آثرت بقاءها فى الترجمة.

كان كنزاً من الذهب فى هذا التراب لا يزن العالمين بمثقال ذرة. لقد رمى القالب الترابى إلى التراب، وحمل الروح والعقل إلى السموات»[1].

ذكرت هذه الأبيات، أبيات جلال الدين الرومى، حينما قرأت نعى الرافعى، واعجبا! أنضبت هذه النفس الفياضة؟ أذبل هذا الخلق النضير؟ أخمدت هذه الجذوه؟ أطفئ هذا المصباح؟ أكلّت هذه العزيمة الماضية؟ أفترت هذه الهمة الدائبة؟ أأظلم هذا القلب الذى يملأ الدنيا ضياء؟ أوقف هذا الفكر السيار؟ أوقف هذا الخيال الطيار؟ أسكن هذا القلم المصور الذى يصبغ المعالم كما يشاء؟ يضحكه ويبكيه، ويسخطه ويرضيه، والذى إذا شاء صور أحزانه مواسم، ورد أعياده مآتم؟ أمات الرافعى فى وقدة جنانه، وشعلة بيانه، وعزة قلبه وسلطانه؟ أطُوىَ القلب الذى وسع الدنيا وما وسعته، وحقرها وأكبرته؟

كلا كلا! إن مولد الحر فى الدنيا قليل، وإن موت الحر فى الدنيا مستحيل. إن مولد الحر تتمخض عنه الأجيال بعد عناد، ويمهد له الزمان بعد جهاد، ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ. فإذا انقضى عمله، وجاء أجله، فهو تاريخ لا يمحّى، وذكرى لا تموت.

إن الحر يولد على هذه الأرض كما يولد النجم فى أطباق السماء، فلا يزال وضاءً هادياً، أو كما يولد النهر فى سفح الجبل؛ فلا يفتأ جاريا ساقيا، أو كما تولد الحقيقة فى أفكار البشر ثم لا تموت.

إن الحر الكريم قطرة صافية تستمد الله، فلا يحول عنها نوره، ولا يتحول عنها وحيه. وهى فى خلق الله سنة لا تتبدل. فلا تستعبد الحرَّ الأهواء، ولا تذله المطامع. وهو يأبى على الحدود وينفر من القيود. ويكبر على الزمان والمكان. إنْ خلق الناسَ زمانُهم خلق هو زمانه، وإن حدَّ الناسَ مكانُهم حدّ هو مكانه، فإذا ساق الناسَ التقليدُ، أوقادهم، وإذا خيل إليهم الباطل حقا، والحق باطلا، وقف هو هازئاً أبيا يستوحى ربه، ويستفتى قلبه. وإذا جرف التيار الخاصة والدهماء، فاضطربوا فى موج الحادثات كالغثاء ترمى بهم كل شط، وتنفر من كل أرض، ثبت الحر كالطود الأشم فى البحر الخضم.

يظل كالطود يجرى حوله نهر – من الخطوب له بالناس طغيان

فاتت مآرب أهل الذل قمته   فما يذلله نيل وحرمان

---

1) ترجمة أبيات لجلال الدين الرومى. و «سنائى شاعر صوفى كبير».

إن الرجل الحر صفحة فى التاريخ جديدة، وخطوة فى سير البشرية متقدمة. على حين لايظفر التاريخ بجديد فى آلاف المواليد، ولايخطو خطوة إلى الأمام فى كثير من الأعوام. وهل التاريخ - كما قالوا - إلا إعادة وتكرار ؟

وقد أوتى الرافعى من الحرية الإلهية نصيبا، ومن النور الإلهى قلبا. ومن الفيض الإلهى ينبوعاً، فلبث دهره نسيج وحده. وظل حياته ينير للسالكين، ويسقى للظامئين ولقد أوتى من العزة الإسلامية ما تخر له الجبال. ومن الهمة القرآنية ما تنشق له الأهوال. ولقد أوتى من الإيمان ما أصغر الدهر فى سطواته، ومن نور الإيمان ما شق على الزمان ظلماته.

كان الرافعى نوراً وسلامًا. ومحبةً ووئاما. فإذا سيمَ الدنية فى دينه أو فى أمته، وإذا تجهم الباطل لحقه، أو تطلعت المذلة إلى خلقه، ألفيت النور نارًا تلظى، والسلم حربا تهيج، والحب بغضا ثائراً، والرحمة شدة حاطمة.

لبثت سنين طوالا أقرأ للرافعى ولا أراه، وأحبه ولا ألقاه، وأتحدث عنه معجبا ثم أقول لمحدثى هذا وجه ما سعدت برؤياه، حتى لقيته العام فى لجنة التأليف والترجمة و النشر، وكأنما صديقان قديمان. ثم أتاحت الفرص لقاءه مرتين أو ثلاثاً، كانت آخرتها فى دار الرسالة، بعد أن كتبت مقالى عن كتابه «وحى القلم» ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد، وفرقة الدهر !

وإنى لأعترف للقارئ فى غير تزيد ولا تصنع أنى أجد فى نفسى وقلبى تهيبا للكتابة عن الرافعى، وأرى جوانب تتسع ثم تتسع حتى يضيق المجال، ولقد حاولت أن أنظم، فكنت كلما أخذت القلم تذكرت هذه الأبيات من منظومتى «اللمعات» - فقلت إنها تمثله، إنها تمثل الرجل الحر حيث كان :

حبذا الصوت فمن هذا البشير	ومن الهاتف بالقلب الكبير ؟
ومن البارق فى هذى الغيوم	ومن المسعد فى هذى الهموم ؟
ومن الهابط فى نور السما	هاديا فى الأرض جيلا مظلما؟
ومن السائق شطر الحرم	وإلى الأصنام سير الأمم ؟
ومن القارئ فى بيت الصنم	سورة الإخلاص في هذا النغم ؟
ومن الحر الذى قد حطما	من قيود الأسر هذا الأدهما ؟
ومن الآبى على كل القيود	ومن القاطع أغلال العبيد ؟
ومن الباعث فى ميت الأمم	ثورة العزة من هذى الهمم ؟
لاح كالغرة في هذا السواد	بص كالجمرة فى هذا الرماد ؟

إنه ليصدق من يجيب كل سؤال فى هذه الأبيات بهذا الاسم الكبير «مصطفى صادق الرافعى» عبدالوهاب عزام.

أقول : إن شيخنا الجليل وإمامنا الكبير الدكتور عبدالوهاب عزام، كأنه فى هذه الكلمة (نثرها ونظمها) - يصف نفسه، ويرثيها أيضا،

سورية !
للدكتور عبدالوهاب عزام
(افتتاحية العدد ٢٢٧ المؤرخ ٨ / ١١ / ١٩٣٧ م
ص ١٨٠١ وما بعدها فى الرسالة

بند ٢١ :

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة، والجنات الناضرة، والمياه الثَّارَّة ! سورية سراح الفؤاد ونزهة الطرف. سورية الكادحة التى يجهد أهلها فى السهل والجبل يخرجون بالماء القليل شتَّى الثمرات، ويُنْبِتُونَ به يانع الجنات، سورية بَرَدَى والعاصى! سورية الصابرة التى وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات. المجاهدة التى تجادل عن نفسها، وتجاهد عن شرفها، دفاع البطل الأصيد الأعزل يمضى بجنانه ويده يشق الأهوال إلى غايته، ويحطم الخطوب إلى طلبته، مجاهداً مثابراً، مرزأً صابرا. سورية لم تجف فيها دماء الشهداء، ولم تنقطع سلسلة النوائب. سورية التى تَفيضُ بالذكَر المجيدة، والسِّير الخالدة، وتمت بالرحم الواشجة، والقربى الواصلة والجوار والذمام !

سورية الجميلة الحبيبة، المكافحة المجاهدة الصابرة، فَجِئَها السيل كقطع الليل، ودهمها القضاء من السماء، فاستحالت جبالها أنهاراً، وسهولها بحاراً. طغى السيل بالناس والدواب وجرف القرى والضياع، وذهب بالزروع والثمار. فهذه جثث الغرقى منثورة فى السهول، وأنقاض الدور تغص بها الأودية، وتحت الماء والطين عتاد البائسين، وذخيرة المساكين وما أبقت الأزمات، من ثياب وأقوات. فانظر إلى الشمل المبدد، والأمل المخَيَّب. والهلع والفزع، والفاقة والجوع. انظر إلى الدموع الجارية. والنظرات الهالعة. والخدود الضارعة، والعقول الذاهلة، والقلوب الحائرة، واستمع زفرات الأحياء على الأموات، وبكاء الأولاد، أو نحيب الأباء والأمهات. استمع فكم أنَّةُ كليم، وآهة يتيم !

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل، خليق أن يكون مجرى الدمع، ويذكر قول أبى العلاء :



ليت دموعى بمِنىً سيّلت ليشرب الحجاج من زمزمين

لك الله يا سوريا : تركتك منذ قليل تعانين ما تعانين، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما نؤمل من انتعاشك، وما نرجو من نهوضك، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة، ولكن فى صبرك وجهادك عزاء. وكل غمرة إلى انجلاء. وإن وراء هذا الظلام فجرا، وإن مع العسر يسرا. هذه سوريا فى نكبتها، ممن ندعو لنجدتها. إن ندع العرب فأهل النجدة وأولو الحمية. وحفظة الجوار، ورعاة العهد، فى قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء، وفى قرابتهم العاطفة عزاء، وفى أيديهم السخية ما يخفف البلاء. وهم للبائس خير وزَر، وللاجئ أمنع عصَر. وإن ندع المسلمين والنصارى، فالدين يأمرهم بالتراحم، ويحفزهم إلى المواساة. وإن لإخوانهم فيهم لنصراء رحماء يجيبون دعوة المضطر، ويمسحون دمعة المحزون، ويفرجون كربة المكروب. إن عليهم أن يمسحوا على هذه القلوب الدامية، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية.

بل أدعو البشر أجمعين، والإنسانية كلها، دعوة عامة شاملة. وأستنجد القلوب الرحيمة لا أستثنى أحداً، أن تمد الأيدى الآسية إلى هذه الألوف التى يعوزها الثوب واللباس والمأوى. يا معشر الكتاب والشعراء. كيف تقسو فى هذه المحنة القلوب، وتجمد فى هذه الكارثة الدموع، ويصمت فى هذه الفاجعة البيان، ويخذل القلم واللسان ؟

إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات، وللدمار آيات، وللشعر مقالا، وللبيان مجالا . دمشق العظيمة تستغيث، والمعرة الخالدة تستنجد، فيأدباء العربية والإسلام ! أحيوا الهمم، واشحذوا العزائم، ويا أحباء أبى العلاء، هذا شيخ المعرة فى بيانه يستنجدكم لجيرانه. يقول :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهم النعماء ؟

ويقول :

من حاول الحزم فى إسداء عارفة فَلْيُسْدِها عند أهل الحاج والشكر
ومن بغى الأجر محضا فلينادِ لها برًّا فقيرا ، وإن لاقاه بالنكر

فألقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشكرُ تجمعوا الحزم والخير فى مكرمة. ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل، واستمعوا إليه يقول

إذا طرق المسكين دارك فأجبه قليلا ولو مقدار حبة خردل
ولا تحتقر شيئاً تساعفه به فرب حصاة أيدت ظهر مجدل

بماذا أعقب على هذه الكلمة للدكتور عزام ؟

إنه في هذه، وفي غيرهـا، ودائما، أمير البيان، وشاعـر الأشجان، والمشارك - من أعمق وجدانه - لكل المحزونين والمقهورين، والفقراء والمساكين، في بقاع الأرض عامة، وفي الديار العربـية والإسلامية خاصة. كـان - كشيخنا الأفغانـي - ولو إلى حد مًّا - مصريا، عربيا، إسلاميا ؟

كان مثله، ولو إلى حد مًّا، جوابا في الآفاق، جوَّالا في كل الأركان.

كل الديار الإسـلامية والشرقـية دياره. كان «إنسـانا» (والإسلام قمة الإنسـانية) - وحيثما وُجِدَ مقهور في أي بقعة من بقـاع الأرض فهو هناك، ومعه بقلبه وعقله وقلمه. إني أرى حبـه من حب الله ورسوله. إنه رائـد من رواد الفكر الإسلامي، لاتـشوبه في ذلك أية شائبة وتحت هـذه المظلة عاش، وتحتها، كافح وناضـل، وأحب وعادى، عليه الرحمة والـرضوان، وجعل الله في شبـابنا، وفي الآتين من الأجيـال، أسوة وقدوة في الدكتـور عزام. إنه كلـه مستمـد من كتـاب الله، وسنة رسول الـله، وسيرة أصـحاب رسول الله.

١- النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٢٢:

كتب أستاذ الأجيال، المؤمن القوى الإيمان، الثابت الجنان، الصادق اللهجة، الشجاع الرأي، الذي لايخشى فـي الحق لومة لائم، سبع مقـالات في الرسالة[١]، تحت عنوان «النهضة التركية الأخيرة»

بدأ - عليه الرحمة والرضوان - مقاله الأول بالعبارة التالية: «وجهت إحدى المجلات الكبيرة في مصر إلى بعض الكتاب هذا الـسؤال : «إلى أي حد يجب الاقتداء بتركيا في نواحي نهضـتها الأخيرة»، فـحفزني هذا إلى الكتـابة في موضوع تجنبتـه زمنا طويلاً لا استهانة به، فهو جد خطير، ولكن إشفاقا بالنفس حين تعالجه.

(١) الأعداد : ١٠١ - ص ٩٤١ وما بعدها - والعدد - ١٠٣ ص ١٠٠٩ ومابعدها - والعدد ١٠٤ ص ١٠٥٣ وما بـعدها - والعـدد ١٠٦ ص ١١٣٥ ومابعـدها - والعـدد ١٠٧ ص ١١٧٣ وما بعدها - والعدد ١٠٨ - ص ١٢١٠ وما بعدها - والعدد ١٠٩ - ص ١٢٥٣ وما بعدها.



أقول : سأكتفى بذكر الوقائع (أو أهمها)، ثم أتبع هذا بفقرات مما كتبه الدكتور عزام عنها، ثم أختم بمعلومات جديدة عن مصطفى كمال نقلا عن كتابى «الوسيط فى النظم الإسلامية - الإسلام والدولة» (طبعة - ١٩٨٢ م).

أعود إلى الدكتور عزام الذى يقول :

- ١ -

الترك العثمانيون إخوان لنا، نشأنا على حبهم. . نفرح كلما فرحوا، ونبتئس كلما ابتأسوا ولقد نشأت على هذا الحب. . . وفيهم تعلمت الشعر فشدوت به فى حروب طرابلس والبلقان، وكتبت أستحث الهمم لتقديم المال وغيره لهم. ولما قذفوا بجيش اليونان فى البحر، كاد الناس، وخاصة فى مصر يجن جنونهم فرحا وزَهْواً.

- ٢ -

ثم وقعت هذه الواقعات التى تسمى النهضة التركية الأخيرة، فخابت من الناس الظنون، وتحطمت الآمال، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم، يراه قد ركب رأسه، واشتط فى هواه، يقطع أواصر الأخوة، ويصرم حبال المودة لايستطيع أن يغضى عن سيئاته، وهى وخيمة العواقب، ولاتطيب نفسه أن يذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومىْ همو قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمى

- ٣ -

إن عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التى أبقتها الأحداث فى أيديها أمر محمود. . . وهم فى ذلك مأمومون لا أئمة، والأئمة فى ذلك دول أوربا.

- ٤ -

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة ثم نلقى عليها نظرة جامعة. وسنعترف لهم فى هذا بحسناتهم، ونأخذ عليهم سيئاتهم أخذ الصديق الناصح، لا العدو الشامت، آملين أن يزدادوا فى الإحسان، وينزعوا عن الإساءة. ونحن إذا خاصمنا القوم فى أمور، فليس خصمنا الأمة التركية جميعها، بل الحكومة التركية. . . . ونحن لا ننفرد بموقفنا بل يشاركنا فيه كثير من رجالات الترك، كما يشاركنا كثير من العلماء وأولى الرأى والخبرة. ونبدأ بمسألة «الخلافة»، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور. ومهما يقل القائلون فى صحة الخلافة العثمانية وفسادها. . . فلا ريب عندى أن الخلافة ما أضرت

بالدولة العثمانية قط، بل نفعتها أحيانا. وما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دوا الخلافة، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية. والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثماني حين ضعفها، وكساها جلالا فى الشرق والغرب.

وقد أدرك ذلك السلطان عبدالحميد، فاجتهد أن يمكن هذه الخلافة فى نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا، وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن إنجلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرةً، وتنصرهم بكل قواها فى الحرب الأخيرة حين ثار مسلمو الهند وطلبوا منها الإبقاء على دولة الخلافة. وقد رأيت بعينى صورة الغازى مصطفى كمال باشا فى خلعة[1] سنوسية أهداها إليه السيد أحمد السنوسى فلبسها تبركا. لقد كانت هذه الخلافة فى الزمن العصيب علماً. تعتز به نفوس المسلمين، ويرونه فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم، وتباشير المستقبل العزيز. وقد كان إلغاء الخلافة فى خطوب مكفهرة كحل رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ، وبَلَّغَتْ أعداء هم أبعد غاية... وأحسب أن الإنكليز - مثلا - كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغها إياهم الكماليون بغير بذل ولا كد... ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الإسلام قد أخَّروا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشترى مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل والمال الوفير، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا. ومهما كانت ادعاءات الكماليين لتبرير ما فعلوا، فإننا نقرر أن ذلك شر أصاب المسلمين لا محالة. وقد أدرك البعيدون شر ما فعل الكماليون، وبكوا من أجله طويلا. على أن عمل الكماليين من بَعْدُ دَلَّ على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة، والخطوة الأولى عن خطة موضوعة، لقد انفردوا بما صنعوا من إلغاء الخلافة، وأصابهم عَمىً فى القلوب فلم يدركوا الشر المستطير الذى أصاب عامة المسلمين.

٢ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبدالوهاب عزام

العدد (١٠٣ص١٠٠ وما بعدها)

يقول بعضهم : إن الترك قد احتفظوا بالخلافة ما استطاعوا، فلما نكبتهم الأحداث فضاقت رقعة دولتهم عجزوا عن حمل هذه الأمانة العظيمة فتركوها كارهين. وجوابنا أن بعض زعماء الترك أشاروا بأن يدعى المسلمون إلى مؤتمر عام ويقال لهم : هاكم

---

(١) فى الأصل (قلعة)



خلافتكـم قد عجزنا عن حمل أعـبائها، فتشـاوروا بينكم، وسنوا للخلافـة سنة تلائم زمانكـم.. وأعلم رجال الحكومـة التركيـة عصمـت باشا الذى كان فـى لوزان بذلك. فلمـاذا نقض أولـو الحول منـهم ما أبرمـوه، وسارعـوا فنفـضوا أيديـهم من المسـلمين وخلافتهم وآذنوهم أن لا أخوة بيننا وبينكم ؟

المسلمون والتقليد :

إذا نقدت أمة أمورها، ونظرت فى أحوالها، فنفـذت إلى بواطنها جهد النظر الثاقب والروية والفكر، ثم هداها نظرها إلى أن تستبدل سنة بسنة، فتلك أمة رشيدة حميدة وإن أخطأها الصواب، وقـل أن يخطئها. وإذا أخذت أمة بـأسباب التقليد.. كـلما لاح لها لألاء من أمة مشت إلـيه، وكلما سمعت نغـمة قوم هامت بها، فتـلك أمة ضالة، وإن نقلت عن غـيرها هدى. ذلك بأنها حـقرت عقولها، وأسـلمت إلى يد غيرها أزمـتها، فخبطت خبط عشواء، وانطلقت كالحاطب فى الظلماء، لقد أهدرت إنسانيتها حين ألغت إرادتها. ونقلت عن غيرها ما نقلت، وقلدت ما قلدت، فتلك أمة ممسوخة، وقد سمعنا أن أمما مسخت فأنكرنا، وقيل إنها مُسخت قرودًا فعجبنا، ثم رأينا عمل بعض الناس فى هذا العصر فصدقنا !

قد ابتلـى كثير من المسلـمين بداء التقليد، وفـشا فيهم خلـق العبيد. حرمـوا النظرة النقّادة.. والهـمة الخلاقة.. رأوا سلاحـهم أضعف من سلاح أوروبا، وعـلمهم أقل، ونظامهم أوهن، فجـعلوا ذلك تعلة إلى نبذ ما عندهم من خلق ودين. لـتتحلل النفس من تكـاليف الإنسـانية، وزيـن لهم الهـوى أن يقيـسوا الديـن والأخلاق على الـعلوم والصنـاعات فـمضـوا يرون كل مـا عندهم بـاطلا، ورأوا كل شىء فـى أوروبا حقـا، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عنـدهم، ويأخذوا كل ما عند الأوروبيين. وخافوا أن يؤخذ عليهم الاستمساك بدينهم وأخلاقهم، فتنافسوا فى هجرها وتحقيرها، فما يحافظون على رأى أو خلق إلا أن تأتـيهم شهـادة عليه من عـالم أو كاتب أوربى.. وكم قـلت وقال غيرى : إن المـدنية الخلقية والـدينية ليست كـالمدنية الصناعيـة، فهذه قائمـة على علوم طبيعـية لا تختلف فـيها الأمم وهى ميراث إنسـانى، يمكن للكل الأخذ بـها. ولكنه لا يستطيع أن يغير أخـلاقه وعاداته ويكون فرنسيا فى خمسين سنة. والحـضارة النفسية هى الإنسانيـة حقا، والمدنية فى صـميمها، وهـى مشتقة من نـفوس الأمة تفسد بـفسادها، وتصلح بصلاحها. وهناك مـجالات فسيحة، تتسع لقادة الفكر والفن لـيعملوا ويعملوا ليـرتقوا بالـشعوب إلى مـا هو أهدى سـبيلا. وعـلى الولاة والدعاة واجـبات ملـحة، ومكانهم دائما وفى كل إصلاح - هو الصف الأول.

وأعود إلى الدكتور عزام إذ يقول : من لى فى الأمة الإسلامية بعشرين رجلا كهذا العالم الكبير، والشاعر المبدع الذى تنفخ أنفاسه الروح فى الأجسام الهامدة، والأمل فى القلوب اليائسة، الرجل المبارك محمد إقبال الذى انبعث صوته فى الشرق بالحياة والهدى والعزة والكرامة والطموح إلى العلياء والسمو بالنفس إلى أعلى درجاتها، ذلك الرجل الحر الذى وقف من حضارة أوروبا وفلسفتها موقف الناقد البصير، يكشف عن زيوفها ويبين عن بهرجها، كما رأينا فينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرءوا، وهم لا يسمعون ولا يقرءون إلا عن أوروبا. . إيه يا ضلال التقليد، وعباد الأصنام فى القرن العشرين !

أقول : نحن الآن فى عام ١٩٩٧، أى على مشارف القرن الحادى والعشرين. ومضى على العدد الذى أنقل عنه اثنان وستون عاما. وفى مصر - على سبيل المثال - بقايا شيوعيين وكثير من العالمانيين، وهم يشغلون المساحة الأكبر فى وسائل الإعلام جميعها. وهم ممن لا يكون منهم إلى الفكر المنحرف عن الإسلام، وإذا قمنا بالرد عليهم (غيرى وأنا) لا تنشر الصحف التى نشرت لهم ردودنا عليهم !!

أعود إلى الدكتور عزام الذى ضرب مثلا - بما عندنا فى مصر - وذلك بنقل قانوننا المدنى وغيره عن فرنسا وكأننا عجزنا عن الرجوع إلى كتابنا وسنة نبينا، وكأننا ألقينا وراء ظهورنا تراثنا الفقهى الذى بذل فيه سلفنا ما بذلوا على مدى القرون الطوال !!

ومن عبارات الدكتور عزام « إن الرجل الحر سيد الزمان والمكان، يسخرهما ولا يذل لهما.

أين العزائم التى تلقى الزمان بملء خطوبه هيبة، وترد أحداثه بأشد منها صولة ؟!!

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوروبا غلوهم فى النعرات القومية، والتكاثر بالمفاخر التاريخية، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية (كالفرعونية فى مصر - وهذا يعنى العودة إلى عبادة العجل) وهكذا فى غير مصر[1]. . لقد دعيت كل أمة (الفرس والترك وغيرهما) إلى جاهليتها، ومن وراء ذلك - ولا ريب فتن صليبية وصهيونية. . !!

بينما يجهد عقلاء المسلمين لإيقاظهم من رقدتهم، ويحرقون أنفسهم لإشعال الحياة فيهم. . . ولكننا إذا نظرنا وجدنا. . . الهمم العالية تسف، والعزائم الماضية تهن وإذا حياة تجفل من نفسها، وتعتز بغيرها، وإذا نهضة من المحاكاة عَلِيلة، وخطة من التقليد

(١) بينما أوروبا الآن تتجه نحو ما يسمى بالاتحاد الأوربى ؟!



ذليلة. قصاراها « اقطع كل ما يربطك بالإسلام وأممه، وأحكم كل ما يصلك بأوربا وسننها، فانظر ماذا صنعوا إنفاذا لهذه الخطة.. (له بقية - عبدالوهاب عزام)

أقول : (مع الأسى وعدم فقدان الأمل) فاز حزب «الرفاه الإسلامى» (بزعامة نجم الدين أربكان) فى الانتخابات الأخيرة فى تركيا بمقاعد كثيرة فى البرلمان تفوق بكثير ما أحرزه أى حزب آخر. وعهد إلى «أربكان» طبقا للدستور بتأليف الوزارة. لكن «المؤسسة العسكرية» فى تركيا تفرض نفسها، «وعالمانيتها»، وتتدخل فى شئون الحكم كما شاء لها هواها - اعترضت على الزى الإسلامى للسيدات والتلميذات، واعترضت على فتح مدارس إسلامية... إلى أخره، وتقوم الآن أزمة سياسية وزارية فى تركيا[1] والحديث يدور هناك حول إجراء انتخابات جديدة.

٣ - النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبدالوهاب عزام

أقول : بدأ الدكتور عزام هذا الجزء الثالث من الدراسة بـ «شذرات من كلام محمد إقبال» فقال : أقَفِّى على ما كتبته فى المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندى محمد إقبال تؤيد ما قلت. وشِعْرُ إقبال « كأنه تنزيل من التنزيل»[2]. وإذا كان من الصعب على نفسى أن أتجاوزه، فذلك لأنى أقصد من متابعة هذه الدراسة مجرد إعطاء قارئى فكرة عامة عنها.

ومع ذلك أنقل هذه العبارة مما جاء فى خاتمة كتاب الفيلسوف الكبير «شباب عطاش، كُؤوسهم فارغة، ووجوههم نضرة، ورءوسهم مضيئة، وأرواحهم مظلمة، ضعاف البصر، فقد حرموا اليقين والأمل. لم تدرك أعينهم شيئا فى هذا العالم، يكفرون بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم. إن منكر الحق عند الشيوخ كافر، ومنكر نفسه عندى أكفر ».

وعاد أستاذ الأجيال إلى الكلام فيما فعله الكماليون فقال : وأقدم فى البداية - ترجمة - البلاغ الذى أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة؛ ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت. ١ - بمنة الكريم سيفتح مجلس الأمة الكبير فى أنقرة

---

(١) والمؤسسة العسكرية التركية تتعاون مع إسرائيل عسكريا، رغم أن هذا يسىء إلى جيرانها أبلغ الإساءة.

(٢) إذا لم تكن الذاكرة قد خانت، فإن قائل هذه العبارة « سعد زغلول » تقريظا لكتاب لمصطفى صادق الرافعى، وأظن أن الكتاب فى موضوع إعجاز القرآن.



يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة - وتمضى مواد البلاغ، وقواعد الإسلام ظاهرة فيها. . . وهذه هى المادة السادسة والأخيرة « نضرع إلى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل - باسم الهيئة التمثيلية « مصطفى كمال ».

يقول الدكتور عزام - عقب البلاغ : ذلك ما افتتح به الكماليون عملهم فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للإسلام، وكان أشدهم إفراطا فى هذا الغازى مصطفى كمال باشا الذى كان المسلمون جميعهم يعدونه بطل أبطالهم غير مدافع. ولست أدرى أيعود الكماليون فيتوسلون بالدين إذا وقعوا فى محنة أخرى. ولست أود لهم المحن. بل أدعو لهم بالعافية والهدى. حدثنى من أثق به عن الشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله أن الغازى قال له مشيرا إلى القرآن الكريم: «لن تفلحوا مادام هذا الكتاب البالى إمامكم» وحدثنى آخر من كبار الرجال أن الغازى رمى بالمصحف ساخرا، وكان يأمر بأن تُترجم له بعض آياته لبتخذها هزوا. ألم يكن للنهضة التركية بدٌّ من هذا؟ لقد سبقنا الأوربيون فى كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم، أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتوراة والإنجيل. ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لايقتدى بها العقلاء. وقد قرأت فى بعض الجرائد الإنجليزية منذ سنين أن ملك الإنكليز يواظب على قراءة فصول من التوراة منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا. وقد كتب الكماليون فى دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الإسلام، ثم عادوا فمحوا ذلك منادين بأن الدولة لادين لها. ثم عمدوا إلى القوانين المدنية وهى مستنبطة من الشريعة الإسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا. وليسوا أول من يلام على ذلك، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة، ولكن الكماليين كانوا بدعا من الأمم فى اختيار قانونهم الجديد. . . إذ جاءوا بالقانون السويسرى مجموعا مطبوعاً، مجلداً وعُرض على المجلس هذا المجلد فأجمع عليه الأعضاء. . . ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية، والتأذين كلمات قليلة صارت شعارا للمسلمين فى أقطار الأرض ويؤذن بما فيها باللغة العربية. وما أحسبهم إلا مُلغين للأذان كلية ، يقول الدكتور عزام :

ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد، وبها تسع عشرة كلية، مع كل واحدة منها كنيسة[1]، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة. وفى الجامعة المصرية التى شيد بناؤها على طراز أوربى - لايوجد فيها مسجد. لماذا نقلدهم فى المراقص ولانقلدهم فى بناء المعابد فى الجامعات ؟!

---

(١) زار كاتب هذه السطور جامعة أكسفورد، ورأى قيام الكنيسة فى كل كلية. هل كان ذلك لأن الرسالة الكنسيَّة أعرق عندهم وأسبق من الرسالة المدنية ؟!

ومما فعله الكماليون آخـراً تحويل جامع أيا صوفيا كنيسة بمحو مـا فيه من آيات قرآنيةً وأحاديثِ والكشف عمـا ستره المسلمون من صور القديسين والملائكـة والصلبان ونحوها من نقـوش المسيحـية، وجعـلوه متحـفا. ! . يقـول الدكتور عـزام لست أرى ما فـعله الكماليون بأيـا صوفيا إلا إنفاذا للمنهاج الذى وضـعوه. فهذا جامع كان كنيـسة معَظَّمةً عند النصـارى، وقد فتح المسلمون القـسطنطينية فـجعلوا من آيات الفتح والظـفر تحويل الكنيسـة إلى جامع، فطمسوا نقـوش النصْرانية فيهـا، وبنوا لها منارتين ونصبـوا أمامها لوحة كتبوا فيها حديثا مرويا عندهم «لتفتـحن القسطنطينية، ولنعم الجيش جيشها ولنعم الأمير أمـيرها» وقد بلغنـى أخيراً أن الحكومة التـركية هدمت المسـجد الجميل، مـسجد المدرسة البحـرية فى (هيبة لى أطه). هذا المسـجد الذى كان يشرف على بـحر مرمرة، يوحى إلى المسلم أن دينه ينـبغى أن يُعَزَّ فى البر والبحر. فإن صـدق هذا الخبر. ولست على يقين منه، فهو حلقة من هذه السلسلة، (لها بقية)

عبدالوهاب عزام

٤ - النهضة التركية الأخيرة - للدكتور عبدالوهاب عزام

الحروف اللاتينية

كتب المرحـوم الدكتور عزام، حـول الكتابة بالحروف الـلاتينية، سواء فى تـركيا أو غيـرها أربع صفحـات كاملة من صفـحات الرسالة. وقـد ناقش - كعادتـه - الموضوع باستيـعاب، وتفصيل ودقة كـما عوَّد قراءه. ولم تفته قـط الجوانب التاريخية والـعلمية والفنيـة. ومن عباراته(ص ١٣٦) مسـألة الحروف اللاتينيـة ليست فيـما أرى ضرورة أو إصلاحا، ولكنها فـتنة من فتن تقليد أوربا التى ضربت الشرق عـامة، والمسلمين خاصة بالذلة والهـوان. وقد أورد الدكتور عزام - فى مـقاله -،مجادلة بينه وبـين آخرين حول كتابة اللغة العـربية بالحروف اللاتينية. والحمد لله أن كان الـفشل هو خاتمة هذا الاتجاه. وشاهِدنا هو واقعنا اليوم وغدا وإلى ماشاء الله[(١)].

وأورد الدكتور عزام فى نهاية المقال عيوبا للـحروف اللاتينية ومزايا للحروف العربية، ومن ذلك أن الكتابة الفرنسية - وهى أدق الكتابات الأوربيـة فيها عيوب كثيرة، فاللفظ الواحد، أو الألفاظ المـتحدة فى الصوت تكتب بصـورة مختلفة (وذكر أمثـلة) فالصوت وحده لايدل على رسم الكلمة. وكم فى الفرنـسية من حروف تُكْتَبُ ولا تُلْفظ وكم من

(١) كان أحد الشخصيات المصرية البارزة (أظنه عبدالعزيـز باشا فهمى) - قد اقترح كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وقد ذهب صوته أدراج الرياح.



حرف فى الكتـابة الإنكليزية يلفظ ولايـكتب، وآخر يكتب ولا يلفظ (وضـرب أمثلة).
وإن للحروف العـربية لمزايا عظيمـة، فهى أيسر كتـابةً. . وهى أخصر رسـمًا وهى فى جملتها أوضح من كتابة اليد فى اللغات الأوربية. قال لى مستشرق ألمانى كبير قَد أتْقنَ اللغات العربية والفارسية والتركـية، وحذق كثيراً من لغات أوربا : «ما أشكل على قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل علىّ وعلى غيرى مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية ». هذا؛ إلى ملاءمة الكتـابة العربية للعين. قال لى طبـيب كبير من أطباء العـيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البـصر من الحروف العربية. ويخاطب الدكـتور مجادله فيقول : . . . مـا بكم صعوبة الحروف العربية، ولكن الغـرام بمتابعة أوربا، والخجل من التمـسك بما أورثكم آباؤكم. ما بكم علة الحـروف العربية، ولكن عـلل الذلة والمهانة، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيـركم. . . أنتم تخلعون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غـيـرهمـا، وإنما الداء الدّوىّ فى أنفـسكم، والعلة القـاتلة فى سـرائركم. (له بقـيـة عبدالوهاب عزام).

أقول : إن التقليد فى ذاته سُبَّة (وإثم أحيانا) - وإنى أختار الطريق الصعب، إذا لم يكن هناك بد من ذلك - للمحـافظة على «الهُوية» (على العروبة والإسـلام والثقة فى الله وفى النفس)

٥ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبدالوهاب عزام

الحروف اللاتينية والألفاظ العربية :

وقد عجل الكماليون فى إنفاذ قانـون الحروف اللاتينية، وحددوا لذلك موعداً. وقد أحدث ذلك ارتباكا كبيرا : فالمطابع كـانت قد بدأت طبع كتب بالحروف العربية، فماذا تصنع ؟ وهذا كاتب كـبير كـان قد بدأ طبع مـوسوعة بالحـروف العربية، وأخـرج منها جزءين، فماذا يفعل فى بقيتها ؟ وهكذا. وهذا صبى نشأ فوجد كل شىء فى المكتبات، وعلى جدران المساجد والمتاحف مكتوبا باللغة العربية، فهذا الصبى وجيله، وقد أجبروا على كتابة لغتهم باللاتينيـة، فهذا يعنى قطع الصلة بينه وبين تراثه المكتوب كله بالحروف العربية. «ألا تراه يتـيما قد جنى عليه سـفه أوصيائه » إنه تقليـد يعصف بتاريخ الآباء، ويزلزل أقدام الأبناء. ويقطع سنن الأمة كما تقطع جـذور الشجرة. زعموا أنهم يريدون تنقية لغتهم من الكلمات الدخيلة، فما بالهم يخـرجون كلمة عربية ليضعوا مكانها كلمة أوربية ؟ إن الأمر ليس أمر إصلاح ولكنه بغض العـربية. وقد وقف حسين جاهد (فى

مؤتمر لغوى) - وهو من المتحمسين للعصبية التركية، قال فى المؤتمر: إن إنقاء اللغة يتم على مر الزمان، ولاتصلح فيه الطفرة فَشُتِم أُسْكت وأوذىَ. إننا لا ننكر الإصلاح، ولكن ننكر أن يكون الدافع بغض العربية. إنهم يقطعون الوشائج بين آدابهم والآداب الإسلامية الأخرى. إنهم مندفعون فى حب أوربا والفناء فيها مع بغْض الشعوب الإسلامية فما تأويل ذلك ؟

يقول الدكتور عزام: إنما يعنينى ويعنى كل مسلم ألا تقطع الصلات بين أمم وشعوب عاشت قرونا متآخية متعاونة كأنها أمة واحدة !!

وإنما يدعونى إلى الجدال، أن الأخوة الإسلامية والجامعة الإنسانية تنفر من هذه العصبيات القاطعة والنعرات المفرقة. أضرب لإخواننا مثلا أوربيا، فالشرقيون لايعرفون الحق إلا إذا شهدت به «ماركات» من أوربا : هذه اللغة الإنكليزية، وهى ما هى انتشاراً بين الأمم، وذيوعاً فى الشرق والغرب، فيها كثير من الألفاظ اللاتينية والجرمانية، ومعظم مصطلحاتها فى الآداب والعلوم اللاتينية، وقد وقع ما وقع بين الأمم اللاتينية والإنكليز من حروب متمادية، وما فكر الإنجليز فى أن يجمعوا الألفاظ اللاتينية وينبذوها إلى اللاتين كراهة لهم، أو عصبية للغتهم، ما فعل القوم هذا لأن لديهم من جلائل الأعمال ما يشغلهم عن هذه السفاسف. ما لنا نغمض أعيننا عن أواصر تجمعنا، وآلام وآمال تضرب بيننا : كاد الإنكليز والألمان يتفانون ويفنون الأمم (فى الحرب العالمية الأولى. وهم الآن يمدون أيديهم للتعاون والتعاهد. فأين يذهب بكم أيها الشرقيون، وإلى أين تساقون أيها المسلمون ؟!

٦ - النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عبدالوهاب عزام

المرأة : ومما آخذه على الكماليين خطتهم فى تربية النساء. أخذوا بها (وهى ربة البيت الطاهرة وأم الأشبال... إلى الملاهى والمراقص ومجالس السهر أخذاً بسنن أوربا، ودفعوها إلى ذلك دفعا وحرضوها عليه...، وعلى الأخذ بأفانين المعيشة الأوربية... ثم زادوا تقربا إلى أوربا حين أباحوا تزوج المسلمة من غير المسلم.. لقد ذهب الكماليون بكبرياء المرأة، ومحوا ما أورثها الاسلام والتاريخ من عزة وإباء، وأتم الكماليون إعظام المرأة وتحريرها بأن فتحوا دور البغايا وأنفقوا عليها بسخاء. لست آخذ على المرأة أن تأخذ



طريقها طـليقة رشيدة. ولست أنكـر أن الإسلام منح المرأة من الحقوق مـا لم تظفر به نساء أمم فى أوربـا حتى اليوم. . . أيهـا الناس لاتخدعـوا أنفسكم. . . إن لهـو المدنية الحاضرة يدور مـعظمه حول جسم المرأة فـى الطريق والمسرح والمرقص وشاطـئ البحر. وحسب المرأة ذلة وهوانا أن تكون ألعوبة الرجال حـيثما شاءوا وكيف شاءوا. . . وحول المرأة والمسجد نقل الدكتور عزام عن الأستاذ أحمد أمين قوله عن (الرسالة - العدد ١٠٦ ص ١١٢٧) «بل لِمَ لا يكون المسجد معهداً للمـرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل. فـيخـصص مـسجـد كل حى وقـتـا لنسـاء الحى تعـلم فـيه المرأة واجـبـاتهـا الدينيـة والاجـتـماعيـة. . . «لقد حرمـت المرأة من المسجـد فحرم أبـناؤها وبناتهـا من العاطـفة الدينية. . »[١]

قال أستاذ الأجيال. أذكر أن وفداً من سيداتـنا ذهب (هذا العام) للمشاركة فى مؤتمر نسـائى فى اسطنبـول فنادين بـاسم المرأة المصريـة أنهن راضيـات مغتـبطات بما اخـتطه الكماليون للمرأة التركـية، وتطوعت زعيمتهن[٢] فقالت لـلغازى مصطفى كـمال باشا «إنك تسميت أتاتورك»، وأنا أسميك «أتا شرق». ويعقب الدكتور عزام على كلمة رئيسة الوفد المصرى، بأن مـا قالته لايمثل رأى المرأة المصرية ولا المرأة الشـرقية ، ويضيف إن واجبنا دائما هو التسديد والترشيد.

٧ - النهضة التركية الأخيرة
للدكتور عزام
تتـمة

بقيت هنات مما اقترف الكماليون لا أبغـى إحصاءها، بل أكتفى بواحدة منها - وهى «لبس القـبعة» والأمر فى نفـسه هين. ولكل أمة أن تـتـخذ من اللباس مـا يلائم هواها ويواتى حـاجاتهـا. وإن الله لاينـظر إلى صوركـم، ولكن ينظـر إلى قلوبكـم. ولكن الكماليين اتخذوا القبعة عَمارة لهم سيراً على خطتهم فى تقليد الأوربيين. . . وإمعانا فى هجر ما يميزهم منهم، فيحرمهم شـرف الفناء فيهم. ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أنه لامناص لهم من لبس القبـعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان، لابدعة يمـليها التقليد لكان لهم فى العـقل مساغ، وفى العذر متـسع. . . لما أكْرِهَ التركى فى ثورة الـتقليد أن

(١) فى ضاحيـة المعادى «مسجد الفتح» الـذى يعتبر مضرب المثل لـلمسجد ورسالة المسجـد وأنشطته الدينية والتعليمـية والإنسانية والصحية. . . إلخ. وقريب من ذلك ما شاهـدته فى مسجد سيدى بشر بالإسكندرية.

(٢) لم يذكر الدكتور عزام اسم الزعيمة. إنها وقتئذ السيدة هدى شعراوى على ما أذكر وأرجح.



يضعـها على رأسه أحسـها ذلة طأطأ لها الرأس الأبي، وعـاراً ذلت له النفس الكريمة. وحاولت رءوس أن تنبذها فقطعت، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت. . . وإن يكن بعض الترك لبسها عزا وفخاراً. . . فقد لبسها معظمهم خزيا وشناراً. .

انظر ذلك الشيخ الجليل الذى كـان يدرس العربية فى جامـعة استانبـول. فقيل له : البس القبعة، فقال اعفونى وعدونى من رجال الدين - قالوا له اخرج من الجامعة إن لم يكن لك بد من عمـامتك فخرج منها. وخلفـه فيها مـعلم ألمانى، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعلم الطلبة، وكفى الله الطلبة عمامـة الشيخ وعلمها، وأسعدهم بقبعة الألمانى وبركتها.

وقـد جاءت الأنبـاء بأن الإيرانيين حـذوا حذو التـرك فى لبس القـبـعة ولم يقنعـوا بالبهلوية التى ابتدعوها» فهنيئاً لهم تقليد المقلدين.

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

فليجتـمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة فى مـؤتمر عربى أو إسلامى، ولينظروا فيمـا يلائم كل إقليم من أزياء، وما يوافق المدنية الحـاضرة من ألبسة، ثم ليـختاروا عن بينة وليكن ما يختـارونه موافقا لأزياء أوربا أو الشرق، أو مخالفـا لكل أزياء العالم فلا حرج فى هذا ولا بأس به.

ليت شعرى، إلام ندعـو الى اليقظة فتنامون، وإلى الحـذر فتستسـلمون، وإلى العزة فتهنون، وإلى الاستقلال فتتبعـون، وإلى الاجتهاد فتقلدون، كفى ياقوم بالزمان واعظا، وبالتجارب هاديا. إنكم فى مهب العواصف، ومفـترق الطرق، فخذوا حذركم، ونبهوا عقولكم، واشحذوا عـزائمكم، ولاتصدروا إلا عن بينة، ولا تقولوا إلا عن رويّة، فإنه الحياة أو الموت، والبقاء أو الفناء.

الخاتمة

رأى القراء مما قـدمت أن الترك الكمـاليين لم يأتوا بجديد فى هذه «النهـضة التركـية الأخيرة» ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا. أحسنوا بما أخذوا من أسباب الحياة فاجتـهدوا فى تعمير بلادهم. . . وقاموا بتدريب الجـيوش، واستكثروا فى السلاح وجعلوا أنفـسهم سـادة بلادهم. وأساءوا بما تبـعوا أهل أوربا فى أمور هـى من نفايات الحضـارة، وحثالات المدنيـة، وبما هجروا من أجل ذلك كـثيرا من سـنن دينهم القويم، وأخلاقهم الكريمة، وتاريخهم المجيد. وأذكر فى هذه الخاتمة ما قاله فى أوربا بعض ذوى الرأى منذ سنين : قال : «كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا، معذرة، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا، فقد حاربوكم جهدهم، وجالدوكم ما استطاعوا، ودافعوكم



جهد طـاقتهم، وما كـانوا ينشرون حضـارة، أو يدافعون عن حضـارة. وها نحن أولاء نعتـرف بأن الخير فـى اتباعكم، والـشر فى مخـالفتكم، وإن آباءنـا أثموا إذ منعـوا عنا خيركم، فاقبلوا الأبناء فى جماعتكم، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم. ها نحن أولاء نحنى رءوسنا إكباراً لكم، ونلوم أجدادنا من أجلكم ».

وبعد فهـذه الكلمات التى كـتبتها تفـى فى هذا الموضوع العظيم، ولابـد أن يتعاون الكتاب والمفكرون فى هذه الـسبيل حتى يجلو عن الأمة هذه الغمة، ويـدفعوا عنها هذه الفتن المدلـهمة، والشـبه المضلة، ثم يـسيروا بها عـلى المحجة البـيضاء إلى الـغاية. . .
﴿ . . .إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ. . .(٨٨) ﴾ [هود] عبدالوهاب عزام

تعقيب... بل متابعة ومشاركة !!

بند ٢٣ :

أقول : إن الموضوع الذى عالجـه الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام جـد خطير. لقد مضى اثنان وستون عامـا على ما كتبه عن «النهضة التركـية الأخيرة» والأمر الآن، وفى بلاد العرب والمسلمـين عامة، ربما كان أسوأ مما كان ! فى عـام ١٩٣٥ - كان الأوربيون (والإنكليز والفرنسـيون بالذات) يحتلون أرضنا، ويدوسون فوق رقابنـا، وكانت شعوبنا العربية والإسلامية، ثائرة ضدهم تحـاربهمْ بالمتطوعين منا، تزلزل الأرض تحت أقدامهم، وتنشر دخان الكراهيـة وأنفاس النار فى وجوههم، حتى رحلوا كـمحتلين لأرضنا. فى ذلكم الزمن كانوا يحكموننا، أحيانا مـباشرة، وأحيانا عن طريق نفر منا، والأمر - من بعدهم لم يتغير كـثيراً فى العديد من أقطارنا وديارنا. إن أسماء حكامنـا عربية إسلامية ولكن يا ويلـنا من طغاة منا. مـاذا كان ويكون من حكـام العراق والجزائر مـثلا، وماذا نقول فــى ذوينا فى أفغانـستان والصومـال - فى هذه الأخيرة نجـد الفوضى والفـصائل المسلحة يـضرب بعضها بعـضاً. وفى أفغانستـان نجد الذين نجحوا فى الجهـاد الأصغر، محـاربة الاتحاد السوفـيتى وتطهـير الأرض من دنسـه، فشلوا فى الجـهاد الأكبر جـهاد النفس، والتطاحن على الـسلطة. . . والحديث ذو شجون. وبسبب تفرقـنا صرنا أتباعاً لأمريكا، وأمريكا فى غفـلة عنا. إنها تساند عيانا جهاراً إسرائيـل التى لاتقف أطماعها فينا عند حد، وإنى أعلم أنى اسـتطردت. ومتابعة أستاذنا الدكتور عزام ومـشاركته فيما كتبه عن « النهضة الـتركية الأخيرة» يثير أعمق الأسى. «فالمؤسسـة العسكرية» فى تركيا مازالت ذات السلطة العليـا، وتحت اسم العالمانية تقاوم اتجاه الأغلبيـة التركية فى الأخذ بالشريعة الإسلامية. وهذا ذاته مايجرى فى كثير من البلاد العربية والإسلامية.



وأقول : إن غداً لناظره قريب. سيكون الحكم للشعوب، فى المستقبل غير البعيد. ويومئذ سيدخل الناس فى دين الله أفواجا، مستضيئين بنور الله، وكما انهارت الشيوعية بانهيار الاتحاد السوفيتى، ستنهار الدول التى تسىء استعمال الحرية باستسلامها للإباحية والعلاقات الجنسية غير الشرعية، وجيل أو أجيال، أو قرن من الزمان ليس بالطويل فى عمر التاريخ. إننا متفائلون. والفجر المبشِّر، والصبح المسفر، والنور المبهر تبدو كلها فى كل الآفاق. ﴿ ... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

وبعد هذا الاستطراد أعود إلى الكماليين، عبدة الأصنام (فى شكل أفراد) عن كتابى «الإسلام والدولة» (الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢ م ص ٣٤ ومابعدها بند ١٠) وفيه : وإذا كان مصطفى كمال - الذى ألغى الخلافة فى أوائل العشرينيات من هذا القرن - قد أنقذ تركيا كدولة، وذلك بما أنزله بجيوش اليونان وحلفاء اليونان من هزيمة منكرة فإنه قد أساء إلى تركيا الإسلامية ومسخ شخصيتها كأمة، والجميع متفقون على أن الحكم العثمانى كان يعانى من فساد واستبداد فى تركيا وفى الولايات التابعة لها فى بلاد الشام وغيرها، غير أن العلاج لم يكن فى إلغاء الخلافة رمز وحدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وإنما كان فى إصلاحها وإعادة صياغتها... يقول مالك بن نبى (وهو فيلسوف إسلامى معاصر): «ويجب من الآن النظر فى قضية الخلافة الإسلامية، فقد باتت ضرورة عالمية وحيوية، وليكن لها أى اسم، ولكن هدفها يجب أن يكون توحيد الصف الإسلامى والرأى الإسلامى فى كل مكان على ظهر الأرض. وإن كنت أتفاءل بعبارة «مجلس الخلافة» الذى يجب أن يشارك فيه كل العالم الإسلامى، ولنبدأ بإعلان قيام هذه الخلافة فوراً. وفى مجلة العربى الكويتية (العدد ٢٥٣ - محرم ١٤٠٠ هـ - ديسمبر ١٩٧٩ م) ص ٣٧ وما بعدها - بعنوان «فى الهوية تكون أو لا تكون » وفيه ص ٤٠ جاء: أتاتورك فى عشرينيات القرن الحالى باختياره الانحياز الكامل للغرب، وطلاقه البائن للإسلام، ومسخه المروع لهوية تركيا (الشرق إسلامية). وفى كتاب نظام الخلافة للدكتور مصطفى حلمى - ص ٥٤٠ : «أجمعت المصادر على أن مصطفى كمال كان يهوديا، من طائفة الدونمة، وفى مجلة العربى الكويتية - عدد ٢٥٥ (فبراير ١٩٨٠) بقلم محمد حرب عبدالحميد: أن ليهود الدونمة نفوذاً أو تأثيرا حتى اليوم فى تركيا عن طريق الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام التى

تتغلغل سيطرتهم عليها. وفى المقال - كذلك إشارة إلى خالدة أديب، وهى من يهو الدونمة، وكانت ذات نفوذ كبير ، وصديقة شخصية لأتاتورك. وفى مذكرات الزعيم المصرى محمد فريد أن الأتراك عموما غير مهتمين بضياع بلاد العرب منهم (أثناء الحرب العالمية الأولى) ولايخطر ضياع الخلافة منهم. بل منهم من يقول: إن ترك الخلافة والأمور الدينية، والتعلق بالطورانية - بصرف النظر عن الدين - أولى وأفيد. ومما جاء فيها - كذلك - أن سبب انهزام الأتراك وسقوط بغداد والعراق، وتهديد فلسطين هو انفصال متطوعى القبائل العربية عن الترك لما رأوه منهم من الاحتقار وسوء المعاملة، وللوقع السيئ الذى وقع عليهم لفظائع جمال باشا حاكم سوريا والمعروف بجمال السفاح الذى عُرف بكراهيته لكل ما هو عربى مما جعل أهالى الشام يفضلون أى دولة أجنبية على الأتراك. وهكذا نرى أن مصطفى كمال الذى قضى على الخلافة، وعادى الإسلام فى بلاده وخارجها، إنما كان منفذاً لأفكار استبدت بالبعض من أبناء جيله - قبل ظهوره كبطل أول على المسرح العسكرى والسياسى، ومن المؤسف أن كيد أعداء الإسلام للمسلمين (بوسائل شتى) مازال يستقطب بعض حكامنا ويحتويهم حتى الآن على نحو أو آخر (وانظر سائر المراجع فى كتابى سالف الذكر).

إبرة المغناطيس[1]

للدكتور عبد الوهاب عزام

بند ٢٤ :

جلست إلى مكتبى البارحة، فوقع بصرى على بيت الإبرة، فانفتحت أمامى سبل من الفكر لا تحدها غاية. وإنى إذ أحاول أن أقيد هذا الفكر على القرطاس لمحاولة أن أسلسل بهذه الأحرف خطرات الفكر الخاطفة التى تطوى الأجيال والأقطار فى لمحات، وتجمع السماء والأرض فى طرفة عين : قلت : ما أعجب هذه الإبرة ! إنها هادية لاتضل، عارفة لاتخطىء، تنتحى الشمال مهما أدرتها عنه، ومهما جمعت عليها من الحجب والظلمات، وأضعفت لها فى المسافات، فهى مولية وجهها شطره، محسة جذبه، موصولة به خبيرة بوحيه، لاتنساه، ولا تشرك فى هواه. ليت شعرى أأهدى من الإنسان هذه الإبرة الصغيرة ! أجل إنها لتهدى الإنسان فى البر والبحر، والسفر والحضر. أحسست حينئذ خفقان قلبى يذكرنى أن فى صدر الإنسان إبرة أخرى، مرشدة هادية، تتوجه شطر معدنها أبدا، ولايصدها عنه تطاول الأمد، وبعد المدى. ألم تهد

---

(١) الرسالة - العدد ٢٩ مؤرخ ٢٢ يناير ١٩٣٤.



هذه الإبرة الأمم فى ظلمات الجاهلية، وغيابات القرون، فعصمتهم - على العلات - من الهلاك، وأخرجتهم إلى النور على تكاثف الظلمات، ولاتزال هادية بصيرة بالغاية، خبيرة بالسبيل إليها. كم عبدت الإنسان شهواتُه، وأضلته عن الخير مطامعه، فمازالت هذه الإبرة تضطرب فى صدره حتى اهتدى سبيل النجاة، ووضع على هداها منار الطريق. كم طغت بالإنسان ضغائنه وأحقاده، فمازالت هذه الإبرة تخفق فى جوانحه، حتى عرف إلى الحب والألفة والمودة السبيل، واستقام على النهج لايميل. وكم غلا الإنسان فى ظلمه وعدوانه، فمازالت تتحرك فى أضلاعه حتى أشعرته نفسها، ثم ردته إلى خطة للعدل محمودة، وسبيل من الإنصاف رشيدة وكم غدر الإنسان ثم اهتدى بها إلى الوفاء فندم على ما قدم، واغتبط بما اهتدى، وكم أجرم الإنسان فوخزته فأفاق، فكأنما صور خلقا آخر، ينفر من الإجرام ويركن إلى السكينة والسلام. وكم سَفُلَتْ بالإنسان سجاياه، فعملت فى صدره حتى سمت به إلى العلياء، وطارت به من الحضيض إلى عنان السماء، وكم وقفت بالإنسان همته، فدفعته هذه الإبرة العجيبة فمضى قدما إلى العمل، وهمزته فدأب لايعرف الكلل. وكم أظلم على الإنسان طريقه، وعميت عليه أرجاؤه، وأطبقت عليه سحائب سوداء، وأحاطت به ظلمات لاشية فيها من الضياء، فنظر إليها، فإذا هى إلى الغاية دليل، وإذا - على الظلمات - قد استقامت على السبيل. وكم حارت بالإنسان آراء مضلة، وأفكار غائلة وأقوال ساحرة، فلما هلك أو كاد، ودارت به الحيرة والإلحاد، أحس اضطرابها فى نفسه فسكن، فتهافتت الآراء، وتهاترت الأقوال فثاب إليه هداه، فوجد أمامه الله !

إيه أيتها الإبرة الهادية، ضل الإنسان فى صباه وهرمه، وجهله وعلمه، وسعادته وشقائه، ووحدته واجتماعه، وحله وترحاله لولا هداية من الله فيك، وبصيص من نوره فى نواحيك، وصلة به لاتنقطع، وشعور به لايضل، وجذوة من حبه لا تخمد.

وأما الذين أضلتهم الأهواء، فعميت عليهم الأنباء، وتخطفتهم فى الحياة المآرب، فتذبذبوا بين شتى المذاهب، وشرق بهم مطمع، وغرب آخر، وتلونت لهم غيلان من الآمال والأعمال، والذين فقدوا أنفسهم وهم لايشعرون، وضل سعيهم وهم يحسبون أنهم مهتدون. والذين يلبسون كل يوم دينا، ويبدلون كل حين رأيا، ويلبسون لكل دولة وجها، ولكل سلطان زيا، ويتخذون لكل ساعة لسانا، ولكل فرصة وجدانا، فأولئك أغفلوا النظر اليك، فحرموا الاهتداء بك، بل أولئك فى إبرتهم خلل قد عرض، أو أولئك فى قلوبهم مرض.

عبدالوهاب عزام



ماذا أقول عن هذه القطعة من البيان الساحر، والأدب الرفيع، والفكر العميق، ماذ أقول عن هذه (الإبرة)، أو الأداة الموجهة، إنها الضمير الحى الصالح، إنها العقل المستضيء بنور الله. أما الذين غلبتهم أنفسهم الأمارة بالسوء، واستبدت بهم الشهوات، وطوحت بهم الأهواء والنزوات، ففى قلوبهم مرض، إنهم الذين ضلوا وأضلوا. إنهم كالأنعام بل هم أضل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين].

مدنية زائفة[1]

للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٢٥ :

قال صاحبى، وأنا أسايره فى شارع الكورنيش فى ليلة من ليالى الصيف : ما أجمل هذه المدينة ! انظر هذا المهيع الممهد ما بين رأس التين والمنتزه، مشرفا على لجة يمعن فيها البصر والفكر إلى غير غاية، وانظر هذه الأبنية الهائلة الشامخة تزحم السحاب بذراها، وتقابل السماء بمثل نجومها، وتنسج فى الأمواج أشعتها، وتأمل هذا العقد من المصابيح الكبيرة، يطوق هذا الخليج الجميل، والسيارات تطوى الأرض ذات اليمين وذات الشمال، فيها المصطافون قد أخذوا من الحياة متعتها، واهتبلوا من الأيام فرصتها. وألحان الموسيقى تتدفق من هذه الأندية والمراقص، فتموج فى الهواء، حتى تختلط بأمواج الدأماء[2]. وهذا البحر الزاخر من الناس، والمحافل المزدحمة بشتى الأجناس. يحوطها النظام، ويهيمن عليها القانون ويرقبها الشرطة والعسس. كل آخذ بحقه، مأخوذ بعدوانه. يا أخى، لقد استبحر العمران، وشمل المدنية فى النعيم ألوان، وأنبتت لهم من اللذات أفنانا. يا أخى إنها المدنية... ثم صمت صاحبى، وتمادى بنا المسير، حتى ملنا ذات الشمال، إلى محطة الرمل، فمررنا بباب القنصلية الإيطالية، فرأيت بجانب الدار شبحين ضئيلين، فاقتربت أنعم النظر فيهما، فإذا طفلان نائمان، جلس أحدهما القرفصاء، واعتمد بجانبه على الجدار، وتمدد الآخر على الأرض عرضة لأقدام السابلة. قلت : وارحمتاه ! طفلان شريدان، ألجأهما الشقاء إلى هذا الجدار ! ويعلم الله، ما بهما من السغب والنصب، وما لقيا فى يومهما وأمسهما، وما يلقيان فى غدهما. قال صاحبى : « لا تعجب، فأمثال هذين كثير، يعثر بهم السائر حيثما ذهب»، فانقلب

---

(١) الرسالة - العدد ٢٧ - ٨ يناير سنة ١٩٣٤ ص ٢١.

(٢) الدأماء = البحر.

الأسى فى نفسى غضبا على صاحبى، قلت : « أرأيتك مدينتك هذه العظيمة، وطرقها المعبدة، وقصورها الشاهقة، ومصابيحها المتلألئة، وسياراتها الخاطفة ومصطافيها الناعمين، ومراقصها اللاهية، وأنديتها الحافلة !! - أرأيتك القانون والسلطان، والنظام والشرطة والعسس، وهذا العمران المستبحر، والسعادة التى شملت الناس، وألوان النعيم التى طلعت بها المدنية، والعيش الخفيض، والزمان المواتى، ومدينتك الرائعة الفاتنة ! أليس فى هذه المدينة العظيمة لهذين الطفلين سعة ؟ أليس فى هذا العمران لهذين الطفلين مأوى ؟ أليس فى هذه القوانين لهذين الطفلين حماية؟ أليس فى هذا النظام لهذين الطفلين موضع ؟ أليس فى هذه المدينة لهذين الطفلين لون واحد من الحياة، أليس فى هذه القلوب لهذين الطفلين مرحمة ؟ يا صاحبى، حسبك، حسبك ! لا تحدثنى عن المدنية ونعيمها، لا تخدعنى بالمدنية وقوانينها، إنها لمدنية زائفة !

عبدالوهاب عزام.

أقول : الإسكندرية ! وما أدراك ما الإسكندرية ؟ إنها بحق عروس البحر الأبيض المتوسط. لقد رأيت موانئ كثيرة على هذا البحر، رأيت مرسيليا مثلا. إنها مرفأ هام، لكن مدينتنا أبهج ! إن الاسكندرية عروس، وللعروس موسم، وموسم الإسكندرية هو صيفها. لقد تعددت المصايف فى مصر، ولكل جماله وميزاته، لكن مميزات الإسكندرية أكثر. إنها مدينة عظيمة، إنها العاصمة الثانية، والميناء الأول ! كانت زيارتى الأولى لها فى سبتمبر عام ١٩٣٣، أى قبل تاريخ كلمة الدكتور عبدالوهاب بحوالى أربعة أشهر، ومارست عامئذ رياضة السباحة فى شاطئين، شاطئ ستانلى، أشهر شواطئ الإسكندرية وقتئذ، وشاطئ المكس الذى كان آخر شواطئ الإسكندرية حينئذ ! وبعد حوالى ثمانية أعوام، أى فى عام ١٩٤١ (وأثناء الحرب العالمية الثانية) أقمت بالإسكندرية حتى عام ١٩٤٥ حيث كنت طالبا بكلية الحقوق بها. ومارست رياضة العوم - فى شاطئ جليم بالذات - بما يشبه الإدمان. وأقول : (وكما كتبت فى كتابى صفحات من اليوميات) «الحمد لله أن كانت هذه الأعوام فى الإسكندرية، ولم تكن فى أى مكان آخر». وإنى أرد تفوقى فى الكلية - إلى فضل الله دائما وأولاً، وإلى ممارسة السباحة معظم أيام السنة.

وفى السنوات الأخيرة، وقد يسر الله لنا تملك شقة قريبة من البحر، (شاطىء «أبو هيف») فإنى أستمتع بالبحر بقدر ما تسمح الظروف، ويناسب الصحة، ولسحر البحر، كنت أظننى أحيانا فى أجمل مكان فى الدنيا !.

وأما ما أثاره الدكتور عزام عن الطفلين اللذين لاحقهما الشقاء فى أمسهما ويلاحقهما فى يومهما وغدهما، فهى مأساة اجتماعية كبرى، وما أرانا إلا مسئولين جميعا عنها !.

ملكة الجمال

للدكتور عبدالوهاب عزام

(افتتاحية العدد رقم ١١٦ من الرسالة - مؤرخ ١٩٣٥/٩/٢٣)

بند ٢٦ :

للأقلام محن تقضى عليهـا أن تسف إلى ما لا تود الكتابة فيه، وتكره على أن تخط ما تريد الترفع عنه. وقلمى مكره على الكتابة فى هـذه الحماقات، مرغم على أن يُعْنى بهذه الترهات، كنت أحادث جماعة من الأصـدقاء، فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا فى المدنية الحاضـرة، حَسَنُها وقبيحـها، وجليلها وسفسافـها. قلت : أحسب أن المسيطرين على أخـلاق الناس فى كثير من مناحـى المعيشة الحـاضرة جماعة من الـتجار المفـسـدين. قـال صـديق كـيف ذلك ؟ قلت : فى طبع الإنسـان الكـلف باللذات، والاستـهتـار بالشهوات. وقـد سار العـالم آلاف السنين على هدى التجـارب، وتعليم الأنبيـاء والحكماء، يزن آلامه ولذاتـه، ويعدل بين مصـالحه وشهـواته، ويضع شرائع، ويسن سننا ليعيش الإنسان على شريعة تعرف وتنكر، وتـستحسن وتستقبح، وتقول هذا حلال وهذا حـرام، حتى استقـامت للإنسان خطة فى سيـاسة نفسه، ومـعاملة الناس. وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها، علما بأن وراء اللذة العاجلة شرًّا أعظم منها، ويصبّر نفسه على مـا يكره إيثارا للعافيـة فى العقْبى، واستمـساكا بالفضيلة الـتى سكن إليها، ومكنتها فى نفسه سيرة الآباء.

قال صديقى : هذا حق، فـما وراءه ؟ قلت : أرى العصر الحاضر مفـتونا كل الفتنة بالأهواء، مستكلبا على الشهوات، قد فتحت له من الملاهى أبواب. ومدت له إلى الغَى أسباب، فشغلت من الحياة جانبا. هذه الملاهى والمراقص والحانات والمواخير. ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلبة ربح عظيم، ووسيلة مال وفير. فأقبلوا عليها إقبالا، وافتنوا فيها افتنانا، واستعانوا على تزيينهـا وجلب الناس إليها بكل ما أنتجت الحضارة من علم وفن، ولم يدعوا حيلة فى الاستهواء إلا اتخـذوها، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها.

افتن كل فيـما يعرض، وتؤدى المنافسـة والطمع فى المال إلى استبـاحة المحظورات، فينظـر الناس أول الأمر، ثم يسكتـون، ويخدعون أنـفسهم فـيمـا يرون بما تصبـو إليه غرائزهم، وتغرم به شهواتهم، حتى يصير هذا أمرا معروفا، وعملا مألوفا. ثم يحدوهم حب الربح والمنافـسة إلى ان يثيـروا شهوات الناس بأفـانين أخرى وهلم جـرا، حتى لا يصدهم وازع من فضيلة أو عادة وعبثا يحـاول القانون أن يصد التيار. أو يقيم الجرف

المنهـار. وهكذا تقاد الأمم بأذنابهـا. وتأتم بضلالهـا، وقس على هذا يا صاحـبى أزياء النساء، فتنافس التجار فيها هو الذى يطيلـها ويقصرها. ويطلع كل يوم ببدعة تبين عما دق من المرأة وجل. وما ظهر وما بطن. ولست أجد بدا من ذكـر الحقيقة «العارية» وهى أن النساء الخليعات هن القدوة فى هذا السبيل. يلبسن ما يلفت النظر إليهن، ويميزهن من غـيرهـن، فيـروق النسـاء الآخـريات هذا الزى. والمرأة لا تحب أن تُغلب فى زينـتهـا وتجملها، فـيصير هذا الخروج على السنن سنة مـألوفة، وطرافة (مودة) معـروفة. وما ترى فى ألبسة البحر من تغـير مستمر، غايته أن تبرز المرأة عارية مـتزينة. فهذه وسيلة. تبدأ به الخليعات الجريئات فتتهافت عليه الأخريات.

ووراء هذا جماعـة من تجار الكتاب، والفسـقة المفسدين. يريدون أن ينالـوا رغائبهم بشريعة، ويفـسدوا فى الأرض على علم فيكذبون على الجمال والفن والحـرية ماشاءت مآربهم. ويحرفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويسمون الرذائل بغير أسمائها، فالفسق إعجاب بالجمال. وكل خليعة فنانة، وكل خليع أستـاذ. ويتنافس أصحاب المجلات فى كتابة ما تحبه النفوس المريضة، وعرض الصور التى يهفـو إليها الشبان لا يبالون فى سبيل المال أن تصلح الأمة أو تفسد. وتعمل التجارب عملها حتى تجد الرجل الحريص على الفضيلة، الداعى إليهـا إذا ابتلى بمجلة أغضى عن مفـاسدها فصـار له رأى فى نفسه، وفى غـير مجلته وعمل آخـر تجارى فى المجلة. وقد عجبت لبعض الكتـاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق، والتنديد بالخلاعة والمجون، وبدع العـصر الحاضر إذ رأيت المجلة التى يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه، ويوافق مواعظه.

- ٢ -

قال صديقى : والشىء بالشىء يذكر، وملكات الجمـال، ما ترى فيهن ؟ لقد سرت البدعة إلينا. قلـت : استمع. كنت فى الصيف الماضى ذاهبا إلـى إيران، فعرجت على لبنان أيامـا، وبينا أنا فى ظهور الشوبـر، رأيت الناس يزدحمون ويسـتبـقون إلى بعض الفنادق، وسمعت أن هذه الجمـوع، وتلك الوفود، تتزاحم لتشهد اختـيار ملكة الجمال فى لبنان.

قال رفيق لى : قد سـرت العدوى إلى البلاد العربية. فقلت غاضـبا : كلا. قال : ألست ترى وتسمع ؟ قلت لا أكـذبك. لست أرى فى هذه الأزياء، ولا أسمع فى هذه الرطانات عروبة فلا تعد هؤلاء من العرب. وقرأت منذ أيام أن ناسـا اجتمعوا فى حمانا من لبنان، لاختـيار امرأة يسـمونها ملكة الجمـال، وأن قنصل مصر ببـيروت رأس هذا الجمـع، فأسفــت أن شغل القنصل الفـاضل نفســه بهذه السـفاسف، وشـارك فى هذه

المخازى. وقرأت عن انتخاب آخر فى بكفيا. وحمدت الله إذ لم أجد من المتخبار اسما يدل على عربية أو إسلام. وقرأت من بعد فى الجرائد عن حماقات كهذه فى الإسكندرية، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهى يريد أن يجذب الناس إليه، وصاحب جريدة غير عربية، يبغى رواج جريدته، وأمثال هذين. وبعد قليل رأيت صورة الملكة، وقرأت أحاديث عنها، فعلمت أن فتاة اسمها شارلوت، سماها بعض ذوى المآرب ملكة الجمال فى مصر، ولقبوها مس إيجيبت (MISS EGYPT). ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لتشارك فى مباراة الجمال. قلت : شارلوت ليس اسما مصريا، ومس إيجيبت لا تعرفها مصر، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يُشْهروا فتاة أو يُشَهِّروا بها، أو يتملقوا إليها، أو ينالوا مالا، أو لهم مآرب أخرى. ثم تذكرت ما سطرت فى أول هذا المقال. تذكرت أن زمام الأخلاق فى هذا العصر بأيدى هذه الطغمات وأشباهها، وأن هذا الذى نستنكره اليوم، سيصبح إذا سكتنا عادة تعد المجادلة فيها ضربا من الأفن. وفكرت أن مس إيجبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر. وتشارك فى سوق الرقيق هناك. وتبوء مصر بكل ما فى ذلك من عار وحماقة. فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمة صار سنة، وظن المفسدون كما تسول لهم مآربهم، أنها سنة حسنة ينبغى ألا تحرم منها مدينة أو قرية.

وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال فى تركيا، فلم يستح بعض الوقحين من طلبة الجامعة أن يقترحوا أن يحتفل بها فى نادى الجامعة. من مُبَلِّغٌ عنا هذه الفتاة أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها. وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوروبا مدعية أن مصر أرسلتها. ومصر بريئة منها وممن يرسلونها. ليت شعرى أرضى المصريون. الحكومة والأمة بهذه السنّة، هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها، كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستعبدة، ودولة مهددة، سيخرج بطلا أو بطلة تهيب بالمصريين ليغسلوا العار، ويحموا الديار، أو نرسل وفدا يُدافع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم، فإذا السفهاء فى شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل. وقد أجاب أهل دمشق داعى العروبة والكرامة والفضيلة فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سوريا، واستنكروا ذلك، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء، ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال، وفى ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة.

سيقول السفهاء : جماعة لا يعرفون الجمال، ولا يقدرونه، ولا يميزون الحسن من القبيح، فهم ساخطون ثائرون. والله يعلم أن الجمال يُعَبِّد قلوبنا، ويملك

مشـاعرنا، وتهـفو إليـه أفئدتنا حيثما تجلى فى السماء أو فى الأرض. ولكنا لا نعرف الجمال فى الأسواق، يصفق حوله الفساق. ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء. ا هـ.

أقـــول : هذا مـوقف من مواقف استـاذنا وإمامنا الدكـتور عبـدالوهاب عزام، إزاء قضية من القضايا الاجتـماعية الهامة. ها هو ذا لا يسكت على منكر، وإنما ينهى عنه، بقلمه الأفعل من السيف، ومن كل وسيلـة أخرى. إنه ينهض، وإنه يدعو سائر العلماء والعقلاء لينهضـوا معه لحماية الشباب والناشـئة من أهل السوء، ومن كل سوء. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام:]. وأقـــول : هذا هو الحق وماذا بعـد الحق إلا الضلال (وانظر الآية ٣٢ يونس).

آراء بعض المستشرقين[١]

فى الشاهنامة

بند ٢٧ :

الشاهنامـة هى الملحمة الفارسـية التى نظمها الفـردوسى فى تاريخ ملوك الفرس من بداية تاريخهم إلى عـهد بنى ساسـان زمن الفتح الإسلامى ؛ فـبلغت ستين ألف بيت. نقلها إلى العربية نثرًا الفتح بن على البـندارى من أدباء القرن السابع الهـجرى. وظلت هذه الترجمة سراً فى ضمير الزمان حتى كشفها صديقنا الدكتور عبدالوهاب عزام فقارنها بالأصل الفارسى، وأكـمل ترجمتهـا فى مواضع، ثم صححـها وعلق عليها وقـدم لها مقدمة جـامعة فى مائة صفحـة من القطع الكبير، فدل بذلك على سعـة اطلاع وفضيلة صـبر لايؤتاها إلا قلـيلون من أبطال العلم وجنود المعـرفة. وإليك نـبذاً مما أرسله إليـه المستشـرقون تقديرا لجهده وتنويها بفـضله. قال الأستاذ نيكلسون أسـتاذ الأدب الفارسى بجامعة كمبردج ما ترجمتـه : أهنئكم على الطريقة الجديرة بالإعجاب التى أخرجتم بها هذا الكتاب الكبـير الذى لابد له من بحث طويل وجـهد كبـير. وإذا اعتـبرنا ضخـامة الكتاب تبين الجهد الخارق للعادة الذى بذلتمـوه لإخراجه فى هذا الزمن القصير. وقال الأستـاذ جيب أستـاذ الأدب العربى بجـامعة لندن مـا يأتى بنصه العـربى: «هذا، وقد اغتنمت أول فرصة لأتصفح هذا الكتاب الضخم وأستفيد بمجهوداتكم العظيمة فى نشره

(١) العدد الثامن من الرسالة ص ٤١ باب الكتب



والتعليق على متنه. ولابد من الاعتراف بتعجبى من اتساع هذا العمل الذى قد تكفلتم به وبإتمامه، وبإعجابى بحسن نجاحكم فى ذلك، ولاسيما بالمدخل الممتع الذى قدمتموه لمتنه. وقال الدكتور رتروكيل جمعية العلوم الألمانية باستانبول ما يأتى بنصه العربى : «وقد وصل خطابكم فى الشاهنامة فإنه لايفارقنى من أسابيع، وهو والله كتاب تعجبت منه، وأعجبت به وانتقدته فوجدته ذهبا إبريزا. وأنا والله شديد فى الانتقاد. قد أخذت من طريقة العلم الأوروباوى صحيحها، واجتنبت سقيمها، وصرت لنا أخاً فى العلم بل أستاذا فيه. ولو ذكرت فضائل كتابك بالتفصيل، لصار هذا المكتوب كتابا آخر طويلا. ومما سرنى خاصة معالجتكم المسائل المتعلقة بتحقيق المتن، والحكم فى الأصول المختلفة، والتفريق بين أنواع التعاليق، فإن ذلك شيء يهمله كثير من المستشرقين ثم البحث فى مسألة التراجم القديمة لـلخداينامه وغير ذلك، مما يدل على دقة نظركم والاعتناء فى البحث، وترك ادعاء شيء بدون دليل واضح وبرهان مقنع ثم طريقتكم فى توضيح الكتاب بعضه ببعض، والاعتناء بذكر الكتب المقتبس منها، وترتيب الفهارس المفيدة. كل ذلك مما يَسُرّ عين الناظر فى كتابكم.

أوراق مالية
فى القرن السابع الهجرى
للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٢٨ :

كيخاتو بن أباقاخان بن هولاكو خامس ملوك المغول المسمَّين أيلخانية - كان - كما يقول مؤلف «حبيب السير» - أسخى بنى هولاكو : كان يفيض جوداً فى موائده، ولايقف به حد فى الإسراف واللهو. وقد اختار لوزارته صدر الدين الزنجانى المعروف بصدر جهان. ولم يكن الوزير مخالفاً مولاه فى التبذير. فخلت الخزائن، واشتدت الحاجة إلى المال. وضاق بالملك الأمر، فبدا للوزير أن يأخذ عن أهل الصين سنة كانت معروفة عندهم فى ذلك العصر : هى التعامل بأوراق تغنى عن الحجرين الكريمين أو المعدنين النفيسين : الذهب والفضة. وليس الفرق بين الوَرَق و الوَرِق ذا خطر. أمر الوزير بطبع أوراق للتعامل سُمّيَت «جاو»، وأنشأ فى كل ناحية داراً لطبع الأوراق سميت «جاوخانة». وشرع قانوناً يحتّم على الناس الإقلال من تداول الذهب والفضة جهد الطاقة. وكانت الأوراق - كما وصفها رشيد الدين الشيرازى فى تاريخه المعروف بتاريخ (وصاف) والمؤرخون المعاصرون على هذا الشكل : ورقة مستطيلة عليها كلمات

صينيـة، وفوقها باللغـة العربية كلمـة الإسلام ؛ «لا إله إلا الله محمـد رسول الله » - اتباعا لـلمألوف فى المسكوكات الإسلامـية، وتحت هذا اسم الكاتب، ودائرة كُتب فـيها قيمة الورقـة. وكانت القيمة تختلف من نصف درهم إلى عـشرة دنانير. ومما كتب على هذه الأوراق هذه الكلمات الهـائلة «أصدر ملك العالم هذه الجاو المبـاركة سنة ٦٩٣ هـ فمن غيَّرها أو محاها يقتل هو وزوجه وأولاده ويُصَادر مالُه.

وأُرسلت إلى المدن منشورات تبين فوائد التعامل بهذه الأوراق، وتبشر الناس أن الفقر والبؤس يزولان لا محالة أن دام التعامل بها. ومما جاء فى هذه المنشورات هذا البيت :

البيت مكتوب بحروف عربية، وبلغة أظنهـا الفارسية، وترجمة البيت «إذا راجت فى العالم الجـاودام رونق الملك أبدا». ومما جاء فى قانـون هذه الأوراق أن الورقة التى تمزق أو تبلى ترد إلى الجاوخانة، ويُعطى صاحبها ورقة أخرى تنقص عنها عشر القيمة.

ثار الناس على هذه الأوراق، فيروى أنه جعل موعد تداولها فى مدينة تبريز شهر ذى القعدة سنة ٦٩٣ هـ. فلمـا جاء الموعد أقفلت الحوانيت ثلاثة أيام، ووقـفت الأعمال، وأبى الناس أن يقبلوا الجـاو المباركة. وكان أعظـم رجال الدولة نصيبـا من سخط الناس وبغضهم عز الدين المظفر الذى وكل إليه إخراج الأوراق، والقيام عليها، ويلى هذا أربعة أبيات (أظنها بلغـة فارسية) مكتوبة بحـروف عربية. وترجمتـها : «أنت عز الدين وظل العالم، ولكن بقـاءك شر على العالم. من أجل ذلك ترى المسلمين واليـهود والمجوس، بعد توحيد الله وتكبيره، يتضرعون إلى الحكم العدل : ربنا لا تجعلْه ساعةً واحدة مظفرا بمراده» انتشـرت الثورة فى مدن كثـيرة حتى ذهب كـبراء، المغول إلى السلطان كيـخاتو فكلموه فى أمر هذه الأوراق البغيضة حتى رضى بإلغائها.

أقول : كنت فى سن السابعة عشر بداية فترة التـفتح، والطموحات السامقة، ولكنها لم تكن مسـتحيلة. وقد راعنـى الفقر والبؤس المنـتشران بين عامة النـاس، ففكرت فى عملة شـرعية، متحررة من الـشروط «الرسمية» - أعنى عـملة غير العملـة أو العملات المتداولة.

وكان أدنى الناس إلىّ صديقاى وزميلاى (محمد والسيد)، وأشهد أنهما قد عارضانى بشدة، وأنه «ليس فى الإمكان أبدع مما كان». أى أن الواقع الذى كان ليس له من بديل! وبعد ذلك بعشرات السنين، كنت أقضى بعض الصيف فى منتجع قارنا ببلغاريا وقد أخذ القوم منا « دولاراتنا» وأعطونا بقيمتها «بونات»[1]. وقد لاحظت فساداً ما بعده فساد،

(١) كانت هذه الفكرة قد تاهت فى غيابة «اللاوعى» وطفت إلى السطح، أى إلى «الوعى» بسبب هذه الكلمة.

أبطاله المندوبون المحليون للحزب الشيوعى. وإنى أعارض الشيوعية فى كل ما كتبت وأكتب. فلا أخلاق كريمة مع الإلحاد. ولا غيرة على العمل والإنتاج فى ظل ذلك النظام. ولكن مبدأ «الأخذ من الإنسان بقدر طاقته وإعطاؤه بقدر حاجته» مبدأ سليم، دينيا وإنسانيا. وهذا لايقوم بتنفيذه والالتزام به إلا قومٌ يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويعطون فى الدنيا، وعن طيب خاطر كل طاقاتهم، من أجل حسن المصير ونعيم الآخرة. وقد يأتى هذا اليوم ولكن ليس فى المستقبل القريب.

وفى الكلمة التى نقلتها عن الدكتور عزام أن العقوبة عند القوم، لم تكن شخصية، وإنما تمتد إلى الزوجات والأولاد. إنها الهمجية، وقد عرفتها - على سبيل المثال - مصر فى عهد محمد على وغيره. إنهم لم يكونوا مسلمين، إلا بالاسم فقط.

مسلمو السودان الغربى
يحاولون كشف أمريكا فى أوائل القرن الثامن الهجرى
للدكتور عبدالوهاب عزام

بند ٢٩ :

عثر كريستوف كلمب على أمريكا عن غير قصد، بل كان يرجو أن يبلغ الهند من الغرب فأتيح له هذا الكشف العظيم. وقد حاول مسلمو السودان الغربى فى أوائل القرن الثامن الهجرى أن يبلغوا الشاطئ الغربى من المحيط الأطلنطى (بحر الظلمات) برأىٍ أسد من رأى كُلُمْب، وفكرة أصح من فكرته، قبل كشف أمريكا بنحو قرنين. كانت عظمى ممالك المسلمين فى السودان فى القرنين السابع والثامن الهجرى بلاد مالى ومضافاتها، وكانت تعرف فى ذلك الحين باسم بلاد التكرور. والتكرور كان اسم أقاليم هذه المملكة الواسعة. وكان ملكهم - أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون - منسا موسى. قال فى صبح الأعشى نقلا عن العبر : «وكان رجلا صالحا وملكا عظيما له أخبار فى العدل تؤثر عنه. وعظمت المملكة فى عهده إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد. قال فى مسالك الأبصار : «حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه أنه فتح بسيفه أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع. وقد حج منسا موسى أيام الناصر بن قلاوون سنة أربع وعشرين وسبعمائة. قال فى صبح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار : قال لى المهمندار، خرجت لملتقاه من قبل السلطان فأكرمنى إكراما عظيما وعاملنى بأجمل الآداب، ولكنه كان لايحدثنى إلا بترجمان مع إجادته للسان العربي. قال : ولما قدم قدَّم للخزانة السلطانية حملا من التبر ولم يترك أميرا ولا رب وظيفة

سلطانيــة إلا وبعث إليه بالذهب. وكنت أحــاوله فى طلوع القلعة لــلاجتمــاع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان، ويقول : جئت للحج لا لغير : فـلما صار للحضـرة السلطانية قيل له : قبل الأرض فـتوقف وأبى إباء ظاهرا، وقال : كيف يجوز هذا فأسر إليه رجل كان فى جـانبه كلاماً، فقال أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ثم سجد. وتقدم إلى السلطان فقــام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه. وتحدثا طويلا.

يقول الكاتب (الدكتــور عزام) ومقصدى من هذا الكــلام فى الرواية الآتية عن صبح الأعشى:

«قال فى مسالك الأبصار، قال ابن أمير حاجب. سألته عن سبب انتقال الملك إليه : فقــال، إن الذى قبلى كان يظن أن البــحر المحيط لــه غاية تُدرك فجــهز مائتى ســفينة، وشحنهــا بالرجال والأزواد التى تكفيــهم سنين، وأمر من فيــها ألا يرجعوا حــتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم، فـغابوا مدة طويلة وعادت منهم سفينة واحدة. وحضــر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال: سارت الســفن زمانا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى. فلم يصدقه، فـجهز ألفى سفــينة : ألفا للرجال، وألفاً للأزواد. واســتخلفنى وسافر بــنفسه ليعلم حقيقة ذلك ؟ فكان آخر العهد به وبمن معه» اهـ.

فما رأى المؤرخين والجغرافيين فى هذه الرواية العجيبة ؟ قد قرأنا فى الجرايد قبل سنة أو سنتين أن بعض البــاحثين صــادف فى أمريكا الجنوبيــة قبــائل تشبــه أن تكون عربــية مسلمــة، فهل بلغ ملك السودان الغــربى وأصحابه أمــريكا فى القرن الثامن الهــجرى، وانقطعت الطريق بينهم وبين أفريقيا فأقاموا هناك ؟ أو ماذا ؟

لعل سعادة شيخ العروبة العلامة أحمد زكى باشا يدلى برأيه فى هذه المعضلة[1].

* * *

---

(١) عن مجلة الرسالة : العدد ٥ - ص ٤ ١ و ص ١٠٤





الأستاذ المرحوم

محمد فؤاد عبد الباقى

والمثل الصالح
فى خدمة الكتاب والسنة

(١٨٨٢هـ - ١٩٦٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى

بند ١

فى كتابى «صفحات من اليوميات» (ص١٧١ وما بعدها) كتبت تحت عنوان « الشيخ على الخفيف »: فى المثل « من علمنى حرفاً صرت له عبداً ». وفى الأدعية المأثورة يُقْرَنُ الدعاء لشيوخنا بالدعاء لآبائنا وأمهاتنا. ومَنْ أجازوا تقبيل أيدى الآخرين، قصروا هذا الجواز - على ما أذكر - على الآباء والأمهات وكذلك الشيوخ (أعنى المعلمين). والعلماء ورثة الأنبياء. ومن يؤدى منهم حق العلم عليهم، بنقله إلى غيرهم، وبالإخلاص والقدوة أولاً، وبالكفاءة ثانياً، فأولئك مع الصديقين. ومع العرفان والإقرار بالفضل لكل من علمنى - وما أكثرهم: فإنى أخص بالذكر منهم اثنين: الشيخ إبراهيم الدلجمونى الذى جلست أمامه لحفظ القرآن الكريم (فى كتّاب القرية) - والشيخ على الخفيف. . الذى جلست بين يديه طالباً ثلاث سنوات (فى مرحلتى الليسانس والدراسات العليا). إلى آخره. وهنا أضيف اسماً ثالثاً هو اسم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى الذى له هو الآخر فضل مباشر علىّ. ومنذ وقت غير قصير، وأنا أفكر فى الكتابة عنه، فيما أنشره تحت عنوان « رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » تنويها بفضله، ومحاولةً لأداء بعض حقه ودينه.

الأستاذ عبد الباقى هو صاحب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » - وعلى الصفحة الأولى من هذا المعجم كتبت « هدية غالية من فضيلة الشيخ زين العابدين فرارة - الإمام والخطيب بمساجد وزارة الأوقاف بالقاهرة. وعلى نفس الصفحة كتبت مامؤداه: «ولا أظننى قد انتفعت بكتاب، كمفتاح لى إلى كتاب الله، كما انتفعت بهذا المعجم للمرحوم الأستاذ فؤاد، إذ لولاه لما جاءت كتبى - وهى غير قليلة - على النحو الذى جاءت به، ولأنى لا أستغنى عنه اقتنيت منه نسخة أخرى بمنزلى بالإسكندرية.

و « فى تقديم الكتاب » وهو « بقلم الأستاذ الدكتور منصور فهمى » - ما يلى : للقرآن الكريم أكبر شأن فى أمر الإسلام والمسلمين، فهو هديهم فى شريعتهم، وهو المنار الذى يستضاء به فى أساليب البلاغة العربية، بل هو المنبع الصافى الذى ينهلون منه

فلسفتهم الروحية والخلقية. وهو بالجملة الموجه لهم فى الحياة والمعاملات وشتى المظاهر الاجتماعية. فلا غرو أن يكون القرآن الكريم موضع عناية المسلمين منذ القديم. فقد تتابعت أنواع التآليف فى أحكامه، وفى تفسيره، وفى بلاغته، وفى لغته، وفى إعرابه، حتى لقد ازدهرت فى الثقافة الإسلامية ضروب من العلوم والفنون حول القرآن، وتحت رايته.

ولسنا بصدد أن نذكر أنواع التآليف التى كان فيها ذلك الذكر الحكيم مركز الدائرة، ولكننا نقدم للقراء كتاب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » لمؤلفه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. وعنوان الكتاب مفصح عما فيه، فهو يجمع لألفاظ القرآن، ويرتب موادها، حسب أوائلها فثوانيها فثوالثها وهكذا، ويضع الكلمة، وأمامها الآية أو الآيات التى وردت فيها مع التنبيه على المكى والمدنى من هذه الآيات المرقومة بحسب ما ورد فى المصحف الذى تولت الحكومة المصرية طبعه.

وهذا النوع من التأليف حديث العهد إذا قيس بعلوم القرآن الأخرى كالتفسير والفقه والقراءات وعلوم بلاغة القرآن وشرح ألفاظه وغيرها مما تناول المعنى والمبنى، وطريقة الأداء وبيان الأحكام واستنباطها، وأصول الأخلاق والآداب. ولعل السبب فى أن هذا النوع من التأليف قد تأخر عن غيره مما يدور حول القرآن، أن المشتغلين بعلومه قديماً كانوا من المسلمين حفظة الكتاب الكريم، فلا يشق عليهم أن يقعوا على الآية حين يعرض لهم لفظ من ألفاظها.

وقد اتجه نفر من مفكرى الغرب إلى التنزيل الحكيم حين استبانوا منزلته وتأثيره العظيم، فى طبقة كبيرة من البشر، وحين توثق الاتصال بين الشرقيين من المسلمين وبين الغربيين لمختلف الدواعى والأغراض. فعمل هؤلاء الغربيون على تيسير الرجوع إليه، واستخراج ما يحتويه، فأنشأوا فهارس مختلفة الضروب، كان من أكبرها نفعاً كتاب «نجوم الفرقان فى أطراف القرآن » لمؤلفه « فلوجل » المستشرق الألمانى، المطبوع فى ليبسك عام ١٨٤٢م، وهناك مؤلفات أخرى حديثة العهد لمؤلفين مسلمين « كمفتاح كنوز القرآن» وكتاب « فتح الرحمن»، وكتاب « ترتيب. زيبا » وما إلى ذلك من الكتب والمؤلفات. وكان من الخير فى عصر النهضة الإسلامية الحديثة أن يتابع الشرقيون المسلمون التأليف فى هذا الباب، وأن تكون مؤلفاتهم توسعاً فى نوع التأليف، وتحسيناً له.

وقد عنى الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى بتأليف هذا المعجم على نسق جديد، بعد أن راجع ما ألف الذين سبقوا بجهد مشكور فى إعداد فهارس القرآن والحديث، فأفاد من

عملـهم، ثم استدرك مـا فاتهم، وجـرى على أسلوب من التأليـف هدته إليه التـجربة والدرس، فجـاء كتـابه محقـقاً لغـرض التيـسير على البـاحثين. نسـأل الله أن ينفع به المثقفين، والراغبين فى أن يمهد لهم طرائـق البحث عن ألفاظ القرآن الكريم، وأن يجزى المؤلف عن عـمله النافع جزاء المحـسنين. (منصـور فهـمى) (وانظر كلمة عن منصـور فهمى. . مرفقة).

عن الموسوعة العربية الميسرة

منصور فهمى

(١٨٨٦ - ١٩٥٩)

فيلسوف وبـاحث عربى. ولد بإحدى قرى الدقـهلية. بعد أن أتم دراسـته الابتدائية والثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ثم التحق ببـعثة الجامعة الأهلية ١٩٠٨ فحصل على الدكتوراه من السوربون عام ١٩١٣. ولما عاد من فرنسا عين سكرتيراً لجمعية الهلال الأحمر ثم تولى تدريس الفلسـفة وعلم الأخلاق بالجامعة المصـرية الأهلية عام ١٩٢٠، ولما أنشئت جامعة القاهرة (الحكوميـة).عين بها أستاذا بكلية الآداب ١٩٢٥، ثم عميداً للكلية، (١٩٣٢ - ١٩٣٦)، فـمديراً لدار الكتب ١٩٣٦، فمديراً لجامـعة الإسكندرية (١٩٤٥ - ١٩٤٦). كان عضواً بمجمع اللغة العربيـة، وأميناً عاما لسره. له آثار علمية بالفرنسية عن حالة المرأة فى الإسلام، وكتاب « خطرات نفس ١٩٣٠».

أقول : إذا لم تكن ذاكرتى قد خانتنى. . فإنه حـمل رتبة الباشوية عندما عين مديراً لجامعة الإسكندرية ١٩٤٥.

بنـــد ٢

كلمة واضع المعجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [**الأحزاب**] اللهم صلِّ وسلـم على النبى الرسول الأكرم، الداعـى إلى الخير الأعظم، محمد بن عبد الله، رسول الله، وخاتم النبيين، الذى بعثته فى الأميين رسولاً

منهم يتلو ﴿... يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]. وأنزلت عليه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم «آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته» أما بعد فهذا كتاب العالم الإسلامى، وكتاب العالم العربى، يحرص عليه المسلم لأنه كتاب دينه، ويحرص عليه العربى لأنه كتاب لغته، هو كتاب القرآن الكريم، مرتبة مواد ألفاظه بحسب ترتيب حروف الهجاء.

ووالله ما أقدمت على وضعه، وإرهاق نفسى، وإضناء جسمى، وإنهاك قواى فى عمله، والدءوب فى ترتيبه وتنسيقه، وإعادة مراجعته مرات متعددات إلا لما أيقنت من شدة الحاجة إليه، وفقدان ما يسد مسده مما ألف فى بابه. فإذا كان خير ما ألف وأكثره استيعاباً فى هذا الفن دون منازع ولا معارض هو كتاب: نجوم الفرقان فى أطراف القرآن لمؤلفه المستشرق الألمانى « فلوجل » الذى طبع أول مرة عام ١٨٤٢، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمى. ولما أجمعت العزم على ذلك، راجعت معجم « فلوجل » مادة مادة على معاجم اللغة وتفاسير الأئمة اللغويين، وناقشت مواده حتى رجعت كل مادة إلى بابها، ولم أقنع من نفسى بذلك بل اخترت من أجلة العلماء المغاوير، وصفوة الأصدقاء المخلصين لجنة عرضت عليهم فيها مواده مادة مادة، فما كان بادى الصحة أقروه، وما خفى عليهم وجه الصواب فيه فزعنا إلى المعاجم نستوضحها، وإلى التفاسير نستلهمها. فلئن كان كتاب من عند غير الله له أوفر نصيب من الصحة، لقد كان هذا الكتاب.

ولما كان صاحب نجوم الفرقان إنما اعتمد - فى أرقامه التى يسوقها أمام اللفظه للدلالة على رقم الآية من السورة - على مصحفه الذى طبعه خصيصاً لهذا العمل. ولما كان قد عد آياته غير مستند فى ذلك إلى علم وثيق. فقد وقع اختلاف عظيم فى ألوف من المواضع بين مصحفه ومصحف الحكومة المصرية » الذى مَا نظنه إلا فى كل يد، والذى صورت منه طبعة «المصحف المفسر» التى أصدرها كتاب الشعب.

ولقد لقيت العناء المعنّى والنصب المنصب فى زد رقم آيات مصحف « فلوجل » إلى رقم آيات « مصحف الحكومة المصرية ».

ثم قعدت القواعد فى ترتيب فروع كل مادة وحققتها وحررتها تحريراً بليغاً.

ولما تم لى ذلك، أقحمت نفسى لجة العمل، واستهديت الله فهدانى، واستعنته فأعانني ومضيت لا ألوى على شيء، حتى لقد كيفت طريقة معيشتى تكييفاً يحول دون الوقوف بى قبل إتمامه. ولما كنت أعلم أنه ما من عمل يعمله الإنسان اليوم، إلا ويود الغد لو أنه استقبل من أمره ما استدبر، ليبلغ به من الجودة اليوم ما لم يكن قد بلغ به

منها . . بالأمس . فقد استأنفت نسخه من جديد أثناء الطبع، وأضفت إليه تحت كل لفظة رقما يدل على عدد مرات ورودها فى الكتاب الكريم، ورمزت أمام كل آية مكيا بحرف « ك » وأمام كل آية مدنية بحرف « م » ولما كنت أخشى أن تسقط منى لفظة فى أثناء النسخ، فقد لجأت إلى طريقة عددتها أنجح الطرق وأضمنها للحصر والإصابة . ذلك أنى كنت - بعد تصحيح التجربة الأخيرة - أضع خطا فى مصحف أعددته لذلك على كل لفظة ورد ذكرها فيها، حتى إذا انتهى الكتاب، رجعت إلى المصحف، وعرضته لفظة لفظة .

والطريقة التى اتبعت فى ترتيب مواد هذا المعجم، هى طريقة الزمخشرى فى الأساس، والفيومى فى المصباح، والتى اتبعها أصحاب المعاجم العصرية : كمحيط المحيط وقطره للبستانى، وأقرب الموارد للشرتونى، والمنجد والبستان . . . إلخ، وهى ترتيب أصول الكلمات على حسب أوائلها فثوانيها فثوالثها، فأفتح المعجم بمادة «ا ب ب» واختتم بمادة «ى و م» .

أما الطريقة التى اتبعت فى مشتقات الكلمة (المادة) فهى الابتداء بالفعل المجرد المبنى للمعلوم، ماضيه فمضارعه فأمره، ثم المبنى للمجهول من الماضى والمضارع، ثم المزيد بالتضعيف، فالمزيد بحرف . . . إلخ إلخ، ثم باقى المشتقات فى المصدر، واسم الفاعل والمفعول، فباقى الأسماء متبعاً فى ترتيب كلمات كل باب من هذه الفروع نفس الطريقة التى اتبعت فى ترتيب المواد الأصلية، وفى ترتيبها أيضاً على حسب أوائلها فثوانيها فثوالثها وهلم جرا .

نسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين

محمد فؤاد عبد الباقى

أقــول : صاحب المعجم، الأستاذ عبد الباقى رجل طاهر، تقى نقى . بدأ كلمته باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله . وهذا يزكى العمل، أى عمل، ويزكى العامل، أى عامل، ولا يجعل للشيطان طريقاً إلى العمل ولا إلى العامل . وهذا ما جعله يقول - وهو مطمئن - « فلئن كان كتاب من عند غير الله، له أوفر نصيب من الصحة، لقد كان هذا «الكتاب» . أما « علم » الرجل أما كفاءته، أما جلده وتصميمه، أما دقته، أما هذه كلها من المزايا والفضائل فحدث عنها ولا حرج . وسنرى تفصيل هذا كله، وتأكيده فيما سيأتى من مقالات كتبها علماء فضلاء وفضليات .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين ومنه أستمد العون والتوفيق

بنـــد ٣

والصلاة والسلام على النبى الخاتم، وصاحب الرسالة الخاتمة. وبعد :

فإنى هنا أحاول أن أقول كلمة، حول « كلمة واضع المعجم ». ولا أظننى بقادر على أن أبلغ فى هذا ما أريد، ولا أظننى - ومن باب أولى - إلا عـاجزا عن أن أفى الرجل حقه. كـانت مشيئة الله قـد اقتضت ألا يفعل محـمد فؤاد عبد البـاقى ما يفعله طلاب «الشهادات» من الالتحاق بالمدارس الابتدائيـة والثانوية، والجامعات، جريا وراء وريقات يسمونهـا «الشهادات» وما أكثر هؤلاء الذين حـصلوا على « الشهادات » وليس لهم فى خدمـة العلم من أثر !! وفى بلادنا أمثلة - وإن كانت قلـيلة، بل نادرة، لأفراد فطرهم الله على حب العلم، (أو الفقـه)، ثم صادفتهم ظروف، سـاعدتهم على أن يكون لهم فى العلم، أو الفقه مكان مرموق. وحسب تجربتى، فإن هؤلاء لم يحققوا ما حققوا إلا بسبب الحب، حب العلم أو الفقـه. والمحب - عادة - يضـحى بكل شىء، ويتحـمل التعب والضنى فى سبيل من يحب، أو ما يحب. بل إنى - وحسب تجربتى - لا أعانى من تعب أو ضنى. بل بالعكس، فـإن أسعـد أوقاتى هى تلك التى أقـضيهـا مع قلمى وورقى ومراجعى لأحـقق شيئاً مما يسرنى الله له. ومن دعواتى فى صـلاتى، وفى غير صلاتى « اللهم هيئ لى الأسبـاب لكى أحقق ما أرجو أن أحقق من آمال فـيها رضاك، وفيها النفع للناس وفيها الخير والثـواب لى فى الدارين » وآمالى تتركز - أقوى ما تتركز فى العلم الذى أخدمه.

وأعود إلى العـلامة الكبيـر الأستاذ الـفاضل، محـمد فؤاد عـبد الباقى، أعـود إليه وأقول: إنه ما أقبـل على ما أقبل عليه إلا لأنه محب، ولقد تحـمل ما تحمل من الضنى والتعب، ولم يكن بحاجـة إلى أن ينقل إلى قارئه، مشاعر الرضا والسـعادة حين يحقق إنجازاً على الطريق الوعر الذى لـم يجد سواه ليصل إلى مبتـغاه مما ينفع الناس، ويمكث فى الأرض.

وإننا نراه، وهو يقدم كتـابه الفريد « المعجم المفهـرس لألفاظ القرآن الكريم » - نراه يفتح الكـتاب باسم الله، وتتلو ذلك آيات كـريمات من كتاب الله، فـيهـا الصلاة على رسوله الذى بعـثه المولى جل وعـز رحمة للعـالمين، ورسولا للناس أجـمعين. إن هناك الكثيرين ممن لا يفعلون ذلك. إنهم ليسوا منا، ولسنا منهم. إنهم حزب الشيطان ونحن من حزب الله - وهؤلاء فى النهاية هم الغالبون.

إن كتاب « المعجم المفهرس. » هو كتـاب العالم الإسلامى، وكتاب العالم العربى إنه كتـاب القرآن الكريم « مرتبـة مواد ألفاظـه بحسب ترتيب حروف الهـجاء » - وإن صاحبه مـا أقدم على وضعه وإرهاق نفسه. . إلا بعد أن أيقن « من شـدة الحاجة إليه، وفقدان ما يسد مسده مما ألف فى بابه ».

وإنه إذ يشيـد بمجهود المستشرق الألمانى « فلـوجل »، لا يفوته أن يشيـر إلى ما فى مؤلفه من عيوب تداركها هو، وما أعظم ما تدارك. إن هذا قد حمله ضنى ونصبا. ولم يذهب هذا سدى، فقد سلم معجمه من عيوب كثيرة كثيرة شابت معجم سلفه.

والأستاذ عـبد الباقى رحمه الله وأرضـاه صادق ومنصف فيمـا يقول. وإنى لا أقول هذا من فراغ وإنما عن معايشة « للمعجم ». إنه إنجاز كـبير كبير، وإنه لا تشوبه شائبة. ولننظر إلى قوله : « . . حتى لقد كـيفت طريقة معيشتى تكييـفاً يحول دون الوقوف بى قبل إتمامه » إن هذه العبارة تكشف عن الكثير : لقد كانت من وراء نجاحه زوجة صالحة، وأولاد قد أحسنوا تقدير ظروفه، وقد بارك الله فيهم جميعاً.

من أعلام الإسلام فى العصر الحديث

العالم الإسلامى محمد فؤاد عبد الباقى(١)

بقلم كريمته الأستاذة / عفاف محمد فؤاد عبد الباقى

بنـــد ٤

هو العالم الجليل الذى خدم مباحث السنة المطهـرة بما لم يخدمها بمثل عمله أحد من معاصريه فيمـا يبدو لنا. ولا نزكى على الله أحداً، وهو أيضاً المؤلف الجليل الذى يدين كل معاصر مشتغل بعلوم القرآن والسنة حيث تيسر لكل هؤلاء السبل الأمينة ليغترفوا من مفردات القرآن والسنة ونصوصها. ما يريدون وما يحتاجون إليه عند الكتابة والتأليف بما وضعـه بين أيديهم من معاجم مـفصله لآيات القرآن وكلمـات السنة. وستمضى مـئات السنين واسم « محمد فؤاد عبد الباقى » أمام أبصار العلماء والباحثين، لأن كتبه لا يمكن إلا أن تكون على مقربة من يمين كل باحث وكل كاتب : يفزع إليها يستنبئها كلما خانته الذاكـرة، أو أعوزه الشـاهد والدليل. ويحسن أن نأخـذ فكرة عنه قـبل عرض جـهوده ومؤلفاته.

---

(١) مجلة الأزهر - الجزء الخامس - السنة السابعة والخمسون - جمادى الأولى ١٤٠٥ فبراير ١٩٨٥م - ص٧١٩ وما بعدها.

ولد رحمه اللـه - فى ٨ مارس عام ١٨٨٢ لأبوين مصريـين - الأب من بلدة (قمن العروس) من الواسطى (بالصعيد الأوسط) - والأم من بلدة (برنبال) من قرى الوجه البحرى. وهو الابن البكر لوالديه. نشأ بالقاهرة، وفى سن الخامسة سافر مع أسرته إلى السودان، إذ كان أبـوه وكيلاً للإدارة المالية بـوزارة الحربية، واستقـرت الأسرة فى وادى حلفا. ثم وقـعت معركة (ود النجـوم)، وهو اسم قائدها السودانى الـذى كان يحارب مصر، وقد قتل فى المعركة.

غادرت الأسرة الـسودان إلى أسوان حيث أقـامت عاماً ونصف العـام، دخل ولدها محمد أثناءها مدرسة أسوان الابتدائية، بعدها عادت الأسرة إلى القاهرة حيث دخل ابنها محمـد مدرسة عبـاس الابتدائية، ثم مدرسـة « الأمريكان » بحى الأزبكـية. ترك هذه المدرسة لا إلى مـدرسة أخرى، بل إلى الدراسة الحـرة. ولما أنس من نفسه الـقدرة على التعليم مارس التدريس فى بعض المدارس بالقاهرة. ومن زملائه فى المهنة الأستاذ صادق عنبر الأديب المعروف، والمرحوم عبد الله أمين العالم اللغوى الضليع.

الوظيفة والقراءات: عين بالـبنك الزراعى فى ١٩٠٥/١٢/٢٠، وظـل بهذا العـمل حتى ١٩٣٣/١٠/٣، حيث صفـى البنك أعماله التى أحيلت إلى بنـك التسليف. أخذ الأستاذ فؤاد مكافأة نهاية الخدمة، وفتح مـكتباً للنشر الإسلامى، ظل يديره زمناً طويلاً. ثم تفرغ لخدمة البحوث المـتعلقة بالقرآن والسنة. وفى الخمسينيات عين مـحققاً ومراجعاً بمجمع اللـغة العربية. وكان زواج الأسـتاذ فؤاد عام ١٩١٠. وقد رزقه الـله ثلاثة أبناء وثلاث بنات. وبعد الإقـامة فترة فى الروضة، اسـتقر فى جزء من عمـارة على شاطىء النيل المبارك، حيث ظل وأسرته بها، إلى أن توفاه الله فى ١٩٦٨/٢/٢٢، عليه الرحمة والرضوان.

تقول كـريمته الأستـاذة عفاف: إن المدة التـى قضاها فى الـبنك الزراعى كانت فـترة استقـرار هيأت له القراءات الواسـعة فى الأدب الفرنسى، مع إقـبال كبير عـلى أمهات الكتب فى الأدب العربى. ومن الرجال الذين كان لهم أثر عميق فى نفسه (بعد والده) - الشـيخ مصطـفى عبـد الرازق، وقاسم أمـين والدكتـور عبد الـوهاب عزام والشـيخ رشيد[1] رضا الذى كان اتصال الأسـتاذ فؤاد به نقطة تحول فى حيـاته. لقد صار يلازم الشيخ ملازمة المريد لأستاذه من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٣٥[2] (وهو العام الذى توفى

---

(١) انظر الصفحات عن هؤلاء الرواد فى هذا الكتاب.

(٢) فى الأصل الذى أنقل عنه (١٩٣٦).

فيه صاحب المنار)، وكانت هذه الملازمة فتحاً كبيراً هيأه الله للأستاذ فؤاد - كان فتحه لآفاق واسعة أمامه فى علوم القرآن والسنة، وقد غدا الشيخ فى سنيه الأخيرة يثق بعلم تلميذه الأستاذ فؤاد، وكان يستعين به فى كثير مما يعرض له.

آثـــاره (وهى تدور كلها حول خدمة علوم القرآن والسنة) - وأعظم كتبه (أ) «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » الذى طبع لأول مرة عام ١٣٦٤ هـ. وقد وضع الأستاذ عبدالباقى كتابه هذا بعد أن راجع ما ألفه السابقون فى هذا المجال من أمثال كتاب « نجوم الفرقان فى أطراف القرآن» للمستشرق الألمانى (فلوجل)... إلخ.

وأنقل عن مقال الأستاذة عفاف (ص ٧٢١) قولها: لقد أخطأ (فلوجل) فى عشرات من الكلمات حين ردها إلى مواردها فاستدركها عليه (عالمنا المصرى) العربى، المسلم الأستاذ فؤاد الذى من آثاره (ب) ترجمة كتاب « تفصيل آيات القرآن الكريم » الذى وضعه بالفرنسية المستشرق الفرنسى (جول لابوم) - ويعد هذا الكتاب من أسبق الكتب فى جمع وتنسيق موضوعات القرآن الكريم. (جـ) وكما خدم الأستاذ فؤاد - رحمه الله - على النحو السابق القرآن الكريم، خدم سنة رسول الله صلى الله عليه سلم بوضع معجم للحديث الشريف عنوانه « مفتاح كنوز السنة » وهو معجم مفهرس عام تفصيلى موضوع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر المشهورين، وذلك بالدلالة على موضع كل حديث فى صحيح البخارى وسنن ابن ماجه وأبى داود والترمذى والنسائى والدارمى ببيان رقم الباب فى بعضها وبيان رقم الحديث فى بعضها. وببيان رقم الصفحة فى بعضها (على النحو المفصل فى مقال الكاتبة الفضلى) وبذلك يستطيع الباحث أن يقف على الحديث الذى يطلبه بغير عناء. ويعد هذا الكتاب أحد نفائس الكتب الإسلامية(١). وقد أتم الأستاذ عبد الباقى عمله فى هذا الكتاب فى ٢٧ يوليو عام ١٩٣٤. ثم أعقبه بكتاب آخر من عدة أجزاء، وبعنوان « تيسير المنفعة بكتابى « مفتاح كنوز السنة، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى» وهو كتاب ضخم جداً اشترك معه فى وضعه مجموعة من المستشرقين وكان طبع الكتاب فى هولندا.

ومن عبارات الكاتبة الفضلى « وإذا علمنا أن المعجم يقوم به أكثر من أربعين مستشرقاً، من أنحاء العالم، ويصحح عملهم جميعاً الأستاذ عبد الباقى، عرفنا قيمة

---

(١) فى الهامش : تأليف الكتاب كان لأحد المستشرقين، وقام الأستاذ فؤاد بوضعه فى ثوبه العربى. (وفى الهامش خطأ مطبعى) إذ فيه : فكانت دقيقة فى التعبير. والسياق يقتضى أن تكون العبارة هكذا : «غير دقيقة فى التعبير».



العمل الكبير الذى قام به رحمه الله، وقيمة الجهد الذى بذله مما حقق - كسبًا علميًا وقوميًا.

وأقول - تعقيباً على هذه العبارة الأخيرة: إن « العلم للجميع »، وعظيم أن يكون من أضاف إلى العلم، وأسهم فى بناء صرحه، مصريًّا، عربيًّا مسلماً. وقد وضع المرحوم عبد الباقى فى هذا الصرح أكثر من لبنة. وإنه إذا كانت مؤلفاته وآثاره، محل الاهتمام، وممتدة النفع إلى ما شاء الله، فهذا أجر فى الدنيا، وأجر الآخرة أكبر، إنه جنات النعيم.

ومما جاء تحت عنوان « من أعماله الأخرى » (ص ٧٢٢ وما بعدها): - كتابه «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان »، وهو فى ثلاثة أجزاء. ومن كتبه « معجم غريب القرآن » وهو مستخرج من صحيح البخارى، وهو عبارة عن شرح الألفاظ الغريبة التى أوردها البخارى فى صحيحه.. ومن جهوده المباركة: شرح وفهرسة كتب: «مُوَطأ الإمام مالك » و « سنن ابن ماجه » - و « صحيح مسلم » - كما قام بتخريج الأحاديث الواردة فى كتاب « الأدب المفرد» للبخارى، وتخريج الآيات والأحاديث والشواهد الشعرية فى تفسير القاسمى.

وأخيراً، وتحت عنوان « كتب مخطوطة» - منها كتاب « قرة العينين فى أطراف الصحيحين » وهو من ألف صفحة من القطع الكبير. وفيه اضطلع بتجميع ولمّ شتات مواضع أحاديث البخارى. والكتاب الثانى « جامع مسانيد صحيح البخارى » وفيه يورد النصوص المتعددة للحديث الواحد حسب مواضعها فى صحيح البخارى، كما جمع أحاديث كل صحابى على حدة، مرتباً أسماء الصحابة حسب الحروف الهجائية. وقد قسمهم إلى قسمين: الصحابة الرجال والصحابيات. وعددهم جميعاً ستة وتسعون ومائة. وهذا الكتاب فى ستة أجزاء. . ولايزال الكتاب لدى ذويه ينتظر من ينشره ؟!.

أقـــول عن هذه المخطوطات، وهو قول يصح فى كل مخطوط: لقد بذل كاتبها ما بذل: من نور العين، وطاقات العقل والوجدان والبدن، وحرام بعد هذا أن يكون مصيرها إلى الخزائن والأدراج !! وواجب الأحياء نحو الدين والعلم والفكر أولاً، والأجيال ثانياً، والراحلين من الأعلام ثالثاً - أن يتعاونوا على إخراجها لتكون بين أيدى القراء، وفى أقرب وقت. والمولى - جل وعز - يقول « **وتعاونوا على البر والتقوى** » وما أدعو إليه، ويدعو إليه كل غيور على «الدين والعلم » هو من « البر والتقوى».

عن مجلة العربى الكويتية (١)

شخصية لا تنسى

محمد فؤاد عبد الباقى

صاحب فهارس القرآن الكريم

بقلم الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (٢)

بنـــد ٥

كان فى العقد التاسع من عمره، لكنك كنت تستطيع بسهولة أن تحذف من عمره ربع قرن - فقد كان لا تبدو عليه من سنيه الطويلة العـامرة غير ستين، بل إن نشاطه وطاقته العقـلية والجسـدية كانت تتـفوق به، أو يتـفوق بهـا على ابن الخمـسين. أما طمـوحه العـريض، فقـد كان ينقص - بدوره - حلقـة أخرى من عـمره. فـهو فى اهتـمامـاته وإيجابياته ومطامـحه ابن أربعين ولا يزيد. رجل عجيب، أليس كـذلك؟ وعندما نعرف تاريخ حياته يزداد عجبنا ولا يتبدد - إن بداية حياته لا تتسلم - إذا أخذنا بمقاييس المنطق - منطق العقل والأشياء - إلى النهاية. ولـكن لماذا أوحى إليك حكماً أو رأيا خاصا قد ترى غيره.

لنبـدأ معـاً من البـداية. إن الرجل الذى نتحـدث عنه ولد فى مـارس سنه ١٨٨٢. لأبوين مصـريين، أما الأب فمن بلدة (قمن العـروس) من أعمال الواسطى بالصـعيد الأوسط. وأما الأم فمن بلدة (برنبـال) إحدى بلاد بحرى.. وهو الابن البكر لأبويه، وقد نشأ فى القاهـرة فى حى السيدة زينب إلى أن بلغ الخامسة من عـمره، ثم سافر مع أسرته إلى السودان، وكان والده وكيلاً للإدارة المالية بوزارة الحربية. واستقرت الأسرة فى وادى حلفا، ثم حدثت معركة ود النجـوم. و (ود النجوم) اسم قائدها السودانى. وقد قتل فى المعركة.

وبعد هذا غادر وادى حلفا إلى أسوان، حيث بقيت الأسرة سنة ونصفاً. وهناك دخل صاحبنا مدرسة أسوان الابتدائيـة، ثم هبطت الأسرة القاهرة، حيث انتقلت فى سكناها بين أحياء العـباسية وبولاق والبغالة من أحـياء القاهرة الشعبـية. وفى عام ١٩٢١ توفى الوالد.

---

(١) ص ١٠٨ العدد ١١٨ سبتمبر ١٩٦٨.

(٢) كنا طلبنا مقالا عن أعمال صاحب هذه الترجمـة، فكتبت لنا الدكتورة نعمات - ابنة أخيه - هذا المقال، وفيما نحن فى تجهيزه، توفى إلى رحمة الله عن عمر زاد على الثمانين.

تعلمه ووظائفه

فى القاهرة دخل محمد فؤاد عبد الباقى - الذى تعرفه اليوم مجامع الاستشراق فى أوربا - مدرسة عباس الابتدائية. وعندما بلغ امتحان الشهادة الابتدائية عام ١٨٩٤ رسب القسم الفرنسى بأجمعه بها، فخلفها إلى مدرسة الأمريكان بحى الأزبكية حيث مكث سنتين. وفى سنة ١٨٩٩ ترك مدرسة الأمريكان واشتغل مدرساً للغة العربية بمدرسة جمعية المساعى المشكورة فى مركز « تلا » ولكنه تركها بعد فترة ليعمل ناظراً لمدرسة بإحدى قرى الوجه البحرى، حيث ظل شاغلاً لهذا المنصب سنتين ونصفاً. ضاق بعدها على عادته الملول. ولو أنه عزف عن التعليم ووظائفه كلية لسهل تفسير الأمر، لكنه، وقد يبدو هذا غريباً، وهو غريب فعلاً، بعد أن كان ناظراً اشتغل مدرساً، ولمادة الرياضة فى مدرسة أخرى، على أنه مالبث أن ضاق بالرياضة أيضاً بعد سنة من اشتغاله بها. واختار العمل مع الأديب صادق عنبر فى المدرسة التحضيرية الكبرى بدرب الجماميز. ومن الطريف أن ناظر المدرسة اشترط عليهما لقبولهما فى الوظيفة أن يقوما بإنشاء القصائد والخطب ليقدمها باسمه إلى الخديوى والسلطان عبد الحميد.

مترجم

ثم أعلن البنك الزراعى عن وظيفة مترجم، فتقدم إليها ونجح. وعين بالبنك فى ٣٠/١٢/١٩٠٥ وقد عمر بهذه الوظيفة طويلاً، إذ بقى بها حتى ٣/١٠/١٩٣٣ وكان من الممكن أن يستمر بها مدة أطول لولا أن صفى البنك أعماله التى أحيلت إلى بنك التسليف. وعمل المرحوم عبد الباقى فى مجمع اللغة العربية بضع سنين.

دراسات ورجالات

على أن المدة التى قضاها بالبنك الزراعى تعتبر فترة استقرار فى حياته هيأت له القراءة الواسعة فى الأدب الفرنسى. كما أقبل على أمهات الكتب فى الأدب العربى. وفى حياته رجال عمقوا أثرهم فى نفسه - وهم - بعد والده - الشيخ مصطفى عبدالرازق، والدكتور عبدالوهاب عزام والشيخ رشيد رضا. وهذا الأخير يعتبر نقطة تحول فى حياته، غيرت مجراها وأعادت تخطيطها لو صح هذا التعبير. ففى سنه ١٩٢٢ تعرف إلى السيد رشيد صاحب المنار وكان لقاء لم يقدر له الفراق إلا بوفاة الشيخ رشيد عام ١٩٣٥[1]. وقد كان المرحوم محمد فؤاد يلازمه ملازمة المريد لأستاذه الشيخ. لقد فتح له آفاقا واسعة فى علوم الدين والسنة، ووجهه كثيراً حتى غدا الأستاذ الشيخ فى سنيه الأخيرة يثق بعلمه ويستعين به كثيراً مما يعرض له.

---

(١) فى الأصل عام ١٩٣٦.



مفتاح كنوز السنة

حدث فى سنه ١٩٢٨ أن بلغ السيد رشيد رضا أن الشيخ أحمد محمد شاكر - ابن وكيل الأزهر وقتئذ - عنده الأصل الإنجليزى لكتاب مفتاح كنوز السنة. فأرسل الشيخ رشيد (محمد فؤاد عبد الباقى) مع ابن عمه إلى الشيخ أحمد محمد شاكر فى بيته بالحلمية فاستعار له الكتاب لمدة أسبوعين. ورأى الشيخ رضا أن يكل أمر تقديره إلى عبدالباقى، فلما اطلع عليه وبحثه قال للشيخ رضا: من الجرم ألا يترجم هذا الكتاب إلى العربية - إذن. . لتكن أنت صاحبه.

توسع فى اللغة الإنجليزية

التحق فؤاد عبد الباقى بمدرسة بيرلتز، ولم ينتظر حتى يفرغ من الدراسة. بل شرع فى الترجمة وهو يدرس. واستمر فيهما (الدراسة والترجمة) لمدة خمس سنوات. أى أنه انتهى من ترجمته ومراجعته فى أكتوبر عام ١٩٣٣.

المفتاح أوصل إلى معاجم

طلب الأستاذ عبد الباقى إلى ونسنك تصريحاً بالترجمة باعتباره مؤلف الكتاب (مفتاح كنوز السنة) فما كان من ونسنك (الذى لم يكتف بالموافقة) - بل أرسل إليه الفصل الأول من المعجم المفهرس للحديث النبوى، فلما اطلع عليه وجد به أخطاءً كثيرة، فضمنها كشفاً أرسله إلى دكتور ونسنك، فسر لذلك كثيراً، وكتب إليه يرجوه تصحيح (بروفات المعجم) ومضى فى هذا الطريق إلى ختام حياته.

وإذا علمنا أن المعجم يقوم به أكثر من أربعين مستشرقاً فى أنحاء العالم، ثم يصحح عملهم مجتمعين محمد فؤاد عبد الباقى عرفنا قيمة العمل الكبير الذى يؤديه الرجل: قيمة الجهد الذى بذله، قيمة الكسب العلمى من وراء هذا العمل، قيمة الكسب القومى. إنها مفاخر مجتمعة، حققها ابن مصر محمد فؤاد عبد الباقى، لتكون محل اعتزاز لا لمصر وحدها وإنما لكل البلاد العربية والإسلامية، لكل إنسان حيث كان، فالعلم ميراث للجميع.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث

يقوم هذا المعجم على رد ألفاظ الحديث فى أشهر وأصح كتب الحديث وهى تسعة معتمدة: الصحيحان (البخارى ومسلم). والسنن الأربعة: أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه. سنن الدارمى - موطأ مالك - مسند أحمد بن حنبل. وتتعهد هذا المعجم مؤسسة الاتحاد الدولى للمجامع العلمية. ومقر الاتحاد فى ليدن بهولندا وقد بُدئ نشره



فى أوائل الأربعينيات (حوالى عام ١٩٣٣) وصدر منه حتى الآن واحد وأربعون مجلدا.

وهذا الجهد الضخم لم يستنفد طاقة الرجل، فقد وسعت جهوده العلمية : ترجمة كتاب «مفتاح كنوز السنة» وترجمة كتاب « تفصيل آيات القرآن الحكيم » عن (جول لابوم).

مؤلفات وشروح

أما فى ميدان التأليف فله من الأسفار التى ظهرت حتى الآن :

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. (البخارى ومسلم) - معجم غريب القرآن (وعنوانه يشير إلى موضوعه). كما قام الأستاذ عبد الباقى بشرح وفهرسة كتب : موطأ الإمام مالك - سنن ابن ماجه - صحيح مسلم - وقام بتخريج الأحاديث الواردة فى كتاب الأدب المفرد للبخارى - وتخريج الآيات والأحاديث والشواهد الشعرية الواردة فى كتاب: شواهد التوضيح والتصريح لابن مالك - وتخريج الأحاديث والشواهد الشعرية فى تفسير القاسمى.

أطراف الصحيحين وجامع المسانيد:

وله من الكتب المخطوطة التى لم تنشر والتى يحتجب باحتجابها عنا خير كثير:

- كتاب أطراف الصحيحين وهو من ألف صفحة من القطع الكبير. وفيه اضطلع بتجميع ولم شتات مواضع أحاديث البخارى. وهو يطبع الآن فى مصر - والكتاب الثانى: « جامع مسانيد صحيح البخارى ».

كما جمع أحاديث كل صحابى على حدة، مرتبا أسماء الصحابة حسب الحروف الهجائية، وذلك بعد أن قسمهم إلى قسمين: الصحابة الرجال والصحابيات - وعدتهم جميعاً ١٩٦ صحابياً.

ولهذا الكتاب قصة ترويها محاضر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٢٣ . بما تضمنته من مكاتبات دارت حوله بين المستشار الفنى لوزارة المعارف يومئذ الدكتور طه حسين وبين المجمع، كما تضمن التقرير الذى وضعته اللجنة المكونة من الأساتذة: أحمد بك ابراهيم - الشيخ ابراهيم حمروش - الشيخ محمد الخضر حسين. ومع ما فى التقرير من تقدير وإشادة بالجهد السخى الذى بُذل فى الكتاب، فقد انتهى الأمر باعتذار المجمع عن النشر لأن الكتاب أدخل فى السنة منه فى باب اللغة. ولا يزال الكتاب ينتظر من ينشره.

جامع الصحيحين: بل إن من كتبه ما تبنته الهيئات ثم قعدت عن نشره. وأقصد كتابه «جامع الصحيحين». فقد حدث أنه وجه إليه فضيلة شيخ الأزهر المرحوم الشيخ مأمون الشناوى دعوة إلى اجتماع انعقد فى ١٩٥٠/٢/٢٨ من المشتغلين بعلم الحديث، وكان الاجتماع مؤلفاً من : الشيخ أحمد شاكر - والشيخ عبد العزيز المراغى، ووكيل الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن، والشيخ محمد محيى الدين والشيخ الكوثرى (وكيل المشيخة الإسلامية فى الأستانة) والشيخ رضوان والأستاذ عبد الباقى. وبحث المجتمعون موضوع جمع كتب السنة فى كتاب واحد. .واتفقوا على أن يكون ترتيب الكتاب على حسب ترتيب صحيح مسلم. وفى ١٥ أبريل وكل إلى الأستاذ فؤاد العمل على جمع أحاديث صحيحى البخارى ومسلم وانتهى العمل فى سنة ١٩٥٢. وتألفت لجنة لمراجعة الكتاب. ولكن أين هو؟ إنه يقبع الآن فى خزانة بالجامع الأزهر؟!

الأستاذ عبد الباقى - ومنابعه الثقافية

كان الأستاذ عبد الباقى يعتبر محدث مصر بعد وفاة الشيخ أحمد محمد شاكر. وأصفى منابعه الثقافية، عيون الأدب العربى. وفوق هذا بالطبع : القرآن الكريم ثم كتب التفسير والحديث والفقه، حتى ليعد (القرآن والبخارى ومسلم) خير ما قرأ على الإطلاق. ثم ورد ونهل من اللغة الفرنسية، وكذلك الإنجليزية بدرجة أقل.

تفصيل آيات القرآن الحكيم

على أن هناك كتاباً آخر من كتب الرجل له قصة، فقد حدث عندما كان الشيخ محمد عبده يفسر آية من القرآن - أنه كان يأتى بالآيات المشابهة. وسأله الشيخ رضا: أنَّى له هذا؟ فأجاب الشيخ محمد عبده: إنه يستعين بكتاب عنده فى اللغة الفرنسية. وبعد موت الشيخ محمد عبده بحث الشيخ رشيد عنه فلم يجده فى تركته. وأفضى الشيخ رشيد بما فى نفسه إلى الأستاذ عبدالباقى فأجابه بأن الكتاب عنده بالفرنسية، وطلب منه ترجمته ففعل وكان ذلك عام ١٩٢٤ والكتاب بعنوان « تفصيل آيات القرآن الحكيم » - وطبع الكتاب عام ١٩٣٤. وأهدى الأستاذ عبد الباقى الكتاب للكاتب الساخر إبراهيم عبد القادر المازنى الذى كتب عنه فى (البلاغ) مقالة ضافية.

منهل مورود

ومحمد فؤاد عبد الباقى كان فى مصر مرجع كل من يلم فى كتابته بأمر من أمور القرآن أو الحديث، لا يستثنى من هذا كبار الكتاب والعمالقة. لم يضن قط على سائل علم، وقد يحبس نفسه ويكرس وقته على سؤال سائل يوفيه درساً وتمحيصا - وتكون الإجابة موضوعاً متكاملا فيه غناء. وكان يفعل هذا وفاء بحق العلم عليه.

حياة صائم الدهر

وحياة الرجل الخاصة تدخل - كما تقول الدكتورة نعمات - فى باب الغرائب. إنه صائم الدهر لا يفطر العام إلا يومين اثنين - اليوم الأول من أيام عيدى الفطر والأضحى.

وطعامه نباتى. ففى أول كل شهر يشترى ٣٠ علبة محفوظة من الخضروات دفعة واحدة. فالفاصوليا ليوم كذا، والبازلاء ليوم كذا.. إلخ. وكان يصوم بغير سحور (أى وجبة واحدة فى اليوم) ويبدأ فطوره بملعقتين من العسل الأبيض، ثم علبة اليوم، ثم الزبادى والفاكهة وفنجان القهوة، ويكون هذا - بالطبع - بعد أذان المغرب. وفى الساعة العاشرة بالضبط يشرب كوباً من الماء، ولا شىء بعد ذلك حتى مغرب اليوم التالى. وبهذا تتحقق رغبته فى ألا يكلف إنساناً من أهل بيته مشقة ما فى طعامه أو شرابه. وحجرته الخاصة تضم مكتبته الكبيرة، وعدة مناضد، ومجموعة من الأكواب والصوانى. إنها عالمه الخاص ففضلاً عما تقدم، بها الصور.. الأدوية.. الأقلام.. الساعات. وهو لا يؤقت إلا طبقاً للساعة (العربى). وكان محافظا فى كل شىء، فزيه يتكون من البدلة الكاملة صيفاً وشتاء. فرباط العنق، والدبوس، والمنديل الأبيض فى جيبه، والطربوش القانى على رأسه. والعصا الأنيقة فى يده. بكل هذا يلزم به نفسه. وكان زاهداً فى الاجتماعات والتعارف.

ذرية

وللرجل أولاد وأحفاد كلهم يشغل منصباً مرموقاً فى الدولة، كان يرعى صغارهم فإذا مرض أحدهم لازمه، ومرضه حتى يسترد صحته.

درس أصول الدين حبًّا فى العلم، وقد أفادته تجاربه وعمقت فى نفسه معنى الحرية والتمرد. فابنتاه تعملان، بل إن عملهما عليه طابع العصر الذى نعيشه. فإحداهما مفتشة عامة للرياضة البدنية بوزارة التربية، والأخرى مديرة كلية النصر بالمعادى (فيكتوريا سابقاً) وبعد: فهذه الجهود السخية العطاء، الموصولة الدأب، وهذه الحياة، حياة التبتل من أجل الدين فى صورة مشرقة مشرفة هى أجدى عليه وأقرب إلى الله.

هذه الشخصية الرائعة بصبرها الصابر، وتصميمها القادر على التجويد.. شخصية لن تنسى.

القاهرة - نعمات أحمد فؤاد.



الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

مع « من كتبوا عنه » (امتداد)

بند ٦

الأوراق التى بين يدى، وهى صور لمقالات عنه فى عدة مجلات. وسأعرض فى إيجاز - المقالات، مُتبعاً ذلك بما ييسره الله لى من انطباعات.

عن الصفحة ٨٩٣ وما بعدها من مجلة الأزهر[1]، وفى أعلاها نقرأ « طبقات المحققين والمصححين - (٩) للأستاذ الدكتور السيد الجميلى.

الطبقة الثانية من المحققين الأعلام

الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى - رحمه الله

هو العلامة المحقق الكبير محمد فؤاد عبد الباقى بن صالح بن محمد.

ولد هذا العبقرى فى شهر مارس (آذار) عام ١٨٨٢م. كان أبوه - رحمه الله يقطن بلدة « ميت حلفا » من أعمال مديرية القليوبية بمصر المحروسة. وأصله من بلدة « قمن العروس » من أعمال الواسطى بالصعيد الأوسط. وكانت أمه - رحمها الله - من بلدة « برنبال » - مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية. وهى بلدة (على باشا مبارك) - وزير المعارف، ومنشئ دار الكتب المصرية ودار العلوم. تحولت الأسرة من « ميت حلفا » بعد ذلك، إذ أخذت تضرب فى الأحياء الشعبية المصرية من حى الماوردى إلى حى البغالة، إلى حى شبرا بالقاهرة. هذه الأحياء التى كان المجتمع المصرى يبدو فيها بكل أصالته وعاداته.

والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى لم يستقر على دراسة مألوفة منتظمة، بل كانت دراساته كلها حرة (لم تتقيد بالمدارس - حكومية أو خاصة، ولم تتقيد بمناهجها ولا بغاياتها). إنما كان يدرس ما يروق له من المعارف، ويحصل ما يراه نافعاً مفيداً من العلوم. والأساس فى التحصيل، والتبريز فى العلم، إنما يكونان بالرغبة الملحة والحب الخالص لوجه الله والعلم. وإذا كان ذلك فكل عسير يسير، وكل صعب سهل.

« وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام »

أقبل الأستاذ عبد الباقى على العلم مع هيام المحبين، وإخلاص الصوفيين الحقيقيين. واشتغل الأستاذ فؤاد بالتدريس فترة، بعضها فى المدارس الحرة، وبعضها فى المدارس

---

(١) جمادى الأخرة ١٤١٧هـ - أكتوبر/ نوفمبر/ ١٩٩٦م - الجزء السادس - السنة التاسعة والستون.

الأميرية. كان رفيقاه في فترة التدريس هذه صديقان أثيران لديه الأستاذان صادق عنبر الأديب المعروف، والأستاذ اللغوى الثبت عبد الله أمين، ويرحم الله الجميع. وانصرف الأستاذ فؤاد عن التدريس ليصبح موظفاً بالبنك الزراعى المصرى منذ عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٣٣م. ولما صار هذا البنك إلى الحكومة، تركه مع حصوله على مكافأة نهاية الخدمة[1]. « إلا أن حبه للعلم والثقافة » أبى إلا أن يكون موصولاً بهما ففتح مكتباً للنشر. وتولى أمره زمناً. يقول الدكتور الجميلى « وكان هذا خيراً، وبركة عليه وعلى العلم إذ انطلق بعزيمة فولاذية، إلى خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية ».

ويعرج الأستاذ الدكتور الجميلى على الحياة الخاصة للأستاذ عبد الباقى فيقول عنه: عاش طرفا من حياته فى الروضة بالقاهرة، ثم انتقل إلى الجيزة حيث أقام فى جزء من عمارة على شاطئ النيل وبقى فيها إلى أن انتقل إلى رحاب الله فى الثانى والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٦٨م الموافق ١٣٨٨هـ. ويستمر الدكتور الجميلى مع الحياة الخاصة للمترجم له فيقول: إنه تزوج عام ١٩١٠ وقد رزقه الله خمسة من الأولاد: ثلاثة رجال.. وبنتين: إحداهما تعمل بالتفتيش العام للرياضة البدنية بوازة التربية والتعليم، والثانية هى الأستاذة « عفاف » - مديرة كلية النصر بالمعادى، وفى الحديث الذى دار بينه وبين الدكتور أحمد الشرباصى ذكر له أنه كان تلميذاً للمرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار و« تفسير المنار »، وأنه كان أيضاً تلميذا للعالم المحقق الكبير أحمد محمد شاكر. وكانت صلته بالسيد رشيد قد بدأت عام ١٩٢٢، واستمرت حتى وفاة الرشيد عام ١٩٣٥. وفى مكتبة المنار تعرف إلى الأستاذ عبدالرحمن عاصم، ابن عم الرشيد. وإلى ذلك فإن السيد رشيد أرشده إلى جملة من الكتب ليُقرأها. وقد توثقت العلاقة بين الاثنين، فكان الأستاذ عبد الباقى يذهب إلى السيد رشيد يوم الأحد من كل أسبوع، وقد نهل من علمه وفقهه وتوجيهه. ولعل حبّ فؤاد للرشيد هو أنه تلميذ الأستاذ الإمام. ثقف الأستاذ فؤاد نفسه بنفسه، وحسبه أنه تعلم الإنجليزية والفرنسية، كما نهل ونهل من معين الأدب العربى. وقبل ذلك كله كان إقباله بحب وشغف على الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وعلى كتب التفسير الكبرى المعروفة، وكذلك كتب الحديث والفقه والأصول.. وكان الأستاذ فؤاد يُسَمّى صائم الدهر إذ كان يصوم العام كله، ولا يفطر إلا يومين، اليوم الأول من عيدى الفطر والأضحى.

(١) كل المعلومات الواردة فيما أكتب منقولة عن مقال الأستاذ الدكتور الجميلى، جزاه الله كل خير.

وكان غـذاؤه نباتياً. وكان يصـوم بغير سحـور، وهذا ما روته عنه ابنة أخيـه الكاتبة الدكتورة « نعمات أحمد فؤاد عبد الباقى » [1].

ويلاحظ الدكتور الجـميلى اهتمام الأستاذ فـؤاد بزيه الأنيق، ومظهره. ومما ذكره عنه حرصه على صلة الرحم، إذ كان يزور أخته كل يوم جمعة، ويقضى معها اليوم وكان - رحمه الله - ملفتاً للنظر « من بنيانه الجسدى » فضلاً عن تكوينه النفسى المتين المكين مما يجعل شـعوره بالإرهاق محـدوداً إن لم يكن معدوماً. ولا يفـوت الدكتور الجـميلى أن يشير إلى أن روحانية الأستاذ فؤاد كـانت قوية وعالية، إذ إن الروح تتسامى، وتبلغ غاية رقيها وصفائهـا بالصيام المبرور. والله سبحانه وتعالى يختص بفـضله ورحمته من يشاء من عباده.

أما الكتب المؤلفة والمحققة والفهارس التى عملهـا فهى جميعها شواهد عدل وصدق على إخلاص الرجل، وعلو همته وقوة عزيمته وصريمته.

ويقول الدكـتور الجميلى: « لا أعـتقد أن هناك باحـثاً أو عالماً يشتـغل بعلوم القرآن والسنة إلا وعلى مكتبه وأمام ناظريه « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » و « مفتاح كنوز السنة » والفهارس التفصيلية المسماة « تيسير المنفعة بكتابى : «مفتاح كنوز السنة »، و«المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشـريف ». إن هذه الكتب والفهارس إنجاز ضخم لا يمكن أن ينهض به إلا فـارس مغوار هو مـحمد فـؤاد عبد البـاقى الذى بذل وبذل حتى ذهب بصره ولكن الرجل مـا بذل إلا محتسـباً عند الله، فله أجر المجاهدين فـى سبيل الله. والجهاد والتضحية فى سبيل العلم جهاد فى سبيل الله!

مؤلفاته وتحقيقاته

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ الدكتور الجميلى وأفاض وأجتزئ مما كتب بما يلى :

« المعجم المفـهرس لألفـاظ القرآن الكريم » - كانت طبـعتـه الأولى عام ١٣٦٤ هـ بمطبعة دار الكتب المصرية. إنه عمل عظيم مـا كان لإنسان أن يقوم به إلا بعون من الله وفضله، لقـد أكب الرجل على استيـعاب أعمال سـابقيه فى ذات المجال. وجـاء عمله خالياً من أخطاء سابقيه. وكفى بهذا إنجازاً واحتـساباً عند الله. إنه مَجْدٌ وفخر حققهما عربى مسلم لكل العرب والمسلمين.

---

(١) أعتز بمعرفتهـا من بعيد، فهى عضو فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامـية الذى أشرف بعضويتى به. كما أنى التـقى معها فـيما تنشره لها «الأهرام» يوم الأربعـاء من كل أسبوع، وكلمتـها اليوم الأربعاء ٢٥/ ٦/ ١٩٩٧م بعنوان «الرموز والجـذور إلى أين؟» إنها سيدة فـضلى، إنها هى الأخرى «علامة» وموقـفها لحماية هضبة الأهرام بالجـيزة من العبث بها (بحجة السـياحة) موقف تاريخى مشهور.



كان المرحوم عبد الباقى (والكلام للدكتور الجميلى) - متأثراً بطريقة الزمخشرى فى معجمه « أساس البلاغة » ومعجم « المصباح المنير » للفيومى.. ومما جاء فى مقال الدكتور الجميلى (ص ٨٩٨) أن المغفور له فؤاد عبد الباقى قام بترجمة كتاب « تفصيل آيات القرآن الحكيم » الذى وضعه بالفرنسية (جول لابوم)، ثم تجلت عبقريته (الكلام للدكتور الجميلى) فى خدمته للسنة النبوية المطهرة - فى إعداده كتاب « مفتاح كنوز السنة»، وهذا الكتاب بمثابة معجم مفهرس عام مفصل للكشف عن الأحاديث النبوية المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر. وهو (أى هذا الكتاب) - وضعه باللغة الإنجليزية المستشرق الهولندى الكبير «أ. ى. فنسنك [1] » أستاذ اللغة العربية بجامعة ليدن. وقد فرغ منه الأستاذ عبد الباقى فى ٢٧ يوليو ١٩٣٤.

وقد ذكر الأستاذ الدكتور الجميلى - فى مقاله القيم، الذى انتفعت به على النحو المتقدم - كتباً ودراسات كثيرة للمغفور له الأستاذ عبد الباقى. إنه كم كبير لا تقوم به إلا العصبة ذات العزم والقوة.

عن المدينة الأسبوعية

(جريدة يومية جامعة - تأسست عام ١٣٥٦ هـ)

عدد الأحد ربيع الأول ١٤١٣ هـ - ٣٠ أغسطس ١٩٩٢ م

(السنة الثامنة والخمسون - العدد ٩٢٣٨)

من المظلومين:

محمد فؤاد عبد الباقى

بقلم فاروق صالح باسلامة

بند ٧

رحم الله هذا العالم الفذ الذى يعد من بقية السلف فى علماء مصر المحدثين. وُصِفَ بأنه عالم بوضع الفهارس لآيات القرآن الكريم، وعالم بتنسيق الأحاديث النبوية. فوضَع للقرآن الكريم المعجم المفهرس لألفاظه، كما وضع معجم غريب القرآن مستخرجاً من حديث البخارى وفهرس موطأ الإمام مالك، وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه، والأدب المفرد للبخارى. بيد أن تركيزنا هنا على كتابه المدهش « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » الذى يجمع فيه ألفاظ القرآن وترتيب موادها على حسب أوائلها وثوانيها

---

(١) هذا الكتاب (وهو من سبعة مجلدات ضخمة جداً) - عندى وعلى الصفحة الأولى من المجلد الأول «رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره الدكتور أ.ى. ونسنك - أستاذ العربية بجامعة ليدن - ١٩٣٦.



وثوالثها، حيث يضع اللفظة وأمامها الآية التى وردت فيها مع التنبيه على المكى فيه والمدنى. وأذكر فى هذا الصدد الألمانى (فلوجل) - فإن عبد الباقى قد استدرك عليه ماد، مادة، حيث عرضها على معاجم اللغة وتفاسير الأئمة اللغويين، وعلى ضوئها راجع وناقش مواد معجم المستشرق (فلوجل) المسمى « بنجوم الفرقان فى أطراف القرآن » حيث لاحظ عليه عدة أخطاء فى الكلمات ردها عبدالباقى إلى موادها. وقد عرض ذلك الرجل رحمه الله على لجنة تكونت لهذا البحث حيث وقف أفرادها على تصحيح ما أخطأ فيه (فلوجل). بعد ذلك ظهر فراغ كبير فى معجم (فلوجل) بالنسبة لعدد آيات المصحف الذى طبعه لهذا الصدد، وعرضه عبد الباقى على المصحف العثمانى فوجد اختلافاً عظيماً فى ألوف من المواضع بين معجم (فلوجل)، والمصحف العثمانى. وراح يقعِّد القواعد فى ترتيب مواد المصحف حيث حققها وحررها من جديد. ولقد بلغ المؤلف والمصنف عبد الباقى من جهده فى هذا العمل إلى أن ضعف بصره وكف حيث كان صائم الدهر، قوى العزيمة كما وصفه بذلك خير الدين الزركلى رحمه الله فى الأعلام.

وعالم بهذا العدد من الإنجاز العلمى لثقافة القرآن الكريم والسنة المطهرة جدير بأن يذكر دائماً على ألسنة أهل العلم وطلابه، وناهيك بهذا المعجم المفهرس إنجازاً عظيماً حيث يسر بعمله هذا على طلاب معرفة مواضع الآيات القرآنية فى السور فصار مضرب المثل للباحثين عن ذلك، بل صار رحمه الله مرجعهم الوحيد تقريباً. ففى الدراسات القرآنية يرجع الباحثون إليه، وفى المسابقات الثقافية يعودون إليه، بل صار هذا المعجم لا يستغنى عنه كل مثقف أو متثقف فى التراث العربى الإسلامى اليوم. ولعل الكتاب الذى يقترن به بعد ذلك معجم غريب القرآن الذى استخرج الألفاظ الغريبة فى السور القرآنية، وفيه أورد ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنه عن طريق ابن أبى طلحة الذى قال فيه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً) ومن المفيد الأكثر أن يلحق محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله معجمه بمسائل نافع بن الأزرق لابن عباس أيضاً.

إن عبد الباقى علم من أعلام النهضة الثقافية المباركة فى فقه تراثها، وتصنيف علومها، وفهرسة شواردها وشواهدها. ومع أنه قد رحل عن دنيانا الفانية منذ ربع قرن من الزمان، فقليل ما يذكر الرجل وقليل ما يكرم، وقليل ما يكتب عنه. وهكذا يفقد تراثنا علماً من أعلامه فى العصر الحديث الذى وطد همته، وأكد عزمه على وضع المعاجم المفهرسة، وتخريج الأحاديث النبوية كما ترى فى تفسير القاسمى « محاسن التأويل » فقد وقف محمد فؤاد عبد الباقى على طبعه وتصحيحه وترقيم وتخريج الآيات والأحاديث فى هذا التفسير العظيم، ثم علق عليه، وكذلك فعل فى تصنيفه تيسير المنفعة بكتابه مفتاح كنوز السنة، بل لقد ترجم كنوز السنة عن الإنجليزية، وخلال درسه

لها - كما يقول الزركلى رحمهما الله - وهذا غير الشروح التى أضافها إلى موطأ مالك وسنن ابن ماجه وصحيح مسلم. ورحم الله الزركلى فقد أتم ترجمة الرجل فى الطبعة الأخيرة من الأعلام، وأشار إلى مراجعه فى ذلك فذكر الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى مجلة العربى عدد جمادى الآخرة عام ١٣٨٨ هـ والدكتور أحمد الشرباصى فى مجلة الأديب البيروتية عدد سبتمبر ١٩٦٨م والأزهرية ١/ ١٩٢. وقد تعمدت ذكر هذه المراجع لقلتها أولا ثم يظهر هذا العالم مظلوما رحمه الله. وهذا فى الواقع هو ديدن العباقرة الذين يعملون بصمت ثم يمضون بصمت أيضاً. وإلا فالأولى أن يترجم للرجل فى مئات الصفحات، وتدبج عنه الأقلام وما أكثرها. ومن هنا كان الرجل من المظلومين، وعلى الرغم من ذلك فإن إنجازاته هى الباقية، وهى الشاهدة عليه، والمشيرة إليه بأن يخلد عبقرياً من عباقرة العلم والتأليف والأدب، بل من رموز التنوير والترشيد والتحبير فى تاريخنا المعاصر.

الأديب

مجلة تبحث فى الآداب والفنون والعلوم والسياسة والاجتماع

على الصفحة الأولى

سبتمبر ١٩٦٨

بند ٨

ثم هذه الأبيات أنقلها وأهديها إلى المترجم له

ياجهاداً صَفَّقَ المجد له	لبس الغار عليه الأرجوانا
شرف بَاهَتْ فلسطينُ به	وبناء للمعالى لايدانى
نحن ياأخت، على العهد الذى	قد رضعناه من المهد كلانا
يثرب والقدس منذ احتلما	كعبتانا، وهوى العرب هوانا
شرف للموت أن نطعمه	أَنْفُسًا جبارة تأبى الهوانا

بشارة عبد الله الخورى



الفقيد محمد فؤاد عبد الباقى

بقلم الدكتور أحمد الشرباصي

بنـد ٩

فى أوائل هذا العام الهجرى (١٣٨٨) انتقل إلى رحمة الله عز وجل الأستاذ محمد فؤاد عـبد البـاقى، وهو العالم الجليل الذى خـدم مبـاحث السنة النبوية المطهـرة بما لم يخدمها بمثله أحد من معاصريه فيما يبدو لنا، ولا نزكى على الله أحدا. وهو - أيضاً - المؤلف الجليل الذى يدين له كل مـشتغل بعلوم القـرآن والسنة حيث ييـسر لكل هؤلاء السبل الأمينة ليغترفوا من مفردات القرآن والسنة ونصوصها ما يريدون وما يحتاجون إليه عند الكتابة والـتأليف بما وضعـه بين أيديهم من معاجم مـفصلة لآيات القـرآن وكلمات السنة. وستـمضى مـئات السنين واسم «محـمد فـؤاد عبد البـاقى» أمام أبصـار العلماء والباحثين، لأن كتبه لابد أن تكون على مقربة من يمين كل باحث وكل كاتب يفزع إليها يستنبئها كلما خانته الذاكرة أو أعوزه الشاهد والدليل. وقد يحسن أن نأخذ فكرة عاجلة عن ترجمة الأستـاذ محمد فؤاد عبـد الباقى، ثم نستعرض جهوده ومـؤلفاته. ولد عليه رحمة الله فى الثـانى من شهر مارس سنه ١٨٨٢م. . إلى آخره (لأن ما سـيأتى، سبق ذكره فى مـقالات كل من نقلت عنهم) - ثـم قال المرحوم الدكـتور الشـرباصى - أقام الفقيـد مدة فى « الروضة »، ثم انتقل منهـا إلى الجيزة حيث سكن فى جـزء من عمارة على شـاطىء النيل المبارك، وظل فى هذا المكان حـتى توفاه الله. وقـد زرته فى هذين المكانين أكثـر من مرة. وطلب منى قبل وفـاته بشهور أن أكتـب مقدمه لكتـابه « جامع مسانيـد أطراف البخارى » - واستجبت لرغـبته، وأخذ المقدمة وبعث بهـا إلى المطبعة، وكان يتمنى أن يرى هذا الكتاب مطبوعاً بين أيدى المنتفعين به، ولكنه مات والكتاب بين عجلات المطبعة، وهو الكتاب الذى أذهب فى تأليفه وتأليف أمثاله نور عينيه.

وقد تزوج الأسـتاذ عبـد الباقى عام ١٩١٠ ورزق بأولاد: ثلاثه أبناء وبنتـان. . وقد حدثنى عنهم الفقيـد فى لقاء لى معه يوم ٢٦ مايو سنة ١٩٦٤، كمـا حدثنى بأنه تلميذ للمرحـوم السيد محمـد رشيد رضا صـاحب مجلة المنار و « تفسـير المنار » والذى يعد خليفـة للأستاذ الأمام الشـيخ محمد عـبده وبأنه تلميـذ للمرحوم العلامـة فى الحديث وعلومه الشيخ أحـمد محمد شاكر. وذكـر لى الفقيد أن صلته بالسيـد رشيد بدأت عام ١٩٢٢ وظلت حتى وفـاته فى ٢٣ من أغسطس ١٩٣٥. وبدأت الصلة عندمـا أصدرت مطبعة المنار رسالة عن الاحتفال بذكرى الأسـتاذ الإمام وذهب الأستاذ عبد الباقى لشراء هذه الرسالة من مكتـبة المنار، فتعـرف بالأستاذ عـاصم ابن عم السيد رشيـد، ثم التقى



بالسيد رشيد فى المكتبة ذات زيارة فأعجب بروحه القوية وعلمه الغزير. وأرشده السيد رشيد إلى طائفة من الكتب ليطالعها، ثم توثقت الصلة العلمية بينهما. وكان البنك الزراعى (الذى كان يعمل فيه الأستاذ عبد الباقى) يغلق أبوابه كل يوم أحد، فخصص عبد الباقى هذا اليوم لقضائه مع الرشيد للاستفادة من علمه وتوجيهه. يقول الدكتور الشرباصى: إن الأستاذ عبد الباقى قال له عن السيد رشيد: إنه لاجدال أن السيد رشيد هو التلميذ الأول للشيخ محمد عبده، وهو امتداد لحياته، ولولاه، ولولا مجلة المنار ما نال الإمام ما نال من شهرة [1]، فمجلة المنار هى التى نشرت تفسير الأستاذ الإمام والواقع (والكلام للدكتور الشرباصى) أن السيد رشيد كان خليفة للشيخ محمد عبده، مع ملاحظة الفرق بين الشخصيتين [2].

يقول الدكتور الشرباصي: سألت الأستاذ عبد الباقى: إذا كان الشيخ رشيد هو الذى خلف الشيخ محمد عبده فمن خلف الشيخ رشيد ؟ قال: لعله الأستاذ محمد بهجت البيطار عالم الشام. وسألته: للسيد رشيد كتاب عن « الربا » فيه أجزاء لم تعجب كثيراً من العلماء، لأنه أباح بعض صور الربا كما يقولون، فما رأيك فى الكتاب؟ أجاب المرحوم عبد الباقى: لقد كتب السيد رشيد كثيراً فى هذا الموضوع لكنه لم ينته إلى الرأى الفصل، وهو نفسه كان لا يرى أنه وصل إلى النتيجة الحاسمة فى هذا البحث.

أقول: كيف يخرج كتاباً للناس فى موضوع خطير كموضوع الربا من غير أن ينتهى إلى الرأى الفصل يعلنة للناس وبلا لبس؟ وقد ذهب البعض (منهم الأفغانى أن المحرم هو ربا الجاهلية، أما الزيادة غير المبالغ فيها فجائزة (انظر التفاصيل فى كتابى عن الأفغانى). وقد جاء فى كتاب « جمال الدين الأفغانى - بقلم المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى - طبعة ١٩٦١ ص ١٦٥ تحت عنوان « جواز الفائدة اليسيرة فى القروض» «قال الأفغانى : إن الإسلام حرض على بذل الصدقات، وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة، وهى أن لا يؤكل الربا أضعافا مضاعفة، وهو ما وقع عليه التحريم. . إلى آخره، ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها ولا تتعارض مع تعاليم

---

(١) انظر الجزء الخاص بـ «الأستاذ الإمام». والقول بأنه لولا «الرشيد» ولولا «المنار» ما نال الأستاذ الإمام ما نال من شهرة كلام غير دقيق، والعكس هو الصحيح.

(٢) أقول : كان الأستاذ الإمام صاحب رسالة إصلاحية كبرى. وما ألف إلا قليلاً وشأنه فى هذا هو شأن «الأفغانى» لكنهما خلفا تلاميذ من أمثال «المغربى» و«الشيخ رشيد»، اللذين ألفا كثيراً وكثيراً.



الدين فى شىء . . وأقول. إن لى فى هذا الموضوع دراسة طويلة ومفسرة ومبررة، وليس هنا مقامها.

وأعود إلى أسئلة المرحوم الشرباصى للمرحوم عبد الباقى : وسألته أيضاً: ما رأيكم فى موقف الرشيد من السياسة فأجاب: إن الرشيد قد اشتغل أولاً بالقضية العربية، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى تمزق العالم العربى، وانصرف رشيد عن السياسة إلى الكتابة الدينية. ولعل السبب فى ذلك هو أنه وجد الجهود ستذهب هباءً. وسألته - كذلك - يقول بعض الناس إن الرشيد كانت له صلة بالإنجليز؟ فغضب الأستاذ عبد الباقى، وأخذ يردد لا . . لا . . هذا غير ممكن بالمرة . . نعم كانت للرشيد صلة بالوهابيين والحجازيين، وكانوا يعاونونه عن طريق أمير البيان شكيب أرسلان، وهو قد أيدهم.

وللأستاذ عبد الباقى مجموعة من الكتب الجليلة النافعة التى تدور كلها حول خدمة علوم القرآن والسنة. وأعظم كتبه، والذى كان يعتز به هو « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ». ومما يدل على الجهد المضنى الذى بذله فى هذا الكتاب أنه أعاد نسخه وقت طبعه. وحينما خشى أن تسقط منه لفظة فى أثناء النسخ، لجأ إلى طريقة مأمونة فى الحصر، وهو أن يلتزم وضع خط فى مصحف أعده لذلك - على كل لفظة ورد ذكرها فى تصحيح التجربة الأخيرة قبيل الطبع حتى إذا انتهى الكتاب، رجع إلى المصحف، وعرضه لفظة لفظة، فوجد أنه لم يسقط من جميع ألفاظ المصحف فى المعجم إلا خمس عشرة لفظة، قيدها فى أول الكتاب ليستدركها كل قارئ له. أقول: ياله من عمل جليل دقيق نافع، ياله من عالم مجاهد صابر، ياله من محب لعمله، إنه رجل فاضل، يبذل ما يبذل من صحته، ومن طاقاته، ومن نور عينيه لينفع الناس، ويضىء لهم الطريق، أما الأجر الأكبر، أما الجزاء الأوفى فهما عند الله. وللأجر الأخرة خير وأبقى. « ولذلك حق للمرحوم عبد الباقى - كما يقول الدكتور الشرباصى - أن يرجو من الله أن يسير هذا المعجم مسير الشمس ».

وإلى جانب المعجم سابق الذكر، قام الأستاذ عبد الباقى بترجمة كتاب « تفصيل آيات القرآن الحكيم » الذى وضعه باللغة الفرنسية المستشرق الفرنسى « جول لابوم »، وهو لخدمة القرآن الكريم لا من ناحية الألفاظ والكلمات، ولكنه من ناحية الموضوعات والمعانى. وهو مقسم إلى ثمانية عشر باباً مبينة فيما كتبه الدكتور الشرباصى « الذى يقول» ويبدو لنا أن الأستاذ عبد الباقى قد عرف طريقه إلى هذا الكتاب عن طريق عضويته فى اللجنة الاستشارية للمجامع العلمية للمستشرقين. يقول الأستاذ الكبير المرحوم محمد فريد وجدى فى هذا الكتاب « إنه من خير الأعمال وأجداها على الكتاب

والمؤلفين . . فمن شاء منهم أن يكتب عن الزكاة، أو الأديان، أو مبدأ المساواة . . إلى آخره يستطيع - بالرجوع إلى هذا الكتاب الجديد أن يلم فى مجال واحد بكل ما يود أن يقرأ عنه من الآيات، لا بالهداية إلى أرقامها من المصحف فحسب لكن. بإثبات تلك الآيات نفسها فى صلب الصفحات . . وقد انتفع الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب من قبل ذلك كثيراً. أقول: « لإزالة ما قد يعترى القارئ من لبس » إن المراد هنا هو انتفاع الأستاذ الإمام بالكتاب فى الأصل الفرنسى، وقبل ترجمة الأستاذ عبد الباقى له بعدة عقود، إذ إن الأستاذ الإمام قد توفى عام ١٩٠٥. وفى هذا التاريخ لم يكن الأستاذ عبد الباقى قد عرف طريقه إلى ما جعل له شأناً وشهرة فى دنيا العلم.

وكما خدم الأستاذ عبد الباقى كتاب الله عز وجل بالمعجمين سالفى الذكر - خدم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع معجم حديث عنوانه « مفتاح كنوز السنة » - وهو معجم مفهرس عام تفصيلى موضوع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة، وذلك بالدلالة على موضع كل حديث فى صحيح البخارى وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى، ببيان رقم الباب. وفى صحيح مسلم وموطأ مالك ومسندى زيد بن على وأبى داود الطالبى ببيان رقم الحديث وفى مسند أحمد بن حنبل وطبقات ابن سعد، وسيرة ابن هشام ومغازى الواقدى ببيان رقم الصفحة. وبذلك يستطيع الباحث أن يقف على الحديث الذى يطلبه بغير عناء.

وكان هذا المعجم موضوعاً فى الأصل باللغة الإنجليزية وضعه المستشرق «أ. ى. فنستك» الهولندى. وقد حاول المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر أن يترجمه مع عدم معرفته اللغة الإنجليزية. وبعد أن ترجم نحو ثلثه بمعونة بعض أصدقائه الذين يعرفون الإنجليزية لم يستطع المضى فى العمل لكثرة الشواغل. وكان المرحوم السيد رشيد رضا قد اطلع أيضاً على هذا الكتاب فى لغته الأولى فأعجب به، وأستاذن مؤلفه فى ترجمته فأذن له. واتفق السيد رشيد مع الأستاذ عبد الباقى على اقتسام العمل بينهما بالتعاون على تصحيحه وتنقيحه، ولكن الشواغل شغلت السيد رشيد، ومضى الأستاذ عبد الباقى فى العمل وحده بجد ومثابرة حتى أتم ترجمة الكتاب. وقد أثنى السيد رشيد كثيراً على هذا الكتاب فعده أحد نفائس الكتب الإسلامية . . وقد أتم المرحوم الأستاذ عبد الباقى عمله فى هذا الكتاب يوم الجمعة ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٥٣هـ (٢٧ يوليو سنه ١٩٣٤م. ثم أعقبه بكتاب آخر فى عدة أجزاء بعنوان: «تيسير المنفعة بكتابى: مفتاح كنوز السنة، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى» ويراد من هذا الكتاب تذليل العقبات التى تعترض الطالب للمنفعة من « مفتاح كنوز السنة » بسبب اختلاف الطبعات

لكتب الحديث الأصول. والكتاب الذى ذكره الأستاذ عبد الباقى فى عنوان كتابه، وهو «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » كتاب ضخم جداً، اشترك معه فى وضعه مجموعة من المستشرقين، وهو يطبع فى هولندا. وقد نشر منه حتى وفاة الأستاذ فؤاد واحد وأربعون جزءاً. ولا تزال فيه بقية كبيرة. ومن الكتب التى أخرجها الأستاذ عبدالباقى رحمه الله كتابه « اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان » وهو فى ثلاثه أجزاء. ومن أعمال المرحوم عبد الباقى كتاب « معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخارى ». وقد نشر الفقيد رحمه الله نشرا علمياً مفهرساً كتاب « الموطأ للإمام مالك » فى جزءين، وسنن ابن ماجه فى جزءين، وصحيح مسلم فى خمسة أجزاء وشواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، وأشرف على تصحيح وتحقيق التفسير المسمى «محاسن التأويل » للقاسمى فى سبعة عشر جزءاً، ونشر كتاب مناقب الإمام على والحسين وأمه فاطمة الزهراء، وكتاب «الأدب المفرد» وخرج آيات وأحاديث كتاب «شواهد التوضيح ».

وهناك كتب مخطوطة جليلة للمرحوم الفقيد، منها كتاب « قرة العينين فى أطراف الصحيحين » وهو خمسة أجزاء. وكتاب « جامع مسانيد صحيح البخارى » وهو فى ستة أجزاء، وكتاب « جامع الصحيحين » وكتاب « دستور المسلمات المؤمنات - مالهن وما عليهن من كتاب الله والحكمة ».

ومن جهود الأستاذ فؤاد فى خدمة السنة أن الحكومة المصرية فكرت فى مشروع سنة ١٩٥٠ لجمع السنة الصحيحة فى كتاب واحد، وألفت لجنة برئاسة المرحوم الشيخ مأمون الشناوى شيخ الأزهر حينذاك، وكان من أعضائها الشيخ أحمد محمد شاكر و. . . . و. . . . وفقيدنا الكريم المرحوم عبد الباقى. ومضت الأيام ولم تحقق اللجنة غرضها ثم انفضت. ولكن الأستاذ عبد الباقى ظل يعمل وحده حتى جمع البخارى ومسلم على ترتيب مسلم، وقدم الكتاب، ورجا أن يطبعوه، ولكنهم لم يفعلوا. وهذا الكتاب فيما أرجح - والكلام للدكتور الشرباصى - هو الكتاب الذى سبق ذكره باسم «جامع الصحيحين » ومن الطريف فى ترجمة الأستاذ عبد الباقى أنه كان يقول الشعر فى شبابه، وكان هائماً بحب [1] الخلافة التى كانت قائمة حينئذ، وبالتمدح فى شخص الخليفة الذى يراه رمزا لدولة الإسلام وأمة المسلمين. ومن قصيدة له ألقاها عام ١٩٠٥ فى جمعية النشأة الحديثة فى درب الجماميز بالقاهرة، ومطلعها.

---

(١) انظر - فى موضوع الخلافة كتابى عن «الدكتور عبدالوهاب عزام - أمة فى رجل» وانظر فى ذات الموضع كتابى «الإسلام والدولة» (الخلافة).

صحا القلب من ذكرى حبيب ومنزل وبات على وعد من السعد مقبل

ومما جاء فيها:

وإن لم يزن عبد الحميد قصائدى فلا كنت فى هذا المقام بأول

وله قصيدة أخرى أوسع فيها التغنى بمقام الخليفة، ومنها قوله:

صاحب العرش والخلافة والتاج وليث الوغى ورب الممالك

إن عيد الجلوس عيد البرايا واقتبال الزمان فى إقبالك

إلى آخره

وكان الأستاذ فؤاد يكتب أحياناً بعض المقالات فى بعض المجلات.. وله مقالات نشرها تباعاً فى مجلة الأزهر عن « منزلة السنة من الدين ».

ويبقى بعد ذلك واجب الأمة نحو هذا العالم الجليل، ولعل فى طليعة هذا الواجب ما يلى:

١- كتابة ترجمة مفصلة عن حياة الأستاذ عبد الباقى وآثاره.

٢- طبع ما لم يطبع من كتبه وبحوثه.

٣- إعادة طبع ما نفد من كتبه المطبوعة، أو قلت نسخه.

٤- جمع مقالاته وبحوثه المتناثرة فى كتاب مطبوع.

والله تعالى هو المسئول أن يوفق أمته للوفاء لذكراه، إنه ولى التوفيق.

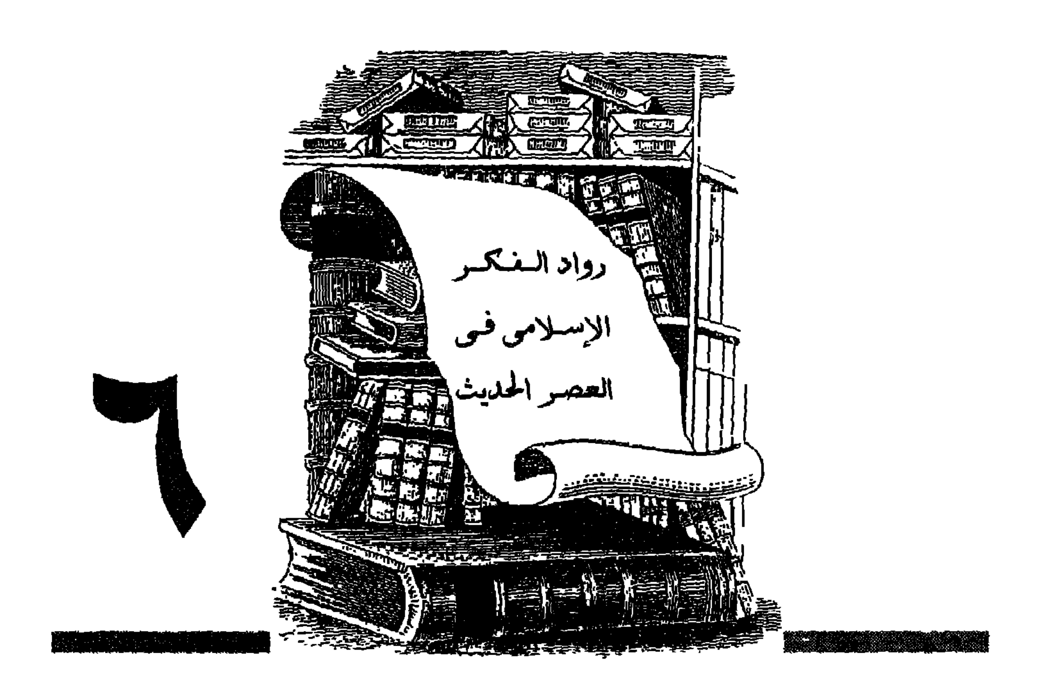
القاهرة - أحمد الشرباصى

أقول: ذهب المكتوب عنه، وذهب الكاتب أيضاً، إنه العالم الفاضل جم التواضع الدكتور أحمد الشرباصى. لهما الرحمة والرضوان.

ويرجو كاتب هذه الكلمات أن يسهم مع آخرين فى خدمة سيرتهما، وتخليد آثارهما.

والله ولى التوفيق.

المعادى - القطب محمد القطب طبلية



الشيخ

مصطفى عبد الرازق

(١٣٠٢-١٣٦٦هـ = ١٨٨٥- ١٩٤٧م)

عن الموسوعة العربية الميسرة

مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥ - ١٩٤٧م)

بند : ١

مفكر، وأديب، وعالم بأصول الدين والفقه، ومصلح مجدد، عربى، ولد ونشأ فى بيت علم وفضل وكان والده صديقا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذى اتصل به الشيخ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الشيخ على عبد الرازق اتصالا أصبحا معا أقرب تلاميذه إليه وأوفاهم له. نشأ مصطفى نشأة دينية فدرس بالأزهر، وحصل منه على إجازة العالمية عام ١٩٠٩، كما درس بالجامعة المصرية القديمة (الأهلية)، ثم سافر إلى فرنسا حيث درس الفلسفة والاجتماع والآداب وتاريخها فى باريس، ثم انتقل إلى ليون ١٩١١ وهناك اشتغل مع الأستاذ إدوار لامبير بدراسة أصول الشريعة الإسلامية، وألقى دروسا فى اللغة العربية بجامعة ليون، وأعد رسالة للدكتوراه موضوعها: «الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام». وبعد عودته إلى مصر عين موظفا بمجلس الأزهر الأعلى، ثم أمينا عاما للمعاهد الدينية ثم مفتشا للمحاكم الشرعية ١٩٢٠، وفى ١٩٢٧ عين أستاذا للفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) حتى اختير عام ١٩٣٨ وزيرًا للأوقاف، فلم يشغله منصب الوزارة عن متابعة دراساته الفلسفية لتلاميذه الذين ظل يؤثرهم بعلمه، ويشرف على رسائلهم العلمية، ويهيئ لهم من أسباب العلم والعمل مما كان له أطيب الثمرات. وفى عام ١٩٤٥ عين شيخًا للأزهر وظل فى هذا المنصب حتى توفى فى ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧، بعد أن خلف تراثا قيما من الدراسات الفلسفية والفقهية والأدبية التى كان لها أثر كبير فى الحياة العقلية والروحية الإسلامية فى العصر الحديث. ومن مصنفاته ترجمته الفرنسية مع الأستاذ برنار ميشيل لمؤلف «رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده» (باريس ١٩٢٥)، ومحاضرات فى سيرة الشيخ محمد عبده ومذهبه التى ألقاها بالجامعة الأهلية (١٩١٨ - ١٩١٩) ثم جمعت فى كتاب بعنوان «محمد عبده - ١٩٤٩»، ومن مؤلفاته «البهاء زهير» (١٩٣٠) و«تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية» ١٩٤٤ - وأيضا «الإمام الشافعى» ١٩٤٥؛ و «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» ١٩٤٥ و«الدين والوحى والإسلام» ١٩٤٦. وآثاره التى نشر بعضها فى الصحف

والمجلات، ولم يكن قد نشر بعضها الآخر إبان حياته، وجمعها جميعها ونشرها شقيقه الأستاذ على عبد الرازق فى كتاب بعنوان «من آثار مصطفى عبد الرازق» ١٩٥٧. ومقالاته التى جُمعت فى هذا الكتاب تظهر آراءه فى الحياة ومنهجه فى الإصلاح الذى تأثر فيه بأستاذه محمد عبده فيما كان يدعو إليه من إصلاح دينى وسياسى ولغوى وأدبى. وقوام منهجه ومذهبه فى الإصلاح الرفق والأناة والدعوة إلى الحب والإخاء والتسامح والسلام. ومذهبه فى السعادة يقوم على تنشئة النفوس على حب الخير وإدراك الحق وتذوق الجمال. عمل فى حياته وصلاته على تحقيق السعادة لكل من يعرف، وتمنى أن تتحقق السعادة تحقيقا كاملا شاملا لأفراد الإنسانية، لأن السعادة عنده ليست من حظ إنسان دون إنسان، ولا هى فى أن يستأثر الإنسان بما فى الحياة من متاع حسىّ وعقلى وروحى، وإنما السعادة فى أن يهيئ الإنسان سبيل الحياة السعيدة. وله فى الفلسفة الإسلامية رأى جديد خالف به المستشرقين القائلين بأن فلاسفة المسلمين نقلة ومترجمون عن فلاسفة اليونان ليس غير. فقد خلص من دراسته للإمام الشافعى ولرسالته فى الأصول إلى أن الإمام الشافعى يفلسف فى أصول الفقه ومايتصل به من مشكلات دينية، واستنباط الأحكام من النصوص، أى أن المسلمين كان لهم فلسفة إسلامية خالصة نبعت من دينهم، ونشأت حوله عقائدهم قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية.

عن الأعلام للزركلى

مجلد ٧ ص ٢٣١ ومابعدها(١)

مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ) - (١٨٨٥ - ١٩٤٦م)

بنـــد: ٢

مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرازق. باحث فى الشريعة والأدب. كان وزيرا للأوقاف ثم شيخا للأزهر. من أسرة عبد الرازق المعروفة فى «أبى جرج» من قرى «المنيا» بمصر - وُلدَ بها، وتخرج بالأزهر، وتتلمذ للشيخ محمد عبده، وأكمل دراسته بباريس وليون . وانتدب لتدريس مباحث إسلامية فى ليون. فوضع رسالة عن «الإمام الشافعى» - ط» وعاد إلى القاهرة سنة ١٩١٦، فعين سكرتيرا عاما لمجلس الأزهر، فمفتشا بالمحاكم الشرعية، فأستاذًا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب. وأسندت إليه وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨ ثم عين شيخًا للجامع الأزهر سنة ١٩٤٥، واستمر إلى أن توفى

(١) فى الصفحة السابقة ١٩٤٧



بالقـاهرة. كان هادئ الطبع، يتـمهل فى تفكيـره قبل أن يتكلم أو يكتـب، وقوراً، مع التواضع. يستجم لبعض أنسه، ولايتبـذل. نقى الأسلوب فى بيانه. نير الفكر محاضراً وكاتبا، يحـاسب نفسه على الكلمة. قـال الدكتور طه حسين: «مصطفى أديبـا مقلا، وعالما مقلا. وربَّ قليل خيـر من كثير». من كتبه: «تمهيد لتاريخ الفلـسفة الإسلامية - ط» و «فيلسـوف العرب والمعلم الثانى - ط» - «فى سيـرة الكندى والفارابى». و«الدين والوحى والإسلام» - ط» و«البـهاء زهير فى ترجـمته وشعـره - ط» و«محمد عـبده - سيرته - ط» و «مذكرات مسافر» و«مذكرات مقيم» نشرهما فى الصحف تباعا.

وساعد برنارد ميشيل فى ترجمة «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده إلى الفرنسية. وفى وضع كتاب بالفرنسية عن محمد عبده. وله كتب لم تنشر. منها كتاب فى «المنطق» وكتـاب فى «التصـوف» و «فضول فى الأدب» تقع فـى مجلدين كبـيرين. و«مـذكراته اليومية - خ» مهـيأة للطبع. نشر شيئًا منها فى بعض الصحف بـتوقيع «الشيخ الفزارى» وكان من أعضـاء المجمعين العلمى العربى والعلمى المصـرى (فى الهامش - الأزهر فى ألف عـام - ومجلة الإدارة والبـوليس القضـائى ٢٧ مـحرم ١٣٦٥ هـ وجـريدة الكتلة ١٩٤٥/١٢/٢٦ وجريدة السـياسـة ٢٦ ربيع الأول ١٣٦٦ والكنز الثمين ١٧٠ وأخـبار اليوم ٨/ ٤/ ١٩٥٠. والأهرام ٢٣ مـحرم ١٣٦٥ ومجلـة الكاتب المصرى ٥ : ٣٤٠ - ٣٤٤. ومـجلة الكتـاب ٣: ٨١٨ و ٨٨٧ و«عطارد» فى جـريدة الجمـهـورية ١٩٥٩/٢/١٥. قلت: أخبرنى السيـد أحمد خيرى أن أسلاف صاحب التـرجمة كانوا يعرفون فى بنى مـزار وما والاها «بيت القضاة» لأنه ولى القضاء من جـدودهم أكثر من واحد.

عن: معجم المؤلفين - تراجم مصنفى الكتب العربية
تأليف عمر رضا كحالة - دار إحياء التراث العربى
مجلد ١٢ ص ٢٤٥ ومابعدها

مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ) - (١٨٨٥ - ١٩٤٧م)

مصـطفى بن حسن بن أحـمد عـبد الرازق، أديب، حكيم، من علمـاء الشريـعة الإسلامية ولد فى أبى جرج من قرى المنيا وتخرج بالأزهر، ونال درجة العالمية، وتتلمذ لمحمـد عبده والتـحق بجامـعة السوربون، ونال إجـازة فى الأدب الفرنسى والفلسـفة، وانتقل إلى معهد الدراسات الاجتماعيـة فنال حظا من معارفها، وانتدب لدراسة مباحث إسلامية فى ليون. وعـاد إلى القاهرة فعين أمينا عاما لمجلس الأزهر، فمـفتشا بالمحاكم الشرعية، فأستاذًا للمنطق والفلسفـة الإسلامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وأسندت

إليه وزارة الأوقاف مرتين (هكذا!!) ثم عين شيخا للجامع الأزهر، واستمر إلى أن توفى بالقاهرة فى ١٥ شباط. من آثاره: فصول فى الأدب تقع فى مجلدين كبيرين، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، الدين والوحى والإسلام، سيرة الكندى، والفارابى. والبهاء زهير.

(خ -) فهرس المؤلفين بالظاهرية.

(ط) على عبد الرازق وطه حسين: مقدمة كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق»؛ الزركلى - الأعلام (سبق ذكره) - الإسلام والتجديد فى مصر - ٢٤٥ - محمد كرد على: المذكرات ٢-٤٥٢، ٥٦٠ - أحمد أمين: فيض الخاطر ٧ : ٣١٢ - ٣١٨

Brockelmann: S, 111, 329

(م) عبد الرحمن بدوى : الأديب س٤، ع١، ص ٥١ - ٥٤ - إلى آخره، إلى آخره، وانظر نفس المرجع ص ٢٤٦.

بند: ٣

فى صدر كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» نقرأ هذا العنوان: مصطفى عبدالرازق - كما عرفته - والكاتب هو الدكتور طه حسين. . وأذكر هذه النادرة عن السيدة سوزان طه حسين، والتى جاءت فى كتابها «معك» (Avec vous) : والنادرة تشير إلى الصلة الوثيقة التى كانت تربط الدكتور طه وأسرته بآل عبد الرازق. كان آل عبد الرازق - كغيرهم من أصحاب البيوتات الكبيرة - يطيلون - عادةً - فترة السهرة، ويتأخرون فى القيام من النوم صباحاً. وكان الدكتور طه وزوجه فى ضيافتهم فى بلدهم «أبو جرج». كانت السيدة قد بكرت فى النهوض من نومها، فسمعت أحد أفراد الأسرة المضيفة تبدر منه ألفاظ عن ضيقه بأصوات العصافير. والعصافير - كما هو معروف عنها - تنشط إلى تحصيل رزقها قبل شروق الشمس - وقد استغربت ضِيقَهُ بسقسقتها!!

وأعود إلى كلمة الدكتور طه الذى عرفت عنه، وعن تجربة معه أنه كان مثلا عاليا فى المروءة[1] والوفاء، وأنه كان يبذلهما للجميع، من يعرف ومن لايعرف، وجاراه فى هذا الدكتور محمد حسن الزيات (سكرتيره، وصهره فيما بعد) - يرحمهما الله!

قال الدكتور : «كنت فى السادسة عشرة حين لقيته لأول مرة، حين أقبل زائرًا لثلاثة من رفاقه فى الأزهر، بينهم أخى. وكانوا جميعا يقيمون فى غرفات متقاربة (بحى

(١) انظر كتابى «صفحات من اليومیات - ص ٤»

الأزهر). وكانوا يجتمعون فى غرفة أحدهم حين يزورهم الزائرون. وقد كان الاجتماع فى غرفتنا هذه المرة. وقد لقيت منه شابا حاد الصوت، صادق اللهجة، عذب الحديث، لايرفع صوته إلا بمقدار. يمتاز عن رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادئ المطمئن الذى لايتسم به الشباب عادة، وإنما هو سمة الشيوخ الذين تقدمت بهم السن. وكان جم الأدب، موفور التواضع. يفرض عليه طبعه ذلك، ويفرضه على من يجالسهم. يضحكون مثله فى قصد، وربما عبثوا شيئًا بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر.

كان قد أشرف على الخروج من طور الطلب إلى طور العلماء. وكنت فى أول عهدى بالدرس. وكان أولئك الرفاق يلقونه فى درس الأستاذ الإمام، ويزورونه إذا أقبل الليل فى داره بعابدين. فإذا عادوا تحدثوا عنه وعن إخوته وعما كانوا يلقونه فى تلك الدار من أصحاب المنازل الرفيعة. وكان أولئك الرفاق يمتازون من زملائهم بالذكاء، وحسن التحصيل، والبراعة فى مجادلة الشيوخ. كانوا يحبون العلم، وجمع الشيخ مصطفى بهم حبه - هو الآخر - للعلم. كأنه أخذ هذه الخصلة عن والده وعن أستاذه الإمام. وقد لَزِمَتْه هذه الخصلة طول حياته، وربطته بسائر محبى العلم فى مختلف المعاهد وبسائر المثقفين. وكان لايعرف محبا لطلب العلم إلا سعى إليه، يفتح له قلبه وعقله وبيته. وقد ألف الشيخ مصطفى جماعة من الممتازين فى طلب العلم بالأزهر، ونظم لها اجتماعًا برئاسته يوم الجمعة من كل أسبوع، يتداولون فى شئون الإصلاح عامة، والأزهر خاصة؛ بعد أن أثار الأستاذ الإمام جَذْوَةَ الإصلاح فى قلوبهم جميعا. وكان مصطفى يفتتح الجلسات باسم الله وقراءة الفاتحة. ويقول الدكتور طه: إن الشيخ مصطفى كان يذهب فى ذلك مذهب أستاذه الإمام الذى افتتح رسالته فى التوحيد نفس الافتتاح.

الخصلة الثانية التى لزمته طول حياته خصلة الوفاء، كان وفيا لكل من أحب من الناس، لايفرق بينهم فى ذلك مهما تكن الظروف، ومهما تدلَهِمّ الأحداث والخطوب! كان وفيا للشافعى رحمه الله، الذى كان يفلسف فى أصول الفقه. وقد سبق توضيح ذلك تحت عنوان «الشافعى واضع علم أصول الفقه» ؛ وقد أثبت شيخنا أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم. وكان وفيا للذين عرفهم، وحسنت الصلة بينه وبينهم من الأساتذة الفرنسيين. ومنهم هذا الذى جُنّد فى الحرب العالمية الأولى وترك زوجه، وليس لها عائل، فآثرها الشيخ مصطفى على نفسه. يقول الدكتور طه: وقد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسى نفسه. وقد جدّ الشيخ مصطفى فى تعيين هذا الأستاذ فى منصب مناسب له فى مصر، حين لم تجد الحكومة مصريا يشغله. وكان هذا الفرنسى

قد فقد زوجته، فرأى الشـيخ مصطفى أن يبعده عن المكان الذى كان مسرح[1] مأساته. وكان سعد منفيا، فذهب الشيخ مصطفى إلى بيته وترك بطاقة لزوجته. كان وقتئذ مفتشًا قضائيا بوزارة العدل ففصله وزيرها، وكان ثروت باشا رئيسا للوزراء، فأعاده.

وبره بطلبة العلم خـاصة وبكل من يحتاج إلى البر عـامة معروف ومشـهور. يقول الدكتـور طه إنه كان عميـدًا لكلية الآداب لفترة مـا، فكان الشيخ مصطفى يتـردد عليه لمساعدة الطلبة المحتاجين، ويقول الدكتور طه إنه كان يجتهد فى ذلك ماوسعه الاجتهاد، فإذا لم يجد سبيلا قام الشيخ مصطفى بذلك من جيبه الخاص. ويقول الدكتور طه: «لم أعرف قط قلبا أبر بفقير، ولانفسا أرق لذى حاجة، ولا يدا أسرع إلى العطاء، من قلب مصطفى عبد الرازق ونفسه ويده» (وكانت هذه هى الخصلة الثالثة من خصاله).

يقول الدكتور طه: ماوجدته قط فى غـضب وانفعال، إلا حين تدخل أستاذ أجنبى فى الكلية فـيما ليس له أن يتدخل فـيه فأوقفـه الشيخ مصطفى عند حده. كـان الشيخ مصطفى وفـيا، وكان - كذلك أبيـا؛ وكان برًّا سمح الطبع، والقـلب، والنفس. وكان ذلك كله واضحا فى كل مـايقول، وفى كل مايكتب، كانت الابتـسامة الحلوة أدل شىء عليه، والحـديث العذب ألزم شىء له. وكان لايتعـجل إذا قال أو كتب. وكان التـفكير والتأنى قـبل الصياغـة. كان لايكره شيـئًا كمـا يكره العجلة فى القـول والعمل والمشى أيضا.

كـان راضى النفس، وكان يـبعث الرضى فى نفـوس الناس حين يرونه. فى أحـد المؤتمرات، وكمـا هى العادة، حدد الرئيس لكل متـكلم وقتا محـددًا. ولما تكلم الشيخ مصطفى وانتهى الوقت، نظر الشيخ إلى الرئيس، وكـأنه يستأذنه هل يمضى أم يتوقف، ولاحظ الرئيس اهتمام الجميع بما يلقى الشيخ مـصطفى فأذن له فى الاستمرار حتى بلغ غايته. يخـتم الدكتور طه كلمته بقولـه : لو أنى أرسلت نفسى على سجيتهـا ماوجدت لحديثى عن مصطفى غاية أنتهى إليهـا. وأشهد أنه مامر بى يوم دون أن أفكر فيه يقظا، وأشهـد أن ما مـر أسبوع دون أن أراه فـيمـا يرى النائم، كمـا كنت ألقاه أثناء الحـياة. فلأخلص أنا للتفكير فى هذا الصديق العـزيز، ولتخلص أنت لقراءة أصدق حديث لأخ عن أخيه أولاً، وأسمح كلام كتبه كاتب فى هذا العصر الحديث بعد ذلك.

---

(١) التلخيص بتصرف، وبعض العبارات لى.

رجال التاريخ المصرى الحديث

٢٤ - حسن باشا عبد الرازق الكبير

(السياسة الأسبوعية - عدد رقم ٩٩ ص ١٥ ومابعدها)

(مؤرخ ١٩٢٨/١/٢٨)

بنــد : ٤

يقول الكاتب الأستاذ محمود عـزمى: من الرجال من يمتزجون بجسام الحوادث فى بلادهم، فيصبح تاريخـهم وحده تاريخا لجيل كامل من أبناء جنسهـم، ويصبح تعرفهم تعرفا لفترة معينة من تاريخ التحول فى بيئتهم وفى بلادهم. وعندنا أن صاحب الترجمة من هذا النـــوع. وقد جـــاء فى عصر قد يعتبر بدءاً جديداً لحياة مصر القومية الفعلية، يستـولى أبناؤها على مـرافقهـا، ويحسـون إحســاس «المصرية» الخـاصة، بعـد أن كان الإحساس المتفـشى إحســاس «تركية» وإحساس «إسلاميـة» (هكذا!!) - ويتعرف الفرد منهم حقـوقه عند الولاة والحكــام بعد أن كان لايدرك إلا أنه وسـيلة من وسائل الأداء محملة بكـــل أنواع التكاليف؛ وكل سُبل الإرهاق.

كان «القطر المصرى» قـبل أن ينفذ فيه نظام المحاكم «الأهلية»، وقـبل أن تشكل فيه «المجالس الملغاة» مـقسما من حيث القضـاء إلى ولايات مستقلة فى تحديد تخـومها من التقسـيمات الإدارية. وكان يولى فى كلْ منها قـاضٍ شرعى يصدر بتوليتـه «فرمان» من الخليفة سلطان الدولة العثمانية. وكان القاضى يأخذ رسوما - مقابل عمله - يؤدى منها شيئًـا لصاحب الفرمان. ووقتئـذ كان نظر القاضى عاما ينـظر كل مايرفع إليه من نزاع. وكان يشترط فى القاضى إلى جانب قدرته على دفع مـقابل الفرمان، أن يكون متعلما، أى من الأزهريين، (إذ لم يكن فى الساحـة سواهم) وكانت البـهنسة ولاية من ولايات القضاء فى مصر. وبها كرسى قـضاة الولاية. وكانت أسرة عبد الرازق هى الأسرة التى انحصرت فيهـا ولاية القضاء وقتئذ. ثم انتقلت معهـا من البهنسة إلى أبى جرج. وكان القضاة - إلى ماقـبل الحرب العظمى يلقبون بالأفندى. وكان الانتقال فى عـهد «محمد أفندى عبد الرازق» وكان الذى تولى بعده أحـمد أفندى عبد الرازق الذى كان أقرب إلى الأديب من الفقيه، وكان «حسن البزة، رشيق الحركـة»، وكانت له مكتبة فقهية وأدبية، وكان هو نفسه له ديوان «نظم» وكانت له حديقة على النيل يهـتم بها، وله سفينة أمامها للنزهة، وكان متزوجـا من أربع عدا (سرار) من أنواع مختلفة. وكـانت له صلة بسعيد باشـا والى مصـر. الذى كان يزور أحـمد أفندى فـى أبى جرج عند رحـلاته فى النيل (ومازال لدى الأسرة خطابات متبادلة بينهما، يسودها السجع). وكالعادة قام الحقد على أحمد أفندى لدى حاشية سعيد، لكن المودة كانت أقوى وأعلى.

ثم حدث أن قامت ثورة العرب فى الوجه القبلى، فجرد لها سعيد قوة لقمعها وخاصة آل لملوم ومن إليهم، وقرر أن تكون المهاجمة ليلا - فتقدم قائد الحملة إلى القاضى أحمد أفندى ليقنع الوالى بأن تكون المهاجمة نهارًا حتى تتبين الحملة من تقاتلهم. وأقنع أحمد أفندى الوالى فاقتنع؛ ولكن حدث أن فر العرب فى الفجر فلم يجدهم الجيش أمامه فى الصباح. وانتهزت الحاشية هذه الفرصة للدس ضد أحمد أفندى الذى احتج على هذا الدس صائحا فى وجه من أبلغوه «هم يشكوننى إليه، وهل هو خالقى؛ وعاد إلى أبى جرج دون مقابلة الوالى. ولما سأل الوالى عنه، قالوا له إنه متغطرس عليك، فنفاه الوالى إلى طنطا، ومات فى المنفى. وقد قرر الوالى تجنيد أولاد العمد والأعيان ليأخذ أكبر أنجال أحمد أفندى فى الجندية. وقد توسط بعض أصدقائه إلى سعيد وانتهوا إلى إخراج «أحمد أفندى الصغير»، من الجندية وأعيد إلى أبى جرج ليحل محل أبيه. وقد أبى كل الإباء أن يكون قاضيا شرعيا، وتوجه لرئاسة أسرته، لكنه توفى شابا فى سن الخامسة والثلاثين تاركا إخوة خمسة بينهم صاحب الترجمة (حسن). وكان ذلك حوالى عام ١٨٦٤م وكان حسن فى سن العشرين. وكان قد أمضى فى الأزهر تسع سنين تميز خلالها بالتفوق الذى لاحظه الجميع حتى قرروا أن يُبعث إلى أوربا ضمن إحدى البعثات العلمية. لكن إخوته اجتمعوا وقرروا اختياره وقد اهتم بمصالح الأسرة، وخاصة بعد الإسراف الذى مضى فيه أحمد أفندى الكبير.

كان الأتراك حتى ذلك الوقت يستأثرون بالمناصب الكبيرة، ورأى الخديو إسماعيل عند توليه أمور البلاد أن يسند بعض المناصب لأبناء بعض الأعيان من المصريين، فأوجد لهم بعض المناصب فى الريف بما يمنحه لهم ذلك من جاه فى بيئتهم. وكانت القاهرة - وقتئذ - هى مركز النشاط السياسى والثقافى - فقام صاحب الترجمة بدور بارز لربط أعيان الريف بذوى المكانة والرأى بالقاهرة - وتم ذلك بعد أن اتصل هو بالحركة الوطنية ورموزها بالقاهرة من أمثال لطيف سليم وحسن عاصم وعلى فخرى، وهم ممن كانوا قد درسوا فى أوربا، وهذا يعنى أن صاحب الترجمة - قد أضاف بالاختلاط بهؤلاء - إلى جانب ثقافته الأزهرية المتميزة والمستنيرة - أنماطا من الثقافة والمعرفة مما تميز به الدارسون العائدون من أوربا. وقد كان أصدق أصدقائه حسن عاصم باشا، وكانا لايفترقان. اصطفى من ناحية الأعيان أمثال أحمد عبد الغفار والصوفانى الكبير ومحمود سليمان باشا، وقرب بينهم وبين أولئك الناهضين من الطراز الغربى. وكان لذلك أثره، ولاريب فى الحركة الوطنية والسياسية. وتألف مجلس النواب فى عهد إسماعيل، وانتخب حسن عبد الرازق الكبير نائبا عن دائرة المنيا فيه. وكان هو الذى يتلو خطاب الخديو الذى تعوّد أن يفتتح به دور الانعقاد. وكان إسماعيل يحرص على ألا يصدر فى المجلس رأى إلا ما

وافق رأيه. وقد أحدث هذا تذمرا شعر به إسماعيل فأمر بنفى سلطان باشا وحسن عبدالرازق الكبير وغيرهما إلى السودان، ولم ينفذ الأمر لتوسط الشيخ على الليثى الذى كانت تجمعه بصاحب الترجمة جامعة الأدب.

ولما أنشئ مجلس شورى القوانين عام ١٨٨٤م، انتخبته مديرية المنيا نائبا عنها، وبقى فيه أكثر من ثمانية عشر عاما كان فيها مثال الشجاعة وقوة المعارضة. وكان هو وأصدقاؤه الأعيان يجتمعون فى منازلهم ويتفاهمون على طريقة المناقشة واختيار الشخص الذى يتولى الكلام فى كل موضوع فى المجلس، وعلى مواقفهم المختلفة إزاءه، وكانوا بذلك يحكمون وقوفهم للحكومة بالمرصاد دون أن تستطيع التغلب عليهم. وعينت الحكومة الشيخ محمد عبده فى المجلس لإحداث توازن بين الحكومة والآخرين، وظن هؤلاء الظنون بالشيخ عبده الذى أفهمهم، أنه وإن كان معينا من قبل الحكومة فإنه محبٌ لبلده ونصير للحرية.

وامتدادًا لهذه النزعة المصرية الصحيحة، واستقلاليتها التى أبدتها (جهرا أو من وراء ستار) فى مجلس شورى القوانين، وتجسيدا لها (فى عهد الإنجليز وعباس حلمى الثانى) كان تكوين «حزب الأمة» من حسن عبد الرازق الكبير ومحمود سليمان باشا وإبراهيم سعيد وعلى شعراوى باشا (من أعيان البلاد ومفكريها) - إلى جانب لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وأحمد عبد اللطيف ومحمود عبد الغفار، وكما كانوا - كذلك - متصلين بلطيف سليم وحسن عاصم ومحمود فخرى من رجال الحركة الوطنية.

وأقول : إن هذا كان ولاريب (ومهما يكن الرأى فيه) إسهاما من هؤلاء فى الشئون العامة والسياسية.

هذا، وأنقل عن صاحب المقال (الأستاذ عزمى) أن صاحب الترجمة (حسن عبدالرازق) وُلد عام ١٨٤٤ وتوفى عام ١٩٠٧ - وقد كان إلى جانب ثقافته الأدبية ذا شغف بالموسيقى. وكان يردد كثيرا من نظمه، كهذه الأبيات :

رجوتك شاهدًا لايغيب	عليَّ حسن ظنى وقلبى المنيب
لدهرٍ دهتنى ملماته	وفَوْق نحوى سهام الخطوب
وليس سوى بابك المرتجى	لنيل الأمانى وكشف الكروب

وكذلك كان يردد فى بعض المناسبات :

أمة يدعى الزعامة فيها	فاسدوها جديرة بالرثاء

وختم الكاتب مقاله بقوله : كانت خاصية المترجم له، ترجع إلى «فكرة الإحساس بالمصرية تتحفز إلى السهر على المصالح العامة فى مصر، وهى خاصية تتصل اتصالاً متينًا بالحياة العامة وبما لانزال نعانيه من أمرها إلى اليوم.

أقول : فى السطور الأولى من المقال جاءت هذه العبارة : ويحسون إحساس «المصرية» الخاصة، بعد أن كان الإحساس المتفشى إحساس «تركية» أو إحساس «إسلامية» والعبارة واضحة، وفيها إساءة لشعبنا الذى كان وسيبقى إسلاميا. إنه «مصرى» وإنه «إسلامى» ولاتناقض - إطلاقا بين الصفتين. ونظرنا المنبثق من ديننا يسوى بين سائر المواطنين حتى فى حالة اختلاف الدين.

وإنى أذكر للأستاذ عزمى - يرحمه الله ويغفر له - أنه كان «متمردًا» ومن ذلك - مثلا - أنه خلع الطربوش (فى العشرينيات من هذا القرن) واستبدل به البرنيطة، وإذا لم تكن الذاكرة قد خانت، فهو هو الذى كتب ونشر مقالا بعنوان «كيف آمنت بالعلم وحده؟» !!

وفيما نقلته عن مقاله استبدلت بعبارات له (ماسة بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) عبارات من عندى. من ذلك قوله أن «الفريق الذى كان منه (حسن باشا عبدالرازق) كان يقف للحكومة بالمرصاد، ولعدم استطاعة الحكومة التغلب عليهم عينت الشيخ محمد عبده بالمجلس ليكون رجلها الذى تعتمد عليه لتكوين هيئة مناصرة للحكومة إزاء الهيئة التى ألفها المنتخبون..» وقد قابلوا تعيين (الشيخ) بالتشاؤم وأرادوا أن يفلوا من عمله بأن تركوه أول أمره يخطب كما يريد حتى إذا جاء دور أخذ الرأى صوتوا ضد رأيه.. إلخ. وإنى أحيل القارئ على الجزء الخاص بـ «الأستاذ الإمام» أقول: إنه كان وصديقه الأفغانى رسولين للحرية والديمقراطية والتقدمية.

الأستاذ على عبد الرازق

بند: ٥

هو شقيق الأستاذ مصطفى عبد الرازق (الرحمة والرضوان لهما جميعا). والأستاذ على هو الذى قدم للتاريخ مجموعة من آثاره، نشرها بعنوان «من آثار مصطفى عبدالرازق» وهى مجموعة ثرية ونادرة لاتقدر بثمن. وستكون - بإذن الله - من أهم مراجعى فيما سأكتبه عن مصطفى عبد الرازق (الإمام الأكبر وأستاذ الفلسفة الإسلامية). والذى كان - إلى ذلك - فقيها مجتهداً، وأديبا نابها.

وتربطني بالمرحوم على عبد الرازق روابط ووشائج: ففى العام الجامعى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ كنت أحد طلاب كلية الحقوق بجامعة القاهرة - قسم الدراسات العليا للشريعة الإسلامية. كان معظم أساتذة القسم من خارج الكلية، منهم فضيلة الشيخ محمود شلتوت (الإمام الأكبر وشيخ الأزهر فيما بعد) - وكان منهم الأستاذ على[1] الذى درس لنا موضوع «الإجماع» وكان عرضه للموضوع فريداً، إذ قدم فى دراسته آراء المذاهب والفرق جميعا، وبغير تعليق تقريبا. وكأنه ترك لنا (نحن الطلاب) المقارنة والترجيح..

وكان الأستاذ على قد نشر مؤلفا له فى منتصف العقد الثالث من هذا القرن (١٩٢٥) - بعنوان «الإسلام وأصول الحكم» (رسالة لا حكم، ودين لا دولة) وفى كتابى «الإسلام والدولة» (الذى ظهرت طبعته الأولى عام (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م). قلت: إن ماذهب إليه أستاذى على عبد الرازق محجوج بالإجماع. إنه إذا تعارض رأى أستاذى مع الحق، فالحق أحق أن يتبع. وقد أقام رأيه الدنيا كلها ضده. وخاصة الأزهر الشريف، الذى حاكمه تأديبيا، وكان مما قرره حرمانه من شهادته، مما ترتب عليه حرمانه من وظيفته (وكان قاضيا شرعيا).

وفى هذه الأيام (مارس ١٩٩٧م) - أراجع ماعندى من أعداد الرسالة[2]، وقد كنت أحد قرائها، - أراجعها بالذات، لأستخرج منها ماكتبه وماكُتب عنه فيها المرحوم الأستاذ الكبير العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام، وقد صادفنى فيها مقالات، ولمحات، ودراسات ليست قليلة لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى، ولم يصادفنى فيما راجعته سوى مقال واحد للأستاذ على، وهو بعنوان «منذ ألف عام». إن الذى قدم لنا وللتاريخ كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» يستحق منا التكريم والتقدير، وأقل ما أقدمه خلاصة لمقاله المذكور، والمنشور بعدد الرسالة (الممتاز) (رقم ١٤٦ - والمؤرخ ٢٨ محرم لسنة ١٣٥٥ هـ - ٢ أبريل لسنة ١٩٣٦م) (ص ٦١٢ ومابعدها) يفتتح مقاله بقوله: «يوجد بين حياة الشرق فى العصر الحاضر، وبين حياته منذ ألف عام مضت، نوع من التشابه يستوقف النظر. وقد يكون فى دراسة هذا التشابه واستقصاء البحث فيه لذة ومتاع للنفس، وقد يكون فيه - مع ذلك - فائدة للعلم. وماندعى أننا نستطيع الآن أن نستوفى جوانب هذا البحث.. وإنما نريد أن نفتتح هذا الباب للباحثين. لعلهم يجدون فيه خيرا كثيرا من المتاع وفنون العلم.

---

(١) على «باشا عبد الرازق» - وزير الأوقاف فيما بعد.

(٢) لصاحبها ومديرها ورئيس تحريرها المسئول المرحوم أحمد حسن الزيات.

وفى الحق أنه يوجد - دائما - نوع من التشابه بين صور هذه الحياة الدنيا، ماضيها وحاضرها. . . ومادام الناس هم الناس فى جميع العصور. . ومادامت الأرض هى بعينها الأرض فى الماضى والحاضر، فمن الطبيعى أن تتشابه إلى حد ما صور الحياة، وأن يحاكى بعض الحوادث بعضا. والذى يقارن بين أى جزء من أجزاء التاريخ وبين أى جزء آخر منه، لايعجز عن أن يتبين بينهما مظاهر من التشابه والتماثل، ولكن التماثل الذى يجده الناظر بين حياتنا الحاضرة وبين الحياة من ألف عام ليس هو من هذا النوع الذى يلحظ بين جميع أجزاء الحياة وجميع مظاهرها، وليس هو من القلة بحيث لايستلفت النظر، ولايثير رغبة البحث، فالتشابه هنا ظاهر وقوى يكاد يجعلهما صورة واحدة لعصر واحد، على أنه مع ظهوره وقوته لايبلغ أن يكون دليلاً على تماثل العصرين من جميع الوجوه. ولا على اتفاق العصرين فى جميع الصفات والخصائص. وهو لذلك لايبلغ أن يكون دليلا قاطعا على صحة مايذهب إليه بعض الباحثين على أن التاريخ يعود بنفسه.

منذ عام توفى المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء، ومنذ ألف عام توفى أبو الطيب المتنبى؛ وبين الرجلين من التماثل مايشبه أن يكون مثلا صادقًا لرجعة التاريخ. فقد يمكن القول بأن متنبى القرن الرابع كان شوقى القرن الرابع عشر. وبأن شوقى القرن الرابع عشر كان هو متنبى القرن الرابع. دع عنك ديباجة الشعر، ومابين الشاعرين فى ذلك من توافق جد قريب؛ وانظر ما أحاط بالرجلين من ملابسات وظروف، فقد كان عصر المتنبى عصرًا داويا بالشعر، زاهيا بالكثير من الشعراء. ولكن شعر المتنبى قد غطّى على أكثر تلك الأصوات الداوية، وقد غمر اسم المتنبى أكثر تلك الأسماء، فكان كما قال عن نفسه:

أنا الصائح المحكى والآخر الصُدى

وكذلك كان شوقى فى عصر يدوى بالشعر، ويزخر بالشعراء، ففلج[1] عليهم شوقى باسمه وشعره وجاءه الشعراء من كل صوب يبايعونه بإمارة الشعر.

وقد كان المتنبى شاعر مدّاحا، وكذلك كان شوقى. والمتنبى كان يتنقل بمدائحه من جناب إلى جناب، ومن بلد إلى بلد، وكذلك فعل شوقى. وقد أخلص المتنبى فى مديح سيف الدولة، فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلودًا لايبلى. وماكان سيف الدولة - لولا المتنبى، إلا ملكا كسائر الملوك. وكذلك أخلص شوقى فى مديح سمو

(١) أفلج الله حجته = اظهرها وأثبتها (المعجم الوسيط).



الخديوى عباس الثانى، فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلودًا لايبلى، وسجل اسمه مشرقا وضاء فى سماء المجد حيث لايلمع كثير من الأسماء الطنانة.

إننا لنأسف إذ لانجد بين أيدينا صورة مفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية فى مصر منذ ألف عام لنستطيع أن نقارن بينها وبين جوانب حياتنا الاجتماعية الحاضرة لنستخلص مايكون بين الحياتين من تماثل قريب أو بعيد. على أن ذلك لايمنعنا أن ندرك مابين الحياتين إجمالاً من تشابه قوى إلى حد يثير العجب، فلقد ترك المتنبى وصفا واضحا وإن كان مجملاً للحياة فى مصر أيام عرفها المتنبى واتصل فيها بمعية كافور الإخشيدى. ولعمرى لايزال أكثر ماقاله المتنبى فى ذلك أو كله ينطبق على حياتنا الحاضرة، ويصفها وصفا صادقا:

نامت نواطير[1] مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وماتغنى العناقيد

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا

إنا لفى زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أنى بما أنا شاك منه محسود

ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمى أنه بعض الأنام

إلخ .. إلخ..

منذ ألف عام كانت الخلافة الإسلامية فى بنى العباس تشارف النهاية، وتلفظ الأنفاس الأخيرة من حياتها. وكان العالم الإسلامى فى جملته يضطرم ثورة، ويتأجج بالمنازعات السياسية نارًا، على أن ذلك الاضطراب السياسى لم يمنع من سير الحياة الاجتماعية والعلمية فى بلاد العالم الإسلامى سيرا مطردًا إلى الأمام. وعصرنا الحاضر يشهد تلك المشاهد نفسها، أو قريبا منها، كما شهدها أجدادنا منذ ألف عام.

(توقيع : على عبد الرازق)

---

(١) الناطور = حارس الكرم ونحوه - والجمع نواطير (المعجم الوسيط).

«فى أسبـــــانيـــا»

للعالم المحقق الشيخ على عبد الرازق[1]

بنـــد: ٦

أسبانيا مـفصلة أوسع من أن نحيط بها هنا، ففى كل جزء من أسبـانيا عبرة، وفى كل بلد مشهـد جديد ولذة للسائحين، أما أسبانيـا مجملة فليست شيئـا كبيرا، هى بين يومين اثنين أسبانيا الحديثة بنت اليوم وأسـبانيا القديمة بنت الأمس. وغواة التمدن الجديد لايجدون معنى التمـدن كاملا فى أسبانيا الجديدة ولايعـدونها بين الدول المتمدنة إلا فى الدرجة الرابعة أو الخـامسة أو السادسة أو دون ذلك. لكنهم يضـعونها فى صف الدول المتمدنـة، ففيها - على أى حـال تمدن، وفيها - على أى حـال - نوع من الرقى. وأما أسبانيا القديمة ففيها خزائن تاريخ قديم من أيام الرومان ومن قبلهم ومن بعدهم. ولكنها للسائحين من غـواة التمدن القديم إنما يهتمون فى الغالب بخـزائن العرب ويلتمســونها هناك قبل أن يلتمسـوا خزائن الرومان وغـيرهم. وفى أسبانيا آثار وخـزائن عربية، وإن يكن الأسبانيـون قد حاولوا محقـها. وبالغوا فى ذلك إلى حد غـير كريم، فقد تعـقبوا العرب فى أسبانيا وآثار العرب شر مطاردة، لايريدون أن يبقوا ديارًا، ولايتركوا آثارا؛ ثم هم يعبـرون البحر من ورائـهم يطاردونهم اليوم فى بلادهم. وسـبحان من جـعل الدنيا مكافأة، والأيام دولا بين الناس! لم يتـرك الأسبان أثرا فى بلادهم للعـرب ولا للإسلام إلا ماقصرت يدهم عن تدميره، ولم يجدوا للخلاص منه حيلة، فهنالك حروف وكلمات عربية امتزجت باللسان الأسبانى امـتزاجا لايستطيع أن يفصله إلا خالق اللغات، ومبلبل الألسن. وهنالك ماقد تصادف أحيانا فـوق بعض الجباه، وفى سواد بعض العيون، وفى ملامح بعـض الوجوه، وفى شكل الأنف ومـاء الشعر من سـمات تتـعرف إليك كـما يتعارف الإخوان، فـرقت بينهما الأديان، واختلفت بهما الأوطان، وطال عـلى تنائيهما الزمان:

وإنا نرى أقدامنا فى نعالهم ... وأتفنا[2] بين اللحى والحواجب

وهناك دماء شهيد سالت بها نفوس العرب مدرارًا، وسقوا بها أرض أسبانيا أنهارا. هذه الأجسام من التـراب فهى تصير ترابا، وهذه الأرواح من أمـر الله فهى تذهب إلى عالمها الروحانى بعـيدا عن شئون هذه الحياة الدنيا، فـأما دم الشهيد فليس جسما كـبقية

---

(١) نقلا عن السياسة الأسبوعية - عدد السبت ٢١ مايو ١٩٢٧ ص ١٤.

(٢) هكذا فى الأصل وأظنها «وأنوفنا»

الدماء هو لايغسل فيذوب ولايجف كما يجف الماء. تلك دماء حرمت على النار فلا تذيبها، وحرمت على الأرض فلا تشربها، لاهى من التراب فتصير ترابا، ولاهى من الأرواح المجردة فتنقطع عن هذا العالم المادى وتتجافى عن شئونه، لكنها وسط بين الروح والجسم تأخذ من خصائصهما معًا. ياليت شعرى أهى كما يقال فى حواصل طيور خضر ترتع فى حياض الجنة أم هى على أجنحة من نور الشمس تسير مع الشمس فى كل مشرق، أم هى مع الريح تهب مع الريح فى كل بر وبحر؟ إنها على أى حال حية تغدو وتروح بين السماء والأرض، تُفْتَحُ لها كالروح أبواب السماء فتناجى الملائكة وتتصل بالملأ الأعلى، وكالجسم تتصل بهذه الأرض، وتحس من أمور هذه الحياة، وتشعر مثلنا بالجوع أحيانا، وبالعطش، ولايبرح الجوع يعتادها حتى تأكل من أكباد القاتلين ومرائرهم فتشبع، ولايبرح الظمأ يغشاها حتى تفجر من دم القاتلين ينبوعا تشرب منه فترتوى. ولها قوة الأرواح فلو أن الله أذن لها بالقصاص لسلطت على القاتلين من جنود السماء والأرض مايصليهم نارًا. وتجعل ديارهم دمارًا، أو لو شاءت لنفذت مع النفس إلى أحشائهم فخرقت أحشاءهم تخريقا، وإلى نياط قلوبهم فمزقت قلوبهم تمزيقا، ولها من الأجسام البشرية أنها ذاكرة للثأر، وطالبة للانتقام متربصة يوم يأذن الله لها فتنتقم ويستعر صداها. لكن الله يمهلها ويملى للقاتلين إلى أجل. ولكل أجل كتاب! ويل يومئذ للقاتلين من دماء الشهداء!

وهنالك فى أسبانيا أحياء فى بعض البلاد كانت فيها مساكن للعرب وأسواق. وهنالك قصور كانت لملوك العرب. وجنان اتخذها الملوك لهوا ولعبا؛ ومساجد اتخذوها زينة وتفاخرا، فأما المساجد فقد انهارت، واستحال القائم منها كنائس تعلق فيها التماثيل والصلبان، وأما القصور والجنان فمنها حصيد كأن لم يكن بالأمس. ومنها قائم ينبئك بمصير المستبدين والظالمين. أولئك ملوك بنوا المساجد لغير وجه الله. بنوها لأنفسهم بطرا ورئاء الناس. فمنها مساجد أتى الله بنيانها من القواعد فخر سقفها، ومنها مساجد ردها الله وسلط عليها الشياطين. وإن المساجد لله والله يحمى مساجده كما يحمى رجاله، وكما يحمى الكعبة من أصحاب الفيل، وكما يحمى مساجده فى لندن وباريس وبقاع الأرض كلها. لكنما يحمى الله مساجده لامساجد الملوك.

مارأيتنى باسما فى مواطن العبر، ولا هادنا أشهد مصارع البشر، ولاثابت القدم أتمشى على آثار ملك زائل، وعزٍ ذاهب، وتيجان هاوية، وعروش خاوية، كما رأيتنى أيام أزور قصر الحمراء وجنائن العريف فى غرناطة مطمئنا وتضطرب حولى أشباح من ذوى الملك والنعمة، ضيعوا أمتهم فضاعوا، وظلموها فعاد الظلم عليهم نكالا وسعيرا،

راضيا أنظر إليهم وهم على مضاجع الحس والهوان، وأقرأ على قبورهم طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. وأناديهم وما أنتم - بأسمع منهم - قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا؟ ذاكراً قول الله تعالى: ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾** ﴾ [الدخان].

تحكموا فاستطالوا فى حكومتهم ... وعن قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر ذو الآفات والمحن
ثم انقضوا ولسان الدهر ينشدهم ... هذا بذاك ولاعتب على الزمن

مدينة نازا بمراكش فى أول مايو ١٩٢٧

على عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق والفلسفة الإسلامية «ذكريات»

بند : ٧

فى العام الدراسى ١٩٢٦ - ١٩٢٧ كنت طالبا بالسنة الأولى بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا، وكان الأستاذ طه أحمد إبراهيم أحد أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة. أظنه أحد خريجى دار العلوم درس فترة فى فرنسا، وإذا لم تكن الذاكرة قد خانت (وقد مضى على ذلك سبعون عاماً) - فإنه كان يدرس لنا الخط العربى، ومادة التعاون. وكان تعيينه بمدرستنا - على ما أرجح - أول عمل له، بعد عودته من البعثة التى لا أدرى ما إذا كانت على حسابه أم على نفقة الدولة. ومما أذكره له خلال السنة الدراسية التى قضاها بمدرستنا أنه دربنا على نطق عبارة «Vive le Roi» (ومعناها يعيش الملك) لكى نهتف بها (ونحن المعممون الذين لايعرفون شيئًا عن اللغة الفرنسية، ولاغيرها من اللغات الأجنبية) لتحية الملك فؤاد حين يمر بمحطة طنطا متنقلا بين العاصمتين. وأذكر له كذلك أنه نشر (فى السياسة الأسبوعية - على الراجح) شعراً لفيكتور هوجو (شاعر فرنسا الأكبر) بعنوان «حج إلى قبر» (والترجمة - طبعا كانت من الفرنسية إلى العربية). وفى ذات العام نشرت له (السياسة الأسبوعية على الراجح) خطاب تهنئة للشيخ مصطفى عبد الرازق بمناسبة إسناد مادة الفلسفة الإسلامية إليه لتدريسها بكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول[1] . وفى العـام الدراسى التـالى (١٩٢٧ - ١٩٢٨) انـقطعت صلة الأستاذ طه أحمد إبراهيم بمدرستنا، وعين بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لتدريس مادة الأدب العربى (وقد توفى الأسـتاذ طه أحمد إبراهيم - وهو صغيـر السن، وقام الأستاذ أحمد الشـايب (زميله) - مع طلابه بنشر مـا ألقاه من دروس فى كتاب صغـير اطلعت عليـه منذ فتـرة عند زيارة لى لكليـة الآداب). وفى الثلاثينات من هذا القـرن، وكنت مدرسا بقريتى، وأعد فى نفس الوقت لامتحان الثقافة العامة ثم التوجيهية - كنت أتردد على القاهرة لأسبـاب علمية، وكنت أحرص على زيارة كليـة الآداب. وساعدنى الحظ والصدفة على سـماع درس أو أكثر للدكتور طه حـسين، وكذلك للدكتور عبد الحـميد العبادى (أستاذ التاريخ) (وقد رأيت فى درسه بعض القساوسة، هُواةٌ غالبا). وأعود إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى، وإلى العام الجامعى ٤٥ - ١٩٤٦م، إذ كنت طالبا بدبلوم الدراسات العليا فى الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وكان فضيلة الشيخ محمود شلتوت (الـذى صار شيـخًا للأزهر فـيمـا بعد) - كان يلقـى علينا درسا فى مـوضوع «القصاص» ولا أنسى سلاسة الدروس، وقدرته العظيـمة على التبسيط. طلب منى يوماً أن أعيد الدرس الذى ألقاه، وكنت موفقـا كل التوفيق فى الإلمام بأطرافه، وحسن إلقائه فضلا عن سـلامة اللغة وقوتهـا - فأحبنى، واصطفانى صـديقا له. كان وقتـئذ - يقوم بإلقاء خطبة الجـمعة، وإمامة المصلين بمسجـد الأمير محمد على توفـيق بقصره بالمنيل. وحرصت على أداء الصلاة معه. كان رئيس الوزراء- على ما أذكر النقراشى باشا، وكان الشيخ مصطفى (باشا) وزيرا للأوقاف -، وخلا منصب مشيخة الأزهر، وأراد النقراشى تعيين الشيخ مصطفى، واستدعى الأمر تعديل القانون لكى يسمح للشيخ مصطفى (وهو من خارج هيئـة كبار العلماء) فى شغل المنصب. وكان فـضيلة الشيخ شلتوت متـحمسا لتعيين الشيخ عبد المجيد سليم، ومعترضًا (لا على شخص الشيخ مصطفى) ولكن على مبدأ تعيين شـيخ الأزهر من خارج الهيئة سابقة الذكر؛ ولأنه تكرم واخـتارنى صديقا له أفضى إلىَّ بذلك كله، ولا أنسى له قوله. هذه المرة كان الشـيخ مصطفى، وتقرير المبدأ مزعج، فهـو يفتح الباب لتـعيين (فلان مثلا) وفـلان هذا عالم جليل، وله كتب كـثيرة رائجـة جـدا؛ لكنه كـان عـصبى المزاج. وقـد بدر منه فى جلسـة لمجلس البـحـوث الإسلامية، مالاينبغى لشيخى فلان، الذى كـان لفترة أستاذًا له، ولفترة أخرى رئيسا له (وقد فصلت ذلك فى كتابى «صفحات من اليـوميات» فى ترجمتى لأستاذى الشيخ على الخفيف - يرحمهم الله جميعا).

وانتقل إلى احتفاليـة، أقامها المجلس الأعلى للثقافة، أخيراً لفـضيلة مولانا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، ونشرت الأهرام - بهذه المناسبة كلمات لطلابه ومريديه.

---

(١) كانت جامعة فـؤاد الأول (الرسمية) امتداداً للجامعة المصـرية الأهلية. وكانت المواد بكلية الآداب بالذات يتـولى تدريس معظمـها أجانب، أى أن فـضيلة الشـيخ مصطفى كـان أول مصـرى يقوم بتدريس تلك المادة. وإنى أقول هذا لأنه لم يقع فى يدى ماينفيه.

مصطفى عبد الرازق
نبذة عن تاريخ حياته
بقلم شقيقه على عبد الرازق

بنـــد : ٨

بدأت كلمة الشقيق من الصفحة الخامسة وانتهت فى الصفحة السابعة والسبعين[١]، والصفحات الأولى عن «بيت عبد الرازق، وحسن باشا عبد الرازق والدهما. وفى الصفحة ١٢ قال: «واشترك المرحوم الوالد مع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[٢]، وجماعة من إخوانهم، فى إنشاء «الجمعية الخيرية الإسلامية» بالقاهرة، وقام هو بالدعوة إلى جمع التبرعات لإنشاء مدرسة فى بنى مزار، وأنشأها فعلا، وألحقها بمدارس الجمعية، وافتتحها الأستاذ الإمام فى احتفال كبير. واشترك حسن باشا مع آخرين منهم محمود باشا سليمان وعلى باشا شعراوى وآخرين فى إنشاء حزب الأمة واختير حسن باشا وكيلا له. وتوفى حسن باشا عام ١٩٠٧، وترك ذرية كثيرة منهم مصطفى وعلى. ووالدة مصطفى وعلى وآخرين هى كريمة الحاج عبد السلام الشريعى من سمالوط. وقد ولد مصطفى فى (أبو جرج) حوالى عام ١٨٨٥م، والتحق بكتّاب بالبلد وهو فيما بين السابعة والثامنة، حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ شيئًا من القرآن الكريم. ثم بادر والده فأرسله إلى الجامع الأزهر لتلقى العلم فيه، وسنه بين العاشرة والحادية عشرة. وفى السنين الأولى من دراسته به أصيب بنزلة شعبية اشتدت وطأتها عليه، وكان من أثرها أن تعثر فى دراسته بضعة أشهر. وظل طول حياته يحاذر هذا المرض. وفى الأزهر أخذ ينتقل من كتاب إلى كتاب ومن مرحلة إلى مرحلة، كالمتبع فى الأزهر وقتئذ. وكان والده يوالى رعايته وتوجيهه، ويقرأ معه فى الإجازة بعض الكتب الأزهرية، ودواوين الشعر وكتب الأدب، مما غَذَّى ملكة الأدب التى كانت كامنة فيه. ومنذ السنين الأولى أخذ يمارس الكتابة الأدبية وقرض الشعر وكان والده يساعده بالتعديل والصقل. ولم يكن مصطفى يخلو من لمحات تنبئ عن ذوق ممتاز؛ وطبع شديد الصفاء ومن البواكير المبشرة أنه أنشأ صحيفة عائلية فيها فكاهة وجد، كما أنشأ جمعية غرس الفضائل التى كانت تنعقد كل يوم جمعة ويتبارى شباب العائلة بالخطابة فيها. وماهى إلا سنوات قليلة حتى بلغت نزعة الأدب عنده أشدها.

---

(١) من كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» (وهو من خمسمائة صفحة).

(٢) أشير هنا إلى ماسبق ذكره مما كتبه المرحوم محمود عزمى، وملاحظاتى على ماكتب عن حسن باشا عبد الرازق والأستاذ الإمام محمد عبده، والمذكور هنا هو تصحيح لما هناك.



لقد انصرف مصطفى عن قرض الشعر، لكن ملكة الشعر عنده كان لها أثرها فى نثره، واستمرت تمده بقوة إلى قوة، وصفاء إلى صفاء، وسيتضح ذلك لنا بعد عندما نعرض آثاره النثرية ونتبين عبقريته السامية؛ وسيصادفنا شىء من شعره فيما بعد.

اتصاله بالأستاذ الإمام:

كان حسن باشا (والد مصطفى) والأستاذ الإمام عضوين بمجلس شورى القوانين؛ الأول بالانتخاب والثانى بالتعيين. وكان تعيين الأستاذ الإمام بالمجلس عام ١٨٩٩، وهى السنة التى تولى فيها منصب إفتاء الديار المصرية. وكان للأستاذ الإمام خصوم يتهمونه فى دينه (وهم أزهريون غالبا - وكانوا زملاء لحسن باشا فى فترة دراسته بالأزهر) - وكان له خصوم سياسيون يتهمونه فى وطنيته. فى الوقت الذى كان فيه حسن باشا متهما بالتشدد والجرأة فى انتقاد الوضع السياسى فى مصر، ووصم نظام الحكم بالفساد. ولكن مع استمرار الاتصال بين الرجلين، وشيئًا فشيئًا عرف كل منهما حقيقة الآخر، وصارا صديقين حميمين.

عوامل الاتصال بين (مصطفى عبد الرازق) والأستاذ الإمام:

لاريب أنه كان على رأس هذه العوامل العلاقة الوثيقة بين والد مصطفى والأستاذ الإمام. وكانت هناك عوامل أخرى. فقد درس مصطفى على أزهريين أقْحاح وأحبهم، وصاروا فى ذهنه مثلا يحتذى. يقول الأستاذ على : لم يكن فى مشايخ الأزهر يومئذ على ماعرفنا إلا زَارٍ على الشيخ محمد عبده، وكلهم يخافه، فهم بين ساكت يُغْضِى على القذى، وبين همّاز غمّاز، يورى بالطعن، ويسعى بالدسيسة، إلا فريقا من المؤمنين. وطبيعى - وهذا هو الأزهر، أن يسىء طلابه الظن بالأستاذ الإمام، ولو إلى حين. وسواء أكانت منازع مصطفى الدينية الأولى رجعية أم تقدمية أم بين بين. فإنها على أى حال لم تكن تبلغ أن تتقارب ومنازع الأستاذ الإمام الدينية، أو مارعم الناس يومئذ أنه منازعه الدينية، ولا أن تتلقاها بالرضى والقبول. وبعد أن قطع التلميذ أكبر مرحلة من مراحل التعلم، وقطع الأستاذ أكبر مرحلة من مراحل التعليم، بدأ التلميذ التعرف عليه حوالى عام ١٩٠٣ م. بدأ التلميذ حضور دروس الأستاذ فى الرواق العباسى بالجامع الأزهر فى قراءة كتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى، ودروس تفسير القرآن الكريم، ثم إنه كان يلتقى وإياه تارة فى بيت آل عبد الرازق حين يأتى لزيارة الوالد، أو فى بيت الأستاذ مع الوفود التى تتردد عليه. وسرعان ما امتلأت نفسه تقديراً لشيخه، حبا وتقديرا له، وسرعان ماالتفت الأستاذ إلى تلميذه يتعهده ويرعاه (ص ٢٢ ومابعدها). ومما جاء تحت عنوان «طريقة الأستاذ الإمام فى الإصلاح ومدرسته» - كان الأستاذ الإمام حين عرفه مصطفى رجلاً يملأ اسمه البلاد، ويتردد ذكره فى محافل

الإصلاح الديني والسياسي. كان رجلا واسع العلم، واسع آفاق الفكر. وكانت طريقته فى الدعوة إلى منهجه العلمى، ومذاهبه الإصلاحية هى الحجة السمحة الواضحة، فهو فى العلم لا يعمل أكثر من اختيار الكتب التى يأنس فيها الخير، ثم يأخذ فى تدريسها على أسلوبه الخاص به فى دروس عامة يحضرها من يريد من الطلبة، على طريقة التدريس التى كانت متبعة وقتئذ فى الأزهر وهو فى مذاهبه الإصلاحية يتجه فى كل مابيده من أمر، وفى كل مايشارك فيه من شأن وِجْهَةَ الإصلاح كما يجب أن يكون الإصلاح؛ فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا، ثم بالقول الصريح يصدع به أنىّ كان فى المحافل العامة، أو المجالس الخاصة، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث وفيما ينشر فى الجرائد والمجلات، وفيما يكتب فى رسائله العامة أو الخاصة. إن دعوته عامة تتلاقى فيها الأرواح جنوداً مجندة، فما تعارف فيها ائتلف، وماتناكر منها اختلف. والنجاح فى هذه المدرسة إنما يكون بالتعارف بروحه والائتلاف معه. ولم يذهب مصطفى إلى دروس الأستاذ الإمام إلا قريبا من نهايتها، ولم يغش مجالسه إلا لماما، ولكن لم يلبث روحاهما إذ التقيا أن يتعارفا أقوى تعارف، وأن يتآلفا أصدق تآلف، ولا غرو أن يهتف يومئذ بمدح أستاذه بالشعر يهنئه فيه بعودته من رحلته إلى أوربا، وقد نشرته مجلة المنار فى الجزء الخامس عشر (٢٢/ ١٠/١٩٠٣) - قال :

أقبل عليك تحيةٌ وسلامُ	ياساهرا والمسلمون نيام

ومما جاء فى آخرها :

فيك الرجاء لأمة لعبت بها	يلهى الصغار وجدت الأيام
لازلت غيظا للضلال وأهله	والله يرضى عنك والإسلام

وقد كتب شقيقه تحت عنوان «اضطراب نفسانى» (ص٢٤٠):

كان مصطفى قد تجاوز المراحل الأولى والوسطى للدراسة الأزهرية أو كاد. وأخذت تتراءى لعينيه ماتنتج الدراسة فى الأزهر من ثمر، بل لعله قد بلا شيئاً من طعم هذا الثمر ولعله لم يجده سائغا.. وكان قد خطا نحو مشارف الرجولة الواعية الحساسة متفتحة العواطف، قوية النزعات، وقد استوت عنده فوق ذلك كله ملكة الأدب وبلغت أشدها وتكشفت لذوقه الناضج دقائق مافى هذه الحياة من بهجة وجمال، ثم إن حياته أزهرية صحيحة وتدينه أميل إلى التشدد الرجعى، وأخلاقه - كأخلاق عائلته محافظة صارمة. لاريب أن هذا المركب الذى تصطرع فيه المطامح المتوثبة والحياء المكبوت، وتضطرب فيه نزعات الشباب قوية عنيفة مع أنظمة الحياة الدينية كما يرسمها شيوخ الأزهر، وكما تسنها تقاليد البيوت المحافظة قيوداً وأغلالاً. لاريب أن هذا المركب يترك

فى نفس صاحبه أثرا بالغاً من الاضطراب والحيرة. . يريد الأمر ثم يعرض، ويهم به ثم ينكص. . لايهتدى فى أمره إلى سبيل. . فهـو فى قلق لازم، وهو سقيم. يقول الشقيق العظيم. ذلك طور قد وجدنا كـثيرا ممن عرفنا من طلبة الـعلم مروا به، وجربنا أنه من أشد مايمر به طالب العلم من أزمـات نفسية. . وعرفنا أن الذين فُتنوا بهـذا الامتحان ثم صبـروا على فتنته حتى انقـضى أقل كثيـرا ممن ناء بهم ثقله فانقطعوا دون الغـاية. كان مصطفى أيامئذ يجتاز حالة نفسـية كالتى وصفنا، وهو يمتاز بإحساس بالغ الرقة. . وفى غمرات هذا التردد الحائر التقى بأستاذه الإمـام، وتعارفا فتآلفا، وأنس من جانب أستاذه نوراً قد يجـد عليه هدى. فتـوجه تلقـاءه يلتمس عنده مايضىء له الظـلمة، ويدفع عنه الحيرة. . ثم يغلبه حيـاؤه الشديد فيعجز عن أن يتقدم لأستـاذه وجها لوجه ليطلعه على مايعانى. . فيؤثر أن يكتـب له خطابا يحمله البريد إليه، فيقرأ فيه مـايشكو إليه تلميذه من بثـه وحزنه. ولاشك أن الأستـاذ قد طابت نفـسه بأن يلمـح بين تلاميذه مـثل هذا الطالب الذى يرى من عيوب الطرائق الأزهرية مثل مايرى أستاذه، ويضيق صدره بما كان يضيق به صدر أستـاذه، وتهتف بين طوايا نفسه نوازع الثورة على هذه العـيوب كما ثار عليها من قبل أستاذه. ولاريب أن المصلح يسعـد إذ يجد بين تلاميذه من يهتدى بهديه، ويسير على نهجـه. لذلك دفع الخطاب إلى صاحب المنار فنشره فى ص ٢٠٠ من الجزء الخامس من المجلد الثـامن من المنار، ولم ينشر اسم كاتبـه اشفاقا عليـه من شرور الفتن التى كانت وقتئذ ترج جوانب الأزهر والأزهريين. وانتهت إلى خروج الأستاذ الإمام من الجامع الأزهر (وفى الكتاب نص الخطاب ص ٢٦).

ونكتفى بما يأتى مـن الخطاب : العنوان : نابتة الأزهر والأستـاذ الإمام: لقد كـبر على نابتة الأزهر ترك الأستاذ الإمام له. وذكـرت الجرائد اليومية أن نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ منهم كتـبوا إليه عـريضة يستـعطفونه بها ليـعود إلى التدريس فـيه. وفى ختـام الكتاب (وكاتبه هو الشيخ مصطفى) «وقد هدتنى إليك خاتمة المطاف. فجئتك أسألك أن تعلمنى مما علمك الله وأن لاتكلنى إلى رأيى. وهأنذا أبسط يد الرجـاء إليك، ولـم أبسط لغيرك يدا، وأرفع إليك أمنيتى فى الحياة، وقد وضـعت أملى ببابك. ومثلك من لايخيب ببابه الأمل». وقد أسرع الأستاذ الإمام مغـتبطا إلى المرحوم والد الطالب يعلن إليه رضاه عنه وتوسمه النجاح له. وقبل ذلك كتب الأستاذ الإمـام إلى الطالب مصطفى كتابا رقيقا. . وكان ذلك ردًّا على قصيدة له من عشرات الأبيات بعثها إليه مدحًا وثناء، يقول فيها :

أرضيـت ربك لاتخشـى المريبيـنا	ياخير من خدم الإسلام والدينـا
صدعت بالحق والأصوات خافتة	ودُسـت ماشيـدت أيدى المضلينا

فأجـابه الأستاذ بهـذا الكتاب المنشور فى الجـزء الثانى من تاريخ الأسـتـاذ الإمام لرشـيـد رضا ص ٦٢٧ (نص الكتـاب ص ٢٧) . وقد اختـار الأستاذ الإمـام كتـبا للطـالب مصطفى، حملها والده إليه . يقول شقيقه الأستاذ على: «قرأنا معاً (من مؤلفات الإمام) : تفسير جزء عم. وشطرا كـبيرا من دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والبصائر النصيرية، . . إلخ.

وأنقل هنا عن ص ٢٨ ومايليها بعض العناوين: طريقة دراسة الشيخ مصطفى لعلوم الأزهر (بيـان بالمواد والكتب وبعـضهـا من المواد غـير التـقليديـة بالأزهر - كالهندسـة والجغرافية. . . وبصـفحة ٢٨ «شيوخه» - منهم أستاذه فى الفقـه الشيخ بسيونى عسل، وهو من علماء الـشافعـية الذين عرفـوا بالصلاح والتصـوف - وقبـيل اليوم الذى عين لامتحانه في العالمية، ذهب إليه يلتمس منه البركة، فأوصاه بزيارة مقام الشيخ الدرديرى كما يفـعل المتقدمون للامـتحان ففـعل - ومن شيوخه فى أصـول الفقه الشيخ مـحمد أبوالفضل الجيزاوى - شيخ الجامع الأزهر، والشيخ مـحمد بخيت مفتى الديار المصرية، والشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى والشيخ أحمد أبو خطوة. وكان الطالب مصطفى يبذل طاقته وفوق طاقته ليحصل على كل آثار الأستاذ الإمام، وقد اقتنى لنفسه مجموعة كاملة من الـعروة الوثقى. . كلف من ينسـخها له خـاصة. وقد كـانت له عناية كبـيرة برسالة التـوحيد وكان له فـضل المسعى فى اتخاذ منزل الأسـتـاذ فى عين شمس متـحفاً لذكراه. وكـان دائم الذكر والـبر لإخوة الأسـتاذ الإمـام وأقاربه. ومـقالاته ومـباحـثه ومحاضراته عن الأستاذ الإمام يصعب حصرها.

يقول الأستاذ على عبد الرازق (باشا ووزير الأوقاف فيما بعد): كنت أسير مرة مع الأستاذ الإمام عقب استقالتـه من الأزهر فقال: «يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصـيبا لشهواتهم تـرتع كما تشاء، إلا أننى ألقيت بين جـوانح هذا المكان شعلة لاتنطفئ، إن لم تلتهب اليوم أو غداً فستلتهب فى ثلاثين عاما وستكون ضراما».

تفكير الأستـاذ الإمام فى إنشاء مدرسة القـضاء الشرعى : (ص ٣٢ ومابعدها)، يختار طلابها ويتـولى إعدادهم - مرض الأستاذ الإمام ووفـاته ص ٣٤. وكانت صدمة لتلميذه مصطفى وكان مخلصا فيما أخذ يلهج به من المراثى المتشائمة.

إن قلبا أصـفاك بالود حيـــا	صـدعتـه بموتـــك الأيـــام
كـان فى هذه الحياة رجـــاء	قـد دفنـاه يوم مات الإمـام

وكتب فى تـعزيته رشـيد رضـا. . ص ٣٤ و ٣٥ - انصراف الشيخ مـصطفى إلى الاستعداد لامتحان العالمية من الأزهر. تلاميذ الأستاذ الإمام ومريدوه يعملون على إحياء

منهجه كل على شاكلتـه ص ٣٥ الاهتمام بمشروع مدرسة القضاء. مـعاونة سعد زغلول (وزير المعـارف - كان صديق الأسـتاذ الإمـام) صدور القـانون بإنشائهـا عام ١٩٠٧ - شروط القـانون لاتنطبق على مصطفى وعلى عـبد الرازق. نهضـة بين الطلبة الأزهريين لإصلاح الأزهر. واتجه الـنظر إلى الشيخ «أبو خطوة» الذى ما كاد يبـدأ حتى توقف - كان الدرس بمنزله، ومن طلابه مـصطفى وعلى عبد الرازق. استـأنف الشيخ أبو خطوة الدرس، واختار حوالى عشرة (منهم مصطفى وعلى) - وبعد ثلاثة أشهر توفى. لم يبق أمام شباب الأزهر من وسائل النشاط إلا أن يجمعوا جـهودهم حول ما أسموه «الجمعية الأزهرية» التى اختير مـصطفى لرئاستها. أقاموها رمـزا للترابط بينهم والنهوض بالأزهر كما أراده أستاذهم الإمام. حدث تفرق: فريق يستعد للالتحاق بمدرسة القضاء الشرعى، وفريق اختار طريق إتمام الدراسة الأزهرية منهم مصطفى.

مرض الوالد من عام ١٩٠٦ وتوفى فى عام ١٩٠٧، وحـزن الجميع حزنا شديدا، منهم مصطفى الذى هزته الصدمة وأنطقته بقصيدتين (ص ٣٩ و ٤٠) مطلع الأولى :

تكدر هذا العيش بعد صفائه   وبدل يأسا ما مضى من رجائه

والأخرى مطلعها :

وُقيتَ الردى يا أيها الرجل الفردُ   بلى، رُزِئَتْ فيك المروءة والمجد

يقول شـقيقـه الرجل الفاضل الوفى : لم تكن هذه الشـواغل المضنية لتعـوقه عن مواصلة الجد فـيما تعلقت به همتـه من الاستعداد لامـتحان العالميـة، فأتم هو وإخوانه الاستعداد له. وتقدموا عام ١٩٠٨، ودُعى هو إلى مجلس الامتحان فى ٢٥ يوليو من نفس السنة، فـأداه بنجـاح وتفـوق ونال الدرجـة الأولى، وهى أرقى درجات الـعالميـة الأزهرية فى تلك الأيام، ولم ينلها معه هذه السنة إلا واحد أو اثنان من جميع المتقدمين للامتـحان، وكـان عددهم كبـيرا. وقبـل أن يمضى على نجاحه شـهر واحـد انتدب فى أغسطس من ذات السنة للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى هو وقليل من زملائه الذين تخرجوا، فنهضوا بعملهم نهوضا مشكورا.

وفى أوائل سنة ١٩٠٨ صدر ماسمى قـانون إصلاح الأزهر الذى أراد الخديو به أن يرضى الأزهريون بأن يخرج الأزهر من نظامـه القديم إلى نظام مدرسى. وحيـنما شرع القائمون على تطبيقه وتنفيذه عـجزوا عن ذلك عجزا فاضحا يرج الطلبة والمدرسين رجًا عنيفاً. وأخذت بوادر الثورة تتراءى للناظـرين. وماهو إلا شهر أو أقل حتى هب طلبة الأزهر ثائرين وأضربوا عن الدراسة - مطالب الأزهريين : إنهم أضربوا لإلغاء القانون،

ولما سئلوا أى إصلاح تريدون تبين أن مطلب إلغاء القانون غطى على سمعهم وأبصارهم. لجنة الاتحاد الأزهرى اجتمع من الطلبة وحدّدوا المطالب - جمعية تضامن العلماء : (ص ٤٥) يقول الأستاذ على: أحاط جماعة من شباب العلماء بأخى مصطفى وألّفوا الجمعية، لم يكن مصطفى رئيسها، ولكن كان من أهم عقولها المفكرة - حرب عنيفة قامت ضد الجمعية، وخاصة ضد مصطفى. كيف يكون مدرسا فى مدرسة القضاء، ويؤسس فى نفس الوقت جمعية تضامن العلماء؟!

كان كبار رجال الأزهر، ومنهم الشيخ حسونه النواوى شيخ الأزهر والشيخ أبوالفضل الجيزاوى وغيرهما قد أنكروا على الشيخ مصطفى قبوله التدريس بمدرسة القضاء الشرعى مع مابينها وبين الأزهر من التناقض والتعادى. لقد كان الشيخ مصطفى يعشق التدريس بالمدرسة!؟. وفى يومية للشيخ على مؤرخة (الأحد ٢٣/ ٢/ ١٣٢٧هـ - ١٥/ ٣/ ١٩٠٩م) «أول أمس تكلم عاطف بك بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعى مع أخى مصطفى بشأن انضمامه إلى جمعية تضامن العلماء، الأمر الذى أغضب الخديو وجعله يعتقد أن سبب الحركة الأزهرية هو مدرسو المدرسة من علماء الأزهر. وفهم أخى مصطفى من كلامه أن عاطفا يعرض عليه الاستقالة من المدرسة أو الجمعية، فقدم إليه بالأمس استقالته من المدرسة».

كان المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش قد اتفق مع بعض الهيئات التى تعمل على نشر اللغة الفرنسية، وبث الثقافة الفرنسية فى مصر على أن تنشئ مدرسة تكون ذات نظام خاص يجعل للأزهريين الحق فى أن يلتحقوا بها فيتعلموا اللغة الفرنسية وبعض العلوم ليستطيعوا أن يوفدوا إلى فرنسا فيتموا دراستهم فيها. وقد اختار المرحوم الشيخ جاويش لإدارة هذه المدرسة مجلس إدارة كان من أعضائه الشيخ مصطفى. واستمرت هذه المدرسة نحو سنتين. ولعل بعض الطلبة الذين تعلموا فيها قد أرسلوا فعلا إلى فرنسا فأتموا دراستهم بها. وعلى إثر ماتقدم من استقالة الشيخ مصطفى من مدرسة القضاء، وتفاقم الفتنة الأزهرية، نشأ التفكير فى أن يسافر إلى فرنسا لدراسة الفرنسية وبعض العلوم هناك، وبعد التروى والبحث بين الإخوة تم الاتفاق على سفره لدراسة اللغة ويحضر بعض دروس الفلسفة بالسوربون. وسافر من بورسعيد فى ٢٢/ ٦/ ١٩٠٩. . وكان يرافقه فى هذه الرحلة الأستاذ أحمد لطفى السيد وهو يومئذ رئيس تحرير «الجريدة» لسان حال حزب الأمة. وقد مهد للشيخ مصطفى سبل الإقامة فيها. ولم يعد مصطفى من هذه الرحلة إلا بعد ثلاث سنوات (١٩١٢).

فى مذكرات الأستاذ محمد كرد على أن الشيخ مصطفى حضر دروس دركهايم فى الاجتماع؛ ودروساً فى الآداب وتاريخها. وفى عام ١٩١١ تحول إلى مدينة ليون ليشتغل

مع الأستاذ إدوارد لامبير فى دراسة أصول الشريعة الإسلامية. وفى ليون حضر مع الأستاذ جوبلو دروسا فى تاريخ الفلسفة ودروسا فى تاريخ الأدب الفرنسى. وتولى تدريس اللغة العربية فى كلية ليون مكان مدرسها الذى كان قد ندب للتدريس بالجامعة المصرية القديمة. وقد أعد رسالة للتقدم بها لامتحان للدكتوراه فى الآداب، موضوعها (الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام). وقد أخرج بالاشتراك مع المسيو برنار ميشيل ترجمة دقيقة بالفرنسية لكتاب الشيخ محمد عبده موضوعه العقيدة الإسلامية...» إلخ.

مذكراته اليومية : (ص ٥٠ ومابعدها) شرع شيخنا عليه الرحمة والرضوان - خلال إقامته فى فرنسا - يدون مذكرات عن حياته اليومية يستودع فيها مايجده جديراً بالتسجيل من الحوادث والخواطر. وكانت له عناية بها. إنها سجل حافل بالتاريخ والأدب، وقد نشر بعضها مقالات فى الصحف.

أقول : كذلك كان يفعل كاتب هذه السطور فى باريس وغيرها. وقد نشر بعضها فى كتابه «صفحات من اليوميات» بعنوان «من أدب الرحلات».

وكان لهذه الرحلة أثر بعيد فى حياته - وأقول - مرةً أخرى: إنى عشت فترةً مماثلة، وإن لم تكن طويلة، أما تأثيرها العلمى والاجتماعى، فقد كان عظيما. ورسالتى لنيل الدكتوراه فى الحقوق، وخاصة فى قسمها النظرى، قائمة على ماحصلته فى باريس. أما من الناحية الاجتماعية (بل والمعيشية) فقد كان لها آثارها الطيبة والصاعدة. وأعود إلى شيخنا الذى كان قد عاد إلى مصر، وفى نيته العودة إلى فرنسا لإتمام دراسته، وبعد تشاور بين الإخوة كما هى العادة، تقرر عودته إلى فرنسا، وسافر شقيقه الأستاذ على إلى إنجلترا، وكانت هذه هى رغبة الوالد. وقد حدث أن أصيب الشيخ مصطفى (وهو فى فرنسا) بمرض صدرى، دخل بسببه المستشفى، وبقى به إلى أن عوفى (وكان ذلك عام ١٩١٤) - صفحات من سفر الحياة (ص ٥٤ ومابعدها). فى هذه الأثناء (فترة المستشفى وماتلاها) بدأ يكتب مقالات تحكى هواجسه، وتحكى حوادث عن نفسه وعن بعض أصحابه (وفاة فتحى زغلول باشا) والتعزية فيه من الأخوين (إذ كان شقيقه الأستاذ على قد جاء إليه من إنجلترا حين كان الشيخ مصطفى بالمستشفى) وكان فتحى زغلول صديقا لهما. عودة الشيخ مصطفى إلى أرض الوطن بسبب قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) - توقف «الجريدة» (لسان حال حزب الأمة - وكان لطفى السيد هو رئيس تحريرها) وانظر فى ذلك كتابى «محمد فريد وجدى - ص ٢٧ - ٣٧». أبى شباب الحزب الاستسلام لهذا الواقع، فاتجهوا اتجاها جديداً؛ ذلك أن صاحبهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى كان يصدر وقتئذ مجلة «البيان»، فشكا من أن إصدارها كان يكلفه

من أمره عسراً وبدا للجماعة أن يتخذوها لأنفسهم شركة بين الأعضاء يتعاونون على إصدارها. ولما لم يتيسر الاتفاق مع البرقوقى صح عزمهم على إصدار «مجلة السفور» التى كانت إلى مدة طويلة لسان حال تلك الجماعة، وكان مصطفى يوالى الكتابة فى كل عدد من أعدادها تقريبا. وكان اسم «السفور» قد صدم الذوق العام، وأثار حفيظة جمع كبير من دعاة الإصلاح الدينى.. فحسبوا أن جماعة السفور تدعو إلى الإلحاد، بل زعموا أن جماعة المبشرين المسيحيين تؤيدهم وتحرضهم. وكان بين الشباب من كتاب السفور مجددون لهم مذاهبهم فى استحداث أساليب فى الأدب العربى، واستنباط بعض نظريات فى الحياة الاجتماعية وفى الدين وفى الأخلاق وفى غيرها. (ظهرت السفور فى ٢١ مايو سنة ١٩١٥، وكان آخر عدد ظهرت له فيه مقالة يوم ١٧/ ٢/ ١٩١٧. وكانت الجماعة قد تفرقت وانشغلت بشواغل أخرى. وفى أوائل أكتوبر سنة ١٩١٥ عين الشيخ مصطفى موظفا فى مجلس الأزهر الأعلى. وكان صاحب الرأى فى ذلك السلطان حسين الذى كانت تربطه بالوالد رابطة متينة من خلال العمل فى الجمعية الزراعية، إذ كان السلطان رئيسها والوالد عضوا فيها. ولما كان السلطان رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية عرفه حسن باشا عبد الرازق الذى كان سكرتيرا للجمعية (وهو شقيق مصطفى وعلى). فلما أصبح سلطانا اتخذ حسن باشا وكيل الديوان العالى السلطانى. وفى بعض أسفار السلطان إلى فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى، قابله مصطفى فحل من نفسه مكان الحب والإعجاب، واستمرت تلك الصلة بينهما فى مصر أيضا، وقد انتدبته إحدى بنات السلطان لترجمة كتاب لها من الفرنسية إلى العربية ففعل. أراد السلطان أن يعين مصطفى سكرتيرًا للمجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية؛ وقامت فى الطريق عقبات، منها عمل مصطفى فى «السفور» ثم إنه كان لايتحرج من الاتصال بأصدقائه الأوربيين رجالا ونساء والأنس بهم، وهو مما يشجبه المتزمتون. وكَحَلٍّ مؤقت عين مصطفى كاتبا للمجلس براتب قدره عشرون جنيها، وقد هم مصطفى بالرفض لولا أنه وثق بأن فى قبوله مجاملة للسلطان. أصبح بيته ندوة علم وأدب - بعد فترة قصيرة أقيل عبد الغنى بك شاكر من عمله فعين مصطفى سكرتيراً عاما للمجلس. ونشط شيخنا فوصل حبال التعارف بينه وبين الأزهريين وغير الأزهريين. وأصبح (بيت أولاد عبدالرازق) فى مصر مثابة للوفود.. وفيهم المسلم والمسيحى والعربى والعجمى والرجال والنساء وصار بيته ندوة فى القاهرة يقصده أهل العلم والأدب من مصر وغيرها. ويدور الحديث فى الدين أو الأخلاق أو الفلسفة أو السياسة، وبلسان عربى وأعجمى. هذه الندوة، هذا الملتقى أمد النهضة المصرية بلون طريف من العلم والأدب، وفى ظلاله انطلقت مذاهب للفكر، وكان الشيخ مصطفى هو مدار هذه الحركة وقطبها - استُغضب

فى مجلس الأزهر الأعلى فغضب واستقال. ولكن سويت المسألة بما أرضاه، بتدخل من حسين رشدى باشا رئيس الوزراء بإيعاز من السلطان حسين. وفى سنة ١٩١٦ اشترك عضوا عاملاً فى الجمعية الخيرية الإسلامية وفى سنة ١٩٢٠ انتخب عضوا فى مجلس إدارتها، ولم يزل يتجدد انتخابه فى مجلس الإدارة إلى سنة ١٩٤١ حيث انتخب وكيلا لرئيس الجمعية، ثم انتخب رئيسا لها عام ١٩٤٦ بعد وفاة رئيسها الشيخ المراغى، وبقى فى رئاستها إلى وفاته. الجامعة الشعبية (ص ٦٠) - أنشأها عام ١٩١٧ بروزدر السويدى واختار لعضويتها صفوة من شباب المصريين والأوربيين، وكان أظهر أعضائها الشيخ مصطفى، والغرض منها إلقاء محاضرات لتثقيف الجمهور ورفع مستوى الشعب العلمى.. وفى عام ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى، وكانت مفاوضات بين الغالبين والمغلوبين ووُضِعتْ شروط الصلح. بداية ثورة المصريين عام ١٩١٩ (ص٦٢) الحزب الديمقراطى وكان أكثر رجاله من جماعة «السفور» وشيعتهم، وكان الشيخ مصطفى عضوا بارزا فيهم.. ص ٦٣ - جاء الملك فؤاد الذى أنكر من الشيخ مصطفى اتجاهاته السياسية والاجتماعية وقد صدر قرار من مجلس الوزراء - بناء على رغبة السلطان فؤاد طبعًا - فى ٤/٩/ ١٩٢٠ بتعيينه مفتشا فى المحاكم الشرعية لإبعاده عن الأزهر ورجاله.. يقول الأستاذ على أنه نصح لشقيقه بأن يقبل باعتبارها محنة لاتلبث أن تزول. وكان عمل الشيخ مصطفى فى إدارة المحاكم الشرعية قليلا، فوسع نشاطه العلمى والأدبى، وانصرف إلى الكتابة والدرس، كما تمكن من توسيع دائرة نشاطه الاجتماعى فى شتى الأوساط من أزهرية ومدنية وأوربية، دينية وغير دينية، وأحيانا سياسية. زواجه (ص ٦٤) من إحدى بنات عمه أمين عبد الرازق . اشتراكه فى ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده إلى الفرنسية.

مخالفة لبعض لوائح الحكومة : كان مسافرًا إلى أوربا، وتأخر عن موعد انتهاء الإجازة فأريد خصم أيام التأخير من راتبه فأبى، وكان تأخره بالرغم منه، وسويت المسألة كأن لم تكن ص ٦٥ - انتقاله إلى جامعة القاهرة أستاذًا مساعدا من أول نوفمبر ١٩٢٧ بمرتب قدره ٧٢٠ جنيه سنويا. ولم يلبث أن أخذ سريعا يشق سبيله فى التدريس بنجاح وتفوق أحَلاَّه فى الوسط الجامعى محلا مرموقا. يقول الأستاذ على : «وقد توفر لأخى مصطفى كثير من الأسباب التى جعلته أستاذا ناجحا» ص ٦٦ شغفه بالقراءة - يقول شقيقه : «هو الذى علمنا القراءة ونحن نقطع الطريق مشاة بين بيتنا والجامع الأزهر، فى مطلع كل صباح قرابة ساعة وفى مساء كل يوم كذلك. وقد خصص هذه الفترة لحفظ المختصرات العلمية عن ظهر قلب، وحفظ مايروقه من الشعر والنثر».

وقد حفظ فى صغره كثيرا من شعر البهاء زهير، وكتب بحثاً فيه ونشره. وكان من دأبه أن يقيد فى كراسات عنده مايروقه من الشعـر، ويداوم مراجعته. وكذلك كان شأنه إذ قرأ مقامات الحـريرى وحفظ أكثرها، ومقامات البديع الهـمذانى ص ٦٧، أما القرآن الكريم فقد حفظ منه فى الكُتَّاب كثيرا من صغار السور.. وداوم منذ صباه على أن يقرأ عقب صلاة الصبـح وصلاة العصر، اتباعـا لنصيحة الأستاذ الإمـام.. وكان فوق ذلك كثيـر الرجوع إلى القرآن فى جمـيع مباحثـه العلمية والدينية أو الأدبيـة. لاجرم أنه قد وصل من العلم بالقرآن إلى درجة الحافظين الدارسين. ومن عبارات الأستاذ على (وهى صحيحة) أن ملكة الحفظ فيما لاحظت تضعف كلما قويت ملكة الفكر والبحث، وكأنما هما كالليل والنهار إذا طال أحدهما فعلى حساب الآخر. شغفه باقتناء الكتب... وهو الذى رتب فى بيت عـبد الرازق مكتـبة آل عـبد الـرازق بسائر مـاتستلزمـه من دواليب ومناضد.. إلى آخـره. (ص٦٧) (ص٦٨) عضو فى مجـلس إدارة دار الكتب – عنايته بالكتب المخطوطة والنادرة وبذل المال فى سـبيلهـا. ومما تسهل ملاحظـته أن جل كتـبه ومباحثـه العلمية كثيراً مـاتذكر فيها مراجع مـتنوعة.. على وجه يدل دلالة ظاهرة على سعة اطلاع وإحاطة شـاملة (وأقول : هذا ما لاحظته فى بحثـه العظيم بعنوان «الشافعى واضع علم أصول الفـقه»). أقول : مع الفـارق الكبير بين مايسـره الله للأستاذ الكبـير مصطفى، ومايسره لى – فإن مكتبتى هى أعز ماأقتنى، وإنى أنمّيها ماعشت بعون الله – ولا أنسى أن أقول : إن الفـارق كبيـر جدا جداً بين أسعار الكتب اليـوم وأسعارها فى الأمس (البعيد) – وأعود إلى أستـاذى الكبير على.. ومن العناوين ص ٦٨ ومابعدها: منهجه الخاص فى التعليم : التعليم عنده عبـارة عن صلة عقلية ينشئها بينه وبين طلابه. فهـو وهـم شركاء فى البحث، واسـتخراج المطلوب من مظانه. فـكلهم لكلهم أساتذة، وكلهم لكلهم طلاب. أقـول : إن البعض من أساتذة الجامـعات، وربما معظمـهـم، قد جعلوا التدريس بـالجامعات وكأنه امـتداد للمراحل التعليمـية قبل الجامـعية : بل إنه مما قرأته عن بعضهم أنهم ينقلون عن كتاب بلغة أجنبية ثم يضيفون ماينقلون إلى أنفسهم!! هذا، ومما جاء بص ٦٩ نقلا عن الأستاذ على: «إننى لأستعرض فى نفسى أسماء الذين عرفت ممن أتموا دراستـهم الجامعيـة بأوربا من المصريين ثم عادوا للتدريس بالجـامعة فى مـصر فـلا أكاد أعـد إلا قليلا منهم جـدا الذين ساروا عـلى منهج الشيخ مـصطفى أو قاربوه» تعيينه أستاذا للفلسفة فى جامعة القاهرة ومنح لقب أستاذ الفلسفة فى أول أكتوبر ١٩٣٥ ومنح رتبة البكوية من الدرجـة الثانية فى ١٩٣٧/٢/٢م. وفى ص ٧٠ أنه عين وزيرا للأوقاف فى وزارة مـحمد مـحمود باشـا فى أبريل عام ١٩٣٨ وتغـيرت الوزارة خـمس مـرات، وبقى هو وزيرا للأوقـاف حـتى ١٩٤٢/٢/٥. وفى سنة ١٩٤٠ عين

عضـواً (مع آخرين) فى مـجمع فـؤاد الأول للغة العـربية. وفى سنة ١٩٤١ منـح رتبة الباشوية. وكتب إليه بهذه المناسبة صديقه المرحوم محمد كرد على خطابا (مبين بص ٧٠ ومابـعدها) - وقد رد عـليه مصـطفى باشا بخطاب كـريم. وفى ص ٧٣ أنه تألفت فى ٩/ ١٩٤٤/١٠ وزارة أحمـد باشا ماهر، فـدخلها مصطفـى باشا للمرة السـادسة وزيرا للأوقـاف، وبقى فى الوزارة إلى أن عين شـيخـا للأزهر فى وزارة النقـراشى باشـا فى ١٩٤٥/١٢/٢٧. وقامت عقـبات ذللها النقراشى. أمـير للحج (عام ١٩٤٦ ص ٧٥) وفاته فى ١٩٤٧/١٢/١٥- حفل تأبين فى الجامـعة المصرية فى ١٩٤٧/٣/٢٧ - وأقيم حفل تأبين فى المنيا.

فى احتفالية المجلس الأعلى للثقافة

مصطفى عبد الرازق مفكرا تنويريا ورائدا للفلسفة الإسلامية

بنـــــد: ٩

فى إطار إحياء ذاكرة الأمة والاحتفاء برموز التنوير فى مصر، عقد المجلس الأعلى للثقـافة ندوة جديدة لرائد تنويرى ليـضاف هذا الجهـد إلى ماسبق من ندوات وليـتصل بالاحتفاليات القادمة.. حيث شهـدت القاهرة يومى السبت والأحد الماضيين ندوة ثقافية على أرفع مـستـوى عن الشـيخ مصطفى عـبـد الرازق مفكرا تنويريـا ورائدا للفلسفـة الإسلامية.

حضر الاحتفـال الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقـاف ود. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثـقافة ود. عاطف العراقى مقـرر الندوة ود. فؤاد زكريا مقرر لجنة الفلسفة بالمجلس والأستاذ سالم مصطفى عبد الرازق ممثلا للأسرة. لم يحضر وزير الثقافة الافتتاح كما كان مـعلنا من قبل لسفره إلى سوريا ضمن الوفد المرافق للسيد الرئيس، وتأخر الافتـتاح نصف ساعة استـمع خلالها الحاضرون إلى مـوسيقى هادئة!! كانت لفتة ذكية من منظمى الندوة وضع صورة شخصية كبيرة للشيخ مصطفى عبدالرازق على باب قاعـة الندوة، كمـا تم طبع ملخصات الأبحـاث بشكل جديد يتـسم بمحاولة تقليل النفقات وهو أمر يستحق الإشادة.

بدأ د. عـاطف العـراقى الندوة بإبرازه التـنوع الملحـوظ فى آثار الشـيخ مـصطفى عبدالرازق حيث لم تقتصر عند حـدود الجانب الفلسفى أو الدينى بل تعدتها إلى الجانب السيـاسى. وأبرز أنه كان مفكرا تنويريا حـيث يرتبط النور بالوجود، كـما يرتبط الظلام

بالعدم، وأشار إلى اختيار د. طه حسين للشيخ مصطفى ليكون أول أستاذ مصرى يتولى تدريس الفلسفة الإسلامية. وأكد د. فؤاد زكريا أهمية قيام الشيخ مصطفى عبد الرازق بالرد على مازعمه بعض مؤرخى الفلسفة العربية من اقتصار الدور الفلسفى للعرب وللمسلمين الذى أثبت أن الفلسفة كانت نبتا أصيلا فى الحضارة الإسلامية، وأن هناك فكرا فلسفيا مهما قد انبثق من قلب العقيدة الإسلامية، وفى هذا دحض لدعاوى بعض المسلمين من تعارض الفلسفة مع الدين. وذكر سالم مصطفى عبد الرازق فى كلمة الأسرة أن والده الشيخ مصطفى كان رجلا لم يعان من تناقضات سواء مع الناس أو الحياة، بل عاش مع الناس وللناس وكان منهجه المحبة السمحة الواضحة ورسالته الفن الأسمى وهو فن تهذيب الروح، وقد استطاع إقامة علاقات حميمة بأقرانه فى العصر مع اختلاف توجهاتهم الفكرية والسياسية. وأثار د. محمود حمدى زقزوق الإعجاب بكلمته الموجزة والبالغة الدقة، وقد حبا المجلس الأعلى للثقافة على الندوة، وأشار إلى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق يعد امتدادا أصيلا للشيخ محمد عبده وهذا شىء يحسب له كمفكر مستنير يعكس الطبيعة الصافية للإسلام فضلا عن قيامه بتصحيح الأفكار المغلوطة التى رددها الغرب عن الإسلام، وقد قيل عنه صدقا أنه قرب الأزهر فى السوربون وكانت له الريادة فى ذلك، بالإضافة إلى ريادته لتدريس الفلسفة الإسلامية، كما كان فى مقدمة المصلحين الأخلاقيين الذين يرون الأخلاق فوق العلم وفوق الفن.

ونبه د. جابر عصفور إلى الصلة الوثيقة بين هذه الندوة والندوات السابقة مثل ندوة د. محمد حسين هيكل، وأشار إلى أن هذا الجيل كان يتبنى مشروعا ثقافيا تنويريا اضطلع خلاله كل مفكر بالقيام بدور مهم من خلال تخصصه.. ومن أهم سمات هذا المشروع التنويرى إعطاء الأولوية للعقل على النقل وتأكيد الاجتهاد بوصفه بديلا للتقليد والإيمان بحرية الفكر والإبداع... وأشار إلى ارتباط الشيخ مصطفى بالنهضة القومية وتجسيده لها وإلى دوره كشاعر وكاتب قصة وكاتب لأدب الرحلات فضلا عن دوره السياسى وجمعه بين الفكر والعمل وتركيزه على الممارسة بالدرجة الأولى.. وناشد د. جابر أسرة الشيخ مصطفى الإفراج عن مذكراته الشخصية ليقوم المجلس بنشرها هى وأعماله الكاملة لتكون فى متناول جميع الباحثين.

ونختتم هذا العرض السريع عن الندوة بكلمة للشيخ مصطفى عبد الرازق تعبر عن جوهر هذا الرجل العظيم : «إن الذين يخدمون حرية الفكر هم خدام الحق والحضارة، وإن الذين يفكون العقول من انحلالها هم حراس الفكر والحق».

الشيخ مصطفى عبد الرازق مفكرا ورائدا للفلسفة الإسلامية

يحتل الشيخ مصطفى عبد الرازق مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى، بل ويعد صاحب مدرسة تعترف ببصماته البارزة على فكرنا المعاصر، فهو عالم استطاع أن يجمع بين الفكر من جهة والإصلاح الاجتماعى من جهة أخرى.

ولد الشيخ مصطفى عبد الرازق عام ١٨٨٥م فى أسرة مصرية عريقة بقرية «أبوجرج» بمحافظة المنيا بصعيد مصر، وتزود بالثقافة الأكاديمية فى أكثر من مجال. ودرس على يد الإمام محمد عبده، وانفتح بعد ذلك على الفكر الغربى، حيث استطاع المزج بين الفكر العربى من جهة، وحضارة الغرب من جهة أخرى. يقول الدكتور عاطف العراقى أستاذ الفلسفة العربية فى حديثه عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الندوة التى حملت اسمه وأقامها المجلس الأعلى للثقافة بمكتبة القاهرة الكبرى يوم السبت الماضى، وحضرها كبار رجال العلم والفكر والفلسفة: لقد جمع هذا العالم الجليل بين مجال الفكر الفلسفى والدينى والأدبى وأسهم فى ترجمة رسالة التوحيد إلى اللغة الفرنسية. وهى من الرسائل المهمة التى تركها لنا الإمام محمد عبده. وعن مناقشاته لآراء المستشرقين الغربيين، فإنها تظهر من خلال أكثر من كتاب من كتبه من بينها كتاب «الدين والوحى والإسلام» الذى مازال الباحثون يعتمدون على دفاعه عن الدين الإسلامى والوحى فى مواجهة الميتشرقين. وتقول الدكتورة زينب الخضيرى أن تصور الشيخ مصطفى أن إصلاح الفكر من شأنه التعريف بحقيقة الدين: «إن الذين يفكون العقول من أغلالها إنما يمهدون لها السبيل إلى الحق، والدين من أسمى الحقائق فى هذا الوجود. هكذا كان يفكر الشيخ الفيلسوف الذى آمن أن إصلاح المجتمعات ونهضتها لايكون إلا بالفلسفة»[(١)].

رائد القياس الشرعى

أما الدكتور كمال دسوقى فيقول: أنه لايملك حين يذكر عالمنا الكبير إلا أن يرد على الذهن أخوه الشيخ على الذى كان توأمه فى رفع راية التنوير. وعبقرية كل من الشيخين فى اصطناع منهج البحث الذى هداه إليه تعمقه فى مجال تخصصه، هذا فى القياس الشرعى الذى دفع عن المسلمين شبهة كونهم أخذوه من منطق أرسطو بأنه حينئذ لم يكن قد وصل إلى علمهم بعد، وبأنه قياس منتج لأحكام شرعية يعكس فيها ما لم يوجد له نص فى الكتاب والسنة على ماورد بحكمه نص - خلافا لمنطق أرسطو الصورى الذى لايعنى نصيحة المقدمات التى تستخلص منها النتائج.

(١) - والصحيح - فيما أرى - أن إصلاح المجتمعات ونهضتها لا يكون إلا بالدين: الدين الإسلامى - وهو - على التحقيق - لا يضيق بالفكر الحر، ومنه الفكر الفلسفى.

ويقول الدكتور عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة: أنه لاريب فى أن الفلسفة الإسلامية قد وضعت موضع الشك طوال القرن التاسع الميلادى، وبعض المفكرين قد ذكروا عن تعصب مقيت أن تعاليم الإسلام تتنافى مع البحث الحر والنظر الطليق. وأنها تبعا لذلك لم تأخذ بيد العلم ولم تنهض بالفلسفة، أما بالرجوع إلى تراث مصطفى عبد الرازق فنرى أنه دافع أروع وأصدق دفاع عن الفلسفة الإسلامية فى مختلف مجالاتها سواء فى حقل أصول الدين مع المتكلمين. أو فى حقل أصول الفقه مع الأصوليين، أو فى حقل التصوف الإسلامى والفلسفة الصوفية فى سائر تياراتها المعتدلة والمتطرفة، أو فى حقل مناهج البحث الإسلامية التى كشفت عن المنهج التجريبى فى صورته المتكاملة، وقد أكد الشيخ فى سائر بحوثه أن المفكرين المسلمين قد أكدوا فى مختلف آرائهم وبحوثهم أن الوحى لايناقض العقل، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفس وثبتت أقدامها أمام تيارات الخصوم، وأن الدين إذا تآخى مع الفلسفة أصبح فلسفيا كما تصبح الفلسفة دينية.

وشيخنا الجليل - كما تقول الدكتورة مرفت عزت بالى أستاذة الفلسفة المساعدة بآداب الزقازيق كان أيضا من الرواد الذين أصلوا البحث لدراسة الفلسفة الإسلامية ووضع القواعد والأسس التى يبنى عليها كيان الفكر الفلسفى الإسلامى، والسبيل للوقوف على هذه الأصول والقواعد مؤلفاته التى منها كتابة القيم «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» الذى انتهى منه إلى أن الفكر الفلسفى الإسلامى بدأ إسلاميًا فى مجال الرأى فى الأحكام الشرعية، ثم تطور مستفيداً من تراث الأمم الأخرى دون أن يذوب فى هذا التراث.

مفهوم الحرية الإنسانية

ويتحدث الدكتور على عبد الفتاح المغربى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة عين شمس عن مفهوم الحرية عند الشيخ مصطفى قائلاً : لاحظ الشيخ صعوبة مشكلة الاختيار الإنسانى من الوجهة الفلسفية والدينية على السواء عبر كل الأزمان وأن هناك أنصاراً للجبر وآخرين للاختيار، وناقش أدلة كل فريق، وعقب على تلك الأدلة ناقداً ومؤيداً أحياناً ومعارضاً أحياناً أخرى. وانتهى إلى تأييد الحرية الإنسانية كما تناول الحرية من الوجهة الميتافيزقية، وأن دراستها عن طريق هذه الوجهة لن تفضى إلى حل مقنع، وذكر أن الحرية الإنسانية ضرورة من ضرورات العمل وإثراء النشاط الإنسانى. بل

وينتهى مفكرنا إلى القول بأن الإيمان بالحرية خير كله، ولو أثبتت جميع البراهين الفلسفية أن نظرية الاختيار الإنسانى غير صحيحة، كما يرى أن تعاليم الدين ليست قيداً على حرية الإنسان بل هى خير له وسبيل إلى سعادته، وعلى الإنسان الالتزام فى ممارسة الحرية بالأخلاق وأن يهتدى بالعلم.

تربية الذات

وعن تربية الذات عند مفكرنا الإسلامى يقول الدكتور محمد صالح السيد - كلية الآداب جامعة المنيا-: إن الشيخ مصطفى عبد الرازق انطلق فى دعوته لبناء الفرد المسلم متأثراً بما ورد فى القرآن الكريم فى شأن الذات الإنسانية التى وصفها القرآن الكريم بالمدح والتعظيم والإجلال، كما وصفها بالذم والضعف والتدهور، وهى تستحق الصفات الأولى فى حالة كمالها وقوتها، وتستحق الصفات الثانية فى حالة تدهورها وضعفها. والأساس فى أن تكون الذات الإنسانية حاملة للصفات الأولى لتكون كما أرادها الله قوية مبدعة تحمل إمكانية الخلافة الأرضية، ولقد استطاع شيخنا أن يقدم لنا فى مجال الأخلاق مجموعة من القيم تربى عليها الذات الإنسانية انطلاقاً من إيمانه بدور التربية الخلقية فى تربية الذات وضرورة تدريبها ومرانها على الفضائل الإيجابية.

أصول الفقه

ولقد حرص الشيخ مصطفى عبد الرازق على تناول النظريات المختلفة فى الفقه الإسلامى -كما يقول الدكتور سعيد مراد، وتاريخه وتعرض لعدة مسائل منها : القياس والاجتهاد، واستهدف من بحثه التأكيد على كون علم أصول الفقه يعد واحداً من مجالات البحث الفلسفى عند المسلمين. ونجح فى تقديم الأدلة التى تؤكد صدق موقفه وإذا كان هناك من يجعل علم الكلام واحداً من العلوم الفلسفية، فإن علم أصول الفقه لايقل أهمية ولا جدارة عقلية من علم الكلام.

والجدير بالذكر أن الشيخ مصطفى عبد الرازق ترك لنا الكثير من المؤلفات فى مجالات مختلفة من بين أعماله، كتابه «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» كما ترك أكثر من كتاب فى مجال الفقه والفلسفة والأدب من بينها كتابه عن الإمام محمد عبده وكتابه عن البهاء زهير وأيضاً مقدماته الرائعة لكثير من الكتب من بينها: مقدمة، كتاب الإسلام والتجديد فى مصر تأليف تشارلز أوفر، ومقالات عديدة عن الإمام محمد عبده وعن الصوفية والفرق الإسلامية.



الشيخ مصطفى عبد الرازق فى المجلس الأعلى للثقافة

كان رمزاً للإسلام الحضارى وعصور التنوير

مازال المجلس الأعلى للثقافة يوالى احتفالاته بالمثقفين والمفكرين من جيل النهضة : طه حسين، محمد حسين هيكل . . وآخرهم فى الأسبوع الماضى «بين ٢٢ - ٢٣ الماضى» أحد ألمع وجوه هذا الجيل الشيخ مصطفى عبد الرازق.

واحتفالية الشيخ مصطفى كغيرها اتخذت شكلاً علميًا خالصًا، فمنذ صباح يوم الافتتاح حتى نهايته شارك فيها فضلاً عن الأمين العام للمجلس د. جابر عصفور - الدكاترة عاطف العراقى «مقرر الندوة» وفؤاد زكريا «مقرر لجنة الفلسفة» وسالم مصطفى -الابن- ومحمود زقزوق وزير الأوقاف، وتوالت أسماء أعداد هائلة من الأساتذة طيلة جلسات الندوة التى اتخذت محاورها الأساسية من روح الشيخ مصطفى وهمومه : التنوير، قضايا الفلسفة الإسلامية، أصالة الفكر الإسلامى، الفقه والشرع . . إلى غير ذلك مما يرسم إطاراً عريضاً لمشروع هذا الجيل الذى انتمى إليه الشيخ.

ورغم ثراء الندوة الاحتفالية فإن الاقتراب أكثر إلى الجلسات بما فيها من أبحاث وما حدث من مناقشات ومناوشات. تعكس لنا أمراً آخر لايظهر الإطار العام للندوة، إذ إن ما حدث طيلة هذين اليومين يعد -فى رأيى الخاص- مرثية حزينة لهذه الفترة المزدهرة فكريًا من تاريخنا «بين منتصف القرن الماضى ومنتصف القرن الحالى»، حيث شهد هذا القرن جهداً تنويريًا هائلاً اجتهد فيه مصطفى عبد الرازق «ضمن الجيل الذى سبقه ومثله الشيخ محمد عبده» إلى تأكيد دور العقل الذى كان موجودًا فى جوهر الدين الحنيف قبل التأثر بالعقل الإغريقى وعلومه كما هو شائع، ومن ثم فإن مراجعة أعمال الشيخ والصمت طويلاً بين جلسات الندوة، تؤكد لنا أن تتبع هذا الوعى بدوز العقل فى فترة مهمة من تاريخنا هى التى كانت تمنح الشيخ الإحساس بضرورة أن تصبح مصر إحدى الدول المهمة فى العالم التى تسرع إلى الرقى انطلاقاً من التراث الإسلامى وليس خارجه، وهو ما عبر عنه د. إبراهيم مدكور «فى بحث د. زقزوق»، حيث حاول أن يشير إلى أن الشيخ حاول أن يوفق بين القديم والجديد إذ قال : إنه قرب الأزهر فى السوربون . . ومن هنا -أيضاً- نفهم أن أهم صفات مشروع الشيخ -ضمن مشروع جيله- كما لاحظ د. جابر عصفور فى كلمة الافتتاح كانت «الاستنارة التى أعطت الأولوية للعقل على النقل وأكدت الاجتهاد بوصفه بديلاً للتقليد» ويسهب الأمين العام فى تعبير صفات الشيخ كالمصالحة بين الأفندية والمشايخ واهتمامه الكبير بالخصوصية



العربيـة الإسلامية فى الفلسـفة ثم -وهى أهم صفـات هذا المشروع- كانت الموضوعـية حيث يعرف أفراد هذا الجيل أن الموسوعية -ومازال الحديث للدكتور عصفور- تظل أهم سمات المشروع التنويرى فى مجتمع متخلف على كل المستويات، وأن عليهم لكى يرتقوا بهذا المجـتمع وينتقلوا به من مسـتوى التخلف إلى مسـتوى التقدم، أن يكتـبوا فى كل مجال وأن يؤسـسوا فى كل حقل من حقول المعـرفة . . وما فعله مـصطفى عبد الرازق فعله طه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد . . وغيرهم.

والذى لايمكن إغـفاله أنه كلـما ارتقع صـوت أحد المحـتـفلين بمشروع الشـيخ زاد الإحساس بأن ما يحدث هو مرثية لعصرنا ومـا آل إليه أكثر مما هو احتفالية بالشيخ، إن فى تأكيد مشروع الشيخ لدى د. جابر يمثل نبرة اعتذارية لما آل إليه المشروع اليوم وهو ما يظهر أكثـر لدى د. زكريا فما كاد يبـدأ كلمته التقليدية، ويشـير فيها إلى جـهد الشيخ مصطفى فى الرد على عنصـرّية بعض الغربيين فيـضيف بسرعة إن هذا مكن المشـتغلين بالفلسفة من العرب للرد على الهجمـات الظالمة التى توجه إلى الفلسفة من جهات ذات سطوة ونفوذ فى قلب عالمنا العربى المعاصر.

هل ذهب جهد الشـيخ مصطفى سدى؟ . . سألت نفسى وأنا أسـتمع إلى د. فؤاد زكريا وهو يذكر دأب البعض فى ترديد تعبيـر «بلاش فلسفة» بمعنى الكف عن المعارضة . . وزعم آخر -يقـول د. فؤاد- زعيم عربى أبـدى دهشته من وجود أسـاتذة يدرسون شيئاً اسمه الفلسفة فى بلاده، وعلق مسـتنكراً «فلسفة! ماذا تعنى فلسفة؟ هذه كلمة غير عـربية . . يجب أن تحل مـحلهـا كلمة تفـسيـر. ولم تمض أيام قـلائل حتى خـرجت الصحف والمجلات العلمـية فى بلده تؤكد أن لفظ الفلسفـة لابد أن يختفى ويجىء بدلاً منه كلمـة «تفسـير»، بل إن اسم الفلسـفة «مـحى» من جمـيع معـاهد التعليم العـالى والعادى، وهذا المحور يتذرع بأسباب دينية يرد عليه الشيخ بأن الفلسفة لأسباب دينية لم تكن دخيلة على العالم الإسلامى لحظة واحدة طوال تاريخها المجيد.

ولم يكن على د. فؤاد أن يذكرنا أن مصطفى عـبد الرازق لم يكن ليرضى أن تقوم جماعـات من المسلمين بتلطيخ دينهم أمام العالم كله بارتكاب هذه الجرائم، ولم يبـتعد د. عاطف العـراقى عن هذا كثيـرا، بل راح يتحدث عن الفلسـفة عند الشيخ وصلتـها بالتنوير، وهو خلال هذا جمع بين مـجال الفكر الفلسفى والفكر الدينى والفكر الأدبى، كما درس شخـصيات كثيرة معـتمدا على النصوص الأصلية، ومعتـمدا على منهج يعد غاية فى الدقة والعمق، وهو مافـعل حين تحدث عن الكندى والفارابى والليث بن سعد جولدتسيهر، بل ولم تكن مصادفة أن يهتم بفكر معـاصريه وفى مقدمتهم الشيخ محمد

عبده وذلك بأن أسهم فى ترجمة رسالة التوحيد إلى اللغة الفرنسية، وهو فى كل هذا لم يتخل عن تأكيد دور العقل فى الاستنارة الفكرية والدينية. وكأن د. عاطف كان يشير وهل يليق هذا الفكر الآن بهؤلاء الذين يرتكبون الأعمال الوحشية باسم الدين «كان حادث «أبوقرقاص» ينال استنكار كل الحاضرين».

طيلة الجلسات نسمع ونناقش الوجه المشرق للشيخ عبر مشروع يواجه الآن أعاصير عاتية: التنوير، فلسفة الدين، رائد القياس الشرعى والسياسة الشرعية، مفهوم الحرية، الشيخ والتصوف، الدين والوحى، الفكر الدينى، إحياء الفلسفة الإسلامية، النزعة النقدية. وفى المقابل نجد حروباً عاتية الآن على كل هذه العناصر، فمازال بيننا من ينادى «بتكفير» «أبوزيد»، ومن يتحدث عن النقاب وتعميمه، مازالت الأمية تضرب بأطنابها بين أكثر من نصف سكان مصر، مازال الفراغ الفكرى وضياع الشباب يحتل عناوين صحفنا اليومية، ومازالت البنوك لاتجد من يحسم أمرها إسلاميا، ومازال مصطلح «الإرهاب» يعانى من اضطراب المفهوم وتردى الواقع، مازالت النقابات المهنية تهاجم ماحدث فى كوبنهاجن، هوجة الإعلانات فى الشهر الفضيل وبعده.. وباختصار، فإن مايحدث اليوم، فى الاحتفال بعلم ضخم مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق له معنى أبعد، هو استنهاض العقل، وتأكيد القيم الإسلامية وابتعاثها من جديد.. ولهذا، لم تكن ندوة الشيخ ندوة مثل كل الندوات، وإنما كانت مرثية لعصر كامل مضى كان العقل فيه يتبوأ مكانة عالية، وهو مايشير إلى أن مشروع النهضة مضى ولم يبعث من جديد.. وبقيت لنا آثار الشيخ التى لم تنته كلها، حتى كانت آخر كلمات تترك أثرا لايضيع توجه فيها الأمين العام لأسرة الشيخ أن تنشر مذكراته التى لم تنشر بعد..

وتنتهى الندوة ويبقى ماتثيره: أين مذكرات الشيخ مصطفى..؟ بل أين مشروع هذا الجيل الذى كان يطمع أن يجد مصر أكثر وعيا لدور العقل، ويطمح أن يجد المثقفين واعين لدورهم الحقيقى فى التنوير والتثوير والإصلاح..

فى رحاب فكر مصطفى عبد الرازق

يبرز اسم مصطفى عبد الرازق بقوة وفاعلية فى نهضتنا الحديثة والمعاصرة، ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا قلنا أن اسمه يتردد كعنوان على تلك النهضة التى قامت على أساس ترسيخ مقولة «الأصالة والمعاصرة» وممارستها فى واقعنا الثقافى، فمصطفى عبد الرازق بثقافته الأزهرية كان يمثل عنصر الأصالة فى ثقافته، وباطلاعه على الفكر الغربى الحديث أخذ أفضل مافى العصر من أفكار ونظريات، فقد سافر إلى فرنسا طالبا للعلم وأستاذا له فى الوقت ذاته حيث عمل فترة من الزمن أستاذا للفكر العربى والإسلامى فى بعض

الجامعات الفرنسية، كما درس على يد بعض أعلام الفكر الغربى المعاصر من أمثال أميل دور كايم أحد فلاسفة علم الاجتماع. مصطفى عبد الرازق بحق إحدى الدعائم الأساسية فى تلك النهضة تحمل فى أناة وصبر دوره الهام فى البناء والتشييد وفى ترسيخ القيم والمبادئ النهضوية التى نادى بها الرواد من أمثال رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك والأفغانى ومحمد عبده الذى تنبأ لرائدنا مصطفى عبد الرازق بمستقبل مشرق وكان مصطفى يعتبر من أقرب تلاميذه إلى نفسه وتجسيدا حقيقيا لأفكاره فى الإصلاح والتجديد عبر الأجيال التالية، وبصفة خاصة أفكار محمد عبده المستقبلية وعقلانيته الرشيدة فسار على نهجه فى التربية والتعليم باعتباره أنجح الطرق وأفضلها فى التنمية الثقافية والبناء الفكرى، وهو منهج يحتاج إلى جهد ودأب شديدين، بالإضافة إلى وقت طويل وصبر أطول وابتعد عن المنهج السياسى الثورى الذى تبناه بعض الرواد من أمثال الأفغانى لعدم جدواه فى أمة يتفشى فيها الجهل بصورة مفزعة ومخيفة.

وتتأكد ريادة مصطفى عبد الرازق فى نهضتنا الفكرية الحديثة من خلال مجموعة نقاط مهمة منها كونه أول مصرى يشغل منصب أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية، ومنها أنه أول مصرى خط منهجا علميا واضحا لدراسة تلك الفلسفة فى كتابه الهام «تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية». ومازال يعتبر مرجعا لا غنى عنه للباحثين حتى وقتنا الراهن، ولم يكتف برسم المنهج ولكن سعى أيضا إلى تقديم نماذج تطبيقية لهذا المنهج الذى دعا إليه ومنها أنه جعل أصول الفقه أحد مجالات الفلسفة الإسلامية؛ لأن مدار البحث فيه هو الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية لاستنباط الأحكام بالعقل، فالاجتهاد هو أول مانبت من النظر العقلى عند المسلمين، وقد وجه مصطفى عبد الرازق تلاميذه إلى تطبيق ذلك المنهج وترسيخ أسسه وبيان مكانة النظر العقلى فى الفكر الإسلامى ونصحهم بضرورة نشر المفيد من التراث الإسلامى وترجمة مايزكى تلك النهضة عن الفكر الغربى فنبغ منهم عدد كبير تبوأوا أماكن مرموقة فى تاريخ نهضتنا الحديثة والمعاصرة منهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور على سامى النشار صاحب موسوعة «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام» وكتاب مناهج البحث عند مفكرى الإسلام وفيه ركز على نقدهم لمنطق أرسطو، وقد سار الدكتور النشار فى تلك المؤلفات على منهج أستاذه مصطفى عبد الرازق، ومن تلاميذه أيضا الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة الذى وزع جهده بين التأليف والترجمة والتحقيق، ومنهم الدكتور محمود الخضيرى مترجم «مقال فى المنهج لديكارت» والذى غاب عن عالمنا وهو فى قمة العطاء والمجد وغير هؤلاء كثيرون تتلمذوا على يد الشيخ مصطفى عبد الرازق وقاموا بدورهم الفعال فى حمل عبء الأمانة وماتتطلبه من مسئوليات فكرية واجتماعية. وهذا

الجيل الذى تتلمذ على يد الشيخ مصطفى عبد الرازق تتلمذ على أيديهم أيضا عدد كبير من مفكرينا وكتابنا المعاصرين، وهذا يوضح لنا أن مصطفى عبد الرازق يحتل مساحة كبيرة من ذلك الجزء الحى فى نهضتنا الحديثة والمعاصرة بوسطيته التى تنأى من غلو المتغربين وجمود التراثيين من أصحاب أحادية النظرة إلى طريق النهضة والإصلاح.

وفى ختام ذلك المقال ننوه بشكر واجب وعتاب رقيق إلى المجلس الأعلى للثقافة والقائمين عليه فأولا أحييهم لاهتمامهم بتنشيط ذاكرتنا بندوة عن مفكرنا الرائد مصطفى عبد الرازق والثانية نعتب عليهم لقصرهم الدعوة على مجموعة محدودة من الباحثين وأخشى أن أقول على شلة معينة مكررة فى كل ندوات المجلس لسبب غير موضوعى وغير مقنع، والأولى بالمجلس الأعلى فى مثل هذه الندوات أن يعلن للباحثين عن هذه الندوات وأن يدعو المختصين والمهتمين بالمشاركة وتختار الأبحاث الأجدر والأفضل للنشر بعد التحكيم العلمى، كما ينبغى ألا يغيب عن أذهان القائمين على أمر تلك الندوات أن يكون لديهم إحصائية بالباحثين فى مختلف المجالات الفكرية ودعوتهم إلى مايتصل بمجالاتهم وتخصصاتهم لأننا للأسف الشديد لانسمع عن تلك الندوات فى معظم الأحيان إلا من الصحف بعد انتهائها.

أدب الإسلام فى مواجهة مستشرق متخبط

بند: ١٠

قرأت كلمة أستاذنا الجليل الشيخ مصطفى بعنوان «الإسلام - عقائده ونظمه» (السياسة الأسبوعية - عدد السبت ٩ يولية سنة ١٩٢٧). مما جاء فيه: هذا كتاب وضعه بالفرنسية «الأب لامانس» طبعه فى المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٦.. ولايسع المطلع على ماكتبه الأب لامانس إلا أن يعترف بحسن طريقته فى البحث وسعة اطلاعه.. والمستشرقون الأوربيون يصرحون بأن فى مصنفات الأب لامانس ميلا يشوب البحث العلمى بنزعات ليست من البحث العلمي. أما نحن فلا نبرئ أنفسنا من عواطف يثيرها ما فى مؤلفات الأستاذ من عسف صارخ. «بيد أننا أشد احتراما للمجهودات العلمية ولأهلها من أن نجعل لهذه العواطف سلطانا على وزن آثار العلماء». وكثيرون يقولون: إن مؤلف الأستاذ لامانس الذى نحن بصدده هو أقل كتبه تحيفا. وفى الحق أن هذا الكتاب ينبئ عن شىء من التطور حميد، نكاد لانلمح فى أجزاء منه أن المؤلف قس جزويتى رسم صورة عن الإسلام. وماكان ليفوتنا أن نسجل للأستاذ هذا التطور فيما نسجل من إعجاب باجتهاده واطلاعه. وكتاب «الإسلام - عقائده ونظمه» مؤلف من مقدمة وثمانية أبواب.. يقول لامانس: شىء واحد يتفق عليه المسلمون جميعا بدافع

من أنفسهم هو أنهم لايرضون بحال أن يقربوا المدنية المسيحية. ولم يقل لنا القس لامانس ما هى هذه المدنية المسيحية التى ينفر منها المسلمون كلهم بعد إجماعهم على طلب الإصلاح ومسايرة الرقى الحديث؟ يقولها المؤلف ص ٤٤ عند الكلام على القرآن «وكذلك كان القول بأن تلاوة القرآن من الحوادث المخلوقة معتبرا من الإلحاد الخطر». والمسلمون لايرون هذا الرأى، حتى هيئة كبار العلماء، فهل يريد العالم القسيس أن يكون أشد توسعا فى رمى المسلمين بالإلحاد من هيئة كبار العلماء؟. وفى ص ٤٥ من الكتاب تعرض لأخطاء مزعومة فى القرآن من ناحية القواعد العربية والأسلوب، وقد ألفنا تلك النغمة فى منشورات بعض المبشرين التى يوجهونها إلى العوام. وأولئك المبشرون يجهلون قواعد اللغة العربية ويجهلون أساليبها . وقد يحرفون الكلم عن مواضعه لهوى فى قلوبهم. لكن هذه النغمة غريبة فى لسان أهل العلم من المستشرقين الذين يَتَّسمون على الأقل بحكم علمهم أن يدعوا أنهم بلغوا من المعرفة بسر العربية مبلغًا يحل لهم أن يكشفوا مواضع الضعف فى أسلوب عربى أجمع العرب على اختلاف أديانهم أنه أرقى[1] أساليب البيان فى لغتهم.

وفى ص ٦٦ بين المؤلف فرائض الوضوء فحذف منها مسح الرأس وهو وارد فى نص القرآن وفى كل كتاب إسلامى يذكر فرائض الوضوء. وإذا كان الأب لامانس قد نقص من الوضوء فرضا فربما كان أراد أن يدارى هذا النقص بزيادة ركن فى أركان الصلاة. قال فى ص ٦٧ : تفتتح الصلاة بالتكبير. وهو يقول : الله أكبر، ويلى ذلك قراءة أول سورة من القرآن، وهى الفاتحة فتلاوة الشهادة إلخ، وتلاوة الشهادة بعد الفاتحة لايعرفها المسلمون ركنا من أركان الصلاة. وفى ص ٦٩ «ومادام الحاج محرما فإنه يظل مكلفًا بالإمساك عما يمسك عنه الصائم فى رمضان» - ولاندرى من أين جاء للمؤلف أن المحرم يجب أن يمسك عن الطعام والشراب؟ وفى صفحة ٨٦ أن أقدم كتب المسانيد فى الحديث هو مسند الإمام أحمد بن حنبل! وللشافعى من قبل تلميذه أحمد بن حنبل مسند مطبوع ومن قبلهما أيضا أُلِّفت مسانيد. وفى ص ١١١ : «وإذا أجمع علماء الأزهر على رأى يعم المسلمين فهم لايعلمون أنهم إنما يتكلمون باسم الشافعية. وقد ينبهون إلى ذلك عند الحاجة» والواقع أن مذهب الشافعى ليس هو المذهب الوحيد، ولاهو المذهب الغالب فى الجامع الأزهر الذى تدرس فيه المذاهب الأربعة . وفى ص ٢٢٥ خلط المؤلف بين المجمل والمفصل والعام والخاص. وفى ص ٢٣٨ أن لاشىء فى شريعة القرآن يحول دون تزوج المسلم بامرأة غير مسلمة. والذى لاتعارضه شريعة الإسلام هو تزوج المسلم بالكتابية.

---

(١) فالقرآن فى لغته وأسلوبه معجز ﴿ ... فأتوا بسورة من مثله ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة].

«أما بعد فـإنا نسر بما نرى من عناية المستشـرقين الأوربيين بدرس الإسلام وتاريخه على الأساليب العلمية الحديثة ونثنى على مايبذلون من جهد فى خدمة المعارف الإنسانية من هذه الناحية ونعـترف بفضل كثيـر منهم على المباحث الإسلاميـة. ونرجو أن يتأسى بهذه الجـهود الشريفـة من هم أحق بدرس الإسلام وتاريخ الإسلام، توقـيع / مصطفى عبد الرازق.

أقول : أول مـايتبادر إلى ذهن القـارئ من عرض شيـخنا مصطفى لما كتـبه القس لامانس ومناقشته إياه، هو القول اللين فى مواجهة قس جزويتى يجمع بين الجهل وسوء القصد. إنه يحرِّف الكلم عن مواضعه ليشترى به ثمنا قليلا، متاع زائل، فى دنيا فانية. حقا إنه ليس بعد الكـفر والجحد، والجاهلية الجهـلاء ذنب! وما أعظم العدل والإنصاف يقيمـهما الإمام أو غـيره لإصلاح حال العبـاد والبلاد! وفى الحديث الشريف: «سـبعة يظلهم الله يوم الـقيـامة، يـوم لاظل إلا ظله: أولهم الإمـام العادل. . .» وأعـود إلى «اللين» الذى طبقه شيخنا فـيما كتب. إنه خُلُق إسلامى، نطبقه حتى مع الكفرة. وفى ذلك يقول تعالى، مخاطبا موسى وهـــارون : ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)**﴾ [طه].

وأقول : إن هذا الموقف من أستاذنا الشيخ مصطـفى يذكر بموقف مماثل وقفه السيد جمال الدين الأفغـانىْ فى مواجهة المتعصب الفـرنسى السربونى إرنست رينان، إذ التزم الأفغانـى بالنص القرآنى والأدب الإسلامى، أما رينان، وبعنوان جـذاب، هو «الإسلام والعلم» فقد ذهب يطعن فى الإسلام والمسلمين بالباطـل، وبلا حياء. وقد عاب البعض على شيـخنا الأفغانى (لينه فى القـول) فى مواجهـة هذا المتعصب المتـعسف. ولم يكن مافعله إلا ما أمر به ديننا. (وانظر - بند ١٩ من كتـابى «جمال الدين الأفغانى - موقظ الشرق وحكيم الإسلام»).

الإمـــام الشـــافعى

(ذكريـــات)

بنـــــد : ١١

فيـما يلى إهداء كتابى «مـحمد فريد وجـدى» إلى من :؟ «إلى فقيـهين عظيمين، وإمامين جليلين: وإلى أرض طيبـة مباركة، أرض الفسطاط وجامع عـمرو بن العاص، حيث كنت أسكن، ولفترة غير قصيـرة، فى مكان مرتفع، وكان ضريحا هما فى مرمى بصرى، وكان علمهما وفقههما دائما وسيبقى - محل اهتمامى وتقديرى.

إلى رفيق أثير كان مازال صبيا، حيث كنا نتردد على مسجديهما تبركا وتيمنا، إلى ذكريات غالية . . إلى أرواح محمد بن إدريس الشافعى، والليث بن سعد، والشهيد - ابنى العزيز - محمد قطب - أهدى هذا الكتاب!!

وأنتقل إلى باريس، حيث كنت أقيم - بعضًا من عام ١٩٥٢ - وبعضًا من عام ١٩٥٣ . يرعى الله تلك الأيام، من أيام الكفاح الحلو، حيث لم آخذ قط، فى أى ليلة، كفايتى من النوم!! كنت شبه مقيم، فى فترتى الصباح والمساء بمكتبة كلية الحقوق، بجامعة السوربون، حيث لم يتح لى، ولزمن طويل، أن أشاهد اللحظة، أو اللحظات، التى يلتقى فيها النهار الذاهب، مع بداية الليل (ولا أقول مغرب «الشمس»، التى لاتظهر هناك إلا نادرًا).

هكذا كان شأنى مع مكتبة كلية الحقوق؛ أما المكتبة الأهلية، وهى من أكبر مكتبات العالم، وفيها الكثير من الذخائر والنفائس التى لاتقدر بثمن، أما هذه المكتبة فقد كنت أتردد عليها بين وقت وآخر. ومما كان يلفت نظرى فيها كثرة القساوسة الشبان!! وذات يوم كنت أقرأ فى أحد مؤلفات الفقيه الفرنسى - ذى الشهرة العالمية ديجى، وينطقها البعض «دوجى»[1] قرأت له - فى هذا المؤلف - قوله : كنت قد رأيت فى «موضوع كذا. . .» رأيا، وتابعنى فيه، ونوه به كثير من الفقهاء . واليوم أرى أنى قد أخطأت، لقد كنت مخدوعًا. إنى (والكلام له)- أرى (أى الآن) كذا وكذا. . .

وجاء الشافعى - ولا أحد سواه، من فقهائنا - إلى خاطرى. فقد كان له - وعلى مدى زمن طويل، فقهه الخاص، فى المسائل الشرعية المختلفة، ولما قدم إلى مصر، وإلى بيئتها الجديدة عليه، كان له فقهه الآخر، الذى عُرِف بالمذهب الجديد، تمييزًا له عما سبقه، أى عن المذهب القديم.

ويرحم الله الشافعى، ويرحم الله الجميع. إن تراثهم الفقهى ثروة قليلة النظير !! هذا؛ والفصل (أو البند التالى من الكتاب) عن «الشافعى واضع علم أصول الفقه».

الشافعى واضع علم أصول الفقه[2]

بند ١٢:

نشرت الرسالة لصاحبها ورئيس تحريرها المسئول المرحوم أحمد حسن الزيات، فى أعدادها أرقام ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ دراسة ممتازة عنوانها «الشافعى واضع

(١) وعنه، كتبت فصلا طويلا فى رسالتى للدكتوراه.

(٢) نص محاضرة ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية؛ هذا، وأول الأعداد نشر فى ١١/١٢/١٩٣٣، والباقى فى الأعداد التالية، وكانت الرسالة وقتئذ تصدر كل أسبوع.



علم أصول الفقه» (للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة - حاليا) . بدأها بما يلى : «الشافعى هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء : أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ - ٧٦٧م؛ وأبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى المدنى المتوفى سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥م؛ وأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المكى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ - ٨٢٠م، وأبى عبد الله أحمد بن حنبل البغدادى المتوفى ٢٤١ هـ- ٨٥٥م.

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم الذين استقرت مذاهبهم فى الفقه الإسلامى بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام. وتلاشى ماعداها من المذاهب كمذهب الحسن البصرى المتوفى سنة ١٦١ هـ - ٧٧٧م؛ ومذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى المتوفى ٢٤٠ هـ - ٨٥٤م؛ ومذهب محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ - ٩٢٢م. وطالت مدة المذهب الظاهرى الذى أسسه داود بن على الأصفهانى - المتوفى سنة ٢٧٠ هـ - ٨٨٣م، وزاحم المذاهب الأربعة ودرس بعد القرن الثامن. والتنافس بين المذاهب الأربعة على . . . الانتشار قديم. . . . ولعل بعض آثاره لاتزال باقية إلى اليوم. . . (ورغم مالهذا التنافس من جوانب سلبية، إلا أنه فى أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكرى، وتسابق إلى الإتقان. .فى البحث العلمى) وحرص على جدارتها لمواجهة أى مستجدات. لاجرم كان التراث الفقهى الإسلامى من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقهين.

وقد تبارى أتباع المذاهب المختلفة فى الإشادة بمناقب متبوعيهم، ولاتخلو فى الغالب من العصبية لإمام على إمام. . بل إنها «لاتخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان وعلى الأحلام والرؤى» ومن أمثلة ذلك ماورد فى كتاب مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة. . لابن البزاز الكردى (المتوفى سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٣م) «من عقد فصل لصفة الإمام فى التوراة» (عدد الرسالة رقم ٢٣ ص ١٩).

وبعد هذا التقديم، يقول شيخنا عليه الرحمة والرضوان: «غرضنا من هذا البحث أن ندرس مايتعلق بأثر الشافعى فى تكوين «العلم الإسلامى» ولما كان وصف هذا الأثر يستدعى تصوير شخصيته «فإنى أجعل هذا البحث من قسمين» :

أ - مايتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه، من مولده ونشأته وسيرته.
ب - مايتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم أصول الفقه.

وعن النشأة والسيرة امتد البحث وشمل ماجاء منه فى الرسالة إلى الأعداد ٢٣ و٢٤، وعن هذا العدد الأخير، أنقل : «ذكروا أن الشافعى كان فى أول الزمان فقيرا



ولما سلموه إلى المكتب ماكانوا يجدون أجـرة المعلم، وكان المعلم يقصر فى التعليم، إلا أن المعلم كلما علم صبـيا شيئا كان الشافـعى يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء، فنظر المعلم فوجد أن الشافعى يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى يطمع فيها منه، فتـــرك طلب الأجـــرة. واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القـــرآن كله لسبع ســنين.

ويروى عنه أنه كان يحدث عن طفولته فيـقول : « وكانت نهمتى فى شيئين - فى الرمى وطلب العلم»، ويظهر أن حب الرمـاية لم ينزعه من بين جوانب الشـافعى جلال السن وجلال الإمامـة. ومن أقواله : «لما ختمت القرآن دخلت المسجـد أجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسـألة، وكان منزلنا بمكة فى شِعب الخيف. وكنت فقـيرا، بحيث لا أملك ما اشترى به القراطيس فكنت آخذ العظم أكـتب فيه، وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها».

وفى بداية المقـال الثـالث (ص ١٩ ومابعـدها من العـدد الخامـس والعشـرين من الرسالة). يقول : وكان الشافعى فى أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب. . . ثم توجه إلى الفقه - وتفقه أول أمره على مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة عام ١٨٠ هـ - ٧٩٦م مولى بنى مخزوم. ويقولون : إن مسلم قال للشافعى : افت يا أبا عبدالله، فقد آن لك أن تفتـى. وكان الشافـعى وقتـئذ دون العشـرين. . ورحل الشافـعى إلى المدينة ليطلب العلم عن مالك بن أنس الذى لاحظ نبوغه وفقره فساعده، وبقى بالمدينة إلى أن توفى مالك. . . وخرج الشافعى إلى اليمن حيث استعمله واليها فى أعمال كثيرة، وكان موفقا فأحبه الوالى والناس. وكادت الولاية تشـغله عن العلم، حتى نبهه بعض شيوخه فانتبـه. . ثم قدم إلى المدينة حيث لقى ابن عـيينة الذى قال له : قد بلغنا ولايـتك فما أحسن ما انتشر عنك. . . ويقولون: إن الشافعى جمع كتب الفراسة من اليمن، واشتغل بها حتى مهر فيها. . . ثم إن الحسـاد سعوا إلى هارون الرشيد. إذ كتب إليه أحد قواده يخوفـه من العلويين، وذكر فى كتـابه أن الشافعى يعمل بلـسانه مالايقدر عليـه المقاتل بسيفه فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك. وحمل الشافعى مع العلوية إلى العراق (كانوا تسعة وهو عـاشرهم). وأدخلوا على الرشيد وكان معه قاضـيه محمد بن الحسن الشيبانى (أحد أصحاب أبى حنيفة). وكانت شفاعة الشيبانى سبب خلاصه. وقد قرأ الشافعى كتب محمد بن الحـسن الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩ هـ. . ولازمه وأخذ عنه وقدم الشافعـى - بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ فأقام سنتين، واشتـهرت مكانته فى العراق وسار ذكره فى الآفاق، وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون.

وبعد جولات وتنقلات خرج إلى مصر (عام ١٩٨ - أو - ١٩٩ هـ) - إذ استصحبه العباس بن عبد الله بن العباس. . . فصحبه. وهناك روايات أخرى فى سنة قدومه. وهى متقاربة، وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحى. . وقضى حياته فى مصر مابين تأليف وتدريس ومناظرة، وسعى فى بث مذهبه، ومدافعة كيد خصومه. وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والإفادة فى جامع عمرو. ورغم أنه كان مصابا بنزيف من الباسور فقد فعل الكثير. قال الربيع تلميذه: أقام الشافعى ها هنا أربع سنين. فأملى ألفا وخمسمائة ورقة. وأخرج كتاب «الأمّ» (ألفى ورقة) وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها فى مدة أربع سنين. ولم يكن انصرافه للفقه وحده، بل للقرآن والحديث واللغة، والعروض والشعر والنحو، والطب، وكل ذلك يدل على ماكان من شغف الإمام بالعلم[1] كله وهناك روايتان إحداهما تقول: إنه طلب أن يقوم الوالى بغسله، وفسر الوالى ذلك بأنه يعنى سداد ديونه، وقد فعل. والرواية الأخرى تقول: قال الشافعى: أفلست ثلاث مرات، فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى ابنتىّ وزوجتى ولم أستدن قط. وكان زواج الشافعى من حميدة بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان. فولدت له (أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب (وفاطمة وزينب).

وفى العدد السادس والعشرين من الرسالة (ص ٢٠ ومابعدها) نجد الجزء الرابع من الدراسة (أو المحاضرة) وتحت عنوان «الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعى» نقرأ: كان التشريع فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام يقوم على الوحى : من الكتاب، والسنة. وعلى الرأى من النبى ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه، بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى. وتفصيل وجوهه، وبدون تنازع ولاشقاق بينهم.

وفى عهد الراشدين (من سنة ١١ هـ - ٦٣٢م - سنة ٤٠ هـ - ٦٦٠م، وقد اتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس في الوقائع التى لانص فيها من غير نكير من أحد منهم. وفى هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع، بما كان يركن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة، وكانوا وقتئذ قلة لايتعذر معرفة الاتفاق بينهم فى حكم من الأحكام. ولم يكن يفتى من الصحابة إلا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالته، وناسخه ومنسوخه، وكانوا يسمون «القُرَّاء» لذلك، وتمييزا لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب فى أمة أمية لاتقرأ ولاتكتب. ثم

(١) إن مايقال من شغف الإمام الشافعى بالعلم كله، يقال فى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ مصطفى - وهذا لا يتأتى إلا من الحب (حب العلم) وسأفصل ذلك فيما سيأتى بإذن الله.



كان عـصر بنى أميـة من سنة ٤٠ هـ إلى سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩م. ، وتكاثر الممـارسو، للقراءة والكتابة من العرب، ودخلت فى دين الله أمم ليـست أمية. وبدلا من استخدام لفظ «القـراء» استـخدم لفظ «العلم» للـدلالة على حفظ القـرآن ورواية السنن والآثار، وسمى أهل هذا الشأن «العلمـاء» واستخدم لفظ «الفقـه» للدلالة على استنباط الأحكام الشرعـية بالنظر العـقلى فيمـا لم يرد فيه نص كـتاب ولاسنة. وسـمى أهل هذا الشأن الفقـهاء، فإذا جـمع امرؤٌ بين الصفـتين جمع له اللفظان أو مـايراد فهمـا. . . قال ابن عبدالبر: من كره كتاب العلم كرهه لوجـهين: أحدهما ألا يتخذ مع القرآن يضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب عـلى مايكتب فلا يحـفظ فيقل الحفظ. ولما انـقرض عهد الصـحابة مابين تسعين ومائة من الهجرة، وجاء عـهد التابعين، انتقل أمر الفتوى والعلم بالأحكام إلى الموالى إلا قليلا، عندئذ تـضاءلت النزعة العربيـة إلى حظر التدوين وصارت كـتابة العلم أمرا لازما. عن سعد بن إبراهيم قال : أمر عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠م) بجمع السنن فكتبناها دفترا دفترا فبعث إلى كل بلد له عليه سلطان دفترا.

وقد بدت مخـايل نهضة فى التشـريع الإسلامى منذ ذلك العهد . فـحصل تدوين بعض السـنن وبعض المسـائـل، ولم يصل إلينا من تـلك المدونات إلا صـدى. يـقـول جولدتسيـهر: وينبغى ألا يعطى كبـير ثقة لما نُسب لهشـام بن عروة من أنه فى يوم المرة حُرقت لأبيه كتب فقه، ولايمكن أن نتصور بحـال أنه فى ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصـحيح، إنما هى صحـائف متفرقـة، وتوفى عروة سنة ٩٤ هـ (٧٠٢م) التى كانت تسمى (سنة الفـقهاء) لكثرة من مات فيها مـنهم. وبالجملة فإنه إذا كان دون شيء لضبط معاقـد القرآن والحديث ومعانيهـما فى عهد بنى أمية فإن الـتدوين فى الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا فى عـهد العباسيين. . . إن أقدم مـاوصل إلينا من المصنفات الفقـهية هو من مؤلفـات الشيعة الـزيدية (توفى زيد بن على عام ١٢٢ هـ - ٧٤٠م). يقول شيخنا الشيخ مصطفى: «ومن أسف أن هذا البحث لم يثره مسلمون، ولا أثير فى بلاد الإسلام».

جاء عهد العباسيين منذ ١٣٢ هـ - ٧٤٩ - ٧٥٠م. وكان طبيعيا أن تنتعش العلوم الدينية فى ظـلهم، فقد اقـتضى ضبط أمـور الدولة على منهاج شـرعى جمع الأحكام الشرعية وتدوينها. وقد كان المثل الأعلى للسياسة الفارسية هو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة.

عن العدد الـسابع والعشـرين من (الرسالة ص ٢٢ ومـابعدها) الجـزء الخامس من الدراسة. وتبدأ كالآتى : وفى صدر العهد العبـاسى تمكن الاستنباط واستقرت أصوله.

وجعل لفظ «الفقه» ينتهى بالتدريج إلـى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلى، أى الاستنبـاط من الأدلة التى ليست نصوصـا؛ وأصبح المعنى الأول للفـقه هو : «الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التـفصيلية، نصوصا كانت أو رأيا، وسمى أهل هذا الشـأن بالفقـهاء، ونشـأ التأليف فى الفـقه بهـذا المعنى، وانقسم الفـقه إلى طريقـتين: أ- طريقة أهل الرأى والقياس وهم أهل العراق، ب- وطريقة أهل الحديث وهم : أهل الحجاز. - أهل الرأى وأهل الحـديث : ويعتبـر «أبو حنيفة» أبا لأهل العـراق، أسسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان «أبو يوسف القاضى المتوفى سنة ١٨٢ هـ - ٧٩٧م ومحمد بن الحسن الشيبـانى المتوفى سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٤م» ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتـوفى سنـة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ - ٧٣٨م هو أول من جـمع حـوله طائفـة من التلاميذ يعلمهـم الفقه مع ميل غالب للرأى (وكان أبو حنيفة أحـد هؤلاء التلاميذ) فإن حمادا لم يتـرك أثرا علميا مكتوبا، أما أبو حنيـفة فيقول صـاحب الفهرست : وله من الكتب كتاب الفقه الأكبر . . (وذكر كتبا أخرى. .) ويذكر الموفق بن أحمد المكى الحنفى فى كتابه «مناقب الإمام». . . وأبو حنيفة أول من دون علم هذه الشـريعة لم يسبقه أحد ممن قبله؛ لأن الصـحابة والتـابعين لم يضعوا فى علم الشـريعة أبوابا مـبوبة، ولا كتـبا مرتبة، إنما كـانوا يعتمدون على قـوة فهمهم، وجعلوا قلوبهم صناديـق علمهم. . فنشأ أبوحنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف[1] عليه الخلف السوء فيضـيعوه. ولهذا قال صلى الله عليـه وسلم : إن الله تعالى لايقبض العلم يـنتزعه انتـزاعا من الناس، وإنما ينتزعه بموت العلماء، فيـبقى رؤساء جهال فيفتون بغـير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون؛ ولذلك دونه أبو حنيفـة فجعله أبوابـا مبوبة وكتـبا مرتبـة، وبدأ بالطهارة. . . ثم خـتم بكتاب المواريث. . ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا وفرعوا. . ولذا قال الشافعى «العلماء عيال على أبى حنيفة فى الفـقه» وقد قيل : بلغت مسـائل أبى حنيفة خمسمـائة ألف مسألة، وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك. وجملة القول أن مذهب أهل الرأى هو الذى رتب أبواب الفقـه، وأكثـر من جمع مسـائله فى الأبواب المختلفـة. وكان الحديـث قليلا فى العراق؛ فاستكثروا من القياس، ومـهروا فيه، ولذلك قيل «أهل الرأى». وإنما كان أهل الحجاز أكثـر رواية للحديث من أهل العراق؛ لأن المدينة دار الهجرة ومـأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغـيره من شئون الدولة أكثر. ومذهب

---

(١) أقول : إن العلمـاء العظام الذين أقامـوا وأنشأوا «العلوم» (كل فى تخـصصه) إنمـا قالوا وكتـبوا وسجلوا، لا ليقال عنهم إنهم قالوا. . . وإنما فعلوا لإحساسهم بالمسئولية نحو الإنسان، أيا كان. . إننا لانرى هؤلاء «أفـرادًا» كسائر الأفـراد، وإنما براهم «قمـما وأممًا. إن هذا ليس شـأن «العلماء» وحدهم، وإنما هو شأن كل بناة الحضارة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً... ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل].

أهل العراق كـان يقصد إلى جعل الفـقه وافيا بحاجـة الدولة التشريعيـة، فكان همه أن يجعل الفقه فصولا مـرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفـتاء. وكان همه كثر التفاريع لمواجهة مايجد من الحوادث. بحق كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء، وكان أئمتـه قضاة كـأبى يوسف ومحمـد. وكان أهل الحديث يعـيبون على أهل الرأى كـثرة مسـائلهم وقلة روايتهم، أمـا أهل الحديث - أهل الحـجاز - فـإمامهم مـالك بن أنس وكانت طريقة أهل الحجاز فى الأسانيد أعلى من سواهم.. لاشتدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبـول «المجهول الحال» فى ذلك. وكتب مالك كتاب «الموطأ» أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه، ورتبه على أبواب الفقه، ويقول صاحب الفهرست فـى سرد كتب مالك: له «الموطأ - كتاب رسالـته إلى الرشيد.. إلى آخره». وكان أهل الحجاز يعتبرون الرأى ضرورة لايلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان.

وروى عن مالك أنه قال فى بعض ماكان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه «إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن. وكان أهل الحديث مع ذلك لاينكرون اجتهاد الرأى والقياس على الأصول فى النازلة تنزل عند عدم النصوص.

الشافعى بين أهل الرأى وأهل الحديث

ظهر الشافـعى فوجد نهضة الدراسـة الفقهية، فى بلاد الإسـلام، نهضة ترمى إلى الوفاء بالحاجة العـملية التى تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً. ومن انقسـام الفقهاء، إلى أهل رأى.. وأهل حديث لايأخذون من الرأى إلا بما تدعو إليه الضرورة.

أنتقل إلى الجزء السادس من «المحاضرة» (البحث الممتاز) (ص ١٩ من عدد الرسالة رقم ٢٨ - ١٥ يناير سنة ١٩٣٤م) مـاذا وجد الشافـعى حين جاء: وجـد أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن وأنهم ليـسوا للسنة أنصاراً، فأصحاب أبى حنيفة يقدمون القياس الجلى على خبر الواحد، وهم يقبلون المراسيل والمجاهيل (أى الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكـر الصحابى الذى روى الحديث، أمـا المجاهيل فهم مجـهولو الحال من الرواة) ثم لايقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخـالفا للقياس ولايقبلونه فى الواقعة التى تعم بها البلوى.

وقد تفقه الشـافعى أول ماتفقه على أهل الحديث من علمـاء مكة كمسلم بن خالد الزنجى وسـفيـان بن عيـينه، ثم ذهب إلى إمـام أهل الحديث مـالك بن أنس فى المدينة

فلزمه، ولقى من عطفه ومن فضله ماجعله يحبه ويجله. روى عن الشافعى قوله : إذا ذكر العلماء فمالك النجم. على أن نشأة الشافعى لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث، ولا استعداده استعدادهم، لقد توجه أول أمره إلى درس الفقه والشعر والأدب وأخبار الناس، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لايرونها من العلم النافع. وكان الشافعى بطبعه نهمًا فى العلم، يلتمس كل مايجده من فنونه.. اشتغل بالفراسة.. وعالج التنجيم والطب. وكان مغرمًا بالرمى طول حياته.. ويظهر أنه لم يكن شديدًا فى جرح الرجال كعادة أهل الحديث. وكان من العلماء المعاصرين له من لايراه ممعنا فى الحديث، ولما ذهب إلى العراق لاحظ تحامل أهل الرأى على أستاذه مالك وعلى مذهبه.

وكان أهل الرأى أقوى سندًا أو أعظم جاها بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتوليهم شئون القضاء، ذلك إلى أنهم أوسع حيلة فى الجدل من أهل الحديث، وأنفذ بيانًا، ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية إمامى أهل الرأى وأهل الحديث: أبى حنيفة ومالك: روى الطبرى قال: كان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فيمن ضربه، وفى السبب الذى ضرب فيه. قال: فحدثنى العباس بن الوليد قال: أخبرنا ذَكْوَان عن مروان الطاطرى أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث «ليس لمستكره طلاق»[1]. ثم دس إليه من يسأله عنه فحدث به على رءوس الناس. أما أبو حنيفة فينقل فى شأنه عن الهروى، يقول : اجتمع أبو حنيفة ومحمد بن إسحاق عند أبى جعفر المنصور وكان عنده جمع من العلماء والفقهاء من سائر الأمصار لأمر حَزَبَه، وبعث إلى أبى حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذى وقع له إلا أبو حنيفة . وكان محمد ابن إسحاق يحسده لما يرى من تفضيل المنصور وتقديمه له واستشارته فيما ينوبه. وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغير المنصور عليه. فقال له: ماتقول يا أبا حنيفة فى رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا، أو يفعل كذا وكذا ولم يقل إن شاء الله موصولا باليمين، وقال ذلك بعد أن فرغ من يمينه وسكت. فقال أبو حنيفة : لاينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعًا من اليمين وإنما كان ينفعه إذا كان موصولا به. فقال: وكيف لاينفعه، وقد قال جد أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن استثناءه جائز ولو كان بعد سنة، واحتج بقوله عز وجل: ﴿ ... **وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**... (٢٤) ﴾ [**الكهف**]. فقال المنصور لمحمد بن إسحاق: أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه؟ قال : نعم : فالتفت إلى أبى حنيفة، وقد علاه الغضب. فقال:

---

(١) وهذا يعنى أن من بايع، يستطيع أن يرجع فى بيعته بحجة أنه استكره على البيعة.

تخالف أبا العباس؟ فقال أبوحنيفة: لم أخالفه. ولقول أبى العباس عندى تأويل يخرج على الصحة ولكن بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من حلف على يمين واستثنى فلا حَنَثَ عليه». وإنما وضعناه إذا كان موصولا باليمين. وهؤلاء لايرون خلافتك؛ لذلك يحتجون بخبر أبى العباس، فقال له المنصور: كيف ذلك. قال: لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقية، وإن لهم الثنيا متى شاءوا يخرجون من بيعتك، ولايبقى فى أعناقهم من ذلك شىء. قال هكذا؟ قال: نعم. فقال المنصور: خذوا هذا، يعنى محمد بن إسحاق فأخذ، وجعل رداؤه فى عنقه وحبسوه (نفس العدد ص ٢٠).

وأعود إلى الشافعى (نفس العدد ص ٢١): يقول شيخنا مصطفى عبد الرازق: كان طبيعيا أن يدافع الشافعى عن أستاذه ومذهب أستاذه، وكان مدافعا قويًا، وكان هذا فى قدومه إلى العراق أول مرة، وحيث أقام زمنا غير قصير درس فيه كتب محمد بن الحسن وردَّ على بعض أقواله انتصارًا لأهل الحديث. وقد قال البعض: إنه فعل ذلك لأسباب دنيوية، وردَّ الشافعى بقوله: لست أخالف إلا من خالف سنة رسول الله. ولما عاد الشافعى إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ (٨١٠ - ٨١١م) ليقيم فيها سنتين اشتغل بالتدريس والتأليف.

واختلف إلى دروس الشافعى جماعة من كبار أهل الرأى كأحمد بن حنبل وأبى ثور، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى إلى مذهبه. ووضع الشافعى فى بغداد كتاب «الحجة» يقول: عمدت إلى كتب محمد بن الحسن فنظرت فيها سنة حتى حفظتها، ثم وضعت الكتاب (أى فى الرد عليه). ويروى عنه قوله: سُمِّيت ببغداد ناصر الحديث. وللشافعى (فى بغداد) كتب أخرى (كتاب السير). وفى كتاب «كشف الظنون» - «الحجة» للإمام الشافعى، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق. ويطلق على هذا الكتاب، وما أفتى به (وهو فى العراق) (القديم من مذهبه).

ثم انتهى الشافعى إلى مصر: فآزره تلاميذ مالك حتى إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلف الكتب ردًا على مالك تنكروا له وأصابته منهم محن. ويروى البعض أن الشافعى إنما وضع الكتب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يُستسقى بها. وكان يقال لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: قال مالك. فقال الشافعى: إن مالكا بشر يخطئ، فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه. وكان يقول: استخرت الله تعالى فى ذلك. ومذهب الشافعى الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته، وينم عن عبقريته، ويبرز استقلاله. سُئل أحمد ماترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين، أهى أحب إليك أم التى بمصر؟ قال: عليك بالكتب

التى وضعها بمصر، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك الكتب.

وبالعدد التاسع والعشرين من الرسالة (ص ٢٥ ومابعدها) نجد الجزء السابع والأخير من الدراسة. وفيه يقول شيخنا العالم المحقق المدقق، الطويل الباع فى العلم والفقه وغيرهما: ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب. وقد سردها البيهقى، ولخصها عنه ابن حجر (الرسالة القديمة - ثم الجديدة - اختلاف الحديث - جماع العلم - إبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بيان الفرض - صفة الأمر والنهى - اختلاف مالك والشافعى - اختلاف العراقيين - اختلافه مع محمد بن الحسن - كتاب على وعبد الله - فضائل قريش - كتاب الأم وعدة كتب الأم مائة ونيف وأربعون كتابا. وحمل عنه حرملة كتابا كبيرا يسمى «كتاب السنن» وحمل عنه المزنى كتابه «المبسوط» وهو المختصر الكبير والمنثورات وكذا المختصر - المشهور - قال البيهقى : وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها - وهى - الصيام - والصداق - والحدود - والرهن - والإجارة - والجنائز، فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه فى الجديد وأمر بتحريق مايغاير اجتهاده. قال: وربما تركه اكتفاءً بما نبه عليه من رجوعه عنه فى مواضع أخرى.

قلت : (والكلام لشيخنا مصطفى) (وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيرا من الإشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعى الرجوع عنها وهى موجودة فى بعض هذه الكتب. ثم نقل ابن حجر أن لأصحاب الشافعى من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات . قال: وهذا يدل على أن كتبا أخرى حملها عنه هؤلاء؛ لأن هذه المسائل ليست فى الكتب المتقدم ذكرها) - وقد ترك ابن حجر فى تلخيصه: كتاب مسند الشافعى، ولاندرى : إن كان البيهقى قد تركه أيضا أم لا؟ ويقول الرازى: (إن كتابه المسمى بمسند الشافعى كتاب مشهور فى الدنيا).

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعى إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية عندما تكون دلائلها نصوصا. وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضا لذكر الدلائل من أهل الرأى، فلما جاء الشافعى بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين، ولاحظ مافيهما من نقص بدا له أن يكمله وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد فى طريقة الاستنباط. وذلك يشعر باتجاهه فى الفقه اتجاها جديدا هو اتجاه العقل العلمى الذى لايعنى بالجزيئات والفروع. ويدل على أن اتجاه الشافعى لم يكن إلى تمحيص الفروع مانقله ابن عبد البر فى «الانتقاء» من أن أحمد بن حنبل قال: قال الشافعى لنا: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال منى. فإذا كان

الحديث صحيحا فأعلمونى أن يكون كوفيا، أو بصريا، أو شاميا، أذهب إليه إذا كان صحيحا. وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه. قال أبو محمد بن أخت الشافعى عن أمه قالت ربما قدمنا فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدى الشافعى. وكان يستلقى ويتذكر، ثم ينادى : ياجارية هلمى مصباحًا فتقدمه فيكتب مايكتب ثم يقول: ارفعيه. فقيل لأحمد: ما أراد برد المصباح؟ قال: الظلمة أجلى للقلب. (مفتاح السعادة - جـ٢ ص ٩١)[1] . وليس هذا النوع من التفكير الهادئ فى ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع. بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وذلك هو النظر الفلسفى. قال ابن سينا فى الشفاء: «إنا لانشتغل بالنظر فى الجزئيات لأنها لاتتناهى وأحوالها لاتثبت، وليس علمنا بها من حيث هى جزئية لاتفيدنا كمالاً حكميا أو تبلغنا غاية حكمية. بل الذى يهمنا هو النظر فى الكليات. وكان أحمد يقول: الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء: فى اللغة - واختلاف الناس - والمعانى - والفقه. (الرازى ص ٣٥)، وقد حاول الشافعى أن يجمع أصول الاستنباط الفقهى وقواعدها علما ممتازا، وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم. وبهذا يمتاز مذهب الشافعى من مذاهب أهل العراق وأهل الحجاز .

د - وضع الشافعى لعلم أصول الفقه : إذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية، فهو - أيضا - أول من وضع مصنفا فى العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمى بتصنيفه فى أصول الفقه. قال الرازى: اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم - أى علم أصُول الفقه - الشافعى، وهو الذى رتب أبوابه، وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها فى القوة والضعف. وروى أن عبد الرحمن بن مهدى التمس من الشافعى - وهو شاب - أن يضع له كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص فوضع الشافعى «الرسالة» وبعثها إليه، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال: ما أظن أن الله عز وجل قد خلق مثل هذا الرجل. ثم قال الرازى : «واعلم أن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم «المنطق» وكنسبة الخليل بن أحمد» إلى علم «العروض»؛ وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن ماكان عندهم قانون مخلص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين. فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة، فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى قلما أفلح. فلما رأى أرسطاليس ذلك اعتزل عن الناس

(١) هكذا يذكر شيخنا مراجعه - دائما - أما أنا فلا أفعل، لأنى أكتب عرضا متواضعا لقارئى. ثم إنى أتجاوز فقرات كثيرة.

مدة مديدة واستخرج «علم المنطق» ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة الحدود والبراهين. وكذلك الشعراء كانوا قبل «الخليل بن أحمد» ينظمون أشعارًا، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخرج لهم «الخليل بن أحمد» علم العروض، فكان ذلك قانونا كليا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده، فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون فى مسائل «أصول الفقه» ويستدلون ويعترضون، ولكن ماكان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة، وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعى علم أصول الفقه، ووضع للناس قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع. ثم يقول الرازى: واعلم أن الشافعى ألف كتاب «الرسالة» ببغداد، ولما قدم إلى مصر أعاد تصنيف الكتاب، وفى كل واحد منهما علم كثير (ص ٩٨ - ١٠٢).

ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى - المتوفى ٧٩٤هـ - ١٣٩٢م فى كتابه فى أصول الفقه المسمى بالبحر المحيط «فصل» الشافعى أول من صنف فى «أصول الفقه»: صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان وكتاب جماع العلم - كتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم. ثم تبعه المصنفون فى علم الأصول. قال أحمد بن حنبل : لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى. وقال الجوينى فى شرح الرسالة: لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف «الأصول» ومعرفتها. وقد حكى عن ابن عباس «تخصيص عموم» وعن بعضهم «القول بالمفهوم» ومن بعدهم لم يقُل فى الأصول شىء، ولم يكن لهم فيه قدم فإنا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه.

(من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس) - ويقول ابن خلدون فى المقدمة : وأول من كتب فيه (أى فى علم أصول الفقه) الشافعى. أملى فيه رسالته المشهورة - تكلم فيها عن الأوامر والنواهى، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة، وحكم العلة المنصوصة من القياس. ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضا (ص ٣٩٧)، وفى كتاب «طبقات الفقهاء» للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى : وابتكر الشافعى مالم يسبق إليه، من ذلك «أصول الفقه» فإنه أول من صنف «أصول الفقه» بلا خلاف. ومن ذلك «كتاب القسامة، وكتاب الجزية - وكتاب قتال أهل البغى» (من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس).

ويقول صاحب كتاب «كشف الظنون» - وأول من صنف فيه الإمام الشافعى، ذكره الأسنوى فى التمهيد وحكى الإجماع فيه (ص ٣٣٤). والباحثون فى هذا الشأن من

الغربيين يرون فى «الشافعى» واضعا «لأصول الفقـه». يقول (جولدتسيهر) فى مقالته فى كلمة (فقـه) فى دائرة المعارف الإسلامية : وأظهـر مزايا محمـد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الفقه وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول. وقد ابتدع فى «رسالتـه» نظاما للقياس العقلى الذى ينبغى الرجـوع إليه فى التشريع من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشـأن المقدم ريث الاستنباط من هذه الأصول ووضع القواعد لاسـتعمالهـا بعد أن كان جزافا، على أنا نجـد فى كتاب الفهـرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى «كتاب أصـول الفقه». ويقول الموفق المكى فى كتابه (مناقب الإمام الأعظم) نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر: أن أبا يوسف أول من وضع الكتب فى «أصـول الفقه» على مـذهب أبى حنيفـة (جـ ٣ ص ٢٤٥) ونقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه «مفـتاح السعادة جـ٢ ص ١٠٣» ولم يرد كتاب فى هذا العلم فيما أورده صـاحب «الفهرست» لأبى يوسف من الكتب، وإذا صح أن لأبى يوسف أو لمحمد كتابا فى أصول الفقه، فهو - فيما يظهر - كتاب لنصرة ماكان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبـه أهل الحديث من الاستحـسان، وقد يؤيد ذلك أن صاحب «الفـهرست» ذكر فى أسماء كتب أبى يوسف كتاب الجوامع ألفه ليحيى بن خالد يحتوى على أربعين كتابا ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به، ولم يكـن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان همهم أن يجمـعوا المسائل ويستكثـروا منها النزوع إلى تقييـد الاستنباط بقواعـد لاتتركه متـسعا رحبـا. على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفـقه) على مذهب أبى حنيفـة لايعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع أصول الفـقه، علمًا ذا قواعـد عامـة يرجع إليهـا كل مستـنبط لحكم شرعى. وقـد لايكون بعيـدا عن غرض الشافعى فى وضع «أصول الفقه» أن يقـرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث، ويمهد للوحدة التى دعا إليها الإسلام.

أقول : لم يكن من شأنى أن أعمد إلى هذه الدراسة الفريدة، والمتميزة فى تفردها، والتى تحمل عنوان «الشـافعى واضع علم أصول الفقـه» - لشيخنا الإمام الأكـبر الشيخ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر - سابقا) لتلخـيصها، أو بعبارة أدق - لنقل «فقرات» أو «أجزاء منـها». إنى أكتـب عن شيخـنا من آثاره، بل من بعض آثاره. ولا أزعم أنى أكتب ترجمة له ومتابعة لآثاره وإنما أكتب شيئًا عنه، وعن هذه الآثار. إن «الدراسة» مثل عظيم كريم فى مادتها، وفى منهجـها، وفى نجاحها فيما قصدت إليـه من إثبات القضية التى عالجتها. إن صاحب الدراسـة «أزهرى» وليس أى أزهرى، وإنما هو امتداد لأستاذه الشيخ محمد عبده الذى كان صديقا لأبيه، والذى عرف مصطفى وهو صبى. ولم ينس مصطفى «القدوة» ولم ينس «الرسالة» التى حملها شيخه.

أعود وأقول : إنما نقلت مانقلت إلى هذه الصفحات من الدراسة التى نهض بها شيخنا الجليل حرصا منى على أن أشرك قارئى فيما استفدته، واستمتعت به من قراءتها. ولقد هيأت الظروف للشيخ مصطفى الأزهرى، الدراسة الطويلة فى فرنسا، والتى عاد منها، وقد جمع إلى «أصالته» الأزهرية «الحداثة» التى يعيشها كبار المفكرين فى فرنسا، قلب العالم النابض ورأسه المفكر. وإذا كان من واجب الكاتب عن أحد الأعلام الكبار أن يقف عند «شأنه وقدره ووزنه» فإنى لم أجد فى دراسته عن «الإمام الشافعى» إلا مايبهر، وإلا مايجب الالتزام به، من الأمانة والدقة، والمناقشات الرحيبة الواعية. الرحمة والرضوان لشيخنا، والدعاء إلى الله أن يوفقنا إلى الاستفادة من سيرته وتراثه.

الأدب العربى قبل الإسلام(١)

بند ١٣٠

ألقى صديقنا الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة فى جامعة الشعب فى مساء الخميس ٨ نوفمبر، موضوعها «الأدب العربى قبل الإسلام، رأينا أن ننشرها تباعا فى السفور. ونبدأ اليوم بنشر القسم الأول منها الخاص «بخلاصة أبحاث الغربيين فى أمر اللغة العربية قبل الإسلام» (نفس المرجع ص ٣٧٦ ومابعدها).

اللغة العربية واللغة الحبشية يكونان الفرع الجنوبى من اللغات السامية الغربية فى مقابلة الفرع الشمالى الجامع للغتى الكنعانيين والآراميين. ويمتاز لسان العرب عن هاتين اللغتين بأنه أكمل منهما استيفاءً للطريقة الصوتية الأولى الغنية بحروف الحلق وحروف الصّفير. وهو أيضا حافظ على الحالة الأولى للتحريك محافظة تامة، وفيه توجد صيغ الكلمات واشتقاقاتها، وصور التصريف على النمط السامى القديم. ومن أجل ذلك يدلون بالأفعال على معان كثيرة.

وفى بلاد العرب طائفتان كبيرتان من اللهجات : طائفة اللغة العربية الجنوبية وطائفة اللغة العربية الشمالية. وهذه فتحت أبوابها للمدنية من بعد تلك. ولكن ثمرتها كانت أكثر بركة من أختها. وليس صحيحا أن أهل البداوة من الشمال فى بلاد العرب لم يعرفوا قبل الإسلام تمدنا فقد ظهرت فيهم فى العهد الفارسى وفى العهد الرومانى من بعده دول عربية ذات مدنيات آرامية، وكانت اللغة الآرامية لسانها المكتوب. وتكاد كل المعانى المتصلة بالحضارة تكون مبينة فى العربية بألفاظ آرامية.

---

(١) السفور - العدد ١٣٣ - السنة الثالثة - الجمعة ١٩١٧/١١/٣٠ - ١٥ صفر ١٣٣٦ هـ.

على أنه منذ زمن قديم قد حفرت فى ذلك القسم من جـزيرة العرب كتابات كثير بلغة وخط قوميين. ولـيست تلك الكتابات ذات معنى خطير بحيث تحـتوى على شئون سياسـية أو دينية ولكنها من عمل رعـاة رحل نقشوا بها أسمـاءهم للأعقاب. وألف باء تلك الكتابات ليست آرامـية، ولكنها نوع من ألف باء اللغة العربية الجنوبيـة المشتقة من الفينيـقية. ولسـان ذلك العهد لم يكن مـوافقا للسـان العربى الفصـيح الذى عرف فى العصور اللاحـقة. فى ذلك اللسان لغة التعـريف هى : ها أو هان لا أل، وقد وجدت آثار عليها كـتابات محفـورة من ذلك النوع مابين دمشق والعلا يرجع عـهدها إلى القرن العاشر بل إلى القرن الثانى عشـر قبل المسيح. وهذه الآثار جُعِلَتْ نماذج ثلاثة : صفوية ولحيـانية وثمودية. وقـد تلاشت هذه الأنماط العتـيقة أمـام الخَط الآرامى الذى هو ثمرة مدنية أرقى خصوصا فى الشكـل الذى صار له عند النبطيين فى أنبار قريب من دمشق، وتاريخه ٣٢٨ مـيلادية، وهو حلية لقبـر ملك عربى ولغتـه تكاد تكون لغة الأدب التى وجدت بعد، مع شىء من صيغ لهجات القبائل أقرته اللغة الفصحى.

ويوجد هذا الـنمط فى المخطوطين اللذين هما أقـدم ماعـرف بعد مخـطوط أنبار، وهما مخطوط ذياد القـرية من حلب الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢ أو سنة ٥١٣م. ومخطوط حوران جنوب دمشق وتاريـخه ٥٦٨، وإلى جانب الأول نص سريانى ونص يونانى، وإلى جانب الثانى نص يونانى فقط.

وإذا لم يكن العـرب قد تركوا من لسـانهم السابق على الإسـلام إلا نقوشـا خطية نادرة فقد كان لهم فى ذلك العهد شعر قومى زاهر. ولم يكن الشعراء فى جميع جهات الجزيرة العـربية، بل كـانوا فى الحجاز ونجـد، وما جاور نجـدًا، ويدخل فى ذلك إقليم الفرات، أما عـرب سوريا الذين كانوا خاضعـين لسلطان الرومانيين فلم يكونوا إلا نقلة للشـعر العربى. وكـل شعراء الجـهات المذكـورة، وإن كانوا من قـبائل مـختلفـة كانوا يستـعملون لغة مشـتركة لها نهج خـاص لم تكن به إلا لغة الشعـر. وليس فى التسليم بوجود لـسان خاص بالشـعر عند العـرب فى زمن لم يكن الشـعر فـيه مكتوبـا موضع التحرص[1]، ففى الأمم البدوية من غير العرب أمثلة لهذا.

ويمتاز اللسان العربى الشعرى بوفرة تعريفـه واشتقاقه، وفى تراكيبه من دقائق النظم مايمثل أرقى ماوصلت إليه اللغات السامية إلى غنًى فى الكلمات عجيب، فهو كان مَعينا تستقى منه جميع لهجات القـبائل. وذلك الغنى فى الألفاظ لايدل على سعة فى معارف العربية ووفرة فى المعانى التى يريدون الدلالة عليها.

---

(١) هكذا فى الأصل؟ ولعلها «التخرص» (أى التخمين)

كان البدوى يراقب جد المراقبة أضعف أحوال وسطه الطبيعى، وخصوصا فيما فيه له نفع شخصى، ويدل بعلامات خاصة على كل التفاصيل الجغرافية للصحراء وعلى جميع الدقائق المتعلقة بالحيوانات، وليس ذلك وقفا على الساميين، بل هو يوجد فى كل الأمم عندما تكون حالتها شبيهة بحال العرب. كان ذلك اللسان الشعرى صالحًا لأن يعرب عن عواطف الحب اللطيفة وعواطف الشرف. وبالرغم من نزوعه إلى الاتصال بالحياة الواقعية فهو مملوء بالخلابة الشعرية. وقد كان يوجد إلى جانب اللسان الشعرى فى بلاد العرب لهجات للقبائل لم يأتنا اللغويون والنحاة بكبير نبأ عنها، على أننا نعرف عن لهجة من هذه اللهجات حق المعرفة، وهى لغة مكة لغة القرآن. وقد يكون فى القرآن شىء من التوفيق بين لغة مكة ولغة الشعر. ويوجد فى كتابة القرآن الأولى علامات تأليف صوتى بَعُدَ بُعْدًا ظاهرًا عن اللغة العربية القديمة لغة الشعر.

ولما زيدت فيما بعد الحركات والعلامات الأخرى على الرسم الذى كان موجودًا وهو رسم الحروف الساكنة فقط، اتبع فى استعمالها طريقة اللسان الشعرى. ولهجات الجهات الشمالية من البلاد العربية لاتبلغ فى اختلافها (فيما) بينها مبلغ مخالفتها للغة ساكنى الجنوب. هؤلاء كانوا يسكنون ديارًا خصبة وكانت لهم بالهند صلات تجارية فوجدت لهم حضارة راقية لعهد طويل قبل المسيح. وقد كانوا اقتبسوا ألف باء الكنعانيين فَوَفَّقوا بينها وبين طريقة كتابتهم الغنية بالحروف الساكنة.

وقد نصر الفتح الإسلامى لغة أهل الشمال على لغة أهل الجنوب الذين كان قد ذَوَى ما أزهر من حضارتهم حينا ولم يبق اليوم من لهجات الجنوب إلا بقية فى بعض الشواطئ والجزر لاتتصل عن كثب باللسان القديم المكتوب.

الشعر العربى قبل الإسلام[1]

«مقتطف من المحاضرة التى ألقاها الشيخ مصطفى عبد الرازق بجامعة الشعب»

يظهر أن الشعر ينمو ويزدهر قبل النثر، كما تدل عليه آثار الأمم القديمة من الهنود والفرس واليونان. وحاجة الإنسان إلى أن ينفس عما يجيش بنفسه من أنواع الشعور بتطريب ذى وزن ونغم أقدم من حاجته إلى الإعراب عما يجرى فى ذهنه من الخواطر. على أن رقى النثر يقتضى وفرة الثمرات العقلية وترقى المعارف الإنسانية وتنوعها، أما الشعر فيعتمد اللطف فى الإحساسات الباطنة، وتهيؤ الآذان إلى تقدير الصوت الموقع

(١) السفور - العدد ١٣٤ - السنة الثالثة الجمعة ١٤ دبسمبر ١٩١٧ ٢٩ صفر ١٣٣٦ هـ (ص ٣٨٠ ومابعدها من كتاب «آثار مصطفى عبد الرازق»).



النغمات. والشعر قد نما وازدهــر عند العــرب قبل الإسلام من قبل أن يخرج نثرهم مر أحضان الطفولة ، أما نشأة الشعر عندهم فقديمة جدا. ومبدأ الوزن الشعرى هو الحداء، وهو غناء القوافل. وفى طبـيعة البلاد العربيـة وطبيعة المعيـشة فيها لقـوافل رحل تسير مسافات طويلة على متون إبلها مـايستدعى ذلك الغناء منذ أمد بعيد. وقد رووا روايات عن سبب وضع الحـداء، قد تكون إلى الخـرافات أقرب مـنها إلى الحقـائق التاريخـية. ولكنها تدل على قدم هذا الغناء الذى كان أصل الوزن الشعرى ومنشأه. قالوا : إن أول من أخذ فى ترجيع الحـداء معد بن نزار بن معد بن عدنان. سقط عـن جمل فانكسرت يده فـحملوه، وهو يقـول: وايداه . وايداه. وكـان أحسن خـلق الله صوتا وجـسمًـا فأصغت إليه الإبل، وجدت فى السير، فجعلت العرب مثالا لقوله: معيدا معيدا يحدون فى الإبل. وزعم ناس من مـصر أن أول من حدا رجل منهم كـان فى إبله أيام الربيع، فأمر غـلاما له ببعض أمره فـاستبطأه فضـربه بالعصى، فصار يشتـد فى الإبل ويقول: يايداه. يايداه. فـقال له : الزم الزم ! فـاستـفتح الناس الحـداء من ذلك. إلى روايات لاتخرج عن هذا المعنى.

أقول : إنى فـلاح من الوجه البحرى. وفـى شهرى برمودة وبشنس (أوان حـصاد الزراعات الشتوية) (الفول والشعير والقمح والبرسيم. .) - كانت الجمال هى التى تحمل الحصـاد أو (الحصيـد) من الحقـول إلى الأجران حيث الدراس (ومن أمـثلتنا العامـية - «برمودة» - دق «العمـودة» أى العامود و«بشنس الدَّرَّاس» - كانت الجمال - كـما سبق القول - هى التى تحـمل الحصـيد إلى الأجران، وكـان ذلك يكون فى العادة ليـلاً حتى لاتتقصف السنابل وتذهب سدى على طول الطريق، وحتى لاتنام الجمال كنا نعلق قرب أذنها ناقوسا صغيراً (كمـا كان الجمَّال أو الأبال «يحدو»)، ربما لكى يشجع الجمال على حثّ الخطى، وربما، تعبيـرًا عن مشاعـر السعادة التى تجـيش بها عواطفه. (لقـد كانت مواسم الحصاد - غالبا - هى مواسم الحب والزواج. ومن هنا أرعم أن الحداء[1] قديم.

وأعود إلى شيـخنا الفاضل ومحاضـرته (ص ٣٨١) قال: وجد الشعـر العربى منذ ذلك العهـد. وكان فى أول أمره «رجـزا» قصير البـحور. وقطعا قـصيرة لاتبلغ عـشرة أبيات. وإنما طُوِّل الشعـر وجُعل قصائد على عهد هاشم بن عـبد مناف، وكان أول من قصده امرؤ القيس، وقيل المهلهل بن ربيـعة أخو كليب، وهو خال امرئ القيس، وذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى.

---

(١) وفى المعجم الوسيط . حدَا الإبل، وبها، يَحْدو حُداءً = ساقها وحثها على السير بالحُداء.



لاتملك أيدينا شيئًا من الأغانى التى كان يرتجلها الأعراب حينما يصادفون عين ماء، أو حينمـا يحرزون نصرًا. ونقل سـوزويبين وهو مؤلف يونانى كتب فى القـرن الخامس تاريخا للكنيسة أنه فى سنة ٣٧٣ ميلادية غلبت ملكة عربية اسمها أمانيا أو ماويا جيوش الرومانيين فى فلسطين وفـينيقية فبـقى تذكار ذلك النصر فى الأغانى العـربية. ولو نقل شىء من ذلك الشعر لكان مثالا لأقدم شعر عربى؛ لأن مايذكرونه من الشعر معزوا إلى معاصرى سليمـان بن داود، ومعاصرى التبابعة مصنوع من غـير شك وأقدم ماعندنا من الشعر العربى الذى يصح الاعتـماد عليه والثقة به على ما للنقاد فيـه من مقال هو شعر القرن الســادس الميلادى وهو القرن الذى تحـددت فيه صورة القـصيدة العربيـة ووجدت المعلقات السبع.

الأدب العربى قبل الإسلام[1]

«مقتطف من محاضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق»

لم يكن فى جـزيرة العـرب فى القـرن السـادس المسـيحى دولة حـفظت قـوتهـا واستقـلالها بحيث تكون ذات نفوذ فى البـلاد العربية يساوى نفـوذ أثينا فى اليونان، أو روما عند الرومان.

ولما كانت القبـائل العربية لاتخضع لسلطان فـوقها فقد صـارت إلى حرية مضطربة لايجد فـيها الرجل القوى شـاغلاً إلا مسائل الشـرف يحلها ويربطها بحـد سنانه وحد لسانه. وبلغ أمر شـدتهم فى مسائل الضيافة مـبلغا عنيفا. وكان الشعراء مـتصلين بهذه الحياة الحربية، ضاربين بسـهم فيها. وشعر العرب الحماسى من خـير أشعارها وأكثرها. ومن أمثلته قول عنترة فى معلقته:

أثنى عـلى بما علـمت فـإنـنى ... سـمح مـخـالقـتى إذا لم أُظلم

فـإذا ظُلمتُ فـإن ظـلمى باسل ... مـر مــذاقـتــه كطعم الـعلقم

وقوله:

ومـدجج كـسـره الـكمـاة نزاله ... لاممعن هـربا ولامـسـتـسلم

جـادت يـداى له بعـاجـل طعنة ... بمثـقف صـدق الكعـوب مقـوم

فـتنـككت بالرمح الأحَمِّ ثـيـابه ... ليس الكـريم على القنا بمحـرم

---

(١) السفور: العدد ٣٥ - السنة الثالثـة الخميس ٢ ديسمبر ١٩١٧ - ٦ ربيع الأول ١٣٣٦ (نفس المرجع ص ٣٨١ ومابعدها).

ولهم فى هذا الشعر الحماسى الذى تتجلى فيه ملكة الشجاعة البدوية عواطف لطيفة كما فى قول الحصين بن الحمام المرى:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أعقابنا تقطر الدِّما
نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ومن الشيم التى تغنى بمدحها الشعراء وفخروا بالاتصاف بها الكرم والضيافة، وخلقهم هذا مضرب المثل. وفى بلاد كبلاد العرب حيث لاتوجد فنادق بل لايوجد أمن للغرباء كانت الصلة بين الأمم والقبائل تتعذر لولا شيمة الضيافة، ومن شعراء الضيافة الشاعر الكريم حاتم الطائى، ومن أمثلة شعره يخاطب امرأته:

أيابنة عبد الله وابنة مالك ... ويابنة ذى البُردين والفرس الورد
إذا ماصنعت الزاد فالتمسى له ... أكيلاً فإنى لست آكله وحدى
أخًا طارقًا أو جار بيت فإننى ... أخاف إذا مت الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف مادام ثاويا ... ومافِىّ إلا تلك من شيمة العبد

وقد كان لعيشة البداوة عند العرب ومافيها من الحرية التى تجعل للمرأة فى الجماعة أثرًا ظاهرا، تأثير فى شعر العرب، خصوصا فى القرن الذى نحن بصدد الكلام عليه. وقلما نجد قصيدة من قصائدهم إلا فيها للنساء ذكر. وأكثر شعرائهم المجوِّدين ممن مسَّت نفحةٌ من الحب أساسهم الشعرى. وقد قالوا: إن أمير الشعراء امرأ القيس هو خير من جود فى وصف النساء، وتلطف فى النسيب، ومن أمثلة ذلك قوله فى معلقته :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

للمرأة فى تاريخ العرب الجاهلى شأن، فكم أثارت حربا ووضعت حربا!! ومن أجل عبلة كان يقتحم الهلاك عنترة بن شداد راجيا أن تحببه عندها مآثره. وقد ورد للنساء ذكر فى حكماء العرب كابنة الحسن، وخمعة بنت حابس الأيادى، وخدام بنت الريان. وفى أوفيائهم كفكيهة بنت قتادة، وأم جميل الدوسية، وفى الكرماء كعبدة الكلبية. وفى الكهان نظرنة الكاهنة وزيراء وسلمة الهمدانية. أما الشواعر من نساء العرب فكثيرات: منهن كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، وكنزة أم شملة وعاتكة بنت عبد المطلب، وفاطمة بنت الأحجم الخزاعية وصفية الباهلية ومية بنت ضرار والخنساء

أخت صخر.. ونذكر من أمثلة الشعر النسائى مايدل على العواطف التى كان يهيجها فى سكان بلاد العرب الجنس اللطيف، قالت كنزة أم شملة:

فإن يك ظنى صادقا وهو صادق ... بشملة يحبسهم بها محبسا أزلا
فيا شمل شمر واطلب القوم بالذى ... أصبت ولا تقبل قصاصا ولا عقلا

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل:

آليت لاتنفك عينى حزينة ... عليك ولاينفك جلدى أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكرَّ وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الموت أحمرا

الأدب العربى قبل الإسلام[1]

تتمة محاضرة الأستاذ مصطفى عبد الرازق

هذا، وقد خاض شعراء العرب فى معان غير ما ذكرنا من مسائل الحماسة والضيافة والغزل بحسب ما امتد إليه نظرهم فى تلك الفيافى القليلة العمران والفقيرة من مظاهر الحضارة: وصفوا الخيل فأحسنوا نعتها، وسابقهم إلى ذلك امرؤ القيس الذى يقول فى معلقته:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معًا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وخير وصَّاف للإبل طرفة فى معلقته، وأكثر القدماء يجيد وصفها لأنها مراكبهم، أما الخمر فمن أوصاف الأعشى قوله:

فى شباب يُسقون من ماء كرمٍ ... عاقدين البرود فوق العوالى
ذاك عيش شهدته ثم ولى ... كل عيش مصيره للزوال

ويدلنا على جملة ماكانت تدور عليه قصائد الشعراء عند العرب ماقالوا من أن قواعد الشعر أربعة الرغبة والرهبة والطرب والغضب. فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعقاب الموجع. ولشعراء العرب فى هذه الموضوعات

(١) السفور - العدد ١٣٦ - السنة الثالثة الخميس ١٩١٧/١٢/٢٧ - ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٦هـ.

سَبْحُ طويل[1]، وقد لاحظ صاحب المثل السائر أن الشعر العربى لايتسع لشرح أمور متعددة ذوات معان مختلفة مع الإجادة والتطويل. وإن وجدت العجم تفضل العرب فى هذه النكتة المشار إليها فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم، كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف، شاه نامة وهو ستون ألف بيت من الشعر، يشتمل على تاريخ الفرس، وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه، وهذا لايوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها. .
وقال الأستاذ هيار فى كتابه «تاريخ أدب اللغة العربية» أن الحظ العجيب الذى اختصت به الأجناس الأوربية وهو القدرة على التعبير عن الحوادث التاريخية أو الخيالية بقصائد طوال ملأى بصور عجيبة يكون الأبطال فيها من عالم علوى مفقود عند الشعوب الناطقة باللغات السامية، فإن نفسهم فى الشعر قصير. ومانستطيع أن نوافق الأستاذ الفرنسى فيما ينسبه إلى الناطقين باللغات السامية، وإن صح قوله فى شعر العرب. وإنا نقول مع الأستاذ هيار فى العرب وشعرهم: ومهما يكن من إبهام فى مظاهر أفكارهم، فإن شعرهم لم يكن دون غيره فيما أحدثه فى الإنسانية من الأثر الجليل.

وقد سمت بعض قرائح الشعراء الجاهليين إلى طرائف من الحكمة لاتزال خالدة على طول القدم نختم منها بقول زهير صاحب الحوليات فى معلقته:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على غيره يُستَغْنَ عنه ويذمم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لايظلم الناس يظلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده[2]	فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وبعد فأقول : إنى مانقلت هذه المحاضرة عن « الأدب العربى قبل الإسلام» إلا لأقدم للقارئ مثلا على أن صاحبها الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق لم يكن صاحب باعٍ طويل فى الأدب الوصفى (أدب المقالة) فحسْب، وإنما يملك هذه القدرات ذاتها حين يعالج «تاريخ الأدب والنقد».

وإذا كان هذا هو شأنه فى الأدب عامة (وصفا أو نقدا أو تأريخا» فهو هو الفقيه والفيلسوف الذى لا أرى له قرينًا فى عصره فى محاضرته المنشورة فى «الرسالة» والتى سبق ذكرها، وهى بعنوان «الشافعى واضع علم أصول الفقه».

(١) اقتباس من قوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل].
(٢) أقول : بنفس المعنى يقول المثل العربى : «المرء بأصغريه : قلبه ولسانه».

بند : ١٤

كان الشيخ مصطفى، متعدد المواهب، متعدد الاهتمامات، وكان يعيش بداخله (مَلاَكٌ) - هذا الملاك هو حبه للعلم، ولوجه الله!! كان يقوم بتدريس مادة «الفلسفة الإسلامية» - وكان عليه - بداهةً - أن يدرس رموزها، وعناصرها، ومصادرها، وعصورها، وأن يثبت استقلاليتها، ورسالتها، ونموها وتطوراتها. . إلى آخره. وقد بدأ حمل هذه الأمانة عام ١٩٢٧. لقد كان من شأن بحوثه فى الفلسفة الإسلامية أن تحبسه عما عداها. ولكنى أرى بين يدى الآن دراسة ممتعة له عن «البهاء زهير» طبعتها الأولى مؤرخة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠م.

وأعود إلى نفسى، وإلى المواد التى كانت مقررة علينا فى شهادة التوجيهية (الفلسفة والمنطق وعلم النفس، ومواد التاريخ والجغرافيا، والآداب وتاريخها، فضلا عن اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية)، لقد أحببت هذه المواد جميعها، وعاهدت نفسى على ألا أقطع صلتى بها. ولكن الذى حدث، وقد التحقت بكلية الحقوق وأحببت كل مايدرس فيها، استغرقتنى الكلية، وحبستنى عما عداها. وإنى أزعم أنى أحب العلم، ولكن كيف السبيل، وقد حبسنى حب عن حب؟!

وأعود إلى شيخنا وإلى دراسته عن البهاء زهير. وعن «مصريته» الناطقة بأحلى صوت وأعذبه فى كل شعره. ومنذ الثلاثينات كنت أحفظ له هذه الأبيات :

سقى واديا بين العريش وبرقة	من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى	هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى جئتها جئت جنةً	لعينك منها كلما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها	وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تُراكم عَلِمتُمُ	بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
ومافى فؤادى موضع لسواكم	ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا	فتهدأ أحشاء وترفأ أجفان
علىَّ بِذَاكَ اليوم صومٌ نذرته	وعندى على رأى التصوف شكران

أقول : إن الشعر لايكون شعرا (لا مجرد نظم) - إلا إذا كان صادرًا عن شعور ومشاعر مثارة، وكذلك لايكون إلا إذا كان منبثقًا عن تجربة ومعاناة: (كالحب والحنين والشوق والحزن، وكل مايثير القلب ويهزه). وشعر البهاء زهير، وكما هو ناطق فى القصيدة السابقة (ومثلها كما جاء فى كتاب شيخنا عنه) - وبالمعايير السابق ذكرها -

شعر جميل ومثير لأنبل العواطف، وهو هنا عن حب المكان والأوطان، (عن حب مصر؛ مصر العزيزة الجميلة، فى عيون وقلوب أهاليها وساكنيها). هذا عن «المضمون» (إذا صح هذا التعبير)، عن البيان والخيال، والصور، التى سما بها، وإليها الشاعر، وطرب بها، وسما إليها القارئ. وهذا لايكون إلا من فن أصيل، أما عن الصياغة فهى من «السهل الممتنع» و(البساطة المعجزة). إن البهاء زهير من الشعراء الذين تصعب مباراتهم!!

وأعود إلى شيخنا الفاضل، والرقيق القلب والمشاعر - أعود إليه فى مقدمة الكتاب، إذ قال : عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبى أقرأ على والدى - يرحمه الله - شيئًا من كتب الأدب فى بعض الليالى، .وقد أحببت شعر البهاء زهير مذ عرفته. كان يتأتى لعقلى الناشئ أن يستشف معانيه من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر. وكان موقع وزنه الموسيقى ونغمه تستثير فى نفسى أريحية وطربا، حتى لتأثر بذلك ذوقى، فهو يهفو فى البيان إلى نوع من الأنغام والوزن. والبهاء زهير مثل من مثل الخلق العظيم. يجمع إلى حب الخير قوة الشخصية. . وهى صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة. . وفى قوص[1] تعارف البهاء زهير وابن مطروح الشاعر الذى ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ هـ، وقد أقاما بقوص زمنا.

وقد بلغ البهاء زهير رتبة الرئاسة لديوان الإنشاء، وهى تزاحم رتبة الوزارة. ولما تنكر له الملك الصالح أيوب فى أواخر أيامه وعزله، أبى له شممه إلا أن يلزم داره فقيرا معدما حتى مات.

وإذا كان البهاء زهير عظيما فى خلقه، فهو أيضا عظيم بمقامه فى تاريخ الأدب العربى. يقول شيخنا (ص ز من المقدمة) - وقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير فى ديوان الإنشاء. فلم نعثر له إلا على رسالته فى الردّ على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب. . ويقول شيخنا: لست أعرف شاعرًا نفخت مصر فيه من روحها مانفخت فى البهاء زهير، فهو مصرى فى عواطفه، وفى ذوقه، وفى لهجته إلى الغاية القصوى، وإن كان مولده فى بلاد الحجاز. من أجل ذلك كله وضعت هذا البحث فى البهاء زهير الشاعر المصرى إحياءً لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تذكاره. . مصر فى مارس سنة ١٩٣٠ - مصطفى عبدالرازق (توقيع).

---

(١) كانت قوص وقتئذ أعظم مدن الصعيد (ص ٤)



وفى ص ١ (بعد المقدمة) يقول شيخنا: البهاء زهير هو أبو الفضل زهير بن محمدبن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلَّبى العتكى الأزدى الملقب بهاء الدين المعروف بالبهاء زهير. والمهلبى نسبة إلى المهلب بن أبى صفرة الذى كان من أشجع الناس، وكان سيدًا لأهل العراق، توفى عام ٨٢ من الهجرة، وكان قد قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بمكة. وخلف المهلب عدة أولاد نجباء، أجوادًا أمجادًا، وتسلسل المجد فى ذريته زمنا طويلاً.

وإذا كان البهاء زهير قد ولد بمكة (فى رواية) - أو بوادى نخله (قرب مكة) فى رواية أخرى، فإنه مصرى المنشأ، مصرى العاطفة، مصرى الروح، وهو القائل: (ص ٢)

فرعى الله عهد مصر وحيّا	ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه	مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيـ	ـل ودعنى من دجلة والفرات
وليالى بالجزيرة والجيـ	ـزة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطَّوَاويـ	ـس، وجوٍّ حكى بطون البزاة
حيث مجرى الخليج كالحية الرقطـ	ـاء بين الرياض والجنات

إلى آخره..

ومن كان هذا هُتافه بحب مصر فهو مصرى، وإن كان مسقط رأسه بلاد الحجاز، بإجماع من ترجموا له.

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ - ٢٧ فبراير سنة ١١٨٦م، وتوفى قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من سنة ٦٥٦ هـ (٢/ ١١/ ١٢٥٨م) - ودفن فى الغد بتربته بالقرافة الصغيرة، غير بعيد من قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه فى جهتها القبلية.

سبق أن ذكرت أن مسقط رأس البهاء زهير كان بالحجاز. وإننا نجد فى شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز، وهذا يشير إلى أنه حين هاجرت أسرته إلى مصر لم يكن طفلا، وإنما فتىً واعيا.



يقول فى أولى القصيدتين :

أحن إلى عهد المحصب من منًى ... وعيش به كانت ترف ظلاله
وياحبذا أمواهه ونسيمه ... وياحبذا حصباؤه ورماله
ويا أسفى إذ شط عنى مزاره ... وياحزنى إذ غاب عنى غزاله
وكم لى بين المروتين لبانة ... وبدر تمام قد حوته حجاله
مقيم بقلبى حيث كنت حديثه ... وباد لعينى حيث سرت خياله
وياصاحبى بالخيف كن لى مسعدا ... إذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه ... بحيث القنا يهتز منه طواله
هناك ترى بيتا لزينب مشرقًا ... إذا جئت لايخفى عليك جلاله
فعرض بذكرى حيث تسمع زينبٌ ... وقل ليس يخلو ساعة عنك باله
عساها إذا مرّ ذكرى بسمعها ... تقول: فلان عندكم كيف حاله

والقصيدة الثانية هى :

سقى الله أرضا لست أنسى عهودها ... وياطول شوقى نحوها وحنينى
وأيامنا بين المقام وزمزم ... وإخواننا من وافد وقطين
إذ العيش تَضْرُفيه للعين منظرٌ ... وإذ وجهه غضٌ بغير غضون

وقال المؤرخون : وانتقل البهاء زهير من قوص - بعد أن ربِّى فيها، وقرأ الأدب وسمع الحديث، وبرع فى النظم والنثر والترسل، ووصل إلى القاهرة، فاتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبى الفتح نجم الدين أيوب فى حياة أبيه الكامل أيام أن كان نائبًا عنه.

ويقول شيخنا - له الرحمة والرضوان - ويظهر أن البهاء زهير كان اتصل قبل ذلك بخدمة الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللَّمَطىّ الذى هنأه شاعرنا سنة ٦٠٧ هـ لتوليه أعمال القوصية بقصيدة هى أول مديحه - كما جاء فى طبعة بالمر - مطلعها:

تمليته يالابس العز ملبسًا ... وهنأته ياغارس الجود مغرسًا

ومنها :

به أصبحت قوصٌ إذا هى فاخرت ... أعزّ قبيلٍ فى الأنام وأنفسا
عسى نظرة من حسن رأيك صدفةً ... تسوق إلى جدبى بها الماء والكلا

فها أنذا أشكو الزمـــان وصرفـــــه وتأنف لى عليـــــاك أن أتبذلا
وهل كنت إلا السيف خالطه الصدى[1] فكنـت لـه ياذا المواهب صيقلا

(ومابعدها)

وفى الصفـحة ١٩ نقرأ: إن البـهاء زهير وإن لم يكن وزيرا فـقد كانت رتبـته فى رئاسة ديوان الإنشاء تقاسم الوزارة جاهها ومجدها فى عهد الأيوبيين، ومع هذه المكانة، فإنه انكشف حاله حـتى باع موجوده وكتبـه، وأقام فى بيته بالقـاهرة حتى أدركه أجله. وأجمع المتـرجمون لـه على أنه كان ذا مروءة ولطف ومكارم أخـلاق. والقارئ لشـعره يحس بما فى نفس الشاعـر من رقة وحسن ذوق وبعـد عن الشر والأذى. ومما يدل على لطف روحه أنه قلما يهجر بغير الوصف بالثقل يقول:

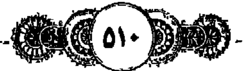
وثقـــيل كـــأنـــسـمـــا ملـك الموت قــــربـــه
لـيس فـى النـاس كـلهـم من تـراه يحـــــبـــــه
لو ذكـرت اسمـه على المـ ــــاء لما سـاغ شـــــربه
ويقـــول : وجلـيس ليـس فـيـــه قط مـــثل النـاس حس
ومنهـــا : إن يومـــا فـــيـــه ألقـــا ه لهــــــو يـــوم نـحس

ويقول شيخنا له الرحمة والرضوان: (ص ٢٠ ومابعدها)، وإذ قد وصلنا إلى شعر البهاء زهير فقد وصلناً إلى الجانب المهم من بحـثنا. فإن البهاء زهير الشاعر المصرى هو مدار حديثنا لا البـهاء زهير من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء فى عـهد الملك الصالح نجم الدين أيوب.

لقد كان الشعر العربى قد جمد فى صوره وأساليبه وموضوعاته فى القرون الأخيرة من العصر العباسى بتحكم الأعاجم فى شئون الدولة.. ثم انتعش الشعر فى وادى النيل مدة الفاطمـيين (٣٥٨ - ٥٧٦) وفى عهد الأيوبيين القصـير راجت فنون العلم والأدب وازدهرت المدنية.

قال هيـار فى كتابه الأدب العـربى: إن شعر البـهاء زهير المهلبـى.. يجعلنا ندرك مابلغه اللسان العربى من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف. وفى ترجمة ابن خلكان للبهاء زهير مايدل على أن شعر البهاء زهير كان مجموعًا فى حياته، متـداولاً بين الناس. وقد طبع ديوان البـهاء زهير منذ عـهد قديم بمصـر، وأعيد طبـعه مرارًا، وطبع فى بيـروت وغيرها. وطبع فى كـمبردج سنة ١٨٧٦م. وللديوان ترجـمة

(١) هكذا فى الأصل. وأراها : الصدا (تخفيف الصدأ).



بالإنجليزية منظومةً شعرا (ص ٢٣) كما طبع فى باريس سنة ١٨٨٣. وشعر البهاء زهير كما أنه مرآة صادقة لعصره بما فيه من فيض الطبع والبعد عن التكلف، هو - أيضا - مرآة لعصره من حيث اللغة والتعبير. والروح المصرى يتجلى فى هذا الشاعر القوصى الصعيدى بأكثر مما يتجلى في أى شاعر مصرى عرفناه فى القديم والحديث. (ص ٢٥).

ومن قصائده فى التشوق إلى الصعيد :

أحن إليكم كل يوم وليلةٍ	وأهذى بكم فى يقظتى ومنامى
فلا تنكروا طيب النسيم إذا سرىَ	إليكم فذاك الطيب فيه سلامى
فهل عائد منكم رسولى بفرحة	كفرحة حُبلى بُشِّرت بغلام
ويرتاح قلبى للصعيد وأهلهْ	وعيش مضى لى عندكم ومقام
وأهوى ورود النيل من أجل أنه	يمر على قومٍ لدى كرام

ومن نفحات المصرية فى شعره كثرة الحلف، فقلما تخلو قصيدة له من يمين؛ حتى ليقول:

ووالله ما فارقتكم من ملالة	ووالله ما أحتاج أنى أحلف
لعلكم قد صدكم عن زيارتي	مخافة أمواهِ لدمعى وأنواء
فلو صدق الحب الذى تدعونه	وأخلصتم فيه مَشيتم على الماء
وإن يك أنفاسى خشيتم لهيبها	وهالتكم نيران وجد بأحشائي
فكونوا رفاعيين فى الحب مرةً	وخوضوا لظى نار لشَوقى حَرّاء
حُرمت رضاكم إن رضيت بغيركم	أو اعتضت منكم في الجنان بحوراء

ومن الغزل المتعفف (ص ٢٨ و ٢٩):

وزائرة زارت وقد هجم الدجا	وكنت لميعاد لها مترقبا
فما راعنى إلا رخيم كلامها	تقول: حبيبى قلت أهلا ومرحبا
فقبلت أقداما لغيرى مامشت	ووجها مصونا عن سواى محجبا
ولم تر عينى ليلةً مثل ليلتى	فيا سهرى فيها لقد كنت طيبا
سأشكر كل الشكر إحسان محسن	تَحَيَّل حتى زارنى وتسببا
حبيب لأجلى قد تعنّى وزارنى	وماقيمتى حتى مشى وتعذبا

أقول : ومع تعدد الأغراض التى امتدت إلى كل أبواب الشعر، لم يتعدد المستوى فهو رفيع كريم دائما. وأنتقل إلى الصفحات الأخيرة من الكتاب لأنقل منها ماتيسر (ص ٨٦ ومابعدها):

قل الثقات فلا تركن إلى أحد فأسعد الناس من لايعرف الناسا
لم ألق لى صاحبا فى الله أصحبه وقد رأيت وقد جربت أجناسا

قصدتكم أرجو انتصارا على العدا حسبتكم ناسا فما كنتم ناسا
فلم تمنعوا جارا ولم تنفعوا أخًا ولم تدفعوا ضيمًا ولم ترفعوا راسا

ما أصعب الحاجة للناس فالغنم منهم راحة اليأس
لم يبق فى الناس سواس لمن يظهر شكواه ولا آسى
وبعد ذا مالك عنهم غِنى لابد للناس من الناس

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سُنَنٌ يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقيل بينهم وبغيض

وقائلة لما أردت وداعها حبيبى أحقًّا أنت بالبين فاجعى
فيارب لايصدقْ حديث سمعته لقد راع قلبى ماجرى فى مسامعى

وفى آخر القصيدة :

تسلم باليمنى علىَّ إشارة وتمسح باليسرى مجارى المدامع
ومابرحت تبكى وأبكى صبابةً إلى أن تركنا الأرض ذات نقائع
ستصبح تلك الأرض من عبراننا كثيرة خصب رائق النبت رائع

أيها النفس الشريفة إنما دنياك جِيْفَه
وعقول الناس فى رغـ ـبتهم فيها سخيفه

وفى آخرها :

أيها المسكين هب أنـ ـك فى الدنيا خليفه
هل يرد الموت سلطـ ـانك والدنيا الكثيفه

تعلمت خط الرمل لما هجرتم لعلى أرى شكلا يدل على الوصل
ورغبنى فيه بياض وحمرة عهدتهما فى وجنة سلبت عقلى
وقالوا طريقٌ قلت يارب للرضا وقالوا اجتماع قلتَ يارب للشمل
فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر فلا تنكروا أنى أخط على الرمل

ويرسم البهاء زهير سجاياه - كما فى قوله :

ياسائلى عما تجدد بى ... الحال لم تنقص ولم تزد
وكما علمت فإننى رجل ... أفنى ولا أشكو إلى أحد

ومن خلقى أنى ألوف وأنه ... يطول التفاتى للذين أفارق
يحرك وجدى فى الأراكة طائر ... ويبعث شجوى فى الدجنّه بارق
وأقسم مافارقت فى الأرض منزلا ... ويُذْكَرُ إلا والدموع سوابق
وعندى من الآداب فى البعد مؤْنسٌ ... أفارق أوطانى وليس يُفارق
ولى صبوة العشاق فى الشعر وحده ... وأما سواها فهى منِّى طالق

إذا قلت قولا كنت للقول فاعلا ... وكان حيائى كافلى وضمينى
تبشر عنى بالوفاء بشاشتى ... وينطق نور الصدق فوق جبينى

إلى كم مقامى فى بلاد معاشر ... تساوى بها آسادها وذئابها
وقلدتها الدرّ الثمين وإنه ... لعمرك شىء أنكرته رقابها
وماضاقت الدنيا على ذى مروءة ... ولا هو مسدود عليه رحابها

أغار على حرف يكون من اسمها ... إذا ما رأته العين فى خط كاتب

فكم فىً من مكارم خلق ... ولكم فىّ من حميد صفات
لست أرضى سوى الوفاء لذى الودِّ ... ولو كان فى الوفاء وفاتى
وألوفٌ فلو أفارق بؤسا ... لتوالت فى فقده حسراتى
طاهر اللفظ والشمائل والأخـ ... ـلاق عف الضمير واللحظات
ومع الصمت والوقار فإنى ... دَمِثُ الخلق طيب الخلوات

ومن خلقى المشهود مذ كنت أننى ... لغير حبيب قط أن أتذللا
وقد عشت دهرًا ماشكوت لحادث ... بلى! كنت أشكو الأغيد المتدللا

وختمها بقوله :

فما فاتنى حظى من اللهو والصِّبا ... ومافاتنى حظى من المجد والعُلا

ومن شعره (فى معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح].
وقولهم: «لكل كرب نهاية». وقولهم: «والليل المظلم يعقبه الفجر الباسم والنهار المشرق».

يقول :

أيـهـــــا الحـــــامـل هَمًّــا إن هـــــذا لا يـــــدوم
مـــــثل مـــا تنفنى المســرات كـــذا تفـنى الهـــمـــوم

ومن شعره (فى الأنفة والشموخ)

أحب من الأشياء ماكــان فائقا وما الدون إلا من يميـل إلى الدون

وفى نهايته :

وإن قيل لى هذا رخيص تركتـه ولا أرتضـــى إلا بكـــل ثمـين

وفى الصفحة الأخيرة من الكتاب (٩٤)

وفى كـتاب «النـجوم الزاهرة» فى ترجـمـة البهـاء زهيـر «وبرع فى النظم والنثـر والترسل». ولـه الشعر الرائق الـفائق، وكان رئيـسا فـاضلا، حـسن الأخلاق.. ومن شعره:

ولما جـــفـانى من أحب وخـــاننى حـفظت له الود الذى كان ضَـيَّعَـا
ولو شـئـت قـابلـت الصـدود بمثله ولكننى أبقـيت للصـلح موضـعـا
وقـد كـان مـاقـد كـان بيـنى وبينه أكـيـدا ولكنى رعـيـت ومـارعى
سـعـى بيننا الواشى فـفـرق بـيننا لك الذنب يامن خاننى لا لمن سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية على يد ولده صلاح الدين، إلى محمد بن الحكيم عماد الدين الديرينى، وهو آخر ماقاله :

مـــاقلت أنـت ولا ســـمـعت أنا هـذا حـــــديـث لايليـق بنـا
إن الكـرام إذا صـــحـــبـتـــهم سـتـروا القبـيح وأظهـروا الحـسنا

أرجو بمشيـئة الله - أن أتكلم مع الإخوة الأساتذة بقـسم الفلسفة الإسلامـية بكلية الآداب بجامعة القاهرة إعادة طبع مؤلفات الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر سابقا عليه الرحمة والرضوان - وآثاره ومنها هذا الكتاب عن البهاء زهير.

إلى الريف[1]

بنـــد ١٥،

أدركتنى سـآمة فـزعت منها إلى الريف أرجـو أن أجد بين مـروجه المنبـسطة راحةً لصدرٍ منقـبض. إننا نحن الفلاحين أبناء الفـلاحين نبتنا فى المزارع وحول جـداول المياه

(١) السـفـور - العـدد ٣٨ السـنة الأولى يوم الجـمـعـة ١٤ ربيـــع الثـانى ١٣٣٤ هـ - ١٨ فبـــراير سـنة ١٩١٦م.

نستنشق الهواء طليقـا لايحبسه شيء، ونستقبل الشمس سـافرة ليس من دونها حجاب. ونرى حيث سرنا أهلا وعشيرة، إذا مرض أحـدهم عدناه، وإذا مات شيعناه، وإذا مسه ضر مسنا، وإذا غضب نهـضنا معه غضابًا لا نسأله عمـا قال برهانا، نحن أسرة واحدة وإن فرقتنا المناصب وإخوة متعاطفون وإن ميز بيننا الفـقر والغنى، يحترم صغيرنا كبيرنا، ويعطف كبـيرنا على صـغيرنا. لاجـرم كانت عـيشة المدن تورثنا وحـشة وضـجرا، بما تخرجنا عما نفهم من مـعانى الحياة، وأكبر مانفهم من معانى الحيـاة: الحرية والعصبية. ولاجرم أنا نجد نشاطنا وراحتنا فى هذه القرى السـاذجة العامرة بقوم طيبة قلوبهم، خالية نفوسهم من شوائب التكلف المدنى. فى هذا الريف تحس بأنس العـائلة، وعز العشيرة، ونذوق حلاوة النشاط المثـمر، فى ظل الحرية الغالية. . أهل المدن موظفـون تحدد آمالهم وأعمـالهم دائرة ضيقـة، أما هذه الأرض البدوية فـأهلها يعيـشون فى سعـة من العمل والأمل.

أيتها الأرض المباركة، حيا الله رحابك الخصبة، فقد كانت أطيب مهد لعهد الطفولة عليه السـلام. وإن أكبر آمـالنا لهو أن نعـيش فيك إلى جانب قـومنا الفلاحين سـعداء بحريتنا، سعداء بأخلاقنا وعصبيتنا!!

أقول:

اخترت هذه القطعة الأدبية الرائعة، لما فيها من صور بلاغية مبهرة. فيها البيان وفيها المعانى. وفيـها المقابلات، فالصدور المنقـبضة أذهبت مابها المروج المنبـسطة، والحياة فى الريف حياة مع الطبيعة، مع الشمس نهارًا، ومع شروقها وغروبها وظلالها، ومع السماء ليلا، مع قـمرها ونجـومها، ومع الأرض الخـضراء، الأرض المنبسطة الـتى لايحدها إلا الأفق. ومع ذكريات الطفـولة والصبا والشباب، المراتع والملاعب، ومـع المشى لمسافات طويلة فيما بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس. مع الطبيعة وجها لوجه سنوات كانت ثم مضت، لكنها دائما تسكن القلب، وتعيش مع الخواطر، وإنهـا لتعتادنا فيما نرى فى نومنا. إنى أعـيش بالمعادى وسعـيد بموقعـنا، وحديقتنا وحـينا حيث أغـدو وأعود كل صباح، سيرًا على الأقدام.

وأعود إلى شيخنا الجليل: وأقف منه ناقدًا فى قوله : وإذا غضب أحدنا نهضنا معه غضابا لانسأله عما قال برهانا. وهذا قيل فى «أحدهم» فى عصر بعيد وكان إذا غضب، غضب معه آلاف من حملة السيوف لا يسألـونه لماذا غضب؟! وأما قوله: وأكبر مانفهم من معـانى الحياة الحـرية والعصبيـة، أما «الحرية» فنحن شـركاء فى الإشادة بهـا، وأما «العصبية» فمن مـعانيها بل خير معانيها فى كتب اللغـة: المحاماة والمدافعة عمن يلزمك أمره. أو تلزمه لغرض (المعجم الوسيط) - وهى حتى بهذا المعنى محل نظر؟!

يوم ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣١٩ هـ (*)
الشيخ قاسم

بنـــد ١٦٠

بعد كلمة الدكتور طه حسين عن صديقه مصطفى عبد الرازق، وبعد النبذة التى كتبها شقيقه الوفى الأستاذ على عنه (ص ٥ - ٧٧) نجد هذا العنوان «صفحات من سفر الحياة» عن هامش بص ٧٩: أن المرحوم الشيخ حسان عامر الفزارى شخصية خيالية محضة، وإن كان الكاتب يلقى عليها أحيانا بعض ظلال من شخصيته هو. نبدأ بالكلمة (أو المقالة الثانية) مما جاء تحت العنوان المذكور (ص ٨٢ ومابعدها):

قال لنا الشيخ المفتى[1] البارحة فى درس دلائل الإعجاز، وذكر صناعة الإنشاء وتهاون الأزهريين بها ما يأتى: «باطل مايقولون من أن ملكة البيان سهلة التحصيل، هينة الخطر، وأنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا، ويكتبوا فيجيدوا لا، وربك إنهم لأعجز شىء من أدنى مراتب البلاغة، وإن أدمغتهم لمحشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته، ولكنها خلو من ذوق البيان بعيدة عن فهم أسرار البلاغة. تلك علالات يخدعون بها أنفسًا ضعيفة، فلا تسمعوا لهم، واعلموا أن فن الإنشاء فن عزيز المنال، شريف الفائدة؛ قضيت فى تعلم الإنشاء خمسة عشر عاما، وما أظن أن ملكةً كانت تنضج فى أقل من هذا الزمن مع حسن الاستعداد، والأخذ بجد فى تحصيل الوسائل والإكثار من التمرين. اقرءوا كتب الأدب، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر وحركوا أفكاركم وخيالاتكم، وهزوا ألسنتكم وأقلامكم. إن أحدكم ليستطيع أن يجعل لكل يوم صحيفة يقيد فيها مايمر به من الخواطر والملاحظات مايسترعى نظره من الحوادث، أو يقص فيها ماعمله فى يومه. ولهذه الطريقة فوائد جمة؛ لأنها فوق نفعها فى تمرين ملكة الإنشاء، تحمل الإنسان على مراقبة نفسه، وتصفية حسابها فى نهاية كل يوم. هذه الكلمات التى سمعتها من الشيخ المفتى البارحة، هى التى تحملنى على أن أسرع منذ الآن فى كتابة صحف يومية أضمنها ماله شأن فى نفسى من حوادث اليوم

فرغ من نحو أسبوع ماكان عندى من عسل وجبن، ولم تصلنى الدراهم التى أنتظرها من والدى، فأنا أتبلغ بجرايتى التى أتناولها من وقف أوتوزبير طعاما من عسر أدم. جاشت إلى النفس أول مرة، وحسبت هذا العيش الخشن لايكفى لقوام بنيتى؛

(*) الجريدة - القاهرة - الخميس ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٣٢ ٧ مايو سنة ١٩١٤

(١) يريد بالشيخ المفتى المرحوم الشيخ محمد عبده، وبتلاميذه [illegible] ... الشيخ رشيد رضا صاحب المنار [illegible] الناشر

ولكننى ذكرت أن النبى صلى اللـه عليه وسلم كان يطوى الحجـر على بطنه من الجوع وأن مثل ابن الخطاب كان يكتـفى فى كثير من حياتـه وهو أمير المؤمنين رضى الله عنه، بخبز أغلظ من خبزى المصنوع من مخبـز الرمالى، فذلت نفسى لما وطنتها عليه، وردّت على مكروهها فـاستقـرت. وبينما أنا فى حجـرتى أصيل اليـوم، إذ دخل علىَّ الشيخ قاسم، وهو رجل أرتجى بركـة دعائه، واليمن بوجـهه وإن كنت لا أقبل شـهادته سلم فجلس فقال: جئت لأتعشى معك ياشـيخ حسان. قلت: مرحبا وأهلاً. ثم نهضت إلى كتبى فـاخترت منها سفـرًا لم تُذهب الأيدى رونق جدته. وكان هو «حاشـية الدسوقى على أم البراهين» وذهبت إلى دكان الحاج صالح. فابتعت رغـيفًا بمليمين وطحينية بأربعة وزيتونا بأربعة أخر. وقدمت الكتـاب رهنا حتى أملك أداء دينى. غضب الرجل وقال: هل صرنا خواجـات، ياشيخ حسان؟ وهل ذهبت الأمانة من دار الإسـلام، لاحاجة بى إلى رهن.

ولست أخاف منك المـطل عند القدرة، خذ إليك كـتابك، ودفعـنى بلطف. سرت إلى دارى متـأثرا بمروءة الحاج صـالح إلى حد جعلنى أكـفكف من دمعى حـياءً من أن يرانى الناس باكيا. تناولت العشاء مع ضـيفى الشيخ قاسم الذى انصرف بعد ذلك وهو يدعو لى بالستر. وأخـذت أرتب أمتعةً لى فعثرت فى جيب صـديرى لم أكن لبسته من زمن على قـرش صاغ - عرفت أن تلك كـرامة من الشـيخ قاسم وأسـرعت إلى الحاج صالح أروى له الحكاية وأفيه دينه».

باريس - مذكرات المرحوم الشيخ الفزارى.

حاشيـة: أثناء هذه الكلمة إشارة إلى الشـيخ قاسم الذى يتبرك به وإن كـان لايقبل شهادته، وفى الهامش - هذه إشارة إلى كلـمة مروية عن أبى أيوب، «من أصحابى من أرجو بركة دعائه، ولا أقبل شهادته». الناشر.

مذكـرات مسـافر

بنـــــد: ١٧

فى يونيـة ١٩٠٩ سافرت إلـى أوربا أول مرة[١] وكنت يومـئذ فتى لـم ير ماوراء القاهرة من جهة الشـمال، ولم نعرف البحر تجرى سفائنه فى مـوج كالجبال. لم أسكن فى غير دارنا، ولا عشت إلا بين أهلى ولانطقت إلا لغتهم، وكنت من السذاجة ورقة

(١) السياسة الخميس ٢٨ ذى الحجة ١٣٤٢ هـ - ٣١ يوليو ١٩٢٤م (نفس المرجع ص ٣٨٧)



القلب وفرط الحياء على ماكان عليه ناشئة الأزهر فى ذلك الزمن، كل هذه العوامل ملأتنى رهبة من السفر حين دنا موعده، فاضطربت أعصابى، وهاجت عواطفى.

دخلت إلى والدتى أودعها، وبى من التأثر ما لاطاقة لى بكتمانه. وكنت أقدر أنها ستبكى فتعطينى فرصة للبكاء تريحنى. لكن الشيخة القوية توسمت حالتى فلقيتنى باسمة تخفى قوة الإرادة وتجاعيد الكبر ماقد يساورها من ألم.

قالت: لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادى لجزعت يوم سافر أخوك البكر وهو طفل لايستغنى بنفسه، أما أنت فرجل نضجت مواهبه، وكملت تربيته. سافر على بركة الله وذمته ثم ضمتنى بصدرها وقبلتنى. هنالك استعنت بكل ما أملك من عزم، وكل مافى قلبى من حب وإجلال لهذه الأم البارة على كتمان عواطفى المتأججة، وقبلت يدها وانصرفت ساكنا مبتسما برغم ما أعانى من وجد واضطراب. وكان ذلك أول ماعلمنى كظم المواجد والابتسام عند الشدائد. وتوالت دروس بعد ذلك عودتنى أن أكتم العواطف وهى جائشة، وأن أرزن للخطوب وهى طائشة، على أن هذه الأشجان المكظومة تضيق بها ساحة الصدور أحيانا، فتلتمس هدأة من هدآت الحياة وتنفجر انفجارا.

فى آخر يونية الماضى لما تهيأت للسفر جاءت حاضنة بنيتى تحملها لأودعها عند مسيرى، والطفلة مرحة لعوب تضحك للزهر فى الحديقة، وللشمس فى السماء، وتضحك للحياة كلها لأنها تحسب الحياة كلها طفولة دائمة. جاءت طفلتى تودعنى فقبلتها وتحرك الركب للمسير فلم تعد تبسم، تلك المخلوقة البسامة، وجعلت تهتف بى فى مبغوم[1] ندائها. هنالك تبادرت إلى النفس ذكريات خمسة عشر عاما، فالتفت إلى وليدتى أيضا باسما ساكنا، وأسرعت بنا السيارة إلى المحطة. وبمناسبة الأطفال وابتسامهم لاحظت أن الأولاد عندنا حين يعرف الابتسام طريق شفاههم الغضة تكثر الأمهات والأقارب من إهاجتهم للضحك. وكلما رأيت الأطفال تستثار ابتساماتهم بغير حساب أدركتنى رقة لهم، وإشفاق عليهم، وخيل إلىَّ أن أطفالنا تستنفد ابتساماتهم فى المهاد، فلا يدَّخر منها لسائر العمر إلا قليل.

أما بورسعيد فقد وصلنا إليها ليلاً، وماهو إلا أن أشرفنا على القناة، وبدت أنوار المدينة من بعيد منثورة تسبح فى جنح الليل، يظهرها ويخفيها حتى تذكرت أننى جئت إلى بورسعيد أول مرة بالليل وتذكرت من كان معى. تمثلت لى المأساة الفاجعة. أظلم الأفق، واسودت نواحيه، وخشعت الأصوات، فلست تسمع إلا دويا قائلاً: أيتها السفينة أسرعى بنا من هذا الجو المسموم فقد كدنا نختنق.

---

(١) بغمت الظبية تبغم بغامًا = صوتت إلى ولدها بألين صوتها.



مذكــرات مســـــافر

٣ (١)

بنـــــــد ١٨:

يلقاك فى ليون صنفان من المصريين: أحدهما المرضى الذين يهرعون إلى تلك المدينة الفرنسية ليستشيروا أطباءها المشهورين، وأولئك تعرفهم بسيماهم؛ لأن فكرة المرض والتهمم بأقوال الأطباء المختلفة تجعل وجوههم الحديثة العهد بشمس مصر شاحبة، وعيونهم المسودة البراقة ساجية. كلما سمعوا بطبيب خفوا إليه سراعا، فمحافظهم مملوءة بتذاكر الأطباء، وحجراتهم مملوءة بزجاجات الدواء. مسيرهم إلى عيادة طبيب، أو معمل تحليل، أو محل صيدلى. ولايزالون فى هذا التردد حتى يسوقهم القدر إلى اختيار بلد من بلاد الحمامات للعلاج. تلك حال تجدها فاشية فى بلادنا، لايقنع المريض ولا أهله بطبيب واحد، ولاعلاج واحد. وكثيرا مايؤدى ذلك إلى التراخى فى التداوى، أو الخلط فيه، وكلاهما ضار. ولو أن لكل مريض منا طبيبا يعتاده فيعرف تكوين بنيته وموضع الضعف فيها، وما هو مستمد له من الأمراض، وتاريخ مايصيبه منها لسهل الاهتداء إلى الداء فى بدايته، والوصول إلى مداواته على الوجه الذى يوافق مزاج العليل. وتقرير من مثل هذا الطبيب ينفع أساتذة الطب الذين يُستشارون فى أوربا ويسدِّد أنظارهم. لكنا إذا لمنا مرضانا على مابهم من هلع يورثهم ضعف الثقة بالأطباء، فإنا لسنا أقل لوما لأطبائنا لأنهم - فى الغالب - لايعنون بأن يقيدوا أحوال مرضاهم، ويتعرفون كل نواحى بنيتهم، ومميزات مزاجهم. ينظرون نظرا محليا إلى موضع الألم، ومايشكو منه العليل. وإذا كان عذر مرضانا أنهم - فى الأكثر - ممعودون، فلعل عذر الأطباء أن زبائنهم كثير، ووقتهم قصير.

أما الصنف الثانى من المصريين فى ليون فهم الطلبة . أولئك إن أردت أن تلقاهم أُرشدت إلى قهوتين فى أحسن مواقع المدينة، واحدة للنهار وأخرى لليل. ومن الظلم أن تفهم أنك لاتجدهم فى غير القهوتين، فإنك تراهم فى أماكن أخر. وفى الجامعة أيضًا. ليس من السهل أن تتعرف أولئك الشبان من بين سائر الناس، فقد مسح عنهم طول المقام فى أوربا شعث وادى النيل، فابيضت وجوههم أو كادت، وسلست شعورهم ولانت، بعد أن كانت كشعورنا خشنة ومجعدة. وأربد شعور رءوسهم، أما لحاهم وشواربهم فمحلوقة، حتى لتحسبهم جميعا فى سن واحدة، اللهم إلا طالبا رأيته أرسل

(١) السياسة : الثلاثاء ١١ محرم ١٣٤٣ هـ - ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ (نفس المرجع ص ٣٩٢ ومابعدها).

شاربيه، وترك من لحيته مايقوم بالكفاية، ويسقط الحرج عن الباقين. صاحبنا من حملة الشهادة الأزهرية العالية، فلو حلق لحيته لنالته ألسنة الدينيين، وكُتب فى قائمة الملحدين. والقيامة قائمة فى أوربا على الشعور فقد أصبحت النساء تقصر شعورها كالرجال سواء بسواء، فلم يعد لتلك الوجوه الفِضِّيَّة إطار من ذهب، ولم تستطع أن تقول مع الشاعر :

فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

صار كل ما قيل من الشعر فى الشَّعْر الطويل أثرا من الآثار. ولابد من شعر جديد لهذه الشعور القصار. ليست السيدات هنا قصيرات الشعر وحده؛ ولكنهن قصيرات الأكمام. وقد استرعى نظر الكنيسة الكاثوليكية قصر الأكمام، وسعة الجيوب إلى حد يكشف الذراع والعضد ورأس الكتف، ويهتك ستر النحور والظهور، ويفشى سر الصدور. عَدَّت الكنيسة ذلك إخلالا بالحشمة الواجبة على المتدينات، وخصوصا إذا دخلن بيوت الله، وتعرضن لرسم من رسوم الدين. فأصدر بعض أساقفة فرنسا منشورا إلى من يتبعونه من القسس يأمرهم بأن يتخطوا عند منح البركات من تجيء إلى الكنيسة بهذه الثياب ثم يعظوهن بالحسنى. ومن الغريب أن بعض سيداتنا يسدلن النقاب على وجوه أذن الله أن تكشف، ثم يبدين ما حقه أن يستر من أبدانهن ومواضع زينتهن، وفى ذلك من المخالفة للدين والكمال، بمقدار مافيه من المنافرة لذوى الجمال. لكن ليس لرجالنا الدينيين سلطان على النساء، إذ ليس لديهم بركة يمنحونها، فهل عندهم موعظة حسنة يسدونها؟

من مقالات السفور
ديوان رامى[1]

بنسـد ١٩٠

صدق الأديب صادق أفندى عنبر إذ يقول فى رامى : «وإنك لتراه فتقرأ شعره فيه، وتقرأ له فتراه فى شعره» قرأت فى السفور قصائد الشاعر الشاب فتخيلت له قبل أن أشاهده، صورة طابقت الواقع لما التقينا، وكأنما تيار من شعره يتدافع فى ذلك القوام المنسرح النحيف، وكأن تلك البنية العصبية ليست إلا أوتاراً تهزها نبرات القريض هزاً سريعا، وفى صوت رامى همسة خلقت لترجيع ذلك[2] الشعر القصير البحور، الخفيف النغم. الشعراء فريقان، فريق تغتذى سليقته بما يحفظ من دواوين الشعراء الماضين،

---

(١) السفور - العدد ١٣١ - السنة الثالثة - الجمعة ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ - ١٦ محرم ١٣٣٦ هـ.

(٢) مضت عادة الكتاب بأن يجعلوا هذه الحاشية للكلام على الطبع وثمن الكتاب ومحل بيعه. وديوان رامى مطبوع فى مطبعة الواعظ بالقاهرة طبعة حسناء. ولما كنت لا أعرف مكان بيع الكتاب ولاثمنه فإننى أنصح للأدباء أن يطلبوه فى كل مكان، ويشتروه بأعلى الأثمان!! أقول: منشورة بص ٣٧٥ ومابعدها. كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق»

فيجود أسـلوبه، وتقوى مهارته الفنية، وتظهر نفـحة من الشبه بين شعره وشـعر القرون الخوالى، وقد يدمن من ليس فى طبعه شعر قراءة النظم وحفظ القصائد، ومعالجة الوزن فيكسبه ذلـك شيئًا من الصنعة، وفى الشعـراء من يتأثر إحساسه الشعـرى بعوامل الحياة التى تحيط به فيـكون ثمرة جيله، ويكون لحنه من القريض أنسب الألحـان بذوق قومه، وبما يجرى فى عصبهم الحساس من أنواع الشعور. ومن هؤلاء من يسمو إلهامه الشعرى إلى أكبر مما عند أمته من العـواطف من غير أن يجاوز منازع نهضتها، فهـو يسبق رقيها خطوات، ويكون فى سحره الشعرى من السلطان مـايقوى على اجتذاب ذوق قومه إلى توقيـعه الجديد الذى هو حـداء الأمل، أما رامى فـبلبل جيله الصداح يغنـى على توقيع عواطفنا الغرامـية المتحمسة القصـيرة، وينوح على نبض آلامنا الوجيعة الشريـفة بنغماته العذبة فى الغناء وفى النواح. كل شعر رامى - إلا قليلا - من الأبحر القصيرة التى تلذ رناتها لذوقنا العام، وتغلب على موشحات عصـرنا وأغانيه. وديوان رامى جميعه ديوان حب وألم. ولاغرو فهو لحن نهضتنا الشابة التى يحدوها فى سبيل الحياة الحب والألم.

ماذا أقـول عن هذا الذى كتـبه شيـخنا عن «رامى» ؟ إنها الكتـابة الجميـلة القوية الواضحة السهلة والتى لايكتبها إلا أديب كبير مـبدع متمرس. ولو كان شيخنا أديبا فقط لكفاه هذا ليكون بين الخالدين من كتاب مصـر والعرب والمسلمين. وأضيف : إن ماكتبه أستاذنا فى «السفور» كثير، كثير، وماكتبه فى «مجلة السفور» وغيرها أكثر وأكثر، وكلها درر، ودرر قليلة النظير[1] . وإذا كـان هذا شأنه فى «الأدب الوصـفى» فله فى الأدب النقدى، وتاريخ الأدب باع طويل، كما سنرى فى البند التالى.

عيـد السياسـة الأسبوعيـة
بدخولها عامها الثانى الجديد[2]

بنـد : ٢٠

السيـاسة الأسبـوعية وليـدة حاجة شعـرنا بها، نحن طلاب العلم والأدب، أكـبر شعـور. نشأت جرائدنا أول ما نشـأت أدبية، تتصل بهـا السياسـة اتصالا لايكاد يكون

(١) إن هذه الكلمات التى أكـتبها، إنما هى مجـرد إشارات . وكتاب «من آثار مصـطفى عبد الرازق» كتاب نفيس، وهو من خمـسمائة صفحة - وأوصى بإعادة طبعـه. هذا؛ وقد مر بنا ماقاله د. طه حسين : تقرأ للشيخ مصطفى أسمح كلام كتبه كاتب فى العصر الحديث.

(٢) فى الهامش: السياسة: الأحـد ١١ رمضان ١٣٤٥ هـ - ٢٠ مارس سنة ١٩٢٧. أقول : ١٩٢٧ هو نفس العام الذى عـرفت فيه السيـاسة الأسبوعـية - لكن بعد مارس بقليل، فـأول عدد عندى مـؤرخ ٢١ مايو ١٩٢٧م - وأضـف أن هذا المقال هو آخـر مـقال فى كـتاب «من آثار مـصطفى عبدالرازق - ص ٥٠٢ - ٥»

ثانويا؛ لأن شئوننا السياسية كانت محدودة؛ ولأننا كنا فى فجر نهضة أدبية تغلب كل نزعاتنا الأخرى. ثم نمت فينا العواطف السياسية ومظاهرها، وسبقتها الحوادث وفرعتها؛ فأصبحت الجرائد السياسية بلهجاتها وفنونها وظروفها أضيق من أن تتنفس فيها عقولنا وقلوبنا بعيدا عن السياسة ووجهات نظرها. وأذكر (والكلام للشيخ مصطفى) أنه فيما حوالى سنة ١٩١٤ دفع هذا الشعور جماعة منا إلى إنشاء جريدة السفور التى إن لم تكن تركت فى أفق الأدب المصرى إلا صدى متواضعا، فإنها كانت على أى حال فيض الشعور المتدفق فى قلب الطائفة المفكرة، ذلك الشعور الذى ظل يجيش بين الجوانح حتى وافته السياسة الأسبوعية بالمجال الرحيب. نشأت السياسة الأسبوعية نشأة طبيعية، وتولتها أيد قادرة، فكان طبيعيا أن ينصرها أهل العلم والأدب، وأن تصبح فى عام واحد ركنا من أركان حياتنا الفكرية، وأملاً من آمال حياتنا العلمية. وإذا كان حقا علينا أن نلهج بهذا النجاح حمدًا لله على توفيقه، وثناء على جهاد القائمين بأمر السياسة الأسبوعية، وتشجيعًا لعزائمهم، فإن من الحق علينا أيضا مالقيت السياسة الأسبوعية من كفاح خرجت منه ظافرة منصورة. أريد الكفاح فى مغالبة الجمود العقلى والجمود الدينى، فقد نهض للسياسة الأسبوعية أناس يقولون: إنها لسان إلحاد وبدعة ليضلوا من يستمع إليهم. وشر ماحارب به الجمود أهل النظر والفكر المستقل فى جميع الأزمان هو الرمى بالإلحاد . لكنْ الجماعة أسرفوا فلم يعد يسمع لهذا اللغو الذى يساقون إليه سوقا. فقد تنبهت العقول، وزالت غشاوة الغفلة عن بصائر الناس ففهموا أن الدين ليس غلا للقلوب. ولاقيدا للأفكار. ولكن الدين - كما يقول الشيخ محمد عبده: «قد كفل للإنسان أمرين عظيمين طالما حُرِم منهما، وهما: استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر، وبهما كملت إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها» ويسرنا أن نرى فى شباب المعاهد الدينية والمدارس حرصا على حرية التفكير واستقلاله لايزيده إلا احتراما للدين وفضائله. ومن أسمى فضائل الدين الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة والبعد عن التكفير والتفسيق ورفث القول، وخصوصا من مقام البحث والنظر. إن الذين يخدمون الحرية الفكرية هم خدام الحق وأنصاره فإن العقول المستعبدة لاتسمو إلى جلال الحقيقة وجمالها. وإن الذين يفكون العقول من أغلالها إنما يمهدون لها السبيل إلى الحق، والدين من أسمى الحقائق فى هذا الوجود. حى الله خدام حرية الفكر واستقلاله، وزادهم تثبتا وتوفيقا. وجزاهم عن الدين والعلم خيرا.

السياسة الأسبوعية (أيضا)

استأذن الإمام الأكبر الراحل، شيخ الأزهر الأسبق، وأحد شيوخي الأفاضل، والقليل النظير بين رجال الأزهر عامة، بما جمع بين الشموخ وسمو النفس وما إليهما من الفضائل من جهة، والدراسة الأصيلة والقاعدة المتينة بحصوله على «العالمية» (شهادة إتمام الدراسة الأزهرية)، بالإضافة إلى دراسته الفلسفة والأدب في باريس وليون. أستأذنه في هذا التعقيب فأقول[1] : يعتبر حزب الأحرار الدستوريين الذى قام فى بداية العشرينات[2] من هذا القرن، امتدادًا وربيبا لحزب الأمة. وتعتبر «السياسة» - لسان حال الحزب - امتدادًا لصحيفة «الجريدة» ورئيس تحرير «السياسة» الدكتور محمد حسين هيكل (باشا فيما بعد) يمت بقرابة قريبة جدا لأحمد لطفى السيد، ورجال حزب الأحرار، أو زعماء الحزب أو البارزون فيه، أو أسرهم، أو أكثر هذه الأسر أو بعضها هم أنفسهم أركان حزب الأمة. وكذلك كتاب السياسة، أو بعضهم، (ومنهم رئيس التحرير والأخوان الشيخان مصطفى وعلى عبد الرازق) هم أنفسهم شباب أو شباب كتاب الجريدة.

لقد حمل الشيخان فيما بعد رتبة الباشوية، ولا أظنهما كانا منهمكين فى السياسة كالدكتور هيكل[3] . لكن الحزب كان حريصا على تمثيل آل عبد الرازق فى تشكيلاته الوزارية. كانا عالمين جليلين وكاتبين قديرين. وكان الشيخ مصطفى بالذات مفكرا عظيما، وتخرج على يديه كثيرون من أساتذة الفلسفة الإسلامية حين كان أستاذا لها

---

(١) ما سيأتى بعد منقول من كتابى «محمد فريد وجدى» (طبعة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م - ص ٨٢ ومابعدها.

(٢) فى الموسوعة العربية الميسرة (مادة - محمد محمود) (١٨٧٧ - ١٩٤١) أنه أسس حزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢، وألف وزارته الأولى عام ١٩٢٨.

(٣) انغمس الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) رئيس تحرير السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية انغماسا فى السياسة. ولما رأس محمد محمود باشا الوزارة، وهو المعروف بصاحب اليد الحديدية انغمست السياسة الأسبوعية هى الأخرى فى السياسة الحزبية، وهو ماكانت تتحاشاه - عادة - قبل ذلك، وقد نشرت هذه الأخيرة فى عددها رقم ١٦١ المؤرخ ٦/ ٤/ ١٩٢٩ مقالا بعنوان «حبذا الاستبداد». (وهو بدون توقيع. وهذا يعنى أن الذى يتحمل المسئولية الكاملة عنه هو رئيس التحرير)، إن الحق أحق أن يتبع (انظر الآية ٢٥ يونس)، ومادام العمل لله فلا خوف من لومة لائم (انظر الآية ٥٤ - المائدة). لكن هناك كلمة وفاء سجلتها فى أكثر من مكان من كتابى «صفحات من اليوميات» (٢٩ و٤١ وغيرهما) - إشادةً بالسياسة الأسبوعية، وأعدادها من أعز ماتضمه مكتبتى. لقد كانت ذات تأثير بالغ فى مجرى حياتى، وتطوير طموحاتى. وكان ذلك فى وقت مبكر (حين كنت طالبا بالسنة الأولى بمدرسة المعلمين الأولية بطنطا، وفى صحن الجامع الأحمدى) وكنت فيما بين السادسة عشر والسابعة عشر من عمرى.

بالجامعة. (وفى نيتى بإذن الله أن يكون أحد الذين سأكتب عنهم ضمن رواد الفكر الإسلامى فى العصر الحديث) - ويرحم الله الجميع. وأعود وأقول: كان الوفد وكيل الأمة، وبرئاسة سعد زغلول، قائد ثورة ١٩١٩م. كانت ثورة شعب. كانت ثورة عارمة شاملة لم تعرف مصر مثلها من قبل ولا من بعد. وقد انشق على الوفد منشقون فى عهد سعد، وانشق عليه منشقون فى عهد مصطفى النحاس (خليفة سعد) وفى تواريخ متعاقبة. ولا أبرئ الإنجليز والقصر من أنهما كانا وراء هذه الانشقاقات. ولا أبرئ المنشقين أو أكثرهم، أو بعضهم من البواعث الشخصية، والأغراض الدنيوية. كان هناك دستور، هو دستور ١٩٢٣، وكانت هناك انتخابات بدءا من ١٩٢٤ كان انتصار الوفد فيها - إذا كانت حرة - كاسحا. لكن المنشقين، وعلى مدى عقود ثلاثة، ورغم أنهم كانوا أقلية ضئيلة، ليس لها برامج، فإنهم حكموا مصر معظم الوقت[1] . رغم الدستور، ودون برلمان حينا، وتحت ظل دستور رجعى وبرلمان مزيف حينا، ونتيجة انتخابات مزورة دائما. إن تاريخ مصر الحقيقى لم يكتب بعد. لكن أحدا لايستطيع أن يجادل فى أن الوفد بزعامة سعد ثم النحاس، هو الذى قاد النضال ضد المحتل لكى يرحل، وضد الامتيازات الأجنبية التى ألغيت فعلا، وضد استبداد القصر لكى يكون الحكم للشعب وبالشعب، ومن أجل الشعب، أما الآخرون فلم يكن لهم إلا دعاوى. إنهم لم يكونوا مهادنين للإنجليز والقصر فحسب، بل كانوا ممالئين ومداهنين أيضا. لقد كانوا - أو بعضهم - مجرد منفذين لأهداف الإنجليز والقصر، وهما العدوان اللدودان لكل إصلاح. ورغم قصر المدة التى حكم الوفد فيها، فإن القوانين التى غيرت مسار مصر الاجتماعى إلى الأفضل كانت من صنعه (وأهمها مجانية التعليم)[2] .

أشرت فيما تقدم - إلى الدكتور هيكل رئيس تحرير «السياسة» (اليومية والأسبوعية) وأشرت إلى لطفى السيد رئيس تحرير الجريدة، وهنا أقول، وأنقل عن كتابى «محمد فريد وجدى» (ص ٧١ ومابعدها) - يقول لطفى السيد فى كتابه «حياتى - ص ٣٧ ومابعدها» (بعنوان مصر والحرب التركية الإيطالية): أغارت إيطاليا على طرابلس - عاصمة ليبيا عام ١٩١١ فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ماكنت أدعو إليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ويجب أن تبقى على الحياد، أقول: أى حياد (يا أستاذ لطفى)؟! وأنت ترى أخاك فى العروبة والإسلام، بل (وأخاك فى الإنسانية) مُعْتدًى عليه؟! أى حياد هو وأنت ترى إيطاليا الصليبية تجيش الجيوش لاغتصاب أرض عربية إسلامية؟ ثم ماذا تقصد بمصر التى يجب أن تبقى على الحياد؟ إن مصر «الرسمية» التى

---

(١) حكم الوفد ربع هذه المدة.

(٢) انظر فى ذلك كتابى «فى إصلاح التعليم الأساسى».

كانت تحت الاحتلال الانجليزى وقتئـذ لم تقف على الحياد فحسب، بل إنها، وفى وقت لاحق، وبعـد أن احتلت إيطاليـا ليـبيا (التـراب الغالى على قلب كـل مصرى وعـربى ومسلم) - اقتطعت واحة جـغبوب وقدمتها هدية لإيطاليا!؟ أمـا شباب مصر[1] الواعى فقد ترك بعضه مقاعد الدراسة، وتطوع للوقوف إلى جانب إخوانه المسلمين لصد الهجمة الإيطالية الوحشية. وتقول «يا أستاذ لطفى»: إن موقفك قد أغضب بعض الناس، لكنك لم تلتـفت إلى غضبـهم، وأقول : إن الذين غـضبـوا لم يكونوا بعض الناس، بل كل الناس، كل الشعب الذى ثار ضدك[2] .

(١) أذكر أن من بين هؤلاء الشباب عبد الرحمن باشا عزام - أول أمين عام للجامعة العربية.

(٢) كان آل عبد الرازق، وكان حسن باشا عبد الرازق (والد الأستاذين الجليلين مصطفى وعلى) - كان أحد الذين يمثلون الاتجاه المعارض للحكومة فى مجلس شورى القوانين وقد نُكِّلَ بهم. وأكاد أقول إن حكام الاستبداد فى الربع الثانى من القرن العشرين كانوا حريصين على ضم مصطفى عبدالرازق وشقيقه على (أو أحدهما لتحسين صورة الحكومة أو الحكومات).

ملـــحق
طبقـــات الشافعيــــة
لأبى بكر بن هداية الله الحسينى
بـــــاب
فى ذكر الشافعى ومن كان فى عصره ومن كان فى المائة التى توفى فيها

هو محمد[1] بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع، بن السائب، بن عبيد، ابن عبد يـزيد، بن هاشم، بن عبد المطلب بن عبـد مناف، جدّ النبى ﷺ. وشافع بن السـائب هو الذى ينسـب إليـه الشـافعـى . لقى النبى ﷺ فى صـغـره، وأسلم أبوه السائب[2] يوم بدر، فإنه كان صاحب راية بنى هاشم، وكانت ولادة الشافعى بقرية من الشام يقال لها غزة[3]، قاله ابن خلكان، وابن عبد البـر. وقال صاحب التنقيب (بمنى) من مكة، وقال ابن بكار (بعسقلان)، وقـال الزوزنى (باليمن)، والأول أشهـر، وكان ذلك فى سنة خمـسين ومائة، وهى السنة التى مات فيـها الإمام أبو حنيفـة رحمه الله. ومنهم من قال أنه ولد فى يوم مـات فيه أبو حنيفة، قال البـيهقى: «والتقيـيد باليوم لم

---

(١) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنـة، وإليه نسبة الشافعية كـافة. ولد فى غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ. وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وأقبل على الأدب والعربية والشعـر فبرع فى ذلك، ثم أقبل على الفقـه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنـة. روى عن مالك بن أنس ومسلم بن خالد الزنجى وطبقتهما، وروى عن أحمد بن حنبل والحميدى ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم. زار بغداد مـرتين، الأولى ســـــنة ١٩٥ هـ، والثـانية سنة ١٩٨هـ. ثم قـصد مصـر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بهـا سنة ٢٠٤ هـ. قال ابن حنبل: «ما أحد ممن بيـده ورقة إلا وللشافعى فى رقـبته منّة»، وقال المبرد: «كـان الشافعى أشعر الناس وآدبهم وأعرفـهم بالفقه والقراءات». له تصانيف كـثيرة، أشهرها كتاب «الأم» فى الفقه، سبع مجلدات، و«المسند» فى الحديث، و«السنن»، و«الرسالة» فى أصول الفـقه، و«اختـلاف الحديث» وغـير ذلك . انظر «الإمام الشـافعى» لمصطفى عـبد الرازق، و«تاريخ الإمام الشافـعى» لحسين الرفاعى، و«الشافعى» لمحمـد أبى زهرة، و«غاية النهاية» ج٢ ص ٩٥، و«تاريخ بغـداد» ج٢ ص ٥٦، و«حلية الأولـياء» ج٩ ص ٦٣، و«تذكـرة الحفـاظ» ج١ ص ٣٢٩، و«تهذيب الأسـماء واللغات» ج١ ص ٤٤، و«طبقـات الحنابلة» ج١ ص ٢٨٠، و«شذرات الذهب» ج٢ ص ٩، و«ترتـيب المدارك» ج٢ ص ٣٨٢، و«الوافى بالـوفـيــات» ج٢ ص ١٧١، و«صفـة الصفوة» ج٢ ص ٩٥، و«البـداية والنهاية» ج١٠ ص ٢٥١، و«تاريخ الخـميس» ج٢ ص ٣٣٥.

(٢) أسر وفـدى نفسه ثم أسلم، فـقيل له لم لَمْ تـسلم قبل أن تفـدى نفسك؟ قال مـاكنـت لأحرم المؤمنين طمعًا لهم فى.

(٣) مدينة فى جنوبى فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط.



أجده إلا فى بعض الروايات، أما التـقييد بالسنة فهو مشـهور من بين أهل التواريخ» ثم حمل إلى مكة وهو ابـن سنتين، ونشأ بها وحـفظ القرآن[1] وهو ابن سـبع سنين، ثم سلمه أبوه للتفقه إلى مسلم بن خالد مفتى مكة فأذن له فى الإفتاء وهو ابن خمسة عشر سنة، فرحل إلى الإمام مـالك بن أنس بالمدينة فلازمه حتى توفى مـالك رحمه الله، ثم قدم بغداد سنة خمـسة وتسعين ومائة وأقام بها سنتين، فاجتـمع عليه علماؤها، وأخذوا عنه العلم ورجع كـثير من مـذاهبهم إلى قـوله، وصنف بها الكتب القـديمة وسـتعرف أسماءها[2] إن شاء الله تعـالى، ثم خرج إلى مكة حاجًا، ثم عاد إلى بغـداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرين أو أقل، فلما قتل الإمام موسى الكاظم[3] - رضى الله تعالى عنه - خـرج إلى مصر فلم يزل بهـا ناشرًا للعلم، وصنف بهـا الكتب الجديدة، فأصابته ضربة شديدة فمرض بسببها أيامًا فدخل عليه أحمد بن حنبل[4] والمزنى يعودانه قالا، كـيف أصبحت يـا أبا عبد الله، فـقال: يا إخوانى أصـبحت من الدنيـا راحلاً، ولإخوانى مفارقـا، ولكأس المنية شاربًا، ولسوء أعمالى مـلاقيًا، وعلى الله واردًا، فلا أدرى روحى تصير إلى الجنة، فأهنيها، أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى | جعلت الرجا منى لعفوك سلما[5]
تعاظمنى ذنبى فلما قرنتـــــــه | بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فبكى وبكى من حوله، فنظر إليهم وقال: الوداع الوداع يا أصحابى، الفراق الفراق يا أحبابى، ثم توجـه إلى القبلة، وتكلم بالشهادتين، وانتقل إلى رحـمة الله تعالى، إنا لله وإنا إليه راجـعون، اللهم ارفعـه إلى مرام همته وشـفعه فى زمـرته، كان ذلك يوم الجمعة سلخ رجب سنة أربع ومائتين. ودفن بالقرافة بعد العصر فى يومه.

(نقلا عن طبقات الشافعية، لأبى بكر الحسينى - تحقيق عادل نويهض).

* * *

---

(١) قال الإمـام الشافعى: «حـفظت القرآن وأنا ابن سـبع سنين، وقرأت الموطأ وأنا ابن عـشر سنين، وأقمت فى بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها، وحفظت القرآن فما علمت أنه مرّ بى حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد ماخلا حرفين أحدهما دسّاها».

(٢) ذكرها المؤلف فى نهاية هذا الكتاب.

(٣) الإمام موسى الكاظم توفى (وقـبل قتل) سنة ١٨٣ هـ، والإمام الشافـعى دخل مصر سنة ١٩٩ هـ، أى بعد وفاة الإمام موسى بـ ١٦ سنة.

(٤) الذى دخل على الإمام الشافعى فى علته هو المزنى، ولم يكن أحمد بن حنبل هنالك.

(٥) فى «الوافى بالوفيات» ج٢ ص ١٧٩ : جعلت رجائى نحو عفوك سُلما.

المحتويات

(٤)
الدكتور / عبد الوهاب عزام
أمة فى رجل

(٥)
الأستاذ المرحوم
محمد فؤاد عبد الباقى
والمثل الصالح فى خدمة الكتاب والسنة ٤١٣



(٦)
الشيخ
مصطفى عبد الرازق

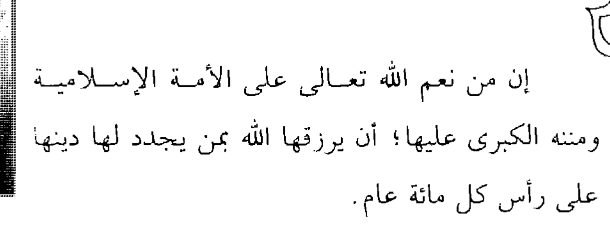
* * *

رقم الإيداع	٩٩/٥٠٠٩
I. S. B. N الترقيم الدولى	977- 10 -1226-6



الكتاب والكاتب





إن من نعم الله تعالى على الأمة الإسلامية ومنته الكبرى عليها؛ أن يرزقها الله بمن يجدد لها دينها على رأس كل مائة عام.

وإن الأمة الإسلامية قد سعدت بعلماء كانوا مصابيح هدى، وهداة سبيل قد نفضوا عنها غبارها وخاضوا فى كل نواحى الإصلاح: اجتماعى، وسياسى، ودينى.. فالإسلام دين الزمان والمكان.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا لَهُو النافذة المطلة على هؤلاء الرواد المصلحين الذين أفنوا حياتهم فى تبليغ رسالات الله إلى الناس... ولم لا! وهم ورثة الأنبياء... ولذا فقد توارثوا أيضا مشعل الإصلاح والتجديد على مر العصور؛ يهضمون ثقافات عدة ويخرجونها لنا نورا يضيء حياتنا وتوائم ديننا وأخلاقنا واستقلالنا الثقافى والاجتماعى.

فإذا أطللنا على هذه النافذة العظيمة.. اتصلنا بتراثنا ولم ننقطع عن حاضرنا.. وكانت معينا لنا على التأسِّى بهؤلاء الأعلام حتى لا يقف ركب الحضارة الإسلامية.

ولقد شاء الله تعالى لمؤلف هذا الكتاب أن يتصل بالتراث الإسلامى منذ صغره، فبدأه بحفظ القرآن الكريم فى سن الرابعة فى «كتاب القرية»، وتدرج فى التعليم إلى أن تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٤٥، ثم عمل عضوا فى النيابة الإدارية، وكان ممن كرمتهم الدولة فى عيد العلم عام ١٩٦٥ بعد حصوله على الدكتوراه، وبعدها عمل أستاذا بجامعة القاهرة، وليبيا، وأم درمان.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب وبغيره الأمة الإسلامية. وأن يهدينا سواء السبيل.

